

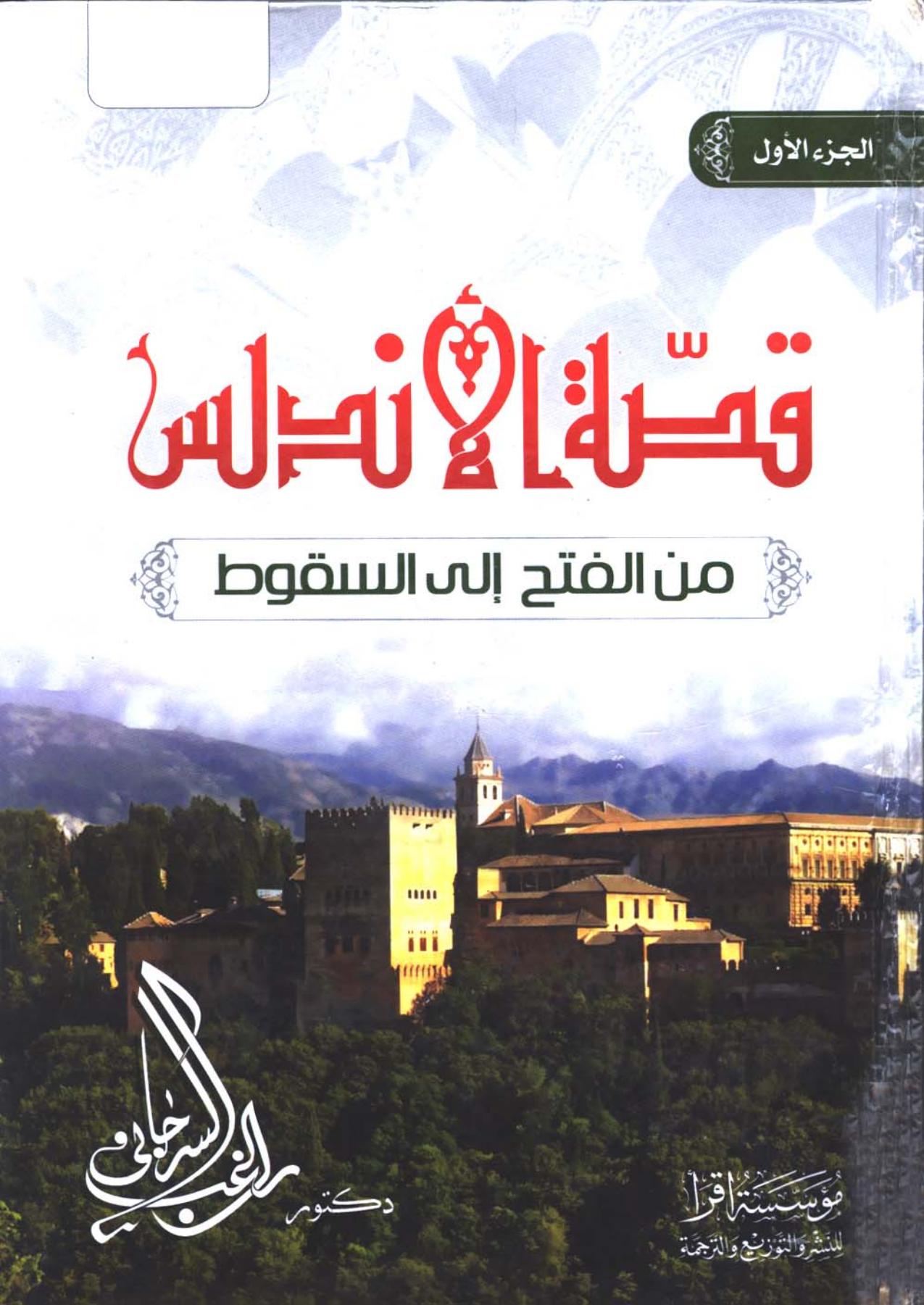
الجزء الأول

كتاب الأنس

من الفتح إلى السقوط

دكتور
الغريب خان

مؤسسة أقران
للنشر والتوزيع والترجمة





جميع الحقوق محفوظة

المطبعة الأولى

٢٠١١ هـ - ١٤٣٢ م

رقم الإيداع: ٢٤٨١٠ / ٢٠١٠

بطاقة الهرس

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

السرجاني، راغب.

قصة الأندلس / تأليف/راغب السرجاني

القاهرة : مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،
٢٠١٠ مسم تدمك: ٤٤١-٨٠٦-٩٧٧ - ٩٧٨-٤٤١ (٤٠٠ ص)

١ - الأندلس - تاريخ

٩٥٣،٠٧١

١. العنوان

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة أقرأ

لنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

ال القاهرة: ١٢٦٣٤٤٠٤٣ - ٠١٠٥٢٤٢٠٧ - ٥٣٢٦١٠

E-mail: iqraakotob@yahoo.com

www.Iqraakotob.net

المقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله..

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

لماذا نكتب في التاريخ؟

لأن هذا الكون وكل ما فيه يسير على سُنَّ ثابتة لا تتغير ولا تبدل، وأننا في حاجة لإدراك هذه القوانين؛ كي نتمكن من استعمال نِعَم الله الكثيرة التي خلقها بِهِ وسخرَها لنا في هذا الكون؛ بل لكي نستطيع أن نحيا الحياة الصحيحة باستيعابنا للتجارب السابقة التي جرت عليها سنن الله في كونه، ذلك أن هذه السنن لا تتغير ولا تبدل ولا تحوّل، قال بِهِ: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنْتَ اللَّهِ تَبَدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنْتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا [فاطر: ٤٣].

إنها قاعدة قررها الله بِهِ في كتابه، وجعلها -أيضاً- من سنته الثوابت، التي يمكن للجميع إدراكتها واستغلالها؛ ومن أبسط الأمثلة العملية على هذا: أننا نجد أن الماء يغلي عند درجة مائة مئوية، وسيظل يغلي عند هذه الدرجة إلى يوم القيمة، فمن رحمته بِهِ أن ثبتَ لنا هذا الأمر؛ إذ لو كان الماء يغلي اليوم عند درجة ثلاثة مثلاً -وقدماً عند درجة خمسين، وبعد غدٍ عند سبعين فلن تستقيم حياة الناس،

ولن تستقرّ أمورهم؛ لأن كل يوم مغاير لآخر، وكل شكلٍ فيه تبدل وتحول لم يعهد من قبل.

كذلك النار؛ تحرق وستظلّ تحرق إلى يوم القيمة..

صحيح أن ثمة استثناءات لا يبني عليها، فتلك النار التي من أهمّ خصائصها الإحراق لم تحرق إبراهيم عليه السلام، فهذا استثناء أو هي معجزة، والمؤمن الكيس لا يتضرر المعجزات ولا يبني على الاستثناءات، ولا يتخذها قواعـ، إنما يبني على القوانين التي يمكنه أن يدرك بنفسه أنها ثابتة؛ إن أحداً لا يمكنه أن يضع يده - مثلاً - في النار! ثم يقول: قد يحدث لي مثلما حدث لإبراهيم عليه السلام. فذلك غير جائز، ولا يصح أن يتفوه به أحدٌ؛ لأنه لا يتوافق مع سُنَنَ الله التي أفرَّها في كونه، وقُسْنَ على ذلك ما شئت؛ فالإنسان والحيوان بصفة عامةٍ لا يستطيع أن يعيش بدون طعام أو شراب، ولو امتنع أي إنسان عن الطعام والشراب فترة فماهـ - لا حالة - إلى الموت.

كذلك وبالمثل فإن الله تعالى سننا ثابتة في تغيير الأمم وتبدل أحواها؛ سواء كان هذا التبديل من الضعف إلى القوة، أو كان من القوة إلى الضعف، فبحسب الطريق الذي تسلكه كل أمة تكون خاتمتها، ونحن حينما نقرأ في التاريخ ونُقلّب في صفحاته نُشاهد سُنَنَ الله تعالى في التغيير والتبدل؛ فال التاريخ يُكَرِّر نفسه بصورة عجيبة، حتى والله! لَكَانَكَ وأنت تقرأ أحداً حدثت منذ ألف عامٍ أو يزيد - تشعر وكأنها الأحداث نفسها التي تتمُّ في هذا الزمن، مع اختلاف في الأسماء والتفاصيل فحسب.

فأنت حين تقرأ تاريخ الماضي فكأنك تقرأ أحداث المستقبل بتفاصيلها؛ ذلك أن أحداث المستقبل هذه لن تتم إلـ على هذه السنن الثابتة، التي جعلها الله في تبديل

الأمم وتغيير أحواها؛ فانظر في أي طريق تسير الآن لتعرف إلى أي مصير ستصل، والمؤمن العاقل هو الذي لا يبدأ من الصفر فيكِر كل ما فعل السابقون، وإنما يقف أمام تاريخهم فيسير على درب من أصاب فأفلح، ويبتعد عن طريق المخطئين الخاسرين.

وفي تاريخ الأندلس خير دليل على هذا؛ لذلك فنحن نحاول تحليل هذا التاريخ؛ نحاول أن نقلب صفحاتٍ ونُظْهِرَ أحداً قد علاها التراب أعواماً وأعواماً، نحاول أن نُظْهِرَ ما حاول الكثيرون أن يطمسوه، أو يُخْرِجُوهُ لنا في صورة باطلٍ وهو حُقْقُ، أو في صورة حَقٌّ وهو باطلٌ؛ فكثيرٌ يحاولون أن يُزُورُوا تاريخنا الإسلامي، وهي جريمة خطيرة جدًّا خطيرة، يجب أن يتصدى لها.

* * *

لماذا تاريخ الأندلس؟

لأن تاريخ الأندلس يشمل أكثر من ثمانمائة سنة كاملة من تاريخ الإسلام، وتحديداً من عام (١٤٩٢هـ = ١٤٩٢م) إلى (٨٩٧هـ = ١٥٩٧م)؛ أي ثمانمائة وخمس سنين (هجرياً)، هذا إذا أغفلنا التداعيات التي أعقبت ما بعد عام ٨٩٧هـ، فهي فترة ليست بالقليلة من تاريخ الإسلام؛ فمن غير المقبول إذاً ألاً يعرف المسلمون تفاصيل فترة شغلت في الزمن أكثر من ثلثي التاريخ الإسلامي، هذا أمر.

والأمر الآخر أن تاريخ الأندلس لطول فترته، مرّ فيه كثير من دورات التاريخ التي اكتملت ثم انتهت، فسنت الله في تاريخ الأندلس واضحة للعيان؛ فقد قام فيه كثير من الدول وارتفع نجمها، وسقط فيه -أيضاً- كثير من الدول وأفل نجمها، كثير من الدول أصبحت قوية؛ ومن ثمَّ راحت تفتح ما حولها من البلاد، وكثير منها أصبحت ضعيفة، وأصبحت لا تستطيع حماية أرضها، أو تعتمد على غيرها في

حياتها؛ مثلما يحدث الآن، وظهر -أيضاً- في تاريخ الأندلس المجاهد الشجاع، وظهر الخائف الجبان، ظهر التقى الورع، كما ظهر المخالف لشرع ربه حَمْدَهُ. ظهر في تاريخ الأندلس الأمين على نفسه وعلى دينه وعلى وطنه، وكذلك الخائن لنفسه ودينه ووطنه، ظهرت كل هذه النماذج، وتساوى فيها الجميع؛ حاكم ومحكوم، عالم وأمّي. وما من شك أن دراسة مثل هذه الأمور يُفيد كثيراً في استقراء المستقبل لل المسلمين.

ان في تاريخ الأندلس أحداثاً يجب أن نعرفها:

من الضروري أن نعرف موقعة وادي برباط؛ تلك الموقعة التي تُعدُّ من أهم المعارك في التاريخ الإسلامي، ليس لأنها الموقعة التي فُتحت فيها الأندلس فقط؛ ولكن لأنها تُشبه في التاريخ بموقعي اليرموك والقادسية، ومع ذلك فإن الكثير من المسلمين لا يسمع من الأساس عن وادي برباط.

ومن الضروري -أيضاً- أن نعلم هل قصة حرق السفن -التي يُقال: إنها حدثت في عهد طارق بن زياد حَمْدَهُ- حقيقة أم من نسج الخيال؟ كثير من الناس لا يعلمحقيقة وتفاصيل هذه القصة، وكيف حدثت، إن كانت قد حدثت؟ وإذا لم تكن حدثت في الأصل فلماذا انتشرت بين الناس؟!

ثم يجب أن نعرف مَنْ يكون عبد الرحمن الداخل حَمْدَهُ؛ ذلك الرجل الذي قال عنه المؤرخون: لو لا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام بالكلية من بلاد الأندلس. كما يجب أن نعرف مَنْ هو عبد الرحمن الناصر، أعظم ملوك أوروبا في القرون الوسطى على الإطلاق؛ ويجب أن نعرف كيف وصل إلى هذه الدرجة العالية؟ وكيف أصبح أكبر قوة في العالم في عصره؟

وكذلك يوسف بن تاشفين رحمه الله القائد الرباني، صاحب موقعة الزلاقة، يجب أن نعرفه ونعرف كيف نشأ؟ وكيف ربى الناس على حياة الجهاد؟ وكيف تمكّن من الأمور؟ بل وكيف ساد دولةً ما وصل المسلمون إلى أبعادها في كثير من فتراتهم؟ وأبو بكر بن عمر المتونى.. هذا المجاهد الذي دخل الإسلام على يده أكثر من خمس عشرة دولة إفريقية.

ومن المهم -أيضاً- أن نتعرّف على أبي يوسف يعقوب المنصور، صاحب موقعة الأرک الخالدة؛ تلك التي دُكّت فيها حصنون النصاري، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً.

كما يجب أن نعرف دولة المرابطين وكيف قامت؟ ودولة الموحدين وكيف قامت؟

ومن الضروري أن نعرف مسجد قُرطبة، ذلك المسجد الذي كان يُعدُّ أوسع مساجد العالم، وكيف حُول إلى كنيسة ما زالت قائمة إلى اليوم؟! وكذلك مسجد إشبيلية ينبغي أن نعرفه.

وينبغي أن نعرف جامعة قُرطبة والمكتبة الأموية، وقصر الزهراء ومدينة الزهراء..

ينبغي أن نعرف قصر الحمراء، وغيرها من الأماكن الخالدة التي أمست رسوماً وأطلالاً، وهي اليوم في عداد أفضل المناطق السياحية في إسبانيا، وتزار من عموم الناس؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

موقعة العِقَاب تلك التي مُنِيَ فيها المسلمون بهزيمة ساحقة، رغم تفوّقهم على عدوهم في العدد والعدّة، وكأنَّ موقعة حُنین عادت من غابر التاريخ؛ لتروي



أحداثها في موقعة العقاب، تلك الموقعة التي قال عنها المؤرخون: بعد موقعة العقاب لم يُرِ في الأندلس شابٌ صالحٌ للقتال.

كما يجب أن نعرف كيف سقطت الأندلس؟ وما عوامل السقوط؟ التي إن تكرّرت في أمّة من المسلمين سقطت، لا محالة بفعل سنن الله الثابتة.

ثم كيف وأين سطعت شمس الإسلام بعد سقوط الأندلس؟ كيف جاء غروب شمس الإسلام في الأندلس -في غرب أوروبا- متزامناً مع إشراها وسطوعها في القسطنطينية شرق أوروبا؟

كما يجب ألا ننسى مأساة بلنّيسية، وكيف قُتل ستون ألف مسلم في يوم واحد؟ وما أحداث مأساة أبُنَة؟ وكيف قُتل ستون ألف مسلم آخر في يوم واحد؟

ثم يجب أن نذكر دائمًا مأساة بَرْبُشَرَ، وكيف قُتل أربعون ألف مسلم في يوم واحد، وسبّيت سبعة آلاف فتاة بِكُرْ من فتيات بَرْبُشَرَ؟! وقد شاهدنا هذه الأحداث الغابرة تُعيد التحدُث عن نفسها في البوسنة والهرسك وغيرها من بلاد المسلمين.

لو عرفنا هذا كله، وعرفنا رد فعل المسلمين، وكيف قاموا من هذه المأسى المفزع، لعرفنا كيف ننهض الآن ونقوم.



نعلم أن كثيّراً من التساؤلات -بعد قراءة هذا الكتاب- ستظل في حاجة إلى إجابة.. إن اتساع مساحة الفترة التاريخية التي تناولها يجعل من العسير -إن لم يكن من المستحيل- أن تستوعب كل ما يمكن أن يُكتب فيها في مثل هذه المساحة المرصودة للكتاب؛ لذا فلقد حاولنا قدر الاستطاعة وفي حدود ما هو متاح أن نقدّم

«قصة الأندلس» كملامح عامة لهذه الفترة التاريخية الثرية، كي تكون في ثوبها المختصر ماثلة في الأذهان قريبة من أكبر عدد من شرائح القراء، ولا سيما الشباب الذين هم عدة الحاضر وبشارة المستقبل.

كما أن بعض الأسئلة ستظل بلا إجابة؛ لأن بعض فترات الأندلس تعاني من ندرة في المصادر، ذلك أنه - وحتى هذه اللحظة - ما زال الكثير من نفائس وذخائر التراث الإسلامي الأندلسي والمغربي في حكم المفقود؛ فإما هي كتب مفقودة بالكامل لا يُعرف إلى أين أخذتها يد الزمان، كما أن كثيراً من النفائس ما زالت في هيئتها المخطوطة، وتحتاج إلى أن تتدلي إليها أيدي العلماء والباحثين لتحقيقها وضبطها وإخراجها إلى عالم المطبوع؛ فيسهل انتشارها والاستفادة منها.

إلى جانب هذا، فإن المؤرخين - حين يكتبون - فإنما يكتبون الواقع وعليها ثوب من رؤيتهم وتحليلهم وتفسيرهم لها، ولا شك أن المؤرخ بشرٌ يناله النقص والخطأ وعدم الاستيعاب، ولئن كان تاريخنا الإسلامي قد تميز بوجود مؤرخين لا يترددون في أن يذكرو للشخصية العظيمة مثالبها، وأيضاً يذكرون للشخصية السيئة محاسنها، فإن هؤلاء المؤرخين - أيضاً - ما زالوا بشرًا. تُؤثِّر صياغتهم وموافقهم وميوتهم على التحليل والتفسير للواقع التاريخية.

لكتنا اجتهدنا ما وسعنا الجهد في التقريب والتفسير والترجيح بين ما تعارض من الروايات التاريخية، حماولين الوصول إلى ما نراه الحق، راجين أن يجبر الله عثراتنا، وأن يتقبل منا أعمالنا بقبول حسن.

إن قصة الأندلس قصة مؤلمة؛ ذلك أننا سنستعرض تاريخاً ومجداً زاهراً، ونحن نعلم أن هذا المجد قد انتهى وضاع، وصارت الأندلسُ الفردوسَ المفقود.. إلا أنه

لا مناص عن قراءة صفحات هذا المجد السليب، وهذا التاريخ الشري.. لنقرأ كيف تقام الأمجاد وكيف تضيع، فلئن كنا نسعى في نهضة أمتنا ورفعتها فلأن نسعى ونحن نعلم وندرك خبرة الماضي خير من أن نسعى ولا ماضي لنا ولا خبرة.

إن تاريخ الأندلس بصفحاته الطويلة - أكثر من ثمانمائة عام - يُعد ثروة حقيقة.. ثروة ضخمة جدًا من العلم والخبرة والعبرة، ومن المستحيل في هذه الدراسة أن تُلِمَّ بكل أحداثه وتفاصيله، بل لا بد وأن نُغفل منه بعض الجوانب؛ ليس تقليلاً من شأنها وإنما اختصاراً للمساحة.

ومن الواجب على الجميع أن يبحث في تاريخ الأندلس - تاريخ ثمانمائة عام - إذ هو يحتاج أكثر وأكثر مما أفردنا له.

* * *





الفصل الأول

الأندلس.. طبيعة المكان



بلاد الأندلس هي اليوم دلتا إسبانيا والبرتغال، أو ما يُسمى: شبه الجزيرة الأيبيرية، ومساحتها (مجموع الدولتين) ستةائة ألف كيلو متر تقريرًا؛ أي: أقل من ثلثي مساحة مصر.

ويفصل شبه الجزيرة الأندلسية عن المغرب مضيق أصيق يُعرف منذ الفتح الإسلامي بمضيق جبل طارق، (ويسميه الكُتاب والمؤرخون العرب باسم درب الزقاق)، وهو بعرض ٨,١٢ كم بين سبتة وجبل طارق.

جغرافية الأرض:

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية في الجنوب الغربي من أوروبا، على مثلث من الأرض، يضيق كلما اتجهنا نحو الشرق، ويَتَسَعُ كلما اتجهنا إلى الغرب، وتتصل في الشمال بفرنسا (بلاد الفرنجة) بواسطة سلسلة جبلية تُعرف بجبال البرينيه (جبال البرتات)، وباستثناء تلك الناحية فإن المياه تحيط بها من كل جانب؛ مما جعل العرب يطلقون عليها «جزيرة الأندلس» على سبيل التجوز؛ فالبحر المتوسط يحيط بها من الشرق والجنوب الشرقي، ويحيط المحيط الأطلنطي بها من الجنوب الغربي والغرب والشمال.

فجبال البرينيه هي الفاصل البري الوحيد الذي يربط شبه الجزيرة مع أوروبا، فتلتقى في الشمال مع المحيط الأطلنطي، وفي الجنوب مع البحر المتوسط.

**مملكة الاردن
(الرمت)**

طريق العمان

الدواء

الحسن

الدواء

رسالة

الحسن

الحسن

رسالة

الحسن

رسالة

رسالة

رسالة

الحسن

رسالة

خربيطة رقم (١) طبعة ارص الاندلس

الطبقة الخامسة

الطبقة الخامسة

وجبال البرينيه التي تمثل فاصلاً بين فرنسا وإسبانيا تجعل الجزيرة وكأنها ثوابٌ وجهها عن أوروبا، فيها تتجه به إلى المغرب، وهذا ما أجمع عليه الجغرافيون المسلمين الذين عدوها امتداداً لإفريقيا، وليس رقعة من القارة الأوربية، المعروف أن شبه الجزيرة تتشابه مع المغرب في كثير من المعالم النباتية والحيوانية؛ وبخاصة منطقتي سبتة وطنجة^(١).

أما داخل الجزيرة فسترى أنفسنا أمام هضبة كبيرة تُعرف بالمسينا، تقطعها الجبال بشكل أفقى، وتكثر فيها الأنهار فكأنها تعيش فوق شبكة من المياه.

لماذا سميت «الأندلس»؟

وعن سبب تسميتها بالأندلس فقد كانت هناك بعض القبائل الهمجية التي جاءت من شمال إسكندنافيا من بلاد السويد والدنمارك والنرويج وغيرها، وهجمت على منطقة الأندلس وعاشت فيها فترة من الزمن، ويُقال: إن هذه القبائل جاءت من ألمانيا، وما يهمنا هو أن هذه القبائل كانت تسمى قبائل الفندال أو الوندال باللغة العربية؛ فسميت هذه البلاد بفانداليسيا على اسم القبائل التي كانت تعيش فيها، ومع الأيام حُرّف إلى أندوليسيا فأندلس.

وقد كانت هذه القبائل تتسم بالوحشية، و(Vandalism) في اللغة الإنجليزية تعني همجية ووحشية وتخريبًا، وتعني -أيضاً- أسلوبًا بدائيًا أو غير حضاري، وهو المعنى والاعتقاد الذي رسخته قبائل الفندال، وقد خرجت هذه القبائل من الأندلس، وحكمتها طوائف أخرى من النصارى عُرفت في التاريخ باسم قبائل القوط (GOTHS) أو القوط الغربيين، وظلّوا يحكمون الأندلس حتى قدوم المسلمين إليها.

(١) محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٦.

العقل الثاني

الأندلس قبل الإسلام

حالة الجهل والتخلف في المناطق الأوروبية

من المفيد جدًا أن نتعرّف على حالة أوربا والوضع الذي كانت عليه - وبخاصة بلاد الأندلس - عند الفتح الإسلامي، وكيف تغيّر هذا الوضع وهذا الحال بعد دخول أهل هذه البلاد في الإسلام؟

كانت أوربا في ذلك الوقت تعيش فترة من فترات الجهل والتخلُّف البالغ، فكان الظلم هو القانون السائد؛ فالحكَّام يمتلكون الأموال وخيرات البلاد، والشعوبُ تعيش في بؤسٍ شديد، واتخذ الحَكَّام القصور والقلاع والمحصون؛ بينما عامة الشعب لا يجدون المأوى ولا السكن، وإنما هم في فقر شديد، بل وصل بهم الحال إلى أن يُساعِوا ويُشترَوا مع الأرض، وكانت الأخلاق متديّنة، والحرمات متنهكة، وبعُدٍ حتى عن مقومات الحياة الطبيعية؛ فالنظافة الشخصية - على سبيل المثال - مخفية؛ حتى إنهم كانوا يتربكون شعورهم تسدل على وجوههم ولا يهذّبونها، وكانوا - كما يذكر الرحالة المسلمين الذين جابوا هذه البلاد في ذلك الوقت - لا يستحمُّون في العام إلاً مرّة أو مررتين، بل يظنُّون أن هذه الأوساخ التي تتراكم على أجسادهم هي صحة لهذا الجسد، وهي خير وبركة له^(١)!

وكان بعض أهل هذه البلاد يتفاهمون بالإشارة، فليست لهم لغة منطقية؛ فضلاً

(١) أبو عييد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والمالك)، ص ٨١.

عن أن تكون مكتوبة، وكانوا يعتقدون بعض اعتقادات الهندو والمجوس من إحراق المتوفى عند موته، وحرق زوجته معه وهي حيّة، أو حرق جاريته معه، أو منْ كان يُحبُّه من الناس، والناس يعلمون ذلك ويُشاهدون هذا الأمر، فكانت أوروبا بصفة عامةً قبل الفتح الإسلامي يسودها التخلف والظلم والفساد الشديد، والبعد التام عن أي وجه من أوجه الحضارة أو المَدِينَة^(١).

ودامت همجية أوروبا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبدُّ في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلاًّ في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلاديين^(٢).

القوط يحكمون الأندلس:

في أواخر القرن الرابع الميلادي استطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك أن يُسيطروا على مصائر القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية؛ بما قدّمه من خدمات أوصلت الإمبراطور الروماني تيودوسيوس إلى العرش، فلما مات الإمبراطور عام (٣٩٥م) أصبح ألاريك -زعيم القوط الغربيين- أقوى قائد في غرب أوروبا ووسطها، فما لبث أن حاول السيطرة على روما نفسها (عاصمة الإمبراطورية الرومانية) ونجح في هذا فعلاً عام (٤١٠م) في مأساة لا يزال يتذكرها التاريخ الأوربي.

وفي هذه الفترة كانت الدولة الرومانية قد سمحـت لقبائل الوندال الهمجية - التي تستوطن شبه الجزيرة الأيبيرية - بالاستقرار في منطقة الشمال الغربي من الجزيرة؛ بشرط ألا تهدّد استقرار المناطق الأخرى، غير أن كثرة القبائل وهمجيتها وضعف الدولة الرومانية، جعل هذه القبائل تُسيطر على كل الجزيرة -تقريباً- وتهـدد بلاد الغال (فرنسا الآن) -أيضاً- وتمارس تخريباً همجيًّا كبيراً.

ثم انتهى غبار الصراع في روما بموت ألاريك فخلفه أطاووف في زعامة القوط

(١) أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والمالك) ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) جوستاف لوبيون: حضارة العرب ص ٥٦٧.

الغربيين، وتطورت الأحوال إلى أن أقرَّت الإمبراطورية الرومانية أطاؤوف في جنوب بلاد الغال، ثم سلَطَتْهُ على قبائل الوندال، فاستمرَّ زحف القوط الغربيين الأقوياء ينهي ويضغط ويطرد قبائل الوندال إلى الجنوب، وفي أثناء تراجع الوندال كانوا يجْرِبون ما بقي من حضارة الرومان في شبه الجزيرة، إلى أن انتصر القوط الغربيون وأحكموا سلطانهم على الجزيرة؛ خاصة في عهد الزعيم القوي (واليا Valia).

لم يلبث الأمر كثيراً حتى تضعضعت الإمبراطورية الرومانية؛ مما جعل القوط الغربيين يستقلُّون عن الإمبراطورية بحكم شبه الجزيرة، واتخذ (يوريك Euric) لقب الملك في عام (٤٦٧م)، وهو يُعدُّ المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربيين، الذين سيعرفون باسم (القوط) في كل مراحل التاريخ اللاحقة^(١).

و قبل الفتح الإسلامي لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش وأسمه لُذرِيق بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك غِيطَشة^(٢)، وبداً الفتح الإسلامي كان لُذرِيق هو حاكم البلاد^(٣).

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو واضطراب والفساد الاجتماعي، والتأخُّر الاقتصادي وعدم الاستقرار؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد، والسلطة الفاسدة، لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية؛ بل كان بإمكانها أن تصدَّ جيشاً مهاجمَاً ومحاربه وتقف في وجهه؛ فقد أقام القوط في إسبانيا دولة اعتُبرَت أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الجرمانى، وبقيت بعد ذلك تتمتع بقوة عسكرية مُدرَّبة وقوية، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات^(٤).

(١) للمزید؛ انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس؛ دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧٥٦-٧١١م)، ص ١٥ وما بعدها.

(٢) غِيطَشة أو ويتزا. انظر: ستانلى لين بول: قصة العرب في إسبانيا، ص ٩.

(٣) عبد الرحمن حجي: التاريخ الأندلسي ص ٣٠.

(٤) عبد الرحمن حجي: التاريخ الأندلسي ص ٣٠، ٣١، ٣٢.





لماذا الأندلس؟

لماذا اتجه المسلمون في فتوحاتهم إلى هذه البلاد خاصةً؟ لماذا اتجهوا نحو الشمال ولم ينحدروا إلى الجنوب -مثلاً- في أعماق القارة الإفريقية؟ ولم في هذا التوقيت تحديداً، (أي: سنة ٩٢ هـ = ٧١١ م)؟

كان المسلمين قد انتهوا -في هذا الوقت- من فتح بلاد الشمال الإفريقي كلّها؛ فتحوا مصر ولبيا وتونس والجزائر والمغرب، ووصلوا إلى حدود المغرب الأقصى والمحيط الأطلسي؛ ومن ثمَّ لم يكن أمامهم في سير فتوحاتهم إلا أحد سبيلين؛ إما أن يتوجهوا شمالاً، ويعبروا مضيق جبل طارق ويدخلوا بلاد إسبانيا والبرتغال -وهي بلاد الأندلس آنذاك- وإما أن يتوجهوا جنوباً صوب الصحراء الكبرى ذات المساحات الشاسعة والأعداد القليلة من السكان.

لم يكن هدف المسلمين هو البحث عن الأراضي الواسعة أو جمع الثروات، إنما كانت الدعوة إلى الله وتعليم دينه للناس كافية هو الهدف الأساس للفتوحات الإسلامية، وكان الأمر قد استتب لهم في بلاد شمال إفريقيا في أواخر الشهرينيات من الهجرة؛ لذا كان من الطبيعي أن تتجه الفتوح الإسلامية صوب بلاد الأندلس آنذاك؛ لتصل دعوة الله إلى الجميع.

وكان هذا هو النهج الذي سار عليه المسلمون في كل فتوحاتهم، ويُجسّد هذا النهج ذلك الحوار الذي دار بين رِبْعِيٍّ بن عَامِر رض وبين رستم قائد الفرس قبل موقعة القادسية -وكان رسولًا إليه- فلقد سأله رستم رِبْعِيَّ بنَ عَامِرَ: ما جاء بكم؟ فأجابه الصحابي الجليل: إنَّ اللهَ أَبْعَثَنَا لِنُخْرُجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَ اللهِ،

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوههم إليه، فمن قيل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومنْ أبى قاتلناه أبداً حتى تُفضي إلى موعد الله. قال: وما موعد الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى، والظفر لمن يَقْيِ^(١).



(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ٢/٤٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٣١١.

الفصل الأول

فتح الأندلس .. فتح أموي مجيد



كان فتح الأندلس في سنة اثنتين وتسعين من الهجرة؛ أي في عصر الخلافة الأموية، وتحديداً في خلافة الوليد بن عبد الملك رضي الله عنه الخليفة الأموي الذي حكم من عام (٩٦هـ=٧١٥م) إلى عام (٩٦٥هـ=٧٠٥م)؛ وهذا يعني أن فتح الأندلس كان في منتصف خلافة الوليد الأموي رضي الله عنه.

والحق أن الدولة الأموية ظلمت ظلماً كثيراً في التاريخ الإسلامي؛ وأشيع عنها الكثير من الافتراءات والأكاذيب والأحداث المغلوطة التي تُشَوّه صورتها، وبالتالي تنال من صورة التاريخ الإسلامي في أزهى عصوره -بعد عصر النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه والخلفاء الراشدين- وهو العصر الذي عاش في كنفه الصحابة والتابعون، ومن أثر ذلك أن زعم بعض الناس -لا سيما أعداء الحكم بالشريعة الإسلامية- أن التاريخ الإسلامي لم يكن إلاً في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، بل لقد وصل الأمر إلى الطعن في تاريخ أبي بكر وعمر مع علم الجميع بفضلهما.

ولا يخفى على أحد أن المراد من ذلك هو أن يترسّخ في الأذهان استحالة قيام دولة إسلامية من جديد، فإذا كان هذا شأن السابقين القريبيين من عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وأصحابه رضوان الله عليهم؛ وإذا كان هذا شأن دولتيبني أمية وبني العباس القريبيتين من عهد النبوة ومع ذلك لم تستطع إحداهما أن تُقْيم حكماً إسلامياً صالحًا -كما يزعمون- فكيف بالتأخرين؟! وهي رسالة يُريدون أن يصلوا بها إلى كل

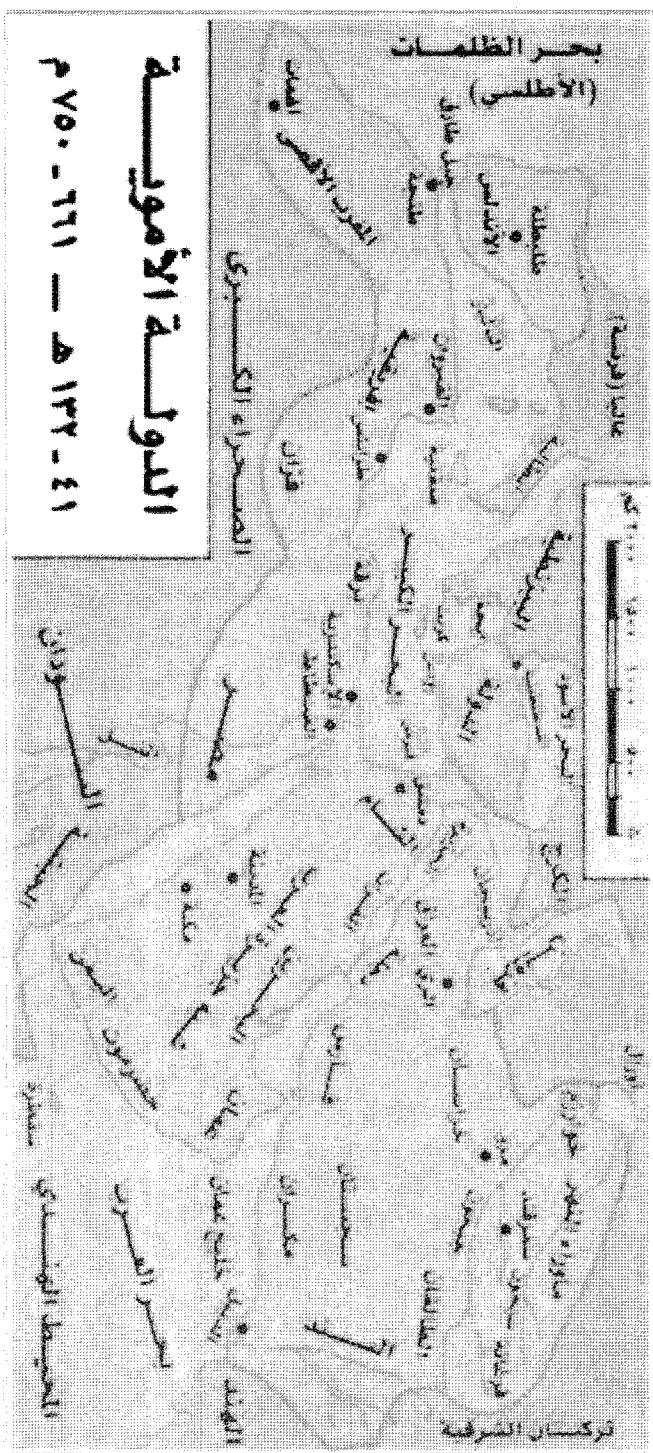
مسلم، وليس لهم من غرض وراء ذلك إلا أنهم **﴿يُؤْمِنُونَ أَنَّ يُطْهِنُوا نُورَ اللَّهِ إِلَّا أَنَّهُمْ تُورَّهُ﴾** [التوبه: ٣٢].
﴿وَقَاتَلُوكُمْ وَرَبِّكُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ تُورَّهُ وَكُلُّهُمْ أَكْفَارٌ﴾ [النور: ٥١]

وقفة انصاف، لبني أمية (٤٠-٦٦٠=٥٧٥م):

الدولة الأموية كغيرها من الدول الإسلامية لها الأيدي البيضاء والفضل الكبير على المسلمين في شتى بقاع الأرض، ونظرة واحدة على عدد المسلمين الذين دخلوا الإسلام في زمن حكمها تكفي للردد على الافتاءات والمزاعم التي حيكت في حقها، فهذا إقليم شمال إفريقيا بكامله دخل الإسلام في عهد بنى أمية؛ انتهاءً من ليبيا وحتى المغرب، وإذا كانت الفتوح الإسلامية لهذه البلاد قد بدأت في عهد عثمان بن عفان **رض**؛ فإن هذه البلاد قد ارتدت على عقبها ثم فُتحت من جديد في عهد بنى أمية.

كانت الدولة الأموية تفتح البلاد بالإسلام في أربع جبهات في وقت واحد، منها جبهة الغرب التي وصلت إلى الأندلس - وهو موضوع هذا الكتاب - لكن ثمة ثلاثة جبهات أخرى: كانت في بلاد السندي على يد محمد بن القاسم الثقفي، وفي بلاد ما وراء النهر حتى الصين على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، وفي بلاد القوقاز في الشمال على يد مسلمة بن عبد الملك المرواني.

فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وأشرقت شمس الإسلام على بلادٍ كانت تعبد الأصنام والأوثان والنار والملوك، وانزاحت من وجه العالم خرافاتٌ وأباطيل، وأبصر الناس - بفضل الله الذي جرى على يد بنى أمية - نور الله المبين، فأقبلوا على الإسلام زرافاتٍ ووحداناً، ثم ما لبثوا أن كانوا من جنوده وأبطاله وعلمائه ورُواده. وقطفت الأُمَّةُ الإسلامية عبر كل تاريخها ثمار الزرع الذي غرسه بنو أمية، فكم من رءوس الأُمَّةِ ومقدّميها - في العلم والفقه والتفسير والأدب والطب والجغرافيا والهندسة والكيمياء والفلسفة - كانوا من هذه البلاد التي فتحها بنو أمية! مثل:



خريطة رقم ٢١ حدود الدولة الإسلامية (من الخلافة الاموية

البخاري ومسلم والترمذى والنسائى، والطبرى وابن خلدون والذهبى، وابن سينا والفارابى والكندى والبيرونى، وسلسلة طويلة تستعصى على الحصر، فتح الإسلام بلادهم ثم قلوبهم، ثم فتح بهم بلادًا وقلوبًا أخرى كثيرة.

كان الجهاد في أيام الأمويين أمراً طبيعياً؛ يخرج إليه الناس ابتغاء مرضاه ربه، وتبليغاً للدعوة رب العالمين، وإضافة إلى ذلك فقد دُوّنت السنة النبوية في خلافتهم، وحُكِّم شرع الله وطبق في دولتهم.

ولقد قال فيهم الإمام الكبير العلّام ابن حزم كلمة ما أصدقها، قال: «وكانت دولة عربية لم يتخدوا قاعدة^(١)، إنما كان سكتى كل امرئ منهم في داره وضيّعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجان^(٢) الأموال ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوا بالتمويل^(٣) ولا التسويد^(٤)، ويُكتابوهم بالعبودية والملك^(٥)، ولا تقبيل الأرض ولا رجلٍ ولا يدٍ^(٦)، إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقصاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمال، ويولّون الآخرين في الأندلس، وفي السند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد. وبعثوا إليها الجيوش، وولّوا عليها من ارتسوا من العمال... فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلّب عليهم بنو العباس بالشرق، وانقطع بهم ملوكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس،

(١) أي لم يتخذوا مدينة ملكية.

(٢) الاحتجاج: جمعُ الشيءِ وضمهُ إلَيْكَ. ابن منظور: لسان العرب، مادة حجن ١٣ / ١٠٨، والريدي: تاج العروس، باب النون فصل الحاء ٣٤ / ٣٩٩، والمجمع الوسيط ١ / ١٥٨.

(٣) أَيْ لَمْ يَلْزِمُ الْخَلِيفَةَ النَّاسَ أَنْ يَقُولُوا عَنْدَ مُخَاطَبَتِهِ: يَا مُولَّا.

(٤) أَيْ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّمَا سَيِّدِي.

(٥) أي أن يكتبوا إلى الولاة والوزراء بقولهم: من الملك، أو من السيد إلى العبد أو المولى.

(٦) كان من عادة خلفاء الدول من بعد بنى أمية، وما يُعد من الآداب السلطانية أو البروتوكول الرسمي – بمصطلح هذه الأيام – أن يُقبل الناس يد الخليفة، وبعض الدول كان الناس يُقبلون الأرض بين يدي الخليفة.

وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بنى أمية نحو الثالثمائة سنة، فلم يكُن في دول الإسلام أ Nigel منها، ولا أكثر نصراً على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير»^(١).

ومع كل هذا فإننا لا نقول بتبرئتهم من كل خطأ أو عيب؛ فالنقص والخطأ شيء البشر، ومن المؤكَّد أن هناك أخطاء كثيرة في تاريخ بنى أمية، لكن - بلا شك - كل هذه الأخطاء تذوب في بحر حسناتهم وبحر أفضالهم على المسلمين، فقد امتد حُكم بنى أمية اثنين وتسعين عاماً، من عام (٤٠ هـ = ٦٦٠ م) إلى (١٣٢ هـ = ٧٥٠ م)، وكان أول خلفاء بنى أمية الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رض - ورضي الله عن أبيه أبي سفيان صاحب رسول الله صل - ذلك الخليفة الذي لم يسلِّم من السنة كثير من الناس؛ فطعنوا في تاريخه وفي خلافته رض، ولقد كذبوا، فليتنا نَصِّلُ إلى معشار ما فعله معاوية بن أبي سفيان للإسلام والمسلمين.

وإن كان هذا ليس مجال الحديث عن بنى أمية إلا أنَّ هذه المقدمة البسيطة قد تُفيد - بمشيئة الله - في الحديث عن الأندلس، وبعد معاوية بن أبي سفيان رض تَابَعَ الخلفاء الْأَمِيُّونَ، وكان أشهرهم عبد الملك بن مروان رحمه الله، ومَنْ تَبعَهُ من أولاده، وكان منهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وقد تخلَّلُهم الخليفة الراشد المشهور عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وهو خليفة أموي من أبناء الدولة التي يطعنون فيها، وهو الذي ملأ الأرض عدلاً ورحمةً وأمناً ورخاءً؛ حتى عَدَّ المؤرخون خامس الخلفاء الراشدين.

أمَّا الجانب السيئ من تاريخ دولة بنى أمية فإنه يكمن في السينين السبع الأخيرة من تاريخهم، تلك التي شهدت الكثير من المأساة، والكثير من الاختلاف عن المنهج الإسلامي، وكانت سُنَّةَ الله تعالى؛ فحين فسد الأمر في بنى أمية قامت دولة أخرى وهي دولة بنى العباس، أمَّا الأندلس وفتحها فيبقى حسنةً من أعظم حسنات بنى أمية.

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ١٤٦/٢.

ما قبل فتح الأندلس

وضع المسلمين في الشمال الإفريقي:

دخل الإسلام بلاد الشمال الإفريقي قبل فتح الأندلس بسبعين سنة؛ أي سنة (٦٤٤هـ=١٢٢م)، وكانت تسكن هذا الإقليم قبائل ضخمة تسمى قبائل الأمازيغ (البربر^(١)) وهذه القبائل قوية الشكيمة شديدة البأس، وقد ارتدت عن الإسلام أكثر من مرّة؛ فدارت الحروب بينها وبين المسلمين، وانتهت باستقرار الإسلام في هذا الإقليم أواخر عام (٨٥هـ=٧٠٤م أو ٨٦هـ=٧٠٥م) على يد موسى بن نصیر رحمه الله.

موسى بن نصیر القائد ابن القائد (١٩٦٤هـ=٦٤٠م - ٦٩٧هـ=١٩٣٠م) :

كان موسى بن نصیر قائداً بارعاً، تقىاً ورعاً، ثبت الله به أقدام الإسلام في هذه المنطقة المترامية الأطراف، وهو من التابعين، وقد روی عن بعض الصحابة كتميم الداري رضي الله عنه.

قال عنه ابن خلگان: كان عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً تقىاً لله تعالى، لم يُرِزِّمْ له جيشاً قط^(٢). أما أبوه فهو نصیر بن عبد الرحمن بن يزيد، وكان شجاعاً ومن شهد معركة اليرموك الخالدة، وكانت منزلته مكينة عند معاوية رضي الله عنه، وببلغ في الرتب أن كان رئيس الشرطة في عهد معاوية حين كان والياً على الشام في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما^(٣)، وفي روايات أخرى أنه كان رئيس حرس معاوية نفسه^(٤).

(١) كلمة البربر أطلقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة، فأطلقت في عهد (هومير) على القبائل المقددة اللغة واللهجة حينها وجدت، وأطلقت في عهد (هيرودوت) على الأمم الغربية عن لغة اليونان وحضارتهم، وأطلقت في عهد (بلتوس) على الروم ما عدا سكان روما، وأطلقتها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي -وهم المقصودون هنا- لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، والعرب يطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة». انظر: الطاهر أحد الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص ٢٠.

(٢) ابن خلگان: وفيات الأعيان ٥/٣١٨ وما بعدها.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٥/١١٠، ٦/٤٩٦.

(٤) ابن خلگان: وفيات الأعيان ٥/٣١٩.

ولما خرج معاوية لصفيّن لم يخرج نصير معه، فقال له: ما منعك من الخروج معي؟ ولily عندك يد^(١) لم تُكافئني عليها؟ فقال: لم يمكنني أن أشكرك بكمري مَنْ هو أولي بشكري منك. فقال: مَنْ هو؟ فقال: الله يعْلَم. فأطرق ملياً، ثم قال: أستغفر الله. ورضي عنه^(٢).

كذلك روى التاريخ لأمّ موسى قصة بلية في الشجاعة، فلقد شهدت هي - أيضاً - معركة اليرموك مع زوجها وأبيه، وفي جولة من جولات اليرموك التي تقهقر فيها المسلمون أبصرت أمّ موسى رجلاً من كفار العجم يأسر رجلاً من المسلمين، تقول: «فأخذت عمود الفسطاط، ثم دنوت منه فشدحت به رأسه، وأقبلت أسلبه فأعانني الرجل على أخذه»^(٣).

فمن هذين الأبوين خرج مُوسَى بن نصير، الذي تربى في كنف القادة وقرباً من بيت الخلافة مع أولاد معاوية وأولاد الأمراء والخلفاء، فنشأ على حُبّ الجهاد في سبيل الله ونشر الدين؛ حتى أصبح شاباً يافعاً يتقلّد الرتب وال المناصب فكان على الخراج بالبصرة^(٤)، ثم تولى قيادة جيش البحر وغزا قبرص في عهد معاوية^(٥)، ثم تولى إفريقية والمغرب^(٦) في عهد الوليد بن عبد الملك في عام ٨٩ هـ، وقيل في عام ٧٧ هـ^(٧).

من هنا كانت الفرصة مواتية لموسى بن نصير ليُنجز ما عجز السابقون عن

(١) اليَدُ: النعمة السابقة، والفضل، والإحسان، والملائكة. الجوهرى: الصاحب، باب الواو والياء، فصل الياء ٢٥٤٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة يد١٥/٤١٩، والمجمع الوسيط ٢/١٠٦٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٣١٩، والمقرى: فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/٢٤٠.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تميز الصحابة ٨/٣١٤.

(٤) الزرکلی: الأعلام ٧/٣٣٠.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/٤٩٦.

(٦) إفريقية هي تونس الآن، والمغرب هي بلاد المغرب العربي الآن، الجزائر والمغرب. وكلمتى «إفريقية» والمغرب تعنى بلاد الشهاب الإفريقي ما عدا مصر، والجانب الشرقي من ليبيا.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/٣١٩.

إنجازه، فيُعيد الاستقرار لهذا الإقليم؛ فتوَّجه حَمْلَة ناحية المغرب وأعاد تنظيم القوات الإسلامية، وكانت البلاد في ذلك الوقت في قحطٍ شديد، فأمر الناس بالصوم والصلوة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء. وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صَلَّى وخطب في الناس ودعا، ولم يذكر الوليد بن عبد الملك، فقيل له: ألا تدعوا لأمير المؤمنين؟!

فقال: هذا مقام لا يُدعى فيه لغير الله حَمْلَة، فُسْقُوا حتى رَوَوا^(١).

موسى بن نصیر يثبت دعائِمِ الإسلام في إفريقيا:

كان الهمُّ الأول لموسى بن نصير منذ أصبح واليًا على المغرب هو تثبيت دعائم الإسلام في هذا الإقليم، الذي ارتدَّ أهله عن الإسلام أكثر من مرَّة؛ ولكن يمكنَ من ذلك كان عليه أن يعلم لماذا يرتدُّ الناس في هذا الإقليم عن الإسلام؟ وكيف يعودون لقتال المسلمين بعد أن كانوا مسلمين؟!

وفي بحثه عن أسباب هذه الردة المتكررة وجد مُوسى بن نصير خطأين وقع فيما مَنْ سبقوه:

الخطأ الأول: هو أن عقبة بن نافع ومن معه كانوا يفتحون البلاد فتحًا سريًّا، ثم يتوجَّلُون داخلها طمعًا في فتح أماكن أخرى كثيرة، دون أن يُوفِّروا الحماية لظهورهم في هذه المناطق التي فتحوها؛ ومن ثمَّ كانت النتيجة أن الأمازيغ (البربر) انتبهوا لهذا الأمر واستغلُّوه جيدًا؛ فانقلبوا على عقبة وأحاطوا به وقتلوه، وحتى يتغلَّب على هذا الأمر بدأ مُوسى بن نصير بفتح البلاد في أنة شديدة، وفي هدوء وحدِّر كحدِّر خالد بن الوليد حَمْلَة، فبدأ يتقدَّم خطوة ثم يُؤمِّن ظهره، ثم خطوة أخرى ويُؤمِّن ظهره، حتى أتمَ الله عليه فتح هذا الإقليم مرَّة أخرى في سبع أو ست

(١) وابن خلkan: وفيات الأعيان ٥/٣١٩، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/١٩٦، والمقرى: نفح الطيب ١/٢٣٩.

سنوات، بينما استغرق عقبة بن نافع في فتحه شهوراً معدودات.

أما الخطأ الثاني: فقد وجد أن سكان هذا الإقليم لم يتعلّموا الإسلام جيداً، ولم يعرفوه حقّ المعرفة، فبدأ بتعليمهم الإسلام؛ فكان يأتي بعلماء التابعين من الشام والمحجاز ليعلّمُوهم الإسلام ويعرّفُوهم به، فأقبلوا على الإسلام وأحبّوه، ودخلوا فيه أفواجاً، حتى أصبحوا جند الإسلام وأهله بعد أن كانوا يحاربون المسلمين^(١)، وهكذا عمل موسى بن نصير على تثبيت دعائم الإسلام وتوطيدها في الشمال الإفريقي، وأتمَ الله عليه فتح الإقليم بتكامله عدا مدينة واحدة وهي مدينة سبتة^(٢)، فقد فتح ميناء طنجة، ولم يفتح ميناء سبتة المثل له في الأهمية؛ ولذلك ولّ موسى بن نصير على ميناء طنجة (القريب جداً من سبتة والقريب في الوقت ذاته من الأندلس) أمهراً قوّاده طارق بن زياد حَفَظَهُ اللَّهُ.

طارق بن زياد لم يكن عربياً، بل كان من قبائل الأمازيغ (البربر) التي استوطنت الشمال الإفريقي، والتي كان يميّزها اللون الأبيض والعيون الزرقاء والشعر الأشقر^(٣)، بعكس ما يتخيل من كونهم يُشبهون الزنوج؛ حتى إن البعض ينسبونهم إلى أصول أوروبية، وقد حمل طارق بن زياد القائد الفذ هذه الصفات الشكلية، إضافة إلى ضخامته الجسمية ووسامته الشديدة، التي لم تمنعه من الانشغال بحبّ الجهاد في سبيل الله، ونشر هذا الدين بالتوسيع والعمل الصالح.

من هنا نرى أن موسى بن نصير حَفَظَهُ اللَّهُ قد توّلّ أمر بلاد المغرب وهي تضطرم ناراً، فكان أول عمل له هو تأمين قواعد انطلاقه، ثم انصرف لإخماد الفتنة، والقضاء على الثورات، وتصفية قواعد العدوان، وبناء المجتمع الإسلامي الجديد،

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٤٣، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون / ٦١٠، والمقرري: فتح الطيب / ٢٣٩، والناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى / ١٥٢.

(٢) وهي الآن من مدن المغرب العربي التي تحملها إسبانيا، وتقع على مضيق جبل طارق.

(٣) شوقي أبو خليل: فتح الأندلس ص ٢٠.

ثم وجد بعد ذلك في إفريقية طاقاتٍ ضخمةً، وإمكاناتٍ جبارةً؛ فأفاد من حرية العمل المتوفرة له، وانصرف إلى متابعة حشد القوات وتعبيتها وقيادتها من نصر إلى نصر، وإشراكها في شرف الفتوح وتحميلها أعباء نشر الإسلام.

تبين لنا بعد تلك الحوادث والفتنة التي قضى عليها موسى بن نصير أنه كان من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين في القرن الأول الهجري، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلّدَها، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها، وقد ظهرت هذه الموهبَّة واضحة جليةً في حُكمِه لإفريقية؛ حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديداً المراس، يضطرم بعوامل الانتفاض والفتنة، وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة المواقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة في سياستها وقيادتها^(١).

الفصل الثاني

موسى بن نصير وقرار الفتح



تفكير قديم في فتح الأندلس

لم يكن موسى بن نصير رحمه الله هو أول من فكر في فتح الأندلس، وإنما كانت فكرة فتح الأندلس فكرة قديمة؛ فلقد استطاعت الجيوش الإسلامية أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه الوصول إلى القسطنطينية ومحاصرتها، إلا أنها لم تستطع أن تفتحها، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن القسطنطينية إنما تُفتح من قبل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر آخر الزمان»^(١).

أي: إنه على المسلمين لكي يتمكّنوا من فتح القسطنطينية أن يفتحوا الأندلس أولاً، ثم يتّجهون منها بعد ذلك إلى القسطنطينية -في شرق أوروبا- ويقصد عثمان رضي الله عنه بالبحر ما كان يُعرف بالبحر الأسود في ذلك الوقت، لكن المسلمين لم يستطعوا أن يصلوا إلى الأندلس إلا أيامبني أمية، وفي ولادة موسى بن نصير على الشّمال الإفريقي.

موسى بن نصير وعقبات فتح الأندلس

استتبَّ الأمر لموسى بن نصير في شمال إفريقيا، وانتشر الإسلام وبدأ الناس يُقبلون على تعلُّم دينهم، فلما رأى موسى بن نصير ثمار عمله، بدأ يُفكّر في نشر

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوک / ٥٩٨، وابن كثير: البداية والنهاية / ٧١٧، والجعفى: الروض المغفار في خبر الأقطار ص ٣٣.

الإسلام في البلاد التي لم يصلها بعد، فبدأ يفكّر في فتح بلاد الأندلس، والتي لا يفصلها عن شمال إفريقيا سوى مضيق الذي صار يُعرف بعد الفتح الإسلامي بـ(مضيق جبل طارق)، ولكن كانت هناك عدّة عقبات؛ كان أهمها ما يلي:

أولاً: المسافة بين المغرب والأندلس

وجد موسى بن نصیر أن المسافة التي سيقطعها في البحر بين المغرب والأندلس لا تقلّ عن ١٣ كم، ولم يكن لديه سفن كافية ليعبر بجيشه هذه العتبة المائية؛ فمعظم معارك المسلمين -باستثناء بعض الواقع مثل: ذات الصواري وفتح قبرص- كانت بريّة؛ ومن ثمّ لم تكن هناك حاجة كبيرة إلى سفن ضخمة، ولكن الآن الأمر مختلف، وهم في حاجة للسفن الضخمة لتنقل الجنود وتعبر بهم مضيق ليصلوا إلى الأندلس.

ثانياً: ظروف جبل طارق

كان موسى بن نصیر قد تعلّم من أخطاء سابقيه؛ فلم يكن يخطو خطوةً حتى يُؤمّن ظهره أولاً، وفي شرق الأندلس كانت تقع جزرٌ تُسمّى جزر البليار -وهي عدّة جزر تقع أمام الساحل الشرقي لإسبانيا، وأهمها ثلاثة جزر هي: ميورقة ومنورقة وبياسة، وتُسمّى في المصادر العربية بالجزر الشرقية- وهي قريبة جداً من الأندلس؛ ومن هنا فإن ظهره لن يكون آمناً إن دخل الأندلس، وكان عليه أولاً أن يحمي ظهره.

ثالثاً: التكتيكيات العسكرية

لم يكن المسلمون حينئذ قد فتحوا مدينة سبتة، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي مهم، ولها ميناء يطل على مضيق جبل طارق، وكانت آئنـة تحت حكم

رجل نصراني يُدعى (يليان)، الذي كانت تربطه علاقات طيبة بملك الأندلس السابق غيطة، وغيطة هذا كان قد تعرض لانقلاب قاده قائد له يُدعى لذرق، وتولى لذرق حكم الأندلس نتيجة هذا الانقلاب، فخشى موسى بن نصیر إن هو هاجم الأندلس أن يتحالف يليان مع لذرق ضدّه نظير مقابل مادي أو تحت أي بند آخر، فيحاصروه ويقضوا عليه هو وجنوده.

العقبة الرابعة : قلة عدد المسلمين :

كانت العقبة الرابعة التي واجهت موسى بن نصیر هي أن قوات المسلمين الفاتحين التي جاءت من جزيرة العرب ومن الشام واليمن محدودة جداً، وكانت في الوقت نفسه منتشرة في بلاد الشمال الإفريقي؛ ومن ثمّ قد لا يستطيع أن يتم فتح الأندلس بهذا العدد القليل من المسلمين، هذا مع خوفه أن تقلب عليه بلاد الشمال الإفريقي إذا هو خرج منها بقواته.

العقبة الخامسة : كثرة عدد النصارى :

في مقابل قوة المسلمين المحدودة كانت قوات النصارى تقف بعدها وضخامتها عقبة في طريق موسى بن نصیر لفتح الأندلس، وكان للنصارى في الأندلس أعداداً ضخمةً، هذا بجانب قوة عدّتهم وكثرة قلائهم وحصونهم، وإضافة إلى ذلك فهم تحت قيادة لذرق القائد القوي.

العقبة السادسة : طبيعة جغرافية الأندلس، وكونها أرضاً مجهولة بالنسبة للمسلمين :

كان البحر حاجزاً بين المسلمين وببلاد الأندلس، فلم يكونوا على علم بطبعتها وجيئيتها؛ وهذا ما يجعل الإقدام على غزو أو فتح هذه البلاد أمراً صعباً، فضلاً عن هذا فقد كانت بلاد الأندلس تميّز بكثرة الجبال والأنهار، تلك التي ستقف

عقبةً كثُرَّاً أمام حركة أيّ جيش قادم، خاصةً إذا كانت الخيول والبغال والحمير هي أهُمُّ وسائل ذلك الجيش في نقل العُدَّة والعتاد.

موسى بن نصیر ومواجهة العقبات

لم يستسلم موسى بن نصیر رغم هذه العقبات التي كانت موجودة في طريق فتح الأندلس، بل زادته هذه العقبات إصراراً على فتحها، ومن هنا بدأ -وفي أناة شديدة- يُرْتَبُ أموره ويُحدِّدُ أولوياته، فعمل على مواجحة هذه العقبات على النحو التالي:

أولاًً : ببناء الموانئ وإنشاء المُسَفَّن :

بدأ موسى بن نصیر في عام (٨٧ أو ٧٠٦ هـ = ٧٠٧ م) ببناء الموانئ التي تُشَيَّدُ فيها السفن، وإن كان هذا الأمر ربما يطول أمده، إلاً أنه بدأ بهمة عالية وإرادة صلبة؛ فبني أكثر من ميناء في الشمال الإفريقي^(١).

ثانياً : تعليم الأمازيغ (البربر) الإسلام :

وفي أثناء ذلك بدأ موسى بن نصیر -أيضاً- ببذل جهوداً أكبر لتعليم الأمازيغ (البربر) الإسلام في مجالس خاصة لهم، أشبه بما تَسَمَّيَه الآن الدورات المكثفة، فلما اطمأنَّ إلى فهمهم للإسلام بدأ يعتمد عليهم ويستعملهم في جيشه، وهذا الصنيع من الصعب -إن لم يكن من المستحيل- أن نجد له عند غير المسلمين؛ فلم تستطع دولةٌ معاِربَةٌ أو فاتحةٌ غير الدول الإسلامية أن تُغَيِّرَ من طبائع الناس وحُبِّهم وولائهم الذي كانوا عليه؛ حتى يُصبحوا هم المدافعين عن هذه الدولة والناشرين لديها؛ خاصةً إذا كانوا حديثي عهْدٍ بهذا الفتح أو بهذا الدين الجديد، فهذا أمر عجيب حقاً، ولا يتكرر إلاً مع المسلمين وحدهم؛ فقد ظَلَّت فرنسا -على سبيل

(١) المقرى: نفح الطيب ١/٢٥٧.

المثال - في الجزائر مائة وثلاثين عاماً، ثم خرجت جيوشها، بينما ظلَّ الجزائريون كما كانوا على الإسلام لم يتغيِّروا، بل زاد حماسهم له وزادت صحوتهم الإسلامية.

علمُ مُوسَى بن نُصَيْر الأمازيغ (البربر) الإسلام عقيدةً وعملاً، وغرس فيهم حُبَّ الجهاد وبيَّنَ النفس والنفيس لله تعالى؛ فكان أن صار جُلُّ الجيش الإسلامي وعِمَادُه من الأمازيغ (البربر) الذين كانوا منذ ما لا يزيد على خمس سنوات من المحاربين له.

ثالثاً: تولية طارق بن زياد على الجيش:

القائد هو قِبْلَةُ الجيش وعموده، بهذا الفَهْم ولَّ مُوسَى بن نُصَيْر قيادةً جيشه - المتَّجه إلى فتح بلاد الأندلس - القائد الأمازيغي (البربري) المحنك طارق بن زياد (١٠٢-٦٧٠ هـ = ١٤٣٥ م) ذلك القائد الذي جمع بين التقوى والورع، والكفاءة الحربية، وحُبَّ الجهاد، والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله، ورغم أنه كان من الأمازيغ (البربر) وليس من العرب إلا أن مُوسَى بن نُصَيْر قدَّمه على غيره من العرب، وكان ذلك لعدة أسباب؛ منها:

١ - الكفاءة: لم يمنع كون طارق بن زياد غير عربي أن يُولِّيه مُوسَى بن نُصَيْر قيادةً الجيش؛ فهو يعلم أنه ليس لعربي على أعمامي ولا لأعمامي على عربي فضلٌ إلا بالتقوى؛ فقد وجد فيه الفضل على غيره، والكفاءة في القيام بهذه المهمة على أكمل وجه، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أن دعوة الإسلام ليست دعوة قَبْلِية أو عنصرية تدعو إلى التعصب، وتُفَضِّلُ عنصراً أو طائفَةً على طائفَةٍ؛ إنما هي دعوة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢ - قدرته على فَهْم وقيادة قومه: إضافة إلى الكفاءة التي تميَّز بها طارق بن زياد كان لأصله الأمازيغي (البربري) الفضل في القضاء على أيٍّ من العوامل النفسية

التي قد تختلج في نفوس الأمازيغ (البربر) الذين دخلوا الإسلام حديثاً؛ ومن ثم استطاع قيادتهم وتطويعهم للهدف الذي يصبون إليه، ثم لكونه أمازيغياً (بربرياً) فهو قادر على فهم لغة قومه؛ إذ ليس كل الأمازيغ (البربر) يتقنون الحديث بالعربية، وكان طارق بن زياد يجيد اللغتين العربية والأمازيغية (البربرية)^(١)؛ وهذه الأسباب وغيرها رأى موسى بن نصیر أنه يصلح لقيادة الجيش فولأه إياها.

رابعاً : فتح جزر البليار وضمها إلى أملاك المسلمين :

من أهم الوسائل التي قام بها موسى بن نصیر تمهدًا لفتح الأندلس، وتأمينا لظهوره - كما عهدينا - قام بفتح جزر البليار - التي ذكرناها سابقاً - وضمها إلى أملاك المسلمين، وبهذا يكون قد أمن ظهره من جهة الشرق، وهذا العمل يدل على حنكته وبراعته في التخطيط والقيادة، ومع هذا كله فقد أغفل دوره في التاريخ الإسلامي كثيراً.

مشكلة سبتة والعنابة الإلهية :

استطاع موسى بن نصیر أن يتغلب على قلة عدد الجيش من خلال الأمازيغ (البربر) أنفسهم، وتغلب - كذلك - على العقبة المتمثلة في قلة السفن نسبياً ببناء موانئ وصناعات سفن جديدة، وبقيت أرض الأندلس - كما هي - أرضاً مجھولة له، وكذلك ظلت مشكلة ميناء سبتة قائمة لم تحل بعد، وهو ميناء حصين جداً يحكمه النصارى يليان، وقد استنفذ موسى بن نصیر جهده وطاقةه، وفعل كل ما في وسعه،

(١) نستنتج هذا من أن طارقاً منحدر من عائلة كانت - فيها يظهر - سابقة إلى الإسلام، فهو طارق بن زياد بن عبد الله، ثم يبدأ في نسبه ظهور الأسماء البربرية من بعد عبد الله كما في النسب الذي أورده ابن عذاري في البيان المغرب: «طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورنجوم بن نبرغاسن بن». فمنه تتوقع أن يكون جده عبد الله هو أول من أسلم من عائلته فتسمى بعد الله، أو أن يكون أبو جده «ولغو» هو أول من أسلم، ولكنه احتفظ باسمه كما هو ثم ولده عبد الله؛ لذا فمن الطبيعي أن يكتب الحميد لغة العرب ويتقنها، كما سألي فيما بعد خطبته الشهيرة لدى فتحه الأندلس، وفيها يظهر تمكّنه في العربية ولسانها إن نحن أخذنا بقول الذين يرجحون ثبوتها.

ولم يجد حلاً هاتين المشكلتين، وهنا تدخل الأمر الإلهي والتدبير الرباني: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانِ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٢٨]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأفال: ١٧]، وهذا ما حدث بالفعل وتجسد في فعل يليان صاحب سبعة، وكان على النحو التالي:

- فَكَرِرَ يُلِيانُ جَدِيداً فِي الْأَمْرِ مِنْ حَوْلِهِ، وَكَيْفَ أَنَّ الْأَرْضَ بَدَأَتْ تَضِيقَ عَلَيْهِ، وَتَتَآكَلُ مِنْ قِبَلِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَزْدَادُونَ قُوَّةً يَوْمًا بَعْدِ يَوْمٍ، وَتَسَاءَلَ: إِلَى مَنْ سَيَظْلُمُ صَامِدًا أَمَامَهُمْ إِنْ هُمْ أَتَوْا إِلَيْهِ؟

- ومن جانب آخر كان يليان مع ذلك يحمل الحقد الدفين لـ لُذرِيق حاكم الأندلس؛ ذلك الذي قتل صديقه غِيطَشَة ، وقد كان بين يليان وغِيطَشَة علاقات طيبة؛ حتى إن أولاد غِيطَشَة من بعده استنجدوا بـ يليان هذا ليُساعدُهم في حرب لُذرِيق، ولكن لم يكن لـ يليان طاقة بلُذرِيق، كما لم يكن لأولاد غِيطَشَة - أيضًا - طاقة به، ومن هنا كان ثمة عداء دفين بين صاحب سبعة وحاكم الأندلس؛ ومن ثمَّ فإنَّ أين سيفُرُ يليان إن استولى المسلمين على ميناء سبعة؟!

- وتَذَكُّرُ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ السَّبِبَ الرَّئِيسَ فِي تَوْتُرِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ يُلِيانَ حَاكِمَ سَبْتَةِ وَلُذْرِيقَ حَاكِمَ الْأَنْدَلُسِ، مَا فَعَلَهُ الْأَخِيرُ بَابِنَةِ يُلِيانَ؛ إِذَا نَهَى اغْتَصَبَهَا، فَلَمَّا أَخْبَرَ بِذَلِكَ يُلِيانُ أَقْسَمَ أَنْ يَنْتَلِعَ مِنْهُ، وَلَمْ يَجِدْ أَمَامَهُ إِلَّا أَنْ يُسَاعِدَ الْمُسْلِمِينَ وَيُوَفِّرُ لَهُمْ بَعْضَ التَّسْهِيلَاتِ^(١).

- والأمر الأخير الذي نتوقع أنه دار في خَلَدِ يليان هو أن ظروف الأندلس الداخلية كلها كانت تصبُّ في مصلحة المسلمين؛ إنْ هُمْ أَرَادُوا فتحَ الأندلس، فكان يليان على علم بأنَّ لُذرِيق قد بالغ في ظلم شعب الأندلس، وفَرَّضَ عليهم الضرائب

(١) في تفصيل ذلك انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٣٤، والمقربي: نفح الطيب ١/١، ٢٥١. ٢٥٢.

الباهظة؛ فعاشوا في فقر وبؤس شديدين؛ بينما هو في النعيم والملك؛ وهذا ما جعلهم يكرهونه ويتمنون الخلاص منه، كما أنه قد عاد إلى اضطهاد اليهود، وكان قد رفع عنهم الاضطهاد أيام غيطة، فلما جاء لُذرِيق أعاد العنف والقهر؛ لدرجة أنهم أرسلوا وفداً ليقابل طارق بن زياد ويستحثه على فتح الأندلس^(١)، هذا إلى جوار رغبة يُليان في استعادة ممتلكات وضياع أولاد غيطة الكثيرة في الأندلس، والتي كان لُذرِيق قد صادرها.

ومن تدبير رب العالمين أن اختبرت هذه الأفكار جيداً في عقل يُليان، بينما كان مُوسَى بن نصیر -آنذاك- قد استنفذ جهده وتحير في أمره -فإذا بِيُليان يُرسَل إلى طارق بن زياد وإلى طنجة (على بعد عدّة كيلو مترات من ميناء سبتة) بِرُسْلٍ من قبّله يعرض عليه عرضاً للتفاوض، أمّا تدبير العناية الإلهية والمفاجأة الحقيقة فكانت في بنود هذا العرض وهذا الطلب العجيب، الذي نصّ على ما يلي:

- ١ - نسلُك ميناء سبتة. (وكانت تلك معضلة حار المسلمين أعواماً في الاهتداء إلى حلّ لها؛ حيث كانت فوق مقدرتهم).
- ٢ - نمذك بالمعلومات الكافية عن أرض الأندلس.

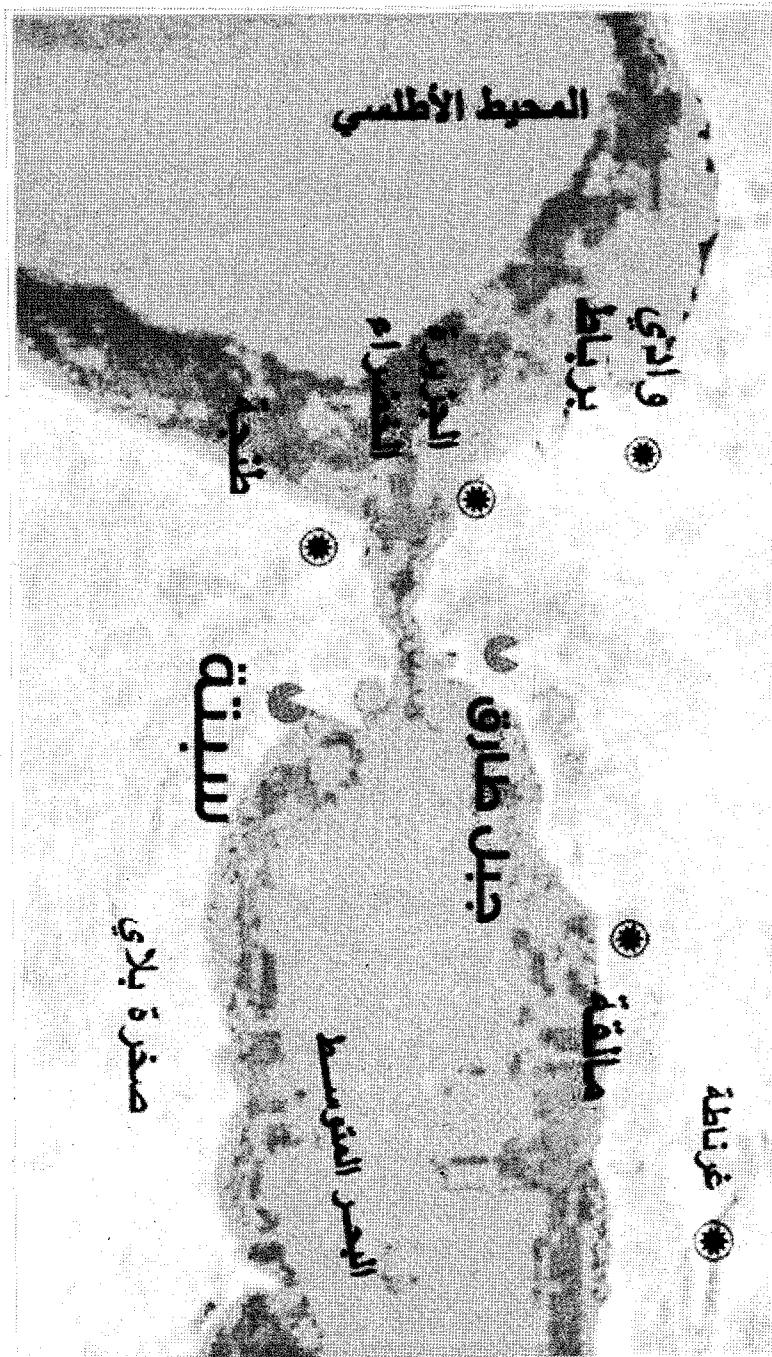
أمّا المقابل فهو: ضياعات^(٢) وأملاك غيطة التي صادرها لُذرِيق، وكان لغيطة ثلاثة آلاف ضيعة، وكانت ملكاً لأولاده من بعده، فأخذها منهم لُذرِيق وصادرها^(٣).

ما أجمل العرض وأحسن الطلب!

(١) حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس ١٥/١٦، محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس صر ٢٣-٣٣.

(٢) ضياعات: جمع ضياعة؛ وهي تعني: عقاراً وأرضاً مغلقة. ابن منظور: لسان العرب، مادة ضياع ٨/٢٢٨، والمجمع الوسيط ١/٥٤٧.

(٣) المقري: نفح الطيب ١/٢٥٨.



خريطة رقم (٣) موقع مدينة طنجة وجبيل طارق

بِهَذَا الْعَرْض أَرَادُ يُلِيَّان صَاحِبَ سَبْتَةَ أَنْ يَتَنَازَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ سَبْتَةِ،
وَيُسَاعِدُهُمْ فِي الْوَصْولِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، ثُمَّ حِينَ يَحْكُمُهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَسْمَعُ يُلِيَّان
وَيُطِيعُ، عَلَى أَنْ يَرُدَّ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَيْعَاتٍ وَأَمْلاَكٍ غَيْطَشَةً، فَمَا أَجْلَى الْعَرْضُ!
وَمَا أَحْسَنَ الْطَّلْبَ! وَمَا أَعْظَمَ السَّلْعَةَ! وَمَا أَهُونَ الشَّمْنَ!

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُفَكِّرُوا يَوْمًا فِي مَغْنِمٍ أَوْ ثَرَوَةٍ أَوْ مَالٍ حَالَ فَتَحُمُّلُهُمُ الْبَلَادُ، وَلَمْ
يَرْغِبُوا يَوْمًا فِي دُنْيَا يَمْلِكُهَا غَيْطَشَةُ أَوْ يُلِيَّانُ أَوْ لُذْرِيق.. أَوْ غَيْرُهُمْ؛ فَقَدْ كَانَ هُدْفُهُمْ
تَعْلِيمُ النَّاسِ الإِسْلَامَ، وَتَعْبِيدُهُمْ لِرَبِّ الْعَبَادِ، فَإِذَا دَخَلَ النَّاسُ فِي الإِسْلَامِ كَانُ
لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْلَمْ يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ وَأَرَادُوا دَفْعَ
الْجَزِيَّةَ فَحَيْثَنِيَّرُكُّ لَهُمْ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الشَّمْنَ هِيَّا جَدًا وَالْعَرْضُ غَايَةُ الْآمَالِ، فَبَعَثَ طَارِقُ بْنُ زِيَادَ إِلَى
مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ -وَكَانَ فِي الْقِيرَوَانَ عَاصِمَةِ الشَّهَادَةِ الْإِفْرِيقِيِّيِّ آنَذَاهُ (وَهِيَ فِي تُونِسِ
الآن)- يُخْبِرُهُمْ هَذَا الْخَبَرُ، فَسُرَّ سَرْوَرًا عَظِيمًا، ثُمَّ بَعَثَ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ بِدُورِهِ إِلَى
الْخَلِيفَةِ الْأَمْوَيِّ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يُطْلِعُهُ -أَيْضًا- بِالْخَبَرِ، وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي فَتْحِ
الْأَنْدَلُسِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْوَلِيدُ: أَنْ خُصُّهَا بِالسَّرَايَا؛ حَتَّى تَخْتَبِرْ شَأْنَهَا، وَلَا تُغَرِّرْ
بِالْمُسْلِمِينَ فِي بَحْرِ شَدِيدِ الْأَهْوَالِ. فَرَاجَعَهُ: إِنَّهُ لَيْسَ بِبَحْرٍ؛ وَإِنَّمَا هُوَ خَلْبِيجٌ، يُبَيَّنُ
لِلنَّاظِرِ مَا وَرَاءَهُ^(١). وَهُنَا أَذَنَ لَهُ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، إِلَّا أَنَّهُ شَرَطَ عَلَيْهِ شَرْطًا كَانَ
قَدْ فَكَرَ فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ نَفْسُهُ، وَهُوَ: أَلَا يَدْخُلُ بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ حَتَّى
يَخْتَبِرْهَا بِسَرِيرَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَمَا يُدْرِيَهُ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي سَيُقَدِّمُهَا لَهُ يُلِيَّانُ عَنِ
الْأَنْدَلُسِ سَتَكُونُ صَحِيحَةً؟! وَمَنْ يَضْمَنْ لَهُ أَلَا يَخُونَ يُلِيَّانَ عَهْدَهُ مَعَهُ، أَوْ يَتَفَقَّدُ مِنْ
وَرَائِهِ مَعَ لُذْرِيقَ، أَوْ مَعَ غَيْرِهِ؟

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ١٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ /٤، ٢٦٧، والحميري: الروض المطار
ص ٣٥، والمقربي: نفح الطيب /١ . ٢٥٣

سَرِيَّةُ طَرِيفِ بْنِ مَالِكٍ أَوْلَى سَرِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ :

وصلت رسالة الإذن من الخليفة الوليد بن عبد الملك فجهَّز موسى بن نصير بالفعل سريةً من خمسةٍ مائةٍ رجل، وجعل على رأسهم طريف بن مالك، وكان طريف -أيضاً- من الأمازيغ (البربر).

سار طريف بن مالك -ويكنى أبا زرعة- من المغرب على رأس خمسةٍ مائةٍ من المسلمين (أربعمائة راجل معهم مائةٌ فارس) صوب الأندلس، واستقلَّ أربعة مراكب فوصلها في رمضان عام (٩١٠هـ = ٧١٠م)، وتذكر بعض الروايات أن طريفاً قام بعدة غارات وغنم غنائم كثيرة من أموال وأمتعة وأسرى أيضاً^(١).

وقد قام طريف بن مالك عليه السلام بمهمة على أكمل وجه في دراسته لمنطقة الأندلس الجنوبيَّة، التي سينزل فيها الجيش الإسلامي بعد ذلك، (وقد عُرِفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد فُسُمِيَّتْ جزيرة طريف)، ثم عاد بعد انتهاء منهَا إلى مُوسَى بن نُصَيْر وشرح له ما رأه، وفي آنَّا شديدةً وعمل داءوبٌ ظَلَّ مُوسَى بن نُصَيْر بعد عودة طريف بن مالك عاماً كاملاً يجهَّز الجيش ويُعِدُ العدة، حتى جَهَّزَ في هذه السنة سبعةَ آلَافِ مقاتلٍ، وبدأ بهم الفتح الإسلامي للأندلس رغم الأعداد الضخمة لقواتِ النصارى هناك^(٢).

فتح الأندلس ومساعدة يُلِيان واليهود :

تكثُر بعض الروايات العربية والأجنبية من ذكر يُلِيان حاكم سبتة وتقْحُمه في كل مرحلة من مراحل فتح المسلمين لبلاد الأندلس، وتفيد بأن التفكير في فتح الأندلس لم يأت إلاً بعد عرض يُلِيان المساعدة على المسلمين، أو طلبه المساعدة من المسلمين لإرجاع أولاد غيطشة إلى حكم الأندلس، والانتقام من لُذرِيق الذي نال

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ١٦، ١٧، والحميري: الروض المطار ص ٣٥، والمقربي: فتح الطيب / ١ ٢٥٤.

(٢) الحميري: الروض المطار ص ٣٥، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٦٦.

من عرض ابنته.

وحقيقة الأمر أن الاتصال بين يُليان حاكم سبتة وبين طارق بن زياد وموسى بن نصير جاء مواتياً في الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير (ولي إفريقيا) يُفكّر في فتح الأندلس، وذلك بعد فتح طُبْجَة المشرفية على الأندلس، فمن الطبيعي جداً أن تكون الأندلس هي الخطوة الثانية التي يُفكّر فيها موسى بن نصير، ونحن لا ننفي الاتصال بين الجانين الإسلامي والإسباني؛ ولكن لا يجعله السبب الرئيس لفكرة الفتح؛ لأنَّه يُقللُ من قيمة الفتح الإسلامي للبلاد؛ حيث يَدْعِي البعض أن مساعدات يُليان وتسهييلاته لطارق هي التي ساعدت في نجاح الفتح، ولكننا لا نستبعد أن يكون ذلك عاملاً مساعداً من عوامل نجاح عملية الفتح، ولا يُستبعد - كذلك - أن يكون يُليان قدّم تسهييلات للمسلمين؛ خاصة فيما يتعلق بأماكن البلاد وسبل مداخلها ومخارجها، أمّا أن يكون العامل الوحيد فهذا أمر تأبه الحقيقة التاريخية.

أمّا ما يتعلّق بمساعدة اليهود للمسلمين وتقديمهم التسهيلات الالزمة لإتمام عملية الفتح، فليس لها أساس من الصحة لأسباب عدّة؛ منها:

١ - لا توجد أي إشارة في المصادر والمراجع العربية عن أي تسهييلات قدّمها اليهود للمسلمين؛ إذ لو كانت هناك مساعدة لذكرها المؤرخون للتاريخ الأندلسي وهم كثُر، ولتناقلتها الرواية جيلاً بعد جيل؛ كما ذكرروا مساعدة يُليان وتناقلوها.

٢ - ليس من الداعي أن تُقحم اليهود في عملية الفتح؛ خاصة بعد أن علمنا أن فكرة الفتح نفسها فكرة إسلامية صميمية؛ قبل أن يعرض يُليان أو أولاد غيطشة أو اليهود المساعدة على المسلمين، فكان من حكمة القائد الفذ موسى بن نصير أن يستغل هذه الفرصة، خاصة وهم أدرى الناس بمدخل الأندلس ومخارجها.

٣- المتبع لسير عملية الفتح التي قام بها المسلمون للمدن الأندلسية، يتضح له أن المسلمين لم يكونوا على علم بوجود أعداد كبيرة من اليهود في بلاد الأندلس، فصاحب (أخبار مجموعة) يقول عن فتح إليرية: «فحضرروا مديتها فافتتحت، فألفوا بها يومئذ يهودا»^(١). ويقول لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) عن فتح طارق بن زياد لغرناطة مدينة إليرية: «فحاصروا مديتها، وفتحوها عنوة، وألفوا بها يهودا ضمّوهم إلى قصبة»^(٢) غرناطة، وصار لهم ذلك سنة متبعة؛ متى وجدوا بمدينة فتحوها يهوداً، يضمونهم إلى قصبتها، و يجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها»^(٣).

وهذا ينفي وجود أي صلة لليهود بالفتح؛ إذ لو كان لهم صلة لعلّ المسلمين بأماكن تواجدهم بالأندلس، وصيغة «ألفوا» توحّي بعدم المعرفة المسبقة للأمر، وكأنَّ الأمر مفاجأة.

٤- لا يُستبعد أن يكون إقحام اليهود في عملية الفتح متعمداً، ويكون الهدف من ذلك هو التقليل من عملية الفتح الإسلامي العظيم، والنصر المؤزر الذي حققه طارق بن زياد على القوط على الرغم من قلة عدد المسلمين بالنسبة للجيش الأندلسي، الذي كان يفوقه أضعافاً.

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢١، ٢٢.

(٢) القصبة: القلعة، والقصر وجوف المحنن. ابن منظور: لسان العرب، مادة قصب / ١، ٦٧٤، والمعجم الوسيط ٧٣٧، وهو استعمال أندلسي ذائع، وكانت القصبة الأندلسية تضم في معظم الأحيان قصرَ المحاكم ومسجدًا للصلوة وثكنات للجند. انظر ابن الخطيب: الإحاطة / ١٠١ (تعليق المحقق: محمد عبد الله عنان).

(٣) لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة / ١٠١.

الفصل الثالث

طارق بن زياد يفتح الأندلس

بعد عام من الحملة الاستطلاعية الناجحة التي قادها طريف بن مالك رحمه الله، وبعد أن انتهى موسى بن نصیر من وضع خطة الفتح، وفي شعبان^(١) من سنة ٩٢ هـ = يونيو ٧١١ م تحرّك هذا الجيش المكون من سبعة آلاف فقط من جنود الإسلام، وعلى رأسه القائد طارق بن زياد.

يقول ابن الكردبوس: «وكان موسى بن نصیر حين أنفذ طارقاً مُكِبِّاً على الدعاء والبكاء والتضرّع لله تعالى، والابتهاج إليه في أن ينصر جيش المسلمين...»^(٢).

حملة طارق وسفينة العبور:

كثيراً ما يتردّد في تاريخ الفتح الإسلامي للأندلس الحديث عن السفن التي استعملها الجيش الإسلامي في عبوره إلى الأندلس، وفي هذه السطور نُؤَضِّح بعض الأمور المهمة عن حقيقة تلك السفن، ومدى نسبتها إلى يُليان حاكم سبتة من خلال النقاط التالية^(٣):

• أتم المسلمون فتح بلاد الشمال الإفريقي قبل فتح الأندلس بعقود طويلة،

(١) اختللت روايات المؤرخين في الشهر الذي عبر فيه طارق بن زياد الجبل المنسوب إليه؛ منهم من قال: في الخامس من رجب. كابن الأثير في الكامل ٤/٢٦٨، وابن عذاري في البيان المغرب ٢/٦، والذهبي في تاريخ الإسلام ٦/٣٩٣، والمقرري في نفح الطيب ١/٢٥٤، ومن المؤرخين من ذكر الشهرين دون ترجيح؛ منهم: الحميري في الروض المعطار ص ٣٥، وابن الخطيب في الإحاطة ١/١٠٠.

(٢) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٦٧، ٦٨.

(٣) للمزيد انظر: عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٤٧ - ٤٩.

ومعلوم أن الشمال الإفريقي تطل شواطئه على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وهذا يجعلهم يُفكرون في توفير السفن الازمة لحاجتها من أي اعتداء بيزنطي؛ وهو متوقع لما كان بين الدولة الإسلامية والبيزنطيين من عداء مستحكم؛ وهذا لا يجعلهم يتوجهون إلى استعارة السفن، بل يجب أن تكون مملوكة لهم.

- سبق لل المسلمين نشاط بحري حربي في الشمال الإفريقي؛ ففي عام (٤٦ هـ) وجَّه معاوية بن حُدَيْجَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسَ لغزو صقلية، فكان أولَ مَنْ غزاها، وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان^(١).
- كان اهتمام المسلمين واضحاً بصناعة السفن منذ وقت مبكر بعد فتح إفريقية، فأقاموا داراً لصناعة السفن في تونس في عهد الحسان بن النعمان وإلى الشمال الإفريقي (٧٦-٨٦ هـ).
- فُتِّحتْ طنجة في ولاية عقبة بن نافع رض سنة (٦٣ هـ)، وهي ميناء صالح لصناعة السفن.
- استعمل طريف بن مالك أربعة سفن للعبور بسريته الخامسة^(٢)، وهذه السفن هي التي استعملها طارق بن زياد لعبور سبعة آلاف مسلم من المضيق إلى الأندلس^(٣)، ولم يُذكر اسم يُليان في هذا السياق، بل وُتَّصرَّح بعض الروايات بأن موسى بن نصیر قد عمل من السفن عِدَّة؛ يقول المقرى: «وكان موسى من ذَرَّة طارقاً لوجهه قد أخذ في عمل السفن؛ حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددًا كملت بهم عدة مَنْ معه اثنى عشر ألفاً؛ أقوىاء على المغانم، حِرَاصاً على اللقاء، ومعهم يُليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١ / ٢٥٣.

(٢) مجھول: أخبار مجموعه ص ١٦.

(٣) السابق ص ١٧.

عمله؛ يدْلِمُ على العورات، ويتجسّس لهم الأخبار»^(١). وَتَذَكَّرُ بعض الروايات أن السفن التي حملت الجيش الإسلامي إلى الأندلس هيأها له يُليان حاكم سَبَّة^(٢)، ويقول ابن عذاري في البيان المغرب: «فكان يُليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنو أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل الناس فوجاً بعد فوج إلى الأندلس»^(٣). فبناءً على هذه الروايات فالسفن ليست لـيُليان وإنما عاون في تأجيرها لمعرفته بها.

- القيام بعملية فتح بلاد مثل بلاد الأندلس لا يمكن أن يفي بحاجتها استعارة سفن؛ لا سيما وأن النشاط البحري مألف عن المسلمين، وسبق التهيؤ لفتح الأندلس قبله بعده سنوات، وامتلاك السفن وصناعتها أحد هذه الأسباب.

كل هذا يُؤكّد أن أكثر السفن التي استعملها المسلمون في فتح الأندلس كانت إسلامية الصنع، أنتجتها دار قرية، أو جُلِيَّت من دور أخرى بعيدة.

:

تحرّك الجيش الإسلامي وعبر مضيق -الذي عُرف فيما بعد باسم قائد هذا الجيش مضيق جبل طارق- من خلال السفن؛ وذلك لأن طارق بن زياد حين عبر مضيق نزل عند هذا الجبل، وقد ظلَّ إلى الآن -حتى في اللغة الإسبانية- يُسمَّى جبل طارق ومضيق جبل طارق، ومن جبل طارق انتقل طارق بن زياد إلى منطقة واسعة تُسمَّى الجزيرة الخضراء، وهناك قابل الجيش الجنوبي للأندلس، وهو حامية جيش النصارى في هذه المنطقة؛ فلم تكن قوَّة كبيرة، وكعادة الفاتحين المسلمين فقد عرض طارق بن زياد عليهم الدخول في الإسلام، ويكون لهم ما للMuslimين وعليهم

(١) المقري: فتح الطيب / ١٢٥٧.

(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٣٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٦/٢.

ما على المسلمين، ويتركهم وأملاكهم، أو يدفعون الجزية ويترك لهم -أيضاً- ما في أيديهم، أو القتال، ولا يؤخّرهم إلا ثلاثة، لكن تلك الحامية أخذتها العزة وأبْتَـ إلا القتال؛ فكانت الحرب سجالاً بين الفريقين؛ حتى انتصر عليهم طارق بن زياد، فأرسل زعيم تلك الحامية وكان اسمه تدمير رسالة عاجلة إلى لُذريق -وكان في طليطلة عاصمة الأندلس آنذاك- يقول له فيها: أَدْرِكْنَا يَا لُذريق؛ فإنه قد نزل علينا قوم لا ندرى أَهُمْ من أهل الأرض أم من أهل السماء؟! قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيُـهم فلتنهض إلىَـ بنفسك^(١).

لقد كان المسلمون فعلاً أناساً غريباً -بالنسبة لهم- فالذى عندهم أن الفاتح أو المحتلّ لبلد آخر إنها تقتصر مهمته على السلب والنهب لخيرات البلد، والذبح والقتل في كثير من الأحيان؛ أمّا أن يجدوا أناساً يعرضون عليهم الدخول في دينهم ويتركون لهم كل شيء، أو أن يدفعوا لهم الجزية ويتركون لهم -أيضاً- كل شيء؛ بل ويحمونهم من الأعداء، فهذا ما لم يعهدوه من قبل في حياتهم؛ بل ولا في تاريخهم كلّه، وفضلاً عن هذا فقد كانوا في قتالهم من المهرة الأكفاء، وفي ليلتهم من الرهبان المصليّـين، وقد أبدى قائد تلك الحامية دهشته وعجبه الشديد من أمر هؤلاء المسلمين؛ وتساءل في رسالته إلى لُذريق عن شأنهم: أَهُمْ من أهل الأرض، أم من أهل السماء؟! وصدق؛ فهم من جند الله ومن حزبه

[المجادلة: ٢٢].

لما وصلت أنباء تقدُّم طارق بن زياد إلى لُذريق -وكان في الشمال- لم يتهيَـب الموقف للمرة الأولى؛ لاعتقاده أن المسألة لا تعود أن تكون غزوة من غزوات

النهب، لن تثبت أن تتلاشى، ولكن حين وصلته أنباءً تقدّم المسلمين ناحية قُرطبة، أسرع إلى طليطلة وحشد حشوده، وأرسل قوّة عسكرية بقيادة ابن أخته بنشيyo - وكان أكبر رجاله - للتصدّي لهم، ووقع القتال بالقرب من الجزيرة الخضراء، فكانوا عند كل لقاء يُهرّمون، وقُتِلَ قائدهم بنشيyo، وفرَّ مَنْ تَجَأَ من جنوده في اتجاه الشمال؛ ليُخبروا لُذريق بما جرى، وبفداحة الخطر القادم من الجنوب^(١).

موقعه وادي برباط (٧١١-٥٦٢) وفتح الأندلس :

حين وصلت رسالة الفارّين المهزمين إلى لُذريق وقعت عليه وقعة الصاعقة؛ فجُنّ جنوئه، وفي غرورٍ وصلفٍ جمع جيشاً قوامه مائة ألف من الفرسان^(٢)، وجاء بهم من الشمال إلى الجنوب يقصد جيش المسلمين، وكان طارق بن زياد في سبعة آلاف فقط من المسلمين جُلُّهم من الرّجال، وعدٍ محدود جدًا من الخيول، فلماً أبصر أمراً لُذريق وجد صعوبة بالغة في المواجهة، سبعة آلاف أمام مائة ألف؛ فأرسل إلى موسى بن نصیر يستنجهه ويطلب منه المدد، فبعث إليه طريف بن مالك على رأس خمسة آلاف آخرين من الرجال - أيضًا - تحملهم السفن^(٣).

وصل طريف بن مالك إلى طارق بن زياد وأصبح عدد الجيش الإسلامي اثنى عشر ألف مقاتل، وبدأ طارق بن زياد يستعد للمعركة؛ فكان أول ما صنع أن بحث عن أرض تصلح للقتال، حتى وجد منطقة تسمى وادي برباط، وتسمّيها بعض المصادر أيضًا (وادي لُكّة^(٤))، وكان لا اختيار طارق بن زياد لهذا المكان أبعاد

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٨/٢، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٣٧، ٣٨.

(٢) اختلفت تقديرات المؤرخين لعدد جيش لُذريق؛ فهـى على أقل تقدير أربعون ألفاً، كما عند ابن خلدون في تاريخه ٤/١١٧، وعلى أعلى تقدير ستة ألاف؛ كما هو عند الحميري في الروض المطار في خبر الأقطار ص ٣٥، وهي نحو مائة ألف كما عند المقري في نفح الطيب ١/٢٥٧، وحسين مؤنس في فجر الأندلس ص ٧٠.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص ١٧، والمقري: نفح الطيب ١/٢٣٢.

(٤) في بعض المصادر (وادي لُقّة) أو (لِقَة) بالكسر.

استراتيجية وعسكرية مهمة؛ فقد كان من خلفه وعن يمينه جبل شاهق، وبه حمى ظهره ومينته؛ فلا يستطيع أحد أن يلتف حوله، وكان في ميسره -أيضاً- بحيرة فهي ناحية آمنة تماماً، ثم وضع على المدخل الجنوبي لهذا الوادي (أي في ظهره) فرقة قوية بقيادة طريف بن مالك؛ حتى لا يُغتَّ أحد ظهر المسلمين؛ ومن ثم يستطيع أن يستدرج قوات النصارى من الناحية الأمامية إلى هذه المنطقة، ولا يستطيع أحد أن يلتف من حوله.

ومن بعيد جاء لُذريق في أبهى زينة؛ يلبس التاج الذهبي والثياب الموشأة بالذهب، وقد جلس على سرير محلى بالذهب يجربه بغلان^(١)، فهو لم يستطع أن يتخلّى عن دنياه؛ حتى وهو في لحظات الحرب والقتال، وقدم على رأس مائة ألف من الفرسان، وجاء معه بحـالٍ مـحملـاً على بـغالـ! ولا تتعجبـ كـثيرـاً؛ إذا علمـتـ أنه أتـى بهذهـ الحـبـالـ ليـقـيـدـ بهاـ أـيـديـ المـسـلـمـينـ وأـرـجـلـهـمـ بعدـ هـزـيمـتـهـمـ المـحـقـقـةـ -فيـ زـعـمـهـ- ثمـ يـأـخـذـهـمـ عـبـيدـاـ، وهـكـذاـ فيـ صـلـفـ وـغـرـورـ ظـنـَّ أـنـهـ حـسـمـ المـعرـكـةـ لـصـالـحـهـ؛ فـفـيـ مـنـطـقـهـ وـبـقـيـاسـهـ أـنـ اـثـنـيـ عـشـرـ أـلـفـ يـحـتـاجـونـ إـلـىـ الشـفـقـةـ وـالـرـحـمـةـ؛ وـهـمـ أـمـامـ مـائـةـ أـلـفـ مـنـ أـصـحـابـ الـأـرـضـ.

وفي ٢٨ من شهر رمضان سنة ٩٢ هـ = ١٩ من يوليو سنة ٧١١ م بـوـادـيـ بـرـبـاطـ دـارـتـ مـعرـكـةـ هـيـ مـنـ أـشـرـسـ المـارـكـ فيـ تـارـيـخـ الـمـسـلـمـينـ، وإنـ النـاظـرـ العـادـيـ إـلـىـ طـرـفـ الـمـعرـكـةـ لـيـدـخـلـ فـيـ قـلـبـهـ الشـفـقـةـ -حـقـاـ- عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ؛ الـذـينـ لـاـ يـتـعـدـىـ عـدـدـهـمـ الـاثـنـيـ عـشـرـ أـلـفـ، وـهـمـ يـوـاجـهـونـ مـائـةـ أـلـفـ كـامـلـةـ، فـبـمـنـطـقـ العـقـلـ: كـيـفـ يـقـاتـلـونـ؟ـ هـذـاـ فـضـلـاـ عـنـ أـنـ يـتـصـرـواـ.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب .٧ / ٢

غزة

الملقة

حلق طارق

برباد

الجزر
المصراء

طنجة

سبتبة

البحر المتوسط

صخرة بلاي

المحيط الأطلسي

خريطة رقم (٤) مدقع بعدقى برباد - وادى لوكى
وادى شادى - وادى سيدى خواجى - وادى سيدى عيسى

شجرة الأدب

رغم المفارقة الواضحة بين الفريقين إلا أنَّ الناظر المحلل يرى أن الشفقة كل الشفقة على المائة ألف، فالطرفان **﴿كُلُّهُمَا يُنْهَمُونَ فِي رَبْعٍ﴾** [الحج: ١٩]؛ وشتان بين الخصمين! شتان بين فريق خرج طائعاً مختاراً، راغباً في الجهاد، وبين فريق خرج مُكرهاً مضطراً مجبراً على القتال! شتان بين فريق خرج مستعداً للاستشهاد، مسترخصاً الحياة من أجل عقيدته، متعالياً على كل روابط الأرض ومنافع الدنيا، أسمى أمانية الموت في سبيل الله، وبين فريق لا يعرف من هذه المعاني شيئاً، أسمى أمانية العودة إلى الأهل والمال والولد! شتان بين فريق يقف فيه الجميع صفاً واحداً كصفوف الصلاة؛ الغني بجوار الفقير، والكبير بجوار الصغير، والحاكم بجوار المحكوم، وبين فريق يمتلك فيه الناس بعضهم بعضاً ويستعبد بعضهم بعضاً!

وهذا فريق يقوده رجل ربانى - طارق بن زياد - يجمع بين التقوى والكفاءة، وبين الرحمة والقوَّة، وبين العزَّة والتواضع، وذاك فريق يقوده مسلط مغرور، يعيش متربقاً مُنْعَماً، بينما شعبه يعيش في بؤس وشقاء، وقد ألهب ظهره بالسياط! هذا جيش توزَّع عليه أربعةُ أخماس الغنائم بعد الانتصار، وذاك جيش لا ينال شيئاً، وإنما يذهب كله إلى الحاكم المسلط المغرور؛ وكأنها حارب وحده! هذا فريق ينصره ويوَيَّدُه الله ربُّه؛ خالق الكون ومالك الملك **﴿كُلُّهُمَا يُنْهَمُونَ فِي رَبْعٍ﴾** [المجادلة: ٢١]؟! على من تكون الشفقة وقد قال **﴿كُلُّهُمَا يُنْهَمُونَ فِي رَبْعٍ﴾** [النساء: ١٤١]؟! فالمعركة إذاً باتت وكأنها محسومة قبلاً.

شجرة الأدب

هكذا وفي شهر رمضان بدأت معركة وادي برباط غير المكافأة ظاهرياً،

والمحسومة بالمنطق الرباني، بدأت في شهر الصيام والقرآن، الشهر الذي ارتبط اسمه بالمعارك والفتوحات والانتصارات، وعلى مدى ثمانية أيام متصلة دارت رحى الحرب، وبدأ القتال الضاري الشرس بين المسلمين والنصارى، أمواج من النصارى تنهمر على المسلمين، والمسلمون صابرون صامدون؛ **(رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى لَهُجَةً وَعِنْهُمْ مَنْ يُسْتَطِرُ وَمَا يَدْلُو إِلَيْهِ بِلَا)** [الأحزاب: ٢٣].

وعلى هذه الحال ظلَّ الوضع طيلة ثانية أيام متصلة انتهت بنصر مؤزر للMuslimين؛ بعد أن عَلِمَ اللَّهُ صبرهم وصدق إيمانهم، لقد سطر المسلمين بقيادة طارق بن زياد ملحمة من ملاحم الجهاد التي لم تشهدها بلاد المغرب والأندلس من قبل؛ ثانية أيام تتلاطم فيها السيف وتساقط فيها أشلاء القتل والشهداء، لقد قاتل الجيش القوطى قتالاً شديداً يُعبر عن شدةَ بأس وقوَّة شكيمة؛ ولكن هيهات أن تصمد تلك القوَّة أمام صلابة الإيمان وقوة العقيدة التي يتحلَّ بها الجيش المسلم؛ واثقاً بربه متيقناً النصر! ويصف ابن عذاري جيش المسلمين وهم في هذا الجو المتألم في المعركة فيقول: «فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجاله، ليس فيهم راكب إلاَّ القليل؛ فاقتلوها قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء»^(١). وفي نفح الطيب يقول المقرى: «كانت الملاقة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثانية أيام، ثم هزَّم الله المشركين؛ فُقِيلَ منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم -بعد ذلك بدهر طويل- ملبسة لتلك الأرض»^(٢). وأمَّا لذریق فقيل: إنه قُتل. وفي رواية: إنه فرَّ إلى الشمال. لكن ذِكره اختفى إلى الأبد.

والحقيقة التي أثبتتها هذه المعركة -وغيرها من المعارك الحاسمة في التاريخ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/٧.

(٢) المقرى: نفح الطيب ١/٥٩٠.

الإسلامي - أن المسلمين لا يتصرفون إلا بقوتهم الإيمانية؛ إن هذا الفتح يعود إلى قوّة المسلمين بتمكن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم، إن تفوّق المسلمين مستمدّ دوماً من إيمانهم بعقيدتهم؛ وليس من سوء أحوال الآخرين، كما أن الإسلام ينبع تفوّقه وسبقه من ذاتيّة القوّة وعقيدته النقيّة وتشريعه المكين؛ لأنّه من وحي الله تعالى^(١).

تمحّضت عن هذه المعركة عدّة نتائج؛ كان أهمّها:

- ١ - طوت الأندلس صفحة من صفحات الظلم والجهل والاستبداد، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الرقي والتحضر.
- ٢ - غنم المسلمون غنائم عظيمة؛ كان أهمّها الخيول، فأصبحوا خيالاً بعد أن كانوا رجالة.
- ٣ - بدأ المسلمون المعركة وعددهم اثنا عشر ألفاً، وانتهت المعركة وعددهم تسعة آلاف؛ فكانت الحصيلة ثلاثة آلاف من الشهداء رُووا بدمائهم الغالية أرض الأندلس، فأوصلوا هذا الدين إلى الناس، فجزاهم الله عن الإسلام خيراً.

وقفات مع خطبة طارق بن زياد^(٢):

أورد ابن خلكان في (وفيات الأعيان) والمقرى التلمساني في (نفح الطيب) أنه لما اقترب جيش لُذريق من الجيش الإسلامي، قام طارق بن زياد في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه، ثم قال: «أيها الناس؛ أين المفرُّ؟ والبحر من ورائكم والعدُو أمامكم، فليس لكم والله! إلّا

(١) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٥٥.

(٢) السابق، ص ٥٩، ٦١.

الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيئُ من الأيتام في مآدب اللثام، وقد استقبلتم عدوَّكم بجيشه وأسلحته، وأقوائُه موفرة، وأنتم لا وزَرَ^(١) لكم غير سيفكم، ولا أقوات لكم إلَّا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدَّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوَّضت القلوبُ من رعبها منكم الجرأةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجة هذا الطاغية، فقد ألقته إليكم مدِيَّته المحسنة، وإن انتهز الفرصة فيه لمكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت. وإن لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجُوة^(٢)، ولا حملتكم على خُطَّةٍ أرْخَصُ مِنْتَاعٍ فيها النفوسُ إلَّا وأنا أبدأ بِنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً؛ استمتعتم بالأرفة الألذ طويلاً، فلا ترغبو بأنفسكم عن نفسي^(٣)، فيما حَظُّكم فيه أوفر من حَظَّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرةُ من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدُّرُّ والمرْجَان، والخليل المنسوجة بالعُقَيَّان^(٤)، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عُرباً، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً؛ ثقةً منه بارتياحكم للطُّعَان، واستماحِكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حَظُّه معكم ثواب الله على إعلاء كلامته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون معنمتها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولِيُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذُكْرًا في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوْتكم إليه، وأني عند ملتقى

(١) الوزَرَ: المُلْجَأُ. الجوهرى: الصلاح، باب الراء فصل الواو /٨٤٥، ابن منظور: لسان العرب، مادة وزر ٥/٢٨٢، والمجم الوسیط ٢/١٠٢٨.

(٢) النَّجُوةُ: المكان المرتفع الذي تظنُّ أنه نجاوك. ويقال: هو بنجوة من هذا الأمر؛ بعيد عنه بريء سالم. الجوهرى: الصلاح، باب الواو والياء فصل النون ٦/٢٥٠٢، ٢٥٠٣، ابن منظور: لسان العرب، مادة نجا ١٥/٣٠٤، والمجم الوسیط ٢/٩٠٥.

(٣) أي: لا تروا لأنفسكم فضلاً علىَّ، من رغب بنفسه عن فلان: رأى لنفسه عليه فضلاً. ابن منظور: لسان العرب، مادة رغب ١/٤٢٢، والمجم الوسیط ١/٣٥٦.

(٤) العُقَيَّان قيل: هو الذهب الحالص. وقيل: هو ما ينبعُ منه نباتاً. ابن منظور: لسان العرب، مادة عقا ١٥/٧٩.

الجمعين حامل ببنسي على طاغية قومه لُدْرِيق فقاتَلُه -إن شاء الله تعالى- فاحملوا معي، فإن هلكتُ بعده فقد كَفَيْتُكُمْ أمره، ولن يُعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفو الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخذلون»^(١).

ولنا وقفات مع هذه الخطبة:^(٢)

- ١ - لم يتعرّض المؤرخون لتاريخ الفتح الأندلسي -سواء من المقدمين أو المتأخرین- إلى هذه الخطبة، وهذا يُشير إلى عدم شيوعها، وعدم معرفة المؤرّخين لها؛ وهو أمر يُقلّل أو يمحو الثقة بواقعيتها.
- ٢ - لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول المجري)، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة.
- ٣ - ذكر في الخطبة: «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباً». والذي انتخبهم القائد موسى بن نصير وإلي إفريقية وليس الوليد.
- ٤ - كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن وأحاديث الرسول الأمين عليه السلام، أو وصايا وأحداثٍ ومعانٍ إسلامية تناسب المقام كالمعهود.
- ٥ - إن طارقاً -وأكثر الجيش- من الأمازيغ (البربر)؛ مما يجعل من المناسب أن يخاطبهم بلغتهم؛ إذ ليس من المتوقع أن تكون لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوى عالٍ.

طارق بن زياد وقضية حرق السفن

قبل الانتقال إلى ما بعد وادي بَرَيَاط، لا بدَّ لنا من وقفَةٌ أخرى؛ أمّام قضية

(١) ابن خلkan: وفيات الأعيان ٥ / ٥٣٢٢، ٥٣٢١، والمقربي: نفح الطيب ١ / ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) د. عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٥٩-٦١.

اشتهرت وذاع صيتها كثيراً في التاريخ الإسلامي بصفة عامّة، والتاريخ الأوروبي بصفة خاصة، وهي قضية حرق طارق بن زياد للسفن التي عَبَرَ بها إلى بلاد الأندلس قبل موقعة وادي بِرْبَاط مباشرة.

فما حقيقة ما يُقال من أن طارق بن زياد أحرق كل السفن التي عبر عليها؟ وذلك حتى يُحَمِّسَ الجيش على القتال، وقد قال لهم: البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، فليس لكم نجاة إلَّا في السيف.

في حقيقة الأمر هناك من المؤرخين مَنْ يُؤَكِّد صحة هذه الرواية، ومنهم مَنْ يُؤَكِّد بطلانها، ونحن مع مَنْ يرى أنها من الروايات الباطلة؛ وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أن هذه الرواية ليس لها سند صحيح في التاريخ الإسلامي؛ فعلم الرجال وعلم الجرح والتعديل الذي تميّز بهما المسلمون عن غيرهم يُحيلنا إلى أن الرواية الصحيحة لا بدّ من أن تكون عن طريق أناس موثوق بهم، وهذه الرواية لم ترد قطُّ في روايات المسلمين الموثوق بتاريخهم، وإنما أتت إلينا من خلال المصادر والروايات الأوروبيّة التي كتبت عن موقعة وادي بِرْبَاط.

ثانياً: أنه لو حدث وأحرق طارق هذه السفن بالفعل لتطلّب ذلك ردّ فعل من قبل موسى بن نصير أو الوليد بن عبد الملك استفساراً عن هذه الواقعة، أو حواراً بين موسى بن نصير وطارق بن زياد حول هذه القضية، أو تعليقاً من علماء المسلمين عن جواز هذا الفعل من عدمه، وكل المصادر التاريخية التي أوردت هذه الرواية وغيرها لم تذكر على الإطلاق أي ردّ فعل من هذا القبيل؛ مما يعطي شَكّاً كبيراً في حدوث مثل هذا الإحرق.

ثالثاً: أن المصادر الأوروبيّة قد أشاعت هذا الأمر؛ لأن الأوروبيين لم يستطيعوا

أن يُفَسِّرُوا كَيْفَ انتصَرَا إِثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الرَّجَالَةَ عَلَى مائَةِ أَلْفٍ فَارِسٍ مِنَ الْقَوْطِ النَّصَارَى فِي بِلَادِهِمْ وَفِي عَقْرِ دَارِهِمْ، وَفِي أَرْضِ عِرْفُوهَا وَأَلْفُوهَا؟! فَفِي بَحْثِهِمْ عَنْ تَفْسِيرٍ مُقْنِعٍ لِهَذَا الْإِنْتِصَارِ الْغَرِيبِ قَالُوا: إِنَّ طَارِقَ بْنَ زَيْدٍ قَامَ بِإِحْرَاقِ السُّفُنِ لِكَيْ يَضُعَ الْمُسْلِمِينَ أَمَامَ أَحَدَيْهِمْ: الْغَرْقُ فِي الْبَحْرِ مِنْ وَرَاهِيهِمْ، أَوِ الْهَلاَكُ الْمُحْدَقُ مِنْ قَبْلِ النَّصَارَى مِنْ أَمَانِهِمْ، وَكُلَا الْأَمْرِيْنَ مَوْتٌ مُحَقَّقٌ؛ وَمِنْ ثُمَّ فَالْخَلُولُ الْوَحِيدُ لِهَذِهِ الْمُعَادِلَةِ الصُّعُوبَةُ هُوَ الْإِسْتِهَانَةُ فِي الْقَتَالِ؛ لِلْهُرُوبِ مِنَ الْمَوْتِ الْمُحِيطِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فَكَانَتِ النَّتِيْجَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الْإِنْتِصَارُ، وَلَوْ كَانُوا يَمْلُكُونَ الْعُودَةَ لِكَانُوا قَدْ رَكَبُوا سُفُنَهُمْ وَانْسَجَبُوا عَائِدِيْنَ إِلَى بِلَادِهِمْ.

وَهَكَذَا فَسَرَ الْأُورَبِيُّونَ النَّصَارَى السَّرَّ الْأَعْظَمُ - فِي زَعْمِهِمْ - فِي إِنْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ فِي وَادِي بَرْبَاطُ، وَهُمْ مَعْذُورُونَ فِي ذَلِكَ؛ إِذْلِمْ يَفْقَهُوْنَ الْقَاعِدَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْمُشْهُورَةَ وَالْمَسْجَلَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَالَّتِي تَقُولُ: ﴿كَمْ مِنْ فِتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتَّةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾ [الْبَرَّ: ٢٤٩].

فَالنَّاظِرُ فِي صَفَحَاتِ التَّارِيْخِ الْإِسْلَامِيِّ يَجِدُ أَنَّ الْأَصْلَ هُوَ أَنْ يَنْتَصِرَ الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ قَلَّةٌ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الْكَثِيرِيْنَ؛ بَلْ وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ إِذَا زَادَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فِي الْعَدْدِ، وَاغْتَرُوا بِتَلْكَ الْزِيَادَةِ أَنْ تَكُونَ النَّتِيْجَةُ هِيَ الْهَزِيمَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا هُوَ مَا حَدَثَ يَوْمَ حَنِينَ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا أَعْجَبْتُكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُفْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ إِيمَارَ حَبَّتْ ثُمَّ وَلَيْتَمْ مُدْبِرِيْنَ﴾ [التُّوْبَةَ: ٢٥].

وَمِنْ هَنَا فَقَدْ حَاوَلَ الْأُورَبِيُّونَ - عَنْ جَهَلٍ مِنْهُمْ وَسُوءِ طَوِيْةِ - أَنْ يَضْعُوْا هَذَا التَّفْسِيرَ وَتَلْكَ الْحُجَّةَ الْوَاهِيَّةَ؛ حَتَّى يُثِبُّتُوا أَنَّ النَّصَارَى لَمْ يُهْزَمُوا فِي ظَرُوفِ مُتَكَافِئَةٍ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَنْتَصِرُوا إِلَّا لِظَرُوفٍ خَاصَّةٍ جَدًّا.

رَابِعًا: مَتَى كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْتَاجُونَ إِلَى مَثْلِ تَلْكَ الْحَمَاسَةِ الَّتِي تُحْرِقُ فِيهَا

سفنهم؟! وماذا كانوا يفعلون في مثل هذه المواقف - وهي كثيرة - والتي لم يكن هناك سفن ولا بحر؟! فالمسلمون إنما جاءوا إلى هذه البلاد راغبين في الجهاد، طالبين الموت في سبيل الله؛ ومن ثم فلا حاجة لهم بقائد يُحْمِسُهم بحرق سفنهم، وإن كان هذا يُعَذِّبُ جائزًا في حقّ غيرهم.

خامسًا: ليس من العقول أن قائدًا محنكًا مثل طارق بن زياد رض يقدم على إحراق سفنه، وقطع خط الرجعة على جيشه، فماذا لو انهزم المسلمون في هذه المعركة، وهو أمر وارد وطبيعي جدًا؟ ألم يكن من الممكن أن تحدث الكرّة على المسلمين؛ خاصةً وهم يعلمون قول الله ص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَاحُّهُمْ كَلَّا لَتُؤْلُهُمُ الْأَدْبَارُ﴾ وَمَنْ يُوَلِّهُمْ يُوَسِّلِهُمْ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَّحِرّفًا لِقَتَالٍ أَوْ مُتَحَيَّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَلَدُّ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ حَمَّهُمْ وَرِفَسَ الْمُصَبِّرُ﴾ [الأفال: ١٥-١٦].

وهناك إذا احتمال أن ينسحب المسلمون من ميدان المعركة؛ وذلك إماً ما متّحرّفين لقتال جديد، وإماً تحيزاً إلى فئة المسلمين، وقد كانت فئة المسلمين في المغرب في الشمال الإفريقي؛ فكيف إذاً يقطع طارق بن زياد على نفسه التحرّف والاستعداد إلى قتال جديد، أو يقطع على نفسه طريق الانحياز إلى فئة المسلمين؟! ومن هنا فإنَّ مسألة حرق السفن هذه تُعَذِّبُ تجاوزًا شرعيًا كبيرًا، لا يُقدم عليه مثل طارق بن زياد رض، وما كان علماء المسلمين وحكامهم ليقفوا مكتوفي الأيدي حيال هذا الفعل إن كان قد حدث.

سادسًا: وهو الأخير في الرد على هذه الرواية أن طارق بن زياد كان لا يملك كل السفن التي كانت تحت يديه؛ فبعضها - كما ذكرت بعض الروايات^(١) - أن يليلان صاحب سبعة قد أعطاها له بأجرة ليعبر عليها ثم

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٦، والحميري: الروض المعطار ص ٣٥.

يُعيدها إليه بعد ذلك؛ فيعبر بها يُليان إلى الأندلس -كما أوضحتنا سابقاً- ومن ثُمَّ فلم يكن من حق طارق بن زياد إحراق هذه السفن.

لكل هذه الأمور نقول: إن قصة حرق السفن هذه قصة مختلقة، وما أُشيعت إلا لتهوّن من فتح الأندلس وانتصار المسلمين.

طارق بن زياد يُسرع بالتوغل والفتح:

بعد النصر الكبير الذي أحرزه المسلمون في وادي برياط، تدفق الناس من المغرب والشمال الإفريقي إلى جيش طارق^(١)، فتضخم جيش طارق إلى حدّ يصعب تقديره^(٢)، فوجد طارق بن زياد أن هذا الوقت هو أفضل الفرص لاستكمال الفتح وإمكان تحقيقه بأقل الخسائر؛ وذلك لما كان يراه من الأسباب الآتية:

١- النتيجة الختامية لانتصار اثنين عشر ألفاً على مائة ألف؛ وهي الروح المعنوية العالية لدى جيش المسلمين.

٢- ازدياد عدد الجيش المسلم بما انضم إليه من المتطوعين في المغرب والشمال الإفريقي.

٣- ما أصاب القوط النصارى من فقدان الثقة، التي تجسّدت في انعدام الروح المعنوية.

٤- وإضافة إلى انعدام الروح المعنوية فقد قُتل من القوط النصارى وتفرق منهم الكثير؛ فأصبحت قوتهم من الضعف والهوان بمكان.

٥- وجد طارق بن زياد أن انتهاء لذرّيق المستبد -قتل أو فر هارباً- عن الناس

(١) المقرى: نفح الطيب ٢٥٩/١.

(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٧٢.

والتأثير فيهم فرصة كبيرة لأن يُعلّم الناسَ دين الله ﷺ؛ ومن ثَمَّ فهم أقرب إلى قبوله والدخول فيه.

٦- لم يضمن طارق بن زياد أن يظلّ مُليان صاحب سَبْتَة على عهده معه مستقبلاً؛ ولذلك فعلية أن يستفيد من هذه الفرصة ويدخل بلاد الأندلس مستكملاً لفتحه.

هذه الأسباب أخذ طارق بن زياد جيشه بعد انتهاء المعركة مباشرةً واتجه شماليّاً لفتح بقية بلاد الأندلس، قاصداً طُليطلة عاصمة القوط، التي كانت تُحضر لاختيار قائد جديد بعد اختفاء لُذريق، وفيها جرى التنافس بين أتباع لُذريق وبين أتباع غِيطُشة.



الحمد لله رب العالمين

الفتح الإسلامي يكتسح الجزيرة

لابد هنا - قبل استكمال مسيرة الفتح - من وقفة مع طبيعة الجزية في الإسلام؛ لبيان حقيقتها وما يثار حولها من شبهات، فلم يكن المسلمون بداعاً بين الأمم حين أخذوا الجزية من البلاد التي فتحوها ودخلت تحت ولايتهم؛ فإنَّ أخذَ الأمم الغالبة للجزية من الأمم المغلوبة أمرٌ حدث كثيراً ويشهد به التاريخ، ورغم ذلك فقد كثر الكلام حول أمر الجزية في الإسلام، وحول دعوة القرآن لأخذها من أهل الكتاب؛ حتى رأى البعض أنَّ الجزية هذه ما هي إلا صورة من صور الظلم والقهر، والإذلال للشعوب التي دخلت تحت ولاية المسلمين، وفي هذا إجحاف كبير ومعايرة للحقيقة، نحن بصدق الكشف عنها وبيانها فيما يلي:

أولاً: تعریفُ الجزية :

الجزية في اللغة مشتقة من مادة (ج ز ي) بمعنى جزاء بما صنع؛ تقول العرب: جزى يجزي، إذا كافأ عما أسدى إليه، والجزية مشتقة من المجازاة على وزن فعلة؛ بمعنى: أنهم أعطوهما جزاء ما منحوا من الأمن^(١).

وهي في الاصطلاح تعني: ضريبة يدفعها أهل الكتاب بصفة عامة - ويدفعها المjos في آراء أغلب الفقهاء، والمرشكون في رأي بعضهم - نظير أن يُدافع عنهم

(١) الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل الجيم ٦/٢٣٠٢، ٢٣٠٣، ٢٣٠٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة جزي ١٤٥، ١٤٥، والمعجم الوسيط ١/١٢١، ١٢٢.

المسلمين، وإن فشل المسلمون في الدفاع عنهم تردد إليهم جزيتهم، وقد تكرر هذا في التاريخ الإسلامي كثيراً.

ثانياً : على من تُفديه الجزية ؟

من رحمة الإسلام وعلمه أن خصّ بالجزية طائفةً ومنع أخذها من آخرين؛
فهي :

- تؤخذ من الرجال ولا تؤخذ من النساء.
 - تؤخذ من الكبار البالغين ولا تؤخذ من الأطفال.
 - تؤخذ من الأصحاء ولا تؤخذ من المرضى وأصحاب العاهات غير القادرين على القتال.
 - تؤخذ من الغني ولا تؤخذ من الفقير؛ بل إن القراء من أهل الكتاب (النصارى واليهود) والمجوس والشركين قد يأخذون من بيت مال المسلمين؛ إن كانوا في بلد يحكم فيها بالإسلام.
- أي أنها تؤخذ من القادرين الذين يستطيعون القتال فقط، ولا تؤخذ حتى من القادرين الذين تفرّغوا للعبادة.

ثالثاً : قيمة الجزية :

فليلاحظ كُلُّ مَنْ يطعن في أمر الجزية ويقول: إنها صورة من صور الظلم والقهر والإذلال للشعوب. خاصة حين يعلم أنها تدفع في مقابل الزكاة التي يدفعها المسلمون؛ وله أن يعلم - أيضاً - أن قيمة الجزية هذه أقل بكثير من قيمة ما يدفعه المسلمون في الزكاة؟!

في هذا الوقت الذي دخل فيه المسلمين الأندلس كانت قيمة ما يدفعه الفرد

(من تنطبق عليه الشروط السابقة) من الجزية لل المسلمين ديناراً واحداً في السنة؛ بينما كان المسلم يدفع ٥٪ من إجمالي ماله إن كان قد بلغ النصاب وحال عليه الحول، وفي حالة إسلام الذميّ تسقط عنه الجزية، وإذا شارك مع المسلمين في القتال دفعوا له أجره، فالمبالغ التي كان يدفعها المسلمين في الزكاة كانت أضعاف ما كان يدفعه أهل الكتاب وغيرهم في الجزية - تلك الزكاة التي هي نفسها أقل من أي ضريبة في العالم - فهناك منْ يدفع ١٠٪ ضرائب، بل هناك منْ يدفع ٥٠٪ وأحياناً ٧٠٪ ضرائب على ماله؛ بينما في الإسلام لا تتعذر الزكاة ٥٪؛ فالجزية كانت أقل من الزكاة المفروضة على المسلمين؛ وهي بهذا تُعدّ أقل ضريبة في العالم، بل كانت أقل بكثير مما كان يفرضه أصحاب الحكم أنفسهم على شعوبهم وأبناء جلدتهم.

وفوق ذلك فقد أمر الرسول ﷺ ألا يُكلّف أهل الكتاب فوق طاقاتهم، بل تَوَعَّد مَنْ يظلمهم أو يُؤذِّهم؛ فقال: «إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الْمُجْرِمُونَ (١) مَنْ يَظْلِمُهُمْ أَوْ يُؤْذِّهِمْ (٢)». أي: أنا الذي أخاصمه وأحاججه يوم القيمة.

انطلق طارق بجسم الجيش الرئيسي نحو طليطلة، ووزع باقي الجيش - الذي كثر عدده - في سراياه إلى أنحاء الجزيرة المختلفة؛ توجّه طارق بن زياد إلى مدينة إستيجة (Ecija) وهي - أيضاً - من مدن الجنوب، وكانت فلول القوط قد تجمّعت بها واستعدّت لمعركة أخرى مع المسلمين، ففتح في الطريق شُدُونَة ثم مورور، ثم في

(١) المعاهد: أكثر ما يطلق على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صلحوا على ترك الحرب. انظر: المناوي: فيض القدير /٦٥٣/.

(٢) أبو داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، والبيهقي (١٨٥١١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

إِسْتِيَاجَة قاتل المسلمين قتالاً عنيفاً، لكنه -بلا شَكّ- أَقْلُ ما كان في وادي بَرْبَاط؛ فقد فَقَدَ النصارى معظم قوتهم في موقعة وادي بَرْبَاط، وقبل أن يتتصر المسلمين في أواخر المعركة فتح النصارى أبوابهم وصالحهم طارق على الجزية^(١).

وَثِمَة فارق كبير جدًا بين أن يصالح النصارى على الجزية، وبين أن يفتح المسلمون المدينة فتحاً؛ لأنَّه لو فتح المسلمون هذه المدينة فتحاً (أي: بالقتال) لكان لهم أن يأخذوا كل ما فيها، أمَّا إن صالح النصارى على الجزية؛ فإنَّهم يظلُّون يملكون ما يملكون ولا يدفعون إلَّا الجزية، التي كانت تُقدَّر آنذاك بـدينار واحد في العام.

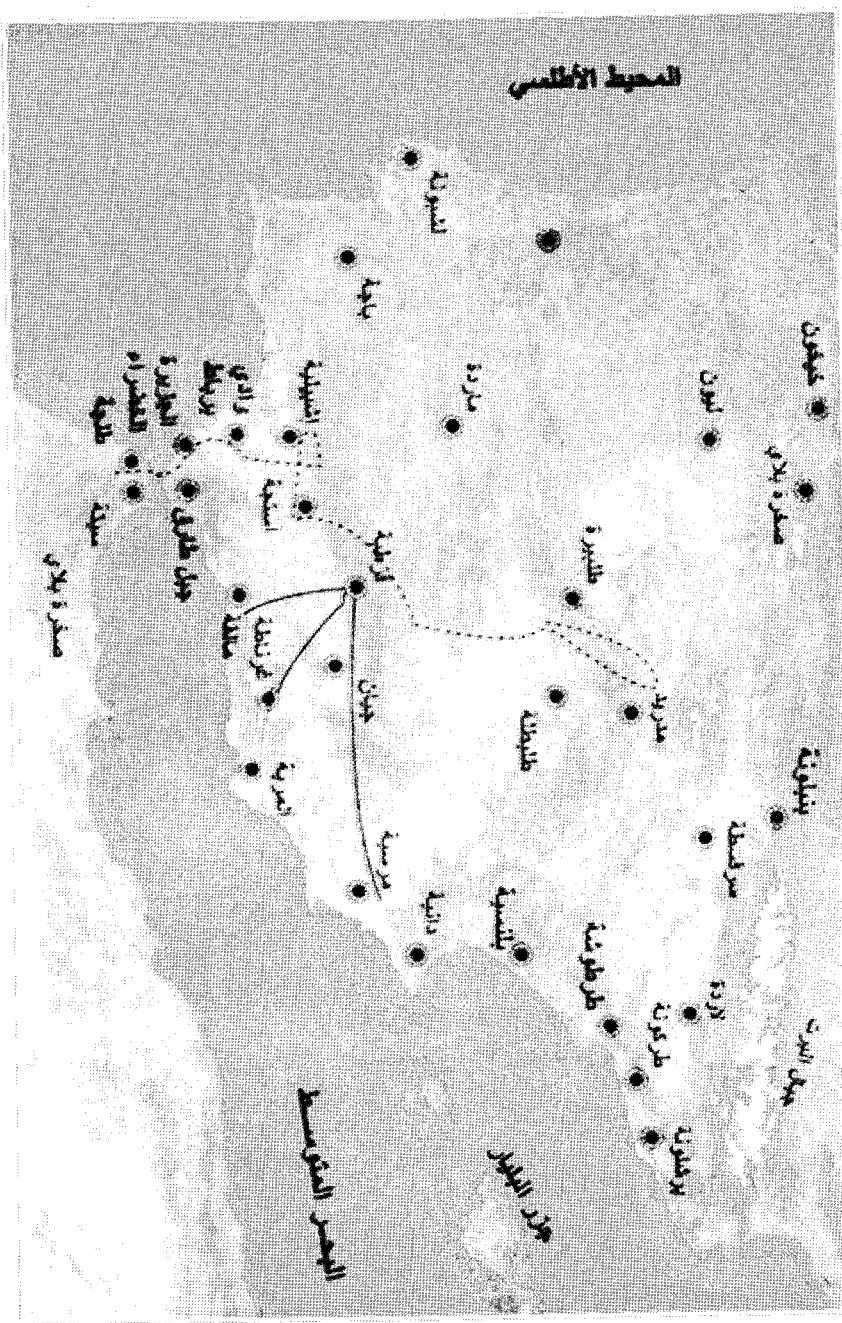
ومن إِسْتِيَاجَة وبحيش لا يتعدَّى تسعة آلَافَ رجل بدأ طارق بن زياد بإرسال السرايا لفتح المدن الجنوبيَّة الأخرى^(٢)، وانطلق هو بقوَّة الجيش الرئيسة في اتجاه الشمال؛ حتى يصل إلى طليطلة عاصمة الأندلس آنذاك، فقد بعث بسرية إلى قُرْطُبة، وسرية إلى غَرَنَاطَة، وسرية إلى مَالَقَة، وسرية إلى مُرْسِيَّة، وهذه كلها من مدن الجنوب المنتشرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، والمطلة على مضيق جبل طارق، وكان عدد الرجال في هذه السرايا لا يزيد على سبعينَةَ رجل، ومع ذلك فقد فُتحت قُرْطُبة على قوتها وعظمتها بسرية من تلك التي لا تتعدَّى سبعينَةَ رجل؛ «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» [الأనفال: ١٧]، كذلك كانت الحملات الأخرى التي أرسلها إلى غَرَنَاطَة وإِلِيرَة ومَالَقَة تفتح البلاد والمدن، وفتحت مُرْسِيَّة وقادعتها أوريولة صلحاً^(٣)

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ١٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٨/٢، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٦٠.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ١٩، والمقربي: نفح الطيب ١/١، ٢٦١، ٢٦٠، وحسين مؤنس: جغرافية الأندلس ص ٧٢ وما بعدها، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٤١ وما بعدها.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/٥٠.

الخطيب الأفلاقي



طارق بن زياد على اعتداب طليطلة

وطليطلة مدينة قديمة من مدن إسبانيا تقع في وسط شبه جزيرة أيبيريا على مسافة ٩١ كيلو متراً جنوب غرب مدريد -العاصمة الإسبانية الحالية- ويحيط بها نهر التاجو من جهات ثلاثة في وادٍ عميق يسقي مساحات شاسعة من أراضيها.

وكان موسى بن نصير رض -الذي اتسم بالحكمة والأنفة- قد أوصى طارق بن زياد ألاً يتتجاوز مدينة جيان أو لا يتتجاوز مدينة قرطبة، وأمره ألاً يسرع في الفتح في طريقه إلى العاصمة طليطلة حتى لا يحوطه جيش النصارى ^(١).

لكن طارق بن زياد وجد أن الطريق إلى طليطلة مفتوح أمامه، وليس فيه صعوبات تذكر؛ فاجتهد رأيه، وعلى خلاف رأي الأمير موسى بن نصير وجد أن هذا هو الوقت المناسب لفتح طليطلة العاصمة، التي تعد أحسن مدن النصارى على الإطلاق؛ فهي محاطة بجبال من جهة الشمال والشرق والغرب، أما الجهة الجنوبية -وهي الجهة المفتوحة- فقد كان عليها حصن كبير جداً، فرأى أنه إن هاجمها في هذه الفترة التي يُصيب النصارى فيها الضعف الشديد، فلن يستطيعوا معه مقاومة جيش المسلمين ويتمكن من فتحها، وهذا ما قد يتعدّى بعد ذلك فلا يستطيع فتحها، وثبتت براعة طارق فقد فتحت المدينة أبوابها له، ودخلها دون قتال على قلة ما معه، وانعدام المدد من خلفه ^(٢).

ثم لم يكتفي طارق بفتح العاصمة، بل واصل الزحف شمالاً، فاخترق قشتالة وليون وطارد فلول القوط حتى أسترق، فلجهوا إلى آخر الشمال الغربي عند جبال جيليقية الشاحنة، وعبر طارق جبال أشتوريس (استورياس) حتى وصل إلى خليج

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/٩٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١١٧، والمقرئ: نفح الطيب ١/٢٢٣.

(٢) مجہول: أخبار مجموعه ص ٢٣، ٢٤، ٢٦٥، ٢٦٤، والمقرئ: نفح الطيب ١/١.

غسقونية (بسكونية) على المحيط الأطلسي، فكانت هذه نهاية فتوحاته^(١).

موسى بن نصیر يأتی بالمدّ :

تَقَدُّم طارق بن زياد بهذه السرعة في بلاد الأندلس لم يَنْلِ قُبُولاً لدی موسى بن نصیر؛ إذ وجد فيه تھوراً كبراً لا يُؤمِن عواقبه، وكان قد عُرِفَ عن موسى بن نصیر الآنَةُ والحكمةُ والصبرُ في كل فتوحاته في شمال إفريقيا حتى وصوله إلى المغرب؛ ومن ثَمَّ فقد بعث برسالة شديدة اللهجة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالكف عن الفتح، والانتظار حتى يصل إليه؛ وذلك خشية أن تلتَّفَ حوله الجيوش النصرانية.

وفي أثناء ذلك بدأ موسى بن نصیر يُعَدُ العُدَّة لإمداد طارق بن زياد بعد أن انطلق إلى هذه الأماكن البعيدة الغائرة في وسط الأندلس، فجَهَّزَ من المسلمين ثمانية عشر ألفاً^(٢).

من أين جاءوا؟

إن المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها قد انهمروا على أرض الأندلس حين علموا أن فيها جهاداً، فقد كان جُلُّ الائتيني عشر ألف مسلم الذين فتحوا الأندلس مع طارق بن زياد من الأمازيغ (البربر)، أمّا هؤلاء الثمانية عشر ألفاً فهم من العرب الذين جاءوا من اليمن والشام والعراق، اجتازوا كل هذه المسافة البعيدة حتى وصلوا إلى بلاد المغرب، ثم عبروا مع موسى بن نصیر إلى بلاد الأندلس نصرةً ومددًا لطارق بن زياد.

موسى بن نصیر وأعمال عظام في طريقه إلى طارق بن زياد :

كان موسى بن نصیر قائداً محنّكاً، له نظره واعية وبُعدُ نظرٍ ثاقبٍ، ولم يكن يوماً

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥١ / ١.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢٤.

كما يَدَعِي أنس أنه عطل طارق بن زياد عن الفتح؛ حسداً أن يُنسب إليه وحده فتح بلاد الأندلس^(١)؛ ومن ثمَّ أراد أن يشترك في الأمر معه؛ ذلك أنَّ طارق بن زياد من عمَّال موسى بن نصير، وواليه على الأندلس، وحسنات طارق بن زياد تُعدُّ في ميزان موسى بن نصير رحمها الله؛ فقد دخل الإسلام على يديه، ولكن كانت رؤية موسى بن نصير تستند إلى الحفاظ على جيش المسلمين من الهلاكة وهو بعيد عن أرضه لم تستقر خطوط إمداده؛ لا سيما والجيش قد اخترق أرض الأندلس نحو العاصمة، وظلَّت كثير من المدن في ظهره غير مفتوحة ولا آمنة^(٢).

ومن ثمَّ فقد قَدِمَ موسى بن نصير وسلك بالجيش نحو المدن التي لم يفتحها طارق، فتوجَّه نحو إشبيلية وفي الطريق أعاد إخضاع شُذُونَة، وافتتح قرْمُونَة— وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس— ثم حاصر إشبيلية حصاراً شديداً، طال مدة شهوراً حتى فَتحت أبوابها أخيراً، ثم تجاوزها موسى بن نصير إلى الشمال، ولم يكن يفتح المناطق التي فتحها طارق بن زياد، وإنما اتجه ناحية الشمال الغربي، وهو الاتجاه الذي لم يسلكه طارق بن زياد؛ فقد أراد استكمال الفتح ومساعدة طارق بن زياد؛ وليس أخذ النصر أو الشرف منه.

واصل موسى بن نصير سيره نحو طارق بن زياد، وفي طريقه فتح الكثير من المناطق العظيمة حتى وصل إلى منطقة تسمى مَارِدَة^(٣)، كل هذا وطارق بن زياد في طلْيُطْلَة يتضرر قدومه، وكانت مَارِدَة من المناطق التي تجمَّع فيها كثير من القوط النصارى، فحاصرها موسى بن نصير حصاراً بلغ مدة -أيضاً- شهوراً، كان آخرها شهر رمضان، ففي أواخره وفي عيد الفطر المبارك وبعد صبر طويل فتحت المدينة أبوابها، وصالح أهلها موسى بن نصير على الجزية، وهكذا كانت تمَّ الأعياد

(١) تذكر بعض الروايات ذلك، انظر: مجھول: أخبار مجموعه ص ٢٤، والمقرى: نفح الطيب ١/٢٦٩.

(٢) حسن مؤنس: فجر الأندلس ص ٧٩ وما بعدها.

(٣) مجھول: أخبار مجموعه ص ٢٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/١٤.

على المسلمين في جهاد نشر دين الله في ربوع العالمين^(١).

لم يكتف موسى بن نصير بذلك، بل أرسل ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير -رحمهم الله جميعاً- الذي تربى كأبيه وجده على الجهاد؛ ليفتح مناطق أوسع ناحية الغرب، وقد توغل عبد العزيز في الغرب كثيراً؛ حتى إنه في فترات معدودة فتح كل غرب الأندلس، التي تسمى حالياً دولة البرتغال، فقد وصل إلى لشبونة وفتحها ثم فتح البلاد الواقعة في شماليها، وبهذا يُعد عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح البرتغال.

موسى بن نصير وطارق بن زياد.. لقاء الأبطال واستكمال الفتح :

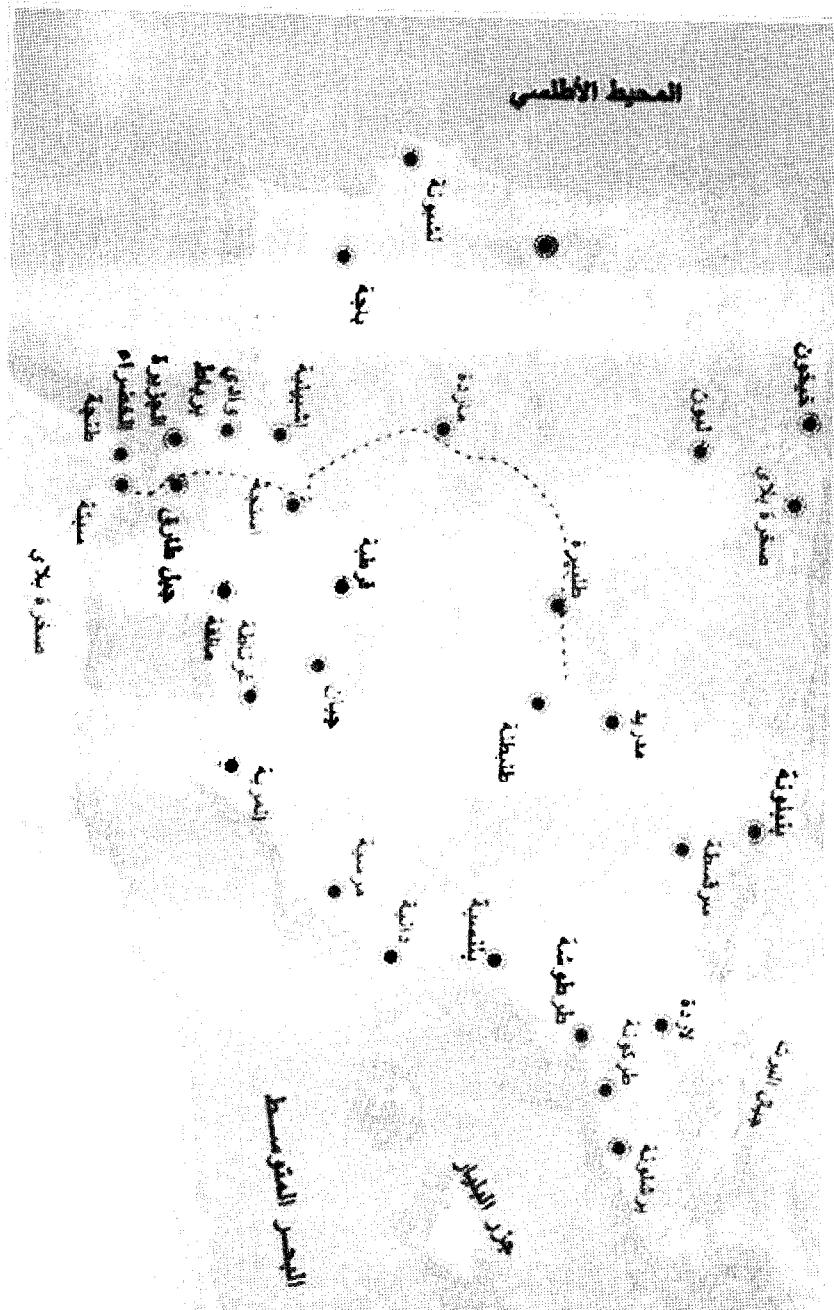
تذكر بعض المصادر أنه لما التقى موسى بن نصير وطارق بن زياد أمسك موسى بطارق وعنقه ووبخه، بل تذكر -أيضاً- أنه قيده وضربه بالسوط، وبعضها يقول: إنه حبسه وهو بقتله^(٢). إلا أننا نقطع بأن هذا لم يحدث، وإنما الذي حدث أن موسى بن نصير قد عنف طارق بن زياد بالفعل على معصيته له بعدم البقاء في قرطبة أو جيّان واستمراره حتى طليطلة -كما ذكرنا- وقد كان تعنيفاً سريعاً؛ ولا نشك في أنه كان لقاء حاراً بين بطلين افترقا منذ ستين كاملاً، منذ رمضان سنة ٩٢ هـ = يوليو ٧١١ م وحتى ذي القعدة سنة ٩٤ هـ = أغسطس ٧١٣ م، فقد أخذت الحملة التي قادها طارق بن زياد حتى وصلت إلى طليطلة عاماً كاملاً، وكذلك استغرقت الحملة التي قادها موسى بن نصير حتى قابل طارقاً في المكان نفسه عاماً كاملاً.

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/١٤، ١٥، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٧١.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢٦، ٢٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/١٦، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٧١.

الحمد لله رب العالمين

三



مکالمہ علیہ الرحمہ

وما يدلُّ على تلك العلاقة السامية بين هذين القائدين العظيمين ما جاء في (فتح الطيب) من أن موسى بن نصير لما سمع بانتصار طارق عبر الجزيرة بمنْ معه ولحق به، فقال له: يا طارق؛ إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلايتك بأكثر من أن يمنحك الأندلس فاستبِحه هنيئاً مريئاً. فقال له طارق: أهياً الأمير؛ والله! لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المتوسط، أخوض فيه بفرسي. يعني البحر الشمالي (أي: المحيط الأطلسي من ناحية شمال شبه جزيرة الأندلس) ^(١).

فكأن موسى بن نصير تنازل عن الأندلس لطارق من قبل أن يأتيه أمر الوليد بهذه؛ لماً أَعْجَبَ به من عمل طارق وجهاده، بل وتنازل عنها إعجاباً وبطبيـن نفس «هنيئاً مريئاً»، ثم إن طارقاً لم يكن من يهمه الولاية والإمارـة، بل شغله حُبُّ الجهـاد، وما رضي عنه بغيره، ولو كان المنصب على الجزـيرة الغـنية.

وبعد اللقاء الحَدَّا معاً واتجـها إلى فتح منطقة الشمال؛ لاستكمـال عمليـات الفـتح، ففتحـا مناطـق عـدـة؛ كان منها -على سبيل المثال- منطقة بـرـشـلـونـة فـفـتـحـاـها ^(٢)، ثم اتجـها إلى مـديـنة سـرـقـسـطةـ؛ وهـي أـعـظـمـ مـدنـ الشـمـالـ الشـرـقـيـ فـفـتـحـوـها ^(٣)، وـفـيـ منـاطـقـ الشـمـالـ قـامـ مـوسـىـ بـنـ نـصـيرـ بـعـملـ يـحـسـدـ عـلـيـهـ؛ فـقـدـ أـرـسـلـ سـرـيـةـ خـلـفـ جـبـالـ البرـينـيـ، وهـيـ الجـبـالـ التـيـ تـفـصـلـ بـيـنـ فـرـنـسـاـ وـبـلـادـ الـأـنـدـلـسـ، وـتـقـعـ فـيـ الشـمـالـ الشـرـقـيـ مـنـ بـلـادـ الـأـنـدـلـسـ، عـبـرـتـ هـذـهـ السـرـيـةـ جـبـالـ البرـينـيـ، ثـمـ وـصـلـتـ إـلـىـ مـديـنـةـ تـسـمـيـ أـرـبـوـنـةـ، وـتـقـعـ هـذـهـ المـدـيـنـةـ عـلـىـ سـاحـلـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـوـسـطـ، وـبـذـلـكـ يـكـونـ مـوسـىـ بـنـ نـصـيرـ قدـ أـسـسـ نـواـةـ لـقـاطـعـةـ إـسـلـامـيـةـ سـوـفـ تـكـبـرـ مـعـ الزـمـانـ، كـمـ سـيـأـتـيـ بـيـانـهـ بـمـشـيـةـ اللهـ.

(١) المـقـرـيـ: فـتحـ الطـيـبـ ١/٤٤٢.

(٢) مـنـ الـمـؤـسـفـ أـنـ الـكـثـيرـينـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ لـاـ يـعـلـمـونـ عـنـ بـرـشـلـونـةـ شـيـئـاـ إـلـاـ فـرـيقـ كـرـةـ الـقـدـمـ الـمـشـهـورـ، وـلـاـ يـكـادـ يـدـورـ بـخـلـدـهـمـ أـنـهـاـ كـانـتـ فـيـ يـوـمـ مـاـ مـسـلـمـةـ يـحـكـمـ فـيـهـاـ بـشـرـعـ اللهـ عزـوجـلـ.

(٣) المـقـرـيـ: فـتحـ الطـيـبـ ١/٢٧٣.

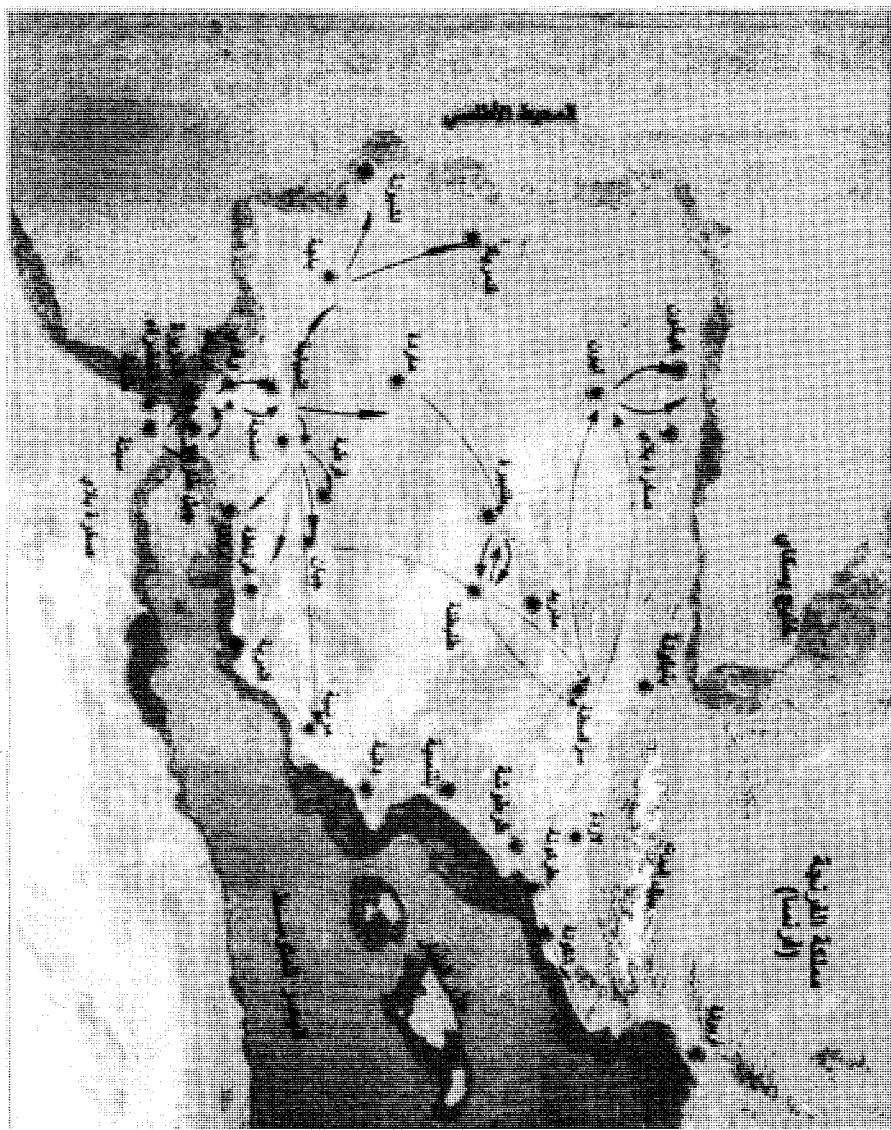
وبعد هذه السرية الوحيدة التي فتحت جنوب غرب فرنسا اتجه موسى بن نصیر بجيشه إلى الشمال الغربي حتى وصل إلى آخره، وقد ظلّ المسلمين يفتحون مدن الأندلس؛ المدينة تلو الأخرى حتى تم الانتهاء من فتح كل بلاد الأندلس، إلا منطقة واحدة في أقصى مناطق الشمال الغربي وتُسمى منطقة الصخرة أو صخرة بلاي، وهي تقع على خليج بسكاي عند التقائه مع المحيط الأطلنطي ^(١).

ففي زمن قدر بثلاث سنوات ونصف -ابتدأ من سنة (٩٢ هـ=٧١١ م) وانتهى في آخر سنة (٩٥ هـ=٧١٤ م)- كان قد تم للMuslimين فتح كل بلاد الأندلس عدا صخرة بلاي هذه، وحين عزم موسى بن نصیر على أن يتم فتح هذه الصخرة ويستكمل الفتح إلى نهايته، أتاه ما لم يكن يتوقعه.

لولم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح في هذه المدة القصيرة لما صدّقه أحد؛ لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه... والحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة في حد ذاته؛ إذ لا يصدق المرء وهو يتبع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به -بهذا النظام، وبهذا النظر البعيد- إنما كانوا ببريرًا لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات، الحق أن الإسلام قد خطأ بمعتقده حلال القرن الأول بضعة قرون إلى الأمام، وهذا تاريخ الرومان في إفريقيا: لم يوقفوا إلى تحضيرها على نحو يقارب ما فعله الإسلام -ولو من بعيد- في بضعة قرون، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك في نحو نصف قرن؟! ^(٢)

(١) ابن الأثير: الكامل ٤ / ٢٧٠، والمقرئ: نفح الطيب ١ / ٢٧٤-٢٧٦.

(٢) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ١٠٧.



كتاب: موسوعة تاريخ إسلام إسبانيا (١٢٠٠-١٤٥٠) (١٣٦٠) ج ٢

ولو ذكرنا أن موسى أكمل عمل طارق، وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين لاستبان أن العرب ساروا في فتح هذه البلاد على خطةً محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها: فقد قُبِيَ على المقاومة واحتلت العاصمة في أول وثبة، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب، ثم احتلَّ المسلمون إقليم سرْقُسطة وتبَعُوا فلول المقاومة في معاقلها في الشمال والشمال الغربي، ثم فتحوا أقصى الغرب، وَخُتم العمل بفتح الجنوب الشرقي. ولو أن مجلساً للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وُفِقَ إلى خير من ذلك، وتلك ناحية ينبغي ألا تغيب عن ذهن أحدنا وهو يدرس هذا الفتح؛ لأنها في الواقع تدلُّ على نبوغ حربى عند هؤلاء المسلمين الأوَّلين^(١).

* * *

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ١٠٦، ١٠٧.

الفصل الخامس

قرار الخليفة بوقف الفتح واستدعاء القادة



من أقصى بلاد المسلمين.. من دمشق.. من أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك تصل رسالة إلى موسى بن نصير وطارق بن زياد بأن يعودا أدراجهما إلى دمشق، ولا يستكملما الفتح، حزن موسى بن نصير وأسف أشدّ الأسف، لكن لم يكن بُدًّ من الاستجابة والعودة كما أمر.

ولنا أن نندهش مع موسى بن نصير لماذا هذا الأمر الغريب؟! ولماذا الاستدعاء في هذا التوقيت خاصة؟! إلاً أن هذه الدهشة سرعان ما تتبخر حين نعلم سبب ذلك عند الوليد بن عبد الملك، وكان كما يلي:

١ - كان الوليد بن عبد الملك يشغلهم توغل المسلمين بعيداً عن ديارهم؛ فهو المسؤول عن المسلمين الذين انتشروا في كل هذه المناطق الواسعة، وقد رأى أن المسلمين توغلوا كثيراً في بلاد الأندلس في وقت قليل، وخشى رئته أن يتلف النصارى من جديد حول المسلمين؛ فإن قوة المسلمين منها تزايدت في هذه البلاد، فهي قليلة وبعيدة عن مصدر إمدادها، فأراد ألاً يتتوغل المسلمون أكثر من هذا.

٢ - كان من الممكن للوليد بن عبد الملك أن يُوقف الفتوح دون عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد، لكن كان هناك أمر آخر عجيب قد سمعه الوليد بن عبد الملك؛ جعله يصرّ على عودة موسى بن نصير وطارق بن

زياد إلى دمشق؛ ذلك أنه قد وصل إلى علمه أن موسى بن نصير يريد بعد أن ينتهي من فتح بلاد الأندلس أن يفتح كل بلاد أوروبا حتى يصل إلى القسطنطينية من الغرب^(١).

كانت القسطنطينية قد استعصت على المسلمين من الشرق، وكثيراً ما ذهبت جيوش الدولة الأموية إليها ولم تُتوَّفق في فتحها، وهنا فَكَرْ موسى بن نصير أن يخوض كل بلاد أوروبا؛ فيفتح إيطاليا ثم يوغوسلافيا ثم رومانيا ثم بلغاريا ثم منطقة تركيا الحالية، حتى يصل إلى القسطنطينية من جهة الغرب؛ أي أنه سيتوَّغل بالجيش الإسلامي في عمق أوروبا منقطعاً عن كل مدد، فأفزع هذا الأمر الوليد بن عبد الملك، وخشي على جيش المسلمين من الهلَّكة؛ فعجل بأمر عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد.

٢٣٣

هنا لا بُدَّ لنا أن نقف وقفة عند هذه الهمَّة العالية التي كانت عند موسى بن نصير؛ خاصة إذا علمنا أنه عندما كان يُفكِّر هذا التفكير كان يبلغ من العمر خمساً وسبعين سنة؛ فله دُرُّه! شيخ كبير ومع ذلك يجاهد في سبيل الله، ويركب الخيول، ويفتح المدينة تلو المدينة، يحاصر إشبيلية شهوراً ويحاصر ماردة شهوراً، ثم يفتح برشلونة وسرقسطة والشمال الشرقي، ثم يَتَّجه إلى الشمال الغربي ويتجه إلى الصخرة يريد أن يفتحها، ثم هو يُريد أن ينطلق إلى فرنسا وإيطاليا وغيرها حتى يصل إلى القسطنطينية!

أي همَّة هذه التي امتلكها هذا الشيخ الكبير؟! التي تجعله يفعل كل هذا ويُؤمِّل لهذا التفكير وعمره خمس وسبعون سنة! إنه ليضرب المثل لرجالات المسلمين اليوم

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١١٧، ١١٨، ٢٣٣، ٢٣٤.

وشيوخهم الذين بلغوا مثل عمره أو أقل منه، وظنوا أنهم قد «خرجوا على المعاش» وانتهت رسالتهم بخروجهم هذا؛ فهي رسالة واضحة لهم بأن رسالتهم في الحياة لم تنته بعد، فمن لتعليم الأجيال؟! ومن لتوريث الخبرات؟! ومن لتصحيح المفاهيم؟!

فقد بدأ موسى بن نصير ففتح الشمال الإفريقي وقد تجاوز الستين من عمره؛ أي تجاوز سن المعاش في زمننا هذا، ثم هو ذا في سن الخامسة والسبعين يحزن حزناً شديداً، ولكن على أي شيء كان حزنه؟! حزن أولاً على أمر الوليد بن عبد الملك له بتركه ساحة الجهاد، وقد كان محباً له؛ علله ينال الشهادة التي لم تُصبه، ثم حزن ثانياً حزنناً شديداً؛ لأن الصخرة لم تُفتح بعد، ثم حزن ثالثاً - وكان حزنه أشدّ - لأنه لم يستكمل حُلمَ فتح القسطنطينية من قِبَل الغرب كما كان يتمنى.

وفي هذا يذكر المقرئ صاحب (*فتح الطيب*) أن موسى بن نصير ترك الأندلس «وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته، أسيف على ما لحقه من الإزعاج، وكان يؤمّل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفرنجية (فرنسا)، ويقتسم الأرض الكبيرة حتى يتصل الناس إلى الشام مؤملاً أن يتَّخذ مختراقه بتلك الأرض طريقاً مهيناً^(١) يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم - من الشرق وإليه - على البر لا يركبون بحراً^(٢).

عودة وأمنية:

لم يجد موسى بن نصير إلاً أن يسمع ويُطيع لأمر الوليد بن عبد الملك، فأخذ طارق بن زياد وعاد أدراجه إلى دمشق، وعندهما وصل وجد الوليد بن عبد الملك في

(١) المهيّع: السهل الواضح والبيّن والواسع. ابن منظور: لسان العرب، مادة هيع ٨/٣٧٨، والمجمع الوسيط ١٠٠٣/٢.

(٢) المقرئ: *فتح الطيب* ١/٢٣٣، ٢٣٤، ٢٧٧، ٢٧٨، وانظر: الحميري: الروض المعطار ص ٥٠.

مرض الموت، ثم لم يلبث أن مات وتولى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك، وكان على رأي أخيه في استبقاء موسى بن نصير في دمشق؛ خوفاً من هلكة جيش المسلمين في توغله داخل بلاد أوروبا نحو القسطنطينية.

وبعد عام من قدول موسى بن نصير سنة (٩٧٦هـ=١٦٧م) كان سليمان بن عبد الملك ذاهباً إلى الحجّ، وهذا ما وافق اشتياقاً كبيراً من قبل موسى بن نصير؛ فقد عاش في أرض الجهاد في شمال إفريقيا وببلاد الأندلس أكثر من عشر سنين لم يُعدْ فيها مرّة واحدة، فما كان منه إلا أن رافق سليمان بن عبد الملك في طريقه إلى الحجّ في ذلك العام^(١).

وفي طريقه إلى هناك قال موسى بن نصير: اللهم إن كنت تُريد لي الحياة فأعدني إلى أرض الجهاد، وأمِتنى على الشهادة، وإن كنت تُريد لي غير ذلك فأمِتنى في مدينة رسول الله ﷺ. ووصل حَلْقَة إلى الحجّ، وبعد حجّه وفي طريق عودته مات في مدينة رسول الله ﷺ، ثم دُفِنَ مع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين^(٢).

وهكذا كانت هم الصالحين وقلوب المؤصليين برب العالمين، فقد بلغ من الكبر عتيّاً، إلا أنه قدّم أكثر مما عاش، ظلّ قلبه معلقاً بحبّ ربه حَلْقَة حتى دعاه، فكانت الخاتمة وكانت الإجابة، عاش بين الأسنّة في أقصى بلاد الأندلس، إلا أنه مات بعد الحجّ في مدينة رسول الله ﷺ، فللله ذرّه من قائد وقدوة!

لقد مات القائد المسلم موسى بن نصير بعد أن ملاً جهاده -بقيادة المدّ الإسلامي المبارك- ودُيانتَ المَغْرِبُ الْإِسْلَامِيُّ (الشمال الإفريقي والأندلس) وجباره وسهوله وهضابه، ووجه دعاء الحق لسماع ساكنيه نداءَ الخير؛ فيُخرِجُهم من الظلمات إلى النور المبين... كان موسى بن نصير يقود هذا الجهاد في شبه الجزيرة

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٤٨٩/٦.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/٥٠٠، ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٢.

الأندلسية وهو يبلغ من العمر خمساً وسبعين سنة، ممتطيًا جواده؛ يهبط في وديانها ويرتفع على صخراتها، يتحرّك فيه إيمانُ بالله العلي الكبير، فتسمو نفسه وتتجدد طاقته وتحدوه لإعلاء كلمة الله ورفع رايته في كل مكان، فيندفع قويًّا الجنان رغم ما علا رأسه من الشَّيْب الْوَقُور، يقوده إصرار العقيدة السمححة، وهَمَّة الإيمان الفتىُّ، ونُفَتِّق طاقاته كلمة الله، ونُقيِّم قوتها إيمانًا يعلو على أي اعتبار^(١).

أمَّا رفيق الدرب طارق بن زياد فقد انقطعت أخباره كُلَّيًّا بعد رحيله إلى دمشق مع موسى بن نصير، ولا أحدٌ يدرِّي هل عاد مرَّة أخرى إلى الأندلس أم بَقَى في دمشق؟!

مهما بلغ المؤرخ في الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاء حَقِّه، ولو فَكَرَ أحدهنا في الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سرًّا من أسرار قوَّة الإسلام، وناحية من نواحي امتيازه؛ فطارق هذا رجل مغربي ببربر لم يكن ليصبح -بغير الإسلام- إلَّا قائداً خاملاً لجَمَاعَة من البربر منسيين في ركن من أركان الأطلسي، فجأة الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً، وسياسيًّا محنَّغاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار، ويُوقَع المعاهدات في قدرة وكياسته جديرين بالإعجاب، فلو لم يكن للإسلام من أثر إلَّا تكوين أمثل هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه، فكيف وقد بث الإسلام هذه الروح في كل مكان أظلَّته رايته، وكيف وقد فعل هذا في أقصر وقت وحققه على أتم وجه؟!^(٢).

الصخرة.. والدرس الصعب

رحل موسى بن نصير وطارق بن زياد من الأندلس إلى دمشق بعدما وصل

(١) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ١٢٨.

(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ١٠٦، ١٠٧.

يغتو حاتمها إلى غرب فرنسا، إلاّ أنه كانت هناك منطقة صغيرة جداً في أقصى الشمال الغربي من بلاد الأندلس لم تفتح بعد، ولم يخطر على بال أحد من المسلمين أنه سيأتي يومٌ وتكون تلك المنطقة هي نواة الممالك النصرانية التي ستنشأ فيها بعد، وستكون صاحبة اليد الطولى في سقوط الأندلس بعد ذلك بقرون.

تلك هي منطقة الصخرة التي لم يستكمل المسلمون فتحها، وكانت فيها طائفة كبيرة من النصارى، وأغلب الظنّ أنه لو بقي موسى بن نصير أو طارق بن زياد ما تركوها، إلاّ أنها نستطيع أن نقول: إن التهاون في أمر بسيط جداً قد يؤدي إلى ويلات عظيمة على مرّ الزمن، فلا بدّ أن يأخذ المسلمون كلّ أمورهم بالعزم والحرز وعدم الطمأنينة، إلاّ بعد استكمال النهايات على أنجها.

* * *

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

(۳۷۰۰-۴۱۸-۲۰۰-۰۰)

بعد انتهاء عهد الفتح يبدأ عهد جديد في تاريخ قصة الأندلس يُسمى عهد الولاة، الذي يبدأ من عام (٩٥هـ=٧١٤م) ويستمر مدة اثنين وأربعين عاماً حيث يتنتهي عام (١٣٨هـ=٧٥٥م)^(١)، وعهد الولاة يعني أنَّ حُكم الأندلس في هذه الفترة كان يتولَّه رجل يتبع الحاكم العام لل المسلمين، وهو الخليفة الأموي الموجود في دمشق في ذلك الوقت.

وكان أول الولاة على الأندلس هو عبد العزيز بن موسى بن نصير رض (٩٦هـ=٧١٦م) وكان كأبيه في جهاده وتقواه وورعه، كان يقول عنه أبوه موسى بن نصير: عرفته صَوَاماً قَوَاماً^(٢). وقال عنه الزركلي في الأعلام: «أمير فاتح، ولَهُ أبوه إمارة الأندلس عند عودته إلى الشام سنة (٩٥هـ=٧١٤م) ففضطها وسَدَّ أمورها، وحمى ثغورها، وافتتح مدائن، وكان شجاعاً حازماً، فاضلاً في أخلاقه وسيرته»^(٣).

وإذا نظرنا إلى عهد الولاة نرى أنه قد تتعاقب فيه على حكم الأندلس اثنان وعشرون واليَا، أو عشرون واليَا توَلَّ اثنان منهم مرتين^(٤)؛ فيُصبح مجموع فترات حكم الأندلس اثنتين وعشرين فترة خلال اثنين وأربعين عاماً؛ أي أن كلِّ ولِ حكم سنتين أو ثلاثة سنوات فقط.

ولا شكَّ أنَّ هذا التغيير المتالي للحكام قد أثَرَ تأثيراً سلبياً على بلاد الأندلس، إلاَّ أنَّ هذا التغيير في الواقع كان له ما يُبرِرُه؛ حيث كان هناك في بادئ الأمر كثيرٌ من الولاة الذين يُسْتَشَهِدون أثناء جهادهم في بلاد فرنسا، ثم جاءت مرحلة كان فيها

(١) المقرى: *فتح الطيب* ١/٢٩٨-٣٠٠.

(٢) الحميدى: *جدوة المقتبس* في ذكر ولادة الأندلس ٧/٢٩٠، وابن الأثير: *الكامل* في التاريخ ٤/٣٠٠.

(٣) الزركلي: *الأعلام* ٤/٢٨، ٢٩.

(٤) الحميدى: *جدوة المقتبس* في ذكر ولادة الأندلس ١/٣-٨، والمقرى: *فتح الطيب* ١/٢٩٨-٣٠٠.

كثيرٌ من الولاة يُغيِّرون عن طريق المكائد والانقلابات والمؤامرات.. وما إلى ذلك.

ومن هنا نستطيع أن نقسِّم عهد الولاة بحسب طريقة الإدارة وطريقة الحكم إلى فترتين رئيسيتين مختلفتين تماماً؛ حيث كانت الفترة الأولى فترة جهاد وفتح وعظمة للإسلام والمسلمين، وتنتهي من بداية عهد الولاة من عام (٩٥ هـ=٧١٤ م) وحتى عام (١٢٣ هـ=٧٤١ م)؛ أي: سبعة وعشرين عاماً.

وكانت الفترة الثانية فترة ضعف ومؤامرات ومكائد وما إلى ذلك، واستمرَّت من سنة (١٢٣ هـ=٧٤١ م) وحتى سنة (١٣٨ هـ=٧٥٥ م)؛ أي مدة خمس عشرة سنة، وفي تناولنا لفترتي عهد الولاة هاتين لن ندخل في ذكر تفاصيل كُلٌّ منها، وإنما سنقتصر على بعض الولاة فقط؛ لما لهم من الأهمية في دراستنا هذه.

الفصل الأول

بصفة عامة تميزت الفترة الأولى من عهد الولاية بعدها أمور؛ كان من أهمها:

١- نشر الإسلام في بلاد الأندلس:

بعد أن تمكّن المسلمون من توطيد أركان الدولة الإسلامية في هذه البلاد بدءوا يُعلّمون الناس الإسلام، ولأن الإسلام دين الفطرة فقد أقبل عليه أصحاب الفطرة السوية من الناس عندما عرفوه، فاختاروه بلا تردد؛ فلقد وجد الإسبان في الإسلام ديناً متكاملاً شاملاً يُنظّم كل أمور الحياة، وجدوا فيه عقيدة واضحة وعبادات منتظمة، وجدوا فيه تشريعات في السياسة والحكم والتجارة والزراعة والمعاملات، وجدوا فيه تواضع القادة الفاتحين، وجدوا فيه كيفية التعامل والتعايش مع الأخ والأب والأم والزوجة والأبناء والجيران والأقرباء والآصدقاء، ووجدوا فيه كيفية التعامل مع العدو والأسيير، ومع كل الناس.

لقد تعود الإسبان في حياتهم -قبل ذلك- فصلاً كاملاً بين الدين والدولة؛ فالدين عندهم لا يعدو أن يكون مجرد مفاهيم لا هوئية غير مفهومة، يتعاطونها ولكن لا يستطيعون تطبيقها، وفي التشريعات والحكم يُشعّر لهم من يحكمهم وفق هواه، وحسبما يجتّن مصالحه الشخصية، أمّا في الإسلام فقد وجدوا أن الأمر مختلف عن ذلك تماماً؛ فلم يستطيعوا أن يتخلّفوا عن الارتباط به والانتساب إليه؛ فدخلوا فيه أفو اجاً.

وفي مدة قليلة أصبح عموم أهل الأندلس (السكان الأصليين) يدينون بالإسلام، وأصبح المسلمون من العرب والأمازيغ (البربر) قلة بينهم، وأصبح أهل الأندلس هم جند الإسلام وأعوان هذا الدين^(١)، وهم الذين اتجهوا بعد ذلك إلى فتوحات بلاد فرنسا.

٢- نشأة جيل المولدين:

كان من جراء انصهار وانخراط الفاتحين بالسكان الأصليين، وانتشار الإسلام بصورة سريعة أن نشأ جيل جديد عُرف باسم (جيل المولدين)، وهو أبناء الذين أسلموا من أهل الأندلس الأصليين، فقد كان الأب عربياً أو أمازيغياً (بربرياً) والأم أندلسية^(٢).

٣- إلغاء الطبقية ونشر الحرية العقائدية:

الغى المسلمين الطبقية التي كانت سائدة قبل ذلك؛ حيث جاء الإسلام وساوى بين الناس جميعاً؛ حتى كان الحاكم والمحكوم يقفان سوياً أمام القضاء للتحاكم في المظالم، وعمل المسلمون في هذه الفترة على إتاحة الحرية العقائدية للناس؛ فتركوا للنصارى كنائسهم، وما هدموها قطٌّ، وما كانوا يجحّلونها إلى مساجد إلا إذا وافق النصارى على بيعها لهم، وكان بيع الكنائس للمسلمين يُقدر بأثمان باهظة، أمّا إن رفضوا بيعها تركها المسلمون لهم^(٣).

وهذه المواقف العظيمة إنما كانت تحدث والنصارى محكومون من قِبَل

(١) ما يدل على ذلك قول السمع بن مالك رحمه الله في كتابه إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله - أمير المؤمنين - عندما أراد أن يخل الأندلس من المسلمين: «إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فاضرب عن ذلك». والناس هنا المقصود بهم المسلمين. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٦، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٣٤١، ٣٤٠.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٣٤٤، ٣٥٠.

(٣) حول أوضاع أهل الذمة في الأندلس انظر دراسة حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٣٥٠-٤٠٩.

المسلمين، وعلينا أن نعي هذا الأمر جيداً، ونقارن صنيع المسلمين هذا بما فعله النصارى بعد انتهاء الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس، فيما عُرف باسم محاكم التفتيش الإسبانية.

اهتمّ المسلمون في هذه الفترة بتأسيس الحضارة المادية أو المدنية؛ فأسسوا الإدارات، وأقاموا العمران، وأنشئوا القنطر والكباري؛ وما يدلّ على براعتهم في هذا الأمر تلك القنطرة العجيبة التي تُسمّى قنطرة قُرطبة^(١)، وكانت من أعجب القنطر الموجودة في أوربا في ذلك الزمان، كذلك أنشأ المسلمون دوراً للأسلحة وصناعة السفن، وبدأت الجيوش الإسلامية تقوى وتعاظم في هذه المنطقة.

كان من السمات المميزة -أيضاً- في هذه الفترة الأولى من عهد الولاة أن الإسبان بدءوا يقلدون المسلمين في كل شيء؛ حتى أصبحوا يتعلّمون اللغة العربية التي يتكلّمها الفاتحون، بل كان الإسبان النصارى واليهود يفتخرن بتعليم اللغة العربية في مدارسهم.

كذلك كان من بين السمات المميزة لهذه الفترة -أيضاً- أن اتخذ المسلمون قُرطبة عاصمةً لهم^(٢)، وقد كانت طليطلة في الشمال قبل ذلك هي عاصمة الأندلس، ولكن وجد المسلمون أنها قريبة من فرنسا وقريبة من منطقة الصخرة، وهم من مصادر الخطر عليهم؛ فرأوا أن طليطلة بذلك مدينة غير آمنة؛ ومن ثمَّ فلا يمكن أن تكون

(١) مجھول: أخبار مجموعه ص ٣٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٦، والمقربي: نفح الطيب ١/٤٨٠، ٢٣٥ . ١٥/٣

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٥، والمقربي: نفح الطيب ٣/١٤

هي العاصمة؛ لذلك اختاروا مدينة قُرطُبَة، التي تقع في اتجاه الجنوب؛ لانتفاء الأسباب السابقة، وحتى تكون -أيضاً- قريبة من المدد الإسلامي في بلاد المغرب.

٧- الجهاد في فرنسا:

كان الجهاد في فرنسا من أهم السمات المميزة لهذه الفترة من عهد الولاة، فاتخذت خطوات كبيرة في هذه الفترة، وسنذكر هنا بعض الولاة الذين كان لهم سُبُّق وحضور في عملية الجهاد في بلاد فرنسا؛ منهم على سبيل المثال:

السمح بن مالك الخولاني (ت ١٠٢ هـ - ٧٢١ م) :

تُعدُّ ولاية السَّمْحُونَ بنَ مَالِكَ الْخَوْلَانِيَّ هي الولاية الرابعة للأندلس^(١)، فبعد أن قُتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بإشبيلية في رجب ٩٧ هـ^(٢)، اجتمع أهل الأندلس على تولية أيوب بن حبيب اللَّخْمِيٌّ، وهو ابن أخت موسى بن نصير، ولم تدم ولاليه إلا ستة أشهر فقط؛ أي في سنة (٩٧ هـ = ٧١٦ م)^(٣)، ثم كانت ولاية الأندلس إلى الحُرُّ بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧ هـ = مارس ٧١٦، من قبل عامل إفريقية محمد بن يزيد، فبقى الحُرُّ واليًا عليها ثلاث سنين؛ فنقل الحُرُّ الثقفي العاصمة من إشبيلية إلى قُرطُبَة وقيل: في زمان أيوب اللَّخْمِي^(٤).

ثم لما توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك في (صفر ٩٩ هـ = سبتمبر ٧١٧ م)، خلفه عمر بن عبد العزيز عليه السلام^(٥)، فعيّن السمح بن مالك واليًا على الأندلس في

(١) انظر ترتيب الولاية: المقري: *فتح الطيب* / ١٢٩٩.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢٨، والحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس / ٧٢٩٠، ٢٨٩، وابن عذاري: *البيان المغرب* / ٢، ٢٤، ٢٥، والمقربي: *فتح الطيب* / ١٢٨١.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢٨، وابن عذاري: *البيان المغرب* / ٢، ٢٥، والمقربي: *فتح الطيب* / ١٢٣٤، ١٤ / ٣.

(٤) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢٩، وابن عذاري: *البيان المغرب* / ٢، ٢٥، والمقربي: *فتح الطيب* / ١٤ / ٣، وحسين مؤنس: *فجر الأندلس* ١٢٠، ١٢١.

(٥) الطبرى: *تاريخ الأمم والملوك* / ٤٥٧-٥٩، والذهبي: *تاريخ الإسلام* / ٦٣٨٢، وابن كثير: *البداية والنهاية* ٩ / ٢٠٠.

رمضان عام (١٠٠هـ)، وجعل ولاليتها تابعة للخلافة مباشرة؛ نظراً لأهميتها وكثرة
شئونها^(١).

فتعُد ولالية السَّمْح بن مالك الْخُولَانيَّ رَحْمَةً عَلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ حَسَنَاتِ الْخَلِيفَةِ
الرَّاشِدِ عَمَرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحْمَةً (٦١-٧٨١هـ = ٧٢٠-٧٨١م)؛ فَقَدْ حُكِمَ عَمَرُ بْنُ
عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحْمَةً الْمُسْلِمِينَ سَتِينَ وَنَصْفَ عَلَى الْأَكْثَرِ (٩٩-٧١٨هـ = ٧٢٠-
(٢)، وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الْوَجِيزةِ عَمَّ الْأَمْنِ وَالرَّخَاءِ وَالْعَدْلِ كُلُّ بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

الله يشهد أنَّ ما في هذه المخطوطة من حقائق

اختار عَمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحْمَةً السَّمْحَ بنَ مَالِكٍ الْخُولَانِيِّ، ذَلِكَ الْقَائِدُ الرَّبَّانِيُّ
الْمُشْهُورُ فِي التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، وَهُوَ الْقَائِدُ الَّذِي انطَلَقَ إِلَى بَلَادِ فَرْنَسَا مُجَاهِدًا،
وَكَانَتْ بِفَرْنَسَا مَدِينَةً إِسْلَامِيَّةً وَاحِدَةً هِيَ مَدِينَةُ أَرْبُونَةَ، تَلَكَ الَّتِي فَتَحَهَا مُوسَى بْنُ
نَصِيرِ رَحْمَةِ بَسْرِيَّةِ مِنَ السَّرَايَا^(٣)، لَكِنَ السَّمْحَ بْنَ مَالِكٍ الْخُولَانِيِّ فَتَحَ كُلَّ مَنْطَقَةٍ
الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ لِفَرْنَسَا، ثُمَّ أَسَّسَ مَقَاطِعَةً ضَخِيمَةً جَدًّا وَهِيَ مَقَاطِعَةُ سَبْتَمَايَا^(٤).

أَخْذَ السَّمْحَ الْخُولَانِيَّ يَسْتَكْمِلُ الْفَتْوَحَ فِي جَنُوبِ غَرْبِ فَرْنَسَا، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ
أَرْسَلَ يُعَلِّمُ النَّاسَ إِلَيْهِ إِلَيْ فَرْنَسَا أَوْ فِي الْأَنْدَلُسِ، إِلَى أَنْ لَقِيَ رَبِّهِ شَهِيدًا
فِي مَعرِكَةِ تُولُوزِ بِطَرْسُونَةِ يَوْمِ عَرْفَةِ سَنَةِ (١٠٢هـ = ٧٢١م)^(٥).

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٣٠، والحميدي: جذوة المقتبس ١/٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢، ٢٦،
والقربي: نفح الطيب ١/١٥، ٣/٢٣٥، ٢٣٥/٣، والقربي: نفح الطيب ١/١٤.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ٤/٥٩، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/٢١٧.

(٣) انظر: القرى: نفح الطيب ١/٢٧٤.

(٤) انظر تفصيل ذلك: الخشنى: قضاة قرطبة ص ٩، وسبتمانيا الآن هي ساحل (الريفيرا)، وتُعَدُّ من أشهر
المجتمعات السياحية في العالم.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٦، والقربي: نفح الطيب ٣/١٥، وذكر الحميدى في جذوة المقتبس أنه
استشهد في يوم عرفة سنة ١٠٣هـ = ٢٣٦/٦.

ولاية عنبسة بن سحيم (ت ١٠٧ هـ = ٧٢٥ م):

لما سقط السمح بن مالك شهيداً في أرض الجهاد، اختار أهل الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقيَّ رَحْمَةً أميراً عليهم، واستطاع بمهارته العسكرية أن يجمع شتات المسلمين، ويعود إلى الأندلس في ذي الحجة سنة (١٠٢ هـ)، وكانت هذه ولاته الأولى، ولم تدم إلا شهرين؛ فقد عزله يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية، وولى بدلاً منه عنبسة بن سحيم رَحْمَةً وذلك في صفر (١٠٣ هـ)^(١).

جهاد عنبسة بن سحيم رَحْمَةً:

كان رَحْمَةً قائداً تقىً ورعاً، وإدارياً فذاً، ومجاهداً حَقَّ الجهاد، حكم بلاد الأندلس من سنة (١٠٣ هـ = ٧٢١ م) إلى سنة (١٠٧ هـ = ٧٢٥ م)^(٢)، فوصل في جهاده إلى مدينة سانس (Sens)، وهي تبعد عن باريس بنحو ثلاثين كيلومتراً، وهذا يعني أن عنبسة بن سحيم رَحْمَةً قد وصل إلى ما يقرب من ٧٠٪ من أراضي فرنسا، ويعني هذا -أيضاً- أن ٧٠٪ من أراضي فرنسا كانت بلاداً إسلامية، فقد أوغل عنبسة بن سحيم رَحْمَةً في غزو الفرنج، ويرى (إيزيدور) أسقف باجة^(٣) في ذلك العصر أن فتوحات عنبسة كانت فتوحات حِدق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة؛ ولذلك تضاعف في أيامه خُراج بلاد الغال -فرنسا- وافتتح قرقشونة (Carcassona) صلحًا بعد أن حاصرها مدةً، وأوغل في بلاد فرنسا عبر نهر الرون إلى الشرق، وأُصيب بجراحات في بعض الواقع^(٤)، فاستشهد عنبسة بن سحيم

(١) انظر في تفصيل ذلك: الأزدي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/٣٨٦، وابن الأثير: الكامل ٤/٤، ٣٧٧، ٥/١٢٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٧، ٣/١٦، والذهبي: تاريخ الإسلام ٧/٢٠٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٧، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٣٥.

(٣) باجة: هي مدينة بالأندلس بينها وبين قرطبة مائة فرسخ (٥٥ كم تقريباً). الحميри: الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٧٥، وصفة جزيرة الأندلس ص ٣٦.

(٤) انظر: الزركلي: الأعلام ٥/٩١، وانظر تفصيل حملات عنبسة بن سحيم: الأمير شبيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ٧٣-٨٦، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ١١٥-٢١٥.

جَهَنَّمَ وَهُوَ فِي طَرِيقِ عُودَتِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فِي (شَعْبَانَ ١٠٧ هـ = دِيْسِمْبَرَ ٧٢٥ م) ^(١).

ولاية عبد الرحمن الغافقي (٥١٢-٥٧٤٠):

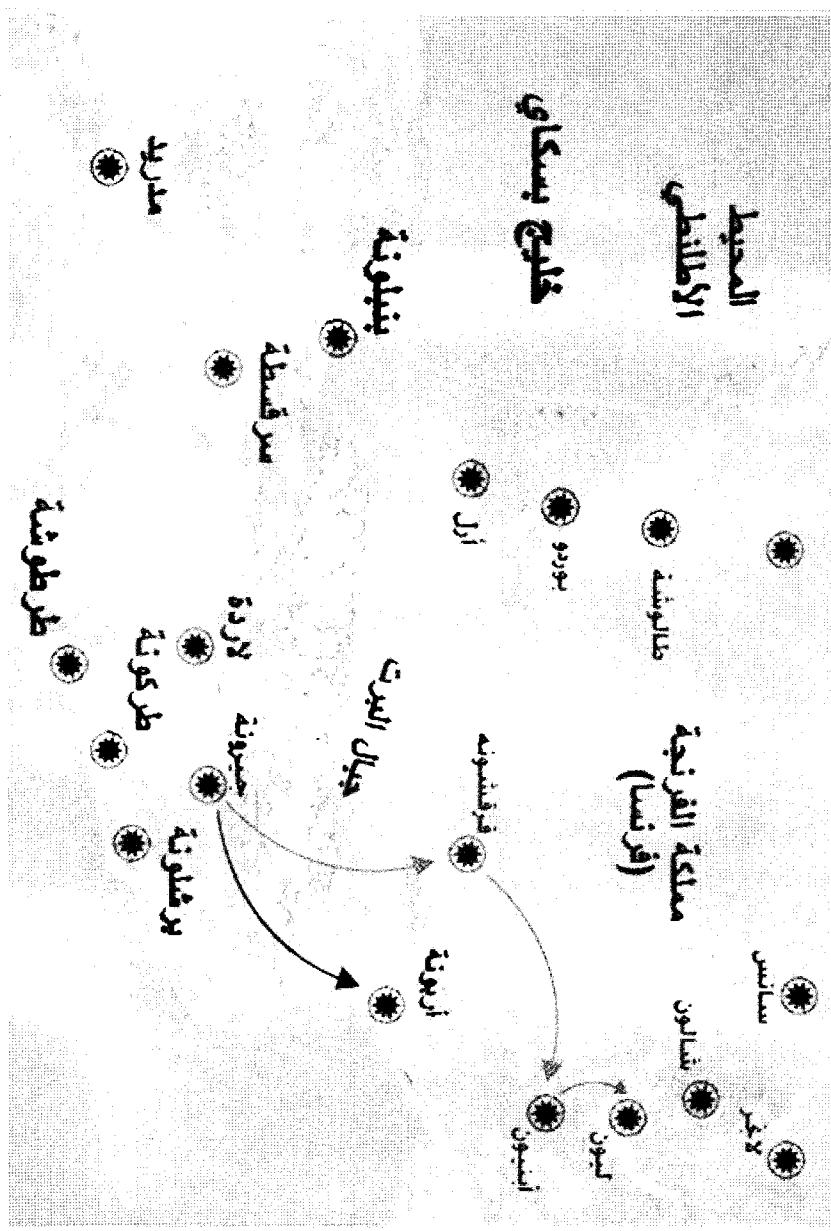
بعد استشهاد عَبْنِيْسَةَ بْنِ سُحَيْمٍ جَهَنَّمَ بَدَأَتِ الْأَمْوَارُ فِي التَّغْيِيرِ؛ فَقَدْ تَوَلََّ حُكْمُ الْأَنْدَلُسِ مِنْ بَعْدِهِ مَجْمُوعَةً مِنْ الْوَلَاةِ عَلَى غَيْرِ عَادَةِ السَّابِقِينَ، فَعَلَى مَدِيْنَةِ خَمْسِ سَنَوَاتٍ فَقَطَ (١١٢-١٠٧ هـ = ٧٣٠-٧٢٥ م) تَوَلََّ إِمَارَةُ الْأَنْدَلُسِ سَتَةُ وَلَاةٍ، كَانَ أَخْرَهُمْ رَجُلٌ يُدْعَى الْهَيْشَمُ بْنُ عَبِيدِ الْكَلَابِيِّ -أَوِ الْكَنَانِيِّ حَسْبُ بَعْضِ الرَّوَايَاتِ- وَكَانَ عَرِيَّاً مَتَّعِصِّبًا لِقَوْمِهِ وَقَبْيلَتِهِ ^(٢).

وَمِنْ هَنَا بَدَأَتِ الْخَلَافَاتُ تَدْبُّرُ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ: الْمُسْلِمُونَ الْعَرَبُ مِنْ جَهَةِ الْمُسْلِمُونَ الْأَمازِيْغِ (الْبَرْبِرِ) مِنْ جَهَةِ أُخْرَى، وَكَانَتِ الْخَلَافَاتُ بِحَسْبِ الْعَرْقِ وَبِحَسْبِ الْعَنْصَرِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَحْدُثْ فِي تَارِيْخِ الْمُسْلِمِينَ مِنْذَ فَتْحِ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْمَنَاطِقِ وَحَتَّى هَذِهِ الْلَّحْظَةِ، وَلَمْ تَمْرُّ خَلَافَاتُ الْعَصَبَيَّاتِ هَذِهِ مَرْوِرَ الْكَرَامِ، وَإِنَّمَا دَارَتِ مَعَارِكُ وَمَشَاحِنُ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ الْأَمازِيْغِ (الْبَرْبِرِ) ^(٣)، حَتَّى مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمَنْ قَضَى عَلَيْهَا وَوَحَّدَ الصَّفَوْفَ مِنْ جَدِيدٍ، وَبِدَائِيْثُ فِي النَّاسِ رُوحُ الإِسْلَامِ الْأَوَّلِ، التِّي جَمَعَتِ بَيْنَ الْأَمازِيْغِ (الْبَرْبِرِ) وَبَيْنِ الْعَرَبِ، وَالَّتِي لَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ عَرَبِيِّ وَأَعْجَمِيِّ إِلَّا بِالْتَّقْوِيِّ، ذَلِكُ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ جَهَنَّمَ.

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/٣٧٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٧، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٣٥، ٣/٢٣٥، ٣/١٦، وذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن ولايته على الأندلس كانت سنة ١٠٦ هـ من قبيل بشر بن صفوان أمير إفريقية في أيام هشام بن عبد الملك، ووفاته سنة ١٠٧ هـ، وقيل سنة ١٠٩ هـ، ٦/٣١٩.

(٢) مجھول: أخبار مجموعة ص ٣١، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٨، وفيه أن محمد بن عبد الله الأشجعي ولد بعده شهرين، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٢٥، ٣/٢٣٥.

(٣) انظر: شکیب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ٨٦، ٨٧.



خريطة رقم (٨) لـالشوهدات التي قام بها شارل من السمح بن مالك وعبيدة بن سعيد

من يكون عبد الرحمن الغافقي؟

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي العكسي (ت ١٤١٦هـ=٧٣٢م)، ينتمي إلى قبيلة (غافق) وهي فرع من قبيلة (عك) باليمن، ويُكنى أبا سعيد، وكان من كبار القادة الغزاة الشجعان، وهو أحد التابعين رض^(١).

مولده:

ربما يكون ولدًا في اليمن ورحل إلى إفريقيا، وَفَدَ على سليمان بن عبد الملك الأموي في دمشق، وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس، ووليَّ قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس^(٢).

فكره العسكري:

تميز القائد عبد الرحمن الغافقي من الناحية العسكرية بالجسم، وهو مبدأ في غاية الأهمية، ويحتاج إليه القائد؛ حتى لا تتشتت الأمور ويبعد الهدف في ظل التراخي عن اتخاذ القرار وتأخير ذلك عن وقته.

كما تميز أسلوبه العسكري النابع من فكره الصائب بالتوزن، بين ما يملك من قوى وما يريد من أهداف، إضافة إلى اعتماد مبدأ الإعداد قبل التلاقي؛ أي: إعداد الجنود والشعب كله قبل المعركة إعدادًا قويًا من كافة النواحي، والتأكد من توافر كل أنواع القوة؛ بداية من قوة الإيهان بالله، مرورًا بقوة التهاسك والأخوة بين أفراد الجيش جميعًا، بل وأفراد الشعب، وانتهاءً بقوة الساعد والسلاح، وهي القوة المادية، وعدم الاستهانة أو التقليل من شأن أي نوع من أنواع هذه القوى؛ فإن أي قصور في أي نوع منها كفيل بجلب الهزيمة على الجيش كله.

(١) الأزدي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/٢٩٨، والزركي: الأعلام ٣/٢١٢.

(٢) الزركلي: الأعلام ٣/٢١٢.

وكان ﷺ، من أحسن الناس خلقاً^(١)، وكانت إنسانيته هذه تباع من تربيته الإسلامية الصحيحة على يد صاحبة النبي ﷺ؛ فلا عجب إذا رأينا منه حُسْنَ السيرة في أخلاقه مع رعيته، ولا عجب إذا رأينا العدل والورع والصبر على الرعية، وإسداء المعروف للناس دون انتظار أي مقابل؛ فهو ليس بحاجة إلى أحد من الناس؛ فهو أمير وقائد، ويمتلك مقومات كثيرة غير أنه يتضرر الأجر من الله تعالى.

قال عنه الذهبي: عبد الرحمن بن عبد الله الغافقيي أمير الأندلس وعاملها لهشام بن عبد الملك. روى عن ابن عمر، وعن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وعبد الله بن عياض^(٢)، وذكره ابن بشكوال فيما دخل الأندلس من التابعين^(٣).

وذكر الحميدي أنه روى الحديث عن ابن عمر، وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وكان صالحًا جليل السيرة في ولادته، كثير الغزو للروم، عَدْلَ القسمة في الغنائم^(٤).

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ٧/٢٧٤، ٢٧٥، والمقرى: نفح الطيب ٣/١٥.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٧/٤١٤.

(٣) المقرى: نفح الطيب ٣/١٥.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ٧/٢٧٤، ٢٧٥.

الفصل الثاني

معركة بلاط الشهداء وتوقف الفتوحات



بعد أن وَحَّد عبد الرحمن الغافقي المسلمين، وتيقن أن قوة الإيمان قد اكتملت، توجَّه بهم ناحية فرنسا ليستكمِل الفتح من جديد، ودخل مناطق لم يدخلها السابقون، فوصل إلى أقصى غرب فرنسا، وأخذ يفتح المدينة تلو المدينة، ففتح مدينة آرل^(١)، ثم مدينة (بودو^(٢)) ثم مدينة (طلوشة)، ثم مدينة (تور)، ثم وصل إلى (بواتيه)، وهي المدينة التي تسبق باريس مباشرة، والفارق بينها وبين باريس حوالي مائة كيلو متر تقريرًا إلى الغرب منها، وبينها وبين قُرْطُبة حوالي ألف كيلو متر؛ أي أنه توغل كثيرًا جدًّا في بلاد فرنسا في اتجاه الشمال^(٣).

وفي مدينة بواتيه عسكر عبد الرحمن الغافقي في منطقة تُسمَّى البلاط (البلاط في اللغة الأندلسية تعني القصر)، عند قصر قديم مهجور كان بها، ثم بدأ في تنظيم جيشه للاقتلة جيش النصارى، وكان عدد جيشه يصل إلى خمسين ألف مقاتل؛ ولذا تُعد حملة عبد الرحمن الغافقي هي أكبر حملة تدخل إلى بلاد فرنسا^(٤).

(١) آرل: هي مدينة في جنوب فرنسا، تقع في مقاطعة بروشيه دو رون، بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط. (٢) وهي موجودة الآن بفرنسا.

(٣) انظر تفصيل زحف عبد الرحمن الغافقي في بلاد فرنسا: شبيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ٨٧-٩١، وعبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ١٩٣-٢٠٣، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٢١-٢٢٧.

(٤) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٢٧.

وَقْعَةٌ فِي تَارِيخِ وَعِلْمِ الْمُجْرِكَةِ :

لوحة بلاط الشهداء ظرف خاص لسنا نجد في الكثير من الواقع؛ ذلك أن المصادر الإسلامية تصمت تماماً عن ذكر تفاصيل هذه المعركة، وهذا في حقيقة الأمر من العجائب التي لا نعرف لها تفسيراً بعد، فإما أن ما كتب عن المعركة ما زال مفقوداً في بطون المخطوطات غير المنشورة، ينتظر لحظة النور وهنا تنسجم الأمور؛ فالMuslimون لم يتوقفوا في التاريخ هزيمة منها كانت قاسية لا في الأندلس ولا في غير الأندلس، لا في القديم ولا في الحديث منذ غزوه أحد وحنين، وحتى سقوط غرناطة، أو الهزائم الكبرى التي قبلها كالعقاب مثلاً.

فإن لم يكن ما كتب عن المعركة مفقوداً، وكان المسلمين قد توقفوا في الحديث عنه لسبب ما، فإننا لا نجد في هذه اللحظة إلا أن نسير مع المؤرخ المحقق الدكتور حسين مؤنس الذي أدهشه قلة التفاصيل، واجتهد في معرفة السبب فلم يجد إلا أن قال: «الواقع أن المسألة لا تعلّل إلا بشيء واحد: هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواية ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم، فاندرجت في مدارج النسيان، وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبق في ذاكرة الرواية منها شيء إلا أن أهل الإسلام قد هزموا في هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتي ١١٤ و ١١٥ هجرية»^(١).

وحيث خلت تفاصيل المعركة من الرواية الإسلامية لم يبق في المتاح إلا الرواية الأولية المسيحية عنها، وهي روايات حافلة بكثير من التفاصيل، وبكثير من الأساطير كذلك.. ولقد تسببت الروايات الأولية بالبالغات في وصف المعركة ووصف النصر العظيم للفرنجة، والهزيمة الساحقة الماحقة للمسلمين، مبالغة منْ

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٢٨.

رأى فيها إنقاذ المسيحية من الفناء على يد الإسلام الزاحف بسرعة مدهشة، والذي لم يقف أمامه حتى الآن شيء، فإذا به ينتقل من الشرق إلى الغرب، ومن جنوب المتوسط إلى شماله، ويُكاد يجعل بحر المتوسط بحيرة تامة لملكه الناهضة.

إذا فكّل ما نعرفه عن تفاصيل بلاط الشهداء مأخوذه من الرواية الأوربية لا غير، وخلاصة ما تقدّمه الرواية الغربية نميل إلى تصديقه بعد استخلاصه من المبالغات، وإن كان لا يسلم من مؤاخذات واعتراضات كذلك، وسنعرض لها بعد توقيفنا أمام المعركة.

الكثره والغنىمة من عوامل الهزيمة:

رغم ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا أنّه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتّك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدناً كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه؛ ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المحاربون ينظرون إلى هذه الغنائم، ويُفتنون بهذه الأموال الضخمة التي حصلوا عليها.

ثم عندما وصل عبد الرحمن الغافقي بالجيش إلى بواته ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجدّدت العصبيات التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والأمازيغ (البربر) من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه أمر معروف ومتفق عليه، وأخذ كلّ ينظر إلى ما بيده الآخر؛ يقول العرب: إنهم أحق لأفضليتهم. ويقول الأمازيغ (البربر): نحن الذين فتحنا البلاد. ونبي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرقوا قطّ بين عرب وأمازيغ (بربر)، بل ما فرقوا بينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك.

يمكّنا أن نضيف - أيضاً - ما قد يكون من زهو واغترار بالكثرة والعدد

الضخم، فخمسون ألفاً من المجاهدين عدد لم يُسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يُغلبوا بسبب كثرةهم هذه، لا سيما وأنهم اكتسحوا الجنوب والوسط الفرنسي، ولم تقف لهم قوّة ذات بال.

التقى الجيшиان؛ خمسون ألفاً من المسلمين أمام أربعين ألف استطاع شارل مارتل تجتمعهم من كل شيء طاله يداه؛ فمحاربون ومرتزقة، وفرنجة وهمج قادمون من الشمال، وأمراء وعامة وعييد، واندلع القتال بين الجيшиين لمدة تسعه أيام لا غالب ولا مغلوب.

حتى إذا كان اليوم العاشر، حمل المسلمون على الفرج حتى كادوا ينتصرون إلا أن فرقة من فرسان الفرنجة استطاعت أن تنفذ إلى معسكر الغنائم في خلف الجيش الإسلامي، وهنا صاح الصائح ينادي على الغنائم، فوقفت فرقة من الفرسان في قلب الجيش الإسلامي إلى الخلف مدافعة عن الغنائم، فاهتزَّ قلب الجيش الإسلامي، ثم اهتزَّ وضع الجيش جيشه مع هذه الحركة المفاجئة، وما كان عبد الرحمن الغافقي ينادي على الناس ويحاول تجتمعهم من جديد حتى أصابه سهم ألقاه من على فرسه شهيداً، فصارت الطامة طامtan: ارتباك حركة الجيش، واستشهاد القائد العظيم.

بالغت الروايات الأولية كثيراً في أعداد قتل المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جداً؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعدّ خمسمائة ألفاً، أو ثمانين في أقصى التقديرات.

بعد انقضاء اليوم العاشر انسحب المسلمون إلى الجنوب، وجاء اليوم الحادي عشر فنهض الفرنجة لمواصلة القتال، فلم يجدوا من المسلمين أحداً، فتقدّموا على

حضر من مصارب المسلمين فإذا هي خالية، وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات، فظُلُّوا الأمر خدعة، وترئُّثُوا قبل أن يجتازوا المعسرك ويتنهبو ما فيه، ولم يُفَكِّر أحد منهم في تتبع المسلمين؛ إما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركاً، أو ربما لأن شارل مارتل اطمأن أنه يستطيع العودة إلى بلاده في الشمال مطمئناً إلى انصراف المسلمين عنها^(١).

يرفض الدكتور عبد الرحمن الحجي في كتابه «التاريخ الأندلسي» قصة الغنائم هذه، ويسوق في الرد عليها جملة من الأمور هي: عدم ثبوت شيء متعلق بأن ثمة نزاعاً كان بين العرب والبربر لا من قبل المعركة ولا في الوقت الذي تلاها، كذلك ما يبدو في قصة الغنيمة من أسطورية تجنب ما عُرف عن الأهداف العليا للفتح الإسلامي، ولما عُرف عن الفاتحين في فرنسا من الزهد في مثل هذه الأمور، كما أنه من الغريب أن يحمل الفاتحون غنائمهم وهم متوجهون إلى معركة يعرفون أنها حاسمة، ولو قُدر أن اجتمع لهم مثل هذا القدر الضخم من الغنائم -كما تصف الرواية الأوربية- لكانوا أو دعواها مدنًا مفتوحة وما حملوها معهم؛ لا سيما وقد أظهرت لنا طبيعة الفتوح في الأندلس اهتمام المسلمين بالخيل والسلاح تحديداً لا بغير ذلك من الغنائم، كذلك تتناقض الرواية الأوربية حين تقول بأن الفرنج لم يكتشفوا حيلة المسلمين وانسحابهم إلاً في صبيحة اليوم التالي، وقد كانوا يتجهزون لقتال، ما يعني أنه لم تكن تبدو بوادر انتصار لهم ولا هزيمة للMuslimين، فضلاً عن أن تكون هزيمة ساحقة كما تم تصويرها، بل الأرجح في هذه الحالة أن المسلمين انسحبوا بشكل تكتيكي طبيعي لما استشهد الغافقي، وهو قرار عسكري يؤخذ بلا حرج حين تبدو صعوبة المعركة، ولا يعني في حد ذاته هزيمة فادحة^(٢).

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٢٩.

(٢) انظر التفصيل: عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ١٩٧ وما بعدها.

إلاً أننا لا نميل كل الميل إلى كلام الدكتور الحجي، وإن كان طرح بعض ما يحتاج إلى دراسة متخصصة، ذلك أن الفاتحين من البشر ويجوز أن يحرصوا على الغنائم وأن يُفتنوا بها، وليسوا -على عظمتهم- بأكمل من صحابة النبي ﷺ الذين فُتنوا بها في أُحد، كما أن الهزيمة في بلاط الشهداء إذا لم تكن كبيرة لكانَ سمعنا بعودتها أخرى لل المسلمين إلى تلك المناطق، إلا أن ذلك لم يحدث؛ وهذا ما يعطينا الإيحاء القوي -الذي يفتقر للدليل الأكيد- بأنها كانت حقاً هزيمة مؤثرة، وبها توقفت الفتوحات في شمال فرنسا، كذلك لا يُفَسِّرُ الدكتور الحجي طبيعة الصعوبات التي تدفع المسلمين لانسحاب ليس بعده رجعة، وقد عهdenاهم في كل مراحل التاريخ -وفي فتح الأندلس نفسها- يقاتلون في عدد وعدة أقل كثيراً من عدوهم، وفي أرض لا يعرفونها كما يعرفها أصحابها.

وأماماً الدكتور عبد الحليم عويس فيبدو أنه من يميل إلى تفسير الغنائم كسبب للهزيمة؛ يقول: «قصة (الغ尼مة) في تاريخنا غريبة، والدرس الذي تلقىه علينا - كذلك - أغرب! لقد بدأت أولى هزائمنا بسبب الغنيمة، ولقد وقفتا مرغمين - عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا، بسبب الغنيمة - كذلك! فقصة الغنيمة.. هي قصة الهزيمة في تاريخنا. كان قائداً المعركة الأولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام.. وخالف الرمأة أمره، وخافوا من أن تضيع فرصتهم في الغنيمة.. فكانت (أُحد)، وشهد الجبل العظيم استشهاد سبعين رجلاً من خيرة المسلمين.. بسبب الغنيمة..
نعم بسبب الغنيمة!

وكان قائداً المعركة الأخيرة عبد الرحمن الغافقي آخر مسلم قاد جيشاً إسلامياً منظماً لاجتياز جبال البرانس، ولفتح فرنسا، وللتتوغل -بعد ذلك- في قلب أوروبا. وهزم الغافقي.. سقط شهيداً في ساحة (بلاط الشهداء) إحدى معارك التاريخ الخالدة الفاصلة.. وتداعت أحلام المسلمين في فتح أوروبا، وطَوَوا صفحاتهم في هذا

الطريق.. وكان ذلك للسبب نفسه الذي استفتحنا به دروس الهزيمة.. أعني بسبب الغنية. ومنذ تم الاستقرار في المغرب العربي، وإسبانيا الإسلامية، وهم يطمحون إلى اجتياز جبال البرانس وفتح ما وراءها، هكذا أراد موسى بن نصير، لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي أن يغامر المسلمين في طريق مجاهدة، ثم فكر على نحو جدي السمحُ بن مالك الخولاني وإلي الأندلس ما بين عامي (١٠٢-١٠٠هـ)، وتقدّم فاستولى على ولاية (سبتمانيا) إحدى المناطق الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط جنوب فرنسا، وعبر بذلك -السمح جبال البرانس، وتقدّم فنزل في أرض فرنسا مُنعطِّفاً نحو الغرب؛ حيث مجرى نهر البارون، مُستولياً في طريقه على ما يقابلها من البلدان، حتى وصل إلى تولوز -في جنوب فرنسا- لكنه لم يستطع أن يستقر فيها، وُقتل السمحُ، وتراجعت قلول جيشه تحت قيادة أحد قواده (عبد الرحمن الغافقي) فكان السمحُ لم ينجح إلا في الاستيلاء على سبتانيا^(١).

وعلى كل حال، فما زال الباحثون في انتظار الجديد الذي تحود به الأيام من نفاث المخطوطات، مما عسى أن يساعدنا في فهم هذه المعركة التي بها توقفت فتوحنا في أوربا.

النصر انكارثي

ربما يبدو هذا العنوان غريباً على البعض؛ لكنه في الحقيقة كان ما أثبته الواقع وشهد به التاريخ، ولقد فطن إلى هذا المعنى بعض المنصفين من مؤرخي أوربا، قال أناطور فرنس: إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتيه -بلاط الشهداء- حين هزم شارل مارتل الفرسان العرب -المسلمين- في بواتيه سنة (٧٣٢م)، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوربية^(٢).

(١) عبد الحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثة دول إسلامية ص ٧، ٨.

(٢) انظر: شوقي أبو خليل: بلاط الشهداء ص ٤٤، وعبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ١٩٩-٢٠٣.

بين التاريخ والواقع

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّنُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّنُكُم بِإِلَهِ الْغَرُورِ﴾ [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغترروا بهذه الدنيا التي فتحت عليهم فتناسوها؛ ففي الحديث عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فَوَاللَّهِ! مَا الْفَقْرَ أَحَسْنَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحَسْنَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسْطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَهُنَّ لَكُمْ كَمَا أَهْلَكُتُهُمْ»^(١). فسنة الله عز وجل في خلقه أنه إن فتحت الدنيا على الصالحين؛ فاغترروا بها وتناسوا فيها؛ فإنها ستهلككم لا محالة كما أهلكت من كان قبلهم؛ فـ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسْتَةً اللَّهَ تَبِدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسْتَةً اللَّهَ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل المزيمة؛ وهو العنصرية والعصبية القبلية، التي كانت بين العرب والأمازيغ (البربر) في هذه الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذه العصبية ووعتها كتبهم، وظل في ذاكرتهم على مدار التاريخ، حتى مررت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة (١٨٣٠) حتى سنة (١٩٦٠)، فلما قامت الحركات الاستقلالية منذ سنة (١٩٢٠) وما بعدها، فكررت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة، ولم تجد أمامها إلا إشاعة الفتنة بين العرب والأمازيغ (البربر)، وضرب بعضهم ببعض، فكانت تشيع بين الأمازيغ (البربر) أنهم قربيون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)؛ أي: أنت منا ونحن منكم والعرب يبننا غرباء. وذلك للتشابه الكبير بين الأمازيغ (البربر) والأوربيين في المظهر، وهذا ما لا يعترف به الإسلام ولا يقرره على الإطلاق، فمعيار

(١) البخاري: كتاب الرقائق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦١٦)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١).

التناضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتفي فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق الأمازيغ (البربر)، في حين منعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق؛ وذلك حتى يتم فصل الأمازيغ (البربر) عن العرب تماماً في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء، إلا أنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل الأمازيغ (البربر) من الإسلام إلى النصرانية، فظلّ الأمازيغ (البربر) على إسلامهم، وإن كانت لغتهم قد تغيرت.

وكان قبائل الأمازيغ (البربر) تمثل ١٥٪ من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية، إلا أنهم كانوا يتمسّكون بالعربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، لكن حين قامت فرنسا بنفخ نار العصبية، بدأت تُذكي الروح الأمازيغية (البربرية) في اللغة المنفردة هذه القبائل؛ فبدأت تُعلّم اللغة الأمازيغية؛ حتى إنها أنشأت في فرنسا عام (١٩٦٧م) أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية؛ رغم أنها كانت لغة منطقية وليس مكتوبة، وقامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة، وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة الأمازيغية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من الأمازيغ (البربر) لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا؛ حتى إنها في عام (١٩٩٨م) أنشأت ما يُسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تُجمّع الأمازيغ (البربر) من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتعلّمهم اللغة الخاصة بهم؛ وكل ذلك لفصل الأمازيغ (البربر) عن العرب، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في بلاط الشهداء وما تلاها فلم تتوانَ، وفي الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد مسلم عربي، كانت هي نفسها التي رفضت المشروع الذي تقدّم به جوسبان

رئيس وزرائها إلى شيراك سنة (١٩٩٩م) بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي ردّ عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تُريد بلقنة فرنسا. أي: جعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العِرق وبحسب العنصر، وهذا الأمر -في رأيهم- حلال على الجزائر حرام على فرنسا^(١)!

(١) فهمي هويدى: مقال: «درس فتنة الأمازيغ»، صحفة الأهرام ٣ / ٧ / ٢٠٠١م.

الفصل الثالث

وقفة تاريخية

بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقي رحمه الله في موقعة بلاط الشهداء في منطقة بواتيه، وبعد هزيمة المسلمين فيها انسحب المسلمون، وتوقفت الفتوحات الإسلامية في هذه المنطقة، وقبل استكمال الطريق والخوض في تفاصيل ما حدث بعد بلاط الشهداء، هناك بعض النقاط المهمة، والتي تؤكّد الوقوف أمامها قليلاً:

أولها: لماذا لم يقم أهل الأندلس بالثورة رغم ضآلة الحاميات الإسلامية في

الأندلس

كان قوامُ الجيش الإسلامي في بلاد الأندلس ثلاثين ألفَ مقاتل، كان مع طارق بن زياد منهم اثنا عشر ألفاً^(١)، وقد استشهد منهم في وادي برباط ثلاثة آلاف، واستشهد مثلهم في الطريق من وادي برباط إلى طليطلة، فوصل طارق بن زياد إلى طليطلة بستة آلاف فقط من الرجال، ثم عبر موسى بن نصير بثمانية عشر ألفاً^(٢)، فأصبح قوام الجيش الإسلامي أربعة وعشرين ألف مقاتل، تم توزيعهم على كل مناطق الأندلس الواسعة وبعض مناطق جنوب فرنسا، كحاميات إسلامية وفاتحين لمناطق أخرى لم تفتح.

فلماذا لم يقم أهل هذه البلاد -على سعيتها- بالثورة على المسلمين، أو على الحاميات الإسلامية الموجودة فيها؛ رغم قلّتها الملحوظة التي لا تقارن بعدد السكان على الإطلاق؟!

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ١٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٦/٢، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٥٤.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٢٤.

ومثل هذا السؤال هو العجب كل العجب! فالسؤال الذي كان متوقعاً هو: لماذا يشور أهل الأندلس؟ وليس لماذا لم يشورو؟ كان أهل الأندلس قبل دخول الإسلام يعيشون ظلماً مريضاً وضنكًا شديداً؛ تنهب أموالهم وتتنهك أعراضهم فلا يعترضون؛ حُكَّامهم في الثروات والقصور يتنعمون، وهم لا يجدون ما يسدُ الرمق، يزرعون الأرض وغيرهم يأكل ثمارها، بل إنهم يُباعون ويُشترون مع تلك الأرض التي يزرعونها.

فلمَّا إذاً يشور أهل الأندلس؟! أيُّشرون من أجل هذا الذي أذاقهُم العذاب ألواناً؟! أم يشرون من أجل ظهور لُذريق جديد؟! أم يشرون من أجل ذكريات أليمة مليئة بالجوع والعطش، والنهب والسرقة، والظلم والتعذيب والتنكيل، والفساد والرشوة والجبروت؟!

ثم ماذا كان البديل المطروح؟ إنه الإسلام الذي حملته أرواح المسلمين الفاتحين، إنه الإسلام الذي حَرَّم كل ما سبق، وجاء ليقول لهم: تعالوا أَعْطِكم بدلاً من الظلم عدلاً؛ ليس هبةً مني، لكنه حق لكم ولقومكم وأولادكم وذریتكم من بعدهم. إنه الإسلام الذي لم يُفرّق بين حاكم ومحكوم، فإن حدث لأيٍّ منكم مظلمة قام القاضي لا يُفرّق بين المسلم واليهودي والنصراوي، أيًّا كان شكله أو لونه أو جنسه.

إن الإسلام الذي لا يرفع من قيمة الأشخاص بقدر أموالهم أو صورهم أو أجسامهم؛ إنما يقدر أعمالهم، والأعمال متاحة للجميع (الغني والفقير، الحاكم والمحكوم)، إنه الإسلام الذي يقول فيه الحاكم لك: إنْ كنتَ من المسلمين و كنت غنياً فلن تدفع إلاً (٥٪) زكاةً لأموالك، إذا بلغت النصاب، وحال عليها الحُول، وإن كنت فقيراً فلن تدفع شيئاً، بل ستأخذ من بيت مال المسلمين إلى أن تغتنى.

وإن كنت من غير المسلمين و كنت غنياً وقدرًا على القتال -وليس غير ذلك- فستدفع جزيةً؛ هي أقل بكثير من زكاة المسلمين، نظير أن يُدافعوا عنك، وإن هم فشلوا في الدفاع عنك فستُردد إليك أموالك.

إنه الإسلام خلاص الشعوب؛ وحين عرفه أهل الأندلس تمسكوا به، واعتنقوه اعتنقاً، ولم يرضوا عنه بديلاً؛ فكيف يحاربونه ويُضَحِّونَ بهذا النعيم المقيم في الدنيا والآخرة من أجل حياة المراة والعناد والذلة والحرمان؟!

ثانياً: ولكن البعض سيقول: هل من المعقول أن كل أهل الأندلس أعجبوا بهذا الدين؟! ألم يكن هناك ولورجل واحد يريد أن يثور ويعرض حباً في سلطان أو مصالحة كانت قد ضيّعت عليه؟!

نقول: بل؛ كان هناك كثير من الناس من أصحاب المصالح، الذين كان لهم أعون كثيرون أرادوا أن يثوروا على حكم الإسلام؛ ليسترجعوا مجدهم، ويُحقّقُوا مصالح كانت لهم، أمّا لماذا لم يثوروا؟ فالجواب عنده يكفي قوله: ﴿لَا تَنْتَمْ أَشَدُ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣].

فلقد كانت للمؤمنين زمن الفتوات رهبة في قلوب النصارى واليهود، وفي قلوب المشركين بصفة عامّة، فالله يكفي على المؤمن جلالاً ومهابةً؛ فيخافه القريب والبعيد، يقول ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»^(١). ويقول ﷺ: «فَاتَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ» [الحشر: ٢].

ولم يكن هذا الرعب بسبب بشاعة في الحرب، أو إجرام منقطع النظير، إنما كان هبة ربانية لجند الله ﷺ وأوليائه، فلم تكن حرب الإسلام إلا رحمةً للناس كل الناس؛ فها هو ذا ﷺ كما جاء في صحيح مسلم عن بُريدة رض حين كان يُوَدَّعُ الجيوش فكان يخاطبهم؛ قائلاً: «اَغْزُوْا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اَغْرِزُوا وَلَا تَغْرِرُوا، وَلَا تَمْتَلِّوا، وَلَا تَقْتَلُوا وَلِيَدَهُ»^(٢).

(١) البخاري: كتاب التيمم (٣٢٨) عن جابر بن عبد الله، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢).

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأميم الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو وغيرها، (١٧٣١).

وفي رواية: «^(١)»

فأين هذا من حروب غير المسلمين مع المسلمين؟! أين هذا من قتيل مائتي ألف مسلم من المدنيين في البوسنة والهرسك وكوسوفا؟! أين هذا من فعل الروس في الشيشان، وفعل الهندوسي في كشمير، وفعل اليهود في فلسطين، وفعل أميركا في أفغانستان والعراق؟!

فرغم أن الرهبة والرعب أُلقيَ في قلوب الأعداء، إلا أن حروب المسلمين كانت رحمة للعالمين؛ حتى لقد سعدَ الذين لم يدخلوا في الإسلام من اليهود والنصارى في ظل حكم الإسلام أيها سعادة؛ عملاً بقوله ﷺ :

فقد تركت لهم كنائسهم، وكان لهم قضاءً خاصًّا بهم، ولم يفرق بين مسلمٍ ونصرانيٍ ويهوديٍ في مظلمة؛ فكان العجب حقيقةً أن يثوروا، العجب كل العجب أن ينقلبوا على الإسلام، والعجب كل العجب أن يرفضوا حكم الإسلام وقد جاء من عند حكيمٍ خبيرٍ، يعلمُ ما يصلحُ كونَه وأرضَه وعبيده؛

وللإجابة على الشقّ الأول من هذا السؤال، نقول: إذا كانت هذه العوامل قد

(١) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء المشكين (٢٦١٤) عن أنس بن مالك.

حدثت في سنة (١١٤هـ = ٧٣٢م) فإنها قد حدثت مع الصحابة ﷺ في عهد الرسول سنة (٣هـ = ٦٢٥م) وذلك في غزوة أحد، والتي نزل فيها قوله ﷺ مخاطباً صحابة رسول الله ﷺ: «مَنْ كُمْ مِنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ كُمْ مِنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» [آل عمران: ١٥٢] وكأنَّ غزوة أحد تعيد نفسها من جديد في (بلاط الشهداء).

فقد نزلت هذه الآية في الصحابة ﷺ حين خالفوا أمر رسول الله ﷺ، ونزل الرماة وتركوا مواقعهم طلباً للغنية، بعد أن تيقنوا من النصر، فكانت المزيمة بعد النصر؛ حتى إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنت أحسب أنَّ مِنَّا مِنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا حتى نزلت هذه الآية: «مَنْ كُمْ مِنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ كُمْ مِنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» [آل عمران: ١٥٢]^(١).

وهكذا في بلاط الشهداء كانت الغلبة للمسلمين في أول المعركة في أول يومين أو أول ثلاثة أيام، ثم لما التفَ النصارى حول الغنائم يأخذونها - وكان قد وقع جُبُها في قلوب المسلمين - حدث الانكسار في الجيش ثم هُزِّموا.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله ﷺ: «مَنْ كُمْ مِنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ كُمْ مِنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّحُوكُمْ عَنْهُمْ لِمَ سَلَكْتُمْ وَلَقَدْ عَفَ عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» [آل عمران: ١٥٢]، يقول: «وَلَقَدْ عَفَ عَنْكُمْ»، أي: لم يستأصلكم في هذه الموقعة، وأعطاكتم الفرصة للقيام من جديد^(٢). وهكذا في بلاط الشهداء، لم يُستأصل الجيش الإسلامي، لكنه عاد وانسحب ليقوم من جديد.

وإذا جئنا إلى ما قبل أحد، وإلى الراعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ، في غزوة بدر وجدنا - أيضاً - صورةً من صور بلاط الشهداء، وذلك حين انتصر المسلمون ثم اختلفوا على الغنائم؛ حتى إن سورة الأنفال التي نزلت بعد ذلك تعظّم

(١) الطبرى: جامع البيان فى تأویل القرآن / ٧٤، ٢٩٤، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم / ٢ / ١٣٦.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم / ٢ / ١٣٣.

من هذا النصر المجيد قد بدأت بقوله ﷺ: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِللهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ وَأَطْبِعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [الأنفال: ١]. وهو كلام له وقع السهام على الصحابة، لكنه أمر قد حدث وهو أصيل في النفس البشرية.

ومن هنا فما حدث في بلاط الشهداء ليس بجديد؛ لأنَّه من عيوب النفس البشرية، وقد حدث مثله في بدر وفي أُحد، لكنَّ كان هناك اختلاف؛ فالرسول ﷺ بعد غزوة أُحد تدارك الأمر بسرعة؛ فحمَّس المسلمين على الجهاد، وذَكَرَهم بالآخرة حتى قاموا في حراء الأسد^(١)، فكانت الغلبة ورد الاعتبار، أمَّا بعد بلاط الشهداء فلقد قام بالفعل رجل من المسلمين هو عقبة بن الحجاج رض، يُحَمِّسُهم ويُسَجِّعُهم، إلَّا أنه لم تحدث موقعة بعد بلاط الشهداء كموقعة حراء الأسد بعد أُحد - يسترد فيها المسلمون اعتبارهم وثقتهم بأنفسهم.

كذلك اختلف الفريقان في أنَّ معظم جيش المسلمين في بلاط الشهداء لم يرجع عن حِبِّ للدنيا وتعلقه بها، أمَّا في أُحد فقد قال عنهم ﷺ: «مَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» [آل عمران: ١٥٢]؛ ولذلك لم يَعُدَّ المسلمين بعد بلاط الشهداء كما عادوا بعد أُحد مباشرة.

ومن أُوْجُهِ الشبه الكبيرة -أيضاً- بين (أُحد) (وبلاط الشهداء) أنه عندما أُشيع خبر وفاة الرسول ﷺ في أُحد حدث الانكسار^(٢)، وانهزم المسلمون وفرُوا، وكذلك بالنسبة لبلاط الشهداء، فحينما قُتِلَ عبد الرحمن الغافقي رض انسحب المسلمون، وانكمشوا على أنفسهم إلى الداخل، وهنا تكمن العبرة والعظة من أحداث المسلمين المتكررة وشديدة التشابه.

(١) ابن عبد البر القرطبي: الدرر في اختصار المغازي والسير /١ ، ١٦٧ ، وابن كثير: السيرة النبوية /٤ ٥٢

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية /١ ١٥٨ .

مشكلات القومية والعنصرية:

وهي الشق الثاني من السؤال، وكسابقتها فإن مسألة القومية والعنصرية كانت قد ظهرت -أيضاً- في عهد رسول الله ﷺ، وهذا لا يُعدَّ قدحاً في هذا العهد أو في هؤلاء الصحابة، بقدر ما هو بيان لأمور فطرت وجبرت عليها النفسُ الأدمية، لكن فرقٌ بين أن تعود هذه النفس إلى طريق بارئها وبين أن تتمادي في غيّها.

ولعلَّنا نذكر هنا تلك الحادثة المشهورة التي حدثت بين أبي ذرٍ وبين بلال عليه السلام؛ حين عيره أبو ذرٍ بأمه في خلاف بينهما؛ قائلاً لبلال: يا بن السوداء.

فذهب بلال إلى رسول الله ﷺ مغاضبًا يحكى له ما حصل، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن غضب غضبًا شديداً، وقال لأبي ذرٍ: «طف الصاع»^(١)، إنَّكَ امْرُؤٌ فيك جاهيلية، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ^(٢)، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ كَانَ أَخْوَهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلَيُطْعِمْهُ مَا يَأْكُلُ وَلَيُلِسِّنْهُ مَا يَلْبِسُ، وَلَا تَكْلُفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُمْ فَأَعْيَنُوهُمْ»^(٣).

والعبرة هنا برد فعل أبي ذرٍ رض حيال هذا الغضب من رسول الله ﷺ، وحيال هذا الذنب الذي اقترفه، فما كان من أبي ذرٍ إلا أن وضع رأسه على التراب مصراً على أن يطاو وجهه بلال رض بقدمه؛ حتى يُكفر عن خططيته تلك، وكان رد فعل بلال رض أن غفر لأبي ذرٍ، ورفض أن يطاو وجهه، وقد حدث مثل هذا -أيضاً- بين الأوس والخزرج، حين فتنَ بينهم شاسُ بن قيس، فقالت الأوس: يا لاؤس. وقالت الخزرج: يا للخزرج. وحينها قال الرسول ﷺ: «اللهُ اللهُ! أَبْدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ

(١) طَفُ الصاع: أي كلّكم قريبٌ بعضكم من بعض؛ فليس لأحد فضلٌ على أحد إلا بالتفوى؛ لأنَّ طَفَ الصاع قريب من ملته، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طفف ٩/٢٢١.

(٢) خولكم: خدمكم، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/١١٥.

(٣) البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجahليّة، ولا يكفر صاحبها بارتکابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم: كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل... (١٦٦١).

أَنْتُمْ أَكْثَرُهُمْ لَا تَشْعُرُونَ^(١)

وليس أدل على تلك القبليّة ما حدث بمجرد وفاة الرسول ﷺ من فتنةبني حنيفة، واجتماع الناس حول مسيلمة الكذاب، حتى سُئلَ رجلٌ من أتباع مسيلمة: أتعلّم أنَّ مُحَمَّداً صادقٌ ومسيلمة كاذب؟ فأجاب قائلاً: والله أعلم أنَّ مُحَمَّداً صادقٌ، وأنَّ مسيلمة كاذب، ولكنَّ كاذب بنى ربيعة، أحبُّ إلىَّ من صادقٍ مضرٌ^(٢). هكذا كانت النظرة قبليّةً تماماً في نظر هذا الرجل، ولو مَسَ الإيمانُ قلبه ما قال مثل قوله هذه.

إذاً فقد ظهرت العنصرية والقبليّة منذ عهد رسول الله ﷺ، إلا أنَّ الرسول كان يتدارك هذا الأمر بسرعة، ويُخفِّز الناس بالإيمان ويُقرّهم إلى ربهم، ويُذكّرهم بالآخرة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا أَوْ شَرًّا يُبَصِّرُهُ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فسرعان ما يتجاوزون ما حدث ولا يعودون، متذكّرين قوله ﷺ في كتابه الكريم: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا أَوْ شَرًّا يُبَصِّرُهُ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣].



(١) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة المنافقون (٤٦٢٤) عن جابر بن عبد الله، ومسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (٢٥٨٤).

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٧٧، وابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٣٦٠.

الفصل الرابع

عبد الله بن عبد الرحمن

رواية عبد الله بن عبد الرحمن المأموني (٩١٦-٩١٨)

وصلت أنباء فاجعة ب بلاط الشهداء واستشهاد عبد الرحمن الغافقي رحمه الله إلى عبيدة بن عبد الرحمن القسيسي والي إفريقيية، فبعث إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك رحمه الله يخبره بولايته عبد الملك بن قطن الفهري على الأندلس فأقره الخليفة عليها، وكان ذلك في رمضان وقيل: شوال عام (١١٤هـ = ٧٣٢م)^(١).

نحوه ووجهه :

كان هُمْ عبد الملك بن قطن ثبّيت أمير المسلمين في المناطق الفرنسية، التي بدأت تتهاوى بعد موقعة بلاط الشهداء، وقد نجح في ذلك بعزمـه، وبانفلاط سكان الجنوب عن الولاية لشارل مارتل - الذي كان يُعاملهم بظلم وعسف ويطلق عليهم يد جنوده - وبغزوات قائدـه في أربونة يوسف الفهري^(٢)، ومع جهادـه هذا إلاـ أنه كان ظلـوماً جائـراً عنيـفاً سـيـئـاً السـيـاسـةـ، فلم يجدـهـ والـيـ إـفـرـيقـيـةـ عـبـيدـ اللهـ بنـ الـحـبـابـ بـدـاـ منـ عـزـلـهـ؛ بـعـدـ أـنـ كـثـرـتـ شـكـاوـيـ الـأـنـدـلـسـيـيـنـ مـنـهـ، فـكـانـ عـزـلـهـ فيـ رـمـضـانـ.

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٣١، والحميدي: جنوة المقتبس ٧/٢٨٧ وفيه أنه تولى سنة ١١٥هـ، وأبن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٨، والمقربي: نفح الطيب ١/٣، ٢٣٦، ١٨/٣.

(٢) المقربي: نفح الطيب ١/٢٣٦، وعن غزوـاتهـ اـنـظـرـ: شـكـيبـ أـرـسـلـانـ: غـزـوـاتـ الـعـرـبـ فـيـ فـرـنـسـاـ وـسوـيـسـراـ وـإـيطـالـياـ وـجزـائـرـ الـبـحـرـ الـمـوـسـطـ صـ ٩٢ـ، وـحسـينـ مؤـنـسـ: فـجرـ الـأـنـدـلـسـ ٢٣٣ــ ٢٣٠ـ.

(١١٦هـ=٧٣٤م)، بعد ستين من ولاته الأولى^(١).

عقبة بن الأبيحاج (١١٦-١٢٣هـ)

اختار عبيد الله بن الحبّاب لولية الأندلس مجاهداً فناداً يُسمى عقبة بن الحجاج السلوقي حَفَظَهُ اللَّهُ، الذي تولى من سنة (١١٦هـ=٧٣٤م) إلى سنة (١٢٣هـ=٧٤١م)^(٢).

وقد خير عقبة بين إماراة إفريقية بكمالها (كل الشمال الإفريقي) وبين إماراة الأندلس، ففضل إماراة الأندلس؛ لأنها أرض جهاد؛ ملاصقتها للبلاد النصارى^(٣). قال ابن عذاري: «أقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم طريقة وأعدّها»^(٤). وقال المقرّي: «وَوَلَى عَقْبَةَ بْنَ الْحَجَاجِ السَّلُوْلِيَّ مِنْ قَبْلِ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ الْحَبَّابِ، فَأَقَامَ خَمْسَ سَنِينَ حَمْدَوَ السِّيرَةَ، مَجَاهِدًا مَظْفَرًا»^(٥).

فتواهاته:

وقد قام حَفَظَهُ اللَّهُ خلال سنوات إمارته السبع بأكثر من سبع حملات داخل فرنسا، وكان ينزل إلى الأسرى بنفسه يعلمهم الإسلام؛ حتى إنّه أسلم على يديه ألف من الأسرى^(٦)، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَاَنَّ يَهِيَّدِي اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا حَتَّىْ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ شَرُّ النَّعَمِ»^(٧). فكيف بالفيف؟!

(١) المقرّي: نفح الطيب /١، ٢٣٦/٣، ١٩.

(٢) مجھول: أخبار مجموعة ص ٣٣، ٣٤، ٣٥، وابن عذاري: البيان المغرب /٢، ٢٩، ٣٠، والمقرّي: نفح الطيب /١، ٢٣٦/١.

(٣) مجھول: أخبار مجموعة ص ٣٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب /٢، ٢٩.

(٥) المقرّي: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب /١، ٢٣٦/١.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب /٢، ٢٩، والمقرّي: نفح الطيب /٣، ١٩.

(٧) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب... (٣٤٩٨) عن سهل بن سعد، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٦). (٢٤٠٦).

بدأ عقبة بن الحجاج عليه السلام يُعيد أمجاد الجهاد الإسلامي في بلاد فرنسا، فثبتَّ أقدام المسلمين في بروفانس -جنوب شرق فرنسا، وأقام فيها الرباطات^(١)، واستولى عقبة على بلاد الدوفينيه -شرقي ليون، وفتح مدينة سان بول^(٢)، وفتح عليه السلام مدينة أربُونة عاصمة مقاطعة سبتمانيا، وقرشونة إحدى مدنها^(٣)، واتسعت فتوحات المسلمين حتى وصلت إلى مقاطعة بيدمونت بشمال إيطاليا^(٤).

وواصل عقبة جهاده لإقرار الفتح في المدن الأندلسية لا سيما في الشمال الغربي في أرض جيليقية، التي لم تكن فُتحت حتى الآن، وبلغ في ذلك غاية ما يستطيع، إلا أنه واجه -والحق يقال- بسالة نادرة، حتى ليروي صاحب «أخبار مجموعة» أنه «لم تبق في جيليقية قرية لم تُفتح غير الصخرة، فإنه لاذ بها ملك يقال له: بلاي، فدخلها في ثلاثة رجال، فلم يزل يقاتلونه ويغاؤونه حتى مات أصحابه جوعاً، وترامت طائفة منهم إلى الطاعة، فلم يزالوا ينقصون حتى بقي في ثلاثة رجالاً ليست معهم عشرَ نسوة^(٥) فيما يقال، إنما كان عيشهم بالعسل، ولاذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم جِبَاح النحل^(٦) عندهم في خروق الصخرة. وأعيا المسلمين أمرُهم، فتركوه و قالوا: ثلاثة نساء علِجًا ما عسى أن يكون أمرهم، واحتقر وهم، ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم»^(٧).

ولقد ظلَّ عقبة بن الحجاج عليه السلام مجاهدًا حسن السيرة بين جنده إلى أن استشهد

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٣٣.

(٢) الأمير شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩، ١٥٢١٠، ١٥٢١١، ١٥٢١٢، ١٥٢١٣، ١٥٢١٤، ١٥٢١٥، ١٥٢١٦، ١٥٢١٧، ١٥٢١٨، ١٥٢١٩، ١٥٢٢٠، ١٥٢٢١، ١٥٢٢٢، ١٥٢٢٣، ١٥٢٢٤، ١٥٢٢٥، ١٥٢٢٦، ١٥٢٢٧، ١٥٢٢٨، ١٥٢٢٩، ١٥٢٢١٠، ١٥٢٢١١، ١٥٢٢١٢، ١٥٢٢١٣، ١٥٢٢١٤، ١٥٢٢١٥، ١٥٢٢١٦، ١٥٢٢١٧، ١٥٢٢١٨، ١٥٢٢١٩، ١٥٢٢٢٠، ١٥٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٩، ١٥٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢١١، ١٥٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٢، ١٥٢٢٢٢٢٢١٣، ١٥٢٢٢٢٢١٤، ١٥٢٢٢٢٢١٥، ١٥٢٢٢٢٢١٦، ١٥٢٢٢٢٢١٧، ١٥٢٢٢٢٢١٨، ١٥٢٢٢٢٢١٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٣، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٤، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٥، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢٧، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٨، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٩، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢٢١٠، ١٥٢٢٢٢٢٢٢٢٢١١، ١٥٢٢٢٢٢٢٢١٢،

سنة (١٢٣ هـ = ٧٤١ م)^(١)، وباستشهاده تكون قد انتهت الفترة الأولى من عهد الولاة.

النهاية الأولى في حكم الولاة :

تبدأ هذه الفترة سنة (١٢٣ هـ = ٧٤١ م) وحتى سنة (١٣٨ هـ = ٧٥٥ م)^(٢)، وقد شهدت هذه الفترة حروباً كثيرة ونزاعات متعددة تحكمت فيها العصبيات القبلية والعنصرية البغيضة، التي اتخذها ولادة الأندلس في ذلك الحين دينًا لهم في تعاملهم؛ سواء مع العرب أو الأمازيغ (البربر)؛ مما أدى إلى ظهور ثورات متعددة، ودخول أفكار جديدة لم تعهد لها الأندلس من قبل.

النهاية الثانية في حكم الولاة :

بوفاة عقبة بن الحجاج رض آلت ولادة الأندلس إلى عبد الملك بن قطّن الفهريي مرّة ثانية (١٢٣ هـ = ٧٤٢ م)^(٣)، وقد حفلت ولادته الثانية هذه بأحداث جسام، كانت أن تعصف بالإسلام في الأندلس كلية، كان أخطرها تجدد الصراع العنصري البغيض بين العرب والأمازيغ (البربر)، وظهور طائفة الخوارج، الذين أشعلوا أُوار^(٤) الحرب وقادوا الثورة على عمالبني أمية، الذين أساءوا استعمال السلطة والمعاملة مع الأمازيغ (البربر)؛ مما أتاح للأمازيغ (البربر) اعتناق تلك الأفكار

(١) تاريخ ابن خلدون ٣/٤١، والمقرى: نفح الطيب ١/١٩، ٢٣٦/٣، وقيل: إن أهل الأندلس خلعوه في صفر ١٢٣ هـ. وقيل: إن عقبة استخلف ابن قطن الفهري حين حانت وفاته سنة ١٢١ هـ، كما في ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٠، وقيل: آخر جهه ابن قطن الفهري سنة ١٢١ هـ. كما في أخبار مجموعة ص ٣٥.

(٢) بيان ذلك في ثبت الولاة كما هو عند المقرى: نفح الطيب ١/٢٩٨-٣٠٠، وذكر الولاة كما هو ترتيب ابن عذاري في البيان المغرب ٢/٢٢-٣٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٠، والمقرى: نفح الطيب ١/٢٣٦، وانظر: مجھول: أخبار مجموعة، ص ٣٥، وفيه يقول: إن ولادته سنة ٢١ هـ، وكذلك في البيان المغرب ١/٥٣.

(٤) الأوار: حر الشمس والنار والدخان واللهب. ابن منظور: لسان العرب، مادة أور ٤/٣٥، والمujam الوسيط ١/٣٢.

الخارجية عن الدين؛ فقد وجدوا فيها مناصاً لنيل حقوقهم المغتصبة من جحود الولاة^(١).

بدأت الفتنة الأمازيغية (البربرية) الكبرى في المغرب العربي على يد الخوارج، الذين تغللوا في صفوف الأمازيغ (البربر) ونشروا تعاليمهم، التي لاقت قبولاً واسعاً في المجتمع الأمازيغي (البربري)، الذي يُعاني من ظلم الولاة، فخرجوا بقيادة زعيمهم ميسرة المطغرى -أو المدغري- على حاكم طنجة عمر بن عبد الله المُرادي وقتلوه، وزحفوا إلى بلاد السوس في الغرب وقتلوا عاملها إسحاق بن عبيد الله^(٢)، كان لكل هذا وقع الصدمة على عبيد الله بن الحبحاب وإلي إفريقيا، فجمع جموعه وجيشَه؛ ليتدارك الأمر قبل فواته وتعاظم قوة الخارجين عليه، فالتقى الفريقان من العرب والأمازيغ (البربر) عند وادي شليف، وكانت المزيمة المنكرة للعرب؛ فقد قُتل فيها أشرافهم وفرسانهم وأبطالهم؛ لذلك سميت بمعركة الأشراف وذلك سنة (١٢٣ هـ = ٧٤٢ م)^(٣).

وبلغت أخبار المزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فغضب غضبه الشهيرة؛ وقال: «والله! لأغضبنَّ لهم غضبة عربية، ولأبعنَّ لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي»^(٤). فعزل هشام بن عبد الملك عبيداً الله بن الحبحاب، واستقدمه في جمادى الآخرة سنة (١٢٣ هـ)، وبعث كلثوم بن عياض القُشَّيريَّ على رأس جيش بلغ ثلاثين ألفاً، وعهد له بولاية إفريقيا وضبط أمورها، وجعل معه ابن أخيه بلج بن

(١) انظر في تفاصيل ذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ١٧٠-١٧٣، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٧٩، ٨٠.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٣٤، ٣٥، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١/ ٢٣٧، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٢.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١/ ٢٣٧، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٤.

بشر القُسْتِرِي، وثعلبة بن سلامة العَامِلِي^(١)، واستعدَّ الجيشان العربي بقيادة كلثوم بن عياض والأمازيغي (البربري) بقيادة خالد بن حيد الزَّنَاتِي، واقتتلوا قتالاً شديداً، لكن دارت الدائرة على العرب، وقتلَ قائدُهم كلثوم بن عياض، واستطاع بلج بن بشر أن ينجو بنفسه وبعضاً من جنده، وتحصَّنوا بمدينة سَبَّتَة، وفرض الأمازيغ (البربر) الحصار على بلج ومن معه لَدَّة سنة كاملة (١٢٣، ١٢٤ هـ)، وكانوا طوال هذا العام يستغيثون بعد الملك بن قَطَن والي الأندلس، ولكن بلا مجيب^(٢)!

ثورات الخوارج في الأندلس:

ويبدو أنَّ عَدُوَّي الخروج على الحَكَام انتقلت إلى الأندلس، فلم تلبث الثورة أن انتقلت إلى أمازيغ (بربر) الأندلس، الذين أعلنوا العصيان، وبدعوا بِحِلْقِيَّة وأستورقة في الشمال الغربي للأندلس حيث الكثافة الأمازيغية (البربرية)، فقتلوا العرب وطردوهم من البلاد، إلا ما كان من سَرْقُسْطَة فقد كانت الغلبة فيها للعرب^(٣).

وبعد أن ثَبَّتَ الأمازيغ (البربر) أقدامهم في تلك المناطق، زحفوا باتجاه المدن الكبرى للسيطرة عليها من خلال ثلاثة جيوش، وفَقَ خُطَّة ذكية أدركت مواطن الضعف في الولاية الأندلسية، وعملت على استغلالها:

الأول: إلى طُليطلَة عاصمة الشَّغَر الأَدْنِي.

الثاني: إلى قُرْطُبَة عاصمة الأندلس.

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٣٦، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١/٢٣٩، وابن عذاري: البيان المغرب ١/٥٤، ٥٥، ٣٠/٢، والمقربي: نفح الطيب ٢٠/٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ٤٢-٣٧، وابن عذاري: البيان المغرب ١/٥٥، ٥٦، ٣٠/٢، والمقربي: نفح الطيب ٢١، ٢٠/٣.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٢.

الثالث: إلى الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب للبلاد.

وأمام هذا الزحف الأمازيغي (البربري) لم يجد عبد الملك بن قطان بُدًّا من الاستعانة ببلج وأصحابه المحاصرين في سبتة، وقد كان لا يرضي أن يُغىّبهم، ولا يرضي أن يُنزع لهم الأندلس حتى أكلتهم المجاعة، فبعث إليهم بالسفن والمئونة، وسمح لهم بالعبور إلى الأندلس؛ لإخماد الثورة الأمازيغية (البربرية)، التي كادت أن تعصف به^(١)، وكانت المواجهة الأولى بين بلج بن بشر والجيش الأمازيغي (البربري) الثالث المتوجه ناحية الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، وقد وقعت المعركة في ذي القعدة من عام (١١٣ هـ) على مقربة من شدونة، وأثبتت فيها الجنود الشاميون بقيادة بلج بن بشر شجاعة وإقداماً، رجحت كفة النصر فيها للعرب، وفي التوقيت نفسه كانت قرطبة تصدى هجمات الجيش الأمازيغي (البربري) الثاني، وبمجرد أن انتصر بلج بن بشر على الجيش الثالث لحق بقرطبة فقاتل مع عبد الملك بن قطان الجيش البربري الثاني، فهزمه هزيمة ساحقة، حتى لم يبق من الأمازيغ (البربر) إلا الشريذ، الذي لحق بالجيش الأول المحاصر لطليطلة، وهناك عند وادي سليط جرت معركة طاحنة سُحق فيها الجيش الأمازيغي (البربري) الأول، وسُحقت ثورتهم، وتشتّت جمعهم، وتفرقوا في البلاد، ولم تقم لهم بعدها قائمة^(٢).

الصراع بين القيسية واليمينية :

خرج عبد الملك بن قطان مظفراً بعد أن أنهى ثورة الأمازيغ (البربر) في الأندلس، ولكنه لم يطمئن على سلطانه ما دام بلج بن بشر وجنوده الشاميون في الأندلس، وكانت هواجس ابن قطان في محلها، فعندما عرض على بلج الجلاء من

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٢، ٤٣، وابن عذاري: البيان المغرب / ٢، ٣٠، ٣١.

(٢) انظر تفصيل ذلك عند مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٣، ٤٤، وابن عذاري: البيان المغرب / ٢، ٣١، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص ١٧٤، ١٧٦، محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٨٦، ٨٧.

الأندلس، طبقاً لما اتفقا عليه قبل دخول بلج الأندلس، رفض بلج وجنوده الشاميون أن يعودوا مرّة أخرى إلى المغرب بعدما أنقذوا الأندلس وابن قطّن، وقال بلج بأنه ولـي الأندلس بعهد من عمّه كلثوم بن عياض، الذي ولأه الخليفة أمر المغرب، وأيّده في هذا ثعلبة بن سلامة، وتنادوا بخلع ابن قطّن وتولي بلج، فانحازت إليهم العرب اليمانية في الأندلس، وهجموا على ابن قطّن - الذي كان قد قارب التسعين من العمر - في قصره بقرطبة، واعتقلوه ثم صلبوه، وذلك في ذي القعدة ١٢٣ هـ = سبتمبر ٧٤١ م^(١).

وكان لقتل عبد الملك بن قطّن ردُّ فعل مؤلم ومؤثر، ألهب مشاعر الحقد والضغينة، وجددَ الصراع بين القيسية واليمنية؛ فقد توجّهت جموع المتحالفين مع قطّن وأمية ابنا عبد الملك بن قطّن نحو قرطبة، ودارت بينهم وبين الشاميين معركة ضارية عند أقوة ببرطورة في شوال (١٢٤ هـ = ٧٤٢ م)، قاتل فيها الشاميون قتالاً منْ يطلب الموت دون الحياة؛ فهي معركة مصيرية بالنسبة لهم، فهم إماً أن يكونوا بعدها أو ألاً يكونوا؛ لذلك كان النصر حليفهم، وفيها أُصيب بلج بن بشر بسهم، تسبّب في موته بعده، واختار الشاميون بعده ثعلبة بن سلامة العاملِيَّ أميراً عليهم^(٢).

في هذه الأثناء تجمّعت جموع المتحالفين مرّة أخرى ناحية قرطبة للقضاء على الشاميين، فخرج لهم ثعلبة وجنده إلاً أنه هُزم هزيمة منكرة، وانسحب إلى ماردة وتحصن بها، وصادف ذلك عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة ١٢٤ هـ)، فأحكموا الحصار على الشاميين، واطمأنوا إلى النصر وغَرّهم ما هم فيه من القوة، وشعر ثعلبة بذلك؛ فأرسل إلى عامله على قرطبة يستتجده ويطلب منه المساعدة العسكرية، فوصلت المساعدة من قرطبة في صبيحة عيد الأضحى، واستغلَ ثعلبة انشغال

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣٢، ٣١، والمقرى: نفح الطيب ٣/١٩.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٥-٤٧، وابن عذاري: البيان المغرب ١/٥٦، ٢/٣٢، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٢.

المحاصرین عنه باحتفالاتهم، فباغتهم بالهجوم، وكانت مقتلة عظيمة، دفع فيها المتألفون عليه الشمن باهظاً، ولم يتورّع الشاميون عن القتل، ولا عن استرقاء أسراهם من الرجال والنساء والأطفال، البالغ عددهم عشرة آلاف أو يزيد، وقد حملهم ثعلبة إلى قُرطبة، وهو يريد أن يقتلهم جميعاً^(١)، إلا أن حنظلة بن صفوان - والي إفريقية للخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك - بعث أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبي لإنقاذ الموقف في الأندلس، بعد أن كادت العصبية القبلية تعصف به، وذلك في رجب سنة (١٢٥هـ=٧٤٣م)، وقد رضي البلديون والشاميون به^(٢).

وصل أبو الخطّار على رأس الطالعة الثانية من الشاميين للأندلس بعد طالعة بلج بن بشر الأولى، فأظهر العدل والإنصاف، وأطلق سراح الأسرى والسبى، وتوحدت كلمة المسلمين في الأندلس، وأنزل أهل الشام في الكُور، ومن هنا عاد الاستقرار والمهدوء النسبي إلى الأندلس حيناً^(٣).

ولكن يبدو أن داء العصبية والقبلية كان متجلّراً في النفوس آنذاك، فما هي إلا أيام حتى غلت التزعة القبلية على أبي الخطّار وهو يمني متعصب، ووصلت به عصبيته إلى أن تحاكم إليه يمني وقيسي، وكان القيسى أبلغ حجة من اليمني، ولكن غلت عليه عصبيته فحكم للقطن، فيما كان للقطن إلا أنه ذهب إلى زعيم قومه القيسية وهو الصَّمِيل بن حاتم؛ ليطلب حقه المسلوب، فذهب الصَّمِيل إلى أبي الخطّار، فأهان أبو الخطّار الصَّمِيل، وضربه حتى اعوججت عمامته، فقال له بعض الحجاجب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبو الجوشين. فقال: إن كان لي قوم

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٢، ٢٣٧، والمقرى: نفح الطيب ١/٣، ٢٢.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٣، ٣٤، والمقرى: نفح الطيب ١/٢٣٧، ٢٣٧، ٢٢/٣.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٩، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٢، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٩١، ٩٢، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص ١٨٩، ١٩٠.

فسيقيمونها^(١). وكان ذلك إيذاناً باشتعال أوار الحرب مرة أخرى بين القيسية واليمنية.

وقد استطاع الصَّمِيل بن حاتم أن يجمع قومه، وأن يستقطب بعض الشخصيات اليمنية الساخطة على أبي الخطَّار من اللخميين والجُذَاميين، كان منهم ثَوَابَةُ بْنُ سَلَامَةَ الْعَامِلِيَّ الْجُذَاميُّ، الذي وعده الصَّمِيلُ بِالولَايَةِ إِنْ هُوَ انتَصَرَ عَلَى أَبِي الخطَّار^(٢).

وعجل أبو الخطَّار إلى لقاء الصَّمِيلِ وقومه القيسية، وكان اللقاء عند وادي لكة في رجب ١٢٧هـ = إبريل ٧٤٥م^(٣)، وقد تفرق جمع أبي الخطَّار بعد أن تقاعس الكلبيون عن قتال بني عمومتهم من اللخميين والجُذَاميين، ووجد أبو الخطَّار نفسه وحيداً، فعزم على الفرار إلى قُرْطُبَةَ، ولكن الصَّمِيلَ قبض عليه وسجنه وخلعه، وولَّ مكانه ثَوَابَةُ بْنُ سَلَامَةَ الْجُذَاميُّ عام (١٢٨هـ = ٧٤٥م)^(٤)، فاجتمع رجال اليمنية من أنصار أبي الخطَّار لنصرته، واستطاعوا التغلب على حُرَاسَه، وأخرجوه من سجنه بِقُرْطُبَةَ، فأقام بين قبائل كلب وحمص، واعترفوا به والياً شرعياً على الأندلس، وبدأ أبو الخطَّار يأخذ خطوات عملية نحو استعادة ملكه الضائع، الذي سلبته منه القيسية بزعامة الصَّمِيلِ، وتوجه بج逐 معه إلى قُرْطُبَةَ ليأخذها، فخرج إليه ثَوَابَةُ بْنُ سَلَامَةَ، فتفرق الناس عن أبي الخطَّار، وانسحب بجيشه، ليُعيَّدَ الكرة مرة أخرى^(٥).

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٤، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٥.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٥، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٤.

(٤) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٥، والمقرى: نفح الطيب ٣/٩٥، ٢٤، ٩٥، ٩٦.

(٥) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٥، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٤.

ولم ينعم ثوابة بن سلامة بملك الأندلس طويلاً؛ فقد وافاه الأجل بعد عام من ولايته في المحرم (١٢٩هـ=٧٤٦م)، وبقيت الأندلس أربعة أشهر بعده دون والٍ، مع أن الصَّمِيل يستطيع أن يُنادي بنفسه واليًا، إلا أنه لم يفعل، واكتفى برصد اللعبة السياسية وإدارتها من وراء الستار^(١).

وقد تميزت هذه الفترة من عهد الولاية بكثرة المرشحين للولاية، ولكلٌ منهم أتباعه، فهذا أبو الخطَّار الكلبي، وهذا يحيى بن حرث الجذامي، وهذا عمرو بن ثوابة مدعياً أنه أحق بالولاية بعد أبيه، وفوق ذلك كله كان عقل الصَّمِيل بن حاتم وتدبيره، وليس أدلًّا على ذلك قوله: «نُقَدَّمْ رجلاً يكون له الاسم ويكون لنا الحظُّ»^(٢).

الصميم بن حاتم ويوسف الفهري :

اشتد النزاع بين الأطراف المتنازعة على الولاية، وبدأ كل منهم متسلماً برأيه وأحقيته، محتمياً بقومه وعشائرته، وفي هذا الجو المشحون بالعصبية، التي تُفضي إلى التقاتل والتناحر، توصل الصَّمِيل إلى حلٌ يقضي بتقاسم السلطة بين القيسيين واليمنيين على شكل تعاقب سنوي في الحكم^(٣)، واقتنع الطرفان، وبقيت المشكلة في أول والٍ للأندلس، وقد بادر القيسيية بقيادة الصَّمِيل إلى تقديم شخصيتهم الأولى؛ فاقتراح الصَّمِيل أن يكون يوسف بن عبد الرحمن الفهري هو أول الولاية، واستطاع الصَّمِيل أن يُرضِّي يحيى بن حرث؛ فأعطاه كورة رئَّة فرضي بها وقنع، ووقع الاتفاق بين القيسية واليمنية على يوسف الفهري في جمادى الأولى (٢٢٩هـ=٧٤٧م)، على أن يجتمع القوم بعد عام ليختاروا الشخصية اليمنية التي

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٥، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٥، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٩٧.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٥، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٥.

(٣) محمد سهيل طقوش تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٩٨.

ستلي الأمر بعد يوسف الفهري^(١).

وما أن استقرَّ الأمر في الأندلس، حتى عزل الصَّمِيل يحيى بن حرث الجُذَامي عن كورة رَيَّة، حتى لا تقوى شوكته مَرَّة أخرى ويكثر أنصاره من اليمنية؛ فاشتَدَ غضب يحيى بن حرث لهذا القرار، وسارت رُوح العصبية مَرَّة أخرى، ووضع يحيى بن حرث يده في يد أبي الخطَّار، فاجتمعت كلمة الجُذَاميين والكلبيين وباقِي اليمنية في الأندلس لمناصرة يحيى بن حرث، واجتمعت كلمة مصر وريعة لمناصرة يوسف الفِهْرِي والصَّمِيل بن حاتم^(٢).

وزحف أبو الخطّار ويحيى بن حرث ناحية قُرطبة، وعسكر الجيش عند نهر قُرطبة (الوادي الكبير) عند قرية شقندة، وعبر الصَّمِيل والفهْرِي وجنودهما إليهما، ودارت معركة شقندة (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)^(٣)، وقد استمرَّ القتال سجالاً بين الفريقين، حتى استعان الصَّمِيل بعوامِ السُّوق وغوائها، فاشترك أربعينات منهم في القتال، ليس لهم هم إلَّا القتل، فلما رأى اليمنيون ذلك دبَّ الرعب في قلوبهم، وخارت عزائمهم، وأثخن القيسية فيهم القتل، وكان منهم عمرو بن حرث وأبو الخطّار الكلبي الذي قُتِلَ بعد أن وقع في الأسر، وأراد الصَّمِيل أن يشفي غليله وأحقاده من اليمنية، فأمر بالأسرى أن يقتلوا صبراً، فُقِتِلَ منهم سبعون، ثم تدَّخل حليفه أبو العطاء الجذامي فأمره أن يكُفَّ عن المذبحة فكَفَّ^(٤)، وهكذا كسرت شوكة اليمنية في الأندلس ودانت البلاد لأمر الفهْرِي والصَّمِيل، لا ينazuهما فيها أحد.

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢ / ٣٥.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٣٦ / ٢.

(٣) مجھول: أخبار مجموعة ص ٦٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٦، والقری: فتح الطیب ١/٢٣٨، ٣/٢٥. و محمد سهل، طقوش: تاریخ المسلمين في الأندلس ص ٩٩، وحسین مؤنس: فجر الأندلس ص ١٩٧، ١٩٨.

(٤) مجهول: أخبار جموعة ص ٦٠، ٦١، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٦، ٣٧، والمقرى: نفح الطيب ٣/٢٥.

ويبدو أن يوسف الفهري أردا الخلاص من تلك الوصاية الفعلية عليه من قبل الصميميل، فأمر بتعيين الصميميل عاملًا له على إقليم سرقسطة في عام (١٣٢هـ = ٧٥٠م)، وقبل الصميميل.

ولكن لماذا وافق الصميميل على عرض الفهري قبل هذا الإبعاد المتعمد؟ كانت بلاد الأندلس تمثّل بفترة قحط ومجاعة عظيمة؛ نتيجة للحروب المتزايدة بين العرب اليمينية والقيسية، وبين العرب والبربر، ودامت هذه المجاعة خمس سنوات (١٣٦هـ = ٧٤٩م - ١٣٦هـ = ٧٥٥م)، وقد سلم من هذه المجاعة إقليم سرقسطة، فكان في حالٍ من الرغد والخير؛ لذلك قبل الصميميل العرض، كما أن الصميميل فطن إلى أن يوسف الفهري ما بعثه إلى سرقسطة إلا ليذل به اليمينية وهم أكثر أهلها، إلا أن الصميميل فتح خزائنه ولم يأته صديق ولا عدو إلا أعطاهم^(١).

خلا الجُو للفهري في قرطبة، فلم يُعد الصميميل وصيًّا عليه، ولكن يوسف الفهري كان ضعيف الشخصية ولم يكن له في أمور السياسة، فشار الناس عليه، وخرج عليه عامر بن عمرو العبدري، وهو يمني^(٢) خاف أن يفعل الصميميل باليمينية في سرقسطة ما فعله بهم في شقونه وما بعدها، وكان باستطاعة يوسف الفهري أن يقضي عليه في قرطبة إلا أن جبنه وتردده حال دون ذلك؛ إذ رأى أن يأخذ برأي الصميميل أولاً، فنصحه الصميميل بقتله، وفطن عامر العبدري لمحاولة يوسف الفهري قتله، فصرف عامر العبدري نظره عن قرطبة، وأراد أن يقوم بعمل يقضي به على شوكة الصميميل ويوفّر الفهري، وبما أن الرجل كان يمنيًّا متعصباً، فقد فكرَ في الالتجاء إلى اليمينية في سرقسطة، والتحالف معهم على القضاء على القيسية، فكاتب زعيماً من زعيمائهم وهو الحباب الذهري، فاجتمعت كلمة اليمينية، وعزماوا على

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٦٢، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٧.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٦٣.

حصار الصَّمِيل في سَرْقُسْطَة، وذلك في عام (١٣٦ هـ = ٧٥٣ م)^(١).

فلما اشتدَّ الحصار على الصَّمِيل بعث إلى يوسف الفِهْرِي يطلب نجاته وعونه، ولكن يوسف الفِهْرِي تباطأ في الرد عليه، ويبدو أن الفِهْرِي كان سعيداً مسروراً؛ لأنَّه سيتخلص من وصاية الصَّمِيل الثقيلة عليه، إلاَّ أنَّ أتباع الصَّمِيل من القيسين جعوا جموعهم لنصرة زعيمهم الصَّمِيل، وانضمَّ إليهم نفر من بني أمية ومواليهم - لغرض غامض سُنْكَشَفَهُ بعد قليل - وكان على رأسهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد^(٢).

وانطلقت جموع القيسيَّة ومعهم بنو أمية ومواليهم لنجدَة الصَّمِيل، وما كادت تصل طلائعها حتى جزع المحاصرون ورفعوا الحصار عن الصَّمِيل، وعلى الفور انطلق الصَّمِيل ناحية قُرْطُبَة، ثم هاجم عامر العَبْدَرِيُّ والزَّهْرِي سَرْقُسْطَة فاستوليا عليها، ثمَّ أنَّ الصَّمِيل ويوسف الفِهْرِي هاجما المدينة، ووقع العَبْدَرِيُّ والزَّهْرِي في قبضة الصَّمِيل الذي أمر بقتلها^(٣).

مشهد الخلافة في الشرق :

بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك عام (١٢٥ هـ) بدأت عوامل الضعف تسري في جسد الدولة الأموية، وبدت الخلافة وكأنَّها تسير نحو الهاوية؛ فبوفاة الخليفة هشام بدأت الأضطرابات والفتن والقلق تظهر على مسرح الأحداث، واستمرَّ الأمر كذلك نحوَ من سبع سنوات داخل البيت الأموي نفسه، وبعد وفاة هشام بُويع للخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني)، وقد استهلَّ الوليد

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٦٣، ٦٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٧، والمقربي: فتح الطيب ١/٢٣٨.

وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٢٠١، ١٠٣، ١٠٣، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٠١.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص ٦٥.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص ٦٥-٦٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٧، والمقربي: فتح الطيب ١/٢٣٨.

وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٢٠٣، ١٠٢، ١٠٣، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٠٣، ٢٠٢.

خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتماماً شاملاً، ثم ما لبث أن ارتكب جنایات كثيرة؛ كان أعظمها تنكيله ببني عمه سليمان وهشام، وتنكيله بكتاب رجال دولته، ثم إظهاره للمجون والخلاعة والعبد؛ مما عجل بسقوط مُلكه وخلافته، ثم قتله إثر ثورة قام بها يزيد بن الوليد بن عبد الملك اشتراك معه فيها أمراء البيت الأموي واليمنية، وما أنتَ البيعة ليزيد بن الوليد (يزيد الثالث) حتى قامت المعارضة العنيفة في وجهه، وتزعمها أبناء عمومته، كما ثارت عليه الأقاليم الشامية، فلم يهنا بخلافته طويلاً، ولم تدم خلافته سوى ستة أشهر (جحادى الآخرة - ذو الحجة سنة ١٢٦ هـ)؛ حيث توفي في ذي الحجة، ليترك الشام - وهي الحصن الحصين للدولة الأموية - تشتعل ناراً، كما ترك أبناء أسرته منقسمين على أنفسهم، منشغلين بصراعاتهم عن الأخطار المحدقة بهم، وبصفة خاصة الخطر العباسي.

ثم بُويع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك عام (١٢٧ هـ)، ولكن لم يتم له الأمر؛ إذ انقلب عليه مروان بن محمد وانتصر عليه في عين الجر، وبُويع له بالخلافة في ربيع الآخر (١٢٧ هـ)، فكانت مدة خلافة إبراهيم بن الوليد ما يقرب من أربعة أشهر، وتسلّم مروان بن محمد الخلافة ليصارع أحداً أقوى منه، ويواجه دنيا مُدبرة ودولة ممزقة، قدر له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها، وبعد حالة من السكون والاستقرار إثر بيعة مروان بن محمد بالخلافة، اندلعت الثورات في كل مكان في الدولة؛ فهناك ثورة في حمص، وأخرى في الغوطة، وثالثة في فلسطين، واضطربات في العراق قام بها الخوارج والشيعة، وأخطر من ذلك كله كان انقلاب أمراء البيت الأموي عليه؛ كسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن العزيز، وقد كان اتهماً مروان الثاني في إخداد الثورات والفتنة؛ سبباً في انشغاله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق، خاصةً في خراسان التي كانت مركزاً للدعوة العباسية، وقد انتشرت في المنطقة انتشاراً واسعاً، واستقامت الأمور فيها لبني العباس؛ مما أدى إلى



اقتتال الدعاة العباسين بأن الوقت قد حان للجهر بها، وبدأت رايات العباسين تنساح في البلاد انسياحاً سريعاً، والتقت سيوف الأمويين وال Abbasians، ودارت بين الجيшиين رحى معركة عنيفة عند نهر الزاب في شهر جمادى الآخرة عام (١٣٢هـ)، استمرت أحد عشر يوماً انتهت بهزيمة مروان بن محمد ثم قتله، لتبدأ حقبة جديدة في التاريخ الإسلامي، هي الخلافة العباسية.

نظراً لتفاعل الأمور السابقة بعضها مع بعض، نستطيع بإيجاز شديد أن نلخص أهم الأحداث التي تمخضت عنها الفترة الثانية والأخيرة من عهد الولاة فيما يلي:

أولاً: فقدت كثير من الأراضي الإسلامية في فرنسا^(١).

ثانياً: ظهرت مملكة نصرانية في الشمال الغربي عند منطقة الصخرة، تسمى مملكة (ليون)^(٢).

ثالثاً: انفصل إقليم الأندلس عن الخلافة الإسلامية -الأموية في ذلك الوقت- وذلك على يد يوسف بن عبد الرحمن الفهري^(٣).

رابعاً: انقسمت الأندلس إلى فرق عديدة متاخرة، وثورات لا نهاية لها، فكلُّ يُريد التملك والتقسيم وفق عنصره وقبيلته.

خامسًا: أمر خطير جداً وهو ظهور فكر الخوارج، الذين جاءوا من الشام، واعتنق الأمازيغ (البربر) له؛ وذلك أن الأمازيغ (البربر) كانوا يُعانون ظلماً شديداً وعنصرية بغيضة من قبل يوسف بن عبد الرحمن الفهري؛ مما مهد عقوفهم لقبول

(١) انظر تفاصيل ذلك عند حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٢٣٩-٢٥١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في فجر الأندلس، ص ٢٥٥-٢٨٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/٦٢.

هذا الفكر الخارج عن المنهج الإسلامي الصحيح واعتناقه؛ خلاصاً مما يحدث لهم
مَنْ لِيْسُوا عَلَى فَكْرِ الْخَوَارِجِ^(١).

سادساً: زاد من خطورة هذا الموقف ذلك الحدث الجسيم الذي صدَعَ الأمَّةَ الإسلامية في سنة (١٣٢هـ = ٧٥٠م)، وهو سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية، الذي كان قياماً دموياً رهيباً، انشغل فيه العباسيون بالقضاء على الأمويين؛ ومن ثَمَّ فقد ضاعت قضية الأندلس وغابت تماماً عن الأذهان.

ونتيجة لهذه العوامل جميعاً فقد أجمع المؤرخون على أن الإسلام كاد أن يتلهي من بلاد الأندلس، وذلك في عام (١٣٨هـ = ٧٥٥م)، وأصبح أمر الأندلس يحتاج في إصلاحه إلى معجزة إلهية، وبالفعل حدثت المعجزة بفضلِ من الله وَمَنْ وَكَرِمَ مِنْهُ على المسلمين؛ وذلك بدخولِ رجل يُدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي إلى أرض الأندلس، وذلك في شهر ذي الحجة عام (١٣٨هـ = مايو ٧٥٦م).

ملامح عهد الولاة الثاني

١- حب الدنيا

في أول هذا العهد كانت الأموال كثيرة والغائم ضخمة، وفُتحت الدنيا عليهم، في حين يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِيَّتَهَا»^(٢). وهكذا فُتحت الدنيا على المسلمين وانخرطوا فيها؛ فتأثر بذلك إيمانهم.

٢- ظهور العنصرية والقبلية :

وبيناً لتأثير الإيمان ظهرت العنصرية بصورة كبيرة، وحدثت انقسامات كثيرة في

(١) عجمول: أخبار مجموعة ص ٤٢، وابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٥٤.

(٢) البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامي (١٣٩٦) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تحريف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم (١٠٥٢).

صفوف المسلمين داخل الأندلس؛ حدثت انقسامات بين العرب والأمازيغ (البربر)، وكانت جذور هذه الانقسامات منذ بلاط الشهداء، ثم حدثت انقسامات بين العرب أنفسهم، بين المضريين والهجازيين، وبين العدنانيين (أهل الحجاز) والقططانيين (أهل اليمن)؛ حتى إنه كانت هناك خلافات وحروب كثيرة بين أهل اليمن وأهل الهجاز، ولقد وصل الأمر إلى أن حدثت انقسامات بين أهل الهجاز أنفسهم؛ بين الفهريين وبين الأمويين، بينبني قيس وبني ساعدة. وهكذا انقسم أهل الهجاز بعضهم على بعض^(١).

٤- ظلم الولاة:

وإضافة إلى حبّ الغنائم وتفاقم ظاهرة القبلية والتزعة العنصرية، وكخطوة لاحقة لهذا ظهر ما يمكن أن نسميه ظلم الولاة، فقد تولّ أمر المسلمين في الأندلس ولة ظلموا الناس وألهبوا ظهورهم بالسياط؛ كان منهم -على سبيل المثال- عبد الملك بن قطّن، فقد كان ظالماً جائراً^(٢).

وعلى دربه سار يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي تولّ عام (١٣٠ هـ = ٧٤٨ م) وحتى آخر هذه الفترة، وأخر عهد الولاة كلية سنة (١٣٨ هـ = ٧٥٥ م)^(٣)، فحدثت انكسارات جديدة وثورات عديدة داخل بلاد الأندلس^(٤).

٥- ترك العهاد:

كنا نتحدث منذ قليل عن الانتصارات الإسلامية والتاريخ المجيد، وفتح الأندلس وفتح فرنسا، ثم ها هي ذي الدنيا قد تمكّنت من القلوب،وها هي ذي

(١) انظر تفاصيل ذلك عند حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ١٢٩-٧٩، ص ١٨٣-٢٠٣.

(٢) المقربي: نفح الطيب ١/٢٣٦، ٢٣٦/٣، ١٩/٣.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٥-٣٨، والمقربي: نفح الطيب ١/٢٣٨، ٢٣٨/١، ٢٥/٣.

(٤) انظر التفصيل عند ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٣٨.

العنصرية قد ظهرت، وها هو ذا ظلم الولاة يُسلِّمُ الناس إلى هذه الثورات، وكرد فعل طبيعي جدًا لكل هذا ترك الناسُ الجهاد، وتوقفَت الفتوحات في فرنسا، وتوقفَت الحروب ضد النصارى في الشمال الغربي في منطقة الصخرة، التي كان يتمركز بها مجموعة من النصارى منذ الفتح الأول لبلاد الأندلس، وكقاعدة ربانية وسُنة إلهية فما تركَ قومُ الجهاد في سبيل الله إلا ضرب الله عليهم الذل، يروي أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَبَيَّنْتُم بِالْعِينَةِ^(١)، وَأَخْذُنْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ^(٢)، وَرَضِيَتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزَعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٣). وهكذا كان الحال حين ترك المسلمين الجهاد في فرنسا وأرض الأندلس، فسلط الله عليهم الذل، وانقسموا على أنفسهم، وانشغلوا بدنياهم.

* * *

(١) بيع العينة: هو أن يبيع الرجل شيئاً من غيره بشمن موجل ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الشمن بشمن نقد أقل من ذلك القدر. العظيم آبادي: عون المعبود ٩/٢٤٢، وال蔓اوي: فيض القدير ١/٤٠٣.

(٢) وأخذتم أذناب البقر: كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث.蔓اوي: فيض القدير ١/٤٠٣.

(٣) أبو داود: كتاب الإجارة، باب التهبي عن العينة (٣٤٦٢)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١١).

الْمُؤْمِنُ
بِاللَّهِ
الْمُؤْمِنُ

الفصل الأول

عبد الرحمن الداخل



قصة عبد الرحمن الداخل (١١٣-٥٢١-٧٢٢)

لكي نفهم قصة دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى أرض الأندلس، يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً حتى سنة (١٣٢ هـ = ٧٥٠ م)، وهو زمن سقوط دولة بني أمية في المشرق، فقد قتل العباسيون كلَّ من كان مؤهلاً من الأُمُوِّين لتولي الخلافة؛ فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء أبناء الأمراء (الأحفاد)، إلا قلة مَنْ لم تصل إليهم سبُلُوفهم^(١).

وكان من هؤلاء الذين لم تصل إليهم سبُلُوف بنى العباس - عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك الذي حكم من سنة (١٠٥ هـ = ٧٢٣ م) إلى سنة (١٢٥ هـ = ٧٤٣ م).

وقد نشأ عبد الرحمن في بيت الخلافة الأموي، وكان الفاتح الكبير مسلمة بن عبد الملك عم أبيه يراه أهلاً للولاية والحكم، ومواضعاً للنجابة والذكاء، وسمع عبد الرحمن ذلك منه مشافهة، فترك ذلك في نفسه أثراً إيجابياً، ظهرت ثماره فيما بعد^(٢)، ولما بلغ ريعان شبابه انقلب العباسيون على الأمويين، وأعملوا فيهم السيف - كما ذكرنا - حتى لا يفتك في الخلافة أحدٌ منهم؛ فكانوا يقتلون كلَّ منْ بلغ من البيت الأموي، ولا يقتلون النساء والأطفال، وكان هذا في سنة (١٣٢ هـ).

(١) انظر تفصيل ذلك عند ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/٤٨، وتاريخ ابن خلدون، ١٣٢/٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٤١، والمقربي: نفح الطيب ١/٣٢٨، ٣/٥٣.

هرب عبد الرحمن بن معاوية من مكانه ومستقره في قرية دير خنان من أعمال قنسرين بالشام إلى بعض القرى في العراق ناحية الفرات، ولكن المطاردة العباسية المحمومة –بها جنّدته من مكافآت وعيون تبلغها الأنباء– بلغته في مكانه، وبينما كان يجلس في بيته؛ إذ دخل عليه ابنه ذو الأربع سنوات يبكي فزعاً، وكان عبد الرحمن بن معاوية مريضاً معتزلأً في الظلام في ركن من البيت؛ لأنَّه كان يُعاني من رمد في عينه، فأخذ يُسْكِنَ الطفل بما يُسْكِنَ به الأطفال، إلاَّ أنَّ الطفل ظلَّ فزعاً مرجوبياً لم يهدأ، فقام معه عبد الرحمن بن معاوية فوجد الرأيَات السود (رأيَات الدولة العباسية) خارج البيت، وكانت تعمُّ القرية جميعها، فعلم أَنَّه مطلوب، فرجع عبد الرحمن بن معاوية وأخذ أخيه هشام بن معاوية وما معه من نقود، وترك النساء والأطفال وكل شيء؛ لأنَّه يعلم أنَّهم لن يمسوهم بسوء.

وانطلق عبد الرحمن هارباً –ومعه أخيه هشام– نحو الفرات، وعند الفرات أدركتهما خيول العباسيين، فألقيا بأنفسهما فيه وأخذدا يسبحان، ومن بعيد ناداهما العباسيون: أن ارجعوا ولكم الأمان. وأقسموا لهما على هذا، كانت الغاية أن يقطعوا النهر سباحة حتى الضفة الأخرى، إلاَّ أنَّ هشاماً لم يقوَ على السباحة لكل هذه المسافة، ثم أثَّر فيه نداء العباسيين وأمانهم، فأراد أن يعود، فناداه عبد الرحمن يستحثه ويُشَجِّعه: أن لا تَعْدُ يا أخي، وإنَّ إِنَّه سوف يقتلونك. فرَدَّ عليه: إنَّهم قد أَعْطَوْنَا الأمان. ثم عاد راجعاً إليهم، فما أنْ أمسك به العباسيون حتى قتلوه أمام عيني أخيه، وعبر عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلَّم، أو يُفَكِّر من شدَّةَ الحزن على أخيه ابن ثلاث عشرة سنة، ثم اتجه إلى بلاد المغرب؛ لأنَّ أمَّه كانت من إحدى قبائل الأمازيغ (البربر)، فهرب إلى أخواله هناك، في قصة هروبٍ طويلة جدًا وعجيبة –أيضاً– عبر فيها الشام ومصر وليبيا والقيروان^(١).

(١) الميري: نفح الطيب، ٢٨/٣، وما بعدها.

وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى برقة (في ليبيا)، وظلّ مختبئاً فيها خمس سنين إلى أن يهدأ الطلب والمطاردات، ثم خرج إلى القิروان، وكانت القิروان حينئذ في حكم عبد الرحمن بن حبيب الفهري^(١)، وكان قد استقلَّ - فعلياً - بالشمال الإفريقي عن الدولة العباسية.

كان عبد الرحمن بن حبيب من نسل عقبة بن نافع فاتح المغرب الأول، وكان ابن عم يوسف الفهري الذي كان يحكم الأندلس، وكان يرغب في أن يحكم الأندلس - أيضاً - إذ الأندلس تَبَعَ للمغرب، وكان ظهور عبد الرحمن بن معاوية مما يُعَظِّل هذه الأماني.

لماذا يُعَظِّل ظهور عبد الرحمن بن معاوية آمال عبد الرحمن بن حبيب الفهري؟
إجابة هذا السؤال فيها جانب واقعي تقريري، وجانب آخر طريف يتمثّل في النبوءة!

عبد الرحمن بن حبيب صاحب القิروان، والحاكم الفعلي لمنطقة الشمال الإفريقي، وابن عم صاحب الأندلس يوسف الفهري، يعلم أن عبد الرحمن بن معاوية - وهو الأموي سليل بيت الخلافة الأموية التي فتحت هذه البلاد، ونصبت هؤلاء الولاية على مقاليدها، وكانت تملك عزهم وتوليتهم - لا يسعه أن يجلس في بيته قانعاً من الحياة بالعيش الطيب فحسب، بل لا بدّ له أن يطلب حقه في مُلك آبائه وأجداده الخلفاء، فما هذه إلَّا بلاد هم الذين افتتحوها وملكوها وحكموها بالإسلام.

وهذا في الواقع صحيح جدّاً، وهو - بالنسبة - التفسير الذي يُفسّر تلك الدموية البالغة التي استعملتها الدولة العباسية في القضاء على الأمويين؛ إذ ما دام

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٥/٨

وُجد أمويٌّ أو عصبة أموية فإنها لن تفتَنَّ في استعادة مُلكها المغصوب؛ ومن هنا كان لا بدًّ من اجتثاث الأمويين تماماً لإنهاء هذه المعضلة الخطيرة، والتي أحضر ما فيها مسألة «الشرعية»؛ إذ حُكم بني أمية لهذه البلاد بعد أن فتحوها بجهادهم لا يُشكُّ في شرعيته، بينما انقلاب العباسين على الأمويين موضع أخذ وردٍ وقيل وقال.

ظهور أموي في بلاد المغرب كعبد الرحمن بن معاوية يفتح في ذهن صاحب المغرب -كما سيفتح في ذهن صاحب الأندلس فيما بعد- باباً من الخوف والتوجُّس والانزعاج؛ إذ الأموي أحق بحكم تلك البلاد، وهي من ميراث أجداده الخلفاء العظام.

دار هذا في ذهن عبد الرحمن بن حبيب، ولا شكَّ أنه دار -أيضاً- في ذهن كلَّ صاحب رأي، وكلَّ منْ كان من أهل الحلِّ والعقد والرئاسة والزعامة. هذا هو الجانب الواقعي.

أمَّا الجانب الطريف فهو مسألة النبوءة!

أجمعَت كتب التاريخ على أن مسلمة بن عبد الملك -الفاتح العظيم وفارس بني أمية الذي تولَّ فتح بلاد الشَّمال والقوفاز كما ذكرنا- كان يتبنَّاً بزوال مُلك بني أمية في المشرق، ثم هروب فتى منهم لإحيائه في بلاد المغرب مرَّة أخرى! وتزيد بعض الكتب فتقول بأنه كان يتوقَّع أن يكون عبد الرحمن بن معاوية هو هذا الفتى الذي سيُقْيم مُلك الأمويين في المغرب بعد زواله في المشرق.

وبهذه النبوءة يُفسِّر كثير من المؤرخين أحداث هذه الفترة، فيُفسِّرون بها إصرار العباسين على مطاردة عبد الرحمن بن معاوية خاصة، ويُفسِّرون بها اتجاه عبد الرحمن بن معاوية إلى بلاد المغرب، ويفسرون بها حُبَّ هشام بن عبد الملك ورعايته

لحفيده عبد الرحمن هذا دون غيره من أبنائه وأحفاده، ويفسرون بها -أيضاً- سعي عبد الرحمن بن حبيب لقتل عبد الرحمن بن معاوية في القيروان.

وما يزيد في الطرافة أن النبوة تقول بأن صاحب الأندلس يُرسل شعره ويجعل فيه ضفيرتين، فكان عبد الرحمن بن معاوية بهذا الوصف، وكذا كان عبد الرحمن بن حبيب أيضاً^(١).

ما حقيقة هذه النبوة في الواقع التاريخي؟

الحقيقة أن النبوءات دخلت في العديد من أحداث التاريخ، ولكن -على حد علمي- في كل هذه الأحداث ليس من دليل يقول بأن هذه النبوة وُجدت أو قيلت قبل وقوع الأحداث نفسها، ثم جاءت الأحداث تصدق النبوة.

وهذه النبوة التي نحن بصددها لا تختلف عن هذا، فليس في كتب التاريخ التي وصلت إلينا ما يؤيد أنها نبوة ظهرت قبل وقوع الأحداث، لا سيما وأننا نتحدث عن تاريخ مبكر جداً، في بداية القرن الثاني الهجري، قبل أن تكتب المصادر التاريخية التي بين أيدينا.

والشاهد في موضوعنا أن عبد الرحمن بن حبيب كان يرجو هو -أيضاً- أن يكون صاحب الأندلس، فهو من أبناء الملوك، وهو صاحب جديتين؛ ومن ثم ظهور من ينافسه في النبوة -أيضاً- كان من الخطر الذي لا بد من التخلص منه.

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد عرف بخبر النبوة من خادم يهودي له كان قد خدم مسلمة بن عبد الملك، فأوصل ذلك الخادم لعبد الرحمن بن حبيب نبوة مسلمة من أن قرشياً أموياً يملك بلاد المغرب بعد زوال الأمر من المشرق^(٢).

(١) انظر في أخبار النبوة: مجهول: أخبار مجموعة ص ٥٣، ٥٤، والقرى: نفح الطيب ١/٢٣٨، ٣/٥٣، والنواصري: الاستقصاء ١/١٧٥.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ١/١٥٦.

ولما كثرا الهاريون الأمويون الواصلون إلى أرض المغرب، ازدادت خشية عبد الرحمن بن حبيب من تَكُون عصبة أموية في بلاده، فأخذ في طرد الكثير منهم، وقتل اثنين من أبناء الوليد بن يزيد، وتزوج غصباً بأخت إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وأخذ مالاً له، ثم جدّ في طلب عبد الرحمن بن معاوية^(١).

بلغ ذلك عبد الرحمن الداخل الذي ما كان له أن تفوته مثل هذه الأمور، فلما أن طلبه عبد الرحمن بن حبيب كان قد خرج من القيروان إلى تادلا، ومنها إلى مضارب قبيلة نفزة بالغرب الأقصى، وهم أخواله؛ إذ إن أم عبد الرحمن كانت جارية من نفزة، ولم يكن الوضع هناك بالآمن؛ إذ إن وجود الخوارج في هذه المنطقة -وهم الذين يكرهون الأمويين- كان يجعل مقامه هذا -أيضاً- مقاماً على شفا جرف هار^(٢).

في الواقع لم يَعُدْ أمام عبد الرحمن بن معاوية إلَّا بلاد الأندلس، وإذا جرينا وراء النبوءة فيمكنا أن نقول بأن بلاد الأندلس لم تكن فقط وجهته الوحيدة، بل كانت -أيضاً- مطلبه وغايته وهدفه القديم منذ أن سمعه صبياً من عم أبيه مسلمة بن عبد الملك.

فعبد الرحمن مطلوب الرأس في أيّ قطْرٍ من بلاد المسلمين؛ ففي أقصى الشرق من فارس وما يليها تكمن شوكة العباسين ومعقلهم الرهيب، وقد كانت فارس في هذه الأثناء تحت حكم الرجل القوي الجبار أبو مسلم الخراساني، الذي لُقِّبَ بحجاج بنى العباس، وفي العراق عاصمة العباسين، وفي الشام ومصر سلطة العباسين مكينة كذلك، وفي الشمال الإفريقي وببلاد المغرب الإسلامي مطلوب من عبد الرحمن بن حبيب والخوارج.

(١) المقري: فتح الطيب / ٣، والناثري: الاستقصا / ١٧٥.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤١ / ٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨ / ٢٤٤.

هذا من ناحية الأخطار التي يمكن أن تخيط بالفرد العادي إن كان مطلوبًا، فكيف وهو منبني أمية الذين لا يأمن أحد الملوك على ملكه وتحت سلطانه واحد منهم؟! لم يكن يسعه في الحقيقة إلا أن يعيش أميرًا أو ملكًا، وإلاً فلن يعيش. بذل قضى قانون الواقع على عبد الرحمن بن معاوية.

كانت الأندلس أصلح البلدان لاستقباله؛ وذلك لأنها:

أولاً: أبعد الأماكن عن العباسين والخوارج.

وثانيًا: لأن الوضع في الأندلس ملتهب جدًا؛ وذلك على نحو ما ذكرنا في عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهري في نهاية الفترة الثانية من عهد الولادة؛ ففي هذا الجوًّ يستطيع عبد الرحمن بن معاوية أن يدخل هذه البلاد؛ ولو كانت تابعة للخلافة العباسية ما استطاع أن يدخلها، كما أنها لو كانت على فكر الخوارج ما استطاع - أيضًا - أن يدخلها؛ فكانت الأندلس أنساب البلاد له على **وُعْرَتَهَا** واحتدام الثورات فيها.

عبد الرحمن بن معاوية ودخول الأندلس.

في سنة (١٣٦ هـ = ٧٥٣ م) بدأ عبد الرحمن بن معاوية **يُعِدُ العُدَّة** لدخول الأندلس، فعمل على الآتي:

أولاً: أرسل مولاه بدرًا إلى الأندلس لدراسة الموقف، ومعرفة القوى المؤثرة في الحكم فيها، فلقد كانت الأندلس في تنازع بين اليمنية -وزعيمهم أبو الصباح اليحيسي - والقيسية -وزعيمهم أبو جوشن الصميميل بن حاتم- وهم الذين كانوا عباداً لدولة عبد الرحمن بن يوسف الفهري^(١).

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١ / ٢٣٩، ٢٤٤ / ٨، وسير أعلام النبلاء، ٨، والصفدي: الواقي بالوفيات، ١٦٧ / ١٨

ثانياً: راسل كلّ محبي الدولة الأموية في أرض الأندلس بعد أن علمهم من مولاه بدر^(١)، والحقُّ أنَّ كثيراً من الناس في عهد الدولة الأموية وفي غيرها كانوا يحبُّون الأمويين كثيراً، فمن ذاوية معاوية بن أبي سفيان على الشام في خلافة عمر بن الخطاب^(٢)، وفي خلافة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب^(٣)، والمسلمون في أقطار الدولة الإسلامية يحبُّونبني أمية حباً شديداً، فقد اشتهر بنو أمية على مرّ العصور بالسخاء والسياسة والحكمة، واكتسب ثقة الناس وحسن معاملتهم، والجهاد في سبيل الله، ونشر الدين، وفتح البلاد، فكان لبني أمية داخل بلاد الأندلس الكثير من المؤيدين، والكثير من المحبين حتى من غيربني أمية من القبائل المختلفة.

ثالثاً: راسل كلّ الأمويين في الأندلس يعرض عليهم فكرته، وأنه يعزم على دخول الأندلس ويطلب معونتهم ومددهم^(٤).

كانت الخطوة المؤثرة التي نجح فيها بدر^(٥) -مولى عبد الرحمن الداخل- هو وصوله إلى موالي بني أمية في الأندلس، وشيخهم أبو عثمان، ومن خلامهم حاول التحالف مع القيسية، إلا أن الصميل بن حاتم -وقد كان زعيم القيسية الذين كانوا عهاد الفهري- عَبَرَ بوضوح عن مخاوفه من وجود أمير أموي في البلاد، فوضع القيسيية حينئذ لن يكون كما هو في ظلّ الفهري الذي يستطيعون أن يأخذوا منه ويردُّوا عليه^(٦). فذهبوا إلى اليمنية فرضوا وتمّ لهم الأمر.

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٣٩ / ١١، وابن كثير: البداية والنهاية، ٨٠ / ١٠.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢٣ / ٥.

(٣) الحقيقة أن بدرًا مولى عبد الرحمن الداخل من أكثر الشخصيات تأثيراً في قصة الداخل هذه، وله دور كبير منذ لحظة الهروب من الشام ثم قيامه بالسفارة لعبد الرحمن في أمر من أخطر الأمور، مثل: توسيع الأندلس وتوثيقه للتحالف، ثم سيصير قائد جيوش عبد الرحمن، ثم سيتنهي نهاية مأساوية وغامضة، دون أن يعرف أحد الأسباب المدققة مما يثير حيرة المؤرخين، إلى جانب أن المعلومات المعروفة عنه قليلة جداً.

(٤) هنا نص كلامه: «إني رويت في الأمر الذي أدرته معكما، فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لوبال أحدهم بهذه المجزرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا رجل تحكم عليه ونميل على جوانبه ولا يسعنا بدل منه». المقري: نفح الطيب ٣٠.

وإذاً، فقد نجح بدر في مهمته، فأرسل رسولاً إلى عبد الرحمن يقول له: إن الوضع أصبح جاهزاً لاستقبالك هناك. وحينما سأله عن اسمه، قال: تمام. قال: وما كنتك؟ قال: أبو غالب. فقال: الله أكبر! الآن تم أمرنا، وغلبنا بحول الله تعالى وقوته^(١). وبدأ يُعد العدة، ويجهّز السفينة التي أخذته منفرداً إلى بلاد الأندلس.

عبد الرحمن الداخل في الأندلس

نزل عبد الرحمن بن معاوية عليه السلام على ساحل الأندلس بمفرده، واستقبله هناك مولاه بدر، وكان يحكم الأندلس في ذلك الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكالعادة كان في الشمال يقمع ثورةً من الثورات^(٢).

وبمجرد أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس بدأ يجتمع الناس من حوله؛ محبي الدولة الأموية، والأمازيغ (البربر)، وبعض القبائل المعارضة ليوسف بن عبد الرحمن الفهري، كما كان قد وصلت إلى الأندلس فلول من الأمويين المغاربة، إلى جانب التحالف المأمور مع اليمنية.

كان على رأس اليمنيين في ذلك الوقت أبو الصباح اليحصبي، وكان المقرُّ الرئيس لهم في إشبيلية، وهي المدينة الكبيرة التي كانت تُعد حاضرة من حواضر الإسلام في ذلك الوقت، فذهب عبد الرحمن بن معاوية بنفسه إلى إشبيلية، واجتمع طويلاً مع أبي الصباح اليحصبي، فباعه أبو الصباح^(٣).

وقبل القتال أرسل عبد الرحمن بن معاوية عدّة رسائل إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري يطلب ودّه، وأن يسلّم له الإمارة، ويكون الفهري رجلاً من رجاله

(١) انظر: المقرى: *نفح الطيب*، ٣١ / ٣.

(٢) انظر: مجھول: *أخبار مجموعه*، ص ٧٣، وابن عذاري: *البيان المغرب*، ٤٢ / ٢، والمقرى: *نفح الطيب*، ٣ / ٣.

(٣) ابن الأثير: *ال الكامل في التاريخ*، ٥ / ١٢٣.

في بلاد الأندلس، بحُكْمِ أنه حفيد هشام بن عبد الملك^(١)، لكن يوسف الفهري رفض ذلك، وجَهَّزَ جيًّا و جاء ليحارب عبد الرحمن بن معاوية ومَنْ معه.

الرواية المختصرة :

من المؤسف حقًّا أن يلتقي المسلمون بسيوفهم، لكن كثرة الثورات وكثرة الفتن والانقلابات جعلت الحل العسكري هو الحل الختامي في ذلك الوقت؛ ففي (ذي الحجة ١٣٨ هـ = مايو ٧٥٦ م) وفي موقعة كبيرة عُرفت في التاريخ باسم موقعة ، دار قتال شرس بين يوسف بن عبد الرحمن الفهري من جهة ومعه القيسية، وعبد الرحمن بن معاوية الذي يعتمد في الأساس على اليمنيين من جهة أخرى^(٢).

و قبل القتال كان أبو الصباح اليحيصي (رئيس اليمنيين) قد سمع بعض المقولات من اليمنيين تقول: إن عبد الرحمن بن معاوية غريب عن البلاد، ثم إن معه فرسًا عظيمًا أشهب، فإن حدثت هزيمة فسيهرب من ساحة القتال، ويتركنا وحدنا للفهريين.

و قد وصلت عبد الرحمن بن معاوية تلك المقوله، فقام وفي ذكاءٍ شديدٍ يفوق سنَ الخامسة والعشرين، وذهب بنفسه إلى أبي الصباح اليحيصي، وقال له: إن جوادي هذا سريع الحركة ولا يمكنُني من الرمي، فإن أردت أن تأخذه وتعطيه بغلتك فعلت. فأعطاه الجواد السريع وأخذ منه البغلة يُقاتل عليها، وحيثُنَ قال اليمنيون: إن هذا ليس بمسلكِ رجلٍ يُريدُ الهرب، إنما هو مسلكٌ منْ يُريدُ الموت في ساحة المعركة^(٣).

ودارت معركة قوية، انتصر فيها عبد الرحمن بن معاوية، وفرَّ يوسف الفهري^(٤).

(١) المصدر السابق، ١٢٣ / ٥، والمقرى: نفح الطيب، ٣٣ / ٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٠، وابن عذاري: البيان المغرب، ٤٧ / ٢.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٢.

(٤) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٤٧ / ٢.

عبد الرحمن الداخل وأمارات نجاشي وعلم وذكاء

كانت عادة المحاربين أن يتبع الجيش المنتصر فلول المهزمين والفارّين؛ ليقتلهم ويقضي عليهم؛ ومن ثم يقضي على ثورتهم، وحين بدأ اليمنيون يجهّزون أنفسهم ليتّبعوا جيش يوسف الفهري منهم عبد الرحمن بن معاوية، وقال لهم قوله ظلت تردد في أصداه التاريخ، أمارة على علمه ونبوغه، وفهم صحيح، وفكّر صائب في تقدير الأمور؛ قال لهم: «لا تستأصلوا شافة أعداء ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم»^(١).

يريد جلّه أن هؤلاء الذين يقاتلوننا اليوم سيُصبحون غدًا من جنودنا؛ ومن ثم عوّنا على أعدائنا من النصارى وغيرهم في ليون وفرنسا وغيرها، فهكذا جلّه كان ذا نظرة واسعة جدًا تشمل كل بلاد الأندلس، بل تشمل كل أوربا، بل إنّي أراه بذلك التفكير يستطيع أن يعيد ملك الشام بعد ذلك - أيضًا - إلى أملاك الأمويين؛ وذلك لما يلي:

أولاً: ليس في قلبه غلٌ ولا حقدٌ على منْ كان حريصًا على قتله منذ سويعاتٍ قلائل.

ثانيًا: الفهم العميق للعدو الحقيقى وهو النصارى في الشمال.

ثالثًا: رغم كونه لم يتجاوز الخامسة والعشرين إلا أنه كان يمتلك فهّماً واعيًا، وإدراكًا صحيحاً، وفقاً وعلماً وسعة اطلاع، علِمَ به أنه إن جاز له أن يُقاتلهم لتوحيد البلاد تحت راية واحدة، فهو في الوقت ذاته لا يجوز له شرعاً أن يتبعهم، أو أن يقتل الفارّين منهم، ولا أن يُجهّز على جريحهم، ولا أن يقتل أسيرهم؛ لأن حكمهم حكم الباغين في الإسلام وليس حكم المشركين، وحكم الباغي في الإسلام

(١) المقرى: نفح الطيب، ٤٢ / ٣.

أنه لا يُتَّبِعُ الفارُّ منهم، ولا يُقْتَلُ أَسِيرُه، ولا يُجْهَزُ على جريمه، بل ولا تُؤْخَذُ منه
الغنائم^(١).

وكانت المزيمة بالغة، حتى إن عبد الرحمن الداخل لم يجد أحداً في طريقه إلى قصر الحكم في قُرطبة، وسيطر جنوده على ما في يد جنود يوسف من الأسلحة والممتع وما إلى ذلك، إلا أن بعض الناس حاول انتهاك قصر يوسف الفهري نفسه وسببي أولاده وحريمه، فسارع وطرد الناس، وكسا من عَرِي من أولاد يوسف، ورداً ما قدر على رده، وهنا غضبت اليمنية وساءهم ذلك حين لم يستطعوا أن يتقدمو من يوسف في أولاده ونسائه، وداخلهم أن عبد الرحمن الداخل تعصب لنسبه المضري^(٢).

وأقام ابن معاوية بظاهر قُرطبة ثلاثة أيام، حتى يترك الفرصة لأهل يوسف الفهري أن يجمعوا أمرهم وأن يخرجوه بأمان، فكان هذا بداية عفافه وحسن سيرته في الأندلس^(٣).

بين عبد الرحمن الداخل وأبي الصباح اليحصبي :

ومن المفارقات أنه بعد انتهاء موقعة المصارة وحين لم يرض عبد الرحمن بانتهاك قصر يوسف الفهري ولا سببي أولاده، غضب أبو الصباح اليحصبي زعيم اليمنية، وفكراً في أن ينقلب على عبد الرحمن بن معاوية نفسه، وكان مما قال: «يا عشري يمن؛ هل لكم إلى فتحين في يوم، قد فرغنا من يوسف وصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدام ابن معاوية؛ فيصير الأمر لنا، نقدم عليه رجالاً منا، ونحل عنه هذه

(١) انظر: القاضي أبو يعل الفراء: الأحكام السلطانية، ص ٥٥، ويوسف القرضاوي: فقه الجهاد، ص ١٠١١، وسعود بن عبد العالى البارودى العتبى: الموسوعة الجنائية الإسلامية ص ١٨٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعه، ص ٨٣، ٨٤.

(٣) المفرى: نفح الطيب ٣/٣٤.

المصرية». فلم يحبه أحد لذلك^(١).

ووصلت هذه الأنباء إلى عبد الرحمن بن معاوية، فما كان منه إلا أن أسرّها في نفسه، ولم يُبِدْها لهم، ولم يُعلِّمُهم أنه يعلم ما يُضيّرونَه له؛ لكنه أصبح على حذر شديد من أبي الصباح اليحصبي^(٢).

لم يُرِدْ عبد الرحمن بن معاوية أن يُحدث خللاً في الصفة المسلم في هذه الأوقات، ولم يُرِدْ أن يُحدث خللاً بين الأمويين ومحبّي الدولة الأموية وبين اليمنيين، في ذلك الوقت المليء بالثورات والمعارك الداخلية؛ إنما كان كُلُّ هُمّه هو تجميع الناس ثم حرب النصارى بعد ذلك، وبالفعل وبعد إحدى عشرة سنة من هذه الأحداث عزل عبد الرحمن أبا الصباح اليحصبي عن مكانه، واستطاع أن يمتلك زمام الأمور كلها في الأندلس^(٣).

* * *

(١) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٣، ٨٤، والمقرى: نفح الطيب ٣٤/٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٨٣، ٨٤، والمقرى: نفح الطيب ٣٤/٣.

(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥٣.

النَّصْرُ الْأَكْبَرُ

شَهْرُ الْمُهَاجَرَةِ وَعُيُونُ الْمُهَاجَرَةِ



بعد انتصار عبد الرحمن بن معاوية في موقعة المصارة ودخوله قُرطبة عاصمة الأندلس في ذلك الوقت، لقب عبد الرحمن بن معاوية بعد الرحمن الداخل؛ لأنَّه أول من دخل من بني أمية قُرطبة حاكماً^(١)، فكان له الكثير من الأيدي البيضاء على الإسلام في بلاد الأندلس، وعُرفت الفترة التي تلت دخوله قُرطبة بفترة الإمارة الأموية، وتبدأ من سنة (١٣٨ هـ = ٧٥٥ م) وتنتهي سنة (٣١٦ هـ = ٩٢٨ م)، وسميت (إمارة) لأنها أصبحت منفصلة عن الخلافة الإسلامية؛ سواء كانت في عصر الخلافة العباسية أو ما تلاها بعد ذلك من العصور إلى آخر عهود الأندلس.

وبدأ عبد الرحمن الداخل بعد ذلك يُنظِّم أمور الأندلس، وكانت هناك ثورات في كل مكان من أرض الأندلس، ورثَ بعضها وبعضها الآخر شار عليه، وبصبر شديد وأنة عجيبة، أخذ عبد الرحمن الداخل يُرَوِّض هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى، وتعامل مع كُل منها بما يتواافق معها؛ فاستمال مَنِ استطاع من الثائرين، وحارب الباقيين.

ففي فترة حُكمه -التي امتدَّت أربعة وثلاثين عاماً متصلة من سنة (١٣٨ هـ = ٧٥٥ م) وحتى سنة (١٧٢ هـ = ٧٨٨ م)^(٢)- قامت عليه أكثر من خمس وعشرين ثورة، وهو يقمعها بنجاح عجيب الواحدة تلو الأخرى، ثم ترك البلاد

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٢٢، والمقرى: نفح الطيب، ١/٣٢٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/١، والمقرى: نفح الطيب، ١/٣٣٣.

وهي في فترة من أقوى فترات الأندلس في التاريخ بصفة عامة.

محمل التورات التي قامت ضد عبد الرحمن الداخل :

تعرَّضَت الدولة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل لعدد كبير من الثورات، تزيد على خمس وعشرين ثورة تغلَّب عليها جمِيعاً؛ ومن هذه الثورات:

ثورة القاسم بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري ورزرق بن النعمان الغساني، وثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة (١٤٣هـ = ٧٦٠م)^(١)، وثورة هشام بن عروة الفهري سنة (١٤٤هـ = ٧٦١م)^(٢)، وثورات أخرى تتابعت عليه من سنة (١٤٤هـ) إلى سنة (١٤٦هـ)، وثورة العلاء بن مغيث اليحصبي سنة (١٤٦هـ = ٧٦٣م)^(٣)، وثورة سعيد اليحصبي اليماني سنة (١٤٩هـ = ٧٦٦م)^(٤)، وثورة أبي الصباح حيي بن يحيى اليحصبي سنة (١٤٩هـ = ٧٦٦م)^(٥)، وثورة البربر في الأندلس بزعامة شقيا بن عبد الواحد المكناسي سنة (١٥١هـ = ٧٦٨م)^(٦)، وثورة اليمانية في إشبيلية بزعامة عبد الغافر اليحصبي وحيوة بن ملامس الخضرمي سنة (١٥٦هـ = ٧٧٣م)^(٧)، وثورة سليمان بن يقطان في برشلونة سنة (١٥٧هـ = ٧٧٤م)^(٨)، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة (١٦١هـ = ٧٧٧م)^(٩)، وثورة

(١) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٣٦/٥.

(٢) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٥، وابن عذاري: البيان المغرب، ٥٣/٢.

(٣) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٥١/٢.

(٤) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٧٨/٥، وابن عذاري: البيان المغرب، ٥٣/٢، وتاريخ ابن خلدون، ٤/٤، ١٢٢.

(٥) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٦، وابن عذاري: البيان المغرب، ٥٣/٢.

(٦) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٧، وابن عذاري: البيان المغرب، ٥٤/٢، والمقربي: نفح الطيب، ٤٨/٣.

(٧) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٨، وابن عذاري: البيان المغرب، ٥٥/٢، والمقربي: نفح الطيب، ٤٨/٣.

(٨) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٢، والمقربي: نفح الطيب، ٤٨/٣.

(٩) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٠، وابن عذاري: البيان المغرب، ٥٦/٢.

الحسين بن يحيى الأنصاري سنة (١٦٦هـ = ٧٨٢م)^(١)، وثورة محمد بن يوسف الفهري سنة (١٦٨هـ = ٧٨٤م)^(٢)، وثورات أخرى كثيرة قامت ضده، ولكنها ما لبث أن أخمدتها كلها وقضى عليها.

صقر قريش وثورة العباسين :

ولن نقف إلاً أمام ثورة واحدة فقط من هذه الثورات الخمس والعشرين؛ وذلك لأهميتها الشديدة في فهم هذا الانفصال الذي حدث للأندلس عن الخلافة العباسية، وهذه الثورة حدثت في سنة (١٤٦هـ = ٧٦٣م)؛ أي: بعد حوالي شهان سنوات من تولي عبد الرحمن الداخل حكم الأندلس، وقام بها رجل يُدعى العلاء بن مغيث الحضرمي^(٣).

وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى، والمؤسس الحقيقى للخلافة العباسية بعد أبي العباس السفاح، قد رأسَ العلاء بن مغيث الحضرمي ليقتل عبد الرحمن بن معاوية؛ ومن ثمَّ يضمُّ الأندلس إلى أملاك الخلافة العباسية^(٤).

وهذا يُعدُّ أمراً طبيعياً بالنسبة لأبي جعفر المنصور؛ إذ يُريد ضمَّ بلاد الأندلس - وهو البلد الوحيد المنشقُ من بلاد المسلمين - إلى حظيرة الخلافة العباسية الكبيرة، فجاء العلاء بن مغيث الحضرمي من بلاد المغرب العربي وعبر إلى بلاد الأندلس، ثم قام بثورة يدعون فيها للعباسين، ويرفع الراية السوداء التي أرسلها له الخليفة أبو جعفر المنصور^(٥).

(١) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥٦، والمقرى: فتح الطيب، ٣/٤٨.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٠٥، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥٧.

(٣) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥١.

(٤) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٢٢، والمقرى: فتح الطيب، ١/٣٣٢، ٣٦/٣.

(٥) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص ٩٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥٢.

ولم يتوانَ عبد الرحمن الداخل عن محاربته، فقامت لذلك حرب كبيرة بين العلاء بن مغيث الحضرمي وعبد الرحمن الداخل، وانتصر عبد الرحمن الداخل كعادته في قمع الثورات، ووصلت الأنباء إلى أبي جعفر المنصور -وكان في الحجّ- بأن عبد الرحمن الداخل قد هزم جيش العلاء الحضرمي هزيمة منكرة، وأن العلاء بن مغيث الحضرمي قد قُتل.

وهنا قال أبو جعفر المنصور: قَتَلْنَا هذا البائس. يعني العلاء بن مغيث الحضرمي؛ يُ يريد أنه قتله بتكليفه إِيَّاه بحرب عبد الرحمن الداخل، ثم قال: مَا لَنَا فِي هَذَا الْفَتْنَى مِنْ مَطْعَمٍ، (يعني: عبد الرحمن الداخل)، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ الْبَحْرَ^(١).

وكَفَّ أبو جعفر من ساعتها عن التفكير في استعادة بلاد الأنبار، بل إنَّ أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي هو الذي سَمِّي عبد الرحمن الداخل بصقر قريش، وهو اللقب الذي اشتَهِرَ به بعد ذلك.

فقد ذُكرَ أنَّ أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه: أَخْبَرُونِي: مَنْ صَقَرَ قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك، وسَكَنَ الزلازل، وأبادَ الأعداء، وحسَمَ الأدواء.

قال: ما قلتُم شيئاً!

قالوا: فمعاوية؟ قال: لا.

قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال: ما قلتُ شيئاً.

قالوا: يا أمير المؤمنين؟ فمَنْ هو؟

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥٢، والمقربي، نفح الطيب، ٣/٣٦.

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع الفقر، ودخل بلدًا أعمجىً، منفردًا بنفسه؛ فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملگاً عظيماً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيته، إنَّ معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذللَ له صعبه؛ وعبدُ الملك بيعة أبِرْم عقدها؛ وأمير المؤمنين بطلبِ عترته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيدٌ برأيه، مستصحٍ لعزمه، وطَّدَ الخلافة بالأندلس، وافتتح الشغور، وقتل المارقين، وأذلَ الجبابرة التائرين.

فقال الجميع: صدقت والله! يا أمير المؤمنين^(١).

وهكذا كان أبو جعفر المنصور العاسي معجبًا جدًا بعد الرحمن الداخل، وهو ما يمكن أن نسميه إعجاب اضطرار، أو هو إعجاب فرض نفسه عليه.

شَفِاعَةُ الْأَنْجَوِيِّ فِي مَسَاجِدِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُتَكَبِّرِينَ :

تُثْبِتُ قضية هذا الانفصال الطويل الذي دام بين الأندلس وبين الخلافة العباسية على مَرِّ العصور عدَّة تساؤلات في نفوس جميع المسلمين؛ فلماذا ينفصل عبد الرحمن الداخل -الرجل الورع التقيُّ الذي أقام دولة قوية في بلاد الأندلس- بالكلية عن الخلافة العباسية؟!

ووقفة عادلة مع هذا الحدث وتحليله واستجلاء غواصبه نستطيع القول بأن الدولة العباسية قد أخطأات خطأً فاحشاً بحقَّ الأمويين؛ وذلك بقتلهم وتَتَبعُهم في البلاد بهذه الصورة الوحشية، فإذا كان الأمويون في آخر عهدهم قد فسدوا واستحقوا الاستبدال فليكن تغييرُهم، ولْيُكُنْ هذا الاستبدال، ولكن على هجَّ رسول الله ﷺ، بلا قتل وسفك للدماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

(١) انظر: أخبار مجموعة، ص ١٠٧، وما بعدها، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥٩.

كان من المفترض على الدولة العباسية القائمة على أنقاض الأمويين أن تحتوي هذه الطاقات الأموية، وتعمل على توظيفها لخدمة الإسلام والمسلمين، بدلاً من إجبارهم على خلق جيب من الجيوب في صُقْع بعيد من أصقاع البلاد الإسلامية في الأندلس أو في غيرها من بلاد المسلمين.

فهذا عبد الرحمن الداخل الذي نتحدث عنه يصبح في اليمنيين بعد موقعة المصارة، ويقول لهم حين أرادوا أن يتبعُوا الفارِّين من جيش يوسف بن عبد الرحمن الفهري: لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم^(١). ليضمّهم إلى جيشه بعد ذلك، فهكذا كان يجب على العباسيين أن يفعلوا، ويتركوا الأمويين يدخلون تحت عباءتهم؛ حتى يستطيعوا أن يكونوا لهم جنداً وعوناً لا نِدَّاً ومنافساً، كمارأينا النتيجة بأعيننا.

وهذا -أيضاً- المثل الأعلى والقدوة الحسنة رسول الله ﷺ ماذا فعل بعد أن دخل مكة، وكان أهلها قد آذوه هو وأصحابه وطردوهم منها؟! وماذا قال عن أبي سفيان وهو منْ هو قبل ذلك؟! ما كان منه ﷺ إلاَّ أن دخل متواضعاً، وقال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آنِسٌ»^(٢). أليس أبو سفيان هذا هو زعيم الكفر وزعيم المشركين في أُحُدِ والأحزاب؟! فلماذا إذا يقول عنه ﷺ مثل هذا؟! إنما كان يُريد ﷺ أن يخطب وُدَّه، ويضمّه إلى صفه، وبالمثل فعل ﷺ مع رعوس الكفر في مكة حين قال لهم: «مَا تَظُنُونَ أَيْ فَاعِلٌ بِكُمْ؟» فقالوا: خيراً، أخْ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم. فرَدَ عليهم ﷺ بمقولته التي وعاها التاريخ: «أَدْهَبُوا فَأَنْتُمُ الظُّلْمَاءُ»^(٣).

(١) المقري: فتح الطيب، ٤٢ / ٣.

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (١٧٨٠) عن أبي هريرة، وأبي داود (٣٠٢١)، وأحمد (٧٩٠٩)، وأبي حيان (٤٧٦٠).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤ / ١١، والطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ٢ / ٥٥، وأبي كثير: البداية والنهاية، ٤ / ٣٠١.

وليس هذا من كرم الأخلاق فحسب، لكنه -أيضاً- من فن معاملة الأعداء، وحسن السياسة والإدارة، فلنتخيّل ماذا سيكون الموقف لو أن الرسول ﷺ أقام الحدّ وقطع رءوس هؤلاء الذين حاربوا دين الله سنواتٍ وسنواتٍ؟! بلا شكّ كان سيحدث جيّداً من الجيوب داخل مكة، وكان أهل مكة سيتهزون الفرصة تلو الأخرى للانقلاب على رسول الله ﷺ، وللانفصال عن الدولة الإسلامية.

لكن العجب العجَاب كان في نتيجة ذلك بعد وفاته ﷺ، فقد ارتدت جزيرة العرب جميعها، ولم يبق على الإسلام منها إلّا المدينة ومكة والطائف، وقرية صغيرة تُسمى هجر، ثلاث مدن وقرية واحدة فقط؛ أي أن مكة التي لم تدخل في الإسلام إلّا قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاث سنوات فقط كانت في تعداد هذه المدن القليلة التي ثبتت على الإسلام ولم ترتدّ، وبلا شكّ فهو أثر فعل رسول الله ﷺ الذي لم ينسوه، فكان أن استوعبوا في داخل الدولة الإسلامية، وثبتوا وقت الزَّيْن.

وكان هذا ما سيتكرّر لو فعل العباسيون مثله واستوعبوا الأمويين في داخل الدولة العباسية؛ لأنهم لم يفعلوا ذلك فكان أن اضطُرُّ مَنْ نجا من الأمويين للذهاب إلى هذه البلاد والانشقاق بها عن دولة المسلمين.

وواقع الأمر يقول: إنه لو كان عبد الرحمن بن معاوية يضمن أن العلاء بن مغيث الحضرمي سوف يغفو عنه ويعطيه إمارة الأندلس، أو أي إمارة أخرى من إمارات الدولة العباسية إذا سلّم الأمْر إليه فلربما كان يفعل، لكنه كان يعلم أنه لو قبض عليه لقتله في الحال هو ومنْ معه من الأمويين إن كانوا مرشحين للخلافة، وهذا بالطبع ما دفعه لأن يبقى على عهده من الجهاد ضد الدولة العباسية، وهو أمر مؤلم جدّاً، وحلقة مفرغة دخل فيها المسلمون نتيجة العنف الشديد من قبل الدولة العباسية في بدء عهدها، ولا شكّ أن الدولة العباسية قد غيرت كثيراً من نهجها الذي اتبَعَتهُ أولاً، وتولّ بعد ذلك رجالاً كثيرون حافظوا على النهج الإسلامي، بل

إن أبو جعفر المنصور نفسه في آخر عهده كان قد غيّر ما بدأه تماماً، لكن كانت هناك قسوة شديدة في البدء؛ بهدف أن يستتبّ لهم الأمر في البلاد، فمن يحاول الالتفاف على منهج رسول الله ﷺ فستكون العاقبة دائماً هي الخسران، وهكذا كان فقدُ المسلمين لأرواح طاهرةٍ ودماءٍ كثيرةٍ غزيرةٍ وطاقتٍ متعددةٍ، بل فقدوا الأندلس فلم تَعُدْ مددًا للMuslimين طيلة عهدها؛ فالعنف في غير محله لا يُورث إلاً عنفاً، وطريق الدماء لا يُورث إلاً الدماء، والسبل كثيرة، ولكن ليس إلاً من سبيل واحد فقط؛ إنه الطريق المستقيم طريق الله ﷺ: «وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاعِدُكُمْ تَنَقُّلُونَ» [الأنعام: ١٥٣].

وقفة مع عبد الرحمن الداخل في قضائه على الشائرين

ذكرنا -فيما سبق- أنه في خلال الأربع والثلاثين سنة الممتدة من بداية حكم عبد الرحمن الداخل وحتى نهايته كان هناك أكثر من خمس وعشرين ثورةً في كل أنحاء الأندلس، وذكرنا -أيضاً- كيف روّض بعضها وقمع غيرها بنجاح الواحدة تلو الأخرى، والتي كان من أهمّها ثورة العباسيين التي قام بها العلاء بن مغيث الحضرمي، وكيف تَمَّ القضاء عليها.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل يجوز لعبد الرحمن الداخل أن يُقاتل الشائرين وإن كانوا من المسلمين؟!

وحقيقة الأمر أن موقفه هذا في قتال الشائرين داخل أرض الأندلس لا غبار عليه؛ لأن الجميع كانوا قد اتفقوا عليه أميراً للبلاد، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَبْتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ (أي: مجتمع) عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ فَأَرَادَ أَنْ يَشْتَقَ عَصَمَكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»^(١).

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (١٨٥٢) عن عرفجة بن شريح.

ومن هنا فقد كان موقف عبد الرحمن الداخل صارماً مع الشوار؛ وذلك لقمع الانقلابات المتكررة، والتي تُضعف من جانب الأمن والاستقرار في البلاد، إلا أنه من الإنصاف أن نذكر أنه عَلَيْهِ كان دائمًا ما يبدأ بالاستمالة والسلم وعرض المصالحة، ويكره الحرب إلا إذا كان مضطراً.

وبلا شك فإن ثمن هذه الثورات كان غالياً جداً؛ ففي السنوات الأربع من بداية دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس (١٣٨-١٤٢ هـ = ٧٥٥-٧٥٩ م) سقطت كل مدن المسلمين التي كانت في فرنسا، وذلك بعد أن حكمها الإسلام طيلة سبع وأربعين سنة متصلة، منذ أيام موسى بن نصير رحمه الله وحتى زمان سقوطها هذا، وهكذا سُنن الله الثوابت، فيما أن شغّل المسلمين بأنفسهم إلاً وكان التقلص والهزيمة أمراً حتمياً.

حين استتبَّ الأمر لعبد الرحمن الداخل في أرض الأندلس، وبعد أن انتهى نسبياً من أمر الثورات بدأ يُفكِّر فيما بعد ذلك، فكان أن اهتمَ بالأمور الداخلية للبلاد اهتماماً كبيراً؛ فقام بما يأتي:

وَالْمُنْتَهِيُّ بِالْمُنْتَهِيِّ وَالْمُنْتَهِيُّ بِالْمُنْتَهِيِّ

٢٣٦ ملکه نیزه و ملکه نیزه

مکالمہ میں اپنے بھائی کو اپنے بھائی کے نام سے میں اپنے بھائی کے نام سے میں

أ- اعتمد في الأساس على عنصر المولدين، وهم الذين نشئوا نتيجة انصهار وانحراف الفاتحين بالسكان الأصليين من أهل الأندلس.

ب - اعتمد كذلك على كل الفصائل والقبائل الموجودة في بلاد الأندلس، فضم إلية كل الفصائل المصرية؛ سواء كانت من بنى أمية أو من غير بنى

أمية، إلا أنه بعد ثورة اليهانية لقتل أبي الصباح اليعصي^(١) صار لا يطمئن إلى العرب، فأكثر من اتخاذ الماليك من غير العرب لا سيما البربر، حتى صار له منهم أربعون ألفاً، وبهم استقرَّ ملكه^(٢).

ج - كذلك اعتمد على عنصر الصقالبة^(٣)؛ وهم أطفال نصارى كان قد اشتراهم عبد الرحمن الداخل من أوروبا، ثم قام بتربيتهم وتنشئهم تنشئة إسلامية عسكرية صحيحة.

وبيرغم قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وحيداً، فقد وصل تعداد الجيش الإسلامي في عهده إلى مائة ألف فارس^(٤) غير الرجال، مشكلاً من كل هذه العناصر السابقة، والتي ظلت عِمادَ الجيش الإسلامي في الأندلس لدى أتباعه وخلفاء وأمراءبني أمية من بعده.

٢) أنشأ ^ج دوراً للأسلحة؛ فأنشأ مصانع السيوف ومصانع المجنحين، وكان من أشهر هذه المصانع مصانع طليطلة ومصانع برديل.

٣) أنشأ - أيضاً - أسطولاً بحرياً قوياً، بالإضافة إلى إنشاء أكثر من ميناء؛ كان منها ميناء طرطوشة وألميرية وإشبيلية وبرشلونة وغيرها من الموانئ.

٤) كان ^ج يقسم ميزانية الدولة السنوية إلى ثلاثة أقسام: قسم يُنفقه بكامله على الجيش، والقسم الثاني لأمور الدولة العامة من مؤنٍ ومعمارٍ ومرتباتٍ ومشاريع وغير ذلك، والقسم الأخير كان يدخله لنواب الزمان غير المتوقعة.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٥٣/٢.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٣٦/٣.

(٣) المصدر السابق، ٣٦/٣.

(٤) المصدر السابق، ٤٩/٣.

ثانيًا: أولى العلم وال جانب الديني اهتماماً بالغاً:

أعطى عبد الرحمن الداخل العلم وال جانب الديني المكانة الائقة بها؛ فعمل على الآتي:

- نشر العلم و توقير العلماء.

- اهتم بالقضاء والحساب.

- اهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- كان من أعظم أعماله في الناحية الدينية بناء مسجد قرطبة الكبير، والذي أنفق على بنائه ثمانين ألفاً من الدنانير الذهبية، وقد تناقض الخلفاء من بعده على زيادة حجمه؛ حتى تعاقب على اكتئاله في شكله الأخير ثمانية من خلفاءبني أمية^(١).

وكان من العلماء في أيامه معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد الحضرمي، وكان من جملة أهل العلم ومن كبار المحدثين، وقد أخذ عنه جملة من الأئمة؛ منهم: سفيان الشوري، وأبن عيينة، والليث بن سعد، ويُذكر أن مالك بن أنس قد روى عنه حدثاً، وكان عبد الرحمن الداخل قد ولأه القضاة^(٢).

وكان من علماء الأندلس في عهده -أيضاً- سعيد بن أبي هند، والذي لقبه الإمام مالك بن أنس رحمه الله بالحكيم؛ لما عُرف عنه من رجاحة عقله، وقد توفي أيام الداخل^(٣).

ثالثاً: العناية الكبيرة بالجانب الحضاري (المادي):

ويبرز ذلك في الجوانب التالية:

- اهتمامه الكبير بالإنشاء والعمارة، وتشييد الحصون والقلاع والقناطر، وربطه أول الأندلس بآخرها.

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٢٩/٢، والمقربي: نفح الطيب، ١/٥٤٥.

(٢) أبو الحسن النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس، ١/٤٣.

(٣) أبو الوليد الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، ١/١٩١.

- إنشاؤه الرُّصافَة، وهي من أكبر الحدائق في الإسلام، وقد أنشأها على غرار الرصافة التي كانت بالشام، والتي أسسها جُدُّه هشام بن عبد الملك رض، وقد أتى لها عبد الرحمن بالبيات العجيبة من كل بلاد العالم، فإذا نجحت زراعتها في الرصافة فإنها تنتشر في الأندلس كلها^(١).

رابعاً: حماية حدود دولته من أطماع الأعداء:

بالإضافة إلى إعداده جيشاً قوياً - كما أوضحنا سابقاً - وتأميناً لحدود دولته الجديدة قام عبد الرحمن الداخل بخوض مرحليتين مهمتين:

المرحلة الأولى: كان عبد الرحمن الداخل يعلم أن الخطر الحقيقي إنما يكمن في دولتي (ليون) في الشمال الغربي، و(فرنسا) في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس، فقام بتنظيم الثغور في الشمال، ووضع جيوشاً ثابتةً على هذه الثغور المقابلة لهذه البلاد النصرانية، وهي:

- الثغر الأعلى؛ وهو ثغر سرْقُسطة في الشمال الشرقي في مواجهة فرنسا.
- الثغر الأوسط؛ ويبدأ من مدينة سالم ويمتد حتى طليطلة.
- الثغر الأدنى؛ وهو في الشمال الغربي في مواجهة مملكة ليون النصرانية.

المرحلة الثانية: كان رض قد تعلمَ من آبائه وأجداده عادة عظيمة، وهي عادة الجهاد المستمر وبصورة منتظمة كل عام، فقد اشتهرت الصوائفُ في عهده؛ حيث كان المسلمون يخرجون للجهاد في الصيف وبصورة منتظمة؛ وذلك حين يذوب الجليد، وكان يتناوب عليهم فيها كبار قوَّاد الجيش، بهدف الإرباك الدائم للعدو، وهو ما يُسمُّونه الآن في العلوم العسكرية بالهجوم الإجهاضي المسبق.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥ / ٢٨٠، والمقرى: نفح الطيب، ٤٦٧ / ١

لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام من الأندلس بالكلية، هكذا قال المؤرخون عن عبد الرحمن الداخل، وإنما لتعلمنا الدهشة ويتملّكتنا العجب حين نعلم أن عمره حينذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين عاماً، أي في سن خريج الجامعة في عصرنا.

ملك من النساء، أم ماذا هو؟ لن نذهب بعيداً، وسنترك الحديث عنه إلى ابن حيّان الأندلسي، الذي يقول مُستَعِرّضاً بعضاً من صفات عبد الرحمن الداخل:

«كان عبد الرحمن راجح الحلم، راسخ العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعّة، ولا يكُلُّ الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغُور، شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بل يغاً مفوّهاً، شاعراً محسناً، سمحاً سخياً، طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتمّ به ويوثّره، وكان قد أُعطيَ هيبة من ولائه وعدوّه، وكان يحضر الجنائز، ويُصلّي عليها، ويُصلّي بالناس إذا كان حاضراً الجمّع والأعياد، وينخطب على المنبر، ويعود المرضى»^(١).

شخصية تُشخص الأ بصار وتُبهّر العقول، فمع رجاحة عقله وسعة علمه كان لا ينفرد برأيه، فإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه عليه، ومع شدّته وحزمته وجهاده وقوّته كان عليه شاعراً محسناً رقيقاً مُرهف المشاعر.

ومع هيبيته عند أعدائه وأوليائه إلا أنه كان يتبسّط مع الرعية، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويُصلّي بهم ومعهم، ومع كونه شديد الحذر قليل الطمأنينة، لم يمنعه ذلك من معاملة الناس والاختلاط بهم دون حرّاس، حتى خاطبه المقربون في

(١) المقري: فتح الطيب، ٣٧/٣.

ذلك وأشاروا عليه ألا يخرج في أوساط الناس حتى لا يتبسّطوا معه^(١).

ونستطيع أن نفهم شخصيته بصورة أوضح حين نعلم كيف كان في معاملته للناس، فقد جاء أن أحد الناس طلب منه حاجةً أمام أعين الحاضرين، فقضاهما له، ثم قال له: «إذا ألمَك خطب أو حزبك أمرٌ فارفعه إلينا في رقعة، لا تعدوك كيما نستر عليك خلتك، ونكشف شهادتك العدو عنك بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا - عز وجهه - بإخلاص الدعاء وصدق النية»^(٢).

إنها ل التربية ربانية لشعبه؛ فهو يريد جعله أن يربط الناس بخالقهم، يريد أن يعلّمهم أن يرفعوا حاجتهم إليه بِحَلْوَةِ أَوْلَى، يريد أن يعلّمهم أنه يُكَلِّكُ يَمْلِكُهُ ويملكهم جميعاً، ثم مراعاةً لعواطف النفس الداخلية، وحفظاً لماء وجه الرعية عند السؤال قال له: فارفع إلينا حاجتك في رقعة كي نستر عليك ولا يشمت أحدٌ فيك.

وها هو ذا جَلَلُهُ لما انتصر على ثائر سرقسطة الحسين الأنباري، «أقبل خواصه يَهْتَئُونَهُ، فجرى بينهم أحدٌ من لا يُؤْبَهُ به من الجند، فهنهَ بصوت عال. فقال: والله! لو لا أن هذا اليوم يوم أسبغ علىَ فيه النعمة مَنْ هو فوقِي فأوجب علىَ ذلك أن أُنْعَمَ فيه علىَ مَنْ هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النkal، مَنْ تكون حتى تُقبل مهنتاً رافعاً صوتك غير متجلج ولا متھیب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخيك؟! وإن جھلک ليحملك على العود لملتها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة. فقال: ولعل فتوحات الأمير يقترب اتصالها باتصال جھلي وذنوبی، فتشفع لي متى أتيت بممثل هذه الزلة؛ لا أعدمنيه الله تعالى. فتھلل وجه الأمير وقال: ليس هذا باعتذار جاھل. ثم قال: نَبْهُونَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إذا لم تجدوا مَنْ يُنْبَهُنا عليها. ورفع مرتبته وزاد في عطائه»^(٣). فهو هنا على رغم غضبه

(١) انظر: المقرى: نفح الطيب، ٣٧ / ٣.

(٢) المصدر السابق، ٣٩ / ٣.

(٣) انظر: المقرى: نفح الطيب، ٤١ / ٣، ٤٢.

لِقَامُ الْإِمَارَةِ إِلَّا أَنَّهُ حَلَمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُعَاقِبْهُ بِلَ زَادَ فِي مَكَافَائِهِ؛ لَمَّا تَكَشَّفَتْ لَهُ حُكْمَةُ
الْجَنْدِيِّ وَفَصَاحَتْهُ.

جَبَّابُ الْمُرْسَلِينَ الْأَنْدَلُسِيُّ . . . الْمُؤْمِنُونَ

مع المَدَّةِ الْكَبِيرَةِ التِّي حَكَمَهَا الْقَائِدُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ، وَمَعَ امْتَدَادِ عُمْرِهِ،
وَمَوْقِعِهِ الْقِيَادِيِّ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَنْزَلُ فِيهِ، مَعَ هَذَا كُلَّهُ؛ لَمْ يُؤْثِرْ عَنْهُ أَيُّ خَلْقٍ ذَمِيمٍ أَوْ
فَاحِشٍ، بَلْ مَدْحَهُ الْعُلَمَاءِ بِالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَحُسْنِ الْخَلْقِ؛ مَا يَدْلُلُ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِ
السَّامِيَّةِ، وَمَعْدَنِهِ النَّفِيسِ، وَأَخْلَاقُ الإِنْسَانِ الْحَقِيقِيَّةِ لَا تَظَهُرُ بِوَضُوحٍ إِلَّا فِي وَقْتِ
الشَّدَّةِ، وَحِيَاةُ (عَبْدِ الرَّحْمَنِ) كُلُّهَا شَدَائِدُ وَحَرَوْبٌ؛ مَا يُظْهِرُ أَخْلَاقَهُ بِوَضُوحٍ أَمَّا
أَيُّ بَاحِثٍ فِي التَّارِيخِ، وَيُحَدِّدُ مَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً.

وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ خَطِيبًا مَفْوَهًا يَرْتَقِيُ الْمَنَابِرَ وَيُعَظِّمُ النَّاسَ، فَهُوَ كَمَا
نَعْرَفُ نَشَأَ فِي بَيْتِ الْإِمَارَةِ، وَهَكُذا الْأَمْرَاءُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، كَمَا كَانَ -أَيْضًا- شَاعِرًا
مَرْهُفَ الْحَسْنَى، قَالَ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ الْلُّغُويَّ الَّذِي تَوَفَّى سَنَةً أَرْبَعِمَائَةٍ: كَانَ بِقُرْطُبَةِ
جَنَّةً (حَدِيقَةً) اتَّخَذَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَعَاوِيَّةَ، وَكَانَ فِيهَا نَخْلَةً أَدْرَكَتُهَا، وَمِنْهَا
تَوَلَّدَتْ كُلُّ نَخْلَةٍ بِالْأَنْدَلُسِ.

قَالَ: وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ: [الْكَامِلُ]

يَا نَخْلُ أَنْتِ غَرِيبَةُ مِثْلِي فِي الْغَرْبِ نَائِيَّةُ عَنِ الْأَصْلِ فَابْكِي وَهَلْ تَبْكِي مُكَبَّسَةُ لَوْ أَنَّهَا تَبْكِي إِذَا لَبَكَتْ لَكِهَا ذَهَلَتْ وَأَذْهَلَنِي	عَجْمَاءُ لَمْ تُطْبَعْ عَلَى خَبَلِ؟ مَاءُ الْفُرَاتِ وَمَنْبِتُ النَّخْلِ بُغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي ^(١)
---	---

(١) الذَّهَبِيُّ: تَارِيخُ الْإِسْلَامِ، ٢٤١ / ١١، وَانْظُرْ: أَبْنَ الْأَبَارِ: الْحَلَةُ السِّيَّرَاءُ، ٣٧ / ١

ومن شعره أيضاً: [الخفيف]

أَقْرِبَ مِنْ بَعْضِي السَّلَامَ لِبَعْضِي
 وَفُؤَادِي وَمَالِكِيْ بِأَرْضِ
 فَعَسَى يَاجْتَمَاعِنَا اللَّهُ يَقْضِي^(١)
أَهْيَا الرَّاكِبُ الْمُيَمِّمُ أَرْضِي
 إِنَّ جَسْمِي كَمَا عَلِمْتَ بِأَرْضِ
 قُدْرَ الْبَيْنِ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا

عبد الرحمن الداخل وفكرة العسكري :

تَمَّتْ عبد الرحمن الداخل بفكر عسكري في غاية الدقة والعجب؛ فحياته كُلُّها - تقريباً - حروب ومناورات منذ سقوط خلافة بنى أمية وحتى وفاته، مروراً بفرازه عبر البلاد والصحاري والقفار والبحار، وانتهاءً بالثورات الكثيرة التي تغلب عليها بلا استثناء؛ ليُوطِّد ملكه في بلاد الأندلس دون منازع.

ولولا ذكاؤه العسكري ما تغلب على كل هذه الثورات، التي يحار العقل في كثرتها، وكيف قضى عليها جميعاً، ونعرض هنا بعض ملامح فكرة العسكري من خلال مواقفه في معاركه وبطولاته، التي شغلت طول حياته وعرضها؛ ومن هذه الملامح:

أولاً: مبدأ المباغطة والحرص على المبادأة:

فهو يُحَكِّم بدقَّة من أجل الوصول إلى أهدافه، ثم هو لا يترك لخصومه الفرصة، بل يُسرع لِيُباغتهم وهم في بداية أعمالهم القتالية المضادة له، والتاريخ يُؤكِّد أن أفضل وسيلة للقضاء على أعمال التمرُّد هو تطويقها منذ بدايتها الأولى، وعدم السماح لها بالتطور، والعمل على خنقها وهي لا تزال في مهدها، ويظهر هذا المبدأ واضحاً في معركة المصارة، فقد بات ليلته يستعدُّ للحرب بينما كان خصمه يحاول خداعه،

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١ / ٢٤١، ٢٤٢، وانظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، ١ / ٣٦.

بحجّة تأجيل القتال، وكانت المباغة كاملة؛ بحيث لم تتمكن القوات المضادة من الصمود، على الرغم مما أظهرته في البداية من ضروب الشجاعة^(١)، والأمر ماثل بالنسبة لبقية حروب الأمير عبد الرحمن ومعاركه؛ حيث كان للmbاغة دور كبير وحاسم في تقرير نتائج القتال من قبل أن تبدأ المعركة.

ولم يكن حرص عبد الرحمن الداخل على الاحتفاظ بالمبادرة أقل من حرصه على المباغة، فهو يحاول باستمرار وضع خصوصاته أمام مواقف تحريمهم من حرية العمل، ويفرض عليهم زمام المعركة، وكان في معاركه كلها يجذبه قادة على درجة عالية من الكفاءة، فكان لا بدّ له من البحث عن الوسيلة التي تحرمهم من استخدام قدراتهم وإمكاناتهم.

ثانياً: الاقتصاد في القوى والمحافظة على الهدف:

وتظهر أهمية هذين المبدأين عند مطالعة سيرته، فقد كانت حياته سلسلة متصلة بالحلقات من الواقع والمعارك، وكان لا بدّ من موازنة المستمرة بين الأهداف المتالية للحرب، وبين القوى والوسائل الالزمة للتعامل معها، مع إعطاء الأولوية للأهداف الأكثر أهمية وخطورة عندما يظهر أن هناك أكثر من هدف يجب التعامل معه في وقت واحد، وهذا ما كان يحدث في معظم الأحيان، وأمام هذه المواقف بمجموعها كان لا بدّ من إجراء حساب دقيق لموازين القوى؛ بحيث يمكن استخدامها على أفضل صورة وفي أحسن وجه، وهذا ما أكدته مجموعة الأعمال القتالية للأمير عبد الرحمن.

حياة (صرقريش) في سطور:

لقد كانت حياة القائد العظيم عبد الرحمن الداخل وقفًا على الجهد وإقامة

(١) المقرى: نفح الطيب، ٣٣/٣.

الدولة الإسلامية، وثبتت بُنيانها، وإرساء دعائمها، ورَدَ الطامعين فيها، فكانت الأيام التي عاشها الأمير عبد الرحمن في طمأنينة وراحة لا تزيد على أيام قليلة، وكانت حياته حركة مستمرة في تنظيم الجيوش، وعقد الرايات، وتوجيه القوات، وتحصين الثغور، والقضاء على الفتنة والثورات، ووضع أُسس البُنيان الحضاري.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

عاش عبد الرحمن الداخل تسعًا وخمسين سنة؛ منها تسع عشرة سنة في دمشق وال伊拉克 قبل سقوط دولة الأمويين، وستُ سنوات فرارًا من بني العباس وتحطيطًا لدخول الأندلس، وأربع وثلاثون سنة في الملك ببلاد الأندلس، وتوّفي بقرطبة ودُفن بها في (جُمادى الأولى ١٧٢ هـ = أكتوبر ٧٨٨ م)^(١).



(١) انظر: مجهول: أخبار مجموعه، ص ١٠٥، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٥٨، والمقربي: نفح الطيب، ٣/٤٨.

الفصل الثالث

الإمارة الأموية في عهد القوة



الإمارة الأموية وفتراتها الثلاث

ظل عبد الرحمن الداخل يحكم الأندلس منذ سنة (١٣٨ هـ = ٧٥٥ م) وحتى سنة (١٧٢ هـ = ٧٨٨ م) أي قرابة أربعة وثلاثين عاماً - كما ذكرنا - وكانت هذه هي بداية تأسيس عهد الإمارة الأموية، والتي استمرت من سنة (١٣٨ هـ = ٧٥٥ م) وحتى سنة (٣١٦ هـ = ٩٢٨ م).

وحتى نستطيع أن نفهم عهد الإمارة الأموية يمكننا تقسيمه إلى فترات ثلاث كما يلي:

الفترة الأولى: واستمرت مائة عام كاملة (١٣٨-٢٣٨ هـ = ٧٥٥-٨٥٢ م)، وتعتبر هذه الفترة هي فترة القوة والمجد والحضارة، وكانت فيها الهيمنة للدولة الإسلامية على ما حولها من مناطق.

الفترة الثانية: وتعُد فترة ضعف، وقد استمرت اثنين وستين عاماً (٢٣٨-٣٠٠ هـ = ٨٥٢-٩١٣ م).

الفترة الثالثة والأخيرة: وهي ما بعد سنة (٣٠٠ هـ = ٩١٣ م)، وحتى (٣١٦ هـ)، وهي فترة التأسيس والانتقال لعصر الخلافة الأموية.

الفترة الأولى من الإمارة الأموية (فترة القوة)

تُمثل هذه الفترة عهد القوّة في فترة الإمارة الأموية؛ كانت البداية فيها لعبد الرحمن الداخل بعثة ثم خلفه من بعده ثلاثة من الأمراء، كان أولهم هشام بن عبد الرحمن الداخل، وقد حكم من سنة (١٧٢هـ=٧٨٨م) حتى سنة (١٨٠هـ=٧٩٦م)^(١).

عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل:

كان عبد الرحمن الداخل قد استقرَ أمره على ابنه هشام خليفة له، فولأَه العهد مع كونه أصغر من أخيه سليمان، فلقد كان أكفاءً منه وأفضل، ولقد صدق حَدْسُه فيه؛ حيث كان الناس يُشَبِّهُونه بعد ذلك بعمَر بن عبد العزيز رض في علمه وعمله وورعه وتقواه.

وكان هشام بن عبد الرحمن بمَارِدة عند موت أبيه، وقد عاد منها إلى قُرطبة بعد ستة أيام من وفاة أبيه، فباعه العوامُ ورجال الدولة، وكان ذلك سنة (١٧٢هـ=٧٨٨م)، وكان أخوه سليمان بطلِيطة، فلما علم سليمان بالأمر غضب، وأعلن الثورة على أخيه، وجهز بالفعل جيشاً توجَّه به لقتال أخيه في قُرطبة، فخرج إليه هشام بن عبد الرحمن والتقيا في جيَّان، ودارت بينهما حرب شديدة انتهت بهزيمة سليمان، ففرَّ عائداً إلى طُليطة^(٢).

وكان هشام أخُ آخر يُسمى عبد الله، وكان هشام يُحسن معاملته، ولكن يبدو أن عبد الله قد طمع فيما هو أكثر من ذلك، ففرَّ إلى أخيه سليمان في طُليطة، فلما علم هشام بالأمر أشفق على عبد الله فأرسل له مَنْ يُؤْدِه ويترَضَّاه، إلاَّ أنَّ الرَّسُولَ لم يلْحُقْ به^(٣).

(١) انظر: المقرى: نفح الطيب، ٣٣٤ / ١.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٦١ / ٢، ١٢٤ / ٤، وتاريخ ابن خلدون،

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥ / ٢٨٤، وابن عذاري: البيان المغرب، ٦٢ / ٢، وتاريخ ابن خلدون، ١٢٤ / ٤.

ولم يبقَ أمام هشام إلَّا أن يُبادر إلى أخيه سليمان -كما كان يفعل أبوه- قبل أن يبدأ سليمان -كما فعل من قبل- ويحاول هو مهاجمة قُرطبة، وبالفعل خرج إلى طليطلة وحاصرها فترة، فحاول سليمان أن يستغلَ الفرصة وفرَّ منها إلى قُرطبة؛ ليستوليَ عليها في غياب أخيه، ولكن أهلها حاربوه، فحاول الاستيلاء على مَارِدَة؛ لأنها قرية من قُرطبة، ليستطيع تهديد قُرطبة منها إلَّا أن واليها استطاع رده عن مَارِدَة، فهرب إلى مُرسية ثم إلى بلنسية، وأخوه يطارده، فلما دبَ اليأس إلى نفسه، طلب الأمان، فأمنَه وكان قد أَمَنَ عبد الله قبله، وتركهما يرحلان إلى بلاد الشمال الإفريقي^(١).

وقد كان هشام بن عبد الرحمن الداخل عالِمًا محباً للعلم، وقد أحاط نفسه بالفقهاء، وكان له أثر عظيم في بلاد الأندلس بنشره اللغة العربية فيها، وقد أخذ ذلك منه مجھوداً وافراً وعظيماً، حتى أصبحت اللغة العربية تُدرَس في معاهد اليهود والنصارى داخل أرض الأندلس^(٢).

ومن أبرز التغيرات الجوهرية التي تمت بالأندلس في عهد هشام انتشار المذهب المالكي فيها، وقد كانت البلاد من قبل ذلك على مذهب الإمام الأوزاعي^(٣).

وكان هشام صولات وجولات كثيرة في الشمال مع الملك النصرانية^(٤).

وكان من علماء عصره صعصعة بن سلامة الشامي، وكان الفتى أيام عبد الرحمن الداخل، وفي بداية عهد هشام بن عبد الرحمن، كما ولـي الصلاة بـقُرطـبة، وروى عنه عبد الملك بن حبيب وعثمان بن أيوب^(٥)، كما كان من المحدثين في أيامه

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٢٤.

(٢) حسين مؤنس: معلم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١٠.

(٣) المقري: فتح الطيب، ٢/٤٦.

(٤) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٦٤، والمقري: فتح الطيب، ١/٣٣٧.

(٥) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص ٧٥.

عبد الرحمن بن موسى، وقد روى عنه أصيغ بن خليل وغيره، وقد توفي هو وصعصعة بن سلامة أيام هشام بن عبد الرحمن^(١).

وتوفي هشام بن عبد الرحمن الداخل في (صفر ١٨٠ هـ = إبريل ٧٩٦ م) فكانت خلافته سبع سنين وتسعة أشهر، وتوفي عليه السلام وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، ودُفِنَ في القصر، وصلَّى عليه ابنه الحكم^(٢).

عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل:

تولَّ بعد هشام بن عبد الرحمن الداخل ابنه الحكم، وذلك من سنة (١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) وحتى سنة (٢٠٦ هـ = ٨٢١ م)^(٣)، لكن الحكم لم يكن على شاكلة أبيه ولا على شاكلة جده، فكان قاسياً جداً، فرض الكثير من الضرائب، واهتم بالشعر والصيد، وقاوم الثورات بأسلوب غير مسبوق في بلاد الأندلس في عهد الإمارة الأموية؛ حتى وصل الأمر في آخر حياته إلى حرق بيوت الشائرين عليه، ونفيهم خارج البلاد^(٤).

ومن أشهر الثورات التي قمعها الحكم بن هشام ثورة الربض (٢٠٢ هـ = ٨٠٨ م) وهم قومٌ كانوا يعيشون في إحدى ضواحي قُرطُبة، وقد شارَ أهلها ثورة كبيرة جداً عليه؛ بسبب ما عُرِفَ عنه من معاقرة الخمر، وتشاغله باللهو والصيد، وقد زاد من نسمة الشعب عليه قتله لجماعة من أعيان قُرطُبة؛ فكرهه الناس، وصاروا يتعرّضون له وجنده مما حثَّه على تحصين قُرطُبة، فأقام حولها الأسوار، وحفر الخنادق، وجعل جنوده على مقربة منه؛ فزاد ذلك من حقد أهل قُرطُبة عليه، وزاد

(١) أبو الوليد الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، ١ / ٣٠٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ٦٥، والمقربي: فتح الطيب، ١ / ٣٣٨.

(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ٦٨، والمقربي: فتح الطيب، ١ / ٣٣٩.

(٤) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥ / ١٣، ٤، والمقربي: فتح الطيب، ١ / ٣٣٩.

توجّسهم منه، ثم حدث أن ملوكاً له اختلف مع أحد العوام فقتله؛ فشار أهل الريض، وزحفوا إلى قصره وأحاطوا به فقاتلهم قتالاً شديداً هو وجنته حتى تغلب عليهم^(١).

ولم يكتف الحكم بهزيمتهم، بل أحرق وخرّب ديارهم، وقتل ثلاثة من وجهائهم وصلبهم، وأمر بطردهم خارج البلاد^(٢)؛ فتفرقوا في البلاد ومنهم من ذهب إلى الإسكندرية في مصر، وأقاموا فيها فترة ثم ارتحلوا عنها إلى جزيرة كريت، فأقاموا فيها دويلة عام (٢١٢هـ = ٧٢٨م) استمرّت مائة عام حتى استولى عليها البيزنطيون من بعد^(٣).

ورغم أفعاله تلك إلا أن الحكم بن هشام لم يُوقف حركة الجهاد^(٤)؛ وذلك لأنَّ الجحود كان عادة في الإمارة الأموية؛ سواء في بلاد الشام أو في بلاد الأندلس، لكن كانت له انتصارات وهزائم في الوقت نفسه، وكانت نتيجة طبيعية لهذا الظلم الذي أتصف به، وهذه العلاقة التي ساءت بين الحاكم والمحكوم سقطت بعض البلاد الإسلامية في يد النصارى؛ فسقطت برسُلونة، وأصبحت مُثُل إمارة نصرانية صغيرة في الشمال الشرقي عُرفت في التاريخ باسم إمارة أراجون، وكانت متاخمة لحدود فرنسا بجوار جبال البرينيه في الشمال الشرقي للبلاد^(٥).

لكن الحكم بن هشام بفضل من الله ومنْ عليه تاب عن أفعاله في آخر عهده، ورجع عن ظلمه، واستغفر واعتذر للناس عن ذنبه، ثم اختار من أبنائه أصلاحهم، وإن لم يكن الأكبر؛ ليكون ولِيًّا لعهده، وكان من حُسْنِ خاتمه أنه قام بهذا الاعتذار

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥ / ٤١٣، ٤١٤.

(٢) المصدر السابق، ٥ / ٤١٤.

(٣) المصدر السابق، ٥ / ٤٨٠، وتاريخ ابن خلدون، ٣ / ٢٥٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ٧٢٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٢٢، ٣٢٣.

وهذه التوبة وهو في كامل قوّته وبأسه، وذلك قبل موته بعامين^(١).

عبد الرحمن الأوسط:

بعد الحكم بن هشام تولى ابنه عبد الرحمن الثاني، وهو المعروف في التاريخ باسم عبد الرحمن الأوسط (فهو الأوسط بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر كما سيأتي)، وقد حكم من سنة (٦٢٠ هـ = ٨٢١ م) وحتى آخر الفترة الأولى (عهد القوة) من عهد الإمارة الأموية، وذلك سنة (٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م)، وتُعد فترة حكمه هذه من أفضل فترات تاريخ الأندلس، فاستأنف الجihad من جديد ضدّ النصارى في الشمال، وألحق بهم هزائم عدّة^(٢)، وكان حسن السيرة، هادئ الطباع، محباً للعلم، محباً للناس^(٣).

قال عنه الصفدي: كان عادلاً في الرعية بخلاف أبيه، جواداً فاضلاً، له نظر في العلوم العقلية، وهو أول من أقام رسوم الإمارة، وامتنع عن التبذيل للعامة، وهو أول من ضرب الدر衙م بالأندلس، وبنى سور إشبيلية، وأمر بالزيادة في جامع قرطبة، وكان يُشبه بالوليد بن عبد الملك، وكان محباً للعلماء مقرّباً لهم، وكان يُقيم الصلوات بنفسه، ويُصلّي إماماً بهم في أكثر الأوقات... وهو أول من أدخل كتب الأولئ إلى الأندلس، وعرف أهلها بها، وكان حسناً الصورة ذا هيئة، وكان يُكثّر تلاوة القرآن، ويحفظ حديث النبي ﷺ، وكان يُقال لأيامه أيام العروس، وافتتح دولته بهدم فندق الخمر وإظهار البرّ، وتملّ^(٤) الناس بأيامه وطال عمره، وكان حسناً التدبير في تحصيل الأموال وعمارة البلاد بالعدل، حتى انتهى ارتفاع بلاده في

(١) ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب، ٤٣ / ١.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٨١ / ٢.

(٣) مجهول: أخبار جموعة، ص ١٢٢.

(٤) تملّ: أي عاش طويلاً واستمتع بالشيء. ابن منظور: لسان العرب، مادة ملا ١٥ / ٢٩٠.

كل سنة ألف ألف دينار^(١).

ومن أهم ما تميّز به عهد عبد الرحمن الأوسط الأمور الثلاثة التالية:

أولاً: ازدهار الحضارة العلمية:

ومن أشهر العلماء في عصر عبد الرحمن الأوسط عباس بن فرناس رحمه الله (٢٧٤ هـ=٨٨٧ م)، وكتبه أبو القاسم، وهو من أهل قرطبة، من مواليبني أمية، وبنته في برابر (تاكرنا) كان في عصر الخليفة عبد الرحمن الأوسط (في القرن التاسع للميلاد)، وله أبيات في ابنه محمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة ٢٧٣ هـ)، وكان فيلسوفاً شاعراً، له علم بالفلك^(٢).

وهو أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وصنع (الميقاته) لمعرفة الأوقات، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها وروعدها، وهو أول طيار اخترق الجوًّ؛ أراد تطير جثائه، فكسا نفسه الريش، ومدّ له جناحين طار بها في الجوًّ مسافة بعيدة، ثم سقط فتأدى في ظهره؛ لأنّه لم يعمل له ذنبًا، ولم يذر أن الطائر إنما يقع على زرمكه^(٣).

ولكنه -برغم هذه المحاولة الرائدة التي فشلت- كان عبقرية هائلة؛ حتى إن الصفدي بعده كثير من المدح له يصفه بأنه «له شخص إنساني وفطنة جنّي»^(٤).

ثانياً: ازدهار الحضارة المادية:

اهتمام عبد الرحمن الأوسط بالحضارة المادية (العمارية والاقتصادية وغيرها)

(١) الصفدي: الواقي بالوفيات، ١٨ / ٨٤.

(٢) الصفدي: الواقي بالوفيات، ١٦ / ٣٨٠.

(٣) المقربي: نفح الطيب، ٣ / ٣٧٤، وزرمك الطائر: ذيله وذنبه. ابن منظور: لسان العرب، مادة زمك ١٠ / ٤٣٦، والمعجم الوسيط ١ / ٤٠٠.

(٤) الصفدي: الواقي بالوفيات، ١٦ / ٣٨٠.

اهتماماً كبيراً^(١)، فازدهرت حركة التجارة في عهده؛ ومن ثمَّ كثُرت الأموال^(٢)؛ ومن المهم أن نعلم أن بلاد الأندلس لم يكن فيها ما تسمى بـ«التسوُّل»، فقد كانت هذه العادة في بعض البلاد الإسلامية الأخرى؛ لكنها لم تُعرَف في بلاد الأندلس^(٣).

كذلك تقدَّمت وسائل الرِّي في عهده بشكل كبير، وتَمَّ رصف الشوارع وإنارتها ليلاً في هذا العمق القديم جدًا في التاريخ، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في جهلٍ وظلام دامس، كما أقام القصور المختلفة والحدائق الغناء، وتوسَّع في ناحية المعمار حتى كانت المباني الأندلسية آية في المعمار في عهده حَمَّلَهُ^(٤).

ثالثاً: وقف غزوات النورمان:

النورمان هم أهل إسكندنافيا، وهي بلاد تضمُ الدانمارك والنرويج وفنلندا والسويد، وقد كانت هذه البلاد تعيش في همجية مطلقة؛ فقد كانوا يعيشون على ما يُسمَّى بحرب العصابات، فقاموا بغزوات عُرِفت باسم «غزوات الفايكنج»، وهي غزوات إغارة على أماكن متفرقة من بلاد العالم، ليس لها من هم إلا جمع المال وهدم الديار.

وفي عهد عبد الرحمن الأوَسط سنة (٨٤٥هـ = ٢٣٠) هجمت هذه القبائل على إشبيلية من طريق البحر في أربع وخمسين سفينَة، ودخلوها فأفسدوا فسادًا كبيراً، ودمروا إشبيلية تمامًا، ونهبوا ثرواتها، وهاجموا أعراضها، ثم تركوها إلى شُدُونة وأملرية ومُرسية وغيرها من البلاد فأشاعوا الرعب، وعمَ الفزع^(٥)، وهذه هي طبيعة

(١) المقري: *فتح الطيب*، ١/٣٤٧.

(٢) ابن عذاري: *البيان المغرب*، ٢/٩١.

(٣) قال المقري: «وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروزة التي تكسل عن الكد، وتخوجه الوجوه للطلب في الأسواق، فمستحبة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سُبُّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقاً عليه؛ فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر». *فتح الطيب*، ١/٢٢٠، والقراء هنا هم الصوفية.

(٤) انظر: ابن عذاري: *البيان المغرب*، ٢/٩١، والمقري: *فتح الطيب*، ١/٣٤٧.

(٥) ابن عذاري: *البيان المغرب*، ٢/٨٧.

الحروب المادية بصفة عامة، وشتان بين المسلمين في فتحهم للبلاد وبين غيرهم في معاركهم!

فَلَمَّا عَلِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ الْأَوْسْطَ حَتَّىٰ بِهِذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ جَهَّزَ جَيْشَهُ
وَأَعْدَّ عُدَّتَهُ، وَخَلَالَ أَكْثَرِ مِنْ مائَةِ يَوْمٍ كَامِلَةً دَارَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مُعَارِكٌ ضَارِّيَّةٌ،
أَغْرِقَتْ خَلَاهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ سَفِينَةً لِلْفَايِكِنْجَ، وَمِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ،
وَعَادَ النُّورُ مَانِ إِلَى بِلَادِهِمْ خَاسِئِينَ خَاسِرِينَ^(١).

ولم يجنب عبد الرحمن الأوسط عليه السلام بعدها إلى الدّعَة أو الخِمْل، وإنما عمل على تفادي تلك الأخطاء التي كانت سبباً في دخول الفايكنج إلى بلاده فقام بما يلي:

أولاً، رأى أن إشبيلية تقع على نهر الوادي الكبير الذي يصب في المحيط الأطلسي، ومن السهولة جداً أن تدخل سفن الفايكنج أو غيرها من المحيط الأطلسي إلى إشبيلية، فقام بإنشاء سور ضخم حول إشبيلية، وحصنهَا تحصيناً منيعاً، ظلت بعده من أحسن حصون الأندلس بصفة عامة^(٢).

ثانياً: لم يكتفي بذلك بل قام -أيضاً- بإنشاء أسطولين قويين؛ أحدهما في الأطلسي والآخر في البحر الأبيض المتوسط؛ وذلك حتى يُدافع عن كل سواحل الأندلس، فكانت هذه الأساطيل تجوب البحار وتصل إلى أعلى حدود الأندلس في الشمال عند مملكة ليون، وتصل في البحر الأبيض المتوسط حتى إيطاليا.

(١) انظر: ابن عذاري: السیان المغرب، ٢/٨٧، ٨٨.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٦١/٨، والصفدي: الواقي بالوفيات، ١٨/٨٤، والحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص. ٢٠.

وكان من نتيجة ذلك أنه فتح جزر البليار للمرة الثانية^(١)، وكذلك كان من نتيجة هزيمة الفايكنج في هذه الموقعة قدوم سفارة من الدانمارك محمّلة بالهدايا تطلب وُدّ المسلمين، وتطلب المعاهدة معهم.

ويبلغت البلاد من القوة في عهد الأمير عبد الرحمن هذا أن جاءته الهدايا من القسطنطينية أيضًا^(٢).



(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٨٩/٢، وكنا قد ذكرنا أن الذي فتحها للمرة الأولى كان موسى بن نصير رض؛ وذلك قبل فتح الأندلس سنة (٩١٠هـ = ٧١٠م)، ثم سقطت في أيدي النصارى في عهد الولاة الثاني حين انحدر حال المسلمين آنذاك، ثم سيطر عليها الفايكنج، وهنا وفي سنة (٢٣٤هـ = ٨٤٩م) تم فتحها ثانية.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٣٤٦/١

الفصل الرابع

الإمارة الأموية في عهد الضعف



بوفاة عبد الرحمن الأوسط عليه السلام يبدأ عهد جديد في بلاد الأندلس، وهو فترة الضعف في الإمارة الأموية، ويبداً من سنة (٢٣٨هـ = ٨٥٢م) وحتى سنة (٣٠٠هـ = ٩١٣م) أي حوالي اثنين وستين سنة.

فلقد تولى بعد عبد الرحمن الأوسط ابنه محمد بن عبد الرحمن الأوسط، ثم اثنان من أولاده؛ هما: المنذر وعبد الله، وحقيقة الأمر أن الإنسان ليتعجب: كيف بعد هذه القوّة العظيمة والباس الشديد والسيطرة على بلاد الأندلس وما حولها يحدث هذا الضعف وذلك الانحدار؟!

فمن سُنن الله تعالى أن الأمم لا تسقط فجأة، بل يأتي السقوط متدرجاً وعلى فترات طويلة، ففي عهد الولاة الثاني ظهرت أسباب الضعف؛ منها:

أولاً: افتتاح الدنيا وحبّ الغنائم.

ثانياً: القَبْلِيَّة والقومية.

ثالثاً: ظلم الولاة.

رابعاً: ترك الجهاد.

وكل هذه الأسباب لم تنشأ فجأة، وإنما كانت بذورها قد نشأت منذ أواخر عهد القوّة من عهد الولاة أثناء وبعد موقعة بلاط الشهداء.

إذاً لكي نفهم سبب ضعف الإمارة الأموية علينا أن نرجع قليلاً، وندرس الفترة الأخيرة من عهد القوة، ونبحث فيها عن بذور الضعف، والأمراض التي أدت إلى هلاكة أو ضعف الإمارة الأموية في هذا العهد الثاني.

عوامل وأسباب ضعف الإمارة الأموية :

كان من أهمّ أسباب ضعف الإمارة الأموية ما يلي:

أولاً : كثرة الأموال وانفتاح الدنيا على المسلمين :

من جديد كانت الدنيا قد انفتحت على المسلمين، وكثرت الأموال في أيديهم، وقد زاد هذا بشدة في أواخر عهد القوة من الإمارة الأموية، فقد ازدهرت التجارة كثيراً، ولم يوجد هناك في البلاد فقير، وفي الناس بالمال، وتكرر ثانية حديث رسول الله ﷺ : **«الَّهُ أَعْلَمُ بِالْأَوْمَانِ مَا فِي الْأَوْمَانِ إِنَّمَا يَنْهَا الْفَقَرُّ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبَسِّطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسْطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»**^(١).
 وقال - أيضاً - ﷺ : **«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةً أُمْتَيِّي الْمَالَ»**^(٢). وقد حذر الرسول ﷺ من الدنيا مراراً وتكراراً وقلل من قيمتها، فكان يقول: **«الَّهُ أَعْلَمُ بِالْأُمَّةِ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ»**^(٣) **«فِي الْيَمِّ فَلَيُنْظَرِّبَمْ يَرْجِعُ؟»**^(٤).

ثانياً : زرباب :

اسم ليس بغرير لكنه كان كدببة الأرض التي أكلت منسأة سليمان عليه السلام؛

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١) عن عمرو بن عوف واللهظ له.

(٢) الترمذى: كتاب الزهد، باب أن فتنة هذه الأمة في المال (٢٣٣٦)، وقال: صحيح غريب. وأحمد (١٧٥٠٦)، وابن حبان (٣٢٢٣)، والحاكم (٧٨٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) أشار أحد رواة الحديث بالبيهقي.

(٤) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيمة (٢٨٥٨) عن المستورد بن شداد، وأحمد (١٨٠٣٧)، وابن حبان (٦٢٦٥).

فسقط جسده على الأرض؛ زریاب هذا كان من مطربی بغداد، تربى هناك في بيوت الخلفاء والأمراء؛ حيث كان يُعْنِي لهم ويُطربهم، وكان مُعلّمه هو إبراهيم الموصلي كبير مطربی بغداد في ذلك الوقت^(١).

ومع كثرة الأيام ومرور السنين لمع نجم زریاب في بغداد فغار منه إبراهيم الموصلي، فدبّر له مكيدة فطّرد من البلاد، أو أنه هدّه فهرب زریاب من نفسه دون مكائد كما في روايات أخرى.

وكانت مشارق الأرض الإسلامية وغاربها متسعة جدًا في ذلك الوقت، وبعد حيرة وجد زریاب ضالّته في الأندلس؛ حيث الأموال الكثيرة والحدائق والقصور، وهي صفات كثيرة ما يعشّقها أمثال هؤلاء، كما تكون—أيضاً—أرضًا خصبة لاستقبال وإيواء أمثالهم^(٢).

وغالب الأمر أن الأندلس إلى هذه الفترة لم تكن تعرف الغناء، إلا أن زریاب ذهب إلى هناك فاستقبلوه وعظّموه وأحسنوا وفادته، حتى دخل على الخلفاء، ودخل بيوت العامة ونواديهم، فأخذ يُعْنِي للناس ويُعَلِّمهم ما قد تعلّمه في بغداد، ولم يكتفِ زریاب بتعليمهم الغناء وتأليف ما يُسمّى باللوشحات الأندلسية، لكنه بدأ يُعَلِّمهم فنون (الموضة) وملابس الشتاء والصيف والربيع والخريف، وأن هناك ملابس خاصة بكل مناسبة من المناسبات العامة والخاصة^(٣).

ولم يكن الناس في الأندلس على هذه الشاكلة، إلا أنهم أخذوا يسمعون من زریاب ويتعلّمون؛ خاصة وأنه قد بدأ يُعَلِّمهم—أيضاً—فنون الطعام كما عَلَّمُهم ملابس الموضة تماماً، وأخذ يحكى لهم حكايات الأمراء والخلفاء والأساطير

(١) المقري: *فتح الطيب*، ١٢٣/٣.

(٢) انظر: المقري: *فتح الطيب*، ١٢٣/١.

(٣) انظر مزيدًا من التفاصيل في المقري: *فتح الطيب*، ١٢٣/١.

والروايات، وما إلى ذلك حتى تعلق الناس به بشدةً، وتعلق الناس بالغناء، وكثير المطربون في بلاد الأندلس، ثم بعد ذلك انتشر الرقص، وكان في البداية بين الذكور ثم انتقل إلى الإناث وهكذا.

الغريب أن دخول زرياب إلى أرض الأندلس كان في عهد عبد الرحمن الأوسط رحمه الله؛ ذلك الرجل الذي اهتم بالعلم والحضارة وال عمران والاقتصاد وما إلى ذلك، لكنه -ويا للأسف- ترك زرياب يفعل كل هذه الأمور، وينخر في جسد الأمة دون أن يدري أحد.

ففي الوقت الذي انتعشت فيه النهضة العلمية وكثير العلماء، كان كلام زرياب المنمق وإيقاعه الرنان يصرف الناس عن سماع العلماء إلى سماعه هو، ويصرف الناس عن سماع حديث رسول الله صلوات الله عليه وسلم، وعن سماع قصص السلف الصالح إلى سماع حكاياته العجيبة وأساطيره الغريبة، بل - والله - لقد انصرف الناس عن سماع القرآن الكريم إلى سماع أغانيه والتعلق بلهوه ومجونه.

وليس هذا بعجب أو جديد؛ ففي بداية دعوة رسول الله صلوات الله عليه وسلم في مكة، وحين رأه النضر بن الحارث - وكان من رءوس الكفر - يخاطب الناس بالقرآن فيتأثرُون ويؤمنون بهذا الدين، ما كان منه إلا أن قطع أميالاً طويلاً وذهب إلى بلاد فارس، وقضى هناك فترة طويلة يتعلم حكايات رستم وإسفنديار، ويتعلم الأساطير الفارسية، ثم اشتري قيتين (مغنيتين) وعاد إلى مكة، وفي مكة كان النضر بن الحارث يقوم بحرب مضادة للدعوة الإسلامية، فكان إذا وجد في قلب رجل ميلاً إلى الإسلام أرسل له القيتين تعنّيهما ما كان في بلاد فارس من حكايات رستم وإسفنديار؛ حتى يلهميه عن هذا الدين، وظل على هذا النحو، وأنزل الله عز وجل فيه قرآنًا يُتلَى إلى يوم القيمة: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لُهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذُهَا هُرْزُوا أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ مُهِمِّنٌ» [لقمان: ٦].

وقد أقسم عبد الله بن مسعود رض أنها ما نزلت إلا في الغناء^(١).

وهكذا؛ فالشيطان لا يهدأ ولا ينام حتى في وجود هذه النهضة العلمية؛ «ثُمَّ لَا تَيَّبُهُمْ مِنْ يَيْنٍ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ حَلْفِهِمْ وَعَنْ أَهْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» [الأعراف: ١٧].

وكما زاد الاهتمام بالدين، وارتقي مستوى الإيمان عند الناس، وتعلقت قلوبهم بالمساجد، نشط الشيطان، وزادت حركته عن طريق زرياب ومن سار على نهجه.

وإنه بالرغم من مرور أكثر من ألفٍ ومائتي عام على وفاة زرياب هذا، إلا أن له شهرة واسعة في كل بلاد شمال إفريقيا، فلم يسمع الكثير من الناس عن السَّمْح بن مالك الخولاني وعن بنسة بن سحيم -رحمهما الله- ولم يسمعوا عن عقبة بن الحجاج، أو سيرة عبد الرحمن الداخل، أو عبد الرحمن الأوسط، ولم يسمعوا عن كثير من قادة المسلمين في فارس والروم وفي بلاد إفريقيا والأندلس؛ لكنهم سمعوا عن زرياب، ويعرفون سيرته وتفاصيل حياته، بل إن موشحاته الأندلسية ما زالت إلى يومنا هذا تُغَنَّى في تونس والمغرب والجزائر، وما زالت تُدرَّس سيرته الذاتية هناك على أنه رجل من قوَّاد التَّنْوِير والنَّهْضَة، ويُمَجَّدُ في حربه ضدَّ الجمود وكفاحه من أجل الفنّ، ولا يعلم الناس أن زرياب هذا ومن سار على طريقه كان سبِّاً رئيساً في سقوط بلاد الأندلس، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثالثاً: من أسباب ضعف الإمارة الأموية (عمر بن حفصون):

عمر بن حفصون (٢٤٠-٣٠٦هـ=٨٥٥-٩١٩م) كان مسلماً من المؤلفين؛ أي: من أهل الأندلس الأصليين، كان عمر بن حفصون قاطعاً للطريق، وكان

(١) انظر: الطبرى: جامع البيان فى تأویل القرآن، ٢٠/١٢٧، والبغوى: معالم التنزيل فى تفسير القرآن، ٦/٢٨٤، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٤/٥٣، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٦/٣٣٢.

يتزعم عصابة من أربعين رجلاً، وحين بدأ الناس يرکنون إلى الدنيا ويترکون الجهاد في سبيل الله زاد حجمه، واشتدّ خطره، وبدأ يشور في منطقة الجنوب؛ حتى أرعب الناس في هذه المنطقة، وأخذ يجمع حوله الأنصار فتوسّع سلطانه كثيراً، فسيطر على كل الجنوب الأندلسي.

وفي سنة (٢٨٦هـ=٩٩٩م) قام عمر بن حفصون بعملٍ لم يتكرّر كثيراً في التاريخ الإسلامي بصفة عامّة وتاريخ الأندلس بصفة خاصة؛ فلكي يُعَضّد من قوّته في آخر عهده، وبعد اثنين وعشرين عاماً من ثورته انقلب على عقبيه وتحوّل من الإسلام إلى النصرانية، وسمّي نفسه صمويل؛ وذلك بهدف كسب تأييد مملكة ليون الصرانية في الشمال، وهو وإن كان قد تركه بعض المسلمين الذين كانوا معه إلا أنه نال بالفعل تأييد مملكة ليون، في الوقت الذي تزامن مع توقيف الجهاد في مالك النصارى^(١).

بدأت (مملكة ليون) تتجرّأ على حدود الدولة الإسلامية؛ فبدأت تهاجمها من الشمال وعمر بن حفصون أو صمويل يهاجمها من جهة الجنوب.

نظرة تحليلية على الوضع في الأندلس أواخر عهد الضعف:

بعد اثنين وستين عاماً من الضعف الشديد، وبعدهما تفاعلت عوامل السقوط مع بعضها البعض، تُلقي الآن نظرة عامّة على طبيعة الوضع في بلاد الأندلس أواخر عهد الضعف في الإمارة الأموية؛ أي سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م)، وتوسّح أهمّ الملامح التي سادت هذا العصر، والتي كانت من فعل ونتائج عوامل الضعف؛ فكانت كما يلي:

أولاً: تصاعد وكثرة الثورات داخل الأندلس:

كانت هناك ثورات لا حصر لها داخل الأندلس، بل واستقلالات في كثير من

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ١٣٩/٢.

المناطق، والتي كان من أشهرها استقلال صمويل أو عمر بن حفصون؛ حيث استقلَّ بالجنوب وكوَّن ما يشبه الدُّوَيْلة، فضمَّ إليه الكثير من الحصون، حتى ضمَ كل حصن إِسْتِيَّة وجَيَّان، التي كانت عند فتح الأندلس من أحسن المناطق الأندلسية على الإطلاق، وكذلك كانت غَرْنَاطَة إحدى المدن التي في حوزته، والتي اتخذ لها عاصمة سَمَّاها (بابستر) وتقع في الجنوب بجوار الْمَرِيَّة على ساحل البحر الأبيض المتوسط^(١).

وكان من هذه الثورات الكبيرة -أيضاً- ثورة ابن حجاج في إشبيلية، وكانت هذه الثورة تمُّد وتساعد عمر بن حفصون أو صمويل في ثورته ضد قُرْطُبة^(٢).

ومثلها كانت ثورة ثالثة في شرق الأندلس في منطقة بلنسية، ورابعة في منطقة سَرْقُسطَة في الشمال الشرقي، حيث استقلَّت إمارة سَرْقُسطَة -أيضاً- عن الإمارة الأموية في قُرْطُبة، وخامسة في غرب الأندلس يقودها عبد الرحمن الجليقي، وسادسة في طليطلة، وهكذا ثورات وثورات أدَّت في نهاية الأمر إلى أن الحكومة المركزية للإمارة الأموية في قُرْطُبة لم تَعُدْ تُسيطر على كل بلاد الأندلس إلَّا على مدينة قُرْطُبة وحدها، إضافة إلى بعض القرى التي حواها^(٣).

ومن ثَمَّ فقد انفرط العقد تماماً حتى سنة (٣٠٠ هـ = ٩١٣ م)، وتوزَّعت الأندلس بين كثير من القوَّاد، كُلُّ يحارب الآخر، وكُلُّ يبغي مُلْكًا ومالاً.

ثانية: تكُون مملكة نصرانية ثانية:

ذكرنا -سابقاً- أنه كانت هناك مملكتان نصرانيتان؛ هما مملكة ليون في الشمال الغربي وملكة أراجون في الشمال الشرقي وعاصمتها بَرْشُلُونَة، اللتان تكونتا زمان

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣٨ / ٢٤، وما بعدها.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ١٢٥ / ٢.

(٣) انظر بعض تفصيل ذلك عند ابن عذاري: البيان المغرب، ١٣٣ / ٢.

ضعف المسلمين في عهد الولاة الثاني، وهنا وفي الفترة الثانية من فترى الإمارة الأموية تكونت في الشمال - أيضًا - مملكة نصرانية ثالثة كانت قد انفصلت عن مملكة ليون، وهي مملكة أو إمارة نافار، وتحتَّب في بعض الكتب العربية (نباره)، وتُعرَفُ الآن في إسبانيا بـأقاليم الباسك، ذلك الإقليم الذي يحاول الانشقاق عن إسبانيا.

هذه الممالك النصرانية الثلاث بعد أن كانت تخاف المسلمين في العهد الأول للإمارة الأموية، تجرأت كثيراً على البلاد الإسلامية؛ فهاجمت شمال الأندلس، وبدأت تقتل المسلمين المدنيين في مدن الأندلس الشمالية.

ثالثاً: قتل ولِي العهد:

أمر خطير آخر قد ظهر، وهو يُعبِّرُ عن مدى المأساة والفتنة في ذلك الوقت، وهو أنَّ ولِي العهد للأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط الذي كان يحكم البلاد في ذلك الوقت قتلَه أخوه المطرف بن عبد الله، وكان ولِي العهد هذا يُسمَّى محمد بن عبد الله، فأصبح الوضع من الخطورة بمكان^(١).

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/١٥٠.

**مملكة الارمنية
الارمن**

ملك بحريني

بـ

الصحراء الطلقسي

بـ

وهكذا يكون الحال حين يختلف المسلمون ويتفرقون، وحين ينشغلون بدنياهم وبزرياتهم وبأنفسهم؛ حكومات نصرانية في الشمال تهاجم المسلمين، ثورات واستقلالات في الداخل، قتل لولي العهد القادر، بلاد إسلامية واسعة بغير ولی عهد في هذه المرحلة الحرجة.

رابعاً : ظهور نجم دولة شيعية في بلاد المغرب كانت من أخطر الدول على بلاد الأندلس :

زادت الأمور تعقيداً في بلاد الأندلس بظهور دولة جديدة في بلاد المغرب، كانت من أشدّ الدول خطورة على بلاد الأندلس، وهي الدولة المسماة بالفاطمية، وأسمها الصحيح الدولة العُبَيْدِيَّة.

ظهرت الدولة العُبَيْدِيَّة في بلاد المغرب العربي سنة (٩٠٩هـ = ٢٩٦م)؛ أي: قبل سنة (٩١٣هـ = ٤٠٠م)^(١) (نهاية الفترة الثانية من الإمارة الأموية) بأربع سنوات فقط، وكانت دولة شيعية خبيثة؛ هُمُّها الأول قُتل علماء السنّة في بلاد المغرب العربي، ومحاوله نشر نفوذها في هذه المنطقة، فانتشرت بصورة سريعة من بلاد المغرب إلى الجزائر وتونس، ثم إلى مصر والشام والجaz وغيرها.

وأعلن ابن حفصون الطاعة لعيid الله المهيـ^(٢)، ولا شك أن ذلك لم يكن حباً في العُبَيْدِيَّين؛ ولكن احتياجاً لمددهم وأموالهم.

خامساً : تَرَدِّي الْأَوْضَاعَ فِي بَقِيَّةِ أَقْطَارِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ :

إذا تخطيـنا بلاد الأندلس وألقينا نظرة على مجمل أقطار العالم الإسلامي في الشرق والغرب وجدنا ما يلي:

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤٤٦/٦.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٣٥.

مصر والشام يحكمها الإخشidiون، الموصل يحكمها ابن حمدان، البحرين واليامامة يحكمها القرامطة، أصبهان يحكمها بنو بويه، خراسان يحكمها نصر الساماني، طبرستان يحكمها الدّيّلَم، الأهواز يحكمها البريديون، كرمان يحكمها محمد بن إلياس، الدولة العباسية أو الخلافة العباسية لا تحكم إلاً بغداد فقط، ولا تبسط سيطرتها حتى على أطراف العراق.

هكذا كان الوضع في أقطار العالم الإسلامي؛ لم يكن هناك أيُّ أمل في أيِّ مدد إلى بلاد الأندلس؛ حيث كانت كلها أقطار مشتتة ومفرقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وإن الناظر إلى بلاد الأندلس في ذلك الوقت ليرى أنه لا حالَة من انتهاء الإسلام فيها، وأن ما هي إلا بضعة شهور أو سنوات قلائل حتى يدخل النصارى إلى الأندلس ويعِكِّموا قبضَتهم عليها، ولن تُنَقَّدَ إلاً بمعجزة جديدة مثل معجزة عبد الرحمن الداخل عليه السلام.

وبالفعل فإن الله تعالى بمنه وجُوده أنعم على المسلمين بتلك المعجزة للمرّة الثانية، فمَنْ عليهم بأمير جديد، وحَد الصفوف وقوَّى الأركان، وأعلى من شأن بلاد الأندلس حتى أصبحت في عهده أقوى مالك العالم على الإطلاق، وأصبح هو أعظم ملوك أوروبا في زمانه بلا منازع، إنه عبد الرحمن الناصر عليه السلام.

الباب الخامس
الخلاقية
كتاب
الله وبيته

الصلوة الأولى

عَلَيْكُمُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ



عَلَيْكُمُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٢٤٤) - (٢٤٥) - (٢٤٦) - (٢٤٧) - (٢٤٨) - (٢٤٩)

رأينا كيف كان الوضع أواخر عهد الضعف من الإمارة الأموية، وكيف أن الناظر إلى بلاد الأندلس في ذلك الوقت يرى أنه لا حالَة من انتهاء الإسلام فيها، وأنها ما هي إلا بضعة أشهر أو سنوات قلائل حتى يدخل النصارى الأندلس ويحكموا بقضتهم عليها.

عَلَيْكُمُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

هو أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المرواني، وأمه أم ولد تسمى (ماريا) أو (مرته أو مزنة)، وجده السادس هو عبد الرحمن بن معاوية الأموي - صقر قريش - وقد ولد في قُرطبة وعاش بها.

نشأ عبد الرحمن بن محمد يتيمًا؛ فعندما كان عمره عشرين يومًا قُتِّلَ عمّه أباه؛ لأنَّه كان مؤهلاً للإمارة بعد أبيه عبد الله الأمير السابع من أمراء الأمويين بالأندلس، وفتح الصبي عينيه على الدنيا ليجد الحياة قائمة أمامه، ولم يكن البلاط الأموي المشغول بكثير من الأحداث - من ثورات داخلية ومطامع خارجية - ليشغل نفسه بطفل صغير كهذا، غير أن جده الأمير عبد الله - الذي اتصف بالورع والتقوى والتقوف وحب الناس، وكان على درجة عالية من التدين - هذا الجد هو الذي تولَّ تربيته، فnal الصبي الصغير نصيبياً كبيراً من رعايته، وكان جزءاً عَمِّه

القتل، فقد قتله أبوه عبد الله، بعد أن تأكد من براءة أخيه مما اتهم به، ثم اهتم الأمير عبد الله بحفيده اهتماماً كبيراً وأولاًه عنانية خاصة^(١)؛ ولعل ذلك عطف وشفقة عليه بعد مقتل أبيه، ونشأ عبد الرحمن في هذا الجو مليء بالأحداث المتابعة.

وكان عبد الرحمن من ناحيته فـى شديد النجابة والنبوغ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمى على سنه، ودرس القرآن والسنّة وهو طفل لم يتجاوز العاشرة، وبرع في النحو والشعر والتاريخ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية، حتى كان جده يرشّحه ل مختلف المهام، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الجندي عليه، وهكذا تعلّقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقصيًّا، بل يقال: إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده، وذلك بأن برئ بخاتمه إليه حينما اشتدَّ عليه المرض كإشارة باستخلافه^(٢).

لا شكَّ أن سيرة عبد الرحمن الداخل -الجد الأكبر لعبد الرحمن- كانت تلهمه، كما أن قصة تأسيسه للدولة الأموية بعد عناء وجهاد وإرادة فولاذية كانت نصب عين عبد الرحمن، وهو يخوض ما يمكن أن نسميه رحلة التأسيس الثاني.

ومن الطرائف التي تندر في التاريخ أن أحداً من أعمام عبد الرحمن، ولا من أعمام أبيه، حاول أن يعترضه في المنصب أو ينمازه فيه^(٣)، بل كانوا أول من يابعوه حتى تكلم بلسانهم عمّه أحمد بن عبد الله قائلاً: «والله! لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنتُ أنتظرك هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إيزاع

(١) ابن الأثير: الكامل، ٤٦٧/٦، وابن عذاري: البيان المغرب، ١٥٦/٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٦٥/١٥، والصفدي: الواقي بالوفيات، ١٣٦/١٨.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/٣٧٣.

(٣) رسائل ابن حزم ١٩٤/٢.

الشّكر، و تمام النّعمة، وإهام الحمد»^(١).

وقفة مع عبد الرحمن الناصر، وبداية حياته، و توجّهه نحو الإصلاح:

إن دراسة كافية جوانب حياة عبد الرحمن الناصر لتحتاج إلى دراسة جادة متألّفة، وعناية خاصة تُفوق هذه السطور، إلا أن هناك بعض الإشارات العامة رأينا أن نقف أمامها بعض الشيء، فحينما تولى حَكْمَهُ الحُكْمَ كان يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة هجرية^(٢)؛ أي: إحدى وعشرين سنة ميلادية، ويبلغه أخرى فهو طالب بالفرقة الثالثة أو الرابعة بالجامعة في أيامنا هذه، هذه واحدة.

أما الثانية فإنه يُخطئ من يُظنُّ أن تاريخ عبد الرحمن الناصر حَكْمَهُ يبدأ منذ هذه السن أو منذ ولادته هذه على البلاد، فقد رُبِّي عبد الرحمن الناصر منذ نعومة أظافره تربية قلّما تتكرّر في التاريخ.

لم يكدرى عبد الرحمن الناصر نور الدنيا حتى قُتل أبوه، وهو بعد لم يبلغ من العمر إلا ثلاثة أسابيع فقط؛ ومن ثمَّ قام على تربيته جدهُ الأمير عبد الله بن محمد، فربَّاه حَكْمَهُ ليقوم بما لم يستطع هو القيام به، ربَّاه على سعة العلم وقوّة القيادة، وحبّ الجهاد، وحسن الإدارة؛ ربَّاه على التقوّى والورع، ربَّاه على الصبر والحلم وعلى العزة والكرامة، ربَّاه على العدل مع القريب والبعيد، ربَّاه على الانتصار للمظلوم، ربَّاه ليكون عبد الرحمن الناصر.

وهي رسالة إلى كل آباء المسلمين وأولي الأمر منهم: إن لم نكن نحن عبد الرحمن الناصر فليكن أبناءنا عبد الرحمن الناصر، وإذا كان كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهُونه أو ينصرّانه أو يمجّسانه؛ فما بال تربية أبناءنا اليوم؟! هل نأمرهم

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/٣٧٤.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٦/٤٦٧، وابن عذاري: البيان المترتب، ٢/١٥٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨/١٣٦، ١٥/٥٦٢، والصفدي: الرواقي بالوفيات، ١٨/٢٦٥.

بالصلاحة عند سبع ونضر بهم عليها عند عشر؟! هل تُحَفَّظ أبناءنا القرآن، أم ندعهم يتعلمون اللغات فقط، ويحفظون الأغاني، وينشغلون بالكرتون؟! وثير ما قدوة أولادنا الآن؟ وبمَنْ يتمثّلون ويريدون أن يكونوا مثلهم؟! أعباء ضخمة، ولكن:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعْيَتِهِ»^(١).

والثالثة أنَّ عبد الرحمن الناصر رض حين تولَّ الحُكم كان على ثقةٍ شديدةٍ بالله عليه، وفي الوقت ذاته على ثقةٍ شديدةٍ بنفسه، وأنه قادر على أنْ يُغيِّر، فهو يعي قول الله تعالى: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَجْهَدُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَسْتَوْ كُلُّ الْمُؤْمِنُونَ» [آل عمران: ١٦٠]. فلم يدخل قلبه يوماً شكُّ أو يأسٌ أو إحباطٌ من صعوبة التغيير أو استحالته، أو آنه لا أمل في الإصلاح.. فقام وهو ابن اثنين وعشرين عاماً، وحمل على عاتقه مهمَّة ناءت بها السموات والأرض والجبال؛ مهمَّة هي من أنقل المهام في تاريخ الإسلام.

* * *

(١) البخاري: كتاب العتق، باب كراهة التطاول على الرقيق (٢٤١٦) عن عبد الله بن عمر، ومسلم: كتاب الإمامية، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائز (١٨٢٩).

الطبعة الأولى

السيفاني والبيكوي تعيين الناصر

تُحيطُ الْأَيْمَنُ بِالْأَيْمَنِ وَتُحِيطُ الْأَيْمَنُ بِالْأَيْمَنِ

يتولى عبد الرحمن الناصر الحكم ويقوم بأمر الإمارة، فإذا به - وسبحان الله -
يُحيل الضعف إلى قوّة، والذل إلى عزّة، والفرقّة إلى وحدة، ويُبَدِّدُ الظلام بنور ساطع
يُشرق في كل ساء الأندلس تحت مجده وسيادته وسلطانه.

بعد تولى عبد الرحمن الناصر الحكم - وبهذه المؤهلات السابقة، وبهذه التربية
الشاملة لكل مقومات الشخصية الإسلامية السوية، وبهذه الثقة الشديدة بالله
وبنفسه - أقدم على تغيير التاريخ، فقام بما يلي:

أولاً : إعفاء تشرُّب (الظالم والمنافق) ، أي بما يُوكِنُ تُسْبِّحُه (الخديفة الشُّرطية) ،

حين تولى الحكم لم يكن عبد الرحمن الناصر يملك من بلاد الأندلس سوى
قرطبة وما حولها من القرى^(١)، ورغم أنها تُعدُّ أكبر بلاد الأندلس، وتمثل مركز ثقل
كبير لكونها العاصمة، إلا أنها لم تكن تمثل أكثر من عُشر مساحة الأندلس، وببدأ عبد
الرحمن الناصر من هذه المساحة الصغيرة يُغيّر من التاريخ.

فقام بتغيير البطانة التي حوله - أو فريق العمل بمصطلحاتنا الآن - فعزل منْ
رأه غير صالح للمنصب الذي هو فيه، وولى منْ رأى فيهم الكفاءة والمقدرة وحسن

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨/٢٥٦.

تدبر الأمور^(١).

ثم أعلى من شأن العلماء، ورفع منزلتهم فوق منزلته نفسه، ورضخ لأوامرهم ونواهيهم، فطبق ذلك على نفسه أولاً قبل أن يطبقه على شعبه، واجتهد قدر طاقته في تطبيق بنود الشريعة.

ولقد ورد أنه رحمه الله كان يحضر خطبة الجمعة، وكان يخطبها رحمه الله بن عيسى بن عبد الرحمن، وكان من أكبر علماء قرطبة في ذلك الوقت، وكان شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المكر، حتى على عبد الرحمن الناصر رحمه الله الخليفة والأمير، وكان عبد الرحمن الناصر قد بنى لنفسه قصراً كبيراً، فأسرف المنذر في الكلام، وأسرع في التقرير لعبد الرحمن الناصر لبناءه ذلك القصر.

وحين عاد عبد الرحمن الناصر إلى بيته قال: «والله! لقد تعصّمتني مثلك بخطبتي، وما عنت بها خيري، فأسررتَ علىَّ، وأفقرتَ في تقريري، ولم تُحسن السياسة في عظيِّ فزعزع قلبي، وكاد بعصيَّاه يقرعني».

وهنا أشار عليه رجل من كانوا حوله بعزله عن خطبة الجمعة، فردَّ عليه عبد الرحمن الناصر قائلاً: «أمثالُ منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعرَّل؟! يُعرَّل لإرضاء نفسي ناكبٌ عن الرشيد، سالكةٌ غيرَقصد؟! هذا والله لا يكون، وإنني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه رحمه الله في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في درعيه وحصتيه». وما عزله حتى مات^(٢).

وعلى مثل هذه المبادئ وهذه المعاني بدأ عبد الرحمن الناصر رحمه الله يربّي أهل قرطبة، وكان في انصياعه هو قدوة للناس جميعاً.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ١٥٨/٢.

(٢) الباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٠، وابن خاقان: مطعم الأنفس، ص ١٠٠، والمقربي: نفح الطيب، ٥٧١/١

ثانياً: الاتجاه إلى الثورات ومحاولة ترويضها:

بعد الانتهاء من الشأن الداخلي في قُرطبة وتهيئته تماماً بدأ عبد الرحمن الناصر عليه السلام يتجه إلى المحيط الخارجي؛ حيث الثورات المتعددة في كل أرض الأندلس، فأرسل حملة يقودها عباس بن عبد العزيز القرشي إلى قلعة رباح، التي كان قد ثار فيها واحد من زعماء البربر يُدعى الفتح بن موسى بن ذي النون، ومعه حليف قوي آخر يُدعى «أرذبلش»، وبعد معارك شديدة هُزم الفتح بن موسى وقتل أرذبلش، وبعث برأسه إلى قُرطبة حيث علقها الناصر على باب السدة لإرهاب الثائرين، وظهرت قلعة رباح وما حولها من الثورة.. كان ذلك في ربيع الآخر من عام (٣٠٠هـ)، أي بعد شهر واحد من جلوسه على كرسي الملك.

ثم أرسل سرية أخرى في جمادى الأولى إلى الغرب فاستردت مدينة إستيجة، التي كان يُسيطر عليها أتباع ابن حفصون، فحققت النصر على العصاة، وهدمت أسوار المدينة وقطرتها الواقعة على نهر شنيل؛ لتعود معزولة لا يمكنها أن تثور مرة أخرى.

ثم خرج عبد الرحمن بنفسه قائداً على حملة عسكرية، فكان في توليه القيادة ما أثار نفوس الجنود بالحماسة والعزם، وتوجه بها إلى عمر أو صمويل بن حفصون (٢٤٠-٣٠٦هـ=٨٥٥-٩١٩م)^(١)؛ وكان لتباكيه إليه ونهوضه إليه بنفسه ثلاثة أسباب:

الأول: أن هذا الرجل لا يختلف اثنان على أنه يستحق القتل؛ وذلك لأنه ارتدَّ عن دين الله عليه السلام، وفارق جماعة المسلمين بخروجه عليهم؛ ومن ثم فقد أصبح قاتله فرضاً على المسلمين.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/١٥٩.

卷之三

卷之三

المرصد الأكاديمي

三

卷之三

2007-05
2007-05
2007-05
2007-05

卷之三

والثاني: أن ابن حفصون كان التأثير الأقوى والتهديد الأكبر من بين التأثيرين في الجزيرة، وتركه على حاله ومواجهة صغار التأثيرين، يُقوّي مركزه، كما يُقوّي نفوس التأثيرين الآخرين، ويضع صورة الحكم في قُرطبة في حرج شديد، إذا ظهر أنها تتأخر عن مواجهته.

والثالث: أنه يستطيع بذلك أن يحفّز أهل قُرطبة الذين كانوا قد ألفوا الشورات في هذه الآونة؛ حيث المعركة في متنه الوضوح؛ فهي بين المسلمين والمرتدين.

في الطريق للقضاء على ثورة صمويل بن حفصون:

استمرّ مدى هذه الحملة طيلة ثلاثة أشهر كاملة؛ هي شعبان ورمضان وشوال من سنة (٩١٣هـ = ٢٠٠م) في العام نفسه الذي تولّ فيه خليفة، واستردّ فيها مدينة جيّان، وهي من المدن الحصينة في الأندلس، كما استردّ فيها زهاء سبعين حصنًا من أمهات المعاقل الثائرة، وهزم فيها جيوش ابن حفصون هزائم منكرة^(١).

ولكن ما زالت قوة صمويل بن حفصون كبيرة جدًا؛ فالمدد يأتيه من الشمال من دول النصارى، ويأتيه -أيضًا- من الجنوب من الدولة العبيدية (الفاطمية)، هذا فضلًا عن إمدادات مدينة إشبيلية، التي كان عليها حاكم مسلم من بني حجاج، لكنه كان متمرّدًا على سلطة قُرطبة، وكان يملك جيشًا مسلّماً كبيرًا.

وفكر عبد الرحمن الناصر كثيرًا في كيفية قطع هذه الإمدادات عن صمويل بن حفصون، واهتدى أخيرًا في أن يبدأ بالهجوم على مدينة إشبيلية أكبر مدن الجنوب بعد قُرطبة؛ وذلك بمنطق النزعة الإسلامية التي غلت عليه؛ حيث أملّ إن هو ذهب إلى إشبيلية واستطاع أن يُرغم حاكمةها على الانضمام له، أو الانصياع إليه بالقوة أن ينضم إليه جيش إشبيلية المسلم الكبير، وبذلك تقوى جيوش الدولة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/١٦٣-١٦٠، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/٣٧٦.

الأموية، وقوى شوكته.

وبالفعل -وبعونِ من الله- كان له ما أَمَل؛ حيث ذهب إلى إشبيلية بعد أقل من عام واحد من ولادته في سنة (٩١٤هـ = ١٣٠١م)، واستطاع أن يضمّها إليه؛ فقويت بذلك شوكته وعظم جانبه، فعاد إلى صمويل بن حفصون بعد أن قطع عنه المدد الغربي الذي كان يأتيه من إشبيلية، واسترداً منه جبال رُنْدَة ثم شَدُونَة ثم قَرْمُونَة^(١)، وهي جميعاً من مدن الجنوب.

تعمّق عبد الرحمن الناصر بعد ذلك ناحية الجنوب حتى وصل إلى مضيق جبل طارق فاستولى عليه، ويكون بذلك -أيضاً- قد قطع الإمدادات والمساعدات التي كانت تأتيه من الجنوب من الدولة العبيدية (الفااطمية) عن طريق مضيق جبل طارق، وسعى عبد الرحمن الناصر إلى أكثر من هذا؛ حيث قطع -أيضاً- طريق الإمدادات التي كانت تأتيه من الدول النصرانية في الشمال عن طريق المحيط الأطلسي، ثم مضيق جبل طارق، ثم البحر الأبيض المتوسط، ثم إنه وجد في البحر مراكب لابن حفصون كانت تأتيه بالمدد من بلاد المغرب العربي فأحرقها؛ وبذلك يكون عبد الرحمن الناصر قد قطع عن صمويل بن حفصون كل طرق الإمدادات والمساعدات التي كانت تمده وتقويه^(٢).

ولم يجد صمويل بن حفصون بُدًّا من طلب الصلح والمعاهدة من عبد الرحمن الناصر على أن يُعطيه اثنين وستين ومائة حصن من حصونه، ولأن البلاد كانت تشهد موجة من الثورات والانقسامات يُريد عبد الرحمن الناصر أن يتفرّغ لها، فضلاً عن أنه سيضمن في يده اثنين وستين ومائة حصن، وسيأمن جانب عدوه؛ فقد قيلَ

(١) قرمونة أو قرمونية: كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤ / ٣٣٠.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢، ١٦٤، ١٦٥، وتاريخ ابن خلدون: ٤ / ١٣٩.

المعاهدة ووافق على الصلح مع صمويل بن حفصون^(١).

عبد الرحمن الناصر يُفاجئ الجميع ويتجه نحو الشمال الغربي:

أصبحت قوَّة عبد الرحمن الناصر عليه السلام تضم قُرطبة وإشبيلية وجيان وإستِجة، وهي جيئاً من مدن الجنوب، إضافة إلى حصون أخرى كثيرة - كما ذكرنا - وكل هذه المساحة كانت تمثِّل تقريباً سُدُس مساحة الأندلس الإسلامية في ذلك الوقت، هذه أولاً.

وثانياً: أن صمويل بن حفصون ما زال يملك حصوناً كثيرة، ويسقط سيطرة كاملة على الجنوب الشرقي من البلاد، لكن قُطعت عنه الإمدادات الخارجية؛ سواء من النصارى أو الدولة العبيدية (الفاطمية) أو إشبيلية، فصار خطره محدوداً بالمقارنة بالحال من قبل.

وثالثاً: كان هناك تمرُّد في طليطلة (تقع في شمال قُرطبة)، ورابعاً: تمرُّد في سرقسطة في الشمال الشرقي، وخامساً: تمرُّد في شرق الأندلس في بلنسية، وسادساً: تمرُّد في غرب الأندلس يقوده عبد الرحمن الجليقي.

أي أن الأندلس في عام (٩١٥ هـ = ٢٠٢ م) كانت مقسمة إلى ستة أقسام؛ قسم واحد فقط في يد عبد الرحمن الناصر، ويضم قُرطبة وإشبيلية وما حولها، بما يقارب سدس مساحة الأندلس - كما ذكرنا - والخمسة الأخرى موزَّعة على خمسة متربدين، والمتوقع - إذا - أن يحاول عبد الرحمن الناصر من جديد مقاومة أحد مراكز التمرُّد هذه، وبخاصة الأقرب منه.

وإن المرء ليقف متعجِّلاً حين يعلم أن عبد الرحمن الناصر ترك كل هذه التمرُّدات، وأَجْهَ بصره صوب الشمال الغربي؛ صوب مملكة ليون النصرانية مباشرة،

(١) تاريخ ابن خلدون: ٤/١٣٩.

فأرسل أحد قادته، فانتصر وغنم وسبى، ثم عاد في العام نفسه، غير أن النصارى أرادوا الانتقام لهزيمتهم، فعادوا لمحاجمة ديار المسلمين، فأُرسِلتُ إِلَيْهِمْ صائفة في العام التالي، غير أن المسلمين هُزموا فيها، فتجرّأ النصارى من بعده على مهاجمة الشגור، فأرسل عبد الرحمن الناصر إليهم في العام التالي جيشاً قوياً أوقع بهم هزيمة مريرة^(١).

فكأنه أراد أن يُعلّم الناس أمراً ويُرسل إليهم برسالة في متهى الوضوح كانت قد خَفيَتْ عليهم؛ مفادها: أن الأعداء الحقيقيين ليسوا المسلمين في الداخل، إنما هم النصارى في الشمال؛ مملكة ليون، وملكة نافار، وبهذا العمل استطاع عبد الرحمن الناصر عليه السلام إخراج المتمردين وإحراجاً كبيراً أمام شعوبهم، كما استطاع أن يُحرك العاطفة في قلوب الشعوب نحوه، وكذلك تحرّك عواطف الشعوب نحو مَنْ يُدافع عن قضائها الخارجية، ونحو مَنْ يحارب أعداءها الحقيقيين.

وهذه نصيحة إلى أولياء أمور المسلمين بألا يتهاونوا بعواطف الشعوب، وأن يقدّروها حقّ قدرها، وأن يستميلوها بالتوجه نحو الأعداء الحقيقيين، بدلاً من الصراع مع الجار أو القطر المسلم، فإذا كانت القضية هي فلسطين، أو الشيشان، أو كشمير، أو غيرها من قضايا المسلمين كانت الوحدة والتجمّع، وكان الانسجام وعدم الفرقـة.

لم يمضِ عامان آخران حتى جاءته هدية من رب العالمين، ألا وهي موت صمويل بن حفصون مرتدًا وعلى نصراناته في سنة (٩٣٠هـ = ١٦٩م)، ذلك الشائر الأخطر في تاريخ الأندلس منذ الفتح، والذي ظلّت ثورته تؤرّق بلاط العاصمة الأندلسية ثلاثة عاماً، وكانت هذه بداية النهاية لمعاقل ابن حفصون التي تنازعها

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/١٦٩.

أولاده فاقتروا، ومنهم من انحاز إلى الناصر، فسهل على الناصر بعد مجموعة من المعارك الاستيلاء على كل معاقل ابن حفصون وتطهيرها في عام (٣١٦هـ)^(١).

عبد الرحمن الناصر والطريق إلى راية واحدة للأندلس:

لم يلقطع عبد الرحمن الناصر عليه السلام أنفاسه، وقام في سنة (٣٠٨هـ = ٩٢١م) بالتحرّك نحو نصارى الشمال بجيش كثيف، وفي طريقه نحو الشمال خاف صاحب طليطلة المستقل بها أن يغزوه عبد الرحمن فخرج بجيشه مع الناصر مُظهراً الطاعة، واتجه الحيشان نحو غزو الشمال^(٢)، بعدها أصبح الطريق آمناً نحو الشمال مباشرة؛ حيث سرّقسطة في الشمال الشرقي وطليطلة في وسط الشمال قد أصبحتا في يده.

وفي العام نفسه (٣٠٨هـ = ٩٢١م) وعمره - آنذاك - ثلاثون سنة فقط، قام عبد الرحمن الناصر على رأس حملة ضخمة جداً باتجاه نصارى الشمال، فكانت غزوة موبش الكبرى بين عبد الرحمن الناصر من جهة، وجيوش ليون ونافار مجتمعة من جهة أخرى، واستمرّت هذه الغزوة طيلة ثلاثة أشهر كاملة، حقق فيها عبد الرحمن الناصر انتصارات ضخمة وغنائم عظيمة، وضمّ إلى مدينته سالم وكانت تحت يد النصارى^(٣).

وبعد أربعة أعوام من غزوة موبش وفي سنة (٣١٢هـ = ٩٢٤م) قام عبد الرحمن الناصر عليه السلام بنفسه بحملة ضخمة أخرى على مملكة نافار، واستطاع في أيام معدودات أن يكتسحها اكتساحاً، ويضم إلى أملاك المسلمين مدينة بنبلونة عاصمة

(١) انظر التفاصيل عند محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢ / ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ١٧٧. وبئه ابن عذاري إلى أن طاعة صاحب طليطلة تحnya معصية؛ وبالفعل فقد خرجت طليطلة عن طاعة الناصر، فعاد وأرسل إليها سنة (٣١٨هـ) يُنذر ويتوعد، ويعذبهم على الدخول في الطاعة، ولكنهم أبوا، فضرب عليهم الحصار عامين، استغاثوا خلاهم بملك ليون، ولكنه لم يستطع أن يفعل لهم شيئاً، وفي النهاية سلّموا عبد الرحمن الناصر سنة (٣٢٠هـ).

(٣) لمزيد من التفاصيل: انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ١٧٥.

نافار، ثم بدأ بعدها يحرر الأراضي التي كان قد استولى عليها النصارى في عهد ضعف الإمارة الأموية.

وفي سنة (٩٢٨هـ=١٣١٦م) أرسل عبد الرحمن الناصر حملة أخرى إلى شرق الأندلس؛ لقمع التمرد الذي كان هناك، وضمّها بالفعل إلى أملاكه، ثم في العام نفسه أرسل حملة أخرى إلى غرب الأندلس فاستطاعت هزيمة عبد الرحمن الخليقي؛ ومن ثُمَّ ضمَّ غرب الأندلس إلى أملاكه من جديد^(١).

وبذلك وبعد ستة عشر عاماً من الكفاح المضني يكون عليه السلام قد وحد الأندلس كلها تحت راية واحدة؛ ووحدتها جمِيعاً ولم يتجاوز عمره آنذاك ثمانية وثلاثين عاماً بعد.

عهد جديد.. عهد الخلافة الأموية:

نظر عبد الرحمن الناصر عليه السلام إلى العالم الإسلامي من حوله، فوجد الخلافة العباسية قد ضَعُفت، وكان المقتدر بالله الخليفة العباسي في ذلك الوقت قد قُتل على يد مؤنس المظفر التركي، وقد تولَّ الأتراك حكم البلاد فعلياً، وإن كانوا قد أجلسوا الخليفة العباسي القادر بالله على كرسي الحكم.

ثم نظر عليه السلام إلى الجنوب فوجد العبيديين (الفاطميين) قد أعلنوا الخلافة، وسمّوا أنفسهم أمراء المؤمنين، فرأى أنه - وقد وحد الأندلس، وصنع هذه القوة العظيمة - أحق بهذه التسمية وبذلك الأمر منهم؛ فأطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين، وسمى الإمارة الأموية باختلافة الأموية^(٢).

ومن هنا يبدأ عهد جديد في الأندلس هو عهد الخلافة الأموية، وذلك ابتداء من عام (٩٢٨هـ=١٣١٦م) وحتى عام (٤٠٠هـ=١٠١٠م)؛ أي: نحو أربع وثمانين

(١) انظر: ابن عذاري: *البيان المغرب*، ١٩٧/٢، ١٩٨، ١٩٨.

(٢) انظر: ابن عذاري: *البيان المغرب*، ١٩٨/٢، والقرني: *فتح الطيب*، ١/٣٥٣.

سنة متصلة، وهو يُعدُّ (عهد الخلافة الأموية) استكمالاً لعهد الإمارة الأموية، مع فروق في شكليات الحكم وقوة السيطرة والسلطان لصالح الأخير.

عبد الرحمن الناصر يتبع سياسة العسكرية التوسعية:

بعد ثلاث سنوات من إعلان الخلافة الأموية سنة (٩٣١هـ = ١٩٣م) اتجه عبد الرحمن الناصر جنوباً نحو مضيق جبل طارق، وقام بغزو بلاد المغرب وحارب العبيدين (الفاطميين) هناك، فضم سبتة وطنجة إلى بلاد الأندلس، وتمَّت له بذلك السيطرة الكاملة على مضيق جبل طارق، فبدأ بإمداد أهل السنة في منطقة المغرب بالسلاح، لكنه لم يشأ أن يمدّهم بالجنود؛ تخسِّساً لهجمات مالك التماري في الشمال.

وفي سنة (٩٣٥هـ = ١٩٢٣م) تحدُّث خيانة من حاكم مملكة الشمال الشرقي (سر قسطة) محمد بن هشام التُّجيري؛ حيث تحالف مع مملكة (ليون) النصرانية ل الحرب عبد الرحمن الناصر، وبكل حزم وقوّة يأخذ عبد الرحمن الناصر جيشاً كبيراً يتصدّى به لهذه الخيانة ويهاجم مدينة (سر قسطة)، وعند أطراف المدينة يهاجمه جيش (سر قسطة)، فيغزو عبد الرحمن الناصر قلعة حصينة، ويمسك بقوّاد هذا الجيش، ويقوم بإعدامهم على الفور أمام أعين الجميع في عمل لا يُوصف إلا بالكراهة والخزي.

وهنا أعلن حاكم (سر قسطة) محمد بن هشام التُّجيري ندمه وعودته إلى عبد الرحمن الناصر، وكعادة الأبطال الدهاء والساسة الحكماء قيل منه حَلَّتْهُ اعْتِذَارَهُ ثم أعاده حاكماً على (سر قسطة)؛ رابحاً بذلك كل قلوب التجيبيين بعد أن كان قد تمكّن منهم، متسبباً في ذلك برسول الله ﷺ حين قال لأهل مكة عندما دخلها فاتحًا، وكانوا قد طردوه منها وأذوه هو وأصحابه: «إذْهُبُوا فَأَنْتُمُ الظُّلْمَةُ»^(١).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤١١ / ٤، والسيهيلي: الروض الأنف ٤ / ١٧٠، وأبن القيم: زاد المعد ٣ / ٣٥٦، وأبن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٥٧٠، وأبن حجر: فتح الباري ٨ / ١٨.

وبمنطق الحزم وقت الحزم والعفو عند المقدرة عمل عبد الرحمن الناصر؛ فأطلق حُكَّام (سَرْقُسْطَة) بعد أن أعلنا توبتهم، وأعاد التجيبيين إلى حكمهم؛ وفي سنة (٩٣٦هـ=١٣٢٦م) بعث عبد الرحمن الناصر من سَرْقُسْطَة بحملة إلى أرض العدو في الشهال، بقيادة نجدة بن حسين الصقلبي وأمر محمد بن هشام التجيبي بالخروج معه؛ اختباراً لوفائه بالعهد، فخرج معه محمد، وقادت الحملة بواجها؛ فاستولت على مدن وحصون، وهزمت النصارى هزيمة كبيرة، وعادت حملة بالغائم إلى سَرْقُسْطَة^(١).

زلة بشر وسنن لا تعرفُ النسب:

أن تسير الأمور هكذا على الدوام أمر في غاية الصعوبة، فليس هناك بشر لا يخطئ، ولكل جواد كبوة. هذه ليست مبررات لما سيأتي بقدر ما هي بحث في العلة والسبب في محاولة لتجنبه وتقاديه ما دام سَلَّمنَا أنه من شَيْمِ البَشَر؛ ففي سنة (٩٣٩هـ=١٣٢٧م) وبعد سبع وعشرين سنة من بداية عهد عبد الرحمن الناصر كانت قوَّةُ الجيش الإسلامي قد بلغت شأواً عظيماً؛ حيث ناهزت المائة ألف مقاتل، والأندلس آنذاك تحت راية واحدة، أخذ عبد الرحمن الناصر هذا الجيش العظيم متوجهاً إلى مملكة (ليون) النصرانية ليحاربهم هناك^(٢).

وفيما أشبه غزوة حُنَين تدور واحدة من أشرس وأعنف المعارك على المسلمين، سُمِّيت بموقة الخندق، وبانتهاء المعركة كان نصف عدد الجيش (خمسون ألفاً) بين القتل والأسر، وفرَّ عبد الرحمن الناصر عليه السلام مع النصف الآخر عائد़ين بأكبر خسارة وأثقل هزيمة.

وأرجع المؤرخون سبب الهزيمة إلى أن بعض المسلمين كانوا يجدون في قلوبهم

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤٠٥ / ٢ وما بعدها.

(٢) المقري: فتح الطيب، ٣٥٥ / ١

من عبد الرحمن الناصر، فقبعوا للصفوف، وسارعوا في الهرب، وجروا على المسلمين المزينة وأوبقوهم^(١).

إلا أننا نعتقد أن الأمر ليس بهذه البساطة الظاهرة، ونرى أن الدولة التي بلغت هذا القدر من القوة، وخرج منها هذا الجيش المجهز، وتولى انتصاراتها السابقة قد يكون أوقع في نفس عبد الرحمن الناصر ما كان قد وقع من قبل في نفس منْ هو خير منه؛ حين قالوا: «لن نغلباليوم من قلة». فأخذ - كما أخذوا - درساً ربانياً قاسياً.

عبد الرحمن الناصر والعودة إلى سابق عهده:

بعد موقعة سمورة لم يستسلم عبد الرحمن الناصر عليه السلام، وهو الذي رُبِّي على الجهاد والطاعة لربه ولرسوله صلوات الله عليه وآله وسالم، فعلم مواضع الخلل ومواطن الضعف، ومن جديد تدارك أمره، وقام ومعه العلماء والمربيون يحفّزون الناس.

ومن جديد أعدوا العدة وقاموا بحرب عظيمة على النصارى سنة (٩٣٢هـ=٩٤١م) تلتها حملات مكثفة وانتصارات تلو انتصارات، ظلت من سنة (٩٣٢هـ=٩٤١م) إلى سنة (٩٣٥هـ=٩٤٧م) حتى أيقن النصارى بالهلكة، وطلب ملك (ليون) الأمان والمعاهدة على الجزية، يدفعها لعبد الرحمن الناصر عن يده وهو صاغر^(٢)، وكذلك فعل ملك نافار فدفعوا جميعاً الجزية ابتداءً من سنة (٩٣٥هـ=٩٤٧م)، وإن لم يمنع هذا من نقض ونشوب بعض الحروب خلال هذه الفترة وحتى آخر عهده عليه السلام سنة (٩٦١هـ=١٥٤٧م).

علاقة عبد الرحمن الناصر بالشمال الإفريقي:

لم تقتصر الأخطار التي كانت تهدّد الدولة الإسلامية في الأندلس على ما كان في

(١) ابن الخطيب: *أعمال الأعلام* ص ٣٧، ومحمد عبد الله عنان: *دولة الإسلام في الأندلس* ٤١٥ / ٢ وما بعدها.

(٢) انظر: ابن الخطيب: *أعمال الأعلام*، ص ٣٧.

الأندلس نفسها من ثورات أتت على قواها ومواردها، ولا على ما كان يتربص بها من القوى الإسبانية النصرانية المتوبثة الطاحنة للقضاء على المسلمين في الأندلس؛ بل وفي كل بقاع الأرض إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لم تقتصر الأخطار المحدقة على هذا، وإنما تحالف مع هذه الأخطار وشاركتها خطر آخر يترتبص بها في بلاد الشمال الإفريقي، خطر لا يقل طموحاً عن طموح النصارى في الشمال، فهو - أيضاً - يتمنى السيطرة على هذه الجزيرة، وعلى ما فيها من خيرات، ويعلم أنها لن تدين له بشكل كامل إلا إذا اعتنقت معتقده، وتخلىت راغبة أو راهبة عما تعتقد؛ إنه الخطير الشيعي الإسماعيلي، الذي تمثل في هذا الوقت في الدولة العبيدية (المعروف زوراً بالفااطمية).

أُعلن قيام هذه الدولة الخبيثة بالمغرب سنة (٢٩٧ هـ)، بعد نجاح أبي عبد الله الشيعي في دعوته، وجذب الأعون والأنصار لها، وقيامه بمبایعه «عبد الله المهدي» بالخلافة، وكان ذلك في ظل انشغال الإمارة الأموية في ذلك الوقت بمواجهة الثورات، التي كانت تعصف بالأندلس من الداخل، كما كانت مشغولة بردّ اعتداءات نصارى الشمال على أرضها، وكانت أضعف - في ذلك الوقت - من أن تُسيطر على هاتين الجبهتين معاً، فكيف إذا فُتحت عليها جبهة ثالثة؟ ثم إن بلاد الشمال الإفريقي لطالما اعتبرت خط الدفاع الأول عن الأندلس؛ لأنها كانت دائِراً قاعدة غزو هذه البلاد.

وكان عبد الرحمن الناصر يعلم بكل هذه الأخطار؛ لقربه من جدّه الأمير عبد الله، وكان مطلعاً على ما آلت إليه حال الأندلس من ضعف في الداخل والخارج، وما آلت إليه حال الأعداء من قوّة وتمكّن، ولكنه - ومع علمه بهذا كلّه - لم يفعل مثل أعمامه وأعمام أبيه، ولم يترك الأمر بالكلية لغيره يتحمّل أعباءه، وإنما تصدّر لهذا الأمر، وقام به حقّ القيام.

فإلى جوار المهام العظيمة التي اضططلع عبد الرحمن الناصر بها منذ تولّيه الحكم،

إلا إنه ومع ذلك كان منذ اللحظة الأولى يرقب كل ما يحدث في بلاد الشمال الإفريقي بعين الحرص والحدر، وأنقذه وخفف عنه في ذلك الوقت أن الدولة العبيدية كانت هي الأخرى مشغولة بتوطيد أركانها في المغرب؛ لأنها ما كانت تستطيع الانطلاق إلى الأندلس أو إلى مصر إلاّ بعد أن تستقر في المغرب أولاً.

ولكن استقرار هذه الدولة في المغرب سيكون على حساب الأندلس بعد ذلك؛ لذلك لم يستطع عبد الرحمن الناصر أن يصبر حتى يقضي على كل الثورات في الأندلس قضاء مبرماً، ولا أن يقضي على شوكة نصارى الشمال أولاً، وكذلك لم يتظر حتى يفرغ العبيديون من أمر المغرب، ثم يأتي دور الأندلس، وإنما سارع هو إلى نقل المعركة إلى أرض المغرب؛ ليشغلهم بالغرب عن العبور إلى الأندلس، ولن يستطيع تقوية مركزه في المغرب، فيتتمكن من تهديد سلطان العبيديين هناك بعد ذلك، وفي ذلك براعة حرية؛ فهو بذلك يُشتت جهود العبيديين العسكرية والسياسية، ويشغلهم عن الأندلس بالغرب، ويعاقبهم على مساندتهم ومساعدتهم للثائرين عليه، بأن يُساعد هو - أيضاً - كلَّ مَنْ يسعى للخروج عليهم، ويضمُّه عبد الرحمن الناصر إليه، في حين لا يستطيع العبيديون أنفسهم أن يفعلوا ذلك.

ففي سنة (٣١٩هـ) أرسل الناصر أسطولاً قوياً حشد له ما استطاع من رجال وعتاد، وأرسله إلى سبتة فاستولى عليها من يد ولاتهابني عصام حلفاء العبيديين، ثم سارع بتحصينها، وإمدادها بالجند والسلاح، والقادة الأكفاء؛ لأنه يعلم جيداً أن العبيديين لن يرتكروا إلى الراحة والدعة، ولن يتخللوا عن سبتة بسهولة؛ ليس لأنها مفتاح الأندلس فحسب، ولكن لأنها إن بقيت في يد الناصر، فإنها ستهدّد دولتهم الناشئة التي لم تستقرّ بعد، وقد عرفنا من قبل أهمية ميناء سبتة بالنسبة للأندلس، ورأينا كيف أن موسى بن نصير لم يستطع العبور إلى الأندلس إلاّ بعد أن أمن خطر سبتة، وهذا نحن الآن نعرف أهمية سبتة بالنسبة للمغرب - أيضاً - لذلك لا نعجب

إذا عرفنا إصرار إسبانيا على أن تبقى سبعة و مليلة تحت يدها حتى الآن.

لقد كانت هذه خطوة جريئة حازمة من عبد الرحمن الناصر، أشعرت العبيدين -بلا شك - وحلفاءهم بالخوف والجزع من هذه القوة الجديدة، التي بدأ نجمها يزغ في الأندلس، فإلى جوار الثورات التي يعمل هذا الرجل على إخادها في بلاده، وبالرغم من وجود نصارى الشمال المتربيصين به وبدولته، إذا به يفتح على نفسه جبهة جديدة في المغرب، وقد كان المنتظر منه أن يُسارع إلى الاستنجاد بهذه الدولة الفتية التي بدأت تظهر في المغرب؛ لتعيينه على أعدائه الكثيرين؛ لذلك فإننا نعتبر أن هذه الخطوة كانت من أكثر خطوات عبد الرحمن الناصر جَلَّهُ جُرْأَةً وشجاعة وحزماً، كما كانت أكثرها دلاله على حُسن سياساته وفهمه الرائع لكيفية سير الأمور. كان يمكن لعبد الرحمن الناصر أن يركن لهذا التقدم وهذا النصر المهم؛ فلقد شغلهم بسبعة عن الأندلس، إلا أن الرجل كان قد عزم على أن يمضي في طريقه إلى النهاية، وألا تضعف همه أو تفتر، فراسل الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي حاكم طنجة لينزل له عن طنجة؛ لتكتمل بذلك سيطرته على رأس العدوة، فرفض ابن أبي العيش ذلك، فحاصره أسطول الأندلس، وضيق عليه حتى اضطه إلى التسليم^(١).

وفي سنة (٣١٩هـ) -أيضاً- أرسل إليه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة يحالقه ويدخل في طاعته، ويُعده بالدعوة له في المغرب، ويتقرّب أهل المغرب وزعمائهم منه، فتَقَبَّلَه عبد الرحمن أحسن قبول، وأمدَه بالمال، وساعدَه في حروبه في المغرب؛ لِيُفُوِّي مركزه^(٢)، ويادر على إثر ذلك زعماء الأمازيغ (البربر) من الأدارسة وزناته إلى طاعة عبد الرحمن الناصر والدعاء له على المنابر، وامتَّ نفوذه إلى تاهرت، وفاس.

(١) أبو العباس أحمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ١ / ٢٥٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ٢٠٤.

وفي سنة (٣٢٣هـ) أرسل القائم العبيدي جيشاً بقيادة ميسور الصقلي إلى موسى بن أبي العافية، ودارت بينهما عدة معارك انهزم فيها موسى بن أبي العافية، وهرب إلى الصحراء، ثم استنجد بالناصر فأنجدوه، وهُزم العبيديون، وعاد موسى بن أبي العافية ملكه في المغرب وقوى أمره^(١)، كما قوي نفوذ الناصر لدين الله هناك؛ حتى إن من ثاروا على الدولة العبيدية في المغرب كانوا يُرسلونه ويعترفون له بأنه الأحق بالولاية، وكان عبد الرحمن الناصر يصلهم ويُحسن إليهم^(٢).

كل هذا والمعركة دائرة في المغرب، فلما قويت شوكة العبيديين في المغرب، وتغلبوا على ما قام عليهم من ثورات، أقدم المعز لدين الله العبيدي على ما يُشبه جس نبع عبد الرحمن الناصر، فأمر أسطوله بضرب سواحل الأندلس، وبالفعل هاجمت سفن العبيديين ثغر المريأة سنة (٣٤٤هـ)، وأحرقت ما فيه من سفن، وخربت كل ما استطاعت تخريبه، فكان رد عبد الرحمن الناصر عليهم عنيفاً؛ إذ أمر فخرج أسطوله إلى سواحل الدولة العبيدية، وردا لهم الصاع صاعين، وعادوا سنة (٣٤٥هـ)^(٣)، فعلم العبيديون أنه لا طاقة لهم بالأندلس، فلم يُعيدوا الكرة.

وفي سنة (٣٤٧هـ) اجتاحت قوات العبيديين بقيادة جوهر الصقلي المغرب الأقصى، ودخلت فاس وقتلت عامل عبد الرحمن الناصر عليها، فأسرع عبد الرحمن الناصر بتجريد حملة أندلسية عبرت إلى المغرب، واستطاعت رد العبيديين على أعقاهم^(٤).

ثم لم يلبث عبد الرحمن الناصر أن مرض سنة (٣٤٩هـ)، ثم توفي عليه سنة (٣٥٠هـ).

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/١٣٦.

(٢) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢١٣.

(٣) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٢١، وتأريخ ابن خلدون ٤/٤٤٦.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٢٢.

مکتبہ المسکنی:

ورث عبد الرحمن الناصر عن جده مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبد الرحمن الداخل مبادئ أساسية للحرب؛ منها:

وقد ظهرت المباغة في الأعمال القتالية للخليفة الناصر بشكل معتقد جدًا، مما يُشير إلى درجة التعقيد التي وصلتها الأعمال القتالية في أيامه، فهو يعتمد أحياناً على المباغة الزمنية؛ حيث يعمل على حشد القوات في ظاهر قُرطبة خلال مرحلة مبكرة عَمَّا هو معهود في توجيه الصوائف للغزو، وأحياناً أخرى يلجم إلى المباغة المكانية؛ حيث يُضلل أعداءه ليظهر في مكان غير متوقع من مسرح العمليات؛ بحيث لا يعرف أعداء الشمال نوايا الناصر، وإلى أين سيوجه ثقل قوات الهجوم، وفي أحيان -أيضاً- تأخذ المباغة عند الناصر شكل مباغة على مستوى العمليات، وأحياناً على المستوى الاستراتيجي، إذ لم يكن التوجُّه إلى عواصم دول الشمال (ليون ونافار) إلا نوعاً من المباغة الاستراتيجية، كما أن طريقة زِجِّ القوات وحجمها كان نوعاً من المباغة على مستوى العمليات، وكانت مباغة العمليات والمباغة الاستراتيجية ميزة بشدة تعقิดها لما تُبرزه متابعة مسيرة الأعمال القتالية؛ حيث تمتزج فيها المباغة الزمنية بالمكانية بطرق زِجِّ القوات لتأخذ شكلاً متقدّماً ومتطرطاً المفهوم المباغة.

أراد الخليفة الناصر في بداية حكمه إعطاء نموذج للجهاد بنفسه، فكان يقود المعارك بنفسه مدفوعاً بياهان الشباب وحماسه للحرب، ومارستها بصورة فعلية، إلى جانب توفر الرغبة لخشد قوى المسلمين وتوجيهها وإثارة حميتها، وقد حقق نجاحاً رائعاً في هذا المضمار، حتى إذا استقامت له الأمور، لم تُعْد هناك حاجة للإقدام على مُجازفةٍ غير محسوبةٍ تضرُّ بالإسلام والمسلمين بأكثر ما تفيدهم، كما

تبَدِّي هذا في موقعة الخندق، فكان إمساك الخليفة الناصر بالإدارة العليا للحرب أكثر أهمية من قيادته للأعمال القتالية بنفسه؛ إذ سمح له ذلك بالإشراف على تنظيم الجيوش بصورة مستمرة، وإعادة تنظيمها -كُلُّما تطلَّبت الحاجة- وتوجيهها إلى ميادين القتال، وتحديد واجباتها بدقة، وتأمين متطلباتها من الإمداد والتمويل.

لقد بقيت الأندلس طوال عهد الناصر لدين الله في حرب مستمرة ومتواصلة وعلى كافة الميادين والجبهات، وكان ذلك يتطلَّب تأمين موارد غير محدودة، وقد أظهرت مسيرة الأعمال القتالية أن قوات المسلمين كانت في تعاظم مستمر، وأن متطلباتها كانت متوفَّرة، ولم تظهر ولو مجرَّد ظاهرة واحدة تُشير إلى عيب أو خلل في التنظيم الإداري أو في تأمين الإمداد للمقاتلين، وليس ذلك إلا برهان ساطع على تلك الكفاءة العالية، التي ضمنت حشد الموارد الضرورية للقوات، وهو ما يُعتبر في الجيوش القديمة والحديثة مقاييسًا للكفاءة الإدارية المشرفة على الحرب، وهكذا فإن تخلي الخليفة الناصر عن إدارة القتال قد ساعده على تحقيق واجب أكبر؛ وهو الإدارة الشاملة للحرب، وتأمين متطلباتها، وضمان الظروف الموضوعية لتحقيق النصر.

الشهيد الصنفسي في عهد عبد الرحمن الناصر:

١- مملكة ليون:

بلغت الثورات والفتن الداخلية في الأندلس ذروتها في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ويدَّدت هذه الفتنة قوى الأندلس ومواردها، وضعفَت الأندلس حتى عن فرض سيطرتها على كثير من أراضيها؛ مما هيَّا لإسبانيا النصرانية فرصة عظيمة للاستقرار ولتوطيد سلطانها في المناطق الخاضعة لها، وتنمية مواردها، وتقوية جيوشها؛ فلم يأتِ القرن العاشر الميلادي حتى كانت مملكة ليون -التي خَلَقَتْ مملكة جليقية، والتي كانت تضمُّ ولاية قشتالة- قد بلغت من القوة والباس ما يُتيح لها أن تخوض صراعاً عنيفاً مع



الأندلس، وقد بلغ هذا الصراع ذروته في عهد عبد الرحمن الناصر، حتى استطاعت ليون هزيمة عبد الرحمن الناصر في موقعة شنت إشتيبن سنة (٩١٧م)؛ وذلك بالرغم من إنجازات عبد الرحمن الناصر الداخلية، وإخماده للفتن، وإحيائه لقوة الأندلس، ثم توالت غارات ليون على الأراضي الإسلامية عقب هزيمة شنت إشتيبن، حتى وفاة ملكها أردونيو الثاني سنة (٩٢٥م).

أضعف موت أردونيو الثاني مملكة ليون كثيراً، إذ إن أخيه فرويلا -الذي تولى بعده- لم يبق في الحكم سوى عام واحد ثم مات، ليبدأ بمותו نزاع شديد بين سانشو وألفونسو ولدَيْ أردونيو، وفاز ألفونسو في هذا الصراع بمعاونة ملك نافار صهره وحبيه، ولكن سانشو (أخًا ألفونسو) لم يأس، فتوَّج نفسه ملكًا في شنت ياقب (في أقصى جُلُقِيَّة) وجُمِعَ جيشًا جديدًا، ثم زحف على ليون، فحاصرها واستولى عليها، وارتقى العرش مكان أخيه، فعاد ألفونسو إلى الاستعانة بملك نافار، حتى استطاع أن يهزم أخيه، وأن يعود للحكم مَرَّةً أخرى، فعاد سانشو إلى جُلُقِيَّة، وظل مصرًا على دعواه في الملك، واستمرَّت الحرب الأهلية حتى مات سانشو عام (٩٢٩م)، فاستقرَّ المُلْكُ لألفونسو الرابع دون منازعة، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً؛ إذ ماتت زوجة ألفونسو الرابع فحزن لفقدانها حزنًا عظيمًا، فشعر باليأس وزهد في الدنيا؛ فتنازل عن العرش لأخيه رامiro الثاني، والذي تُطلق عليه المصادر الإسلامية اسم رذمير، أما ألفونسو فإنه اعتكف في دير ساهاجون واعتنق الرهبانية.

لم يُطُقْ ألفونسو الرابع حياة الرهبانية كثيراً، فترك الدير، ونادي بنفسه ملكًا في حصن شنت منكش، وكان هذا العمل عارًا كبيرًا في نظر الرهبان، فأثاروا عنه شائعات شديدة، حتى اضطر اضطراراً إلى أن يعود إلى الرهبانية، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسیر أخيه رامiro إلى دعم ثوار طليطلة فغادر الدير، وزحف مع بعض أنصاره إلى مدينة ليون واستولى عليها، فعاد رامiro بجيشه مسرعاً واستولى على

ليون، وسمّل عين أخيه وأبناء عمّه فرويلا الثلاثة الذين ساعدوا أخاه؛ لكي يطمئن إلى أن أخاه لن يثور عليه مجددًا.

وبهذا استقرَّ المُلْك لرامIRO، الذي كان صليبيًّا متطرّفًا، لم يترك وسيلة يمكنه أن يضرّ بها دولة المسلمين إلَّا استعملها، فكان يُغir على الأراضي الإسلامية، ويُجحّض الثوار على عبد الرحمن الناصر، ويُعينهم على ذلك بما يستطيع، وهذا غير المعارك المباشرة التي كان يخوضها بنفسه ضد المسلمين، وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف، الذي اضطرب بين راميرو وبين عبد الرحمن الناصر، والذي بلغ ذروته في موقعة الخندق، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين تحت أسوار مدينة سمورة سنة (٩٣٩هـ = ٢٧م).

السعى لإنشاء مملكة قشتالة:

ولكي نفهم جيدًا تطورات الأحداث في ليون فإن علينا أن نقف أمام سعي قشتالة للانفصال عن جسم مملكة ليون؛ فقد كانت قشتالة في القسم الشرقي من مملكة ليون، وكان سُكّان هذه المنطقة من البشكنس وأهل آلبة، وكان ملوك الجالقة قد غزوه وأضافوها إلى مملكتهم، وواجهوا مقاومة عنيفة من زعماء قشتالة، الذين حاولوا قدر استطاعتهم الحفاظ على استقلالهم، ثم ثاروا في عهد أردونيو الثاني، فحاربهم وأخضعهم وأعدم بعضهم، حتى اضطر الباقيون إلى الالتزام بطاعته.

استمرَّ الوضع كذلك حتى ظهور الكونت فرنان كونثالث، فحسد الكونت أنصاره وقواته وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون، فهزّم وأسر، ولكن القشتاليين استمروا في الثورة والقتال، وزحفت جموعهم إلى ليون، فاضطر راميرو أن يُطلق سراح فرنان كونثالث شريطة أن يُقسم فرنان يمين الطاعة لملك ليون، وأن يتنازل عن كل أملاكه، وأن يُزوج ابنته أوراكا لأردونيو بن راميرو. ونَفَذ فرنان كونثالث هذه الشروط، وأطلق سراحه بالفعل، إلا أن هذا لم يُضعف من آماله

وأحلامه في الاستقلال بقشتالة عن مملكة ليون.

وكان المسلمين في هذه الفترة قد عادوا للإغارة من جديد وبقوة على أراضي ليون، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد مدينة سالم -ثغر الحدود بين الأراضي الإسلامية وقشتالة- سنة (٩٤٦م)، واضطرب راميرو أمام هذه الضربات القوية أن يلتزم خطة الدفاع؛ فاستغل فرنان كونثالث هذه الأوضاع الجديدة، فعمل جاهدًا على توسيع مركزه، وضم كل الزعماء القشتاليين تحت لوائه؛ ليسهل عليه الاستقلال بقشتالة بعد ذلك.

شقيقتة مملكة ليون :

توفي راميرو الثاني في أوائل سنة (٩٥٠م)، وترك منْ بعده ولدين كان أكبرهم هو أردونيو، وهو من زوجته الأولى تاراسيا، وسانشو وهو من زوجته الثانية أوراكا أخت غرسية ملك نافار، وكان أردونيو -في العرف الأوروبي آنذاك- هو الأحق بالعرش؛ باعتبار أنه الأكبر سنًّا، غير أن أخيه قد طمع في العرش، فاستعان بأخوه من نافار، وجدته طوطة ملكة نافار، كما تحالف مع الكونت فرنان كونثالث الذي يتوق للانفصال بقشتالة؛ ومن ثمَّ لم يكن همه إلا أن يُضعف مملكة ليون؛ حتى لو كان ملكها هو أردونيو زوج ابنته، ومع ذلك استطاع أردونيو أن يهز سانشو والمحالفين معه، واستقرَ بذلك على العرش.

وكانت غزوات المسلمين تتواتي في هذه الفترة على الأراضي الليونية، فاضطر أردونيو نتيجة هذه الاضطرابات الداخلية أن يطلب عقد صلح مع عبد الرحمن الناصر في أوائل سنة (٩٥٥م)؛ فاشترط عليه الناصر أن يُصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر.

ثمَّ ما لبث أن توفي أردونيو بعد ذلك بقليل، وخلفه أخيه سانشو في الملك، فرفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخيه مع عبد الرحمن الناصر، فبعث الناصر جيشًا

غزا ليون، فاضطر سانشو أن يعقد الصلح، وأن يُقرَّ ما سبق أن تَعْهَدَ به أخوه، وبذلك ساد المدوء بين الفريقين لفترة.

كان المتوقع أن يسود المدوء -أيضاً- بين فرنان كونثالث في قشتالة وبين سانشو في ليون؛ إذ وقف فرنان كونثالث في صف سانشو، حينما ثار الأخير على أخيه، ولكن ما حدث كان على خلاف ذلك؛ إذ إنَّ فرنان كونثالث لم يلبث أن انقلب على سانشو، وأصبح يُبادله الخصومة والعداوة، ولم تلبث الأحوال أن ساءت أكثر داخل مملكة ليون عندما ثار الأشراف على سانشو، ونزعوه من العرش، بحججة أنه لم يُفلح في هزيمة المسلمين، وأن بданته المفرطة تمنعه من ركوب الخيل ومبشرة القتال بنفسه، ففرَّ سانشو إلى جدته طوطة في بنبلونة عاصمة نافار، وقام الأشراف في ليون وقشتالة باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع، والذي كان قد تزوج ابنة فرنان كونثالث بعدما طلقها أردونيو الثالث.

وكان هذا الملك الجديد أحدِّيَاً دمياً سيئَ الخلق، فلقبوه بالرديء، واستنجد سانشو بعد الرحمن الناصر، وسأله أن يساعدَه حتى يعود للحكم، واتفقا على أن يُرسل عبد الرحمن الناصر إليه طبيباً يهودياً من قُرْطُبة ليعالجَه من بدانته، وفي سنة (٩٥٨هـ = ٣٤٧م) ذهبت طوطة إلى قُرْطُبة، ومعها ابنها غرسية سانشيز، الذي كانت تُحكِّم نافار باسمه، كما ذهب معها -أيضاً- سانشو ملك ليون المخلوع، فاستقبلهم عبد الرحمن الناصر بحفاوة بالغة، وعقد السلم مع طوطة وأقرَّ ولدها على نافار، ووعد بمعاونة سانشو على استرداد عرشه، وذلك مقابل تَعْهُدَه بأن يُسلم للمسلمين بعض الحصون الواقعة على الحدود، وأن يهدِّم البعض الآخر؛ ثم أمدَّه عبد الرحمن الناصر بالمال والجندي، فغزا ليون، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق، وانتهت الحرب بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى، وفرَّ أردونيو إلى فرنان كونثالث في برغش.

ثم توفي عبد الرحمن الناصر بعد ذلك بقليل، ونكرت سانشو بعهوده، ولم يُنفذ ما اتفق عليه مع عبد الرحمن الناصر.

٢ - مملكة نافار:

نشأت مملكة نافار في القرن التاسع الميلادي، وتولى الملك فيها سانشو غرسية الأول عقب اعتزال أخيه فرتون الملك في سنة (٩٠٥م)، وكان سانشو قد خاض مع المسلمين حروباً عديدة أيام الأمير عبد الله، وفي أوائل عهد عبد الرحمن الناصر - ولما توفي سانشو - خلفه ولده غرسية سانشيز وكان طفلاً، فتولى عمه خينو غرسيس الوصاية عليه أولاً، ثم تولّت أمه الملكة طوطة الوصاية عليه، وظلت تحكم باسمه طويلاً حتى بعد أن كبر ونضج، وكانت نافار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة مع الملكتين النصرانيتين الأخريين؛ فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا ابنة الملكة طوطة، وأخت غرسية، وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من ابنة أخرى لطوطة، فكانت طوطة تتحل لذلك مقاماً ملحوظاً في المالك الثالث، وقد وقفت نافار - كما ذكرنا - إلى جانب سانشو عندما نشب الحرب بينه وبين أخيه أردونيو على تولي العرش بعد وفاة أبيهما رامiro الثاني، ثم وقفت إلى جانبها ثانية بعدها خلعه أشراف ليون.

ثم اضطربت العلاقة بين نافار وبين قشتالة، ونشبت بينهما حرب شديدة هُزم فيها الكونت فرنان كونثالث، وأُسر في نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة نافار، ولزمت السكينة حيناً^(١):

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص ٥٨٠، وما بعدها يتصرف.

العقل الثالث

النهاية الحضارية في عهد الناصر



ما سبق كان من التاريخ السياسي والعسكري لعبد الرحمن الناصر رحمه الله، وواقع الأمر أن جهده لم يكن كله موجهاً للجيوش والخروب فقط، بل إنه كان متكاملاً ومتوازناً رحمه الله في كل أموره؛ فقد قامت في عهده نهضة حضارية كبرى هي الأروع بين مثيلاتها في ذلك الوقت، استهلّها رحمه الله بإنشاء هيكل إدارية عظيمة، وأكثّر من الوزارات والهيئات، وجعل لكل أمر مسؤولاً، ولكل مسؤول وزارة كبيرة تضمّ عملاً كثرين وكتبة، وهذه نبذة عن أهم جوانب الحياة الحضارية في عصره:

الجانب المعماري:

كان من أهم ما يُميّز الناحية المعمارية في عهد عبد الرحمن الناصر تلك المدينة العظيمة التي أنشأها وأطلق عليها اسم مدينة الزهراء، وكانت مدينة الزهراء على طراز رفيع جداً، وقد استجلب لها عبد الرحمن الناصر رحمه الله مواداً من القسطنطينية وبغداد وتونس ومن أوروبا، وقد صُممّت على درجات مختلفة؛ فكانت هناك درجة سفلٍ؛ وهي للحراس والكتبة والعمال، ثم درجة أعلى وهي للوزراء وكبار رجال الدولة، ثم أعلى الدرجات في منتصف المدينة وفيها قصر الخلافة الكبير^(١).

وفي مدينة الزهراء أنشأ عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء؛ ذلك القصر الذي لم

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٣١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٣٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٤.

يُبَيَّنَ مثُلَهُ حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتُ؛ فَقَدْ بَالَّغَ فِي إِنْشَائِهِ حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ مَعْجَزَاتِ زَمَانِهِ، فَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ مِنْ أُورْبَا وَمِنْ كُلِّ أَقْطَارِ الْعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ كَيْ يَشَاهِدُوا قَصْرَ الزَّهْرَاءِ، يَقُولُ الْمَقْرِيُّ فِي *نَفْحِ الطَّيْبِ*: «لَا بَنِي النَّاصِرِ قَصْرُ الزَّهْرَاءِ الْمُتَنَاهِي فِي الْجَلَالَةِ وَالْفَخَامَةِ، أَطْبَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُبَيَّنْ مثُلَهُ فِي الإِسْلَامِ أَلْبَتَهُ، وَمَا دَخَلَ إِلَيْهَا قُطُّ أَحَدٌ مِنْ سَائِرِ الْبَلَادِ النَّائِيَّةِ وَالنَّحْلِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ مِنْ مَلْكٍ وَارِدٍ أَوْ رَسُولٍ وَافِدٍ، وَتَاجِرٍ جَهِيدٍ -وَفِي هَذِهِ الْطَّبَقَاتِ مِنَ النَّاسِ تَكُونُ الْمَعْرِفَةُ وَالْفَطْنَةُ- إِلَّا وَكُلُّهُمْ قَطْعَ أَنَّهُ لَمْ يَرَ لَهُ شَبِيهًَا، بَلْ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ، بَلْ لَمْ يَتَوَهَّمْ كَوْنَ مثُلِهِ؛ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ أَعْجَبَ مَا يُؤْمِلُهُ الْقَاطِعُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فِي تَلْكَ الْعَصُورِ الْنَّظَرِ إِلَيْهِ، وَالْتَّحْدِثُ عَنْهُ، وَالْأَخْبَارُ عَنْ هَذَا تَتَسْعَ جَدًّا، وَالْأَدْلَةُ عَلَيْهِ تَكْثُرُ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا السُّطُوحُ الْمَرْدُ الْمُشْرَفُ عَلَى الرُّوْضَةِ الْمَبَاهِيِّ بِمَجْلِسِ الْذَّهَبِ وَالْقَبَّةِ، وَعَجِيبٌ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ إِتقَانِ الصُّنْعَةِ وَفَخَامَةِ الْهَمَةِ وَحْسَنِ الْمُسْتَشْرِفِ، وَبِرَاعَةِ الْمَلْبِسِ وَالْخَلَةِ مَا بَيْنَ مَرْمَرِ مَسْنُونٍ، وَذَهَبِ مَوْضُونَ، وَعَمَدِ كَانِيَّا أَفْرَغَتِ فِي الْقَوَالِبِ، وَنَقْوَشِ كَالْرِيَاضِ، وَبَرَكَ عَظِيمَةُ مُحْكَمَةِ الصُّنْعَةِ، وَحَيَاضِ وَتَمَاثِيلِ عَجِيبَةِ الْأَشْخَاصِ، لَا تَهْتَدِي الْأَوْهَامُ إِلَى سَبِيلِ اسْتِقْصَاءِ التَّعْبِيرِ عَنْهَا، فَسَبِّحَانَ الَّذِي أَقْدَرَ هَذَا الْمَخْلُوقَ الْمُضَعِّفَ!»^(١).

وَهَذِهِ مَدِينَةُ *قُرْطُبَةِ* قَدْ اتَّسَعَتْ جَدًّا فِي عَهْدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ، وَبِلْغَ تَعْدَادِ سُكَّانِهَا نَصْفَ مَلْيُونِ مُسْلِمٍ^(٢)، وَكَانَتْ بِذَلِكَ ثَانِي أَكْبَرِ مَدِينَةٍ فِي تَعْدَادِ السُّكَّانِ فِي الْعَالَمِ بَأْسَرِهِ بَعْدِ بَغْدَادِ الْمَدِينَةِ الْأَوَّلِيِّ، وَالَّتِي كَانَ تَعْدَادُ سُكَّانِهَا يَبْلُغُ مَلْيُونَيْنِ^(٣).

يَصُفُّ أَبْنُ عَذَارِيِّ *قُرْطُبَةِ* فِي هَذِهِ الْفَتَرَةِ فَيَقُولُ: «وَمَا قِيلَ فِي آثَارِ مَدِينَةِ *قُرْطُبَةِ* وَعَظِيمَهَا حِينَ تَكَامَلَ أَمْرُهَا فِي مَدَةِ بَنِي أُمَيَّةِ -رَحْمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى-: إِنَّ عَدَدَ الدُّورِ الَّتِي بَدَأْخِلَّهَا لِلرَّعْيَةِ دُونَ الْوُزْرَاءِ وَأَكَابِرِ أَهْلِ الْخَدْمَةِ مَائَةُ أَلْفٍ دَارَ وَثَلَاثَةُ عَشَرُ أَلْفٍ

(١) الْمَقْرِيُّ: *نَفْحُ الطَّيْبِ*, ١/٥٦٦.

(٢) مُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّهِ عَنَانٌ: دُولَةُ الإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ، ٢/٤٣٦.

(٣) طَارِقُ السُّوِيدَانُ: الْأَنْدَلُسُ الْتَّارِيخُ الْمَصْوُرُ، ص١٩٨.

دار؛ ومساجدها ثلاثة آلاف؛ وعدة الدور التي بقصر الزهراء أربعينات دار؛ وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته...»^(١).

وينقل المقربي عن ابن حيان قوله: «إن عدة المساجد عند تناهياً في مدة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجد، والحمامات تسعمائة حمام، وفي بعض التواريخ القديمة كان بقُرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعين مسجداً؛ منها: بشقندة ثانية عشر مسجداً، وتسعمائة حمام، وأحد عشر حماماً، ومائة ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار للرعاية خصوصاً، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها... إلخ»^(٢).

وهذا -أيضاً- مسجد قُرطبة قد وسّعه جَهَنَّمَ حتى أصبح آية من آيات الفن المعماري، وكان محرابه عبارة عن قطعة رخام واحدة على شكل محارة^(٣).

لكل هذا وغيره من مظاهر الحضارة أطلق على قُرطبة في ذلك العصر «جوهرة العالم»^(٤).

الجانب الاقتصادي:

كانت البلاد في عهده جَهَنَّمَ تعيش في رخاء منقطع النظير، فكثرت الأموال؛ حتى بلغت ميزانية الدولة ستة ملايين دينار ذهبيٌّ، كان يقسمها ثلاثة أقسام كجده عبد الرحمن الداخل جَهَنَّمَ: ثلثاً للجيش، وثلثاً للبناء والمعمار والمرتبات وما إلى ذلك، والثالث الأخير للادخار لنوائب الزمان^(٥).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٢٢.

(٢) المقربي: فتح الطيب، ١/٥٤٠.

(٣) حسين مؤنس: معلم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٧٨.

(٤) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٣١٤.

(٥) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٣١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٣٨.

ونمت الزراعة نمواً مزدهراً؛ فتنوعت أشجار الفواكه والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، وأوجد مزارع خاصة ل التربية دودة القز، كما نظمَّ أقنية الري وأساليب جرّ المياه، وجعل تقويمًا للزراعة لكل موسم (ومنها انتقلت الزراعة إلى أوروبا) ^(١).

كان من اهتماماته -أيضاً- استخراج الذهب والفضة والنحاس، وكذلك صناعة الجلود وصناعة السفن وآلات الحرب، وكذلك صناعة الأدوية، وقام عليه السلام بإنشاء أسواق كثيرة متخصصة لعرض وتداول مثل هذه البضائع، فكان هناك -على سبيل المثال- سوق للنحاسين، وأخرى للحوم، بل كان هناك -أيضاً- سوق للزهور ^(٢).

وكانت خطة الشرطة من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين، الشرطة العليا، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة (٣١٧هـ) في عهد الناصر لدين الله قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاثة مراتب: الشرطة العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى، كما قسمت خطة المظالم (أي المحاكم) إلى خطتين عام (٣٢٥هـ)، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم، وجعل العرض خطة مستقلة بذاتها، وكذلك المظالم أصبحت خطة مستقلة ^(٣).

الإنجازات العلمية:

في عهده عليه السلام ازدهر العلم والتعليم بصورة ملحوظة، وقد اهتمَّ كثيراً بمكتبة

(١) طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص ٢٠٠.

(٢) السابق نفسه.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/٦٨٥.

قُرْطُبَة؛ تلك التي كانت قد تأسست قبل ذلك الوقت، فزاد كثيراً في حجمها حتى بلغ عدد الكتب فيها أربعمائه ألف كتاب، وهو زمن لم تظهر فيه الطباعة بعد، وإنما كانت عن طريق النسخ اليدوي، الذي كان وظيفة النسَاخِين، فإذا أراد واحد من الناس أن يمتلك كتاباً ما عليه إلا أن يذهب إلى نَسَاخٍ؛ فيذهب النساخ بدوره إلى مكتبة قُرْطُبَة فينسخ له ما يُريد^(١).

وبأثر من هذا الجو العلمي الظاهر، أوردت المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات عدداً كبيراً من الأسماء التي نبغت في هذه الفترة؛ فمنهم:

حسان بن عبد الله بن حسان (ت ٤٧٨=٥٣٤-٨٩١ م):

من أهل إسْتِجَةٍ، وقد وُصف بأنه كان بَيِّلاً في الفقه، وحافظاً للرأي، وَمُعْتَنِياً بالحديث والآثار، ومتصرفاً في علم اللغة والإعراب، والعرض ومعنى الشعر، مع بصره بالفرض وعلم العَدَد، ولمكانته العلمية قيل عنه: لم يَكُنْ في إسْتِجَةٍ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ^(٢).

محمد بن عبد الله الليثي (ت ٥٣٩=٩٥١ م):

من أهل قُرْطُبَة، وكان يشغل منصب «قاضي الجماعة» في قُرْطُبَة، تلمذ على شيخ بالأندلس، ثم رحل إلى مكة، ثم إلى مصر، ثم إلى تونس، وكان حافظاً للرأي، مُعْتَنِياً بالآثار، جاماً للسنن، متصرفاً في علم الإعراب، ومعنى الشعر، وكان شَاعِراً مطبوعاً، وقد ولاه عبد الرحمن الناصر رحمه الله قضاء إلْبِيرة وبِجاَنة، ثم قضاة الجماعة بِقُرْطُبَة في شهر ذي الحجة سنة (٣٢٦هـ)، وكان كثيراً ما يخرج إلى الثُّغور، ويتصرَّف في إصلاح ما ضعف فيها، فاعتُلَّ في آخر خرجاته إلى هُنَاك،

(١) طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص ٢٠١.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص ١١٦.

ومات في حصن مجاور لطليطلة فدُفن فيها^(١).

السياسة الخارجية :

ذاع صيت عبد الرحمن الناصر حَفَظَهُ اللَّهُ في الدنيا كلها، ورضيت منه ممالك الشمال بأن تعطيه العهد والجزية، وقد جاءت السفارات من كل أوربا تطلب وده، فجاءت من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا، بل جاءت من أقصى شرق أوربا^(٢) من بيزنطة، وهي بعيدة جدًا عن عبد الرحمن الناصر لكنها جاءت تطلب وده وتُهدي إليه الهدايا، وأشهرها كان جوهرة ثمينة وكبيرة، كان يضعها عبد الرحمن الناصر في وسط قصره، الذي يقع في مدينة الزهراء، «وكان من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنوية»^(٣).

وهكذا كان عز الإسلام ومجده ممثلاً في عهد عبد الرحمن الناصر حَفَظَهُ اللَّهُ، حتى أصبح - بلا منازع - أعظم ملوك أوربا في القرون الوسطى، وهذا ما جعل إسبانيا سنة (١٩٦٣ م) تحفل - وهي على نصريتها - بمرور ألف سنة ميلادية على وفاة عبد الرحمن الناصر؛ لأنه كان أعظم ملوك إسبانيا على مر العصور، فلم يستطعوا أن يخفوا إعجابهم بهذا الرجل الذي رفعهم في العالمين، الذي كانت الأندلس في عهده - وبلا جدال - أقوى دولة في العالم.

عبد الرحمن الناصر.. الإنسان :

من يقرأ أو يسمع مثل ما سبق يحول في خاطره أن مثل هذا الرجل لم يكن يعرف إلا طريقاً واحداً، هو طريق العظمة والجدية التامة، طريق العزة وعدم الخنوع، وهذا وإن كان صحيحاً إلا أن من ينظر إلى شخص عبد الرحمن الناصر حَفَظَهُ اللَّهُ

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص ٥٨، ٥٩.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٣٦٦ / ١.

(٣) المصدر السابق، ٥٤١ / ١.

-الذي ظلّ يحكم البلاد من سنة (٩٦١هـ = ٩١٣م) إلى سنة (٣٥٠هـ = ١٩٦١م) نصف قرن كامل - ليرى العجب العجاب؛ فقد كان يهلك مع كل هذا السلطان وهذا الصولجان دائم الذكر لربه سرير الرجوع إليه.

حدث ذات مرّة قحط شديد في الأندلس، فأرسل الناصر رسولًا من عنده يدعى القاضي منذر بن سعيد بإماماة الناس في صلاة الاستسقاء، فقال منذر للرسول: ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟ فقال له: ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا؛ إنه متبد حائر منفرد بنفسه، لا بس أحسن الثياب، مفترش التراب، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيديك، أتراك تُعذّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! لن يفوتك شيء مني. قال الحاكي: فنهلَ وجه القاضي منذر عندما سمع قوله، وقال: يا غلام؛ احمل المطر معك؛ فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض، فقد رحم جبار السماء. وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلاً عن السقيا»^(١).

وكان يقول الشعر - أيضًا - ومن شعره في أمر بنائه مدينة الزهراء: [الكامل]

هِمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
مِنْ بَعْدِهِمْ فِي الْأَسْرِ الْبُنِيَانِ
إِنَّ الْبُنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَاهِنَةُ
أَصْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ^(٢)

قالوا عن عبد الرحمن الناصر ..

قال عنه الذهبي: كان شجاعاً شهماً محمود السيرة، لم يزل يستأصل المغلبين حتى تم أمره بالأندلس، واجتمع في دولته من العلماء والفضلاء ما لم يجتمع في دولة

(١) انظر: ابن خاقان: مطعم الأنفس، ص ١٠٣، والذهبى: تاريخ الإسلام، ٤٤٤ / ٢٥، والمقرى: نفح الطيب، ٥٧٣ / ١

(٢) المقرى: نفح الطيب، ١ / ٥٧٥

غيره، وله غزوات عظيمة ووقائع مشهورة، قال ابن عبد ربه: قد نظمتُ أرجوزة ذكرتُ فيها غزواته. قال: وافتتح سبعين حصنًا من أعظم الحصون، ومدحه الشعراء^(١).

وقال عنه الصفدي: ولم يكن بعد عبد الرحمن الداخل أجزل منه - أي الناصر - في الحروب، وصحة الرأي، والإقدام على المخاطرة والمهول، حتى نال البغية... فرتب الجيوش ترتيباً لم يعهد مثله قبليه، وأكرم أهل العلم، واجتهد في تخثير القضاة، وكان مُبَخَّلاً لا يعطي ولا ينفق إلاً فيها رآه سداداً^(٢).

وها هو ذا يتوّيّ حلته في رمضان سنة (٩٦١ هـ = ٣٥٠ م) عن اثنين وسبعين عاماً، وقد وجدوا في خزانته ورقة كان قد كتبها بخط يده، عدّ فيها الأيام التي صفت له دون كدر؛ فقال: «في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا صفا لي ذلك اليوم». فعدّوها فوجدوها أربعة عشر يوماً فقط^(٣).

* * *

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٣٧/٢٥.

(٢) الصفدي: الواقي بالوفيات، ١٣٧/١٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٢٢/٢، والمقرى: نفح الطيب، ١/٣٧٩.

الفصل الرابع

الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر



الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٠٢-٩١٤هـ=٩٦٦-٥٣٦هـ) وعصر النهضة:

استخلف عبد الرحمن الناصر من بعده ابنه الحكم، الذي تولى من سنة (٩٦١هـ = ٩٧٦ م) إلى سنة (٩٦٦هـ = ٣٦٦ م)، وتلقب بالمستنصر بالله، وكان يوم تولى في نحو السابعة والأربعين من عمره^(١)، وكان أبوه يقرئه ويعتمد عليه في كثير من الأمور؛ فكان ذا خبرة بشئون الحكم والسياسة، وكان عبد الرحمن الناصر قد استطاع توسيع أركان الدولة، والقضاء على الفتنة، وهو ما يَسِّر للحكم المستنصر فيما بعد أن يصل بالأندلس في عهده إلى أعلى درجات الرقي الحضاري، وأن تحدث في عهده نهضة علمية وحضارية غير مسبوقة.

يقول عنه ابن الخطيب: «وكان جليله عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصير وأوان، تحرّد لذلك وتهتم به؛ فكان فيه حجة وقدوة وأصلاً يوقف عنده»^(٢). ويقول عما وصلت إليه الأندلس في عهده من الرقي والتحضر: «إليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية، والحسنات الراقية»^(٣).

وقد أنشأ الحكم بن عبد الرحمن المكتبة الأموية، تلك التي تُعدُّ أعظم مكتبات

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ١٩٤/٢.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٤١.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢.

العصور الوسطى على الإطلاق، وكانت تُنافس مكتبة قُرطُبَة ومكتبة بغداد، وقد دفع آلاف الدنانير لجلب أعظم الكتب إليها من كل مكان في العالم، وكان له عَمَال وظيفتهم الوحيدة هي جمع الكتب من مشارق الأرض وغاربها من بلاد المسلمين ومن غير بلاد المسلمين، فإذا جاءوا بكتاب في الفلك أو الطب أو الهندسة أو غيرها من أي بلد غير إسلامي ثُرِّجَ على الفور وصُمِّمَ إلى المكتبة الأموية، وقد وسَعَ الحكم بن عبد الرحمن الناصر في المكتبة كثيراً، وجعل لها أَرْوَقَةً عظيمةً حتى تستوعب كثرة الحضور من المسلمين.

وكان رحمه الله يشتري الكتب منها بالغ الناس في أسعارها، وقد أحضر في مكتبته هذه النسخة الأولى من كتاب الأغاني للأصفهاني^(١) (وهو كتاب في الأدب وأصفهان هذه الآن من مدن إيران، فأين إيران من إسبانيا الآن؛ فالرجل لم تكن تقف أمامه التخوم ولا الحدود !

وَكَثُرَ النَّسْخُ في عصره، حتى قال ابن خلدون: «وَجَمِيع بَدَارِهِ الْحَذَاقُ فِي صَنَاعَةِ النَّسْخِ، وَالْمَهْرَةُ فِي الضَّبْطِ، وَالْإِجَادَةُ فِي التَّجْلِيدِ، فَأَوْعَى مِنْ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَاجْتَمَعَ بِالْأَنْدَلُسِ خَزَائِنُ الْكُتُبِ لَمْ تَكُنْ لَأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعْدِهِ، إِلَّا مَا يُذَكَّرُ عَنِ النَّاصِرِ الْعَبَاسِيِّ ابْنِ الْمُسْتَضِيءِ»^(٢).

ومن مآثره أنه رَتَّبَ معلمين ومربيين يُعَلِّمُونَ أولاد الفقراء والضعفاء، وأنفق على أجورهم من بيت المال، وبلغت دور التعليم هذه سبعاً وعشرين؛ ثلاثة منها حول جامع قُرطُبَة، وباقيتها في ضواحي المدينة^(٣).

كما أنشأ رحمه الله جامعة قُرطُبَة ، التي كان مقرها في المسجد الجامع الكبير، وتدرس

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٦، والمقربي: نفح الطيب، ١/٣٨٦.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٤٠.

في حلقاتها مختلف العلوم، وكان يُدرّس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي، وي ملي أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم، وكان ابن القوطية يُدرّس النحو، وكان يُدرّس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر، وكان الطلبة يُعَدُون بالآلاف^(١).

ولهذا نقرأ في عصره عن أسماء كثير من العلماء؛ منهم:

أبو بكر الرَّبِيْدي (٣١٦-٩٢٨ هـ = ٩٨٩-٣٧٩ م):

نزيل قُرْطُبَة، ونسبته إلى زُبيد، وهي قبيلة كبيرة باليمن، كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبراً أهل زمانه بالإعراب والمعانى والنواذر إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدل على وفور علمه؛ من أشهرها: «مختصر كتاب العين»، وكتاب «طبقات النحويين والغوين بالشرق والأندلس» من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن شيخه أبي عبد الله النحوي الرَّبَاحِي، وكتاب «الأبنية في النحو» ليس لأحد مثله.

وقد اختاره الحَكَم لتأديب ولده وولي عهده هشام، فكان الذي علمه الحساب والعربية، وتولى قضاء إشبيلية وخطبة الشرطة، وكان كثير الشعر؛ فمن ذلك قوله في أبي مسلم بن فهر: [الطويل]

أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الْفَتَنَى بِجَنَانِهِ
وَمَقْوِلِهِ لَا بِالْمَرَاكِبِ وَاللِّبَسِ
وَلَيْسَ ثِيَابُ الْمُرْءِ تُغْنِي قُلَمَةً
إِذَا كَانَ مَقْصُورًا عَلَى قِصَرِ النَّفْسِ
وَلَيْسَ يُفِيدُ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْحِجَاجًا
أَبَا مُسْلِمٍ طُولُ الْقُعُودِ عَلَى الْكُرْسِيِّ^(٢)

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/٥٠٧. (وهذا وصف المستشرق الإسباني رينهارت دوزي).

(٢) انظر: ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٤/٣٧٢، ٣٧٣.

ابن القوطية:

وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم، وقد أوردنا اسمه الكامل لأن له حكاية طريفة، فجده الأخير عيسى بن مزاحم هو الذي تزوج من سارة القوطية حفيدة يليان الذي مهد لل المسلمين فتح الأندلس وساعد فيه.

لما مات يليان ترك ولدين هما إيفا وسيزبوت، ولم يلبث أن مات إيفا وقد أنجب ولدين سارة، لكن العم سيزبوت اغتصب نصيبيهم، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في دمشق، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها، وفي دمشق تزوجت سارة من عيسى بن مزاحم، وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق، ثم كان من نسل إبراهيم صاحبنا المؤرخ أبو بكر الذي عُرف - لهذا - بلقبه «ابن القوطية»^(١).

كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية، يروي الحديث والفقه والأخبار والنواذر، وكان من أكثر الناس رواية للأشعار، وإدراكاً للآثار، وكان مضطلاً على أخبار الأندلس، عارفاً بسير أمرائها وأحوال فقهائها وشعرائها، يُ ملي ذلك عن ظهر قلب، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه وتؤخذ عنه، وطال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة، وروى عنه الشيوخ والكهول؛ وكان قد لقي مشايخ عصره بالأندلس وأخذ عنهم، وأكثر من النقل من فوائدتهم، وصنف الكتب المفيدة في اللغة؛ منها: كتاب «تصاريف الأفعال»، وهو الذي فتح هذا الباب، وكتاب «المقصور والممدود»، جمع فيه ما لا يُحذّ ولا يُوصف، ولقد أعجز به مَنْ يأتي بعده، وفاق مَنْ تَقدَّمه، وكان الأديب الكبير العلامة اللغوي أبو علي القالي يُبالغ في تعظيمه، حتى قال له الحكم المستنصر: مَنْ أَنْبَلَ مَنْ رأَيْتَ بِيلَدَنَا هَذَا فِي الْلُّغَةِ؟ فقال

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٦١/١

القالي: محمد ابن القوطية.

وكان مع هذه الفضائل من العباد النساك، جيد الشعر، صحيح الألفاظ، واضح المعاني، حسن المطالع والمقاطع، حكى الأديب الشاعر يحيى بن هذيل التميمي أنه توجه يوماً إلى ضيعة له بسفح جبل قربطة، فصادف أبا بكر ابن القوطية في الطريق، قال: فلما رأني عرج على واستبشر بلقائي، فقلت له على البديبة مداعبًا له: [البسيط]

مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ وَمَنْ هُوَ الشَّمْسُ وَالدُّنْيَا لَهُ فَلَكُ

قال: فتبسم وأجاب بسرعة:

مِنْ مَنْزِلٍ يُعْجِبُ النَّسَاكَ خُلُوْثُهُ وَفِيهِ سَرْتُ عَلَى الْفُتَّاكِ إِنْ فَتَكُوا

قال: فما تمالكت أن قبلت يده؛ إذ كان شيخي، ومجده ودعوت له^(١)

علاقة الحكم المستنصر بالشمال الإفريقي :

مات عبد الرحمن الناصر لدين الله بعد خمسين سنة من الحكم، تمكّن فيها من توسيع حكم بني أمية، وإقرار قواعد حكمهم في الأندلس، بعد ما كانت تغيب شمسهم فيها، وينهار بنيان الإسلام في الأندلس كلها؛ بعد أن عصفت الفتنة بالبلاد، واستبدل كل زعيم بولايته، وتحالف من استطاع منهم مع نصارى الشمال المتربيين، فأنعم الله على هذه الأمة في ذلك الوقت بعد الرحمن الناصر، الذي استطاع بالجهاد والمثابرة والمجالدة إعادة البلاد إلى الوحدة، فعادت للأندلس قوتها التي تمكنت بها من التصدي لنصارى الشمال وإخضاعهم، كما تمكنت من إخضاع بلاد الشمال الإفريقي لسلطان عبد الرحمن الناصر.

(١) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٤/٣٦٨-٣٧٢.

غير أن عبد الرحمن الناصر لم يسع للسيطرة على بلاد الشمال الإفريقي سيطرة تامةً، ولم تكن تعني له بلاد الشمال الإفريقي أكثر من أنها البوابة الجنوبيّة للأندلس، ولم يُحَفِّزه إلى بسط سيطرته عليها إلا قيام الدولة العبيدية الخبيثة في هذه البلاد، ومعرفته بأنها لا بدّ أن تسعى للسيطرة على بلاد الأندلس، والقضاء على بنى أمية وعلى ملكهم فيها؛ ولذلك سارع إلى بلاد الشمال الإفريقي لتكون «منطقة حاجزة» في المقام الأول، ثم يستغلها بعد ذلك في إضعاف الدولة العبيدية كلما عَنَت الفرصة.

وكان حُكَّامُ الشَّمَالِ الْإِفْرِيقِيِّيِّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُثْلُ مُعَظَّمِ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ آنَّهُمْ؛ كُلُّ مَا يَهْمِمُهُمْ هُوَ أَنْ يَبْقَوْا حُكَّاماً، فَإِنْ أَسْتَطَاعُوا بَعْدَ ذَلِكَ تَوْسِيعَ مُلْكِهِمْ فَعَلُوا، كَمَا كَانَ تَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْعَصَبَيَّةُ لِعِرْقِهِمْ وَلِقَوْمِهِمْ، فَأَفْرَادُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ اسْتَغْلَالٌ صَفَاتِهِمْ هَذِهِ، فَاكْتَفَى مِنْهُمْ بِالْخُروجِ عَلَى سُلْطَانِ الْعَبَيْدِيِّينَ، وَالدُّخُولِ فِي طَاعَتِهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ جِيدًا، أَنَّهُمْ لَنْ يَدْخُلُوا فِي طَاعَتِهِ إِلَّا خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِ، وَاحْتِمَاءً بِهِ مِنْ بَطْشِ الْعَبَيْدِيِّينَ بِهِمْ، وَتَوْطِيدًا لِسُلْطَانِهِمْ فِي بَلَادِهِمْ، كَمَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُتَى أَسْتَطَاعُوا الْاسْتِقْلَالَ بَعِيدًا عَنِ الْاثْنَيْنِ فَعَلُوا؛ لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ سُلْطَانُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مُسْتَقْرِرًا فِي هَذِهِ الْبَلَادِ، وَكَانَ يَعْتَدِي فِي الْأَسَاسِ عَلَى هُؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي طَاعَتِهِ رَغْبًا أَوْ رَهْبًا.

وكان الحكم المستنصر على علم بكل هذا، ولم يكن يجهل منه شيئاً؛ ولذلك سعى لأن يُبْقِي على هذه التحالفات قوية مع هؤلاء الحكام، وبخاصة أن قوة الدولة العبيدية كانت في زيادة مستمرة في ذلك الوقت.

وفي سنة (٣٦٠هـ) استطاع حلفاء الحكم المستنصر في شمال إفريقيا الانتصار على زيري بن مناد الصنهاجي عامل العزل لدين الله العبيدي، واستطاعوا قتله وقطعوا رأسه ورءوس كبار رجاله، وذهبوا بها إلى الحكم المستنصر في قُرْطُبَة ففرح

بذلك فرحاً عظيماً، واحتفل بهم، وأجزل لهم العطاء^(١).

فעם العبيديون على الانتقام، وعلى أن يُعیدوا فرض سيطرتهم على هذه المناطق مجدداً، وجّرّدوا لذلك جيشاً قوياً سنة (٣٦١هـ)، كان على رأسه يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي الشهير بلقين، وهو ابن القائد الذي قتله أتباع الحكم المستنصر، فاجتمع أتباع الحكم المستنصر، وقامت حرب زيون^(٢) بين الفريقين، دارت فيها الدائرة على أتباع المستنصر، وكانت زناتة من أتباع المستنصر في شمال إفريقيا، فلما أيقن محمد بن الخير أمير قبيلة زناتة بالهزيمة، اتكأ على سيفه فذبح نفسه؛ آنفة من أن يقع أسيراً في يد عدوه، فكانت هزيمة شديدة لأتباع الحكم المستنصر، وانتصاراً ساحقاً بلقين، الذي لم يتوانَ بعد هذا عن قتل أبناء زناتة وتخريب بيوتهم، ومطاردتهم، وخضعت بلقين معظم المناطق التابعة للحكم المستنصر في شمال إفريقيا، وقد حاول دخول سبتة، ولكنه لم يستطع لشدة تخصيصها ومناعتها^(٣).

وهذا الموقف من محمد بن الخير أوضح دليلاً على ما كان يسيطر على هؤلاء القوم في ذلك الوقت من عصبية جاهلية لأقوامهم، وحبّ للمناصب والسلطان، ويؤكّد ذلك - أيضاً - هذا الانتقام الأعمى الذي قاده بلقين ضد قبيلة زناتة.

وكان حسن بن قنون الحسني أمير الأدارسة من استسلم بلقين، وتحول عن طاعة الحكم المستنصر إلى طاعة العبيديين، وأصبح يدعوا لهم على منابر طنجة بدلاً من الحكم، فلما علم الحكم بما حدث واستشعر اقتراب الخطر من الأندلس إلى درجة أن طنجة قد دخلت في طاعة العبيديين، بادر الحكم فأرسل جيشاً قوياً إلى سبتة؛ لتكون قاعدته التي يتجه منها للسيطرة على بلاد الشمال الإفريقي كاملة،

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٤٢.

(٢) حرب زيون تزيّن الناس؛ أي: تَصْدِيمُهُمْ وتدفعهم. ابن منظور: لسان العرب، مادة زين ١٣/١٩٤، والمujam الوسيط ١/٣٨٨.

(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٤٣.

وأوصى قائد الجيش بالجذب والاجتهد في محاربة ابن قنون، وأمره إن نصره الله تعالى
ألا يفعل مثل بلقين، بل يأخذ بالعفو والصفح، وإصلاح البلاد، واستصلاح
الرعاية، وأن يستعين في ذلك بمَنْ يدخل في طاعة بنى أمية، ودارت المعرك بين
جنود الأندلس، وجند حسن بن قنون، وهُزم حسن بن قنون، وفَرَّ هو ورجاله عن
طَنْجَة تاركين خلفهم أموالهم وأمتعتهم، ودخلت طَنْجَة في طاعة الحكم المستنصر،
وأعطها قادة الحكم المستنصر الأمان، وأرسلوا بالبشرى إلى قُرْطُبَة، ثم طارد
الجيشُ الأندلسي فلول ابن قنون فهزمه مَرَّةً أخرى، وأجهزه هو وَمَنْ معه من
رجاله إلى جبلِ حصين، فتبَعَهُ الجنود، ودارت بينهما معارك أخرى انهزم على أثراها،
وهرب تاركاً لأمتعته خلفه، ثم توالت فتوحات الأندلسيين في شمال إفريقيا.

ولكن حسن بن قنون لم ييأس، فأعاد تنظيم قواته، وقابل الجيش الأندلسي بعد
أشهر قليلة، ودارت بين الفريقين معركة شديدة في فحص مهران في ربيع الأول سنة
١٣٦٢هـ، قُتل في هذه المعركة قائد الجيش الأندلسي محمد بن قاسم، وهُزم الجيش
الأندلسي وُقتل منه حوالي خمسين فارس، وألف راجل، وعادت فلول الجيش
الأندلسي إلى سَبَّة، وأرسلت إلى الحكم المستنصر تطلب الغوث والمدد^(١).

وعلم حسن بن قنون أن الحكم المستنصر لن يتوانى عن إمداد مَنْ بقي من
الجيش الأندلسي، وتوجيهه إليه، وكان يعلم ما وصلت إليه الأندلس من القوة
والرخاء في هذا الوقت، وأنه لن يستطيع أن يثبت أمام الحكم المستنصر، فأراد أن
يستغلَّ هذا النصر الذي أحرزه بطلب الصلح وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن،
ولكن الحكم المستنصر لم ينخدع بهذا؛ وعلم أنه لا يُريد الصلح، وإنما يُريد استغلال
هزيمة الأندلسيين، لِيُرْتَب قواته ويعيد الكَرَّة من جديد بمجرد أن يشعر في نفسه
بالقدرة على ذلك، وأن حسن بن قنون هذا لو كان يُريد الصلح، لصالح من البداية،

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٤٥، ٢٤٦.

ولما قاوم الأندلسيين كل هذه المقاومة برغم الهزائم الشديدة التي جرت عليه، فكان ما أرسله المستنصر إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا في المغرب، ردًا على ما أبداه الحسن من رغبة في الإنابة والصلح: «وكيف يذهب الآن هذا المذهب، وهو في طغيانه مستمرٌ، وفي دينه مستبصر، ولكم في كل أيامه محاربٌ، هذا هو الضلال، والمحال عين المحال، وسبب الخبال، وقد رأى أمير المؤمنين تؤمن جميع الناس لديه غيره، وغير من أصرّ إصراره، وتمادى تمادي، إلى أن يحكم الله عليه، ويفتح فيه»^(١).

وبالفعل دخل في الطاعة؛ بسبب هذه السياسة الحكيمة سبعون رجلاً من كانوا مع حسن بن قنون من قبيلة مصمودة، ودخلوا إلى قُرطبة في أول جمادى الآخرة من العام نفسه (٣٦٢هـ)؛ ليعلنوا دخولهم في طاعة الحكم المستنصر.

أما حسن بن قنون فقد جهز له الحكم المستنصر جيشاً قوياً، وجعل على رأسه واحداً من أفضل قواده، وأكثرهم شجاعة وشهامة، وهو غالب بن عبد الرحمن، وأمده بالمال والجندي وأرسله في رمضان من العام نفسه إلى بر العدوة قائلاً له: «سر يا غالب ميسيرٌ مَنْ لَا إذن له في الرجوع إلَّا حيَا منصوراً أو ميتاً معذوراً»^(٢). فلما نما ذلك إلى علم حسن بن قنون، وكان في البصرة (إحدى مدن المغرب الآن) تركها، ولجأ بأهله وأمواله إلى قلعة حجر النسر المنيعة القرية من سبتة، ثم دار قتالٌ شديد بينه وبين الجيش الأندلسي بقيادة غالب بن عبد الرحمن، واستمرت المعارك أيامًا، واستهلك غالب رؤساء الأمازيغ (البربر) -المتضارعين لحسن والمدافعين عنه- بماله، فانشقوا عنه، وبقي حسن بن قنون على عناده، وتحصّن بالقلعة فضرب غالب حوله الحصار، وضيق عليه، حتى أشرف على الهلاك هو وأهله، فأرسل يطلب الأمان،

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٦٩/٢.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٢١٨/٦.

فأمهنه غالب وتسليم منه الحصن، وعميل غالب على تطهير المغرب من الخارجين عن طاعة الحكم المستنصر، وأرسل إليه الخليفة بالأموال؛ ليستميل بها قبائل الأمازيغ (البربر)، ودخل مَنْ بقي من حكام الشمال الإفريقي في طاعة الخليفة المستنصر لدين الله، واستقرَّ الأمر في بلاد الشمال الإفريقي للحكم المستنصر.

وفي سنة (٣٦٤هـ) عاد القائد غالب بن عبد الرحمن في موكب عظيم إلى الأندلس، ومعه حسن بن قنون وشيعته منبني إدريس الحسينيون، ودخلوا على الخليفة المستنصر فَوْقَ لهم بعدهم، وأجزل لهم الأعطيات والهدايا ليتألفهم، وكان قد أعدَّ لهم دُورًا في قرطبة، فأنزَلوا فيها، وعيَّن سبعيناتاً من حاشيتهم في ديوانه، مبالغة في الإحسان إليهم.

واستمرَّ الحسن وذووه في ذلك حوالي عامين، ولكن الحسن بن قنون هذا كان لجوجاً سبيلاً للخلق، وكانت نفقاتهم الكثيرة قد ثقلت على الخلافة، فضاق به الخليفة فأمر بترحيلهم إلى المشرق، وبالفعل رحلوا إلى مصر، واستقبلهم العزيز بالله العبيدي، وأحسن إليهم، ووعدهم بالعون والنصرة حتى يعود إليهم ملكهم في المغرب^(١).

المشهد الصليبي في عهد المستنصر:

١- مملكة ليون واستقلال قشتالة:

كان سانشو ملك ليون قد جآ مع جدته طوطة ملكة نافار إلى عبد الرحمن الناصر ليساعده على اعتلاء عرش ليون من جديد، بعدما عزله أشراف ليون عن الحكم، وولَّوا بدلاً منه ابن عمِه أردونيو الرديء -كما ذكرنا من قبل- وقد أحسن الناصر استقباهم، ووعدهم بالمساعدة، وأرسل طيبياً يهودياً إلى سانشو ليُعالجه من

(١) انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٤٤ / ٢، وتاريخ ابن خلدون، ٢١٩ / ٦

بدانته المفرطة، وكذلك أمدَّ سانشو بالمال والرجال؛ لِيساعدوه على أن يعود لعرشه، في مقابل تسليم بعض الحصون على حدودهم مع الأراضي الإسلامية، وأن يهدموها حصوناً أخرى، وبالفعل عاد سانشو إلى الحكم بمساعدة عبد الرحمن الناصر، وهرب أردونيو الرابع (الرديء) إلى برغش في قشتالة.

ثم توفي عبد الرحمن الناصر بعد ذلك بقليل، ونکث سانشو بوعده التي قطعها لعبد الرحمن الناصر، فلم يهدم الحصون التي اتفقا على هدمها، كما لم يُسلِّم المسلمين ما اتفق على تسليمه لهم من حصون أخرى، ولم يكن هذا ذكاء من سانشو؛ إذ إن أردونيو الرابع لم ينزل على قيد الحياة، وسيحاول هو الآخر أن يعود إلى العرش كما حاول سانشو، فلم يكن من الصواب أن يُعادي سانشو المسلمين، بأن يتذكر لعهوده معهم على هذا النحو.

وبالفعل استغلَّ أردونيو هذا التطور الجديد في علاقة ليون مع المسلمين، وذهب إلى الحكم المستنصر يستتجده، ويطلب التحالف معه؛ لِيساعده على أن يعود إلى عرشه، فأحسن الحكم استقباله، ووعده بالنصرة والمساعدة، فلما علم سانشو بما عزم عليه الخليفة الحكم المستنصر من مساعدة خصمه وعدوّه، أرسل إلى الخليفة المستنصر وفداً من أشراف ليون وأحبارها يعرض عليه أن يعترف بطاعته، وأن يقوم بتنفيذ ما تعهَّد به لعبد الرحمن الناصر من قبل، فيهدم الحصون التي كان يجب أن يهدمها وُيسلِّم المسلمين الحصون الأخرى.

ولكن أردونيو ما لبث أن توفي، فعاد سانشو ونکث بعهوده التي كان قد قطعها على نفسه، فعزم المستنصر على تأديه، وبدأ يستعدُّ لمواجهة ليون عسكرياً، فخاف النصارى من أثر ذلك عليهم، وقرَّروا أن يتحدوا لمواجهة المسلمين، وكان الكونت فرنان كونثالث قد أعلن قبل ذلك بقليل استقلاله بقشتالة عن ليون، وكانت العداوة قائمة بينه وبين سانشو ملك ليون، ولكن خوفهم من المسلمين أرغمهم على

أن يتَّحدوا معًا لمقاومة الضربة الإسلامية القادمة، وبالفعل تحالف سانشو مع فرنان كونثالث أمير قشتالة، ومع غرسية سانشيز ملك نافار، ومع كونت برشلونة، وتأهَّبوا جميعًا لصدّ الهجوم الإسلامي الوشيك.

وخرج الحكم على رأس صائفة عام (٩٦٣هـ = ١٥٢م) معلنًا الجهاد، فاجتاحت الجيوش الإسلامية أراضي قشتالة ومَرَّقت جيوشها شَرَّ عَزْق في موقعة شنت إشتبين، وأرغمت فرنان كونثالث، وسانشو على طلب الصلح، ثم اجتاحت الجيوش الإسلامية غربى مملكة نافار؛ عقابًا لملكها على نكثه بعهوده مع المسلمين وإغارتة على أراضيهم، ثم توالى غارات المسلمين على أراضي قشتالة ما بين سنتي ٩٦٣م و٩٦٧م.

وقد تسبيبت الصراعات الداخلية على الحكم في مملكة ليون، والصراعات الخارجية مع المسلمين وغيرهم في ضعف سلطان ليون في الداخل والخارج، فكثرت ثورات الزعماء والأشراف على سانشو، وكان من أشدّ هؤلاء الثوار من الأشراف الكونت جوندسالفو سانشيز حاكم جليقية، وكان قد استطاع أن يُوَطِّد استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة، وأن يسيط حكمه على ثلاث قواعد مهمة؛ هي: لاميجو وبازو وقلمرية، الواقعة فيما وراء دويرة شمالي البرتغال، فسار سانشو لقتاله، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته وجد الزعيم التائر قد أرسل إليه يعرض عليه التسليم والدخول في طاعته، ثم دعاه إلى لقائه، فقبل سانشو وذهب إليه، فغدر به حاكم جليقية بأن دعاه إلى مأدبة طعام، وقدَّم إليه فاكهة مسمومة، فأكل منها سانشو، وسرعان ما شعر بأثار السمّ تسري في جسده، فحمل في الحال إلى ليون، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ودُفن بها سنة (٩٦٦م).

وتولَّ من بعد سانشو ابنه رامiro الثالث، وكان طفلاً في الخامسة من عمره، فتوَّلت الوصاية عليه عمته الراهبة إليرة، ولكن ذلك لم يُرُق لمعظم أشراف ليون،

فأبوا الاعتراف بسلطانه، ونشبت نتيجة لذلك عدُّ من الثورات المحلية، وأعلن كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش، وكان مثُل فرنان كونثالث في الانفصال بقشتالة أقوى مشجع لهم على ذلك، وكانت أخطر الثورات هي ثورة جوندسالفو سانشيز قاتل سانشو؛ حيث استمرَّ على استقلاله بحكم ِجليقية، وحكم القواعد الثلاثة المهمة لاميجو وبازو وقلمرية، الواقعة فيما وراء نهر دويرة.

وفي خلال ذلك توفي الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة عام (٩٧٠م)، وخلفه على قشتالة ابنه غرسية فرناندز، كما توفي غرسية سانشيز ملك نافار، وخلفه ابنه سانشو غرسية الثاني.

وقد تسبيَّت هذه الأحداث والاضطرابات الداخلية في الملك النصري في أن تلتزم هذه الملك المهدوء تجاه المسلمين حيناً من الزمن دون أن تحاول الاعتداء عليهم؛ بل اتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علاقتهم بال المسلمين؛ فتوالت زيارتهم وسفاراتهم على الحكم المستنصر يطلبون منه الصلح والهادنة.

فوفد أمير ِجليقية، وأمير أستوريش، ثم وفدت رُسل غرسية ملك نافار، وهم جماعة من القوامس (الكونات) والأساقفة يسألون الصلح، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا، وأرسل أمير بِرْشُلونة كذلك بسفارة إلى الحكم في شعبان سنة ٩٣٦هـ=يونيو ٩٧١م؛ لتجديد الموَّدة والصدقة، وكان مع السفاراة ثلاثون أسيراً مسلماً كانوا محتجزين في بِرْشُلونة، كما وفدت الراهبة إلبيرا الوصية على ملك ليون تطلب السلم، فاستقبلها الحكم استقبلاً حافلاً، وأجابها إلى ما تطلب من السلم، كما وفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة، وفرنان لينيز أمير شلمنقة.. وغيرهم.

وكانت هذه السفارات في معظمها لطلب السلم والموَّدة مع الحكم المستنصر،

وأحياناً كانت لتقديم الطاعة وطلب العون.

٢- استقلال قشتالة:

كان عبد الرحمن الناصر قد تدخل لإعادة سانشو إلى العرش - كما ذكرنا - فاستغل فرنان كونثالث هذا الصراع على الحكم داخل مملكة ليون، وأعلن استقلاله بقشتالة عن مملكة ليون، وسعياً منه إلى توسيع أملاكه وتوطيد حكمه أخذ يغيّر على أراضي المسلمين من وقت لآخر؛ حيث كان نزوله إلى ميدان مقاومة المسلمين ومحاولة إضعافهم سبيلاً في ذلك الوقت - إلى تدعيم هيبيته في نفوس النصارى، واجتذاب عطفهم ومحبتهم، كما أنه بذلك يوطّد سلطانه في مواجهة ملك ليون، الذي لم يُعد إلى هذا المكان إلا بدعم من عبد الرحمن الناصر العدو اللدود للنصارى الإسبان.

ومنذ ذلك الوقت بدأت قشتالة تختل مكانتها في تاريخ الكفاح بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة، وتغدو - بالرغم من نشأتها المتواضعة - شيئاً فشيئاً أعظم المالك النصرانية رقة، وأوفرها قوة ومنعة، وأشدّها مراساً في محاربة المسلمين، وإنهاك قواهم.

٣- مملكة نافار:

كانت العلاقات قد اضطربت بين قشتالة وبين نافار في آخر حياة عبد الرحمن الناصر، ودارت رحى حرب شديدة بين الطرفين انتهت بهزيمة قشتالة، وأسر قائدتها الكونت فرنان كونثالث، فلما توفي عبد الرحمن الناصر، وتولى من بعده ابنه الحكم المستنصر، طالب ملك نافار بتسليم فرنان كونثالث، إلا أن ملك نافار رفض أمر الحكم، بل زاد فأطلق فرنان كونثالث من أسره.

ثم اتحد النصارى لمواجهة المسلمين عسكرياً، بعد ما رفض سانشو تنفيذ ما

تعهد به للMuslimين، ودخلت الجيوش الإسلامية غرب نافار وعاثت فيها - كما تقدّم - وظلّ غرسية سانشيز في الحكم حتى سنة (٩٧٠م)، واستمرّت أمّه الملكة طوطة محتفظة بإشرافها عليه، ومشاركتها الفعلية في الحكم حتى وفاتها سنة (٦٩٠م)^(١).

جهاد الحكم بن الناصر وتوسيعاته:

ظنّت الممالك الإسبانية النصرانية في الشمال أنّ وفاة عبد الرحمن الناصر ستؤثّر كثيراً على الأندلس، وأنّ الأندلس لن يكون بعد وفاة عبد الرحمن الناصر كما كان قبل وفاته، وربما ظنّوا أنّ هذه الثورات التي استطاع عبد الرحمن الناصر إخمادها في أول عهده، لن تلبّي أنّ تعود من جديد بعد موته؛ لذلك استهانوا بالحكم المستنصر، فهو في بداية عهده، وهو في أمس الحاجة لاستقرار أحوال بلاده في هذه الفترة؛ حتى يقوى ملكه، أو هكذا ظنّوا، فسارع سانشو - كما ذكرنا - إلى نقض العهد الذي كان بينه وبين عبد الرحمن الناصر، ثم عاد ونقض عهده مع المستنصر، في حين أبى نافار تسليم فرننان كونثالث زعيم قشتالة، الذي هاجم التغور الإسلامية أكثر من مرّة، فرأى الحكم أنه لا بدّ من تأديب نصارى الشمال؛ على كل ما فعلوا ويفعلون، وبالفعل أعدّ جيشاً قوياً وغزا به الممالك النصرانية في الشمال سنة (٥٣٥هـ)، وفتح حصوناً كثيرة، وقتل وغنم وسبى، ثم رجع ظافراً^(٢).

ثم عاد وجَّهَزَ جيشاً قوياً في العام التالي سنة (٥٣٥هـ) أربع النصارى، وحملهم - رغم ما بينهم من عداوات - على الاتّحاد لمواجهة القوات الإسلامية، ثم غزا الحكم بهذا الجيش الممالك الصليبية الثلاث في الشمال، ومزق به جيوشهم شرّاً مزق، واضطربهم إلى طلب الصلح والإذعان للمسلمين^(٣)، بل وتمسّكوا - على عادة

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥٩٤ / ٢، بتصريف.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٣٤ / ٢.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٣٦ / ٢، وتاريخ ابن خلدون، ١٤٤، ١٤٥ / ٤.

الأمم الضعيفة التي لا تملك الدفاع عن نفسها - بعلاقات السلام مع الحكم المستنصر، وظلّت وفودهم تأتي من عام إلى آخر تطلب تجديد الصلح مع الحكم المستنصر، أو تطلب منه التحالف معه في مقابل الدخول في طاعته^(١).

غزو الفايكنج لسواحل الأندلس:

استطاع الحكم المستنصر بهذه الهمة العالية أن يطا أرض نصارى الشمال، وأن يخضعهم، وأن يحملهم على اليأس من أن ينالوا منه شيئاً، وهذا ما اضطرهم إلى الحفاظ على حالة السلم بينهم وبين الحكم المستنصر، ولكن هذه الحالة من الرخاء والسلام لم تستمر طويلاً، بل لعل هذا الرخاء قد أغري أقواماً آخرين بالأندلس؛ فهجمت على السواحل الغربية للأندلس سنة (٣٥٥هـ) عصابات الفايكنج الذين هاجروا الأندلس من قبل في عهد عبد الرحمن الأوسط، واستطاع عبد الرحمن الأوسط رذدهم عن الأندلس مهزومين، وشرع في تحصين إشبيلية - كما ذكرنا من قبل - ولكن يبدو أن حالة الرخاء التي وصل إليها المجتمع في ذلك الوقت قد أنستهم هذه المزائيم القديمة، وأغرتهم بأن يعودوا الكرّة من جديد، فهاجموا السواحل الأندلسية الغربية بشبانية وعشرين مرکباً، وبداءوا يعيشون فيها فساداً؛ فخرج إليهم المسلمون ودارت بينهم معارك شديدة، قُتل فيها عدد من الطرفين، وأرسلت هذه المناطق رسائل إلى الحكم المستنصر في قرطبة، تخبره بها حدث وتطلب منه العون والتقدمة، فسارع بأمر الأسطول بالتحرك إلى نجد المسلمين، وبالفعل دارت بين الأسطول وبينهم معارك شديدة هزمهم المسلمون فيها، وحطموا عدداً من مراكبهم، واستطاعوا رذدهم عن السواحل الأندلسية خائبين خاسرين، بعدما حلّصوا مئوناً معهم من أسرى المسلمين، وظلّلت سفنهم - التي بقيت لهم بعد هذه المعركة - تحياق المياه الغربية للأندلس فترة، لم يجرؤوا فيها على مهاجمة الأندلس، ثم

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٥.

اختفوا بعد ذلك^(١).

وبعد ذلك شغل الحكم المستنصر بأمر الشمال الإفريقي، واحتضانه لسلطانه، وبين هذا وذاك كان الحكم مهتماً بنشر العلم والتعليم، وإقامة هذا الصرح الحضاري العظيم في الأندلس، حتى توفي سنة (٦٦٠ هـ) بعدما أخذ البيعة لابنه هشام، وهو لا يزال طفلاً.

* * *

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٣٩ / ٢، وتاريخ ابن خلدون: ٢٤٦ / ١.

الفصل الخامس

هشام المؤيد بن الحكم وبداية الدولة العاميرية

الحكم بن عبد الرحمن الناصر وكبوة الجواد:

بالرغم من أن الحكم المستنصر كان من أفضل حكام الأندلس إلا أنه في آخر عهده قد أخطأ خطأ جسيماً؛ فقد أُصيب في آخر أيامه بالفالج (بالشلل)، فقام باستخلاف أكبر أولاده هشام بن الحكم وعمره آنذاك أحد عشر عاماً فقط^(١)، استخلفه على بلاد الأندلس وفوقها بلاد النصارى في الشمال ومن تحتها الدولة العبيدية (الفااطمية) في الجنوب، وكل مالك أوربا متربيصة للكيد لهذه القوة العظيمة وهزيمتها.

وهي بلا شك زلة خطيرة من الحكم بن عبد الرحمن الناصر؛ إذ كان عليه أن يتقي منْ يستخلفه لهذه المهمة الجسيمة، ويُؤيّل رجلاً آخر من بني أمية؛ يستطيع أن يقوم بأعباء حكم دولة قوية، كثيرة الأعداء متعددة الأطراف، ومتراوحة الأبعاد كدولة الأندلس.

وقد توفي الحكم بن عبد الرحمن الناصر عليه السلام سنة (٩٧٦هـ=١٣٦٦م)، مستخلفاً على الحكم من بعده ابنه الطفل الصغير هشام بن الحكم، وكان في القصر حزيان قويان؛ هما: الفتىان الصقالبة من جهة، ومن الجهة الأخرى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ومعه قائد الشرطة القوي والناظر على شئون الخليفة ومتولي أمره محمد بن

(١) ذكر ابن عذاري في البيان المغرب ٢/٢٥٣ أنه بلغ إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، في حين ذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٤ أنه تولى وهو ابن عشر سنين، وقال المقرري في نفح الطيب ١/٣٩٦ أنه تولى وهو ابن تسع سنين.

أبي عامر، ومن وراء هذا الحزب أُم الخليفة صبح البشكنسية، التي كانت أقوى شخصية في هذا الحزب في تلك اللحظة، وهي بشكنسية الأصل (نافارية)، وكانت أحب نساء الحكم إليه وأحظاها عنده.

مؤامرة الفتىان الصقالبة:

كان من عادة أمراءبني أمية الاستكثار من الفتىان الصقالبة، ولاعتماد عليهم في أعمال القصر وأمورهم الخاصة، وقد سار عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر على هذا النهج، فزاد عدد الفتىان الصقالبة في عهدهم، ويبلغ عدد العاملين منهم في القصر فقط في نهاية عهد الحكم المستنصر أكثر من ألف فتى، فاتسع نفوذهم، وأصبحوا قوة لا يُستهان بها لكثرتهم، ولقربهم من الخليفة، ولاعتماد الخليفة عليهم في أعمال مهمة كحراسته شخصياً، وما إلى ذلك من أعمال تمرّسوا فيها بمرور الوقت دون غيرهم، حتى ظنوا أن الملك بأيديهم، وأن لا غالب لهم.

وكان كبير الفتىان الصقالبة الفتى فائق، ويليه في المرتبة والمكانة الفتى جؤذر، فلما مات الحكم المستنصر كتم هذان الفتىان خبر موته، وضيّطوا أمور القصر وسيّرُوها كأن لم يحدث شيء، وعقدوا العزم على صرف أمر الخلافة عن هشام بن الحكم لصغر سنّه، ولمعرفتهم أن الحاكم الفعلي سيكون حزب المصحفى وابن أبي عامر وصبح، فعزموا على نقل الخليفة إلى أخي الحكم المستنصر المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فيكون لها نتيجةً لذلك فضل على المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، ويَتَسَع نفوذهما ونفوذ أتباعهما.

جلس الفتىان فائق وجؤذر يضعان الخطة لتنفيذ فكرتهما، فأشار جؤذر بقتل الحاجب المصحفى، فبدلك يتم لهم الأمر، فلم يرض فائق بهذا، وأشار بأن يأتوا بالحاجب فيُخْبِرُوه بين الموافقة أو القتل، فأرسلوا إلى جعفر الحاجب، ونعوا إليه

الحكم المستنصر، وأخباره بما ينويان به من صرف الأمر إلى المغيرة أخي الحكم لصغر سن هشام، فأدرك الحاجب التهديد الكامن وراء الكلام، فأظهر الموافقة وقال: هذا والله! أَسَدُ رأي وأُوقِّف عمل؛ والأمر أمركم، وأنا وغيري فيه تبع لكم، فاعزما على ما أردمتما، واستعينا بمشورة المشيخة؛ فهي أنفي للخلاف، وأنا أسير إلى الباب (أي القصر)، فأضبطه بنفسي، وأنفذما أمركم إلى بما شئتم.

وبادر بالفعل إلى ضبط أبواب القصر لكي لا ينتشر الخبر، ثم سارع إلى طلب كبار رجال الدولة من العرب والبربر، وكان منهم محمد بن أبي عامر، كما أمر بإحضار أتباعه وشيعته، ونعي إليهم الخليفة، وأخبرهم بخطبة الفتى الصقالي في تحويل أمر الخلافة إلى المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلاً من هشام بن الحكم، ثم عرّفهم أضرار ذلك فقال: «إن حبسنا الدولة على هشام، أمينا على أنفسنا، وصارت الدنيا في أيدينا، وإن انتقلت إلى المغيرة استبدل بنا، وطلب شفاء أحقاده». فأشاروا عليه بقتل المغيرة بن عبد الرحمن، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التقدُّم لتنفيذ هذا الأمر.

فلما رأى ابن أبي عامر ذلك، سارع هو بتنفيذ هذه المهمة؛ حرصاً منه عليهم، واتبعاً لجعفر بن عثمان، فأعجبوا به، وزاد تقديرهم له، وقال له جعفر: أنت أحق بتولي كبره لخاصتك بال الخليفة هشام وملك من الدولة. ثم أرسل معه فرقة من الجنود فذهبوا من فورهم إلى دار المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فأحاطوا بالدار من جميع جوانبها، ودخل عليه بعض هؤلاء الجنود، ولم يكن قد علم بخبر وفاة أخيه، فنعا ابن أبي عامر إليه، وأخبره بأن الوزراء قد خشوا أن يخرج المغيرة على بيعة هشام، فأرسلوه إليه ليتحمنه، وليتأكد من صدق ولايته لابن أخيه، وبقائه على بيعته، فدُعِّر المغيرة ثم استرجع عليه، واستبشر بملك ابن أخيه، وقال: «أَعْلَمُهُمْ أَنِي سامع مطيع وافي بيعتي؛ فتوثّقوا مني كيف شئتم». وأقبل يستلطف ابن أبي عامر،

ويناشده الله في دمه، ويُسأله المراجعة في أمره، حتى رَقَّ له ابن أبي عامر، فأرسل إلى جعفر المصحفي يصف له أمر المغيرة، ويطمئنه بأنه سامع مطيع، وكان جعفر وأصحابه قد عزموا على التخلص من المغيرة أياً كان موقفه؛ مبالغة في تأمين الخلافة، فلما رأى جعفر رغبة ابن أبي عامر في ترك المغيرة حيًّا، أرسل إليه بلومه على التأخير، ويقول له: غررتنا من نفسك؛ فانفرد لشأنك أو فانصرف نرسل سواك.

فعلم ابن أبي عامر أن لا سبيل لنجاة المغيرة، واستفزَّت كلمات جعفر ابن أبي عامر، فأمر بالمغيرة فقتل خنقاً أمام حريمها، ثم عَلَقُوا جثمانه على هيئة المشنوق، ليقولوا مِنْ بَعْدُ: إنه قتل نفسه لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه لمبaitته. وكانت سنة يوم قُتل سبعاً وعشرين سنة^(١).

هل كان المغيرة طرفاً في مؤامرة الفتيان الصقالبة؟

حتى باعتبار أن الحكم المستنصر أخطأ حين عهد بولاية العهد لابنه الصغير، ففي عَرْفِ ذلك الزمان أن الولد قد تمت له بيعة شرعية، وأن الخروج على هذه البيعة هو خروج على الوالي الشرعي، ولقد كان المغيرة فتى بني أمية ومن المؤهلين لتولي الخلافة، ووردت عبارة لابن بسام في الذخيرة تُفيد بأنه كان يتأهّب للانقلاب على ابن أخيه، قال: «وكان فتى القوم كرمًا ورجلة، ومن أُشير نحوه بالأمر بأسباب باطنة، فأخذ له أهبيته»^(٢).

كما بدا في كلمة المصحفي: «وإن انتقلت إلى المغيرة استبدل بنا، وطلب شفاء أحقاده»، أن له عداوة سابقة مع المصحفين، وهم رجال دولة الحكم، فهذا دليل آخر على أن الرجل لم يكن بعيداً عن صراعات القصر وأطرافه.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢٩٥ / ٢ وما بعدها، بتصرف.

(٢) ابن سام: الذخيرة ٧ / ٥٨.

ونحن لا نتوقع أن يكون الفتيان الصقالبة من السذاجة بحيث إنهم يُدَبِّرون لصرف الأمر إلى المغيرة إلاً لو كانوا على سابق اتفاق معه، فليس من طبائع الأمور أنهم سيدبرون لهذا الأمر دون أن يتم تواصل مع الرجل الذي يُريدون تنصيبه خليفة؟

ولهذا، فنحن نميل إلى القول بأن المغيرة كان ينوي الانقلاب على ابن أخيه، إلاً أن المصحفي – وقد كان يملك أمر الدولة – كان أسرع إليه من خبر وفاة أخيه الحكم، فوصل إليه ابن أبي عامر وجماعته وهو آمن.

لا شك أن مصلحة المصحفي كانت في تصفية المغيرة وإغلاق هذا الملف كله؛ فيضمنون انتهاء مؤامرة الصقالبة، وانتهاء الرجل القوي الذي قد ينماز بعده في منصب الخلافة، ويقود الخروج على ابن أخيه، ولا شك أن المغيرة حين رأى ابن أبي عامر وجماعته أيقن بالهلاك، فحاول بكل ما أوطاقة استنقاذ نفسه، ولا شك – أيضاً – أن المصحفي حين بلغه رجاء ابن أبي عامر لا يقتل المغيرة لأنه أعلن الطاعة قدر في رأسه هذا المعنى، وأنه لو ترك المغيرة حيًا فإنه سيكون أشد نقاوة على المصحفي وجماعته بعد هذا الموقف؛ فلقد كانوا على وشك قتله، فرأى المصحفي أن يغلق هذا الباب كله، وأرسل إلى ابن أبي عامر الذي صدَع بالأمر وما كان له – في هذه اللحظة – أن يفعل إلاً هذا، ولو لم يرض به.

وتميل بعض التحليلات الأخرى إلى أن المغيرة لم يكن على علم بمؤامرة الصقالبة، ولا كان ينوي الخروج؛ إذ لم تبدُ من بادرة نحو هذا، وأن مقتله لم يكن إلاً نتيجة مؤامرات لم يكن هو طرفاً فيها، ولكن كانت مصلحة المصحفي في قتله ليصفو له الأمر.

عاد ابن أبي عامر إلى جعفر يُشَرِّه بتصفية المغيرة، ففرح بذلك، وقرب ابن أبي

عامر إليه، فلماً بلغ الأمر لفائق وجؤذر سقط في أيديهم، وأخذوا يتلاو مان، ثم أرسلوا إلى جعفر يعتذران إليه، ويقولان له: إنَّ الجزء أذهلنا عَمَّا أرشدك الله إليه، فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً، وعن دولتنا وعن المسلمين. وأظهر الله القبول والاستبشار، فأظهر الحاجب جعفر -أيضاً- لها قبول عذرهما، وعدم التشريب عليهما، غير أن العداوة قد استعلنت بين الطرفين: الصقالبة من جهة، وحزب هشام من جهة أخرى، فبقي الحاجب جعفر على حذر شديد من الصقالبة كلهم، ونشر بينهم العيون والجوايس، وظلَّ في انتظار الفرصة المناسبة لتمزيقهم وتشتيت جمعهم، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك.

بلغ المصحفي أن فائقاً وجؤذراً يتأمران مع بعض أتباعهما من الصقالبة في داخل القصر وخارجها؛ لتنحية هشام عن الملك، فشدد الحاجب الرقابة على الصقالبة، وأمر بسدِّ الباب المخصص لهم في القصر، وأن يكون دخولهم وخروجهم من بعدِّ من باب السدَّة مع باقي الناس، ثم تفاهم مع ابن أبي عامر على أن يُلحق بعضهم بحاشيته، فاستجاب له ابن أبي عامر، فانتقل خمساءة منهم إلى حاشية ابن أبي عامر، فعمل ابن أبي عامر على استرضائهم، وقويت بهم شوكته من بعدِّ.

فسعَوا للضغط على الحاجب جعفر، فأعلن الفتى جؤذر رغبته في الاستفداء من عمله، وكان يظنُّ أن له مكانة في القصر، وأنه لا يمكن الاستغناء عنه، إلاَّ أن استقالته قد قبلت بالفعل في رسالة واضحة لمَنْ بقي منهم، أنهم لا يُمثلون الأهمية الكبيرة التي يظلونها لأنفسهم، فزاد تدمُّرهم وسخطهم على الدولة، وكان أكثرهم جسارة في ذلك فتى اسمه دري، وكان جاهلاً متمراً، فحرَّك الحاجب جعفر المصحفي رجلَه القوي الذي أُنِّي ابن أبي عامر للتخلص منه، فأوعز ابن أبي عامر لمن تحت قيادة الفتى دري بأن يشتكونا جوره وظلمه لهم؛ لكي يخلُّصهم منه، فسارعوا إلى ذلك.

ورفع الحاجب جعفر أمر ذلك إلى هشام المؤيد، فأمر بجمع دري والمتظلمين منه والتحقيق معهم، فاستدعاهم ابن أبي عامر إلى دار الوزارة للتحقيق معهم، فلما أقبل دري على دار الوزارة، أحسَّ بالشرّ فهَمَ بالرجوع فاعتراضه ابن أبي عامر وقبض عليه، فأساء دري إليه وتشاجر معه، وجذبه من لحيته، فقضى عليه ثم حُجِّلَ إلى داره، وقتل في تلك الليلة، ثم عمد إلى باقي الفتى الصقالبة فأمرهم بمعادرة القصر إلى دورهم، وأن يلزموها ولا يخرجوا منها، فلما تَمَّ له ذلك، اشتَدَّ في مطاردتهم، وأخذ أموالهم؛ حتى لا يُفكِّروا في العودة إلى التآمر على الدولة، ونفي فائقاً إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار حالياً) فبقي بها حتى مات، وبذلك استأصلوا شوكة الفتى الصقالبة، وأُمِنوا مكرهم^(١).

محمد بن أبي عامر :

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، وكان جده عبد الملك المعافري من العرب الفاتحين الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد رض، فنزل بالجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، واستقرَّ بها، وكان والد المنصور (عبد الله بن عامر) من أهل الدين والعفاف والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان، وقد مات في مدينة طَرَابُلُس الغرب وهو عائد من أداء فريضة الحج، وأمه هي بُرْيَة بنت يحيى من قبيلة بني قيم العربية المعروفة.

نشأ محمد بن أبي عامر في هذا البيت نشأة حسنة، وظهرت عليه النجابة منذ نعومة أظافره، وقد سار على خطى أهله وسلَّك سبيل القضاء؛ فتعلَّم الحديث والأدب، ثم سافر إلى قُرْطُبَة ليكمل تعليمه، وكان ذا طموح كبير وهمة عالية وذكاء وقاد، وعمل كاتباً للقاضي محمد بن إسحاق بن السليم، الذي رأى من نبوغه ما

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٩٥ / ٢، وما بعدها بتصرف.

جعله يوصي به عند الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وكان من تصارييف القدر أن ولدت صبح البشكنسية -Jarirah الخليفة الحكم المستنصر- ولدتها الأول عبد الرحمن فطلب الحكم المستنصر وكيلًا لولده عبد الرحمن، يقوم على ولده ويرعايه، فرشح الحاجب المصحفي هذا الفتى النابه محمد بن أبي عامر لذلك، وأثنى عليه عند الحكم المستنصر، فولاه الحكم المستنصر وكالة ابنه عبد الرحمن بالفعل سنة (٣٥٦هـ).

وقد أُعجب الحكم المستنصر بأخلاق محمد بن أبي عامر، وذكائه ونباذه وحسن تصرّفه، كما بهره هذا النبوغ العلمي الذي يحوزه ذلك الشاب، ولقد كان الحكم -كما سبق- عالماً وخيّراً بالأنساب ومؤرخاً، فلا شكّ أن هذا كان من أهم أسباب تقريره لابن أبي عامر وحبّه إياه.

توفي عبد الرحمن طفلاً صغيراً، ثم لم يلبث أن ولدت صبح ولدتها الثاني هشاماً، فتولى وكالته -أيضاً- ابن أبي عامر سنة (٣٥٩هـ)، ولم يلبث أن تدرج في المناصب العليا، فعيّنَ أميناً لدار السكة، وكُلّفَ بالنظر على الخزانة العامة وخطبة المواريث، ثم أصبح قاضياً لِإِشْبِيلَة ولبلة، ثم عيّنه مديرًا للشرطة الوسطى، ثم ولاه الأمانات بالعدوة، فاستصلحها واستهال أهلها، ثم عيّنه الحكم قاضي القضاة في بلاد الشمال الإفريقي، وأمر عماله وقواده هناك ألا يقطعوا أمراً إلاً بمشورته، ثم عيّنه الحكم المستنصر ناظراً على الحشام وهو في مرض موته.

ومن المدهش في أمر محمد بن أبي عامر أنه لم يتولَّ عملاً إلاً وأداره ببراعة وكفاءة فاقت براعة سالفيه، رغم أنه دونهم في السنّ والخبرة، وأنه كانت تزيد عليه المناصب والتکاليف فيستطيع أن يجمع بينها مهما اختلفت وتکاثرت ویُبْدِي -بعد كل هذا- مهارة فائقة في الإدارة والتصرف، رغم أن الدولة كانت في عصرها الذهبي؛ أي أن الأعمال كانت في الغاية من التفنن والدقة، وتتطلب خبرة وإتقاناً.

وكان مما ساعد محمد بن أبي عامر على أن يصل إلى هذه المراتب العالية بهذه السرعة - بجانب هذه الموهاب النادرة - أنه استطاع استهلاك «صبع البشكنسية» أم هشام المؤيد، وجارية الحكم المستنصر، بحسن خدمته لها ولابنها، وسعة بذله في المدايا التي كان يهدّيها دائمًا إليها، فأتتها بأشياء لم يُعهد مثلها؛ حتى لقد صاغ قصراً من فضة وقت ولاليته السكة، وصرف فيه مالاً جسيماً، حتى جاء بدليعاً، لم تَرَ العيون أعجب منه ولا أحسن، ثم حُمل إليها من دار ابن أبي عامر؛ لِيُشاهده الناس جميعاً، في مشهد لم يُعهد ولم يُرُّ مثله من قبل.

على أن الحكم المستنصر لم يكن غائباً عن هذا كله، فیحکى أن الحكم المستنصر ظنَّ أن محمد بن أبي عامر يُتلف مال السكة (وزارة المالية) المؤمَّن عليه، فأمره الحكم بأن يُحضر المال الذي عنده ليراه بنفسه، ويتأكد من كماله، ويُقال: إن ابن أبي عامر كان قد استهلك بعضاً من هذه الأموال؛ ولذلك ذهب إلى الوزير ابن حمير ليُسلمه المال الناقص - وكان صديقاً له - فأسلفه ابن حمير المال الناقص، فعرف الحكم أنه قد أساء به الظنَّ، وزاد إعجابُ الحكم بأمانة ابن أبي عامر وحسن تدبيره، ورفع قدره عنده، وبمجرد أن تأكَّد الحكم من عدم نقصان المال، أعاد ابن أبي عامر إلى الوزير ابن حمير ماله، وهو مع هذا كله يُحسن معاملة الحاجب (رئيس الوزراء) جعفر بن عثمان المصحفي ويُداريه^(١)، ويطلب منه دائمًا النصح والمشورة^(٢).

محمد بن أبي عامر ونواة الدولة العاميرية :

بعد وفاة الحكم المستنصر، وبعد القضاء على مؤامرة الصقالبة، ثم على قوة الصقالبة ونفوذهم في القصر، صفا الحال لخوب هشام بن الحكم المؤيد بالله، وهذا

(١) داري: أبي لابنه ورفق به، وأحسن صحبيه واحتال له، لثلاً ينفر منه. ابن منظور: لسان العرب، مادة درى .٢٥٤ / ١٤

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٥٦، ٢ وما بعدها بتصريف.

الحزب -كما سبق وقلنا- متمثل في الحاجب المصحفي، وأم الخليفة الصغير صبح البشكنسية، وهي الشخصية القوية في القصر، التي كانت أحب نساء الحكم إليه وأحظاهن عنده. ثم محمد بن أبي عامر الشخصية القوية التي تتولى العديد من الأعمال، والتي يتكون عليها جعفر المصحفي في كل عمل مهم، وهو كذلك متصل بصبح باعتباره كان وكيلًا لولدتها هشام -الذي هو الخليفة الآن- ثم تولى النظر على شؤون الخاصة.

وتذكر المصادر التاريخية أن حبًّا عظيمًا نشأ بين صبح وبين محمد بن أبي عامر، وأن هذا الحب كان ذا سهم كبير -بجانب كفاءة ابن أبي عامر- في ترقيه في مناصب الدولة، ثم في الأمور التي ستأتي فيها بعد، والحق أن أمراً كهذا لا يمكن القطع به على سبيل اليقين، وإن لم يكن مستبعداً، فصبح شابة جارية كانت عند الخليفة الذي كان في مرحلة الكبر، بينما ابن أبي عامر شاب يشتعل ذكاء وحسناً، ومقدرة على تصريف الأمور، ثم هو يتقرّب إليها بين الحين والحين بالهدايا الفاخرة.

إلاً أن كل هذا لا يدفعنا للتيقن من وجود هذا الحب، فضلاً عن أن ندخل فيما حرم الله -كما فعل البعض- فتتوّقع ما وراء هذا مما يتجاوز الحلال إلى الحرام؛ ذلك أن كل ما حدث وما سيأتي يمكن أن يُفسَّر في إطار المصلحة المشتركة؛ ابن أبي عامر لا عصبة له ولا عائلة يتكون عليها، فلا بدّ له من وجود هشام في منصب الخليفة؛ ليبقى هو في مكانته من الدولة، وصبح جارية بشكنسية فلو لم يكن ولدتها في منصب الخليفة لما كان لها شأن يُذْكَر، إلى جانب ما رُكِّب في الأُمّ من غريزة حب الولد، التي تجعلها تجاهد ما استطاعت ليكون ولدتها هو الخليفة سيد البلاد.

ففي هذه اللحظة من تاريخ الأندلس كان في المشهد ثلاث شخصيات قوية: المصحفي الذي يتكون على عصبيته «المصففين»، وابن أبي عامر يتكون على صبح والخليفة ومواهبه الفائقة، وصبح التي تتكون على ولدتها الخليفة وعلى ولاء محمد بن

أبي عامر. ثم تُضيف إلى هؤلاء شخصية قوية رابعة ألا وهي شخصية فارس الأندلس الكبير وصاحب التاريخ الجهادي الزاهر غالب الناصري.

وكان غالب الناصري لا يحب المصحفي، ولا يراه أهلاً لأن يكون شيخَ الموالي دونه؛ ذلك أن المصحفي ليس له سابقة جهاد ولا تاريخ، كما أنه معروف بالبخل، ولم يَرَفَعْ في مناصب الدولة إلا لأنَّه كان - قدِيمًا - مُعلِّمًا وُمربِّيًّا للخليفة الحكيم لما كان ولِيَ العهد، فلِمَا تولَّ الحكم الخلافة عَهِدَ إليه بمنصب الحجابة.

ثم وقع بالأندلس حادث خطير؛ إذ ما أن علم نصارى الشمال بوفاة الحكيم المستنصر، وجدوا الفرصة سانحة لنقض كلَّ ما كان بينهم وبينه من عهود ومواثيق، وشرعوا يُهاجمون الشغور الإسلامية هجمات عنيفة، بغضِّ الشَّأنَّ من المسلمين وإضعافهم؛ فلا يجدون فرصة لاستجماع قواهم من جديد، ولا يجد حاكمهم الجديد - أيضًا - الفرصة لتوطيد مُلكه؛ فيستطيع من بعدُ أن يُوجِّه لهم الضربات العنيفة التي اعتادوها في عهد الحكام الأقوباء؛ ومن هنا فقد اشتَدَّت هجمات نصارى الشمال على الشغور الإسلامية، بل وتنخَّطُوها حتى كادت حملاتهم تصل إلى قُرْطُبة عاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس.

وكأنَّ ضعف الخليفة الصغير قد انسحب على رجال الدولة جميعًا، فلم يُقدم أحد على كفاح النصارى وردهم، ولا يجدون أحدًا يتقدَّم لهم؛ فغالب الناصري في مدينة سالم - وهي إحدى الشغور - يقول بأنه لا يستطيع ترك المدينة؛ وإنَّه هُوَ هوجمت. وبعض التحليلات تقول بأنه لم يشأ الخروج للاقتال العدو ليُحرِّج المصحفي، ويُثبت قدره ومكانته في الدولة.

والمصحفي متعدد خائط الرأي، ليس له عزيمة، ولا يدرِّي ماذا يفعل، وهو يجبن عن الخروج للاقتال العدو، بل بلغ به الأمر - بالرغم من قوة الجيش الذي تركه

الحكم المستنصر، ووفرة المال والسلاح والعتاد - أن أمر أهل قلعة رياح بقطع سد نهرهم؛ ظنًا منه أن هذا قد يُنجيهم من ضربات النصارى المتلاحقة.

وهكذا بدت هذه الدولة القوية وكأنها ستعمي وتسقط جراء خلافات رجالها، وصغر سن خليفتها، وضعف وتردد حاجبها ومتولّ إدارتها.

وهنا.. نهض للأمر محمد بن أبي عامر، الذي أَنْفَقَ من تصرف المُصْحَّفي، ووَجَدَ فيها إعلانًا بالضعف والصغار، وكان البلد قد خلت من الرجال، فلا يجدون رجالاً يقود الجيوش القوية الموجودة بالفعل، فيلجئون إلى هذه الخطة الدفاعية الذليلة التي تضرُّ، وقد لا تنفع، فعرض محمد بن أبي عامر على الحاجب جعفر المُصْحَّفي أن يقوم بتجهيز الجيش للجهاد في سبيل الله، ولكن لم يجد المُصْحَّفي رجالاً يقود الجيش، فلقد جبنوا، فضلًا عن استحالة أن يقوم هو بنفسه بقيادة الجيش؛ فليست له خبرة بالجهاد من قبل، فبادر لهذه القيادة ابن أبي عامر، وقام باختيار مَنْ يخرج معه من الرجال، واحتاج في تجهيزه للجيش لمائة ألف دينار، فاستكثر ذلك بعض الحاضرين، فقال له محمد بن أبي عامر: «خُذْ صُغْفَهَا، وامض! ولیحسنْ غَنَاؤک». فبُهتَ المُعْتَرِضُ وسكت.

بروز نجم محمد بن أبي عامر:

استعدَّ ابن أبي عامر لهذه الغزوة أفضل استعداد، وقاد الجندي، وأخذ معه المال، وسار في رجب سنة (٣٦٦هـ) إلى الشهاب، وهرب من أمامه جيش النصارى، ثم استطاع الاستيلاء على حصن الخامدة وربضه، وعاد إلى قُرُطبة بعد اثنين وخمسين يومًا من خروجه إلى الغزو محلاً بالسيسي والغنائم، ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً، وزاد حُبُّهم وتقديرهم له؛ إذ استطاع بشجاعته وإقدامه رفع الذلة والعار عنهم، وكذلك أحبه الجنود الذين كانوا معه؛ لما رأوا من كثرة جوده، وكرم عشرته، وشجاعته في الحرب، فأحبوه والتَّفَوُّوا حوله، وزاد هو إحساناً إليهم.

وهكذا انتهت الغزوة الأولى لصالح المسلمين عامرة، ولصالح ابن أبي عامر خاصة، ولم تفتر همة ابن أبي عامر بعد هذه الغزوة؛ بل سارع بهمة عالية إلى استغلال آثارها على كافة المستويات، وكانت هجمات النصارى التي تتابعت على الأندلس عقب موت الحكم، وسكوت غالب عن مواجهتها قد أضعفت مركز غالب بن عبد الرحمن وقللت من شأنه.

وعرف ابن أبي عامر ما في نفس غالب من العداوة للمصحيحي، وبأنه يرى نفسه فوقه، ويُغضبه أن يكون المصحيحي في الحجابة وفي مراتب الدولة، وهو الذي بلا تاريخ ولا سابقة، فسعى ابن أبي عامر للدفاع عن غالب عند الخليفة الصغير وأمه، فرفع بذلك قدره، وأعطي لقب ذي الوزارتين، وأصبح هو وابن أبي عامر المسؤولين عن الإعداد للصوائف؛ فهو المسؤول عن جيش الشرف، وابن أبي عامر المسؤول عن جيش الحضرة (أي الجيش المكلف بالدفاع عن قُرطُبة)، وفي عيد الفطر من العام نفسه (٣٦٦هـ) اتجه ابن أبي عامر بالجيش إلى الشمال، واجتمع ابن أبي عامر بغالب بن عبد الرحمن في مدينة مجريط (مدريد الآن)، واتجها بالجيش إلى قشتالة، وفتحا حصن مولدة، وغنموا وسبوا كثيراً، وكان غالب ورجاله قد أبلوا أحسن البلاء، حتى كانوا سبياً في هذا الفتح.

وكان غالب قد أحب ابن أبي عامر لما رأه من مواهبه، أو لما رأى من سعيه للدفاع عنه ورفع قدره عند الخليفة وأمه، ودوره في أن يُلقب بذي الوزارتين، أو لما كان من العداوة بينه وبين المصحيحي؛ فمن كُمَّ رأى أن ابن أبي عامر أحق بالحجابة من المصحيحي.

إِيَّا مَا كَانَ الْأَمْرُ، لِسَبِّبَ مَا سَبَقَ أَوْ لِكُلِّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ مَعًا، فَلَقِدْ تَوَطَّدَتِ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ غَالِبَ النَّاصِريِّ وَمُحَمَّدَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ، إِلَى الْحَدَّ الَّذِي تَنَازَلَ فِيهِ غَالِبٌ عَمَّا أَبْلَاهُ وَجَنَوْدَهُ فِي الْفَتْحِ، فَنُسَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى إِبْنِ أَبِي عَامِرٍ، فَأَرْسَلَ الرَّسَائِلَ إِلَى قُرْطُبَةَ تُشَيِّدُ

بما كان منه ومن بطولته وجهاده، وعظم الفتح الذي تمَّ على يديه، ثم اتفقا على عزل المصحفي، ذلك الحاجب الضعيف المتردد الرأي، وقال غالب لمحمد بن أبي عامر: «سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذُكر جليل، يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة، فإنما أنت تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه!»؛ لأن ابن جعفر المصحفي كان متولياً لقرطبة العاصمة، وعزل هذا الوالي أول طريق عزل المصحفي عن الحجابة.

عاد ابن أبي عامر إلى قرطبة ومعه الغنائم والسيبي، فاستهال بهذا الفتح الكبير العامة والخاصة، وعرفوا فيه حُسن النقيبة، وبعد الهمة، فما كاد يصل ابن أبي عامر إلى قرطبة حتى أمر الخليفة في اليوم نفسه بعزل محمد بن جعفر المصحفي عن مدينة قرطبة، وتولية ابن أبي عامر المدينة، فأظهر ابن أبي عامر في حُكم المدينة كفاءة منقطعة النظير؛ حتى إن ابن عذاري المراكشي يصف ما قام به بالنسبة إلى فعل ابن المصحفي فيقول: «فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة (أي قرطبة) من سلف من أفراد الكُفَّة^(١) وأولي السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويُكابدون من رواعات طُرَاقة ما لا يُكابد أهل التغور من العدو». فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفایته، وتنزَّهه عما كان يُنسب لابن جعفر؛ فسدَّ باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والزعارات^(٢)، حتى ارتفع البأس، وأمنَ الناس، وأمنت عادية المتجرّمين من حاشية السلطان؛ حتى لقد عثر على ابن عم له يعرف بعسقلانة؛ فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلدًا مبرحًا كان فيه حمامه^(٣)؟ فانقمع الشرُّ في أيامه جملة^(٤).

(١) الكُفَّة: الخدم الذين يقومون بالخدمة؛ جمع كافٍ. ابن منظور: لسان العرب، مادة كفى ١٥ / ٢٢٦.

(٢) الزعارات: جمع زعارة؛ وهي الشراسة وسوء الخلق. ابن منظور: لسان العرب، مادة زعير ٤ / ٣٢٣.

(٣) أي مات من الجلد، وكان قد جلده في حد شرب الخمر.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ٢٦٦.

ولما رأى الحاجب جعفر المصحفي ما آآل إليه أمر ابن أبي عامر من القوة، وما بدا من تضييع قوته وانحسار نفوذه، بادر إلى استهالة غالب، فخطب ابنة غالب لابنه، وما أن علم ابن أبي عامر بالأمر، حتى أرسل إلى غالب يُناشده العهد، ويخطب ابنة غالب لنفسه، وسانده في ذلك أهل دار الخلافة، فخرج طلب خطبة أسماء إلى ابن أبي عامر من قصر الخلافة في الزهراء، وبهذا كان الميزان كله في صالح ابن أبي عامر، فوافق غالب على تزويج ابنته أسماء له، وتم عقد القران بالفعل في المحرم سنة (٣٦٧هـ)، وعندها أيقن المصحفي بالنكبة، وكفَّ عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء، وانقضَّ الناس عن المصحفي، وأقبلوا على ابن أبي عامر إلى أن صار المصحفي يغدو إلى قصر قُرطبة ويروح وهو وحده وليس بيده من الحجابة سوى اسمها.

وبعد أن تم عقد قران ابن أبي عامر على أسماء ابنة غالب، خرج ابن أبي عامر في غزوته الثالثة، فخرج إلى طليطلة في غرة صفر ٣٦٧هـ، واجتمع مع صهره غالب، ونهضا معًا إلى الشمال النصري، فافتتحا حصن المال، وحصن زنبق، ودخلوا مدينة شلمونة، واستولوا على أرباضها، ثم عاد ابن أبي عامر بالغنائم والسيبي، وبعدد كبير من رءوس النصارى، بعد أربعة وثلاثين يومًا من خروجه، فزادت حفاوة الخليفة به، وقلده خُطَّة الوزارتين للتسوية بينه وبين صهره، ورفع راتبه إلى ثمانين دينارًا في الشهر، وهو راتب الحجابة في ذلك الوقت، ثم رُفت أسماء بنت غالب إلى محمد بن أبي عامر في ليلة النيروز من قصر الخليفة في عرس لا مثيل له في الأندلس، ثم قللَّه الخليفة خُطَّةً الحجابة إلى جانب جعفر المصحفي، ثم تغير الخليفة على جعفر وسخط عليه، وأمر بعزله هو وأولاده وأقاربه عن أعمالهم في الدولة، والقبض عليهم، فسارع محمد بن أبي عامر إلى محاسبتهم حتى استتصفى كل أموالهم، ومزقَّهم كل مزق، وأيقن جعفر المصحفي بأنه هالك لا محالة، فحاول استرضاء ابن أبي عامر إلاً

أن ذلك لم يُجِد شيئاً، حتى توفي سنة (٣٧٢هـ) في سجنه، وقيل: قُتل. وقيل: دست إليه شربة فيها سم^(١).

ويُعلق ابن حيان على ما آل إليه أمر جعفر المصحفي فيقول: «وكانَتْ لِللهِ عِنْدَ جعفر فِي إِيَّاهُ هَشَاماً بِخَلَافَتِهِ، وَاتِّبَاعِ شَهَوَةِ نَفْسِهِ وَحَظَّ دُنْيَاهُ، وَتَسْرُّعَهُ إِلَى قَتْلِ الْمُغَيْرَةِ لِأَوْلَى وَهَلَةٍ، دُونَ قَصَاصٍ جَرِيرَةٍ اسْتَدْرَكَتْهُ دُونَ إِمْلَاءٍ، فَسُلْطَنُ عَلَيْهِ مَنْ كَانَ قَدْرَ أَنْ يَتَسْلُطَ عَلَى النَّاسِ بِاسْمِهِ»^(٢).

الدولة العاميرية (٣٦٦-٩٧٦هـ = ١٠٠٩-١٠٠٩م) :

استقرَّ الأُمرُ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ؛ فَلَقَدْ أَضْحَى الْحاكمُ الْفَعْلِيُّ لِبَلَادِ الْأَنْدَلُسِ؛ فَهُوَ الْحَاجِبُ الْقَوِيُّ، الَّذِي يَسُوسُ الْبَلَادَ وَالْعِبَادَ، وَيَغْزُو صِيفًا وَشَتَاءً فَيَنْتَصِرُ فِي كُلِّ مَعَارِكِهِ مَعَ النَّصَارَى، بَيْنَمَا الْخَلِيفَةُ الَّذِي كَانَ صَغِيرًا يَكْبُرُ عَلَى مَهْلٍ، وَلَا يَدْرِي مَنْ حَالَ مَلْكَتِهِ شَيْئًا.

وَقَبضَ الْحَاجِبُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى أَزِمَّةِ السُّلْطَانِ فِي الدُّولَةِ، وَصَارَ إِلَيْهِ الْأُمْرُ وَالنَّهِيُّ وَالتَّوْلِيَّ وَالْعَزْلِ، وَإِخْرَاجِ الْجَيُوشِ لِلْجَهَادِ، وَتَوْقِيعِ الْمَصَالِحِ وَالْمَعَاهِدَاتِ، حَتَّى عُرِفَ ذَلِكُ العَهْدُ بِعِهْدِ الدُّولَةِ الْعَامِيرِيَّةِ.

وَالدُّولَةُ الْعَامِيرِيَّةُ هِيَ ذُرْوَةُ تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ، وَأَقْوَى فَرَاتَهَا عَلَى الإِطْلَاقِ، فَفِيهِ بَلَغَتِ الدُّولَةِ إِسْلَامِيَّةُ الْغَايَةِ فِي الْقُوَّةِ، فِيهَا بَلَغَتِ الْمَهَالِكُ النَّصَارَائِيَّةُ أَمَامَهَا الْغَايَةُ مِنَ الْبُطْشَفِ، وَقَدْ بَدَأَتْ فَتْرَةُ هَذِهِ الدُّولَةِ فَعْلِيًّا مِنْذَ سَنَةِ (٩٧٦هـ = ٣٦٦م)، مِنْذَ أَنْ تَوَلَّ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ أُمْرَ الْوَصَايَاةِ عَلَى هَشَامَ بْنَ الْحَكْمَ، وَظَلَّتْ حَتَّى سَنَةِ (٩٩٣هـ = ١٠٠٩م)؛ أَيْ: أَنَّهَا اسْتَمَرَّتْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً مَتَّصِلَةً، وَتُعَدُّ الدُّولَةُ الْعَامِيرِيَّةُ مَنْدَرِجَةً

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٦٤، بتصرف.

(٢) انظر: ابن بسام: الذخيرة ٧/٦٥.



في فترة الخلافة الأموية؛ لأن الخليفة ما زال قائماً، وإن كان مجرد صورة.

محطات في الدولة العاميرية:

من الأهمية بمكان -ونحن نناقش فترة محمد بن أبي عامر- أن نتذكرة أنه بلا عصبة، أي ليست وراءه عائلة يتقوى بها، وتعصب له على نحو ما كان مهيأً للعائلات الكبيرة؛ كبني أمية وبني العباس في المشرق، وغيرهم من العائلات الأقل، ولنتذكرة أن عامل «العصبية» هذا هو الذي كان يحكم كل العالم إلى ما قبل أن تنشأ الجمهوريات الحديثة، فكان لا بدًّ للملك أو الحاكم أن تكون له عصبة ترفعه وتحمييه ويتكىء عليها.

وحين دخل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس استفاد من تناحر العصبيات العربية الكائنة فيها، فحاول التحالف مع القيسية، ثم تحالف مع اليمنية وبهم انتصر، ولقد كان الداخل بعيد النظر حين علم أنه إن أراد إقامة دولة للإسلام فلا بدًّ له من أن يقضي على العصبيات، وأن يتخذ لنفسه رجالاً لا عصبية لهم، فأكثر جمِلَة من اتخاذ الموالى، الذين صار لهم الشأن الأكبر في عهد الإمارة الأموية، بينما تراجعت رجاليات العرب، وابتعدت عنهم المناصب، وصاروا في الدولة في مكانة شريفية؛ يحضرن المجالس ويُقدَّمون في المناسبات، وما إلى ذلك.

وكذلك -أيضاً- فعل عبد الرحمن الناصر؛ فلقد أكثر من الاعتماد على البربر الذين عبروا إلى الأندلس من عدوة المغرب، ونستطيع أن نقول بأن نجاح الدولة الأندلسية كان من أهم أسبابه اختفاء العرب ذوي العصبيات من مناصب الحكم.

وكذلك فعل ابن أبي عامر؛ فلقد كان البربر عدته ورجاله، ولقد استكثروا منهم، وضمهم إليه واستقوى بهم، وكان ابن أبي عامر قد تولى قضاء عدوة المغرب في أيام الحكم المستنصر، وساهم بذكائه وحسن سياساته في جعل أهم قبائل البربر المغربية -

وهم بني بزال، وزعيمهم جعفر بن حمدون - يتخلّون عن تحالفهم مع العبيدين (الفاطميين)، وينحازون بالولاء إلى قُرطبة عاصمة الأمويين، وكان من نتائج هذا أن فقد العبيدين (الفاطميين) المغرب الذي خلص من بعد للأمويين^(١).

فالأآن نحن أمام رجل ذكي موهوب، حسن السياسة، يتولّ حكم الأندلس فعليّاً باسم الخليفة الغلام هشام المؤيد بالله، وصحيحة أن الأندلس قد خلت من الرجال الأقوياء، الذين يبلغون منافسته في الحكم - اللهم إلا فارس الأندلس العظيم غالباً الناصري، وهو صهره الآن وعلاقتها طيبة وبينهما تحالف - إلا أن هذه السياسة تجعله في خطر من بني أمية، الذين يرون الملك باسمهم، ولكن فعليّاً ليس بأيديهم، وكذلك المصفّفين الذين نكبووا وزالت سلطتهم بزوال الحاجب جعفر المصيحي.

وبعد قليل سيظهر في الأفق خصم شديد الخطير عظيم الذكاء، إنها صبح، أمُ الخليفة هشام، والتي ستري أن الخلافة تخرج من بين يدي ولدها، وأن ابن أبي عامر يُسيطر بنفسه على الأمور.

في ظلّ هذه الظروف، نفهم هذه المحطات التي حدثت بالدولة العاميرية؛ وهي:

١. إنشاء مدينة الزاهرة:

كما أنشأ عبد الرحمن الناصر رحمه الله مدينة الزهراء في الشمال الغربي من مدينة قُرطبة؛ لتكون مركزاً لخلافته، قام محمد بن أبي عامر بإنشاء مدينة ملوكيّة جديدة في شرق قُرطبة سمّاها مدينة الزاهرة أو مدينة العاميرية، بدأ في بنائها عام (٣٦٨هـ)، وانتقل إليها بعد اكتمال بنائها في (٣٧٠هـ)، نقل إليها الوزارات ودواعين الحكم، وأنشأ له قصرًا كبيراً هناك، حتى أصبحت مدينة الزاهرة أو مدينة العاميرية هي

(١) انظر: ابن عذاري: اليان المغرب، ٢/٢٧٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٧.

المدينة الأساسية في الأندلس وبها قصر الحكم^(١).

وكان إنشاء هذه المدينة يتحقق هدفين مهمين؛ الأول: هو الابتعاد عن مناطق الخطر والمؤامرات حيث مواطن الأمويين، وحيث قصر الخليفة وأمه، ومن غير المأمون أن تُدبر عليه مؤامرة بيد الأمويين أو مواليهم أو بعض فتیان القصر. والثاني: هو ترسيخ وثبيت شأنه في الدولة، وخطوة على طريق الانفراد بشئون الدولة وإدارتها.

٢. قodium جعفر بن حمدون:

استدعى ابن أبي عامر (في عام ٣٧٠ هـ) فارس المغرب وزعيمبني بربزال جعفر بن حمدون، وقد ذكرنا أنه قد كانت بينهما صلة قديمة منذ كان ابن أبي عامر قاضياً في المغرب، فنزل جعفر إلى الأندلس وقربه ابن أبي عامر ورفع من قدره، ولا شك أن في هذه الخطوة تقوية لمركز وقوة ابن أبي عامر، فجعفر فارس كبير وشخصية قوية، ثم هو زعيم البربر الذين سيزداد ولاؤهم لابن أبي عامر بنزول زعيم منهم في كنفه، وأن يصير من رجال الدولة وفرسانها.

إلا أن هذا النزول وهذه النتائج لم تكن بالتي تغيب عن ذهن فارس الأندلس غالب الناصري، والذي رأى في وجود جعفر مناسبة له، بل وربما تحدياً، يثبت أن الدولة تستطيع الاستغناء عنه بغيره، وأنه لم يُعد الوحيد المختص بجهاد العدو، ولم يُعد الداعمة التي يُستند إليها في مهام الحرب الجليلة.

ولا شك أن ابن أبي عامر استفاد من درس الماضي القريب؛ حين كان المصيحي في الحجابة، وثار العدو ب بغور الأندلس فلم ينهض إليهم غالب لإحراب المصيحي والإثبات مكانته من الدولة، فأحب أن يتजنب تكرار هذه الأزمة، وتورد بعض الروايات أن غالباً كان بالفعل «يستطيل على ابن أبي عامر بأسباب الفروسية، ويُبَاينه

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٧٥، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٨، والمقرى: نفح الطيب، ١/٥٧٨.

بمعانٍ الشجاعة، ويعلوه من هذه الجهة التي لم يتقَدَّم لابن أبي عامر بها معرفة^(١).

ومن ثُمَّ ساء الجوُّ بين غالب وابن أبي عامر.. ووقع حادث خطير:

٣. تمرد غالب الناصري:

خرج المنصور إلى غزوة من غزواته في الصوائف إلى قشتالة، فدعاه غالب الناصري إلى وليمة أقامها بمدينة «أنتيسة» وعزم عليه في حضورها، ولما ذهب ابن أبي عامر جرى بينهما نقاش واحتدَّ حتى «سبَّهُ غالب وقال له: يا كلب؛ أنت الذي أفسدت الدولة، وخربت القلاع، وتحكمت في الدولة. وسل سيفه فضربه»^(٢). ولو لا أن أحد الحاضرين أعاقد يده فانحرفت ضربة السيف وكانت الضربة قد قتلت ابن أبي عامر، ولكن أصابته بشجَّ في رأسه.

ولحسن حظه استطاع ابن أبي عامر أن يُلقي بنفسه من فوق القلعة، وأن ينجو من هذا المأزق الخطير بما فيه من إصابات، ثم عاد إلى قُرْطُبَة وقد استُعلِّت بينهما العداوة.

جهز ابن أبي عامر جيشاً من قُرْطُبَة ثم سار به إلى ملاقاة غالب الناصري، وهنا وقع الفارس العظيم في خطأ قاتل، كان أسوأ خاتمة لحياة اتصلت ثمانين عاماً حافلة بالجهاد، لقد اتصل غالب الناصري براميرو الثالث ملك ليون، وطلب منه النجدة ضد جيش قُرْطُبَة، فأمدَه راميرو بجزء من جنده.

ويستطيع المرء أن يتخيَّل السعادة التي حازها راميرو حينما يجد الفارس الكبير الذي أذله وبلاذه كثيراً في موقف المستجد به، ولعلَّه أملَ في أن يكون هذا بداية تحالف طويل بينهما.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٧٨/٢.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٩١/٣.

من عجائب القدر:

التحق الجيشان؛ جيش قُرطبة يقوده ابن أبي عامر في القلب وعلى الميمنة فارس المغرب - الذي صار فارس المغرب والأندلس - جعفر بن حمدون، وعلى الميسرة الوزير أحمد بن حزم (والد الإمام الكبير ابن حزم) وغيره من الرؤساء، أمام جيش غالب الناصري ومعه جيش ليون.

ومع أن غالباً الناصري كان قد بلغ الثمانين إلاَّ أنه هجم على الميمنة فغلبها ومزقها، ثم عاد وهجم على الميسرة فغلبها ومزقها، وما هو إلاَّ أن واجه القلب، وفيه ابن أبي عامر. وإنه من المثير حقاً أن نشاهد هذا اللقاء بين الرجلين اللذين لم يُهزما حتى الآن، واللذين ستكون هزيمة أحدهما هي الأولى - وربما الأخيرة - في حياته، فيختتم بها سجل تاريخه.

رفع غالب صوته قائلاً: «اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره». ثم حدث أعجب ما يمكن أن يتصور في هذا الموقف، ولو لا أنه وصل إلينا من روایة صحيحة ثابتة لما صدقه أحد من المؤرخين^(١)، لقد مشى غالب بفرسه إلى خارج الجيشين، فَظَنَّ الناس أنه يُريد الخلاء، ثم طال غيابه، فذهب بعض جنوده للبحث عنه فوجدوه ميتاً بلا أثر ولا ضربة ولا رمية، فعادوا بالبشرى إلى ابن أبي عامر.

وأراد الله أن يموت الرجال ولم ينهزم أحدهما، ولعلَّه استجاب ~~ذلك~~ إلى دعاء غالب، فأبقى للمسلمين مَنْ هو أصلح لهم^(٢)، إلاَّ أن هذا الحادث المفاجئ أسف عن تطور لم يتوقعه أحد؛ إذ انحاز جيش غالب المسلم إلى جيش قُرطبة فوق جيش ليون في المأزق الكبير!

(١) رواه الإمام الكبير ابن حزم عن أبيه الوزير شاهد العيان. ابن حزم: رسائل ابن حزم ٩٤/٢، ٩٥، ٩٤. (رسالة نقط العروس).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٦٤

بقي أن نذكر - قبل أن نتجاوز قصة تمرُّد غالب الناصري - أن بعض المؤرخين يتوقع أن من أسباب تمرُّد غالب الناصري ما قد يكون تحريضاً من صبح أم الخليفة الفتى، التي بدأت ترى أن الملك يذهب من بين يدي ولدها.

٤. غزو الملك النصري

استدار جيش ابن أبي عامر - الذي انحاز إليه جيش غالب - ليواجهها جيش ليون، لتبدأ غزوات الملك النصري، التي استمرت بعده سبعة وعشرين عاماً، وانتهت جميعها بالظفر للMuslimين.

قصد ابن أبي عامر إلى مدينة سمورة - التابعة لملكة ليون - ليعاقب ملكها رامIRO الثالث، وحاصرها واستولى على ما حوطها، وفرت أمامه الجيوش، حتى طلب رامIRO المساعدة من غرسية صاحب قشتالة، وسانشو ملك نافار، وعقدوا تحالفاً ثلاثياً، وسارت الجيوش المتحالفة إلى لقاء جيش المسلمين فهزموا شرّ هزيمة، ثم زحف الجيش الإسلامي في خطوة بالغة الشجاعة إلى مدينة ليون عاصمة المملكة، ووصلوا فعلاً إلى أبوابها، إلا أن نزول الشتاء والثلوج دفعاً بالجيش إلى الرجوع دون إكمال فتح المدينة، فعاد الجيش إلى قرطبة، وكان ابن أبي عامر يحمل معه مفاجأة:

٥. الحاجب المنصور

بعد عودة الجيش الإسلامي إلى قرطبة مُكَللاًً بهذا الظفر الكبير؛ القضاء على تمرُّد غالب الناصري، ثم هزيمة جيش ليون، ثم هزيمة جيوش النصارى المتحالفة، ثم الوصول إلى أبواب ليون، قام محمد بن أبي عامر (في سنة ٩٣٧هـ = ١٩٨٢م) باتخاذ لقب ملوكي، فلَقِبَ نفسه بالحاجب المنصور، وقد كانت الألقاب من قبل عادة الخلفاء، ثم أصبح يُدعى له على المنابر مع الخليفة هشام بن الحكم، ثم نقش اسمه على النقود وعلى الكتب والرسائل^(١).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٧٩/٢.

ومن ذلك التاريخ عُرف محمد بن أبي عامر بهذا اللقب: الحاجب المنصور (Al manzor).

كان عهد المنصور بن أبي عامر في الذروة من القوة والكفاءة، فعلى المستوى الخارجي جهاد دائم، يخرج المنصور مرتين في العام فيتصرّ، وعلى المستوى الداخلي فاض الأمن والرخاء، وبلغت الحضارة والمدنية آفاقها السامية.

وكانت الدولة العاميرية تحت السلطان الكامل للحاجب المنصور، ويختفي تماماً ذكر الخليفة هشام، الذي ظلّ حبيس قصره الفاخر في الراحلة، لا يتولّ من أمر الملك شيئاً؛ لذا تختلف الروايات التاريخية إلى حدّ التضارب في حاله؛ فمن رواياتٍ تذكر أنه كان منصراً للعبادة مقبلًا على العلم كثير الإنفاق على المحتاجين^(١)، إلى رواياتٍ أخرى تقول بأنه كان منصراً إلى الله والعبث ومحالسة الجواري والاهتمام بالتفاهات^(٢)، إلى روايات أخرى تصفه بالذكاء والحكمة والمروعة^(٣)، إلا أنه كان مغلوبًا على أمره، ليس بيده شيء يمكنه به استرجاع ملكه في ظل السيطرة الكاملة والشاملة للمنصور على مقادير الأمور.

بعد التمهيدات السابقة وفي الطريق نحو عهد جديد قام المنصور بن أبي عامر في سنة (٩٩١هـ=١٣٨١م) بأمر لم يُعهد من قبل في تاريخ الأندلس؛ بل في تاريخ المسلمين، حيث عهد بالحجابة من بعده لابنه عبد الملك بن المنصور، وكان المشهور والمعارف عليه أن يكون العهد بالخلافة، وأن يكون من الخليفة نفسه، ثم بعد خمس سنوات أي في سنة (٩٩٦هـ=١٣٨٦م) اتخذ لنفسه لقب الملك الكريم^(٤).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٥٣.

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب، ١/١٩٤، ١٩٥.

(٣) ابن خلkan: وفيات الأعيان ٤/٤، ٣٧٣.

(٤) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٩٣، ٢٩٤.

الفصل السادس

الجهاد السياسي والعسكري للحاجب المنصور

تولى محمد بن أبي عامر الحكم منذ سنة (٩٧٦هـ = ٣٦٦م) وحتى وفاته رحمه الله في سنة (١٠٠٢هـ = ٣٩٢م)، وقد قضى هذه المدة في جهاد دائم لا ينقطع مع مالك النصارى في الشمال، مع حسن إدارة وسياسة على المستوى الداخلي، حتى صارت الأندلس في عهده في ذروة مجده^(١).

أولاً : كان مجاهداً :

غزا محمد بن أبي عامر في حياته أربعين وخمسين غزواً، لم يُهزم أبداً في واحدة منها، بل كان الأغرب من ذلك هو أن يصل في فتوحاته إلى أماكن في مملكة ليون وفي بلاد النصارى لم يصل إليها أحدٌ من قبله، بل لم يصل إليها الفاتحون الأوائل؛ مثل: موسى بن نصیر وطارق بن زياد، فقد وصل الحاجب المنصور إلى منطقة الصخرة؛ تلك المنطقة التي لم تُفتح من قِبَل المسلمين من قبله، واستطاع رحمه الله أن يغزو النصارى في عقر دارهم، وهو ذو قدر وصل إلى خليج سكاي والمحيط الأطلسي في الشمال، وفي كل هذه الغزوات لم تنكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش، ولا أُصيب له بعث، ولا هلكت سرية^(٢).

وكان من المتعارف عليه قبل ذلك أن الجهاد في الصوائف فقط، إلا أن الحاجب المنصور كانت له في كل عام مرتان يخرج فيها للجهاد في سبيل الله، عُرفت هاتان

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٢٣٠١، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٨، والمقربي: نفح الطيب / ١٣٩٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك عند ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٩٤، والمقربي: نفح الطيب، ١/٤١٣.

المرتان باسم الصوائف والشواقي.

وكانت أعظم هذه الغزوات قاطبة غزوة «شانت ياقب»، وشانت ياقب هو النطق العربي في ذلك الوقت لـ«سانت يعقوب» أي القديس يعقوب، وكانت هذه المدينة في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية، وهي منطقة على بعدها الشديد عن أهل الأندلس في ذلك الوقت كانت شديدة الوعورة؛ ولذلك لم يصل إليها فاتح مسلم قبل المنصور بن أبي عامر، هذا بالإضافة إلى أن هذه المدينة على وجه التحديد كانت مدينة مقدسة عند النصارى، فكانوا يأتونها من مختلف بقاع الأرض ليزوروا قبر هذا القديس؛ حتى إن ابن عذاري المراكشي قال: إنها «أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا؛ فيها يختلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد روما وما وراءها»^(١).

وكان ملوك نصارى الشمال كلما هاجم ابن أبي عامر عواصمهم فروا إلى هذه المنطقة القاسية الوعرة؛ يحتمون فيها من بأس المسلمين؛ وهذا قرر ابن أبي عامر أن يذهب إلى هذه المدينة، وأن يحطم أسوارها وحصونها؛ ولِيُعْلَمْ هؤلاء أن ليس في شبه الجزيرة كلها مكان يمكنهم أن يحتموا فيه من بطش ابن أبي عامر.

وقصة هذه المدينة هي ما يُقال عن يعقوب صاحب هذا القبر، من أنه كان أحد حواري سيدنا عيسى ابن مريم اللطيف الثاني عشر، وأنه كان أقرئهم إليه اللطيف؛ حتى سموه أخيه للزومه إياه، فكانوا يسمونه أخي الرب - تعالى الله عَمَّا يصفون علوًّا كبيرًا - ومنهم من يزعم أنه ابن يوسف النجار، وتقول الأسطورة أن صاحب هذا القبر كان أسقف بيت المقدس، وأنه جاب الأرض داعيًا إلى عقيدته حتى وصل إلى

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٩٤ / ٢.

تلك الأرض البعيدة، ثم إنه عاد إلى أرض الشام، وقتل بها، فلما مات نقل أصحابه رفاته إلى آخر مكان بلغه في رحلته الدعوية.

وفي صائفة سنة (٣٧٨هـ) - وهي غزوته الثامنة والأربعون - قاد ابن أبي عامر قواته متوجهًا بها نحو الشمال قاصدًا شانت ياقب، وفي الوقت نفسه بدأ الأسطول الأندلسي الذي أعده المنصور لهذه الغزوة تحرّكَه من الموضع المعروف بقصر أبي دانس غرب الأندلس، وفي الطريق انضم إلى المنصور ابن أبي عامر عدد كبير من أمراء نصارى الإسبان؛ نزولاً على ما بينه وبينهم من معاهدات تُوجب عليهم أن يشتراكوا معه في المعارك، ثم اتجه إلى شانت ياقب مخترقاً الطرق الجبلية الوعرة، حتى وصل إلى هذه المدينة، بعد فتح كل الحصون والبلاد التي في طريقه، وغنم منها وسبي، ثم وصل ابن أبي عامر إلى مدينة شانت ياقب ولم يجد فيها إلاً راهباً بجوار قبر القديس يعقوب، فسألَه عن سبب بقائه، فقال: أؤانس يعقوب. فأمر بتركه وعدم المساس به، وأمر بتخريب حصون هذه المدينة وأسوارها وقلاعها، وأمر بعدم المساس بقبر القديس يعقوب، ثم تعمق حتى وصل إلى ساحل المحيط دون أن يقف أمامه شيء، وكَرَّ راجعاً، بعدما أنعم على مَنْ كان معه من أمراء النصارى بمال والكساء كُلًّا على حسب قدره، ثم كتب إلى المسلمين يُبَشِّرُهم بالفتح^(١).

وهذه صور مشرقة من حياته الجهادية:

١ - يُبَشِّرُ جيشاً جراراً لإنقاذ نسوة ثلاثة:

جاء عن الحاجب المنصور في سيرة حروبه أنه سَيَرَ جيشاً كاملاً لإنقاذ ثلاثة من نساء المسلمين كنَّ أسيرات لدى مملكة نافار؛ ذلك أنه كان بينه وبين مملكة نافار عهد، وكانوا يدفعون له الجزية، وكان من شروط هذا العهد ألاً يأسروا أحداً من

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٩٤ / ٢، وما بعدها.

المسلمين أو يستيقظون في بلادهم، فحدث ذات مرّة أن ذهب رسول من رسول الحاجب المنصور إلى مملكة نافار، وهناك وبعد أن أدى الرسالة إلى ملك نافار أقاموا له جولة، وفي أثناء هذه الجولة وجد ثلاث نسوة من نساء المسلمين في إحدى كنائسهم فتعجب لوجودهن، وحين سألهن عن ذلك قلن له: إنهن أسيرات في ذلك المكان.

وهنا غضب رسول المنصور غضباً شديداً، وعاد إلى الحاجب المنصور وأبلغه الأمر، فما كان من المنصور إلا أن سرّ جيشه جراراً الإنقاذ النسوة، وحين وصل الجيش إلى بلاد نافار دُهش ملك نافار، وقال: نحن لا نعلم لماذا جئتم، وقد كانت بيننا وبينكم معاهدة على ألا تقاتل، ونحن ندفع لكم الجزية. وبعزّة نفس في غير كبير رددوا عليه: إنكم خالفتم عهدم، واحتجزتم عندكم أسيرات مسلمات. فقالوا: لا نعلم بهن. فذهب الرسول إلى الكنيسة وأخرج النسوة الثلاث، فقال ملك نافار: إن هؤلاء النسوة لا نعرف بهن؛ فقد أسرهن جندي من الجنود وقد تم عقاب هذا الجندي. ثم أرسل برسالة إلى الحاجب المنصور يعتذر فيها اعتذاراً كبيراً، ويخبره بأنه قد هدم هذه الكنيسة، فعاد الحاجب المنصور إلى بلده ومعه النسوة الثلاث^(١).

٢- يقطع النصارى عليه الطريق، فيعمل شروطه عليهم:

وما ذكر عن الحاجب المنصور -أيضاً- أنه ~~جئتكم~~ وهو في جهاده لفتح بلاد النصارى كان قد عبر مضيقاً في الشمال بين جبلين، ونكأية فيه فقد نصب له النصارى كميناً كبيراً، فتركوه حتى عبر بكل جيشه، وحين هم بالرجوع وجد طريق العودة قد قطع عليه، ووجد المضيق وقد أغلق تماماً بالجنود.

فيما كان من أمر الحاجب المنصور إلا أن عاد مرة أخرى إلى الشمال واحتلّ مدينة من مدن النصارى هناك، ثم أخرج أهلها منها وعسكر هو فيها، ووزع ديارها على

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢٩٧ / ٢، والمقربي: نفح الطيب، ١ / ٤٠٣.

جنه، وتحصّن وعاش فيها فترة، ثم اتخذها مركزاً له يقود منه سير العمليات العسكرية، فأخذ يُرسل منها السرايا إلى أطراف مالك النصاري، ويأخذ الغنائم ويقتل المقاتلين من الرجال، ثم يأتي بهؤلاء المقاتلين ويرمي بجثثهم على المضيق الذي احتله النصاري ومنعوه من العودة منه.

وهنا ضَرَحَ النصاري وذهبوا مغاضبين إلى قَوَادِهِم يعرضون عليهم أن يفتحوا له الباب؛ حتى يعود إلى بلده مَرَّةً أخرى، أو يجدوا حلاً لهم في هذا الرجل، فاستجابوا لهم وعرضوا على الحاجب المنصور أن يُخلُّوا بينه وبين طريق العودة ويعود من حيث أتى، فما كان من المنصور إلَّا أن رفض هذا العرض، وردَّ عليهم متَهِّئِينَ أنه كان يأتي إليهم كل عام مرتين صيفاً وشتاءً، وأنه يريد هذه المَرَّةَ أن يمكث بقية العام حتى يأتي موعد المَرَّةِ الثانية، فيقوم بالصوائف والشواتي من مركزه في هذه البلاد بدلاً من الذهاب إلى قُرْطُبةِ ثم العودة منها ثانية.

لم يكن مفرُّ أمام النصاري سوى أن يطلبوا منه الرجوع إلى بلده ومالوا إلى السلم، فراسلوه في ترك الغنائم والجواز إلى بلاده، فقال: أنا عازم على المقام. فتركوا له الغنائم، فلم يحبهم إلى الصلح، فبذلوا له مالاً ودوابَّ تحمل له ما غنمته من بلادهم، فأجابهم إلى الصلح، وفتحوا له الدرب^(١).

٣- يجمع ما علق على ثيابه من غبار ليُدفن معه في قبره:

مقتدياً بحديث رسول الله ﷺ: «... وَلَا يَجِدُ مَعَ عَبَارٍ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ»^(٢). فكان من عادة الحاجب المنصور عليه السلام في جهاده وبعد كل معركة أن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ /٣٦٩.

(٢) الترمذى: كتاب فضائل الجهاد، باب في فضل الغبار في سبيل الله (١٦٣٣) عن أبي هريرة رض، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٤٣١٦)، وأبي ماجة (٢٧٧٤)، وأحمد (١٠٥٦٧)، والحاكم (٧٦٦٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ينفض ثوبه، ويأخذ ما يخرج منه من غبار ويضعه في قارورة، ثم أمر في نهاية حياته أن تُدفن معه هذه القارورة؛ وذلك حتى تشهد له يوم القيمة بجهاده ضد النصارى^(١).

ولقد كان من أهم مميزات جهاد الحاجب المنصور أنه كان يبدأ بالهجوم، ويحاول إجهاض المؤامرات في مهدها، ولا يتنتظر للدفاع مثلما كان حال مَنْ سبقه^(٢).

ثانيًا: اهتمامه بالجوانب الحضارية في البلاد:

من الجوانب الوضاءة في حياة محمد بن أبي عامر أو الحاجب المنصور -أيضاً- اهتمامه الكبير بالجانب المادي والحضاري في البلاد؛ فقد أسس مدينة الراحلة على أحسن ما يكون -كما ذكرنا- وزاد كثيراً في مساحة مسجد قُرطبة، حتى أضاف إليه ضعف مساحته الأصلية، وكان يشتري هذه المساحات من يقطنون حول المسجد، وذلك بالبلغ الذي يرضونه^(٣).

وقد ذُكر في ذلك أنه كانت هناك سيدة وحيدة تسكن في بيت فيه نخلة بجوار المسجد، وقد أبىت هذه السيدة أن تبيع بيتها هذا إلَّا إذا أتى لها الحاجب المنصور بمنزل فيه نخلة كالذى تملكه، فأمر الحاجب المنصور بشراء بيت لها فيه نخلة كما أرادت، حتى ولو أتى ذلك على بيت المال، ثم أضاف بيتها إلى حدود المسجد^(٤).

زاد الحاجب المنصور كثيراً في المسجد بعد ذلك، حتى أصبح لفترة طويلة من الزمان أكبر من أي مسجد أو كنيسة في العالم، وهو ما يزال إلى الآن موجوداً في إسبانيا، ولكنه -وللأسف- حُول إلى كنيسة بعد سقوط الأندلس، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله!

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/١٧، والمقرى: فتح الطيب، ٤٠٩/١.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥٤٠/٢.

(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٢٨٧.

(٤) المقرى: فتح الطيب، ١/٥٤٦.

وكذلك كانت العلوم والتجارة والصناعة وغيرها من الأمور قد ازدهرت كثيراً في حياة الحاجب المنصور، وقد عمَّ الرخاء وامتلأت خزانة الدولة بالمال، ولم يُعدْ هناك فقراء تماماً، كما كان الحال أيام الحكم بن عبد الرحمن الناصر أو أيام عبد الرحمن الناصر نفسه.

وحتى البلاد التي فتحها المنصور من بلاد النصارى اهتم بتعميرها وعمارتها؛ حتى صارت الجزيرة الأندلسية كلها متصلة العمران، عامرة زاهرة خضرة نضرة^(١).

ثانياً: عدم وجود ثورات عليه عليه ٤٦٥هـ:

كان من اللافت للنظر -أيضاً- في حياة الحاجب المنصور أنه ورغم طول فترة حكمه -التي امتدَّت من سنة (٩٣٦هـ=١٠٠٢م) وحتى سنة (٩٧٦هـ=١٠٣٢م)- لم تقم عليه أي ثورة، أو تمُرُد في عهده على طول البلاد واتساعها واختلاف أمزجتها، اللهم إلَّا ما ذكرناه من قبل عن التزاع بينه وبين غالب الناصري.

فقد كان الحاجب المنصور رجلاً قوياً، محكِّماً للأمن والأمان في البلاد، كما كان عادلاً مع الرعية؛ وما جاء في ذلك ما ترويه بعض الروايات من أنه جاءه يوماً رجل بسيط من عامة الشعب، يبغي مظلمة عنده، وقال له: إن لي مظلمة وإن القاضي لم يُنصفني فيها. وحين سمع منه مظلمته أتى بالقاضي مستوضحاً منه الأمر، وكيف أنه لم يُنصف الرجل في مظلمته، فقال له القاضي: إن مظلمته ليست عندي، وإنما هي عند الوسيط (بمكانة نائب رئيس الوزراء في زمتنا)، فأحضر الحاجب المنصور الوسيط وقال له: أخلع ما عليك من الثياب (يقصد ثياب التميز والحكم)، واخلع سيفك، ثم اجلس هكذا كالرجل البسيط أمام القاضي. ثم قال للقاضي: الآن انظر في أمرهما. فنظر القاضي في أمرهما، وقال: إن الحقَّ مع هذا الرجل البسيط، وإن

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٨١م، وابن الكرديوس: نصٌّ في وصف الأندلس، من منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ١٣/١٢.

العقاب الذي أقضيه هو كذا وكذا على الوسيط. فما كان من الحاجب المنصور إلا أن قام بإيقاف مظلمة الرجل، ثم قام إلى الوسيط فأقام عليه أضعاف الحد الذي كان قد أوقعه عليه القاضي، فتعجب القاضي، وقال للمنصور: يا سيدى؛ إبني لم أمر بكل هذه العقوبة. فقال الحاجب المنصور: إنه ما فعل هذا إلا لقربه منا؛ ولذلك زدنا عليه الحد، ليعلم أن قربه منا لن يمكّنه من ظلم الرعية^(١).

المشهد الصليبي في عهد المنصور بن أبي عامر :

مملكة قشتالة :

شُغل المسلمون بعد وفاة الحكم المستنصر لبعض الوقت بشؤونهم الداخلية، فظنَّ النصارى - كالعادة - أن الوقت قد حان لأن يضربوا بكل عهود السلم التي كانت بينهم وبين الحكم المستنصر عرض الحائط، وأن يعودوا إلى الإغارة على أراضي المسلمين، فأغار القشتاليون على الأراضي الإسلامية، وتوجّلوا فيها جنوبًا، وعاثوا فيها فسادًا، فهبت ابن أبي عامر لردهم ومعاقبتهم، ففزرا أراضي قشتالة في أوائل سنة ٣٦٦هـ = ٩٧٧م، ثم غزاهما ثانية، واقتتحم مدينة شلمقنة في العام التالي، وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتواترة على الملك النصراني في الشمال، والتي استغرقت طيلة حياة ابن أبي عامر.

مملكة ليون :

أما مملكة ليون، فقد أقدم الملك راميرو الثالث، على معاونة القائد غالب الناصري ببعض قواته في خروجه على المنصور، فعزم ابن أبي عامر على عقاب راميرو على هذا التحدي، وسار إليه في جيش لمحاربته، فتحالف راميرو الثالث مع أمير قشتالة غرسية فرناندز ومع ملك نافار سانشو غرسية، والتقيى الجمعان؛

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/٢٨٩.

المنصور بن أبي عامر من جهة والجيوش النصرانية المتحدة من جهة أخرى، وهزمهم المسلمون في موقعة شنت منكش سنة (٩٨١هـ = ٣٧١).)

وبعد هزيمة راميرو الثالث في هذه المعركة؛ ادعى أشراف ليون أنه لم يعد صالحًا لتوليّ أمر المملكة، فقرّروا خلعه، وتولية ابن عمّه برمودو بدلاً منه، ولكن راميرو لم يُذعن لهذا القرار، فحشد أنصاره وخاض حرباً مع ابن عمّه، فهزّم وفرّ إلى مدينة أسترقة، ثم حاول أن يلجأ بعد ذلك إلى المنصور بن أبي عامر، وأن يستعين به لاسترداد عرشه، ولكن القَدَرَ لم يُمهله؛ إذ توفي بعد ذلك بقليل، وخلا الجوّ لبرمودو.

ولكن برمودو نفسه لم يستطع الاطمئنان على ملكته؛ وبخاصة أن عدداً من الأشراف عارضوا حكمه، فخشى أن يُفعل به مثلما فعل بابن عمّه، فلجأ إلى المنصور بن أبي عامر يستمدّ منه العون والتأييد في مقابل أن يعترف بطاعته، وأن يؤدّي إليه الجزية، فأجابه المنصور إلى طلبه، وأرسل إليه بقوّة من الجندي، نزلت مدينة ليون عاصمة المملكة؛ لتحمي برمودو، وبذلك أصبحت ليون تابعة للمسلمين.

ولكن هذا الوضع لم يُرق لبرمودو؛ فبمجرد أن شعر باستقراره على العرش، وبازدياد نفوذه وقوته، قرر أن يغدر بالمسلمين ويخلص من تبعيته لابن أبي عامر، فهاجم الحامية الإسلامية، واستخلص من يدها مدينة ليون، فهبّ المنصور لحربه، وسار إلى مدينة ليون واقتحمها، ومزق قوى النصارى، ثم استمرّ يغزو أراضي ليون تباعاً، ويُوقع الهزائم المتالية ببرمودو، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح، والعودة إلى طاعة ابن أبي عامر عام (٩٩٥هـ).

ولم يُعمر برمودو طويلاً بعد ذلك فمات عام (٩٩٩هـ)، وخلفه ابنه ألفونسو الخامس، وكان طفلاً، فعيّن أحد أشراف ليون - وهو الكونت مننديث كونثالث - وصيّاً على الملك الصغير.

ملكة نافار:

تولَّ سانشو غرسية الثاني عرش نافار بعد موت أبيه غرسية سانشيز، وكانت نافار قد اتسعت رقعتها عندئذٍ، فصارت تشمل عدَّة ولايات، غير ولاية نافار الأصلية؛ مثل: ولايات كانتبريا، وسوبرابي، وربا جورسيا، ونمط مواردها وقوتها، حتى بدأ سانشو غرسية في مهاجمة الأراضي الإسلامية، فكان ردُّ المنصور بن أبي عامر على ذلك عنيفًا؛ فغزا مملكة نافار وتوجَّل فيها حتى دخل عاصمتها بنبلونة عام (٩٨٧م).

وخلف سانشو في الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث، فلم يدم حكمه سوى خمسة أعوام، وقد غزا المنصور بن أبي عامر نافار في عهده مرَّة أخرى عام (٩٩٩م)، وقد مات غرسية بعد هذه الغزوة بعام، وتولَّ بعده ابنه سانشو الثالث الملقب بالكبير^(١).

لقد كان المشهد الصليبي في أيام المنصور وبأثر من جهاده في غاية الضعف والتمزق.



(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/٥٩٨، بتصريف.

الفصل السابع

أثرى عهود الأندلس قاطبة (الجاجب المظفر بن المنصور)

توفي المنصور بن أبي عامر وهو في أوج قوته، والأندلس قد بلغت من القوة والعظمة ما لم تَصِلْ إليه من قبل في أي عصر من العصور، إلى جوار ما كان فيه أعداؤها من الضعف الشديد، وكذلك كان الحال داخل الأندلس نفسها؛ فالخليفة الأموي هشام المؤيد بالله كان رجلاً ضعيفاً، في حين كانت قوة العامريين قد بلغت شأواً بعيداً، ومع ذلك فبمجرد أن مات المنصور بن أبي عامر سارع ابنه عبد الملك إلى قُرطُبة، قبل أن يطرأ أي أمر لم يكن قد استعد له من قبل، ليستصدر مرسوماً من الخليفة بتوليه الحجابة بعد أبيه، وكان أبوه قد عَهَدَ له بالحجابة من بعده -كما ذكرنا- وقامت توليته الحجابة كما أراد يوم الاثنين لثلاث بقين من رمضان (٣٩٢هـ)، ويقي في الحكم سبع سنين إلى أن مات سنة (٣٩٩هـ).^(١)

وسار عبد الملك المظفر على نهج أبيه في سياساته الداخلية والخارجية، وفي غزوه الدائم للأراضي النصرانية في الشمال، حتى قال عنه المقرى التلمساني في *فتح الطيب*: «جرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين، وكانت تسمى بالسابع تشبيهاً بسبعين العروس، ولم يزل مثل اسمه مظفراً إلى أن مات سنة سبع وثلاثمائة في المحرم، وقيل: سنة ثمان وتسعين».^(٢)

وقد أُعجب به المسلمون وأحبوه حباً عظيماً، فأثنوا عليه أجمل الثناء، فكان من

(١) ابن عذاري: *البيان المغرب*، ٣/٣.

(٢) المقرى: *فتح الطيب*، ١/٤٢٣.

ذلك ما نقله ابن الخطيب: «قالوا: كان عبد الملك أسعد مولود ولد بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما؛ فجدد الألقاب، واقتفي الرسوم، فقد ذكر أن المنصور توفي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابه من الفقهاء والعلماء والكتاب والشعراء والأطباء والمنجمين؛ فلم يكونوا أفر عددًا ولا أنسى أرزاً منهم في أيامه، مع عدم التلبّس بشيء من أمرهم؛ إذ كان مُقتَصِرًا على شأنه في التجنيد والعمل بالسلاح؛ حفظاً للرسوم، والتهامًا لجميل الذكر، وحرصاً على التزييد والشفوف على غيره، وكان مثلاً في الحياء والشجاعة؛ إذ كان عند الحياء والخشمة بكرًا عزيزة، وفي مواقيف الكريهة أسدًا ورداً، لا يقوم له شيء إلا حطمها»^(١).

وقد زاد من حب المسلمين له وإعجابهم به أنه ابتدأ عهده بأن أسقط عن المسلمين سدس الجباية التي كانت عليهم^(٢)، فتعلّقت به قلوب الرعية وأمّاها، ووجدت فيه العزاء عن فقدان أبيه، وبخاصة أنّ أباه كان يعتمد عليه دائمًا في حياته، ويُكلّفه بالمهام الجسمانية؛ كقيادة الجيوش وما إلى ذلك.

وكان من عادة نصارى الشمال - كما رأينا - أنه متى مات حاكم الأندلس - وبخاصة إذا كان قويًا - ضربوا بالمعاهدات والمواثيق عرض الحائط، وأخذوا يُهاجمون الشغور والأراضي الإسلامية بهدف الثأر من المسلمين وإضعافهم، وسلب ما يمكن سلبه، وهم بهذا - أيضًا - يُضعفون موقف الحاكم الجديد، الذي يسعى لتوطيد ملكه، رأينا هذا عند تولي الناصر لدين الله، كما رأيناه عند تولي المستنصر وابنه هشام المؤيد، ولكنهم هذه المرة لم يفعلوا ذلك، وربما كان ذلك بسبب الضربات القوية المؤثرة التي وجهها لهم المنصور بن أبي عامر في حياته.

ولم يكتف الحاجب المظفر بهذه المواعدة؛ إذ إنهم لو وادعوا اليوم، فلن يوادعوا

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٨٤.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٨٤.

غداً إذا اجتمعت لهم قوتهم، ثم ربما يظلون به الضعف والجبن عن لقائهم، ومن هنا بدأ الحاجب المظفر يجهّز لغزو نصارى الشمال، واجتهد في الإعداد؛ حتى إن أهل العدو قد سمعوا بهذه الغزوة، فتواحدوا إلى الأندلس للمشاركة فيها، وفيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعيمائهم وفقهائهم، وقد أحسن الحاجب المظفر استقبالهم، وأغدق لهم العطاء، فقبل بعضهم وتحرّج البعض الآخر.

وخرج الحاجب المظفر من الراحلة بجنده ليلة ١١ شعبان سنة ٣٩٣هـ في مشهد مهيب، وسار حتى وصل مدينة سالم، فانضمّت له قوة من قشتالة، نزولاً على ما كان بين قشتالة والمنصور بن أبي عامر من معاحداث، ثم سار إلى إمارة بَرْسُلُونَة، ودارت بينه وبين نصارى بَرْسُلُونَة حرب شديدة، هُزموا فيها هزيمة نكراء، واستولى المسلمون على عدد من حصون بَرْسُلُونَة، وهدموا حصوناً أخرى، وغنموا وسبوا، وعمل الحاجب المظفر على إسكان المناطق المفتوحة بال المسلمين، فنهى الجنود عن تدمير البيوت وهدمها، وأمر بنقل المسلمين لعماره هذه الأرض، وجعل لمن يسكنها منهم راتباً شهرياً يتقادسه من بيت المال، وقضى الحاجب المظفر عيد الفطر بأرض بَرْسُلُونَة، واحتفل به مع جنوده ورجاله في بسائطها، ثم أمر بإرسال رسالتين للتبيشير بالفتح؛ إحداهما إلى الخليفة هشام المؤيد، والثانية لتقرباً على المسلمين كافة في قُرْطُبة، ثم في باقي الولايات.

وجاء في الرسائلتين أن عدد السبي بلغ ٥٥٧٠، وأن عدد الحصون التي اقتحمت عنة ستة حصون، وعدد الحصون التي أخلاقها العدو فخربت ودمرت ٨٥ حصناً، وذكر أسماء هذه الحصون كلها في الرسائلتين، ثم أذن للمتطوعين معه للجهاد بالعودة إلى ديارهم وبلدانهم؛ إذ إن الهدف الذي خرجوا من أجله قد انتهى؛ فعاد المتطوعون إلى بلادهم مسرورين فرحين بنصر الله^(١).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/٣.

وفي السنة التالية لهذه الغزوة (٣٩٤هـ) -وفي دلالة واضحة على ما وصلت إليه قوة الدولة وهيئتها في عهده- احتكم إليه قادة الملك النصرانية^(١)، وفي ذلك ينقل ابن عذاري المراكشي عن المؤرخ الفقيه أبي مطرف محمد بن عون الله (وهو من معاصرى هذه الحوادث) قوله: «وانتهى المظفر عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلة عظيمة، مثل منزلة والده المنصور، وأحلوه محله في الإصغاء له والتعظيم؛ بجلاله واهيبة من سخطه والطلب لمرضاته، حتى صار أعظمهم يحتملون إليه فيها شجر بينهم؛ فيفصل الحكم فيهم، ويرضون بما قضاه ويقفون عنده»^(٢).

وتواترت غزوات الحاجب المظفر عليه السلام على أراضي النصرانية في الشمال، وكانت غزولته الخامسة سنة (٣٩٧هـ)، وفيها اتجه بجيشه إلى مملكة قشتالة، فاتحدت جميع الملك والقوى النصرانية ضده، ودارت بين الفريقين معركة شديدة، نصر الله فيها المسلمين نصراً عظيماً، وكان قد بلغ الناس في الأندلس خبرُ اتحاد الملك النصرانية ضد جيش المسلمين، فأشفقوا على الجيش الإسلامي، وخافوا عاقبة ذلك، وكان أهل العساكر المشاركين في الغزوة هم أكثر الناس خوفاً، فلما وردتهم خبرُ انتصار المسلمين، كان فرحاً بهم بذلك فرحاً عظيماً، وعلى أثر هذه الغزوة تلقّب عبد الملك بال الحاجب المظفر بذلك^(٣).

ثم خرج بعد ذلك في شاتية سنة (٣٩٨هـ) -وكانت هذه هي شاتيته الوحيدة- وقد خرج فيها إلى قشتالة، ودارت بينه وبين نصارى قشتالة معارك عنيفة استمرّت عدة أيام، انتهت بنصر عظيم للمسلمين^(٤)، وكانت هذه هي غزولته قبل الأخيرة؛ لأنَّه خرج إلى غزو قشتالة في صائفة العام نفسه (٣٩٨هـ)، ولكنه مرض مرضًا

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ١٠/٣، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٨١.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ١٠/٣.

(٣) المصدر السابق، ٣/١٤.

(٤) المصدر السابق، ٣/٢١.

شديداً في مدينة سالم في شمال الأندلس، فتفرق عنه كثير من الجنود المتطوعين معه، ففشل مشروع الغزو، وعاد إلى قرطبة^(١)، ثم عاد وشعر ببعض التحسن فتحامل على نفسه وبدأ يتأهب إلى غزو قشتالة من جديد، وخرج بالفعل متحاملاً على نفسه في شاتية عام (٣٩٩هـ) يقصد قشتالة، إلا أن الحركة قد آذته وزادت مرضه، فلم يعد يستطيع الغزو، فعادوا به محمولاً على حفنة، وتوفي رحمه الله في الطريق إلى قرطبة في صفر عام (٣٩٩هـ)^(٢).

أشهر العلماء في الدولة العاميرية:

أحمد بن عبد الله بن ذكوان (٤٤٢-٩٥٣هـ = ١٠٢٢-٩٥٣م) :

أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبيدوس بن ذكوان، قاضي الجماعة بقرطبة وخطيبها، ولد سنة (٣٤٢هـ = ٩٥٣م)، ولأه المنصور بن أبي عامر القضاة، وكان من خاصته يلازمه في رحلاته وغزواته، ومحله منه فوق محل الوزراء، يقاومه المنصور في تدبير الملك وفي سائر شئونه. كذلك كان معه المظفر وشنجول ولدي المنصور بعد وفاة أبيهما، وتوفي المظفر فزاد أخوه عبد الرحمن في رفع منزلته وولأه الوزارة بالإضافة إلى قضاة القضاة، وكان عظيم أهل الأندلس ورئيسهم، وأقربهم من الدولة وأعلاهم محلاً، توفي سنة (٤١٣هـ)^(٣).

ابن جلجل (٤٢٢-٩٤٣هـ = ١٠٢٧-٩٨٧م) :

أبو داود سليمان بن حسان، الشهير بابن جلجل، كان طبيباً ماهراً، وكان إماماً في معرفة الأدوية المفردة، لا سيما بكتاب ديسقوريدس، الذي عرب في بغداد في خلافة المتوكل العباسي، وبقيت منه ألفاظ كثيرة يونانية لم تُعرَّب ولا عُرفت، ويحكي

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٢٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٢٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٨٩.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٨٥، والذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٨/٣١٢.

ابن جلجل قصة هذا الكتاب فيقول: «انتفع الناس بما عُرِبَ منه، فلما كان في دولة الناصر عبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس، كاتبه أرمانوس صاحب القسطنطينية قبل الأربعين وثلاثمائة وهاده بنفائس، فكان منها كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير العجيب، والكتاب باليوناني، ومنها كتاب هروشيش، وهو تاريخ عجيب في الأمم والملوك باللسان اللطيني (اللاتيني). وكان بالأندلس مَنْ يتكلّم به، ثم كاتبه الناصر وسألَه أن يبعث إليه برجل يتكلّم باليوناني واللطيني، ليعلّم له عبيداً؛ حتى يُترجموا له، فبعث إليه براهيب يُسمّى نقولا، فوصل قُرْطُبَةَ في سنة أربعين، ونشر من كتاب ديسقوريدس ما كان مجھولاً، وكان هناك جماعة من حُدَّاق الأطباء، فأحْكَمَ الكتاب، وقد أدركتُهم، وأدركتُ نقولا الراهب وصحبُهم، وفي صدر دولته (أي: المستنصر) مات نقولا الراهب».

ومن كُتب ابن جلجل «تاريخ الأطباء وال فلاسفه»، وله تذيل وزيادات على كتاب ديسقوريدس مما لم يعرفه ديسقوريدس^(١).

المجريطي إمام الرياضيين في الأندلس (٣٣٨-٩٥٠ = ٥٢٩٨-٩٥٠ م):

هو الفيلسوف الرياضي الفلكي أبو القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي، ولد في مدينة مجريط (مدريد) سنة (٩٥٠ هـ = ٣٣٨ م)، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم^(٢).

برع في علوم كثيرة، وله كتابان رجع إليهما ابن خلدون هما: (رتبة الحكيم): وهو أهم مصدر لدراسة الكيمياء في الأندلس، و(غاية الحكيم): وهو كتاب موسوعي تُرجم إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي... وفي هذا الكتاب بحوث تهتم بدراسة تاريخ الحضارة في أقدم عصورها، وتاريخ مستنبطات الأمم الشرقية العريقة في القدم

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٧/٢١٣.

(٢) الزركلي: الأعلام، ٧/٢٢٤.

من أبطاط وأقباط وسريان وهنود.. وغيرهم، ومكتشفاتهم وجهودهم في تَقدُّم العمران، وفي هذا الكتاب -أيضاً- بحوث في الرياضيات والكيمياء، وعلم السحر، وعلم الحيل، والتاريخ الطبيعي، وتاريخ المنشآت، والبيئة^(١)، وله زيج قيل فيه: لم يُؤَلِّف في الأزياج مثل زيج مسلمة -أي: المجريطي- وزيج ابن السمح^(٢).

ومن مؤلفاته أيضاً:

- روضة الحدائق ورياض الخلاق.
- ثمار العدد: وهو في الحساب ويُعرف بالمعاملات.
- اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني.
- كتاب الأحجار.

ولقد قال إدوارد فنديك صاحب كتاب (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع): توجد مجموعة أخرى تسمى بالرسائل الجامعية ذات الفوائد النافعة، وتُعرَف -أيضاً- باسم (رسائل إخوان الصفا) للحكيم المجريطي القرطبي... وهي على نمط رسائل إخوان الصفا، ولكنها لم تطبع ولم تنشر كالأولى^(٣)، ولعل هذا هو ما جعل خير الدين الزركلي صاحب الأعلام يقول: ذهب بعض المؤرخين إلى أنه مؤلف (رسائل إخوان الصفا)، ولم يثبت ذلك^(٤)، وقد توفي في مدينة مجريط (مدريد) سنة (٩٨٣هـ = ١٠٠٧م).

ابن الفرضي (٤٥١-٣٤٠هـ = ٩٦٢-١٠١٣هـ):

الإمام الحافظ، البارع الثقة، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المعروف بابن الفرضي، مؤرخ حافظ أديب، ولد بقرطبة سنة (٩٥١هـ = ١٣٥٢م)، ألف في (أخبار شعراء الأندلس)، وكتاب في (المؤتلف والمختلف)، وفي (مشتبه النسبة).

(١) انظر: محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، ٥/١١١.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٢/١٧٦.

(٣) إدوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ١٨٤.

(٤) الزركلي: الأعلام، ٧/٢٣١.

وكان من تلاميذه الإمام المعروف أبو عمر بن عبد البر، وهو من أئمة المذهب المالكي الكبار، ووصفه بقوله: كان فقيها حافظاً، عالماً في جميع فنون العلم في الحديث والرجال، أخذتُ معه عن أكثر شيوخني، وكان حسن الصحبة والمعاشة.

وقال عنه شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان: لم يُرَ مثله بقرطبة في سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال، والافتتان في العلوم والأدب البارع، وجمع من الكتب أكثر ما يجمعه أحد في علماء البلد، وكان حسن البلاغة والخط.

وما يُذكر عنه قول الحميدي: حدثنا علي بن أحمد الحافظ، أخبرني أبو الوليد بن الفرضي قال: تعلقْتُ بأسثار الكعبة، وسألت الله تعالى الشهادة، ثم فكّرت في هول القتل، فندمت، وهممت أن أرجع، فأستقبل الله ذلك، فاستحييت. يقول الحافظ علي: فأخبرني من رأه بين القتلى، ودنا منه، أنه سمعه يقول بصوت ضعيف: «لَا يُكْلِمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يُشَعَّبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مَسْكٍ»^(١). كأنه يُعيد على نفسه الحديث، ثم قضى على إثر ذلك جهنّم له شعر جيد منه: [الطوبل]

أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفُ عَلَى وَجْلِ مَمَّا إِبَهَ أَنْتَ عَارِفُ	يَحَافُ ذُنُوبَاً لَمْ يَغْبُ عَنْكَ غَيْبُهَا وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو سَوَاكَ وَيَتَقَبَّلُ
وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهُوَ رَاجٍ وَحَائِفُ وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مُخَالِفُ	فِيَا سَيِّدِي لَا تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي إِذَا تُشَرِّتَ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَّافِ

أبوالقاسم الزهراوي الجراح العظيم:

ولنا مع هذا الرجل وقفة أطول قليلاً؛ إذ يُعدُّ خلف بن عباس الزهراوي

(١) الحديث رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله ﷺ (٢٦٤٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦) عن أبي هريرة ؓ، واللفظ له.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٧٧ / ١٧.

(ت ٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م) من العلماء الأعلام في الأندلس، وفي التاريخ الإسلامي كله، كان لكتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) الفضل في أن أصبح من كبار جراحى العرب المسلمين، وأستاذ علم الجراحة في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوربية حتى القرن السابع عشر، ومن خلال دراسة كتبه تبين أنه أول من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة، وبحث في التهاب المفاصل، وفي السل .. وغيرها^(١).

والزهراوى -المعروف في أوروبا باسم (Abulcasis = أبو القاسم)- هو أول من تمكّن من اختراع أولى أدوات الجراحة؛ كالمشطر والمقص الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، التي من أهمّها ربط الأوعية لمنع نزفها، واختراع خيوط الجراحة؛ فكان أحدَ العلماء الأعلام الذين سعدت بهم الإنسانية.

وقد ولد أبو القاسم الزهراوى في مدينة الزهراء، وُسُبِّبَ إليها، كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوى، وخلف بن عباس الزهراوى من الكتب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تامٌ في معناه^(٢).

كان الزهراوى يمارس بنفسه فنَّ الجراحة بدلاً من أنْ يُوكِل ذلك -كما كانت العادة- للحجاجين أو الحلاقين، فمارس الجراحة وحذق فيها وأبدع، حتى صار علماً من أعلام طبَّ الجراحة، لدرجة أنه لا يكاد يُذكر اسمه إلا مقترباً مع الطب الجراحي^(٣)، وقد حلَّ مبحث الزهراوى في الجراحة خاصة محلَّ كتابات القدماء، وظلَّ العمدة في فنَّ الجراحة حتى القرن السادس عشر، وباتت أفكاره حدثاً تحولياً

(١) ابن أبي أصيبيعة: طبقات الأطباء، ٣٣٣ / ١، وشوقى أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٥١٣.

(٢) ابن أبي أصيبيعة: طبقات الأطباء، ٢٤٦ / ٣، والزرکلي: الأعلام، ٣١٠ / ٢.

(٣) شوقى أبو خليل: علماء الأندلس.. إيداعتهم التميز وأثرها في النهضة الأوربية، ص ٣١، وجلال مظہر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي، ص ٣٢١، ٣٢٢، وعلى عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص ٣٦٢.

في طرق العلاجات الطبية؛ حيث هيأً للجراحة قدرة جديدة في شفاء المرضى أذهلت الناس في عصره وبعد عصره، وقد ساعدت الآلات الجراحية التي اخترعها على وضع حجر الأساس للجراحة في أوروبا^(١).

وقد وصف الزهراوي هذه الآلات والأدوات الجراحية التي اخترعها بنفسه للعمل بها في عملياته، ووصف كيفية استعمالها وطرق تصنيعها؛ منها: حفت الولادة، والمنظار المهبل المستخدم حالياً في الفحص النسائي، والمحقن أو الحقنة العادمة، والحقنة الشرجية، وملاعق خاصة لخفض اللسان وفحص الفم، ومقصلة اللوزتين، وجفت وكالليب خلع الأسنان، ومناشير العظام، والماكاوي والمشارط على اختلاف أنواعها، وغيرها الكثير من الآلات والأدوات التي أصبحت النواة التي طُورَتْ بعد ذلك بقرنٍ لتُصبح الأدوات الجراحية الحديثة^(٢)!

يقول كامبل في كتابه (الطب العربي): «كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره؛ ذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرّ قسطنة كانوا يُمنحون لقب طبيب جراح، أمّا في أوروبا فكان لقبهم حلاق جراح، وظلّ هذا التقليد سارياً حتى القرن العاشر الهجري»^(٣).

وكتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) هو في الحقيقة موسوعة كثيرة الفائدة، تامةً في معناها، لم يؤلف في الطب أجمع منها، ولا أحسن للقول والعمل، وتعتبر من أعظم مؤلفات المسلمين الطبية، وقد وصفها البعض بأنها دائرة معارف، ووصفها آخرون بأنها ملحمة كاملة، وليس من الغريب أن تُصبح هذه الموسوعة المصدر الأساسي لجراحي الغرب حتى القرن السابع عشر، وتظلّ المرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوروبا؛ مثل جامعة سالرنو ومونبلييه في القرن السادس عشر

(١) جلال مظہر: حضارة الإسلام، ص ٣٣٢.

(٢) عامر التجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص ١٧٦.

(٣) نقلًا عن جلال مظہر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي، ص ٣٣٦.

والسابع عشر الميلاديين، والحقيقة التي ينبغي ألا تُغفل -أيضاً- أن الجراحين الذين عُرِفوا في إيطاليا في عصر النهضة وما تلاه من قرون قد اعتمدوا اعتماداً كبيراً على كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي^(١). ويقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر: «كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر»^(٢).

والزهراوي هو أول من جعل الجراحة علمًا قائماً على التشريح، وأول من جعله علمًا مستقلًا، وقد استطاع أن يبتكر فنونًا جديدة في علم الجراحة، وأن يُقتنَّها^(٣)، وهو أول من وصف عملية القسطرة، وصاحب فكرتها والمبتكر لأدواتها، وهو الذي أجرى عمليات صعبة في شق القصبة الهوائية، وكان الأطباء قبله -مثل: ابن سينا والرازي- قد أحجموا عن إجرائها خلطورتها، وابتكر الزهراوي -كذلك- آلة دقيقة جدًا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول، كما نجح في إزالة الدم من تجويف الصدر، ومن الجروح الغائرة كلها بشكل عام. والزهراوي -كذلك- هو أول من نجح في إيقاف تزيف الدم أثناء العمليات الجراحية؛ وذلك بربط الشرايين الكبيرة، وسبق بهذا الرابط سواه من الأطباء الغربيين بستمائة عام! والعجيب أن يأتي منْ بعده مَنْ يَدَعُى هذا الابتكار لنفسه، وهو الجراح إمبراطور باري عام ١٥٥٢م.

وهو -أيضاً- أول من صنع خيطاً لخياطة الجراح، واستخدمها في جراحة الأمعاء خاصة، وصنعتها من أمعاء القطط، وأول من مارس التخيط الداخلي بإبرتين وبخيط واحد مثبتٍ فيهما؛ كي لا ترك أثراً مرتئياً للجراح، وقد أطلق على

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص ٢٢١.

(٢) جوزتاف لوبيون: حضارة العرب، ص ٤٩٠.

(٣) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص ٢٦٥، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب وال المسلمين تاريخ ومساهمات، ص ١٠٦.

هذا العمل اسم (إمام الجروح تحت الأدمة)، وهو أول من طبق في كل العمليات التي كان يجريها في النصف السفلي للمريض رفع حوضه ورجليه قبل كل شيء؛ مما جعله سباقاً على الجراح الألماني (فريديريك تردينوبورغ) بنحو ثمانمائة سنة، الذي نسب الفضل إليه في هذا الوضع من الجراحة؛ مما يُعد اغتصاباً لحق حضاري من حقوق الزهراوي المبتكر الأول لها^(١).

كما يُعد الزهراوي أول رائد لفكرة الطباعة في العالم؛ فلقد خطط الخطوة الأولى في صناعة الطباعة، وسبق بها الألماني يوحنا جوتبرج بعده قرون، وقد سجّل الزهراوي فكرته عن الطباعة ونفذها في المقالة الثامنة والعشرين من كتابه الفذ (التصريح)؛ ففي الباب الثالث من هذه المقالة، ولأول مرّة في تاريخ الطب والصيدلة يصف الزهراوي كيفية صنع الحبوب (أقراص الدواء)، وطريقة صنع القالب الذي تصب فيه هذه الأقراص أو تُحضر، مع طبع أسمائها عليها في الوقت نفسه باستخدام لوح من الأبنوس أو العاج مشقوق نصفين طولاً، ويُخفر في كل وجه قدر غلظ نصف القرص، وينقسم على قعر أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه مطبوعاً بشكل معكوس، فيكون النقش صحيحًا عند خروج الأقراص من قالبها؛ وذلك متعملاً للغش في الأدوية، وإخضاعها للرقابة الطبية.

وفي ذلك يقول شوقي أبو خليل: «ولا ريب أن ذلك يعطي الزهراوي حقاً حضارياً لكي يكون المؤسس والرائد الأول لصناعة الطباعة، وصناعة أقراص الدواء؛ حيث اسم الدواء على كل قرص منها، هاتان الصناعتان اللتان لا غنى عنهما في كل المؤسسات الدوائية العالمية، ومع هذا فقد اغتصبَ هذا الحقُّ وغفل عنه كثيرون»^(٢).

وكذلك يُعدُّ الزهراوي أول من وصف عملية سل العروق من الساق لعلاج

(١) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم التميزة وأثرها في النهضة الأوربية، ص ٣٥، وعامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص ١٦٢.

(٢) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم التميزة وأثرها في النهضة الأوربية، ص ٣٢، ٣٣.

دوالي الساق والعرق المدني، واستخدمها بنجاح، وهي شبيهة جدًا بالعملية التي نمارسها في الوقت الحاضر، والتي لم تُستخدم إلاً منذ حوالي ثلاثين عامًا فقط، بعد إدخال بعض التعديل عليها^(١)، وللزهراوي إضافات مهمة جدًا في علم طب الأسنان وجراحة الفكين، وقد أفرد لهذا الاختصاص فصلاً خاصاً به^(٢).

وكان مرض السرطان وعلاجه من الأمراض التي شغلت الزهراوي، فأعطى لهذا المرض الخبيث وصفًا وعلاجًا بقي يُستعمل خلال العصور حتى الساعة، ولم يزد أطباء القرن العشرين كثيراً على ما قدّمه علامه الجراحة الزهراوي^(٣).

وإن ما كتبه الزهراوي في التوليد والجراحة النسائية ليُعتبر كنزًا ثمينًا في علم الطب؛ ولقد ابتكر آلة خاصة لاستخراج الجنين الميت فسبق الدكتور فالشر بنحو تسعمائة سنة في وصف ومعاجلة الولادة الخوضية، وهو أول من استعمل آلات خاصة لتوسيع عنق الرحم، وأول من ابتكر آلة خاصة للفحص النسائي لا تزال إلى يومنا هذا^(٤).

ويحكي جوستاف لوبيون عن الزهراوي فيصفه بقوله: «أشهر جراحى العرب، ووصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص؛ فعدّت من اختراعات العصر الحاضر على غير حق...»^(٥). وجاء في دائرة المعارف البريطانية أنه أشهر من ألف في الجراحة عند العرب (المسلمين)، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع التزيف^(٦).

* * *

(١) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٣) انظر: الدفاع: رواد علم الطب، ص ٢٦٤.

(٤) انظر: كمال السامرائي: الأمراض النسائية في الطب العربي القديم، مجلة المهن الطبية، العدد ١٩٦٤، م، محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين، ص ١٦٣ وما بعدها.

(٥) جوستاف لوبيون: حضارة العرب، ص ٤٩٠، ٤٩٢.

(٦) الزركلي: الأعلام، ٣١٠ / ٢.

الحجابة الأموية

سُقْطَةُ الدُّولَةِ الْعَامِرَةِ

من خلف ستار الخلافة الأموية ظلَّ الحاجب المنصور يحكم الأندلس ابتداءً من سنة (١٠٠٢هـ = ٩٧٦م) وحتى وفاته حَلَّتْ سنة (١٠٠٢هـ = ٣٩٢م)، وقد استخلف على الحجابة من بعده ابنه عبد الملك بن المنصور، فتوَّلَ الحجابة منذ قُتل والده وحتى وفاته سنة (١٠٠٩هـ = ٣٩٩م) أي سبع سنوات متصلة، سار فيها على نهج أبيه في تولي حُكم البلاد، فكان يُجاهد في بلاد النصارى كل عام مرتَّة أو مرَّتين، كل هذا وهو -أيضاً- تحت غطاء الخلافة الأموية.

في هذه الأثناء وعند بداية ولاية عبد الملك بن المنصور أمر الحجابة كان الخليفة هشام بن الحكم قد بلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، ومع ذلك فلم يطلب الحكم، ولم يحاول قط أن يُعمل نفوذه وسلطانه في بلاد الأندلس، فكان قد تعودَ على حياة الدعة واستماع الأوامر من الحاجب المنصور ومن تلاه من أولاده.

لِتَرَى مَا يَعْمَلُ أَنْوَارُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَنْجَافِ وَالْأَنْجَافِ الْأَعْمَارِ :

في سنة (١٠٠٩هـ = ٣٩٩م) توفي الحاجب المظفر، فتوَّلَ أمر الحجابة من بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور؛ حيث كان أولادبني عامر يتملَّكون زمام الأمور في البلاد، وأخذ -أيضاً- يُدير الأمور من وراء الستار، لكنه كان مختلفاً عن أبيه وأخيه، فإضافة إلى أن أمَّه كانت بنت ملك نافار وكانت نصرانية، فقد كان عبد الرحمن بن المنصور شاباً ماجناً فاسقاً، شَرَّاباً للخمر، فعالاً للزنا، كثير

المنكرات، فكره الناس في الأندلس^(١).

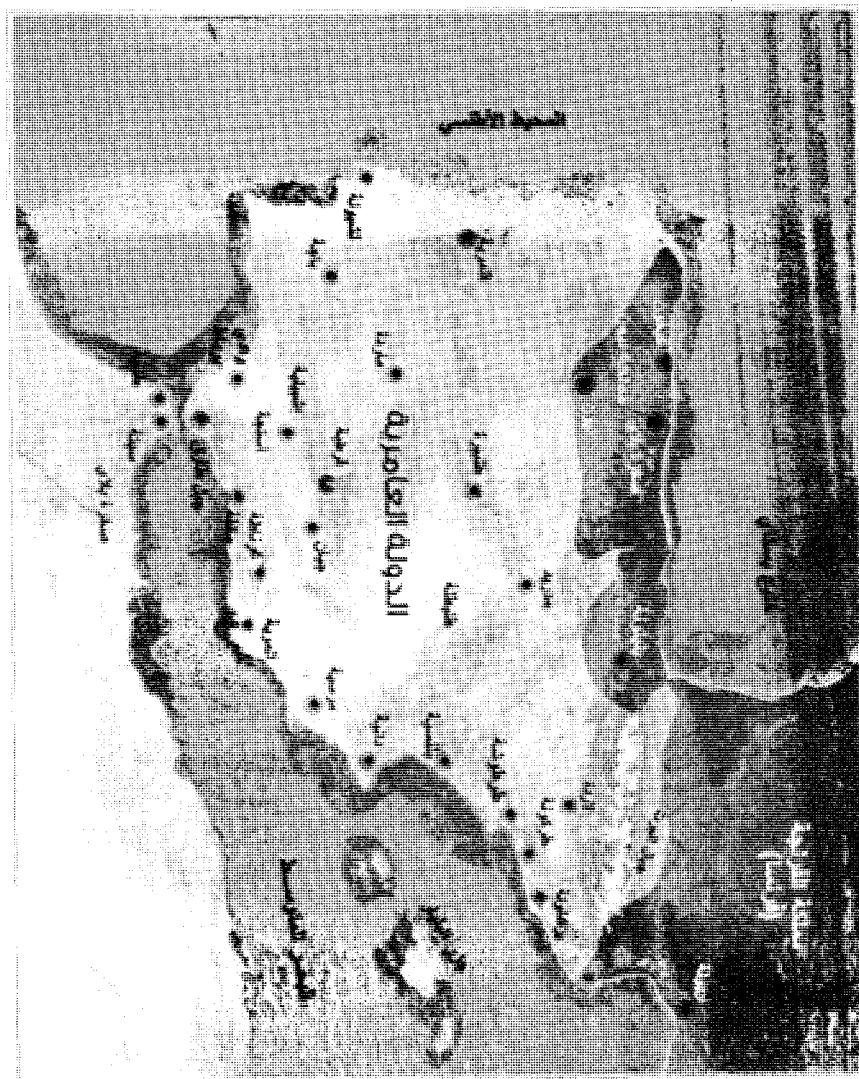
وفوق ذلك فقد قام عبد الرحمن بن المنصور بعمل لم يعهد من قبل عند العامريين، وهو أنه أجبر الخليفة هشام بن الحكم في أن يجعله ولیاً للعهد من بعده، وبذلك لن يُصبح الأمر من خلف ستار الخلافة الأموية كما كان العهد حال توی والده محمد بن أبي عامر، أو أخيه عبد الملك بن المنصور، فكان أن ضجّ بنو أمية لهذا الأمر، وغضبوا وغضب الناس أجمعون، لكن لم تكن لهم قدرة على القيام بأي رد فعل؛ خاصة وأن عبد الرحمن بن المنصور قد جعل جميع الولايات في أيدي العامريين وفي يد البرير، الذين هم أتباع العامريين منذ أيام الحاجب المنصور^(٢).

ومع كل هذا الفسق وهذا المجون الذي كان يعيشه عبد الرحمن بن المنصور إلا أن الشعب كان قد تعود حياة الجهاد، والخروج كل عام إلى بلاد النصارى، فلما خرج عبد الرحمن بن المنصور على رأس جيش من الجيوش إلى الشمال، انتهز الناس الفرصة وأرادوا أن يغيروا من الأمر، فذهبوا إلى هشام بن الحكم في قصره وخلعوه بالقوّة، وعيّنوا مكانه رجلاً منبني أمية اسمه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (من أحفاد عبد الرحمن الناصر)، وما أن طار الخبر إلى عبد الرحمن حتى بدأت الجموع التي معه تنفّض من حوله شيئاً فشيئاً، فلما دخل إلى قرطبة كان الناس قد انفضوا عنه وانحازوا إلى محمد بن هشام الذي تلقّب بـ«المهدي»، ثم ما لبث أن أرسل إليه المهدي جماعة قبضوا عليه وقتلوه وأرسلوا إليه برأسه^(٣).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٣٨، وأبن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٦٦.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٩٤، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٩، والمقربي: نفح الطيب، ١/٤٢٦.

(٣) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٩٦، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٤٩، والمقربي: نفح الطيب، ١/٤٢٦.



خريطة رقم (١١) حدود الولايات المتحدة

وتقول بعض الروايات أنه التجأ إلى دير فأعطاه أحد رهبانه طعاماً وشراباً، ثم عثر عليه رجال بنى أمية سكران، فأظهر الخوف والحزن، وادعى دخوله في طاعة المهدى، فلم يشفع له ذلك فقتلوه^(١).

واشتعلت الثورات في الأندلس، فكأنَّ مقتل عبد الرحمن بن المنصور واشتعال الفتنة والثورات في الأندلس كانا بميعاد، فمنذ أن قُتل عبد الرحمن بن المنصور العامري انفطر العقد تماماً في البلاد، وبدأت الثورات تكثر والمكائد تتواتي، وبدأت البلاد تُقسَم.

* * *

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٧٢.

الفصل التاسع

الشتاء وسقوطها الخالفة الأبيوية

بعد خلع هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر وولاته محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، الذي تلقب بالمهدى، انفرط العقد تماماً في الأندلس، فلم يكن يملك المهدى من لقبه إلا رسمه، إذ كان فتى لا يحسن قيادة الأمور، وليس له من فن الإدارة شيء، فكان من أول أعماله في الحكم ما يلي:

أولاً: ألقى القبض على كثير من العامريين ونفاهم إلى أطراف البلاد، وانتهك العامريين حتى بلغ في انتهاكهم وانتهاب أموالهم أن ترجم الناس على أيام العامريين، وهدم الزاهرا وأباح انتهاها، فنهض السفهاء يتسابقون حتى هدمت الزاهرا وتركت خراباً كأن لم تغن بالأمس^(١).

ثانياً: فصل سبعة آلاف من الجندي، وهو عدد كبير، فتغيرت عليه قلوب هؤلاء^(٢).

ثالثاً: أساء إلى البربر حتى بدأ العامة يتطاولون عليهم، وقد كانوا في ذلك الوقت أولو قوة وعصبية، كما كانوا حديثى عهد بالسلطان، ثم إنهم كانوا قد انفصلا عن شنجول حينما رأوا سوء سياسته، وساعدوا أخصومه، ولكن ورغم ذلك كله، لم تكن نفوسبني أمية قد صفت من ناحيتهم؛ إذ كانوا عِماد الدولة العاميرية التي أخذت منهم سلطانهم، فأسأوا إليهم، وكان المهدى يُظهر سخطه لهم

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٦٣ / ٣، وما بعدها.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٧٨ / ٣.

ولا يُخفى، حتى وصل به الحال إلى أن أُعلن أنَّ مَنْ قُتل ببريرياً فسينال جائزة، فسارع أهل قُرطبة إلى قتل البرير وهتك أعراضهم! وكان البرير قبل حدوث هذا يستعدُون للثورة عليه؛ لما كان منه من عداوة، فلِمَا حَدَثَ مَا حَدَثَ زاد حنقهم وغيظهم وحماسهم على الثورة عليه^(١).

أشار هذا الفعل غير الحصيف من قِبَل المهدى غضباً عارماً لدى البرير والعامريين، بل وعند الأمويين أنفسهم، الذين لم يعجبهم هذا القتل وذاك التشريد، وهذه الرعونة في التصرُّف، فبدأ يحدث سخط كبير من جميع الطوائف على المهدى، ولم يكن ليقف الأمر عند هذا الحدّ؛ فقد تجمَّع البرير وانطلقوا إلى الشمال، وهناك أتوا بسليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فنصَّبُوه عليهم ولقبُوه بالمستعين أمير المؤمنين، وبدأ يحدث الصراع بين سليمان بن الحكم هذا ومنْ وراءه البرير وبين المهدى في قُرطبة، وكان البرير من قبل قد فكروا في مناصرة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فقبض المهدى عليه وعلى أخيه وقتلهما، ففرَّ ابن أخيهما سليمان بن الحكم إلى البرير بظاهر قُرطبة، فباعوه ولقبوه المستعين بالله^(٢).

بين المهدى وسليمان بن الحكم وحدث غريب:

وَجَدَ سليمان بن الحكم وَمَنْ مَعَهُ مِنَ البرير أَنَّ قُوَّتَهُمْ ضَعِيفَةُ، وَلَنْ تَقْوِيْ عَلَى مُجَاهَةِ قَوَاتِ الْمَهْدِيِّ، فَقَامُوا بِعَمَلٍ لَمْ يُعْهَدْ عَلَى الْأَمْوَيِّينَ مِنْ قَبْلٍ فِي بَلَادِ الْأَنْدَلُسِ.. اسْتَعَانُوا بِمَلْكِ قَشْتَالَةِ.

وَكَانَتْ مَلْكَةُ قَشْتَالَةِ هَذِهِ هِيَ أَحَدُ جُزَّاَيْ مَلْكَةِ لِيُونَ فِي الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ نَشَبَتْ فِيهَا (مَلْكَةِ لِيُونَ) حَرْبٌ دَاخِلِيَّةٌ، وَانْقَسَمَتْ عَلَى نَفْسِهَا فِي سَنَةِ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٨٠، ٨٠/٧٥، وابن الخطيب: أعيال الأعلام، ص ١١٣، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٥٠.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٥٠.

(٩٧٠هـ = ٣٥٩م) إلى قسمين، فكان منها قسم غربي؛ وهو مملكة ليون نفسها، وقسم شرقي وهو مملكة قشتالة، وكلمة قشتالة تحريف لكلمة كاستولَة، وتعني - أيضًا - قلعة باللغة الإسبانية، فحُرِّفت في العربية إلى قشتالة، وكانت قد بدأت تكبر نسبيًّا في أول عهد ملوك الطوائف؛ فاستعان بها سليمان بن الحكم والبربر على حرب المهدى.

وبين المهدى من ناحية وسليمان بن الحكم والبربر وملك قشتالة من ناحية أخرى دارت موقعة كبيرة، هُزم فيها المهدى أو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وتولَّ سليمان بن الحكم مقاليد الحكم في بلاد الأندلس، وبالطبع كانت فرصة من السماء لملك قشتالة لضرب الأندلسيين ببعضهم البعض، ووضع قاعدة لجيشه وجنته في أرض الأندلس، تلك البلاد التي طالما دفعت الجزية كثيرًا للمسلمين من قبل^(١).

وفي فترة مدتها اثنتان وعشرون سنة يتولَّ حكم المسلمين في الأندلس ثلاثة عشر خليفة متتاليين، بدأت هذه الفترة بهشام بن الحكم سنة (٩٧٠هـ = ٣٥٩م)، ثم المهدى، ثم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي تولَّ الحكم، (وكان قد استعان بملك قشتالة وذلك في سنة (٤٠٠هـ = ١٠١٠م).

بين المهدى وسليمان بن الحكم وحدث أغرب:

وتدور الأحداث بعد ذلك، حيث يفرُّ المهدى - الذي انهزم أمام سليمان بن الحكم أو المستعين بالله - إلى الشمال حيث طُرُطُوشة، وفي طُرُطُوشة - وحتى يرجع إلى الحكم الذي انتزعه منه سليمان بن الحكم، والذي لم يبقَ فيه غير شهر قليلة - فكَّر المهدى في أن يتعاون مع أحد أولادبني عامر الذين كانوا أعداءه منذ قليل.

كان المهدى قد قابل في طُرُطُوشة رجلًا من مواليبني عامر يُدعى الفتى

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٩١، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٥٠، والمقرى: نفح الطيب، ١/٤٢٨.

واضح، وكان واضح قد بايع للمهدي بمجرد أن اعتلى كرسي الخلافة، ففر إليه المهدي في طليطلة، لما خاف القتل في قُرطبة. وقد أقمع المهدي بأنه سيتعاون معه ليُعيده إلى الملك من جديد، ويبقى هو على الوزارة كما كان في عهد الدولة العاميرية من قبل، وهذا ما وافق قبولاً لدى المهدي، فقبل عرض الفتى واضح، وبداء متعاونان معًا لتنفيذ مخططهما ذلك.

في بداية الأمر وجد الفتى واضح والمهدي أنها لن يستطيعاً أن يصدما أمام قوة كبيرة مثل التي يملكها سليمان بن الحكم والبرير ومعهما ملك قشتالة، فهذا هما تفكيرهما في الاستعانة بأمير برشلونة، وبرشلونة هذه كانت ضمن مملكة أراجون، التي تقع في الشمال الشرقي للأندلس، والتي كان يدفع حاكمها الجزية لعبد الرحمن الناصر ولابنه وأيضاً للحاجب المنصور، فلما حدثت هذه الهزة في بلاد المسلمين انخلعت من هذه العبادة، وقامت من جديد، فكان أن استعان بجيشها المهدي والفتى واضح في حرب سليمان وملك قشتالة.

وقد وافق أمير برشلونة على أن يساعدهم؛ لكن على شروط؛ هي:

أولاً: مائة دينار ذهبية له عن كل يوم في القتال.

ثانياً: دينار ذهبي لكل جندي عن كل يوم في القتال، وقد تطوع الكثير لحرب المسلمين، فكان عدد الجيش كبيراً.

ثالثاً: أخذ كل الغنائم من السلاح إن انتصر جيش برشلونة مع المهدي والفتى واضح.

رابعاً: أخذ مدينة سالم، التي تمثل التغر الشمالي الذي طالما انطلق منه الجihad ضد الملك النصارى.

وهي بلا شك شروط قبيحة ومخزية، ولا ندرى كيف يُوافق مسلم على مثلها؟!

حتى إن وصف ابن عذاري لما حدث يدل على مدى قبحه، قال: ووافق الروم على إدخالهم مدينة سالم وتسليمها لهم، فأخلالها ممن كان فيها من المسلمين، وأنزلها الكافرين؛ ليقاتلوا معه البربر حماية للفاجر ابن عبد الجبار، فدخل الإفرنج مدينة سالم قاعدة الشغر الأوسط وملكتها، فأول ما دخلوا من المدينة الجامع... وضربوا فيه الناقوس وحولوا قبلته... ثم شرطوا على واضح أن يتلزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم، وما يقوم به من الشراب واللحم.. وغير ذلك، ويجرى على القومس (الكونت) في كل يوم مائة دينار، وما يقوم به من الطعام والشراب.. وغير ذلك، وعلى أنّ لهم كل ما حازوه من عسكر البربر من سلاح وگُرّاع^(١) ومال، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم، لا يحول أحد بينهم وبينهم، وشرطوا عليه شروطاً كثيرة غير هذه فالالتزام بذلك كله لهم^(٢).

وبدأت بالفعل موقعة كبيرة جداً في شمال قرطبة بين المهدى (محمد بن هشام بن عبد الجبار) ومعه الفتى واضح العامرى ومعهم أمير برشلونة من جهة، وسلیمان بن الحكم الخليفة الملقب بالمستعين بالله ومعه البربر من جهة أخرى، انتصر فيها المهدى ومن معه، وانهزم سليمان بن الحكم، وفرَّ ومنْ بقي معه من البربر، وسلمت مدينة سالم لأمير برشلونة، ومثلها الغنائم، وتولى المهدى الحكم من جديد في قرطبة^(٣).

المعنى واضح ومحنة شفاعة بين الحكم الخليفة المخون:

لم يتراجع المهدى عن سياساته التي أشعلت الفتنة، وظلَّ على تبعه للبربر وقتلهم وانتهاكهم بمساعدة الصليبيين، كذلك البربر لم يكن أمامهم إلا أن يقاوموا ويشنوا الغارات على قرطبة، حتى ضيَّقَ أهل قرطبة، وأغروا الفتى واضح العامرى،

(١) الگُرّاع: السلاح، وقيل: هو اسم يجمع الخيل والسلاح. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كرع ٣٠٦/٨.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٩٤.

(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/٩٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١١٥.

وهو حاجب المهدي، بأن يقتله فإنه هو سبب ما نزل من الفتنة، وأعان على ذلك أن المهدي كان -وسط هذه الأجواء- منشغلًا بملذاته.

ولا نستبعد أن واضحًا -أيًضاً- لم تصف نفسه تجاه المهدي؛ فهو الذي شتّى العارمين وأذهب دولتهم؛ ومن ثُمَّ فما هو إلا قليل حتى انقلب واضح على المهدي فقتله، وبدأ هو في تولي الأمور، كان الفتى واضحًا ذكي من عبد الرحمن بن المنصور، هذا الذي طلب ولادة العهد من هشام بن الحكم قبل ذلك، فقد رفض أن يكون هو الخليفة؛ حيث اعتاد الناس أن يكون الخليفة أمويًا وليس عامريًّا؛ ومن ثُمَّ فإذا فعل ذلك فسيضمن لا تحدث انقلابات عليه، وأيًضاً يكون محل قبول لدى جميع الطوائف.

ومن هنا فقد رأى الفتى واضح أن يُنَصِّب خليفةً أمويًّا ويحكم هو من ورائه، وبالفعل وجد أن أفضل مَنْ يقوم بهذا الدور ويكون أفضل صورة لخليفةً أمويًّ هو هشام بن الحكم الخليفة المخلوع من قبل، هذا الذي ظلَّ مجرَّد اسم طيلة ثلاثة وثلاثين سنة أيام المنصور محمد بن أبي عامر، ثم عبد الملك بن المنصور، ثم في يد عبد الرحمن بن المنصور على التوالي.

وعاد هشام بن الحكم -الذي كان ملقبًا بالمؤيد بالله- من جديد إلى الحكم، لكن زمام الأمور كانت في يد الفتى واضح^(١).

سلیمان بن الحكم وأعمال يتآلف من ذكرها التاريخ :

كان سليمان بن الحكم لم يُقتل بعد وما زال في البلاد يُدَبِّر المكائد؛ يُريد أن يعود إلى الحكم من جديد، ولم يجد أمامه إلَّا أن يعود مرَّة أخرى إلى ملك قشتالة (المرة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٩٧/٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٥١، والمرقي: نفح الطيب ١/٤٢٨.

الأولى كان قد ساعده على هزيمة المهدي والوصول إلى الحكم؛ ليعرض عليه من جديد أن يكون معه ضد الفتى واضح وهشام بن الحكم حتى يصل إلى الحكم.

ويبدو أن مكيدة سليمان هذه وصلت إلى بلاط قرطبة، ولا نستبعد أن يكون الذي أوصلها هو ملك قشتالة نفسه، فما كان من هشام بن الحكم واضح العامر ي إلا أن نزلوا الملك قشتالة عن مائتي حصن من الحصون الشمالية، التي كان قد افتحتها الحكم والمتصور والمظفر بن المنصور، فتوسعت قشتالة كثيراً حتى أصبحت حدودها أكبر من حدود مملكة ليون، بالرغم من أنها كانت جزءاً صغيراً منفصلة عن مملكة ليون، وعظمت بذلك البلاد النصرانية في الشمال^(١).

وإنها لكارثة كبيرة قد حلّت بديار الإسلام؛ فقد حدثت كل هذه الأحداث من القتل والمجائد والصراعات والاستعانت بالنصارى ثم دخولهم بلاد المسلمين، كل ذلك في ثلاثة سنوات فقط.

وفي سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م) -عندما كان هشام بن الحكم على الحكم- قام سليمان بن الحكم ومن معه من البربر بعمل لم يحدث في تاريخ المسلمين من قبل وحتى هذه اللحظة؛ فقد هجموا على قرطبة وعاشو فيها فساداً وقتلوا وأغتصبوا النساء، ثم من جديد يتولى سليمان بن الحكم (المستعين بالله) الحكم في بلاد الأندلس، وفر هشام بن الحكم أو قُتل، فلم يُعرف مصيره على وجه اليقين، وكان مقر الحكم آنذاك هو قرطبة، لكن البلاد كانت مفككة تماماً، وقد فر العامريون إلى شرق الأندلس في منطقة بلنسية وما حولها^(٢).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب /٤١٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١١٧، والمقربي: فتح الطيب، ٤٢٨/١

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/١١٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١١٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/١٥١، والمقربي: فتح الطيب، ١/٤٢٩

البرير والانقلاب على سليمان بن الحكم وتأجج الصراعات:

من سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م) ظلَّ سليمان بن الحكم يتولَّ الحكم، وكان غالبية جيشه من البرير، وبعد عام واحد من تولِّيه يثور حاكم مدينة سبتة الغربية، ويُدَعَى علي بن حمود - وقد كان من البرير - أنه وصلت إليه رسالة على لسان هشام بن الحكم المؤيد بالله (الخليفة المخلوع مرتين) تُوصي إليه بالخلافة من بعده^(١)، وبعض الروايات تقول بأن البرير - الذين هم عماد جيش سليمان المستعين بالله - أرادوا الانقلاب عليه وألْفَوا هذه الرسالة على لسان هشام، وبعثوا بها إلى علي بن حمود، فثار علي بن حمود في سبتة، واتصل بعض من يُناصره في الأندلس، ثم عبر إليها، وفي سنة (٤٠٧هـ = ١٠١٦م) وقعت المعركة بين علي بن حمود، وبين سليمان المستعين بالله، فانتصر علي بن حمود، وتولَّ الحكم في قُرطبة وقتل سليمان وأخاه وأباهما الحكم؛ كي يضمن ألا يثور عليه أحد، ثم تولَّ الحكم في بلاد وَسَمَّى بالناصر بالله^(٢).

واستقرَّ الأمر لعلي بن حمود، فبدأ بذلك عهد الدولة الحموية في قُرطبة، وقام بتعيين أخيه القاسم بن حمود على إشبيلية في سنة (٤٠٧هـ = ١٠١٦م)، وأصبح البرير هم الخلفاء الذين يتملَّكون الأمور في قُرطبة وما حولها.

لم يرض العامريون الذين فرُّوا إلى شرق الأندلس بهذا الوضع، فما كان منهم إلا أن بحثوا عن أموي آخر وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ثم بايعوه على الخلافة، وقد تلقَّب بالمرتضى بالله^(٣).

سار العامريون ومعهم المرتضى بالله إلى غرناطة كمقدمة للتوجُّه إلى قُرطبة،

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ١١٦/٣.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٢١.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٠.

ولكن -وكما هي العادة في زمن الفتنة- وقع أمر عجيب، فقد فوجئ خيران العامري بقوة شخصية المرتضى، وأيقن أنه لن يكون أبداً صورة خليفة كما كان هشام المؤيد بالله، فكان أن انقلب عليه سرّاً فتحالف مع الحموديين، فلما نشبّت المعركة بين المرتضى ومعه خيران العامري وبين زاوي بن زيري -والي غزّاتة البربرى- انهزم خيران، فانهزم جيش المرتضى، ثم أدركه بعض فتيان خieran فقتلوه.

وكان من العجيب -أيضاً- ما حدث قبل ذلك بقليل؛ إذ تآمر ثلاثة فتيان من الصقالبة موالى بنى أمية بال الخليفة الجديد علي بن حمود فقتلوه في الحمام، وعلى الفور راسل البربر المتغلبون على قرطبة أخا عليّ المقتول القاسم بن حمود، الذي كان حاكماً لإشبيلية من قبل أخيه الذي قُتل.

لكن ما لبث الحال أن تطور -أيضاً- فلقد ثار على القاسم ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود في سبعة، ورأى أنه الخليفة الطبيعي بعد وفاة أبيه، واجتمع حوله نفر من البربر، وسار في جموعه إلى قرطبة، فانسحب أمامه عمّه القاسم واتجه إلى إشبيلية، ثم كان من أعجب العجب أن تصالح كل منهما مع الآخر، فرضي كل منهما أن يكون الآخر الخليفة، وفي ذلك يقول ابن حزم: «وهذا أمر لم يسمع في الدنيا بأشنع منه، ولا بأدلّ على إدبار الأمور: يحيى بقرطبة والقاسم بإشبيلية»^(١).

غير أن الأمور لم تهدأ؛ فكلما نصب حاكم في قرطبة ثار عليه القرطيون إن كان من البربر، أو لم يستطع ضبط الأمور إن كان أمواً، لقد انتهى عهد الرجال الأقوباء من بنى أمية، ولم يبق إلاّ ضعيف الرأي والعزم، وقامت بعد ذلك صراعات كثيرة، واستمرَّ الوضع على هذا الحال حتى سنة (٤٢٢هـ = ١٠٣١م).

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ٩٢ / ٢

النهاية الخامسة: مجلس الشراكة الأهلية

في محاولة حلّ هذه الأزمة التي تمرّ بها البلاد، وفي محاولة لوقف هذه الموجة من الصراعات العارمة، اجتمع العلماء وعليه القوم من أهل قرطبة، وذلك في سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣١ م)، ووجدوا أنه لم يَعُدْ هناك من بني أمية مَنْ يَصلُحُ لإدارة الأمور؛ وكان زعيم هذا الأمر قاضي قُرطبة البارز وصاحب التاريخ والخصال أبا الحزم بن جهور، فلقد كان أبو الحزم هذا من علماء القوم، كما كان يشتهر بالقوى والورع ورجاحة العقل، وظلَّ الحال على هذا الوضع ما يقرب من ثلاث سنوات.

كون ابن جهور مجلساً للشوري لإدارة البلاد، لكن حقيقة الأمر أن أبا الحزم بن جهور لم يكن يُسيطر هو ومجلس الشوري الذي معه إلا على قُرطبة فقط من بلاد الأندلس، أمّا بقية البلاد والأقاليم الأخرى فقد ضاعت السيطرة عليها تماماً، وبدأت الأندلس بالفعل تُقسَّم بحسب العنصر إلى دواليات مختلفة؛ ليبدأ ما يُسمَّى بعهد دواليات الطوائف، أو عهد ملوك الطوائف^(١).

وقد ذكرنا -سابقاً- أن مساحة الأندلس كانت ستمائة ألف كم، فإذا طرحت منها ما أخذه النصارى في الشمال؛ فإن النتيجة هي أربعينات وخمسون ألف كم (أقل من نصف مساحة مصر) مقسمة إلى اثنين وعشرين دولة؛ كل منها لها مقومات الدولة المتكاملة من رئيس وجيش وزارات وعملة وسفراء، ففتّت المسلمين في الأندلس تفتتاً لم يُعهد من قبلٍ في تاريخهم، وقدوا بذلك عنصراً مهمّاً جداً من عناصر قوتهم وهو الوحدة، فكان الهبوط على أشدّ ما يكون، ولا حول ولا قوة إلا

بإذنه!

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١٩٥ / ٤.

الفصل العاشر

وقفة مع أسباب السقوط



كان رأي بعض الباحثين أن سبب سقوط الدولة العاميرية؛ ومن ثم سقوط الخلافة الأموية هو توقيع عبد الرحمن بن المنصور الحكم، ذلك الفاسق الماجن الذي أسقط بنى أمية وأحدث هذه الاضطرابات الكثيرة في البلاد.

وحقيقة الأمر أنه ليس من سنن الله تعالى أن تهلك الأمم لمجرد ولادة رجل فاسق لشهور معدودات، فلم يمكن عبد الرحمن بن المنصور في الحكم إلا أقل من عام واحد، وممّا بلغ أمره من الفحش والمجون فلا يمكن بحال أن يؤدي إلى مثل هذا الفشل الذريع، والسقوط المدوي للبلاد، فلا بد إذاً أن تكون هناك أسباب وجذور أخرى. انتقدت من قبل وتزايدت مع مرور الزمن، حتى وصلت أوجها في فترة عبد الرحمن بن المنصور؛ ومن ثم كان هذا التفتّت وذلك الانهيار.

وكما رأينا -سابقاً- في تحليلنا لأسباب ضعف الإمارة الأموية، وكيف كانت لهذا الضعف أسباب وجذور تمتد إلى عهد قوة الإمارة الأموية ذاتها، فإن هناك ثلاثة أسباب رئيسة لسقوط الدولة الأموية؛ ومن ثم الدولة العاميرية؛ نذكرها فيما يلي:

السبب الأول: انتشار الترف والإسراف.

ويرجع هذا إلى زمن عبد الرحمن الناصر ذاته، ذلك الرجل الفذ الذي أتسم عصره بالبذخ والترف الشديدين، وكثرة إنفاق الأموال في زخرفة الدنيا؛ ومن ثم انشغال الناس بتواصه الأمور، وكانت الدنيا هي المهلكة، وليس أدلة على ذلك من

قصر الزهراء، الذي أنشأه عبد الرحمن الناصر، وكان آية في الروعة والجمال، وأعجوبة من أعاجيب الزمان في ذلك الوقت؛ فقد كان على اتساعه وكبر حجمه مبطنًا من الداخل بالذهب، بل كان سقفه -أيضاً- مبطناً بخلط من الذهب والفضة، بأشكال تخطف الأبصار وتبهر العقول^(١)، ومع أن عبد الرحمن الناصر لم يكن مُقَصِّرًا في الإنفاق على أي شأن من شئون الدولة؛ مثل: الإنفاق على التعليم، أو الجيش.. أو غيره، إلا أنَّ فعله هذا يُعدُّ نوعاً من البذخ والترف المبالغ فيه؛ أدى في النهاية إلى أن تتعلق القلوب بالدنيا وزخرفها.

وما جاء في ذلك أن القاضي المنذر بن سعيد رحمه الله دخل على عبد الرحمن الناصر في قصره وكان على هذا الوصف السابق، فقال له عبد الرحمن الناصر: ما تقول في هذا يا منذر (يُريد الافتخار)؟! فأجابه المنذر ودموعه تقطر على لحيته قائلاً: ما ظنت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ على ما آتاك الله من النعم، وفضلك على كثير من عباده تفضيلاً حتى يُنزلك منازل الكافرين.

فقال عبد الرحمن الناصر: انظر ما تقول، كيف أنزلني الشيطان منازل الكافرين؟! فرد عليه المنذر: أليس الله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُبُوْتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فقد ذكر الله سبحانه السُّقُفَ التي من فضة في هذه الآية على سبيل التعجيز؛ يعني: لو لا أن يكفر الناس جمِيعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا، وترجمهم الآخرة لأعطيتهم في الدنيا ما وصفناه؛ هو ان الدنيا عند الله سبحانه، لكنَّا لم نجعله، إلا أن عبد الرحمن الناصر فعله، وجعل لقصره سقفاً من فضة.

وهنا وجم عبد الرحمن الناصر بعدما سقطت عليه تلك الكلمات كالصخر، ثم

(١) انظر: الميري: نفح الطيب، ٥٦٦ / ١

بدأت دموعه عليه تنساب على وجهه، وقام على الفور ونقض ذلك السقف، وأزال ما به من الذهب والفضة، وبناءً كما كانت تُبَنِّي السُّقُفَ في ذلك الزمان، إلا أن مظهر الترف -لكرة الأموال ومع مرور الوقت- يعود ويزداد من جديد، حتى أصبح الإنفاق في لا شيء، وقد قال الله تعالى: ﴿إِذَا أَزْوَجْتُمُوهُنَّ لَا يَرْجِعُونَ إِنَّمَا يَنْهَا أَهْلُ الْمُحَاجَةِ إِنَّمَا يَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ إِنَّمَا يَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُنْكَرُ ذَلِكُمْ فَحْشًا﴾ [الإسراء: ١٦] (١)

لِمَنْ يُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِنَا فَلَا يُكَفِّرُونَ

إضافة إلى الترف والإسراف فقد كان توسيد الأمر لغير أهله من أهم الأسباب التي أدّت إلى سقوط الدولة العاميرية والخلافة الأموية، ولقد تجسّد هذا العامل واضحاً جلياً حين وَلَى الحُكْمَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ ابْنَهُ أَمْوَارَ الْحُكْمِ فِي الْبَلَادِ، وَهُوَ مَا زَالَ طَفْلًا لَمْ يَتَجاوزِ الثَّانِيَةِ عَشَرَةَ سَنَةً بَعْدُ، فَأَذْنَ بِهِ ذَلِكَ زَوَالَ الدُّولَةِ الْأَمُوِيَّةِ؛ إِذْ تَوَلَّ الْحُكْمَ رِجَالٌ لَمْ يَمْلِكُوهُ عَصَبَةً الْأَمُوِينَ، فَلَئِنْ كَانَ مِنْهُمْ مُقْتَدِرُونَ مُوْهَبُونَ كَمَا كَانَ الْمُنْصُورُ وَابْنُهُ، فَلَمْ يَكُنْ هَذَا مُتَوفِّراً فِيمَنْ بَعْدَهُمْ.

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من توسيد الأمر لغير أهله حين أجاب السائل عن
أمارات وقت الساعة بقوله: «إِنَّمَا يُحَذَّرُ الْأَمْرُ إِلَيْيَّ فَمَنْ تَوَسَّدُ
إِصْبَاعَهَا؟» قال: «إِنَّمَا يُحَذَّرُ الْأَمْرُ إِلَيَّ فَمَنْ تَوَسَّدُ
إِصْبَاعَهَا؟» (٢).

وهكذا إذا تولىَ مَنْ لا يستحقُ منصباً من المناصب، فلا بُدَّ وأن تحدث المَرَّةُ في
البلاد ويحدث الانهيار، فما البال وما الخطب إذا كان هذا المنصب هو منصب الخليفة
أعلى مناصب الدولة؟! فقد ضيَّعَت الأمانة، ووَسَّدَ الأمر لغير أهله، فكان لا بدَّ أن
تقع الأندلس وتسقط الخلافة الأموية والدولة العاميرية.

(١) أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٢.

(٢) البخاري: كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل (٥٩) عن أبي هريرة رض، وأحمد (٨٧١٤)، والبيهقي (٢٠١٥٠).

الفصل الثاني عشر

مدينة قرطبة جوهرة العالم



إنما للفائدة رأينا أن تقف بالقارئ على وصف مدينة قرطبة عاصمة الأندلس الفاخرة الباهرة في أيام روعتها ومجدها.

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنية أثناء القرن العاشر (الميلادي) كانت في الحقيقة خطأ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينيسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بها هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعائة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حكام ليون، أو النافار، أو برشلونة إلى جراح، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي فلا يتوجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة»^(١). هذا هو وصف أحد الغربيين لمدينة قرطبة الأندلسية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو جون براند ترند.

فامتداداً لحضارة إسلامية إنسانية -علمياً، وقيماً، ومجداً- بزغ نجم مدينة قرطبة، كشاهدٍ حيٍ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعز الإسلام في ذلك الوقت من التاريخ، وهو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، يوم أن كانت أوروبا تغطُّ في جهل عميق. قرطبة.. ذلك الاسم الذي طالما كان له جرس معين، ووقع خاصٌ في الأذن الإسلامية، بل وفي أذن كل أوربي آمن بالنهضة والحضارة الإنسانية، يقول المكري:

(١) جون براند ترند: إسبانيا والبرتغال، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف أرنولد، ص ٢٧.

قال بعض علماء الأندلس: [البسيط]

بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ الْأَمْصَارَ قُرْطُبَةَ
هَاتَانِ ثِنْسَانِ وَالزَّهْرَاءِ ثَالِثَةَ
مِنْهُنَّ قَطْرَةُ الْوَادِيِّ وَجَامِعُهَا
وَالْعِلْمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ وَهُوَ رَابِعُهَا^(١)

وستتعرف على قرطبة.. المدينة الجميلة.. من خلال النقاط التالية:

- لحة جغرافية وتاريخية

- بعض مظاهر الحضارة في قرطبة

- قرطبة.. المدينة العصرية

- قرطبة في عيون العلماء والأدباء

لحة جغرافية وتاريخية :

هي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا، وقد أرَخت لها موسوعة المورد الحديثة فقالت: «أسسها القرطاجيون فيما يعتقد، وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين»^(٢). وقد قام بفتحها القائد الإسلامي الشهير طارق بن زياد، وذلك سنة (٩٣هـ = ٧١١م). ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخطُّ لنفسها خطًّا جديداً، وملمحًا مهمًّا في تاريخ الحضارة؛ فبدأ نجمها في الصعود كمدينة حضارية عالمية، لا سيما في عام (١٣٨هـ = ٧٥٦م)، عندما أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بعدما سقطت في دمشق على أيدي العباسين.

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (أول خليفة أموي في الأندلس) ومن بعده ابنه

(١) المقرى: فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب / ١٥٣.

(٢) موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥م).

الحكم المستنصر، بلغت قرطبة أوج ازدهارها، وقمة رياقتها وحضارتها؛ خاصةً أنه اتخذها عاصمةً لدولته الفتية، ومقرًا له ك الخليفة للمسلمين في العالم الغربي، وقد جعل منها منبرًا للعلوم والثقافة والمدنية، حتى غدتْ تُنافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وب بغداد عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروانَ والقاهرة في إفريقيا، حتى أطلق عليها الأوربيون: «جوهرة العالم».

وقد شمل اهتمام الأمويين بقرطبة اهتمامهم كذلك بنواحي الحياة المختلفة فيها؛ من زراعة وصناعة، وبناء الحصون، ودور الأسلحة.. وغيرها، وقد شقّوا الترع، وحفروا القنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجارًا وثمارًا لم تكن تُزرع فيها.

بعض مظاهر الحضارة في قرطبة:

في السطور التالية نتعرّفُ على بعض مظاهر الرقي والحضارة التي تميّزت بها الأندلس عامّةً، ومدينة قرطبة خاصةً؛ لنقف على الإسهامات الإسلامية في مسيرة الإنسانية.

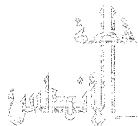
(١) قنطرة قرطبة:

كان من المعالم المهمّة في قرطبة (قنطرة قرطبة)، والتي تقع على نهر الوادي الكبير، وقد عُرفت باسم: (الجسر)، وأيضًا: (قنطرة الدهر)، وكان طولها أربعين مترًا متراً تقربيًا، وعرضها أربعين متراً، وارتفاعها ثلاثين متراً!

وقد شهد لها ابن الوردي والإدريسي بأنها «القنطرة التي علّت القناطرَ فَخْرًا في

بنائهما وإتقانها»^(١).

(١) ابن الوردي: خريدة العجائب وجريدة الغرائب ص ١٢، والإدريسي: نزهة المشتاق ٥٧٩ / ٢



كان عدد أقواسها سبع عشرة قوساً، بين كل قوس والآخر اثنا عشر متراً، وسعة القوس الواحد اثنا عشر متراً، وكان عرضها حوالي سبعة أمتار، وارتفاعها عن سطح ماء النهر بلغ خمسة عشر متراً^(١).

إن هذه الأبعاد كانت لقنطرة بُنيَت في بداية القرن الثاني الهجري (١٠١ هـ)؛ أي منذ ألف وأربعين عام، على يد السمح بن مالك الخولاني الذي كان والي الأندلس من قِبَل عمر بن عبد العزيز، أي في وقت لم يكن فيه الناس يعرفون من وسائل الانتقال إلَّا الخيل والبغال والحمير، ولم تكن وسائل وأساليب البناء على المستوى المتطور حينئذٍ؛ مما يجعل هذه القنطرة بهذا الشكل واحدة من مفاخر الحضارة الإسلامية.

٢) المسجدون قبل طهريه :

يعتبر الجامع الكبير من أهم معالم قرطبة وأثارها الباقيَة إلى اليوم، وهو يُسمى بالإسبانية (Mezquita) (وتنطق: ميتكيتا)، وهي تحريف لكلمة (مسجد)، وقد كان أشهر مسجد بالأندلس (على اعتبار أنه الآن كاتدرائية)، ومن أكبر المساجد في أوروبا! وقد بدأ بناءه عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠ هـ = ٧٨٦ م)، ومن بعده ابنه هشام الأول، وكان كل خليفة جديد يُضيف لهذا الجامع ما يزيد في سعته وتزيينه؛ ليكون أجمل المساجد في مدينة قرطبة، ومن أكبر المساجد وقت وجوده.

وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب الروض المعطار: وبها (بقرطبة) الجامع المشهور أمره الشائع ذكره، من أَجْل مساجد الدنيا كبر مساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإنقان بنية، تَهَمَّمَ به الخلفاء المرواريون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميَّأ إثر تتميم؛ حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن

(١) المقرئ: نفح الطيب / ٤٨٢٠.

هُسْنِه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميّاً وطولاً وعرضًا؛ طوله مائة باع^(١) وثمانون باعًا، ونصفه مسقّف ونصفه صحن بلا سقف، وعدد (أقواس) مسقّفة أربع عشرة قوسًا، وسواري مسقّفة بين أعمدته وسواري قبّه صغارًا وكبارًا مع سواري القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثرّيّاً للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلّها تحمل اثنى عشر مصباحًا، وجميع خشبها من عidan الصنوبر الطروشى^(٢)، ارتفاع الجائزه^(٣) منه شبر في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع، في طول كل جائزه سبعة وثلاثون شبرًا، وبين الجائزه والجائزه غلظ الجائزه، وفي سقفه من ضروب الصنائع والتقوش ما لا يُشبه بعضها بعضاً، قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة، والبياض، والزرقة، والحضره، والتكميل؛ فهي تروق العيون، وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها. وسعة كل بلاط من سقفه ثلاثة وثلاثون شبرًا، وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرًا، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام.

ولهذا الجامع قبله يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميّتها، وفيها من الفسيفساء المذهب والليلور مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله... وفي جهتي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أحضران، واثنان زرّزوريان^(٤)، لا تُقْوَم بهما، وعلى رأس المحراب خصّة^(٥) رخام

(١) القياسات القديمة كانت بوحدات الشبر والذراع والباع، والشبر يساوي ٢٣ سنتيمترًا تقريباً، والذراع يساوي نصف متر تقريباً. انظر: محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنبي: معجم لغة الفقهاء ١/٤٨، ٢٥٦/٢.

(٢) نوع من أنواع الخشب.

(٣) الجائزه من البيت: سهم البيت، أي الخشبة التي تحمل خشب البيت. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جوز ٥/٣٢٦.

(٤) الزرّزور: طائر من رتبة العصفوريات وهو أكبر قليلاً من العصفور، له ريش بنفسجي مائل إلى الحضرة، أو بريق أرجوانى فاتح، أو هو حجر أبيض رخوه، ومنه حمرى أو أصفر، وله بريق معدنى. ابن منظور: لسان العرب، مادة زرر ٤/٣٢١.

(٥) لعل المقصود كتلة رخام.

قطعة واحدة مسبوكة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللّازَرَوْدِ وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريب، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة؛ خشبه أبنوس، وبقى، وعود المجرم، يقال: إنه صُنِعَ في سبع سنين، وكان صناعة ستة رجال غير من يخدمهم تصرفاً!

وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطسوٌت^(١) ذهب وفضة وحسك^(٢)، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة سبع وعشرين من رمضان، وفي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله؛ فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان رض الذي خطّه بيمنيه، وفيه نقطة من دمه، ويُخرج هذا المصحف في صبيحة كل يوم، يتولى إخراجه قومٌ من قوّمة الجامع، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش، وله كرسيٌّ يُوضع عليه، فيتولى الإمام قراءة نصف حزبٍ فيه، ثم يُرفع إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يُفْضي إلى القصر، بين حائطي الجامع في سباط^(٣) متصل، وفي هذا السباط ثمانية أبواب، منها أربعة تنغلق من جهة القصر، وأربعة تنغلق من جهة الجامع، وهذا الجامع عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب^(٤) النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في غاية الإتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفصّ المتأخِّد من الأجر الأحمر المحكوك، وأنواع شتَّى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق.

(١) جع طشت وهو من الآنية. ابن منظور: لسان العرب، مادة طست، ٥٨/٢.

(٢) الحسك: من أدوات الحرب، ربما أخذ من حديد فألفي حول العسكرية، وربما أخذ من خشب فنصب حوله. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حسك، ٤١١/١٠.

(٣) السباط: سقية بين حائطين أو بين دارين، ومن تحتها طريق نافذ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سبط، ٣٠٨/٧.

(٤) كواكب جمع كوكب: المسماة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كوكب، ٧٢٠/١، والزيدي: تاج العروس، ١٥٨/٤.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة (المئذنة) الغربية الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال، ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي^(١)؛ منها ثمانون ذراعاً إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن، ومن هناك إلى أعلىهاعشرون ذراعاً، ويصعد إلى أعلى هذا المنار بدرجين: أحدهما من الجانب الغربي، والثاني من الشرقي، إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلاً الأعلى، ووجه هذه الصومعة مُبَطَّن بالكَذَان^(٢) منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة، بصنعة تحتوي على أنواع من التزويق والكتابة.

وبالأوجه الأربع الدائرة من الصومعة صَفَانِ من قِسْيَ (أقواس) دائرة على عقد الرخام، وبيت له أربعة أبواب مغلقة بيت فيه في كل ليلة مُؤَذِّنَان، وعلى أعلى الصومعة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهباً واثنتان من فضة وأوراق سَوْسَنَية، تَسْعُ الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلاً من الزيت، ويخدم الجامع كله ستُونَ رجلاً، وعليهم قائم ينظر في أمورهم^(٣).

وبقريبٍ من ذلك يصفه ابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب). وقد كانت ساحته تملأها أشجار البرتقال والرمان؛ ليأكل منها الجائعون والقادمون إلى المدينة من شتى البقاع! وما يحزن له القلب وتَدمع له العين أن هذا المسجد العظيم المهيـب قد تحـوـل عـقب سـقوـط الأندلس إـلـى كـاتـدرـائـيـة، وأـصـبـعـ تـابـعاـ لـلـكـنـيـسـةـ، مـعـ اـحـفـاظـهـ بـاسـمـهـ، وـتـحـوـلـتـ مـئـذـنـتـهـ الشـاهـقـةـ إـلـى بـرـجـ تـنـصـبـ فـوـقـهـ أـجـرـاسـ الـكـنـيـسـةـ لـإـخـفـاءـ طـابـعـهاـ إـلـاـ إـلـىـ قـرـآنـيـةـ نـقـوشـ قـرـآنـيـةـ تـعـكـسـ عـبـرـيـةـ فـيـةـ نـادـرـةـ، وـهـوـ الـآنـ مـنـ أـشـهـرـ المـوـاـقـعـ التـارـيـخـيـةـ فـيـ الـعـالـمـ كـلـهـ.

(١) الذراع الرشاشي: هو ثلاثة أشبار. انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ٥٥ / ١.

(٢) الكَذَان: الحجارة الرَّخْوَةُ التَّخْرَةُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كذن، ٥٠٥ / ٣، وما دَأَدَ كَذَنْ . ٣٥٧ / ١٣

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ٤٥٦، ٤٥٧ / ١.

لم يقتصر دور مسجد قرطبة على العبادة فقط، وإنما كان -أيضاً- جامعاً علمياً تُعدُّ من أشهر جامعات العالم آنذاك، وأكبر مركز علمي في أوروبا، ومن خلاله انتقلت العلوم العربية إلى الدول الأوروبية على مدى قرون، وكان يُدرس في هذه الجامعة كل العلوم، وكان يختار لها أعظم الأساتذة، وكان طلاب العلم يقدُّون إليها من الشرق والغرب على السواء؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وقد احتلت حلقات الدرس والعلم أكثر من نصف المسجد، وكان للشيخ راتبٍ جيد ليتفرَّغوا للدرس والتأليف، وكذلك خصصتْ أموال للطلاب، ومكافآت ومعونات للمحتاجين؛ وهو الأمر الذي أثري الحياة العلمية بصورة ملحوظة في ذلك الوقت وفي تلك البيئة، واستطاعت قرطبة أن تُخرج للمسلمين وللعالم الجمَّ الغير من العلماء، وفي جميع مجالات العلوم، وكان منهم: الزهراوي (٤٣٦-٣٢٥هـ) (١٠١٣م) أشهر جراح، وطبيب، وعالم بالأدوية وتركيبها، وهناك -أيضاً- ابن باجه، وابن طفيل، ومحمد الغافقي (أحد مؤسسي طب العيون)، وابن عبد البر، وابن رشد، والإدريسي، وأبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي، والقاضي القرطي النحوي، والحافظ القرطبي، وأبو جعفر القرطبي، وغيرهم كثير.

فِي... الْجَامِعَةِ الْعَالَمِيَّةِ :

للحال التي رأينا، وللحياة التي شاهدنا لا غُرُّ أن تُصبح قرطبة (متصف بالقرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)، وكانتها مدينة عصرية، تُضارع المدن العالمية في الألفية الثالثة! وكيف العجب وقد انتشرت المدارس لتعليم الناس، وانتشرت المكتبات الخاصة والعامة، حتى صارت هي أكثر بلاد الله كُتبًا، وحتى غَدتْ مركزاً ثقافياً ومجماً علمياً لكل العلوم وفي شتى المجالات، وقد كان الفقراء يتَعلَّمُون في مدارس بالمجان على نفقة الحُكَّامَ أنفسهم؛ ولذا فليس عجيباً أن نعلم أن جميع أفراد

الشعب كان قد عرف القراءة والكتابة، ولم يُوجَّهْ في قرطبة شخص واحد لا يجيد القراءة والكتابة^(١)، في حين لم يكن يعرفها أرفع الناس في أوربا، باستثناء بعض رجال الدين!

وتجدر بالذكر أن هذه النهضة العلمية والحضارية في مدينة قرطبة في ذلك الوقت، وابتها -أيضاً- نهضة إدارية؛ وذلك من خلال عدد من المؤسسات والنظام الرائدة في الحكم؛ منها: الإمارة والوزارة، وقد تطورتْ أنظمة القضاء والشرطة والمحاسبة، وغيرها، وابتها -أيضاً- نهضة صناعية عظيمة؛ إذ تطورت فيها الصناعة كثيراً، وشتهرت صناعات مثل: صناعة الجلود، وصناعة السفن، وآلات الحرف، والأدوية.. وغيرها، وكذلك استخراج الذهب والفضة والنحاس!^(٢)

أمّا إذا نظرنا إلى الحياة المدنية والعصرية فيها، فنراها مُقسّمة إلى خمس مدن، وكأنها خمسة أحياe كبرى، يقول المقرى: «وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفي كل منها من الحمامات، والأسواق، والصناعات... ما يكفي أهلها»^(٣).

كما تميزت قرطبة -كما يذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان- بأسواقها الممتلة بكافة السلع، وكان لكل مدينة سوقٌ خاصٌ بها^(٤).

ومن المقرى نذكر بعض إحصائيات عن عمران قرطبة:

المسجد: انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى ٤٩٠ مسجداً، ثم زادت بعد ذلك إلى ٣٨٣٧ مسجداً.

(١) محمد ماهر حادة: المكتبات في الإسلام، ص ٩٩.

(٢) الفلقشندى: صبح الأعشى، ٢١٨/٥.

(٣) المقرى: فتح الطيب من غصن الأندرس الرطيب، ٥٥٨/١.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣٢٤/٤.

البيوت الشعبية: ٢١٣٠٧٧ بيتاً.

بيوت النخبة: ٦٠٣٠ بيت.

الحوانيت (المتاجر وما شابه): ٨٠٤٥٥ حانوتاً.

الخدمات العامة: ٩٠٠ حمام.

الأراضي (الضواحي): ٢٨ ضاحية^(١).

وهذه الأرقام كانت تزيد وتنقص باختلاف الأحوال السياسية، وباختلاف روایات المؤرخين، غير أنها اختلافات على «مدى» الفخامة والجلالة والجمالية، لا على أصل وجودها وتحقّقها.

وكان عدد سكان قرطبة في عهد الدولة الإسلامية زهاء خمسة ألف نسمة!^(٢)
والجدير بالذكر أن عدد سكان قرطبة حالياً يبلغ ٣١٠ ،٠٠٠ نسمة تقريباً!^(٣).

قرطبة في عيون العلماء والأدباء:

وقد طرَّقَ قرطبة في حدود سنة (٩٦١ = ٣٥٠ هـ) ابن حوقل، التاجر الموصلـي، فقال يصفُها: «وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيهٌ في كثرة الأهل وسعة الرقعة، ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها. وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعنان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعلى البلد مُنْصَلَّةً بأسافله من رُبضها^(٤)، وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقها وشمالها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديه، وعليه

(١) المقرى: نفح الطيب، ١ / ٥٤٠ وما بعدها.

(٢) محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية اليافية في إسبانيا والبرتغال، ص ١٩.

(٣) موقع ويكيبيديا: <http://ar.wikipedia.org>

(٤) الْرِّبْضُ: جماعة الشجر الملتئف. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ربض، ٧ / ١٤٩.

الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع، ومساكن العامة بربضها، وأهلها متمولون^(١)
متخصصون»^(٢).

بل إن سكان قرطبة قد تميزوا خاصّة بأنهم أشراف الناس وعلماؤهم، وأرفعهم مكانة! يقول في ذلك الإدريسي: «ولم تخلُّ قرطبة قطًّا من أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتجارها ميسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، و لهم مراكب سنّية وهم علىّية»^(٣).

ويقول الحميري: «قرطبة: قاعدة الأندلس، وأمُّ مدائنه، ومستقرٌ خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكّر، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، اشتهروا بصحّة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي، وعلوّ الهمة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء»^(٤).

ويصفها ياقوت -أيضاً- فيقول: «مدينة عظيمة بالأندلس ووسط بلادها، وكانت سريراً ملِكِها وقصبتها^(٥)، وبها كانت ملوكبني أمية، ومعدن الفضلاء، ومنبع النباء من ذلك الصُّقْعَ»^(٦)^(٧).

ويحكي أبو الحسن بن سَّام عنها قوله: «كانت متهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقدّى، ووطن أولي العلم والنُّهُى، وقلب الإقليم، وينبع

(١) تَمَّوْلُ الرجل: صار ذا مالٍ. انظر: الرازي: مختار الصحاح، مادة مول، ص ٦٤٢.

(٢) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣٢٤ / ٤.

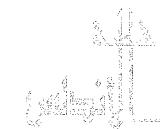
(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٥٧٥ / ٢.

(٤) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٥٦.

(٥) قَصْبَةُ الْبَلْد: مَدِيْتَهُ، ووَسْطَهُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قصب، ١ / ٦٧٤، والزبيدي: تاج العروس، ٤٣ / ٤.

(٦) الصُّقْعَ: ناحية الأرض. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة صقع، ٨ / ٢٠١.

(٧) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣٢٤ / ٤.



مُتَفَجِّر العلوم، وقبة الإسلام، وحضره الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، ويحرر دُرَرِ القراءح؛ ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنشر؛ وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصُنِّفت التصنيفات الفائقة؛ والسبب في ذلك - وتبريز القوم قدّيماً وحديثاً هنالك على مَنْ سواهم - أن أفقَهُمُ القرطبي لم يشتمل قُطُّ إلَّا على أهل البحث والطلب لأنواع العلم والأدب. وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق - يعني قرطبة خاصةً والأندلس عامَّة - أشراف عرب المشرق افتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها؛ فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرقٍ كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر^(١).

ويصفُها وأهْلَهَا ابن الوردي في خريدة العجائب فيقول: «وأهْلَهَا أعيانُ البلاد، وسراة الناس في حسن المأكل والملابس والراكب وعلو الهمَّة، وبها أعلامُ العلماء وساداتُ الفضلاء، وأجيالَ الغزاة وأمجادُ الحروب». ثم قال بعد أن وصف مسجدها وقنطرتها: «ومحاسن هذه المدينة أعظم من أن يحيط بها وصف»^(٢).

كانت هذه هي إحدى مُدُن الحضارة الإسلامية التي ساهمت في تَقدُّم مسيرة الإنسانية، ودفع عجلتها إلى الأمام. والحقيقة أن قرطبة ليست الوحيدة في ذلك، ولو كان حديثنا عن بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، أو البصرة، أو غيرها وغيرها، لكان على الدرجة نفسها من العجب أو أشدَّ، ولا غُرُونا! فهذه حضارة المسلمين، أعظم حضارات الدنيا، ودُرَرَ الجبين في تاريخ الإنسانية الطويل.

* * *

(١) أبو الحسن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ١/٣٣.

(٢) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص. ١٢.

ابن السادس

عمر ملوك

الطباطبائي

هذه فترة من أصعب فترات التاريخ الأندلسي قاطبة، وأكثرها تعقيداً وتشابكاً، فعلى الرغم من قِصر مدتها - التي لا تتجاوز القرن الواحد - إلا أنها تتسم بالأحداث المتعاقبة والأطعما المتزايدة، والفرقَة والتنازع الشديدين؛ فغدت الأندلس كحبَّات العِقد المتناثرة، التي لا يجمعها رابط عرق ولا دين، وكانت هذه الأحداث جديرة بأن تجعل القرن الخامس الهجري من القرون المظلمة في تاريخ الأندلس كله، فمنذ إعلان إلغاء الخلافة الأموية في الأندلس بدأت الأندلس بالفعل تُقسَّم بحسب العنصر إلى دواليات مختلفة، ليبدأ ما يُسمَّى بعهد دواليات الطوائف، أو عهد ملوك الطوائف.

الفصل الأول

ملوك الطوائف



كيف تكونت ممالك الطوائف :

استحال الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة إلى أشلاء ممزقة ورقاء متاثرة، وولايات ومدن متباعدة متخصصة، يُسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيارات، أو متغلّبٌ من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوي السلطان السابق، أو زعيم أسرة محلي من ذوي الجاه والعصبية، وسيطر البربر من جانبهم على أراضي المثلث الإسباني الجنوبي، وما كان منه بيد الدولة الحموية، وأنشئوا هنالك إمارات عدّة، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام، الذي شمل هذه المنطقة، وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول الطوائف، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس حتى الفتح المرابطي، زهاء سبعين عاماً، قضتها جميعاً في سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة، والخصومات والخروب الأهلية، وكادت بتباينها وتفرقها ومنافساتها تتجدد لسقوط الأندلس النهائي^(١).

وقد ذكرنا -سابقاً- أن مساحة الأندلس تقسمت إلى اثنتين وعشرين دولة؛ ففتّقت المسلمين في الأندلس تفتّتاً لم يعهد من قبل في تاريخهم، وفقدوا بذلك عنصراً مهمّاً جدّاً من عناصر قوتهم وهو الوحيدة، فكان الهبوط على أشدّ ما يكون، ولا حول ولا قوّة إلا بالله!

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٦٧٦، ٦٧٧ / ٢.

عهد ملوك الطوائف:

في ذلك العهد قُسّمت فيه بلاد الأندلس إلى سبع مناطق رئيسة؛ هي كما يلي:

أولاً: بنو حبَّاد: وهم يتتمون إلى العرب منبني لخم، وقد أخذوا منطقة إشبيلية.

ثانياً: بنو زيري: وهم من البربر، وقد أخذوا منطقة غرناطة، وكانت إشبيلية وغرناطة في جنوب الأندلس.

ثالثاً: بنو جهور: وهم الذين كان منهم أبو الحزم بن جهور زعيم مجلس الشورى، وقد أخذوا منطقة قرطبة وسط الأندلس.

رابعاً: بنو الأفطس: وهم من البربر، استوطنو غرب الأندلس، وأسسوا هناك إمارة بَطْلِيوس^(١) الواقعة في الثغر الأدنى.

خامساً: بنو ذي النون: وهم من البربر، استوطنو المنطقة الشمالية، التي فيها طليطلة وما فوقها (الثغر الأوسط).

سادساً: بنو عامر: وهم أولادبني عامر، الذين هم عرب معافريون من العرباليمنية، استوطنو شرق الأندلس، وكانت عاصمتهم بلنسية.

سابعاً: بنو هود: وهؤلاء أخذوا منطقة سرقسطة (الثغر الأعلى)، تلك التي تقع في الشمال الشرقي.

وهكذا قُسّمت بلاد الأندلس إلى سبعة أقسام شبه متساوية، كل قسم يضم إما عنصراً من العناصر، أو قبيلة من البربر، أو قبيلة من العرب، بل إنَّ كل قسم أو

(١) بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان .٤٤٧/١

منطقة من هذه المناطق كانت مُقسَّمة إلى تقسيمات أخرى داخلية، حتى وصل عدد الدوليات الإسلامية داخل أراضي الأندلس عامة إلى اثنتين وعشرين دويلة، وذلك رغم وجود ما يقرب من خمس وعشرين بالمائة من مساحة الأندلس في المناطق الشمالية في أيدي النصارى.

وفيما يلي ذكر حال أشهر تلك الدوليات:

أولاً: بنو جهور في قرطبة:

قصة الدولة:

لما غادر يحيى بن علي الحموي قُرطبة بعد أن ترك حامية بربرية فيها -وذلك في المحرم من عام ٤١٧ هـ متوجهًا إلى مالقة- ثار أهل قُرطبة على الحامية البربرية، وقتلوا ألفاً منهم، واجتمع أمرهم على ردّ الأمر إلىبني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبا الحزم جهور بن محمد، الذي أرسل إلى أهل الشغور والمغاربة هنالك على الأمور، وعرض عليهم الأمر فقبلوه، وأجمعوا على مبايعة هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر لدين الله، وكان مقييًّا في منفاه بالبُونت^(١) عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم الفهري المتغلب بها، فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ، وتلقب بالمعتَدِّ بالله، وبقي على ذلك خليفة يُحظب له في قُرطبة وهو في منفاه.

ثم عزم على القدوم إلى قُرطبة عصبة الملك والخلافة، وذلك بعد ستين من مبايعته، فقد منها في ذي الحجة ٤٢٠ هـ، ولبث فيها ستين حتى أساء السيرة، وتعرَّض وزراؤه لظلم الرعية، فشار أهل قُرطبة عليه، فخلعوه وخرج هو وأهله وخدمه في ذي الحجة ٤٢٢ هـ، واجتمع أهل قُرطبة وأجمعوا أمرهم على إلغاء الخلافة الأموية، والتخلُّص نهائياً منبني أمية وإجلائهم خارج قُرطبة، وكان

(١) حصن من حصون بلنسية.

عميدهم في ذلك الوزير أبي الحزم جهور بن محمد، وغدت قُرطبة بلا خلافة ترفعها ولا خليفة يجمعها.. وانتهى عهد الخلافة الأموية في بلاد الأندلس إلى الأبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وبذلك انفرط عقد الأندلس منذ تلك اللحظة؛ فالخلافة وإن كانت ضعيفة إلا أنها رمز لجمع الكلمة وتوحيد الصفّ، إذا وَجَدَتْ مَنْ يحمل رسالتها الخالصة وأَخَذَهَا بِحَقّهَا، ولكن تلك سُنَّةُ الله في بناء الدول وانحدارها، وما أشبه الليلة بالبارحة! فمنذ أن أُلْغِيتُ الخلافة العثمانية وحال المسلمين كما نرى: رقاع متناثرة، ودول متناحرة، لا يجمعهم إلا القومية والعصبية الجاهلية.

وبدأت أنظار القرطبيين تتجه صوب الوزير الحازم المعروف برأيه وحسن تدبيره وصلاح سيرته؛ ليتولى أمور قُرطبة بعد طرد الأمويين والحموديين من قُرطبة، وهكذا اختير الوزير أبي الحزم بن جهور رئيس الجماعة وكبير قُرطبة، اختياراً شرعياً شورياً؛ للاضطلاع بتلك المهمة الخطيرة، وذلك في منتصف ذي الحجة عام ٤٢٢ هـ، ولبيان حال خلافة هشام المعتمد وعزله يقول ابن عذاري: افُتَّحَتْ بيعته بإجماع وَخُتَّمَتْ بِقُرْفَةٍ، وَعُقِدَتْ بِرَضَّا وَحُلِّتْ بِكَرَاهِيَّةٍ^(١).

ومن هذا التاريخ بدأت دولةبني جهور بِقُرطبة.

الوزير أبو الحزم بن جهور:

ينتمي أبو الحزم بن جهور إلى بيت عريق من بيوت الشرف والوزارة في بلاد الأندلس منذ أن دخلها الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية (الملقب بـ

(١) انظر تفاصيل ذلك في ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، ٢٠٣/٢، والحميدي: جذوة المقتبس، ١/٢٧، وابن بسام: الذخيرة، ٢/٦٠٢، وابن الأبار: الخلقة السيرة، ٤/٣٠، ٣١، وابن عذاري: البيان المغرب، ٣/١٤٥-١٥٢، ١٨٥، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٣٨، ١٣٩، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣/٢٠، ٢١.

قريش)، وظلت في عقبهم إلى أن آلت إليه وفي ولده من بعده، فهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي.

كان جده يوسف بن بخت بن أبي عبدة من الفرس وهو مولى عبد الملك بن مروان، وكان قد دخل الأندلس مع طالعة بلج بن بشر، وكان من كبار مواليبني أمية في قرطبة قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية إليها، ولما دخلها كان من أنصاره، وولي وزارته وحجابته، وكان ذا دين وفضل وخير، كما تولى القيادة والحجابة في عهد هشام الرضي بن عبد الرحمن بن معاوية، ومن بعده للحكم الريسي^(١)، وظلت الوزارة في عقب يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي، فولىها حفيده عبد الملك بن جهور للأمير عبد الله بن محمد وأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر^(٢)، وتولى ولده جهور بن عبد الملك الوزارة في عهد الناصر أيضًا^(٣)، كما ولي أبو الوليد محمد بن جهور بن عبد الملك الخزانة لعبد الرحمن الناصر^(٤)، وولي الوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر، ثم تولى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور المعروف بشنجول، وهو آخر من تولى الدولة العاميرية.

وأبو الحزم جهور عاش الفتنة، وراقب الأحداث والتقلبات التي عانتها الخلافة في قرطبة، حتى آلت لعلي بن حمود الذي استوزره، ثم شهد ما حدث بين يحيى بن علي الحمودي وعمه القاسم بن حمود وتبادل الخلافة بينهما، ثم خروج علي بن حمود من قرطبة إلى مالقة على نحو ما ذكرنا، وكان هو زعيم الثورة القرطبية على

(١) انظر: الحميدي: جندة المقتبس، ٥ / ١٨٨، وابن الأبار: الخلة السيراء، ٢ / ٣٠، وابن عذاري: البيان المغرب، ٣ / ٤٥، ١٨٥ / ١٨٦، والمقربي: نفح الطيب، ٣ / ٤٥.

(٢) الحميدي: جندة المقتبس، ٧ / ٢٨٢، والمقربي: نفح الطيب، ١ / ٢٥٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ١٥٩.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢ / ١٩٧.

بني حمود، ثم استقدامه هشام المعتّد، ثم ثورة أهل قُرطبة التي تزعمها على هشام المعتّد وطرده هو وبني أمية والمروانية كلهم من قُرطبة، وبقيت قُرطبة بلا حاكم أو خليفة، وهنا اتجهت أنظار أهل الرأي والمشورة في قُرطبة إلى صاحب الزعامة الشعبية وحسن التدابير في الوزارة والحكم، وكان هو أبو الحزم جهور بن محمد؛ فهو كبير الجماعة ورئيس مجلس الشورى وزعيم قُرطبة، فأصبح هو رئيس الحكومة القرطبية بإجماع أهلها ورؤسائها وأهل الرأي فيها.

للوزير الكاتب الفتح بن خاقان وصف عجيب، وبيانُ جليل لقدر هذه العائلة ومتزلة أبي الحزم منهم في مقال فريد نذكره لحسن سجنه وجمال تعبيره، يقول فيه: «وبنو جَهْوَرَ أَهْلَ بَيْتِ وَزَارَةِ، اشْتَهَرُوا كَاشْتَهَارَ ابْنِ هُبَيْرَةِ فِي فَزَارَةِ، وَأَبُو الحَزْمِ أَبْجَدُهُمْ فِي الْمَكْرَمَاتِ، وَأَنْجَدُهُمْ فِي الْمَلَمَاتِ، رَكْبُ مُتُونِ الْفَتُونِ فَرَاضَهَا، وَوَقَعَ فِي بَحْرِ الْحَمْنَ فَخَاصَّهَا، مُبَسِّطٌ غَيْرُ مُنْكَمِشٌ، لَا طَائِشُ اللِّسَانِ وَلَا زَعِيشُ، وَقَدْ كَانَ وَزَرُ فِي الدُّولَةِ الْعَامِرِيَّةِ فَشَرَفَتْ بِجَلَالِهِ، وَاعْتَرَفَتْ بِاسْتِقْلَالِهِ، فَلَمَّا انْفَرَضَتْ وَعَاقَتْ الْفَتْنَ وَاعْتَرَضَتْ، تَخَلَّى عَنِ التَّدْبِيرِ مُدَّهَا، وَخَلَّ لِخَلَافَهِ تَدْبِيرُ الْخَلَافَةِ وَشَدَّهَا، وَجَعَلَ يُقْبِلُ مَعَ أُولَئِكَ الْوَزَرَاءِ وَيُدِبِّرُ، وَيَنْهَلُ الْأَمْرُ مَعَهُمْ وَيُدِبِّرُ، غَيْرُ مُظْهَرٍ لِلْانْفِرَادِ، وَلَا مَقْصُرٍ فِي مِيدَانِ ذَلِكَ الْطَّرَادِ، إِلَى أَنْ بَلَغَتِ الْفَتْنَةُ مَدَاهَا، وَسُوَّغَتْ مَا شَاءَتْ رَدَاهَا، وَذَهَبَ مَنْ كَانَ يَجِدُ^(١) فِي الرَّئَاسَةِ وَيَنْهِي^(٢)، وَيَسْعَى فِي الْفَتْنَةِ وَيَدِبِّرُ، وَلَمَّا ارْتَفَعَ ذَلِكَ الْوَبَالُ، وَأَدْبَرَ ذَلِكَ الْإِقْبَالُ، رَاسَلَ أَهْلَ التَّقْوَى مُسْتَمِدًا بِهِمْ، وَمُعْتَمِدًا عَلَى بَعْضِهِمْ؛ تَحْيَلًا مِنْهُ وَتَوَهِيَّا، وَتَدَاهِيَّا عَلَى أَهْلِ الْخَلَافَةِ وَذَوِيهَا، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ تَقْدِيمَ الْمَعْتَدِ هشام، وَأَوْمَضَ مِنْهُ لِأَهْلِ قُرطُبَةِ بِرَقَّةَ

(١) وَجَدَ يَجِدُ: أَسْرَعَ وَوَسَعَ الْحَطْوَ. أَبْنُ مَنْظُورٍ: لِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَةُ وَخَدٌ، ٤٥٣/٣، وَالزَّيْدِي: تَاجُ الْعَرَوْسِ، ٢٧٧/٩، وَالْمَعْجمُ الْوَسِيْطُ، ١٠١٩/٢.

(٢) الْخَبَبُ: ضَرَبَ مِنَ الْعَدُوِّ، أَيِّ الإِسْرَاعِ فِي الْمَشيِّ. أَبْنُ مَنْظُورٍ: لِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَةُ خَبَبٍ، ٣٤١/١، وَالزَّيْدِي: تَاجُ الْعَرَوْسِ، ٣٢٨/٢.

خُلَبٌ^(١) يَسَامٌ^(٢)، بعْد سرعة التياثها^(٣)، وتعجّيل انتكائدها، فأنابوا إلى الإجابة، وأجابوا إلى استرئاعه الوزارة والمحاجبة، وتوجّهوا مع ذلك الإمام، وأملأوا قُرْطبة أحسنَ إمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، واضطربات مستمرة، والبلد مُقْفِرٌ، والجلد مُسْفِرٌ، فلم يبقَ غَيْرُ يسير حتى جبد وااضطرب أمره فخُلَبَ، وانْخُطَفَ من الملك وانْتَزَعَ، وانقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العلوية، واستولى على قُرْطبة عند ذلك أبو الحزم، ودبّرها بالجَدْ والعزّم، وضبطها ضبيطاً أَمَنَ خائفها، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها، وخلاله الجُوُّ فطار، واقتضى اللِّيَّانَات^(٤) والأوَّطَار^(٥)، فعادت له قُرْطبة إلى أَكْمَلِ حالاتها، وانجلى به نوء استجلالاتها، ولم تزل به مشرقة، وغضون الأَمْل فيها مورقة إلى أن تُوقَّيَّ سنة ٤٣٥ هـ^(٦).

ومن هنا وبعد أن انفرد أبو الحزم بن جهور بالحكم بلا منازع ينazuه، ولا خليفة ينادي بالحكم دونه، ماذا عن سياساته في إدارة الأمور وتسخير البلاد؟

(١) البرقُ الْحَلْبَ: السحاب الذي يبرق ويرعد ولا مطر معه، ولا غيث فيه، كأنه خادع يومض حتى تطمع بمطره ثم يختفِّلُكُ، ويقال لمن يَعْدُ ولا يُنْجِزُ وعْدَه: إنما أنتَ كَبَرْقُ خُلَبَ. الجوهرى: الصحاح، باب الباء فصل الخام
شِمْسٍ ١٢٢ / ١، وابن منظور: لسان العرب، مادة خُلَبٌ ١ / ٣٦٣، والمجمع الوسيط ٤٨ / ١.

(٢) شَامَ السَّحَابُ وَالْبَرْقُ شَيْئًا: نظر إليه أين يقصد وأين يُمْطَرُ، وقيل: هو النّظر إليها من بعيد. الجوهرى:
الصحاح، باب الميم فصل الشين، ١٩٦٣ / ٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة شَيْئًا، ٣٢٩ / ١٢، والمجمع
الوسيط، ٥٠٤ / ١.

(٣) الْلِّيَّانَاتُ: الاختلاط والاتفاق والالتباس وصعوبة الأمر وشدته. الجوهرى: الصحاح، باب الشاء فصل
اللام، ٢٩١ / ١، وابن منظور: لسان العرب، مادة لَوْثٍ، ١٨٥ / ٢، والزبيدي: تاج العروس، باب الشاء
المثلثة، فصل اللام، ٣٤٥ / ٥، ٣٤٦.

(٤) الْلِّيَّانَاتُ: الحاجات من غير فاقة، ولكن من هِمَّةٍ، فهو أَخْصُ وأعلى من مطلق الحاجة، يقال: قضى فلان لبانه.
ابن منظور: لسان العرب، مادة لَبِنٍ، ٣٧٢ / ١٣، والزبيدي: تاج العروس، باب التون فصل اللام، ٩٢ / ٣٦،
والمجمع الوسيط، ٨١٤ / ٢.

(٥) الأَوَّطَارُ جمع الْوَطْرِ: وهو الحاجة لك فيها هَمٌّ وعِنْاءٌ، فإذا باغتها فقد قضيت وطرق وأربك. الزبيدي: تاج
العروس، باب الراء فصل الواو، ٣٦٤ / ١٤.

(٦) الفتح بن خاقان الإشبيلي: مطعم الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ١ / ٣٤-٣٦.

حكومة أبي الحزم بن جهور:

تقف حكومة قُرطبة في ذلك الوقت موقف الفريد والنادر بين مالك الأندلس،
التي تشعبت بها الطرق بعد إلغاء الخلافة الأموية؛ فالسياسة التي اتبّعها أبو الحزم
بن جهور بعد اختياره حاكماً لقُرطبة تنبع على بُعد سياسته ودهائه؛ فهي حكومة من
نوع خاصٍ، فأبو الحزم بن جهور يحكم دولة على أنقاض الخلافة الأموية، تبسط
سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس، تمتدد شماليًّا حتى جبل الشارات (سييرا
مورينا)، وشرقيًّا حتى منابع نهر الوادي الكبير، وغربيًّا حتى قرب إستِجة، وجنوبيًّا
حتى حدود ولاية غَرْنَاتَة، وتشمل من المدن عدا قُرطبة جيَان وأبُدَة وبِيَاسَة والمدور
وأَرْجُونَة وأندوjer⁽¹⁾.

وهو رجل خبر السياسة والدهاء بحُكم اشتغاله بالوزارة والكتابة وملازمة
الخلفاء والمتسلطين على الخلافة، فعَرَفَتْه التجارب أن التسلُّط والاستبداد طريق
الزوال القريب، فابتكر نظاماً سياسياً شورياً، أقرب إلى النظام الديمقراطي في وقتنا
الحاضر، فلم يفرد بالسياسة ولا بتدبير الأمور، بل شَكَّل مجلساً شورياً وزارياً من
الوزراء وأهل الرأي والمشورة والقيادة بقُرْطبة، وجعلهم أهل رأيه، لا يصدر عن
رأي إلا بهم، ولا بسياسة إلا بتدبيرهم، وسمى نفسه (أمين الجماعة)، وكان إذا سُئلَ
قال: «ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم». وإذا رابه أمر أو عزم على
تدبير، أحضرهم وشاورهم فيُسرعون إليه، فإذا علموا مراده فَوَضُعوا إليه بأمرهم؛
وإذا خطوب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء، كما أنه اتبع سياسة
أخرى كانت أشدَّ ذكاءً ودهاءً؛ فهو لم يفارق رسم الوزارة، ولم ينتقل من دور
الوزارة إلى قصور الخلفاء والأمراء، بل دَرَّبَها تدبيراً لم يسبق إليه، وجعل نفسه
مسكناً للموضع إلى أن يجيء مستحقٌ يُتفق عليه، فيُسَلِّمُ إليه، ورَتَّبَ البوابين

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢١، ٢٢.

والحشم على أبواب تلك القصور على ما كانت عليه أيام الخلافة، ولم يتحول عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك، وهو المشرف عليهم^(١).

إضافة إلى هذا الدهاء السياسي الذي اتبّعه أبو الحزم بن جهور فقد كان من أشد الناس تواضعًا وعفةً وصلاحًا، وأنقاهم ثواباً، وأشبّهم ظاهراً بباطن، وأولاًً بأخر، لم يختلف به حال من الفتاء إلى الكهولة، ولم يُعثِّر له قط على حال يدل على ريبة؛ جليس كتابٍ منذ درج، ونجي نظرٍ منذ فهم، مشاهداً للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة متى تخلّفوا عنه، حافظاً لكتاب الله قائماً به في سرّه وجهره، متقداً للتلاوة، متواضعًا في رفعته، مشاركاً لأهل بلده، يزور مرضاهم ويُشاهد جنازتهم^(٢).

فظام الحكم الذي اتبّعه الوزير ابن جهور يدل على بُعد نظره وحسن سياسته وتدبيره، وقد عُرِفت هذه الحكومة التي كونها ابن جهور بحكومة الجماعة والشوري، والباعث الحقيقي لدى الوزير ابن جهور لتكوين ذلك النظام من الحكم ربما يكون خفيّاً، فيمكن أن يكون الأمر ضرباً من الذكاء والدهاء السياسي، يجمع به كلمة الشعب حوله وأصحاب الرأي فيه، يَتَّقَى بهم منافسيه، ويكونون له عوناً يستند إليهم عند الحاجة، ويمكن أن تُرجعه إلى حُبّه للشوري وإقامة العدل وجمع كلمة المسلمين، وخاصة بعد أن انفرط عقد الخلافة وبالتالي انفرط عقد الأندلس كلها.

وعلى كلٌّ فإنها كانت بلا ريب نموذجاً بدليعاً من حُكم الشوري، أو حُكم

(١) الحميدي: جنوة المقبيس ١/٢٨، وابن سام: الذخيرة ٢/٦٠٣، ٦٠٢، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٣٠، ٣١، وابن عذاري: البيان المغربي ٣/١٨٦، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٢٢، ٢٣، وطبقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٤٢٣.

(٢) ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢/٢٠٤، والحميدي: جنوة المقبيس ١/٢٩، وابن سام: الذخيرة ٢/٦٠٣، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٣١، وابن عذاري: البيان المغربي ٣/١٨٦.

الأقلية الأرستقراطية في عصر سادت فيه نزعة الرئاسة الفردية والحكم المطلق، وكان من أبرز مزاياها أن يستطيع الرئيس أن يتخلص من المسئولية، وأن يستظل بلواء الجماعة إذا ما ساءت الأحوال، وأن يُحرِّز الشأة وجميل الذَّكر إذا حسنت العاقد^(١).

السياسة الداخلية:

تولى أبو الحزم جهور حكومة قُرْطُبة والبلاد تعيش حالة توتر أمني؛ فالبلاد تعيش بلا خليفة يحكمها، أو خليفة يلتُف الناس حوله، فكانت البلاد مسرحًا للعابثين من محترفي النهب والسرقة، كما شهدت فسادًا اقتصاديًّا، حيث غلت الأسعار، وتدھورت التجارة، وعم الاستغلال، وارتفعت الضرائب والمكوس، ونهبَت الأموال العامة من محتلسي أموال الدول، وعاشت كذلك تدهورًا علميًّا وفكريًّا فليست هناك حكومة تعنى بالعلماء والأدباء والشعراء، وتنفق عليهم من الأموال ما هو كفيل بإبداعهم وتفوقهم، فكان النظام الجديد الذي ابتكره أبو الحزم بن جهور كفيلاً بأن يقف أمام هذه التحديات.

سلك الوزير ابن جهور مسلك الحاكم المصلح، باتخاذ إجراءات إصلاحية في البلاد؛ لعل أَوَّلها القضاء على الانفلات الأمني وأحداث الشغب، التي قد تعصف بالبلاد، وأن يُؤَطَّد دعائم الأمن والنظام، فعامل البربر الثائرين عليه بخفض الجناح والرفق في المعاملة، حتى حصل على سلمتهم ومحبتهم، كما فَرَق السلاح على البيوت وال محلات؛ حتى إذا دهم أمرٌ في ليلٍ أو نهارٍ كان سلاح كل واحد معه، كما جعل أهل الأسواق جندًا، وهذه السياسة كفيلة بأن يجعل البلاد بلدًا من وسلام، بل وأصبحت قُرْطُبة ملجأً للفارِّين والمنفيين من الأمراء المخلوعين عن عروشهم،

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٢/٣.

فُقْرُطْبَةٌ فِي أَيَّامِهِ حَرِيًّا يَأْمُنُ فِيهِ كُلُّ خَائِفٍ مِّنْ غَيْرِهِ^(١).

كما عمل أبو الحزم ابن جهور على إصلاح الفساد الاقتصادي؛ فقضى على كل أنواع البذخ والترف، وعمل على حفظ الأموال العامة؛ وخاصة الأموال السلطانية من السرقة، فقد جعل عليها رجالاً يثق بقدرتهم وأماناتهم، وجعل نفسه مشرفاً عليهم^(٢)، كما عمل على خفض الضرائب والمكوس، وعمل على تشجيع المعاملات التجارية؛ فوزع الأموال على التجار؛ لتكون بيدهم ديننا عليهم، يستغلونها ويحصلون على ربحها فقط، وتحفظ لديهم، ويُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا مِنْ وَقْتٍ لَا خَرَجَ، وكانت النتيجة أن عمَّ الرخاء قُرْطُبَةً، وازدهرت الأسواق، وتحسنت الأسعار، وغلت الدور، وعاد النماء بعد الكساد^(٣).

ونتيجةً لهذه السياسة الحكيمية التي اتبعها الوزير أبو الحزم بن جهور شهدت قُرْطُبَةً ازدهاراً سياسياً واقتصادياً، كان دافعاً إلى إصلاح القضاء من ناحية؛ حيث عمَّ العدل بين الناس، وأمِنَ الناس على حقوقهم، ومن ناحية أخرى عملت هذه السياسة على الازدهار الثقافي والفكري، وهذا الانقلاب الإيجابي الذي أحدثه حكومة ابن جهور أثارت دهشة مؤرخ الأندلس ابن حيان، وهو أحد من عاشوا وشاهدوا ذلك التحول بقوله: «فَعَجِبَ ذُو التَّحصِيلِ لِلَّذِي أَوَى إِلَيْهِ فِي صَلَاحِ أَهْوَالِ النَّاسِ مِنَ الْقُوَّةِ وَلَا تَعْتَدُ حَالَ، أَوْ يَهْلِكَ عَدُوُّ، أَوْ تَقْوَ جَبَابِةَ، وَأَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ»^(٤). وابن حيان نفسه في موضع آخر يذكر أن ابن جهور لم يكن ليensi نفسه أمام هذا الرخاء، الذي نعمت به قُرْطُبَةٌ في ظل حكومته، فيقول:

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ١/٢٩، وابن بسام: الذخيرة ٢/٦٠٣، ٦٠٤، ٦٢، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٣٢، ٣٣، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٨٦، ١٨٧.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ١/٢٨، ٢٩، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٣٢.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ١/٢٨، ٢٩، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٣٣، ٣٢، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٢٣.

(٤) ابن بسام: الذخيرة ٢/٦٠٤، ٦٠٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٨٧.

«ولم يخلُ مع ذلك من النظر لنفسه وترقيحه^(١) لمعيشته، حتى تضاعف ثراوئه، وصار لا يقع عينه على أغني منه، حاطَ ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وَجَدَ عَائِبُه فيه طعنًا، ولَكَمْلَ لو أن بَشَرًا يَكُمْلَ»^(٢).

السياسة الخارجية:

موقفه من دعوة ظهور هشام المؤيد في إشبيلية:

كان للوزير ابن جهور موقفاً خاصاً من دعوة القاضي أبي القاسم بن عباد متمملاً لإشبيلية بظهور الخليفة هشام المؤيد في إشبيلية سنة (٤٢٦هـ = ١٢٣٥م)^(٣)؛ وذلك ليحضر دعوة يحيى بن علي الحموي في الخلافة من ناحية، وليكسب الشرعية السياسية لحكم البلاد من ناحية أخرى، فبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة لهشام من أهل إشبيلية وأعيانها، بعث بالكتب إلى أنحاء الأندلس لأخذ البيعة للخليفة الشرعي للبلاد، فلم يعترض به أحد سوى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، والموفق العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، وصاحب طرطوشة^(٤).

أما الوزير أبو الحزم بن جهور فإنه أرسل الرسل ليتبين حقيقة الأمر، ولما ظهر له كذبها رفض هذا الادعاء؛ إلا أن أهل قرطبة مالت نفوسهم إلى الخليفة هشام المؤيد، وكادت تقوم ثورة ضدّ ابن جهور، فزور الشهادة؛ فصَحَّت عنده الشهادة به، فباعيه وخطب له؛ بيد أن بيته كانت لغرض الدنيا ودفع دعوى الحمويين في الخلافة، ومطامعهم في أملاكها على نحو ما أراد ابن عباد، غير أن ابن جهور تراجع عن طاعته، خاصة أن القاضي ابن عباد طلب منه أن يدخل في طاعته باسم الخليفة

(١) الترقية: إصلاح المعيشة، وترقية المال إصلاحه والقيام عليه. الجوهرى: الصلاح، باب الحاء فصل الراء ٤٥١ / ٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة رقم ٤٦٦ / ١.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/٦٠٣، وابن الأبار: الحلة السيرة ٢/٣١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٨٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٩٧-٢٠٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٣، ١٥٤.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٩٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٥.



هشام، فرفض ابن جهور وأعلن تبرؤه من دعوته^(١).

لتحقيقه للسلام ووقفه على خلافات بين الأمراء:

كانت سياسة الوزير أبي الحزم بن جهور سبباً مباشرًا في إقرار السلام والأمان والازدهار في قُرطبة؛ وهذا ما جعلها موضع ثقة ملوك الطوائف الأخرى في بلاد الأندلس، وكانت الهيئة ورجاحة العقل صفتين تميز بها الوزير ابن جهور، وهذا ما جعله موضع الوسيط العدل لفض المنازعات والخصومات بين الأمراء المتنازعين، فحين كاد الصراع أن يختدم بين المعتصد بن عباد صاحب إشبيلية والمظفر بن الأفطس صاحب بَطْلِيوس، حيث هاجم المعتصد بن عباد مدينة لَبَّلة الواقعه غرب إشبيلية، فاستغاث صاحبها ابن يحيى بالمظفر بن الأفطس لنجدته، فتحرك له، وأرسل جماعة من البربر لها حملة إشبيلية، وأرسل الوزير ابن جهور رسلاً ليُذرهم من رَحْي فتنة تعصف ببلاد الأندلس، ويدعوهم إلى السلم وفض النزاع، وهي السياسة نفسها التي اتبعها ابنه أبو الوليد محمد بن جهور بين المعتصد بن عباد والمظفر بن الأفطس كذلك، على نحو ما سنذكره في موضعه إن شاء الله.

وكان لهذا النصح المتكرر من الوزير جهور وابنه أبي الوليد محمد أثرًا في إنقاذ الأندلس من فتنة هوجاء عاصفة^(٢).

وفاة الوزير ابن جهور:

وهكذا عاشت قُرطبة في ظل حكومة الجماعة آمنة من الفتنة، فضلاً عن ذلك الازدهار الاقتصادي والأمن السياسي، وظل الوزير ابن جهور حاكماً لقُرطبة حتى وافته المنية في صفر، وقيل: المحرم سنة ٤٣٥هـ. وقد أجمع أهل قُرطبة على تقديم ابنه

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ١٩٨/٣، ١٩٩، ٢٠١، ١٩٩.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣/٣٦-٣٣، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٠٩-٢١٣.

أبي الوليد محمد بن جهور حاكمًا عليهم^(١).

ويجدر بنا هنا أن نذكر قصيدة لابن حيان يرثي بها أبا الحزم بن جهور، ويمدح فيها أبي الوليد بن جهور يقول: [الطويل]

أَمَّ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ صَمَّهَا الْقَبْرُ
وَأَنَّ قَدْ كَفَانَا فَقْدَهَا الْقَمَرُ الْبَذْرُ
فَقَدْ فَاضَ لِلَّامَالِ فِي إِثْرِهِ الْبَحْرُ
وَذَبْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتَبَعُهُ الْعُذْرُ
لَنَا اللَّيْلُ إِلَّا رَيْسًا طَلَعَ الْفَجْرُ
خَلِيقَتُهُ الْعَدْلُ الرَّضَا وَابْنُهُ الْبَرُ
فَبَانَ وَنَعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ^(٢)
وَإِنْ يَكُ وَلَى جَهْوَرٌ فَمُحَمَّدٌ
فَلَا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا
لَعْمَرِي لَعْنِيمَ الْعِلْقُ^(٣) أَنْلَفَهُ

أبو الوليد محمد بن جهور:

قام أبو الوليد محمد بن جهور يقتفي خطى والده في سياسته، وأقر لأول ولايته الحُكَّام وأولي المراتب على ما كانوا عليه أيام أبيه، وأخذ بسياسة الحزم على نحو ما كان عليه أبوه، وأقرّ الأمان والنظام^(٤).

وكان من محاسن دولته أن قرّب إليه مؤرّخ الأندلس أبا مروان بن حيان، وجعله من خاصّته في ديوان السلطان، وفي ذلك يقول ابن حيان: «وَكُنْتُ مَمْنَ جَادَتْهُ سَهْءُ الرَّئِيسِ الْفَاضِلِ أَبِي الْوَلِيدِ الثَّرَّةِ، وَكَرْمُ فِيَ فَعْلِهِ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مَسَأْلَةٍ،

(١) ابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٣٣، وابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغارب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ١/٥٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٨٧، ٢٣٢، وابن الخطيب: أعيان الأعلام ص ١٤٨.

(٢) العلّق: التفسير من كل شيء، لتعلق القلب به. الجوهرى: الصاحب، باب القاف فصل العين ٤/١٥٣٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة علق ١٠/٢٦١، المعجم الوسيط ٦٢٢/٢.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ١/٣٩٢.

(٤) المصدر السابق، ٢/٦٠٥.

فأقْحَمَنِي في زمرة العصابة المُبَرَّزةَ الحصول، مع كلام الحدّ وضعف الآلة؛ واهتدى لمكان خلْتِي، وقد ارتشف الدهْرُ بِالْبَلَةِ^(١)، بأن قَلَدَني إملاءَ الذِّكْرِ في ديوان السلطان المطابق لصناعتي، اللائق بِتَحْرِيفٍ، براتب واسع، لو لا ما أخذَ عَلَيَّ كَتْمَ ما أَسْدَاه بجهدٍ في وصفه، وإلى الله تعالى أُفْزَعُ في إجَالِ المكافأةِ عنِي بِرِحْمَتِه»^(٢). ومن محسنه كذلك أن قَرَبَ إِلَيْهِ شاعر الأندلس الكبير أبا الوليد بن زيدون، وجعله وزيره، وقدَّمه إلى النَّظر على أهل الذَّمَّةِ لبعض الأمور المُعْتَرَضَةِ، وجعله لسان دولته وسفيراً له إلى أمراء المَالِكَةِ الأندلسية، وظلَّ كذلك إلى أن سخطَ عليه فأودعه السجن، ثم فَرَّ ابن زيدون إلى دولة المعتصد بن عباد بِإِشْبِيلِيَّةِ وأصبح وزيره الأول^(٣).

الفتنة القاضية:

بقيت الأمور على ما هي عليه من الاستقرار والأمان حيناً، ويبدو أن أبا الوليد محمد بن جهور أتعيشه السياسة وأنقلت كاهله، وكان له ولدان، عبد الرحمن أكبرهما، وعبد الملك أصغرهما، ولكن عبد الملك تميَّز عن أخيه بشهادته، فلما عزم أبو الوليد على ترك السياسة وأمورها عقد الأمر لابنه عبد الملك الأصغر، وأنشد يقول:

[الكامل]

وَإِذَا الْفَتَنَى فَقَدَ الشَّيْبَابَ سَعَاهَةً حُبُّ الْبَنِينَ وَلَا كَحُبُّ الْأَصْغَرِ

وقد نصحه بعض خواصيه بتقديم عبد الرحمن، إلا أنه أصرَّ على تقديم عبد الملك، وقدَّمه للناس، وطلب منهم البيعة له، فظلمَ وأساء السيرة، واستبدَّ بالسلطة

(١) البَلَةُ: الإساءة والعيوب. الجوهري: الصحاح، باب اللام فصل الباء / ٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة بـلـلـ ٦٣ / ١١.

(٢) ابن سام: الذخيرة ٦٠٥ / ٢.

(٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغارب ١ / ٦٤، ٦٣، ٣٣٧، ٣٣٨.

من دون الجماعة، واستباح أموال المسلمين، وسلط عليهم أهل الفساد، وأهمل الأمور الشرعية، وشرع في المعاشي والفسق، وعم الخوف محل الأمان، وتعاظمت قوّته بتجيّره، وتسمى بذوي السياداتين (المنصور بالله الظافر بفضل الله)، وخطب له على المنابر، فخالف سيرة أبيه وجده، وفي سنة ٤٤٠ هـ عهد عبد الملك بأمور الحكم إلى وزير أبيه أبي الحسن إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء، فضبط الأمن وأعاد النظام، وساد العدل بين الناس، وكان المعتضد بن عباد يراقب الأمور عن كثب؛ يتنتظر الفرصة السانحة للانقضاض على قُرطبة، فلما وجد ما حلت به تحت يدي ذلك الوزير القوي ابن السقاء، ورأى أن ذلك يحول بينه وبين حلمه في امتلاك قُرطبة؛ عمل على الواقعة بين عبد الملك بن جهور وبين وزير أبيه ابن السقاء، فدسّ إلى عبد الملك مَنْجَسَرَه^(١) على الفتاك بابن السقاء، وحضره من طمعه واستئثاره بالسلطة دونه، وإلى ابن السقاء مَنْأَقَى في روعه حُبَّ الْمُلْكِ، وكان عبد الملك ضعيف العقل سَيِّء الرأي، فقتل وزيره في كمين دَبَرَه له سنة ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م^(٢).

وبعد أن قُتل الوزير ابن السقاء انفرد عبد الملك بالسلطة لنفسه، فتجيّر وأساء، فلما وجد أخوه الأكبر عبد الرحمن ذلك طمع في السلطة، وزعم أنه أحقر بالولاية من أخيه، فطفقا يستميل كلّ منهما طائفةً من الجندي، ويترقب للرعيّة، وبدأت بوادر الفوضى تعم قُرطبة، فلما وجد أبو الوليد بن جهور ذلك خاف سوء العاقبة عليه وعلى ولديه، فعمد إلى تقسيم السلطة عليهما وذلك سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م؛ فجعل إلى أكبرهما عبد الرحمن النظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة ومشاهدتهم في مكان مجتمعهم، والتتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمنة للحلّ

(١) يُجَسَّرُه: يُشَجَّعُه ويجعله يتطاول ويتجيّر. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الجيم ٢/٦١٣، ٦١٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة جسر ٤/١٣٦، والمujam الوسيط ١/١٢٢.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/٢٤١، ٢٤٥-٦٠٩، ٦٠٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣١.

والعقد، وجميع أبواب النفقات، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجندي، والإشراف على أعطياتهم، وتجريدهم في البعث، والتنوية لأولادهم وجميع ما ينصلهم، ورضيا الأخوان بذلك، إلا أن عبد الملك تغلب على أخيه فسجنه وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته، واستبدَّ بالأمر دونه، وأطلق العنان وتسلَّط هو والسوقة من رعيته بين الناس بالأذى، فما كان من أهل قُرْطبة إلا أن انصرفوا عن بنى جهور^(١).

كانت هذه السياسة -التي اتبعها عبد الملك بن جهور في قُرْطبة- كفيلة بإسقاط حكمه، خاصة وأن حاشيته عاشت في الأرض فساداً ونبأ وسرقة؛ مما أثار أهل قُرْطبة، وبدأت مظاهر الانحلال السابقة للسقوط الأزلي لدولة بنى جهور في قُرْطبة، خاصة وأن قُرْطبة محلُّ أنظار الممالك المجاورة لها؛ سواء بني عباد في إشبيلية، أو بني ذي النون في طليطلة، وعقب الاضطرابات التي شهدتها قُرْطبة عام ٤٦٢ هـ أغار صاحب طليطلة المأمون يحيى بن ذي النون على قُرْطبة، فاستغاث عبد الملك بن جهور بالمعتمد بن عباد^(٢)، وكانت تلك الاستغاثة الأخيرة من بنى جهور، والتي أعقبها سقوط حُكمهم إلى الأبد في قُرْطبة على نحو ما سندكره في موضعه، إن شاء الله.

علماء في بلاط قُرْطبة:

شكَّلت النهضة العلمية والأدبية -التي تمَّت بها الأندلس في فترة الطوائف- بعْدًا حضارياً على الرغم من الفوضى السياسية الصارخة، التي عمَّت الأرجاء الأندلسية زهاء قرن من الزمان؛ لذلك ما فتئت كلُّ مملكة من ممالك الطوائف أن جعلت لها حاضرة تستقطب بها العلماء والفقهاء في شتّي جوانب العلوم النظرية والتجريبية.

(١) ابن سام: الذخيرة ٢/٦٠٦، ٦٠٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٩، ٢٥٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٤٩.

(٢) ابن سام: الذخيرة ٢/٦١١-٦٠٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٦١، ٢٦٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٤٩-١٥٢.

وكان قرطبة عاصمة الخلافة المنصرية تمثل حاضرة العلوم، ليس في الأندلس فحسب، بل في العالم كله، وكانت مكتبتها شعلة علم، تأتي إليها البعثات الغربية ل تستضيء بنورها من ظلمات الجهل الذي غرق فيها أوروبا قرونًا من الزمان.

وقد نبغ في قرطبة العديد من الشعراء والعلماء في شتى فروع المعرفة، وكان لهم بلا شك دور بارز في تسيير أمور المملكة سياسياً وعلمياً في آن واحد؛ ويقف على رأس هؤلاء العلماء الإمام المؤرخ الفقيه الفيلسوف ابن حزم الأندلسي، وقاضي قضاة الأندلس يونس بن عبد الله بن مغيث، ومؤرخ الأندلس الأول أبو مروان بن حيان، وتلميذه أبو عبد الله الحميدي، وغيرهم كثير، وسوف نقف على بعض لمحات من حياة بعضهم.

١- ابن حزم الأندلسي (٤٨٤-٩٩٤=٥٤٥٦ م) :

الإمام الكبير أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب، الأموي الظاهري، وكان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحبة عبد الرحمن الداخل، ولد في قرطبة، وتعلم فيها وتربي على شيوخها، وتفقه أولاً للشافعى، ثم آداء اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليله وخفيه، والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث، كان مفسراً محدثاً، فقيها مؤرخاً، شاعراً مربيناً، عالماً بالأديان والمذاهب؛ لذلك يُعدّ رحمه الله من أكبر علماء الإسلام فقهها وعلماً وتصنيفاً.

كان ابن حزم الأندلسي سياسياً بارعاً، وزيراً ماهراً، وكان بيته بيت وزارة؛ إذ وزر أبوه للمنصور بن أبي عامر، وقد عاش ابن حزم أمور الفتنة في قرطبة، وناصر المرتضى الأموي على الحمويين، ولكنه أسرَ وكان ذلك في منتصف سنة ٤٠٩ هـ، ثم أطلق

سرابه من الأسر، فعاد إلى قرطبة، ثم ولـي الوزارة للمستظہر ثم قُتل المستظہر وسُجـنَ ابن حزم، ثم عُفي عنه، ثم تولـي الوزارة أيام هشام العـتـدـ فيما بين (٤١٨-٤٢٢ھـ)، وقد عـاـصـرـ ابن حزم مـلـوكـ الطـوـائـفـ وهـيـ فيـ أـوـجـ اـخـتـلـافـهاـ، وـكـانـ يـحـمـلـ عـلـيـهـمـ وـيـؤـلـبـ الفـقـهـاءـ ضـدـهـمـ، وـمـنـ ثـمـ أـخـرـقـتـ كـتـبـهـ فـيـ إـشـيـلـةـ بـأـمـرـ مـنـ العـتـضـدـ بـنـ عـبـادـ.

ونظراً لجهوده العلمية والسياسية فقد نال ثناء العلماء، الذين عرفوا شمائله وعلوّ همه؛ قال الأمير أبو نصر بن ماكولا: كان فاضلاً في الفقه حافظاً في الحديث، مصنّفاً فيه، وله اختيار في الفقه على طريقة الحديث، روى عن جماعة من الأندلسين كثيرة، وله شعر ورسائل^(١).

وقال الحميدي: كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، ومستبطناً للأحكام من الكتاب والسنّة، متفنّناً في علوم جمّة، عالماً بعلمهن، زاهداً في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولائيه من قبله من الوزارة وتدبير المالك، متواضعاً ذا فضائل جمّة^(٢).

وقال الحافظ الذهبي: ابن حزم الأوحد البحري، ذو الفنون والمعارف. وله جهله العديد من التصانيف، أشهرها: طوق الحمام، والمحل في الفقه، والفصل في الملل والأهواء والنحل، والناسخ والمنسوخ، وله أيضًا: رسالة في الطب النبوي، وكتاب حدّ الطب، وكتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة، وكتاب في الأدوية المفردة.

ييد أن آراء ابن حزم في ملوك الطوائف جعلته موضع اضطهاد ومطاردة منهم، وظلّ حاله معهم من بلد إلى بلد حتى استقرّ به المقام في لبّلة حيث أصله الأول، وبها مات^(٣).

(١) ابن مأكولا: الإكمال / ٤٥١

(٢) الحمدي؛ حذوة المقتبس، ٣٠٨/٨

(٣) انظر ترجمته في: الذهبي، سير أعلام النساء /١٨٤-٢١٢.

٢- أبو مروان ابن حيان (٣٧٧-٩٨٧=٥٤٦٩):

الإمام الإخباري المؤرخ، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي الأموي بالولاء، وقد كان أبوه وزيرًا للمنصور بن أبي عامر، وقد عاصر ابن حيان أحداث الأندلس في فترة الطوائف، فكان أبلغ من كتب فيها، كما كان ابن حيان وزيرًا للوليد بن جهور في قُرطبة، ومنْ خاصَّته، وقد عايش ابن حيان سقوط دولتهم، كما كان بارعًا في الآداب، وهو صاحب لواء التاريخ بالأندلس، وأفصح الناس فيه، كان لا يعتمد كذبًا فيها يمحكيه من القصص والأخبار، من كتبه: المقتبس في تاريخ الأندلس، والمتن في تاريخ الأندلس أيضًا^(١).

ثانياً: بنو عباد في إشبيلية:

تعدُّ مملكة إشبيلية أهمَّ دول الطوائف كلها، وأعظمها شأنًا وأقواها عدَّة وشكيمة، فمع تفوُّقها العسكري والسياسي وموقعها الجغرافي، فقد علا فيها شأن العلم والعلماء، والأدب والأدباء؛ وهذا ما جعل ملوكها أشهر الملوك، وشعراءها أفحى الشعراء.

وإذا كنا سنتحدَّث عن مملكة إشبيلية فيجدر بنا أن نتحدث عن بنى عباد الذين صنعوا من إشبيلية مملكة تَمَوَّقَت على دول الطوائف الأندلسية، واستطاعت التغلب على قُرطبة، وأسقطوا حكم الحمويين فيها، وعلا كعبهم^(٢) في بلاد الأندلس حتى خطب وَدَّهم أمراؤها وأعيانها.

النسب والانتماء:

بنو عباد من العرب الداخلين إلى الأندلس، وهم ينتمون إلى لخم، وكان قد

(١) ابن سسام: الذخيرة ٢/٦٠٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/٣٧٠-٣٧٢.

(٢) علا كعبهم؛ أي: ازدادوا علوًا وشرفاً وظفراً وحظاً. ابن منظور: لسان العرب، مادة كعب ١/٧١٧، والمعجم الوسيط ٢/٧٩٠.



دخل رهط من اللخميين بلاد الأندلس، كان منهم عطاف بن نعيم وهو جد العباديين، دخل الأندلس مع طالعة بلج بن بشر القشيري، وهو لخمي النسب صريحاً، وأصله من عرب حمص بأرض الشام، ولما دخل الأندلس نزل بقرية قرب إشبيلية، وقد تناслед ولده بها مدةً من الزمان، ثم انتقلوا إلى حمص (وهي إشبيلية)، وكان جند الشام يسمون إشبيلية حمص؛ لقوة الشبه بينها وبين حمص الشام، من حيث الطبيعة والإقليم^(١).

وبنوا عباد قيل: إنهم يتتمون إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء. فهم لخميون أصليون، كانوا بنسبهم يفتخرون على غيرهم، ويمتدحهم بذلك شعراً لهم، وفي ذلك يقول شاعرهم ابن البارنة: [الخفيف]

مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِينَ وَهُوَ اتِّسَابٌ
رَادٌ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَادٍ
فِتْيَةٌ لَمْ تَلِدْ سِوَاهَا الْمُعَالِيٌ
وَالْمُعَالِيٌ قَلِيلَةُ الْأَوْلَادِ^(٢)

وكانت لأسرة بني عباد مكانة وحظوة لدى خلفاء وأمراءبني أمية؛ خاصة الحكم المستنصر، وابنه هشام المؤيد، وحاجبه المنصور محمد بن أبي عامر، فكانت فيهم الإمامة والخطابة والقضاء^(٤).

وخير منْ أجاد وأبلغ في وصفهم وبيان حالم الوزير الكاتب الفتح بن خاقان الإشبيلي في قوله: هذه بقيةٌ متتها في لَخْمٍ، ومرتاتها إلى مَفْخَرٍ ضَخْمٍ، وجَدُّهُم

(١) ابن الأبار: الحلقة السيراء، ٢، ٣٤، ٣٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣ / ١٩٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ١٥٢، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣ / ٣٣-٢٣.

(٢) في حاشية الحلقة السيراء كتب مايلـي: في الأصل:

من بنى المنذر بن ماء السماء وهو اتساب زاد في فخره بنو عباد

وهو واضح الانكسار، وقد صوبه دوزي على هذا التحْمُور، وهو صحيح.

(٣) ابن الأبار: الحلقة السيراء، ٢، ٣٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٣ / ١٩٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٢.

المنذر بن ماء السماء، ومطلعهم من جوّ تلك السماء، وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، وتنفس منهم عن أعقاب الزهر، وعمرُوا ربع الملك، وأمروا بالحياة والملك، ومعتضدهم أحد من أقام وأقعد، وتبواً كاهم الإرهاب واقتعد^(١)، وافتشر من عريسته^(٢)، وافتشر من مكائد فريسته، وزاحم بعود^(٣)، وهز كل طود، وأحل كل ذي زي وشاره وختل بوحي وإشارة، ومعتمدهم كان أجود الأملال، وأحد تبرات تلك الأفلاك^(٤).

القاضي ذو الوزارتين أبو الواليد إسماعيل بن عباد:

وقد سطع نجمبني عباد في إشبيلية منذ سقوط حكم العامريين واعتلال الخلافة الأموية ثم سقوطها، وذلك أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين، ونتج عن ذلك توالي الفتنة وكثرة الانقلابات، وقد تألق نجمبني عباد في أعقاب الفتنة، على يد جدهم أبي الواليد إسماعيل بن عباد، وقد استطاع بحكمة ودهاء أن يجمع خيوط السياسة في يده، ويجمع حوله أعيان ورؤساء إشبيلية؛ لمكانته في نفوس أهلها، فقد ولـي الشرطة لهشام المؤيد، ثم ولـي الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم، كما ولـأهـ المنصور بن أبي عامر قضاء إشبيلية، وظلـ بها يرقـ الأحداث على كثـ، ويـ عمل ليـ يوم يـنفردـ فيـه بالـسلـطة لنـفـسـه وولـدـهـ منـ بـعـدهـ كـما انـفـرـدـ غـيرـهـ بـمـالـكـهـ، ويـسـتـأـثـرـ بـحـكـمـ مـدـيـنـةـ منـ أـعـظـمـ مـدـنـ الـأـنـدـلـسـ^(٥).

(١) اقتعد: ركب واتخذها قعـداـهـ الـجـوهـريـ: الصـاحـاحـ، بـابـ الدـالـ فـصـلـ القـافـ / ٢، ٥٢٥، وابـنـ منـظـورـ: لـسانـ الـعـربـ، مـادـةـ قـعـدـ / ٣، ٣٥٧ـ، وـالـعـجـمـ الـوـسـيـطـ / ٢، ٧٤٨ـ.

(٢) العـرـيـسـةـ: الشـجـرـ الـمـلـتـفـ يـكـونـ مـأـويـ لـلـأـسـدـ. الـجـوهـريـ: الصـاحـاحـ، بـابـ السـيـنـ فـصـلـ الـعـيـنـ / ٣، ٩٤٨ـ، وابـنـ منـظـورـ: لـسانـ الـعـربـ، مـادـةـ عـرـسـ / ٦، ١٣٤ـ، وـالـعـجـمـ الـوـسـيـطـ / ٢، ٥٩٢ـ.

(٣) الـعـوـدـ: الـجـمـلـ الـمـلـسـ وـفـيهـ بـقـيـةـ، وـفـيـ المـلـئـ: زـاحـمـ بـعـودـ أوـ دـعـ. أـيـ: اـسـتـعـنـ عـلـىـ حـرـبـكـ بـأـهـلـ السـنـ وـالـمـعـرـفـةـ؛ فـإـنـ رـأـيـ الشـيـخـ خـيـرـ مـنـ مـشـهـدـ الـغـلامـ. الـجـوهـريـ: الصـاحـاحـ، بـابـ الدـالـ فـصـلـ الـعـيـنـ / ٢، ٥١٤ـ، وابـنـ منـظـورـ: لـسانـ الـعـربـ، مـادـةـ عـوـدـ / ٣، ٣١٥ـ، وـانـظـرـ: أـبـوـ الفـضـلـ أـحـدـ بـنـ مـحـمـدـ الـمـيـدـانـ: جـمـعـ الـأـمـالـ / ١، ٣٢٠ـ.

(٤) الـفـتـحـ بـنـ خـاقـانـ الـإـشـبـيلـيـ: مـطـمـعـ الـأـنـفـسـ وـمـسـرـ التـائـسـ فـيـ مـلـحـ أـهـلـ الـأـنـدـلـسـ / ١، ٢٢ـ، ٢٣ـ.

(٥) اـبـنـ عـذـارـيـ: الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ / ٣، ١٩٤ـ.

كان أبو الوليد إسماعيل بن عباد عميد الأسرة وكثيرها؛ وكان يتمتّع بصفات الزعامة ومؤهلات القيادة، فكان يُفقن مِنْ ماله وآوى كثيرين من فروا من قُرطبة عند احتدام الفتنة، وكان معلوماً بوفور العقل وسبوغ العلم والدهاء وبُعد النظر^(١)، واستطاع أن يحمي مدينة إشبيلية من سطوة البرابرة النازلين حولها «بالتدبر الصحيح، والرأي الرجيح، والنظر في الأمور السلطانية»^(٢).

وهكذا استتبّ الأمر في يد القاضي ذي الوزارتين إسماعيل بن عباد، ثم لما مرض ندب الأمر من بعده لابنه أبي القاسم محمد ليشغل القضاء، واقتصر هو على تدبير الرأي في إشبيلية، وظلَّ كذلك إلى أن أتاه أجله سنة ١٤٤٥ هـ^(٣).

القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد :

هو المؤسس الفعلي لدولةبني عباد، أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف^(٤).

كان سلطان الحمويين في ذلك الوقت يتربّد بين قُرطبة وإشبيلية، فلما قُتل علي بن حمود في أواخر سنة ٤٠٨ هـ تولى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود، وبعد سلسلة من الصراعات الداخلية على السلطة بين القاسم بن حمود وابن أخيه يحيى بن علي، ترك القاسم بن حمود قُرطبة وقصد إشبيلية سنة ٤١٢ هـ، وهناك بُويع له وتلقّب بالمستعلي، ثم عاد ثانية إلى قُرطبة في ذي الحجة سنة ٤١٣ هـ، وجُددت له البيعة. وكان القاسم بن حمود وهو في إشبيلية قد قَدَّم القاضي ابن عباد على قضاء إشبيلية^(٥)، وكان القاضي

(١) ابن الأبار: الخلة السيراء، ٢/٣٥، ٣٦.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/١٩٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٢.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/١٩٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٢.

(٤) ابن الأبار: الخلة السيراء، ٢/٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب، ٣/١٩٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٣.

(٥) ابن الأبار: الخلة السيراء، ٢/٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب، ٣/١٩٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٣.

ابن عباد يشعر من جانبه أن استمرار سلطان الحمويين يهدّد رئاستهم وينذر بالقضاء عليها، فلما استدعى المستعلي ليتولى الخلافة ثانية في قُرطبة، اجتمع رأي أهل إشبيلية على ثلاثة من الزعماء؛ هم: القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل، والفقير أبو عبد الله الزبيدي، والوزير أبو محمد عبد الله ابن مريم، فكانوا يحكمون في النهار بالقصر، وتنفذ الكتب تحت اختامهم الثلاثة، إلا أن القاضي ابن عباد استطاع أن ينفرد بالسلطة لنفسه.

ثم حدث أن ثار أهل قُرطبة على القاسم بن حمود ففرَ إلى إشبيلية وطلب فتح أبوابها له، إلا أن زعماء المدينة وعلى رأسهم القاضي أبو القاسم ابن عباد اتفقوا على إغلاق أبوابها، وأخرجوا ولد القاسم المستعلي ومن فيها من أهله، واتفق أهل إشبيلية إنقاء عدوان القاسم المستعلي على أن يؤذوا له قدرًا من المال وينصرف عنهم، وتكون له الخطبة والدعوة ولا يدخل بلدتهم، ولكن يقدّم عليهم من يحكمهم ويفصل بينهم، فقدّم عليهم القاضي ابن عباد، وبذلك انفرد ابن عباد بإشبيلية، وأصبحت رئاسته عليها شرعية وفعالية^(١).

وبعد أن أصبحت إشبيلية ولاية شرعية للقاضي أبي القاسم بن عباد؛ فهو قاضيها وحاكمها معًا، راح يسعى لتوطيد حُكمه وتوسيعه، وهذا لا يكون إلا بحاشية ملخصة له ويجند يتقانون في خدمته والدفاع عنه؛ فأكثر من شراء الرجال الأحرار والعبيد، واقتناء أنواع السلاح والعدّة والعتاد، إلى أن ساوي ملوك الطوائف، وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه وقوّة جيشه وعتاده، ولم يكن القاضي ابن عباد على غفلة من تدبير الحمويين والبرابر ضدّه؛ فهو يعلم تربصهم به، وطموحهم في امتلاك إشبيلية ثانية، كما أن طموح القاضي أبي القاسم بن عباد لم

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ١/٢٤-٣٢، وابن سام: الذخيرة ١/٤٨١-٤٨٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٩٦، ١٩٥، ٣١٤، ٣١٥، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٣٣، ١٥٣، والمقربي: نفح الطيب ١/٤٣٢، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٣٤.

تكن على حدود إشبيلية فقط؛ بل اتجه للتوسيع خارج حدود مملكته ناحية الغرب؛ للارتباط الإقليمي بين إشبيلية وغرب الأندلس، إضافة إلى خلوّها من المنافسين الأقوياء^(١).

وكان من أشهر أعمال القاضي أبي القاسم بن عباد أثناء ولايته إعلانه ظهور الخليفة هشام المؤيد، وتجديد البيعة له خليفة بإشبيلية، وأنه قد عثر عليه حيًّا وذلك سنة (٤٢٦هـ = ١٠٣٥م)، ولم تكن هذه الخطوة التي خطتها القاضي ابن عباد عبئًا؛ فهو كان يرمي من ناحية إلى دحض دعوى الحمويين بالخلافة؛ وذلك بظهور الخليفة الشرعي، ومن ناحية أخرى يُريد أن يُضفي الشرعية على حُكمه وتدبيره وتوسيعاته خارج حدود إشبيلية؛ فهو يتوسّع بأمر الخليفة الشرعي للأندلس كلها.

وقصة هشام المؤيد هذا يكتنفها الغموض، وتضاربت الروايات في شأنه واختلفت في تحديد مصيره، والروايات الأندلسية يظهر منها أن القاضي ابن عباد أظهر شخصًا زعم أنه هشام المؤيد، وتُظهر الروايات أن هذا الرجل يُشبه هشاماً المؤيد شبهًا كبيرًا، وأنَّ هذا الداعيَ كان اسمه خلف الحصري، وتذكر الروايات أن هشاماً المؤيد لما فرَّ من الفتنة كتم أمره، واستقرَّ بقرية من قرى إشبيلية، وعمل مؤذنًا بأحد مساجدها، ولما وصل أمره إلى القاضي ابن عباد جمع ولده وخاصته وخدمه وعيشه، وقبَّلوا الأرضَ بين يديه، وألبسوه لباس الخلافة، ونحو طب بالخلافة، وبايده الناس، ونودي في المدينة: يا أهل إشبيلية؛ اشكروا الله على ما أنعم به عليكم؛ فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم، وجعل الخلافة بيلكم؛ لمكانه فيكم، ونقلها من قُرطبة إليكم، فاشكروا الله على ذلك^(٢).

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/١٥، ١٦، وابن الأبار: الخلقة السيراء ٢/٣٧، ٣٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٩٦، ١٩٧، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٣، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣٥/٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٩٧ - ٢٠٠، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٤.

وبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة لشام بإشبيلية بعث بالكتب إلى أنحاء الأندلس لأنذ البيعة لل الخليفة الشرعي للبلاد، فلم يعترض به أحد سوى الوزير أبي الحزم بن جهور، مع علمه بكذب دعوى ابن عباد، ولكن بيته كانت لغرض الدنيا ودفع دعوى الحسودين في الخلافة ومطامعهم في أملاكها على نحو ما ذكرنا سابقاً^(١).

وبهذا قامت دولةبني عباد بإشبيلية، والذي يُعدُّ القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد هو المؤسس الحقيقي لها، والتي كان لها شأن كبير بين ملوك الطوائف في الأندلس، وقد عظم مُلك ابن عباد وقويت شوكته إلى أن تُوفيَّ سنة (٤٣٣هـ=١٠٤٢م).

وللقاضي ابن عباد مقطوعة شعرية تشير إلى رغبة قديمة في الحكم، تقول:

[الطوبل]

وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ أَسْوَدَ عَلَى الْوَرَى
وَلَوْرُدَّ عَمْرُو لِلرَّمَانِ وَعَامِرُ
فَمَا الْمُجْدُ إِلَّا فِي ضُلُوعِي كَامِنْ
وَلَا جُنْدُ إِلَّا مِنْ يَمِينِي ثَائِرُ
وَبَحْرُ التَّدَى مَا بَيْنَ كَفَّيَ زَاهِرُ
فَجَيْشُ الْعُلَا مَا بَيْنَ جَنِينِي جَائِلُ
(٢)

المعتضد بالله ابن عباد:

عندما تُوفيَّ القاضي أبو القاسم ولِي من بعده ابنه أبو عمرو عباد بن محمد، وتلقب أولاً بفخر الدولة، ثم تلقب بالمعتضد بالله، وقد تميَّز المعتضد هذا بذكائه السياسي وتفوقه العسكري، ولما ملك إشبيلية وأعمالها جرى على سفن أبيه في إشار الإصلاح وحسن التدبير ويسط العدل، وظلَّ على ذلك مدة يسيرة، ثم بدأ له أن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ١٩٨/٣ - ٢٠١.

(٢) ابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٣٨.

يُستبَدِّد بالأمور وحده، وكان شخصية قوية، كان صارماً قاسي القلب، ذكيًّا داهية سريع البديهة^(١)، حتى قال عنه المؤرخ ابن بسام: «رجل لم يثبت له قائمٌ ولا حصيدٌ، ولا سليمٌ عليه قريبٌ ولا بعيدٌ، جبارٌ أَبْرَم الأمور وهو متناقض، وأَسْدٌ فَرَسَ الطُّلَى^(٢)» وهو رابض، متھورٌ تتحاماه^(٣) الدهاء، وجبارٌ لا تأْمُنُه الكيادة^(٤)، متعسِّفٌ^(٥) اهتدى، ومبنيٌّ قطع فما أبقى، ثار والناسُ حربٌ، وكلُّ شيءٍ عليه إلْب^(٦)، فكفى أقرانهُ وهم غيرُ واحد، وضيَّط شانه بين قائمٍ وقاعدٍ، حتى طالت يدهُ، واتسَع بلدُهُ، وكثُر عديدهُ وعدَّدهُ... جبارًا من جبابرة الأنام، شَرَّدَ به مَنْ خلفَه... حَرْبَهُ سُمٌ لا يُبْطِئُ، وسُهُم لا يُخْطِئُ، وسلمهُ شرٌّ غيرُ مأمونٍ، ومتاعٌ إلى أدنى حين^(٧).

وقال عنه مؤرخ الأندلس ابن حيان: «ذو الأنبياء البديعة، والحوادث الشنيعة، والواقعِ المُبِيرَة^(٨)، والهمم العلية، والسيطرة الأبية... حُملَ عليه على مرّ الأيام، في باب فُرْطِ القسوة وتجاوزُ الحدود، والإبلاغ في المُثُلَة، والأخذ بالظنة، والإخفار^(٩)».

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٥.

(٢) الطُّلَى: الأعناق، مفردتها الطلاة: وهي العنق أو صفحته. ابن منظور: لسان العرب، مادة طلي ١٠/١٥، والمجمع الوسيط ٥٦٤/٢.

(٣) تحماء الناس؛ أي: توقُّهُ واجتبوه. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل الحاء ٦/٢٣٢١، وابن منظور: لسان العرب، مادة حما ١٤/١٩٧، والمجمع الوسيط ١/٢٠٠.

(٤) الكيادة مفردتها الكمي: الشجاع المقدام الجريء المحمي بسلاحه ودرعه. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل الكاف ٦/٢٤٧٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة كمي ١٥/٢٣١، والمجمع الوسيط ٢/٧٩٩.

(٥) المتعسِّف: الظالم الجائر والسائل على غير هدى ولا علم. الجوهري: الصحاح، باب الفاء فصل العين ٤/١٤٠٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة عسف ٩/٢٤٥، والمجمع الوسيط ٢/٦٠١، ٦٠٠.

(٦) الإلْب: القوم يجتمعون على عداوة إنسان. ابن منظور: لسان العرب، مادة ألب ١/٢١٥، والمجمع الوسيط ١/٢٣.

(٧) ابن بسام: الذخيرة ٢/٢٤، وابن الأبار: الخلة السيراء ٢/٣٩، ٤٠.

(٨) المبيرة: المهلكة التي تُسرُّفُ في الإهلاك. ابن منظور: لسان العرب، مادة بور ٤/٨٦، والزيدي: تاج العروس، باب الراء فصل الياء ١٠/٢٥٣.

(٩) الإخفار: نقض العهد والغدر به. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الحاء ٢/٦٤٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة خفر ٤/٢٥٣، والمجمع الوسيط ١/٢٤٦.

للذمة، حكاياتُ شنيعة لم يبُدُّ في أكثرها للعالم بصدقها دليلاً يقُولُ عليها، فالقول ينساغ في ذكرها؛ ومهمها بَرئٌ من مغبَّتها فلم يَبْرأْ من فطاعة السطوة وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة»^(١).

بدأ المعتصد عهده بالقوة والصرامة، فبطش بوزراء أبيه، ثم انتقل للامتلاك على إمارات غرب الأندلس الصغيرة، واستطاع بقوته وتفوقه العسكري أن يُسيطر عليها ويضمِّنها إلى أملاكه، فانتزع لبلة من ابن يحيى اليحصبي، وقضى على دولته سنة ٤٤٥هـ=١٠٥٣م^(٢)، كما أنه انتزع جزيرة شَلْطِيش وولبة منبني البكري، وقضى على دولتهم سنة ٤٤٣هـ=١٠٥١م^(٣)، وفي السنة نفسها انتزع شَتْمَرِيَّة الغرب منبني هارون وقضى على دولتهم^(٤)، وأخرج القاسم بن حمود من الجزيرة الخضراء^(٥)، وهكذا توسَّع مملكة إشبيلية كثيراً على حساب الطوائف المغلوبة على أمرها!

ولما فرغ المعتصد من إمارات الغرب اتجه إلى الإمارات البربرية في الجنوب؛ وهي: إمارةبني يفرن في رُنْدَة، وبني دَمَر في مورور، وبني خزرون في شَدُونَة وأركش، وبني برازَل في قَرْمُونَة؛ وذلك ليتفرَّغ بعدها للشَّمال والشرق، واستطاع بذلك وخديعته أن يُسيطر على تلك الإمارات ويضمِّنها لأملاكه؛ إذ دَبَر لهم حيلة قتلهم فيها جميعاً؛ ففي سنة ٤٤٥هـ=١٠٥٣م دَبَرَ المعتصد كميناً لأولئك الأمراء، فدعاهم إلى زيارته بإشبيلية، فلَبِّيَ الدُّعْوَةَ ثلاثة؛ صاحب رُنْدَة، وصاحب مورور،

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/٢٤، ٢٥، وابن الأبار: الحلة السيراء ٤٠، ورَجَم واشحة: مشتبكة متصلة متألقة. الجوهرى: الصحاح، باب الجيم فصل الواو ١/٣٤٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة وشج ٢/٣٩٨، والمجمع الوسيط ٢/١٠٣٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٤٠، ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ٣/٢٢٢، ٢٢٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٩٨، ٢٩٩.

(٥) ابن بسام: الذخيرة ٣/٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٤٠-٢٤٣.

وصاحب أركش، فاستقبلهم أحسن استقبال ثم أمر بالقبض عليهم، وتکلیبهم، واستولى على أمتعتهم وسلاحمهم، ثم أمر بإدخالهم الحمام، وأشعل النار فيه، فهلكوا جمیعاً، ويُقال: إنه أبقى على ابن أبي قرة صاحب رُنْدَة، وهلك الآخرون؛ وبذلك امتلكت مملكة إِشْبِيلِيَّة في عهد المعتضد مساحة شاسعة تشمل المثلث الجنوبي من الأندلس^(١).

وأما قَرْمُونَة وأصحابها بني برازَال فيَنْهم وبين المعتضد شأن كبير، فما زال المعتضد يُرهقها بغاراته منذ أيام محمد بن عبد الله البرزالي حليفه بالأمس، ولكن البرزالي صمد أمامه حتى وفاته سنة ٤٣٤هـ، ثم بُويع لابنه المستظهر عزيز بن محمد، وقد انظمت أحواها معه ورخت أسعارها، وعمَّ الأمان والرخاء، حتى جدَّدَ المعتضد غاراته عليها، فما زالت الحروب على أوارها^(٢) بينها، حتى استسلم المستظهر أمام جبروت المعتضد، وخرج من قَرْمُونَة وحلَّ بِإِشْبِيلِيَّة، ومملَّكتها المعتضد سنة ٤٥٩هـ=١٠٦٧م^(٣).

وفي عهد المعتضد وقعت أشرس الفتنة الأندلسية وأقواها وقعَّا في النفوس، تلك الفتنة التي اشتعلت أوارها بينه وبين بنى الأفطس أصحاب بَطَلْيُوس لولا حمایة الله لل المسلمين ثم تدخل القاضي جهور وابنه أبي الوليد لفضحها والتحذير من عواقبها، وهو ما سنفصِّله في موضعه إن شاء الله.

تعرَّضَ المعتضد بن عباد لِمَآسٍ كثيرة خلال فترة حكمه، التي لا تهدأ عواصفها معه، ففي سنة (٤٥٠هـ=١٠٥٨م) تعرَّضَ المعتضد لمؤامرة كادت أن تفتَّ به

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/٣٨-٤٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٩٤-٣٠١، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٤٥-٤٨.

(٢) أوار الشيء: شدته، ويوم ذو أوار؛ أي: ذو سموم وحرًّ شديد. ابن منظور: لسان العرب، مادة أور ٤/٣٥، والمجمع الوسيط ١/٣٢.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/٣١١، ٣١٢.

وبِمُلْكِه كله، وكانت هذه المؤامرة شديدة الواقع على نفسه، وقد عبرت عن شدة بأسه في تعامله مع مثل تلك الظروف؛ إذ تأمر عليه ابنه وولي عهده إسماعيل ووزيره البزلياني، لأسباب شخصية وتَمَلُّك الحقد في قلب الابن على أبيه والوزير على سيده، ولكن يبدو أن المعتصد كان شديد الحبطة فيمن حوله، فاكتشف المؤامرة التي دَبَّرها ابنه مع الوزير البزلياني وقتلها^(١).

كان المعتصد بن عباد شديد الطموح والاعتداد بنفسه، وعدم تقييده بغيره؛ لذلك عزم على قطع الخطبة للمدعوه هشام المؤيد، فقطعها سنة (٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م)، ونعي هشام المؤيد إلى رجال دولته وأهل مملكته.

وقد عَلَقَ المؤرِّخون الأندلسيون وغيرهم شهادة وحزناً على هشام، فقالوا: «صارت هذه الميّة لحاملاً هذا الاسم الميّة الثالثة، وعساها تكون - إن شاء الله - الصادقة، فكم قُتِلَ! وكم مات! ثم انتقض عنه التراب»^(٢). وقال بعضهم فيه:

[الجزء]

ذَاكَ الَّذِي مَاتَ مِرَارًا وَدُفِنَ فَانْتَفَضَ التُّرْبُ وَمُرْزَقَ الْكَفَنِ^(٣)

فقد أعلن محمد بن هشام المهي الأموي وفاة هشام المؤيد، ودُفن بمحضر من الفقهاء والعلماء في شعبان سنة (٤٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م)، ثم ظهر بعد عام على يد الفتى واضح، وتولَّ الخلافة، ثم تُؤْيَى قتيلاً على يد سليمان المستعين أو ولده محمد بن سليمان سنة (٤٠٣ هـ = ١٠١٢، ١٠١٣ م)، ودُفن خفية، ولما دخل علي بن حمود قُرُطْبَة، بحث عن هشام فلم يجده فأعلن وفاته، ودعا لنفسه بالخلافة سنة (٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م)، ثم جاء القاضي ابن عباد سنة (٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م)، فأظهر

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣ - ٢٤٤ / ٢٤٩.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس / ٣ / ٥٢.

(٣) البيت لبني الأندلس أبي طالب عبد الخبر، انظر: ابن بسام: الذخيرة في حماسن أهل الجزيرة / ١ / ٩٤٠.

الدعوة الهاشمية ودعا له وأخذ البيعة له؛ وذلك دفعاً لدعوى ابن حمود بالخلافة، ولليُضفي على نفسه الشرعية كما ذكرنا قبل ذلك^(١).

توّفي المعتضد بن عباد بعد أن توسّع دولة، وعظم ملكه، وهو يبلغ من العمر ٥٧ سنة، وذلك في جمادى الآخرة سنة (٤٦١هـ = ١٠٦٩م)، وفيه يقول ابن القطّان المؤرخ: «كان ذا سطوة كالمعتصم العباسي ببغداد، وكان ذا سياسة ورأي، يُدَبِّر ملكه من داره، وكان يغلب عليه الجود؛ فلم يُعلَم في نظرائه أبذر منه للهال»^(٤).

المعتمد بن عباد:

تُؤْكِدُ المُعْتَضِدُ وآلُ حُكْمِ مُلْكَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ إِلَى ابْنِهِ أَبِي القَاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَادٍ، وَتُلَقَّبُ
بِالظَّافِرِ بِحَوْلِ اللَّهِ وَالْمُؤْيِدِ بِاللهِ وَالْمُعْتَمِدِ عَلَى اللهِ، وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ يَوْمَ أَنْ جَلَسَ عَلَى كَرْسِيِّ
وَاللَّهِ فَتَّى فِي رِيعَانِ شِبَابِهِ فِي الثَّلَاثِينِ مِنْ عُمْرِهِ، كَانَ مُولَدُهُ سَنَةُ ٤٣١ هـ أَوْ ٤٣٢ هـ^(٥).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢٤٩ / ٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥٢ / ٣.

(٢) ابن سام: الذخيرة / ٢٤٦.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، رقم (٦٧٢)، ص ٢٩٦، وابن عذاء: السان المغرب / ٣، ٢٨٥.

(٤) ابن عذارى: السیان المغرب ٣ / ٢٨٤.

^(٥) ابن الأبار: الحلة السمهاء ٢/٥٣

كان المعتمد عليه فارساً شجاعاً، وشاعراً ماضياً، مشكور السيرة في رعيته، تلقّب بالمعتمد؛ لشدة حبه لجاريته اعتهاد^(١)، وكان المعتمد من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسيخاء المأمونين، عفيف السيف والذيل، مخالفًا لأبيه في القهر والسفك والأخذ بالظن، رد جماعة من نفاهم أبوه، وأحسن السيرة، إلا أنه كان مولعاً بالخمر، منغمساً في اللذات، عاكفاً على البطالة، مخلداً إلى الراحة؛ فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه^(٢)، وكان شاعراً رائعاً للشعر، وشغوفاً بالأدب وعلومه^(٣).

ويُعدُّ عصر المعتمد في الأندلس من أشهر عصور الطوائف على الإطلاق، وكان أول عمل تضليل له المعتمد بن عباد أن تدخل وبصورة مباشرة في شؤون قرطبة؛ ليحسم الخلاف ويتحقق حلم آبائه في تملّكها، وهذا ما حدث له بالفعل سنة (٤٦٢هـ = ١٠٧٠م)، وكانت بينه وبين المأمون بن ذي النون (ملك طليطلة) مساجلات، وألعاب سياسية تحت ستار على نحو ما سُبِّبَتْ في موضعه إن شاء الله.

كان المعتمد بن عباد على علم بما تضمره له القبائل البربرية في الأندلس وخاصة في غرناطة، صاحبة المساجلات العسكرية الشرسة مع إشبيلية، وبالتالي سير المعتمد قواه ناحية غرناطة للسيطرة على ممتلكاتها وضمّها لنفسه، واستطاع ضمّ جيّان أهم قواعد غرناطة الشمالية سنة (٤٦٦هـ = ١٠٧٤م)، كما استطاع أن يستولي على معظم أراضي طليطلة الجنوبية الشرقية من المعدن شرقاً حتى قونقة، واستولى على مرسية وبيلنسية من يحيى القادر بن ذي النون^(٤).

ولم يقنع المعتمد بن عباد بما تحت يديه؛ إذ طمع في ضمّ غرناطة، وهنا اصطدم

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١٠٩/٢.

(٢) ابن الأبار: الحلقة السيرة ٢/٥٤.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥٨.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٦٠، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٧١.

بعد الله بن **بلقيس** حاكمها، ودارت بينهما حروب ونزاعات، استنصر فيها المعتمد بن عباد بالنصارى على أخيه المسلم، مقابل ما يدفعه من جزية باهظة أثقلت كاهله وكاهل غيره من ملوك الطوائف، على نحو ما سُنّيَّنه في الصراع بين إشبيلية وغرناطة، إن شاء الله.

كما أن المعتمد بن عباد وقع في خصومات معبني ذي النون أصحاب طليطلة، انتهت بسقوط طليطلة في يد ملك النصارى ألفونسو السادس، ليدفع المعتمد بن عباد ثمن خيانته واستهتاره بدينه وبدماء المسلمين، وتعاونه مع النصارى ضد ملوك الطوائف، والتي جاءت بالوبال عليه وعلى الأندلس؛ إذ هاجم النصارى مالك الأندلس وأوها إشبيلية وفرضوا عليها الحصار، وانتهى الأمر باستدعاء المرابطين من المغرب العربي.

ولقد استطاع المعتمد بن عباد أن يُؤسّس أعظم مملكة للطوائف، تتدلى قلب النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الأندلسية، من غرب ولاية تُدْمِير شرقاً حتى المحيط الأطللنطي، ومن ضفاف وادي يانة جنوباً حتى أراضي الفرتيرة^(١).

وفاقت شهرة المعتمد على الله الأدبية والشعرية شهرته في السياسة والمملُك؛ فقد كان له في الأدب باعٌ، ينظم وينشر، وفي أيامه نافت سوق الأدباء^(٢)، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه، وشعره موجود بأيدي الناس، ولم يلُك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة^(٣)، ومحاسن المعتمد في أشعاره كثيرة، وخصوصاً مرايه لأبنائه وتفجّعه لزوال سلطانه ومنها: [مجزوء الكامل]

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٧١.

(٢) نافت سوقهم وتفقّق ماله: نقص وقلّ، وقيل: فني وذهب. الجوهري: الصاحب، باب القاف فصل النون ٤/١٥٦٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة نفق ١٠/٣٥٧.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/٥٥.

قَالُوا لِخُضُوع سِيَاسَةٌ
 وَأَكْذَبُ مِنْ طَعْمِ الْخُضُورِ
 إِنْ تَسْتَلِبْ عَنِّي الْدُّنْيَا
 فَالْقَلْبُ بَيْنَ صُلُوعِهِ
 لَمْ أُسْتَلِبْ شَرَفَ الطَّبَّا
 قَدْ رَمْتُ يَوْمَ نِزَارَهُمْ
 وَبَرُزْتُ^(١) لَيْسَ سَوَى الْقَمِيمِ
 وَبَذَلْتُ نَفْسِي كَيْ تَسِيبَ
 أَجَلِي تَأْخَرَ لَمْ يَكُنْ
 مَا سِرْتُ قَطُّ إِلَى الْكُمَا
 شَيْمُ الْأَلْيَ أَنَّا مِنْهُمْ
 فَلِيَئِدْ مِنْكَ هُمْ خُضُوعٌ
 عَلَى فَمِي السُّمُّ النَّقِيعُ
 مُلْكِي وَتُسْلِمُنِي الْجُمُوعُ
 لَمْ تُسْلِمِ الْقَلْبَ الْصُّلُوعَ
 عَ، أَيْسَلْبُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ؟
 أَلَا تَحْصُّنَتِي الْدُّرُوعُ
 صِ عَلَى الْحَشَاشِيَّةِ دَفْوعٌ
 لَ إِذَا يَسِيلُ بِهَا النَّجِيعُ
 يَهْ وَايَ ذُلِّي وَالْحُشُوعُ
 وَكَانَ مِنْ أَمْلِي الرُّجُوعُ
 وَالْأَصْلُ تَتَبَعُهُ الْفُرُوعُ^(٢)

وكانت وفاة المعتمد على الله بأغاثات في المغرب إثر نكبته مع المرابطين؛ جزاء تعاونه مع النصارى ضد ابن تاشفين، وذلك في ذي الحجة سنة (٤٨٨هـ=١٠٩٥م)، وقد رثى نفسه بهذه الأبيات، وأمر أن تكتب على قبره:

[البسيط]

قَبْرُ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْعَادِي
 بِالْحَلْمِ بِالْعِلْمِ بِالنُّعْمَى إِذَا اتَّصَلتْ
 حَقَّا ظَفِيرْتَ بِأَشْلَاءِ أَبْنِ عَبَادِ
 بِالْخِصْبِ إِنْ أَجْدَبُوا بِالرَّيْ لِلصَّادِي

(١) بُرْزَ بَرَازَةً: سبق بعد تمام الجوهري: الصحاح، باب الزاي فصل الباء ٣/٨٦٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة بُرْزٌ ٥/٥، ٣٠٩، والمعجم الوسيط ١/٤٩.

(٢) ابن بسام: الذخيرة في محسن أهل الجزيرة ٢/٥٣، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٦٥، والذهبي: تاريخ الإسلام ٣٣/٢٧١، ٢٧٢.

بِالْمُؤْتَ أَهْمَرَ بِالضُّرْ غَامَةُ الْعَادِي
 بِالْبَدْرِ فِي ظُلْمٍ بِالصَّدْرِ فِي النَّادِي
 مِنَ السَّمَاءِ وَوَافَانِي لِيَعَادُ
 أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادَى فَوْقَ أَعْوَادِ
 عَلَى دَفِينَكَ لَا تُخْصِي بِتَعْدَادِ^(١)

بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا
 بِالدَّهْرِ فِي نَقْمٍ بِالْبَحْرِ فِي نَعْمٍ
 نَعْمٌ هُوَ الْحَقُّ فَاجَانِي عَلَى قَدَرِ
 وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَاكَ النَّعْشِ أَعْلَمُهُ
 فَلَا تَرْلُ صَلَواتُ اللَّهِ تَازِلَةٌ

وهكذا انتهت حياة ملك ملوك الطوائف، وهكذا انتهت مملكة إشبيلية إلى الأبد.

علماء في بلاد إشبيلية

تمتعت إشبيلية بمكانة علمية واسعة النطاق؛ يقدر ما كانت تتمتع به من مكانة سياسية وعسكرية، وقد كان بنو عباد في إشبيلية أعظم ملوك الطوائف اعتماداً بالأدب قدر اعتمادهم بالسياسة، وكان بلاط إشبيلية مسرحاً رائعاً للشعراء والأدباء والفقهاء؛ إذ كان المعتصد شاعراً أدبياً، فضلاً عن أن شهرة المعتمد الشعرية ربما فاقت شهرته السياسية، وقد اجتمع في بلادبني عباد فحول شعراء الطوائف، وقد اعتمدوا بهم وقدموهم، واتخذوهم ندماء وزراء، ولعل أشهرهم ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار الوزير الفارس، وكان من أشهر كتاب الدولة البزلياني كاتب المعتصد، الذي قال فيه ابن بسام: «أحد شيوخ الكتاب، وجهازنة أهل الآداب»^(٢).

ثالثاً: بنو الأقطس في بطليوس:

في الثغر الأدنى من بلاد الأندلس تكونت مملكة بطليوس؛ وهي مملكة تُمثل

(١) ابن بسام: الذخيرة في محسن أهل الجزيرة ٢/٥٧، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٦٤، والإحاطة في أخبار غرناطة ٢/١١٩، ١٢٠.
 (٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/٦٢٤.

بعدًا مهـا في الصراع بين مالك الطوائف؛ نظرًا لأهميتها الجغرافية الخاصة؛ فهي من ناحية تقع في الشمال من مملكة إشبيلية، ولا يفصل بينها إلا سلسلة جبال الشارات أو سييرا مورينا، ومن ناحية أخرى فهي تشمل رقعة واسعة تمتد من غرب مملكة طليطلة عند مثلث وادي يانة، وغريًا حتى المحيط الأطلسي، كما تشمل بطاليوس (Badajoz) المدينة المهمة من مدن المملكة فهي العاصمة، وتُعدُّ المنطقة الوسطى للملكة، إضافة إلى أنها تشمل المنطقة الغربية لبلاد الأندلس؛ أي: تشمل كل دولة البرتغال الحالية تقريبًا، حتى مدينة باجة (beja) في الجنوب، وبالتالي فهي تشمل مدن مهمة؛ مثل: ماردة (Mérida) ولشبونة (lispon) وشانترين (Santarém) وفُلْمُرِيَة (Coimbra)، وغيرها.

ابتداء دولتهم:

ظهرت مملكة بطاليوس وأحدثت تغييرًا فعليًّا في عصر الطوائف على يدبني مسلمة، أو بني الأفطس على ما هو مشهور في كتب التاريخ الأندلسي، فقد كانوا سادتها نيفًا وسبعين سنة.

وقصة الدولة تبدأ عند احتدام الفتنة في أواخر عهد الحكم المستنصر بالله، حيث كان يحكم المنطقة الغربية لبلاد الأندلس (البرتغال) فتى يُسمى سابور العامري أو الفارسي؛ أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر، وظل حاكماً على البلاد ثلاثة عشرة سنة، فلما اشتدَّت أحاديث الفتنة وطمع كل طامع بها تحت يده من البلاد، استبدلَ سابور وأعلن انفصاله واستقلاله، وكان فارسًا شجاعًا، إلا أنه افتقد الخبرة في شئون الحكم والإدارة وأنواع المعارف، فاستوزر عبد الله بن محمد بن مسلمة الأفطس، ورمى إليه بأمور البلاد، فدبَّر أعماله، فما لبث أن صار الأفطس هو الحاكم الفعلي في البلاد، فلما مات سابور سنة (١٤١٣هـ=١٠٢٢م)، ترك ولدين صغيرين لم يلغا الحلم؛ هما: عبد الملك وعبد العزيز، فأعلن الأفطس استقلاله، واستبدلَ بالأمور

من دون الولدين الصغيرين، وضبط أمر مملكته وتلقب بالمنصور، وصارت المملكة له ولأعوامه من بعده.

لِمَنْ يُؤْتَ الْكِفَّاحَ ثُمَّ يُنْهَا بِهِ الْمُؤْمِنُونَ ؟

عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، أصله من مكناسة المغربية، من قوم متواضعين غير أنه كان من أهل المعرفة التامة، والعقل والدهاء والسياسة؛ لذلك لم يكن غريباً عليه - وقد دانت له المملكة - أن يعمل على توطيد مملكته وتنظيم شؤونها، وقوية جيشه، وبناء الأسوار بما يضمن له حماية المملكة من أي عدوان خارجي؛ خاصة وأن القدر وضعه بين خصمين لدوين، يتحينان الفرص بين الحين والآخر للانقضاض على خصمهما؛ وهما: بنو عباد في إشبيلية، وبنو ذي النون في طليطلة.

وكان ابن الأفطس يرقب تحركات القاضي أبي القاسم بن عباد بكل حذر وحيطة، خاصة وأن دولة القاضي ابن عباد أصبحت في قوة؛ لذلك تزايدت مخاوفه حتى أصبحت حقيقة بمحاجة ابن عباد مدينة باجة إثر اندلاع الثورة فيها سنة ٤٢١هـ، وأسر فيها محمد بن عبد الله بن الأفطس ثم أطلق سراحه، ثم عاد الصدام بينهما مرة أخرى سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٤م)، وكانت الغلبة هذه المرّة لقوات ابن الأفطس، وكانت محنة شنيعة لبني عباد، ثم توقف السجال بين الطرفين بسبب انشغال بني عباد بحروبهم ضد البربر، التي أسفرت عن محنة أشد من سابقتها سنة ٤٣١هـ؛ إذ تجمع البربر في غرناطة وقرمونة ومالقة ضد قوات ابن عباد وهزمته هزيمة منكرة، وقتل إسماعيل ابن القاضي أبي القاسم بن عباد، على نحو ما سلفه في موضعه إن شاء الله^(١).

(١) ابن سام: الذخيرة، ٣/٢٠-٢٢، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٠١-٢٠٣.

وعلى النحو الآخر كان عبد الله بن الأفطس مشغولاً بالقضاء على ثورة ابني سابور (عبد العزيز وعبد الملك) في لشبوة؛ إذ طمع عبد العزيز في استرداد مُلْك أبيه، فأعلن الثورة في لشبوة، ولم تَطُلْ ثورته لوفاته، فخلفه من بعده أخوه عبد الملك، ويبدو أنه لم يكن على قدر الكفاءة والسياسة والإدارة، فلم يقنع به أهل لشبوة؛ فكاتبوا سرًا ابن الأفطس أن يبعث لهم واليًا من عنده، فسَيَّرَ لهم جيشاً عليه ولده محمد، ودخل المدينة دون مقاومة تذكر؛ إذ توأطاً أهل البلد ضده مع ابن الأفطس، فلم يفق عبد الملك حتى وجد نفسه محاطاً بالعساكر والجند، فأذعن بالتسليم، وطلب السلامة له ولأهلة ولدالله، فأعطي ما طلب، وتركوه يسير حيث يشاء، فترك لشبوة وقصد قُرْطُبَةَ، فلما قرب منها استأذن الوزير ابن جهور في الدخول فأذن له، فدخل قُرْطُبَةَ ونزل بدار أبيه سابور، وظلَّ بها إلى أن مات^(١).

وهكذا ظلَّ عبد الله بن الأفطس يعمل على تقوية دولته وتوسيتها وإحكام السيطرة عليها، إلى أن مات في جمادى الأولى سنة (٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م)، وخلفه من بعده ابنه محمد الملقب بالمظفر^(٢).

المظفر محمد بن الأفطس:

المظفر سيف الدولة أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، خلف والده بعد وفاته سنة ٤٣٧ هـ، وكان المظفر مثل أبيه بعيد النظر والسياسة، فعمل على توسيع مُلْكه في بَطَلْيُوس وما حولها، وإقرار النظام في أنحاء المملكة؛ ليتسنى له مراقبة الأحداث الخارجية؛ سواء ما يُجْبِهُ القدر له من ملوك الطوائف، أو ما يُدَبِّرهُ النصارى له في الشَّمَال، واستطاع بحنكته وشجاعته أن يُقيِّم

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢٣٧ / ٣.

(٢) ابن الأبار: الحلقة السيراء ٢ / ٩٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢٣٦ / ٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٣.

ملكاً ضاهى فيه مُلُك بنى عباد في إِشْبِيلِيَّة، ومُلُك بنى ذي النون في طليطلة، ولم يكن ذلك إلا بدماء جُنده التي أُهدرت في ساحات الحرب بينه وبين ابن عباد، وخاصة في المعارك العنيفة بينهما حول لَبْلَة وَيَابَرَة الواقعتين بين مملكة إِشْبِيلِيَّة وبَطْلُيوس، وكانت المعارك بينهما شنيعة، كما كانت سجالاً بين الطرفين، وكاد كل منها يُفْنِي الآخر، لو لا تدخل الوزير أبي الحزم جهور وابنه أبي الوليد بن جهور صاحب قُرْطُبة على نحو ما ستفصله إن شاء الله^(١).

وما كان المظفر ليتهي - ولو إلى حين - من خصمه العنيد المعتصم بالله بن عباد حتى وقع عرضة هجمات المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ودارت بينهما معارك طاحنة^(٢).

لم يكن النصارى في الشَّمَال لِتغيب عنهم تلك الأحداث المؤسفة في بلاد المسلمين؛ لأنهم يتحينون الفرصة بين الحين والآخر للقضاء على الإسلام في الأنجلوس، فما أن استتبَ الأمر لفرناندو الأول بن سانشو ملك قشتالة ولـيـون، حتى هاجمت قوَّاته المنطقة الشَّمالية والغربيـة لمملكة بـطـلـيوـس - أي: شمال البرـتـغال حالياً - ودارت بينها حروـب كانت الغـلـبة فيها لـلنـصـارـى، وضـاعـت الشـعـورـ الغـرـبـيـةـ فيـ أيـديـ فـرـنـانـدوـ، وـلـعـلـ أـعـظـمـهاـ وـأـفـدـحـهاـ سـقـوـطـ قـلـمـرـيـةـ (Coimbra)ـ سـنـةـ (٤٥٦ـ هـ = ١٠٦٤ـ مـ)، وإـجـبارـ ابنـ الأـفـطـسـ عـلـيـ دـفـعـ الـجـزـيـةـ لـلـنـصـارـىـ^(٣)ـ عـلـيـ نـحـوـ مـاـ سـفـصـلـهـ ضـمـنـ حـلـقـاتـ تـطـوـرـ المشـهـدـ الصـلـيـبيـ فيـ عـهـدـ مـلـوـكـ الطـوـافـ.

وهكذا ظَلَّ المظفر بن الأفطس يتقلَّب من حال إلى حال، لا يكاد يُغمض جفنيه عن حرب في الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب، وظلَّ كذلك حتى وافته المنية

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣ / ٢١٢-٢١٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣ / ٢٨٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣ / ٢٣٨، ٢٣٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٤.

سنة (٤٦٠ هـ=١٠٦٧ م)، وخلفه ابنه يحيى على بطلُيوس وتلقب بالمنصور^(١).

و قبل أن يتطرق بنا الحديث عن فترة المنصور يحيى وأخيه الموكِل عمر، يجدر بنا أن نذكر جانبًا من الجوانب المضيئة في حياة المظفر رحمه الله، وهو الجانب الفكري والنشاط العلمي الذي خلفه في بطلُيوس.

فمع شدة المظفر وبأسه واستحكام قوته في الحروب والنزاعات، إلا أنه كان أديب ملوك عصره، شغوفاً بالعلم والثقافة ومحالسة العلماء، وشراء الكتب وجمعها، حتى أصبح رحمه الله حكاية زمانه في العلم، كما كان رحمه الله يحضر العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد^(٢)، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق، المترجم بـ(التذكرة) والمشهر باسمه بـ(كتاب المظفر)، وهو في مائة مجلد، وقيل: في خمسين مجلداً. وقيل: في عشرة أجزاء. يشتمل على علوم وفنون من مغازي وسير، ومثل وخير، وجميع ما يختص به علم الأدب، فكان موسوعة علمية وتاريخية وأدبية عظيمة؛ جمعت بين الآداب المتاخرة، والطراائف المستملحة، والنكت البدعية، والغرائب الملوكية واللغات الغربية، وقد ألف المظفر هذه الموسوعة بنفسه، ولم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة^(٣).

فأيُّ علم وثقافة! وأيُّ همة وعزيمة امتلكها المظفر بن الأفطس! وأين وقت الفراغ الذي كفله لنفسه ليكتب هذا السفر العظيم، وهذا ما حدا بابن حزم أن

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٠، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٩٧، وذكر الدكتور حسين مؤنس في تحقيقه للحلقة السيراء أن المظفر بن الأفطس توفي سنة (٤٥٦ هـ=١٠٦٣ م)، وأيد ذلك في حاشية ٢/٩٧، في ذكر تسلسلة حكام بني الأفطس، اعتقاداً على عملاً عثراً عليها الباحث الإسباني بريتوبييس باسم ابنه وخليفةه يحيى المنصور، مؤرخة في سنة ٤٥٦ هـ.

(٢) المقري: نفح الطيب ٣/٣٨٠، ٣٨١.

(٣) ابن حزم وابن سعيد والشتندي: فضائل الأندرس وأهلها ص ٣٥، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٢٨، وابن بسام: الذخيرة ٤/٦٤١، ٦٤٠، ٦٤١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٣٦، ٢٣٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٣، ١٨٤.

يفتخر به على ملوك الأندلس جميعاً، ويجعله فضيلة من فضائل الأندلس على مرّ التاريخ، بقوله: وهل لكم ملك أَلْف في فنون الأدب كتاباً في نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بَطْلِيُوس، ولم تشغله الحروب ولا الملكة عن همة الأدب^(١).

ومن شعره: [الوافر]

أَنْفَتُ مِنَ الْمَدَامِ^(٢) لَأَنَّ عَقْلِيَ
أَعْزُزُ عَلَيَّ مِنْ أُنْسِ الْمَدَامِ
وَلَمْ أَرْتَحْ إِلَى رَوْضِي وَزَهْرِ
وَلَكِنْ لِلْحَمَائِلِ وَالْحُسَامِ
إِذَا مَأْمَلِكِ الشَّهَوَاتِ قَهْرًا
فَلَمْ أَبْغِي السُّفُوفَ عَلَى الْأَنَامِ

وكان يقول: مَنْ لَمْ يَكُنْ شَعْرَهُ مِثْلَ شَعْرِ التَّسْبِيِّ وَالْمَعْرِيِّ فَلِيُسْكِنْ^(٣).

الْمُنْصُورُ بْنُ عَاصِمٍ يُبَشِّرُ بِنْ الْأَنْصَارِ :

تُوفي المظفر بن الأفطس سنة ٤٦٠ هـ، وخلفه ابنه يحيى وعمر، أما يحيى فخلف أباه ومملّك بَطْلِيُوس وأعماها سنة ٤٦٠ هـ، وتلقب بالمنصور، وكان أخوه عمر يَابَرَة (بلدة في جنوب البرتغال حالياً) حاكماً عليه وما إليها من كور وبلدات، وما كاد المنصور يحيى لينعم بِمُلْكِ أبيه وملكته الواسعة، حتى ثار عليه أخيه عمر حاكم يَابَرَة، واشتَدَ النِّزاعُ بينهما، وبلغ أشدّه سنة (٤٦١ هـ = ١٠٦٨ م)، وكانت تلك الفتنة فرصة لألفونسو بن فرناندو ملك قشتالة ليشن هجومه على بلاد المسلمين، ويتنزع أموالهم وديارهم، واحتلت الحرب الأهلية بِمُلْكَ بَطْلِيُوس وأصبحت على أشدّها، وتفاقم الأمر فالتجأ عمر إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ومال أخوه يحيى المنصور إلى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وما زال الأمر

(١) ابن حزم وابن سعيد والشقنقني: فضائل الأندلس وأهلها ص ٣٥.

(٢) المدام: أي الخمر.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٤.

سجالاً، وكادت نار الفتنة تأكل كل شيء، إلا أن الله وقى المسلمين شرها بموت يحيى المنصور فجأة سنة (٤٦١هـ = ١٠٦٨م)، وانفرد عمر بالأمر كله دون منازع، ودخل بطلُّيوس وجعل ابنه العباس على يابرة، وتلقَّب بالمتوكِّل على الله^(١).

المتوكل على الله بن الأفطس:

كان المتوكِّل على القدر، مشهوراً بالفضل، مثلاً في الخلالة والسرور، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطلُّيوس في مُدَّته دار أدب وشعر، ونحوٍ وعلمٍ^(٢). ولم تكن شهرة المتوكِّل على الله بن الأفطس شهرة سياسية أو دهاء، أو حروب وشجاعة وإغارة، وإنما كانت شهرته شهرة أديب وشاعر وبلغة؛ فقد جمع عليه السلام فوق شجاعته علمًا وأدبًا وبلاغة؛ فكان المتوكِّل بن الأفطس في حضرة بطلُّيوس كالمعتمد بن عباد في حضرة إشبيلية، فكم أحْيَت الآمال بحضرتها، وشُدَّت الرحال إلى ساحتها^(٣).

كما وصفه المراكشي بعد مدحه لأبيه المظفر بقوله: وكان لابنه المتوكِّل قدم راسخة في صناعة النظم والثر مع شجاعة مفرطة وفروسيّة تامة، وكان لا يُغبُّ^(٤) الغزو، ولا يشغله عنه شيء^(٥).

وقد نَقلَتْ لنا كُتب التاريخ والتراجم جملة من أشعاره وأخباره، تنمُّ على سعة علم المتوكِّل بن الأفطس وثقافته وقوَّة بلاغته شعرًا ونشرًا؛ وتتجلى فيها الروح

(١) ابن سام: الذخيرة ٤/٦٥٠، ٦٥١، وابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٩٧، ٩٨، ٩٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٤.

(٢) ابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٩٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٥.

(٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب ١/٣٦٤.

(٤) أغَبَّ القوم: جاء يومًا وترك يومًا، وأغَبَّ عَطاوْرًا: إذا لم يأتنا كُلُّ يوم. والمقصود: لا يترك الغزو. الجوهري: الصاحب، باب الباء فصل الغين ١/١٩٠، ١٩١، وابن منظور: لسان العرب، مادة غَبٌ ١/٦٣٤، والمجمع الوسيط ٢/٦٤٢.

(٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٢٨.

الدينية التي كانت ملزمة له وظاهرة في أقواله وأفعاله، وأمّا عن نشره حَفَظَهُ اللَّهُ فهو أشفٌ من شعره، وإنَّه لطَبْقة تتقاضر عنها أخذاد الْكُتُبَ، ونهاية من نهاية الآداب^(١).

ودولة المُتوكل بن الأفطس لم يَعُلُّ ذِكْرُها بين ملوك الطوائف بالعلم والثقافة فقط، بل كذلك بانتشار العدل والمساواة بين الناس، وإيشاره الشريعة وتقديمه للعلماء، أمّا عن الجانب السياسي من حياة المُتوكل بن الأفطس فلعلَّ أشهر الأحداث السياسية في عهده دخوله طُليطَلة سنة (٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م)، وذلك بعد هروب حاكمها القادر بالله يحيى بن ذي النون إثر ثورة عليه، وظلَّ المُتوكل حاكِماً على طُليطَلة يُدَبِّرُ أمرها وشئونها، ثم خرج منها بعودته القادر بالله مرَّة أخرى مستعيناً بالنصارى، وقد عاد المُتوكل إلى بَطْلُيوس بعد أن حصل على أموال وذخائر ابن ذي النون، ييدِّ أن طُليطَلة لم تنعم كثيراً في يد القادر بالله؛ إذ سقطت طُليطَلة في يد النصارى سنة (٤٨٧ هـ = ١٠٨٥ م)، على نحو ما سُنْفَصَلُهُ في موضعه إن شاء الله.

وبعد سقوط طُليطَلة بدأ الفونسو ملك قشتالة يُعِدُّ عَدَّته للقضاء على ملوك الطوائف واحداً إثر آخر، وهنا لاح في الأفق الخطر، وعلى الفور تحركت النخوة والغَيْرَةُ على الدين؛ فانتدب المُتوكل قاضيه أبا الوليد الباقي ليطوف بملوك الطوائف؛ يدعوهم إلى الوحدة ولمَّا الشعث ومدافعة العدو، ولما لم يستنصره أحدٌ انتهى به الأمر إلى ذلك القرار الخطير، الذي شاء القدر أن يكون نقطة تحول في حياة الأندلس وفي تاريخها، وعني استدعاء المرابطين^(٢)، على نحو ما سُنْفَصَلُهُ في المشهد الصليبي وعلاقته بملوك الطوائف، إن شاء الله.

محنة بنى الأفطس :

وقد دامت أيام المُتوكل بن الأفطس إلى أن تغلَّبَ المرابطون على الأندلس، فبعد

(١) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص ٤٥، ٤٦، وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرَّنَاطَةٍ / ٤، ٤٥، ٤٦.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٩١ / ٣

أن حاصر سير بن أبي بكر إشبيلية وأسقطها (٤٨٤هـ=١٠٩١م)، قام المتوكل بن الأفطس بما لم يكن متخيلاً من مثله؛ لقد راسل ألفونسو السادس، ومكّنه من شبونة وشنترين وشنتريه؛ وذلك لاستعين به على المرابطين، فلما رأى الناس منه ذلك انحرفو عنه، فلما كانت أوائل سنة (٤٨٨هـ=١٠٥٩م) راسلوا سير بن أبي بكر قائداً للمرابطين، فدخل بطليوس وحاصرها، واعتصم المتوكل ومن معه بقلعة بطليوس لمنعها، ولم يتمكّن ألفونسو من معاونة حليفه المسلم المتوكل، وقد استطاع المرابطون دخول بطليوس بسهولة، وأعملوا فيها السيف والقوّة، وقبض سير بن أبي بكر على المتوكل وعلى ابنيه العباس والفضل، وأخذَ بهم إلى إشبيلية، وعلى مقربة منها قيل له: تأهّب للموت. فسألَ أن يُقدّم ابناه، فقدّمُوهما قبله رغبة منه أن يحتسبهما عند الله ولبنال أجراً هما، فقدّمَا عليه فقتلا، وقام بعدهما كي يُصلّي ركتين فطعنوه بالرماح؛ وقد اختلط كلامه في صلاته، حتى فاضت نفسه وغرست شمسه^(١).

وكان للمتوكل ابن اسمه المنصور بعث به إلى حصن متنانجش على مقربة من حدود قشتالة؛ ليتمكن فيه، فلما علم بما جرى القدر به في أبيه وإخوته، سار بأهله إلى ملك قشتالة ليحتمي به، وأقام بأرضه، وقيل بأنه اعتنق النصرانية^(٢).

وهكذا التاريخ يعلّمنا.. وهكذا انتهت حنة بنى الأفطس.. وهكذا انتهت مأساة المتوكل على الله.. وهكذا تَمَّت للمرابطين السيطرة على غرب الأندلس.. وهكذا دفع المتوكل بن الأفطس ثمن مواليه للنصارى من دون المؤمنين، وتلك زلة لم يغفرها له التاريخ، مع حُسن سيرته وشيوخ عدله وعلمه.. ولكنها الدنيا وشهوة

(١) ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب ص ٢٦، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٢٨، وابن الأبار: الحلقة السيراء ١٠٢/٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٦، ١٨٥، والإحاطة في أخبار غرناطة ٤/٤٦، ٤٧.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٦، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٣٦٩.

السلطان، وصدق الله إذ يقول:

﴿لَهَا أَئِمَّةٍ أَتَّهْبُوا لَا يَنْكُوُهُنَا أَئِمَّةٌ وَالْأَئِمَّةُ إِلَيْنَا يَرْجِعُونَ فَإِنْ يَسِّرْنَا بِعَصْدِهِنَّ فَلَمْ يَأْتُوهُنَا بِمَا هُنْ يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ يَنْكُوُهُنَّ فَلَمْ يَأْتُوكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٥١].

علماء في بلاد بنين :

كانت بَطْلِيوس في ظلّ بني الأفطس حاضرة من حواضر العلم والأدب والفقه في فترة ملوك الطوائف، وكان يتتسابق إليها العلماء والشعراء؛ ينهلون من عطايا ملوكها، وخاصة المظفر والمتوكل، وقد اعتنى بنو الأفطس عناية فائقة بالأدب والشعر خاصة، ولعل أشهر شعرائهم الوزير الشاعر الأديب ابن عبدون، الذي يُعدّ من أشهر وزراء الطوائف وشعرائهم، وهو عظيم مُلِكٍ بني الأفطس ونظم سلوكهم، وقد رثا دولتهم بكلمات اشتتملت على كل مِلِكٍ قُتل، وأشارت إلى مَنْ غُدر بهم وخُتِلَ، تُكبرها المسامع ويعتبر بها السامع^(١)، كما أنه قد نبغ في بلاط بَطْلِيوس العديد من الفقهاء والعلماء الأجلاء، الذين قالوا الحقَّ وجهروا به، وسَعَوا في درأ الصدع والفتنة والصلح بين ملوك الطوائف، ويأتي على رأسهم أبو الوليد الباقي، والعالم الفقيه ابن عبد البر المالكي القرطبي الأصل، وغيرهم كثير، هذا فضلاً عن أن المظفر بن الأفطس كان من كبار أدباء عصره، ويكفي أنه صاحب كتاب المظفر الذي عده ابن حزم مفخرة من مفاخر الأندلس، كما كان ابنه المتوكل بن الأفطس أديباً شاعراً عالماً، وكانت مدينة بَطْلِيوس في مُدَّته دار أدب وشعر، ونحو وعلم^(٢).

(١) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ٤٠-٣٧، وابن دحية الكلبي: المطرب من أسعار أهل المغرب ص ٢٧-٣٣، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ١٢٩-١٤٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٦، ١٨٩، ١٨٩، والإحاطة في أخبار غرَّنَاطَةٍ ٤/٤٤٥.

(٢) ابن الأبار: الخلة السيرة ٩٦/٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٥.

أبو الوليد الباقي (٤٠٣-٤٧٤ هـ = ١٠٨١-١٠١٢ م) :

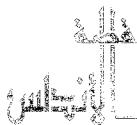
هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أبي بوبكر وارث، الأندلسى الباقيُ، أصله من بطليوس وموالده في باجة، ارتحل في طلب العلم والفقه بين الحجاز وبغداد ودمشق والموصل وأصبهان، فأخذ علم الحديث والفقه والكلام، ثم عاد إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم غزير، حصله مع الفقر والتقطُّع باليسير، ثم ولَيَ القضاء، حدث عنه ابن عبد البر وابن حزم والحمidi والطرطوشى وابنه أبو القاسم بن سليمان، وقد أجمع العلماء على أنه أحد أئمة المسلمين في المشرق والمغرب، وكان أبو الوليد الباقي من المقربين إلى المتكلم بن الأفطس ينصحه ويذكره، كما أنه كان من العلماء العاملين، الذين يحملون هموم دعوتهم ودينهِم، وكانت تشغله دائياً أحوال الأندلس والتفرق والتنازع بين ملوك الطوائف واستقوائهم بالنصارى، وكان ألفونسو السادس قد شدَّد غاراته على أراضي المسلمين، وأشعل أمراءهم بالجزية، بل إنه لم يقنع بها، فلما رأى الباقي ذلك أعدَّ عدته من الإيمان، وشحذ همةه لقول الحقّ لهؤلاء الأمراء، وأجهد جاهله نفسه في دعوة ملوك الطوائف إلى الاتحاد ونبذ الفرقَة والتشاحن، ولكن لم يُضْعِف أحداً إلى دعوته، وحسبه أنه قد أذر إلى ربِّه، ومات جاهله ولم يَرِ حُلمَه في اجتماع كلمة المسلمين.

صنف أبو الوليد الباقي كتباً كثيرة؛ منها: كتاب (المتقى)، و(أحكام الفصول في أحكام الأصول)، و(التعديل والتجريح فيما روى عنه البخاري في الصحيح)..
وغير ذلك^(١).

ابن عبد البر (٢٦٨-٩٧٨ هـ = ١٠٧١-٩٨٢ م) :

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي،

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/٩٨، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/٤٠٨، ٤٠٩، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٥/٢٢٩، ٢٣٠.



الإمام العلامة، حافظ المغرب، ولد بقرطبة وبها تعلم على يد كبار رجالها وفقهائها، قال عنه الإمام أبو الوليد الباقي: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث. وقال عنه أيضاً: أبو عمر أحفظ أهل المغرب. فارق ابن عبد البر قرطبة وجال في غرب الأندلس مدةً، ثم تحول إلى شرق الأندلس، وله رحلات كثيرة فيها، وقد استقرَّ به الأمر في بطليوس غرب الأندلس؛ فتولَّ قضاء لشونة وشنترين للمظفر بن الأفطس، ثم رحل إلى شاطبة وبها تُوفى.

من تصانيفه: (الدرر في اختصار المغازي والسير)، و(العقل والعقلاء)، و(الاستيعاب)، و(بهجة المجالس وأنس المجالس)، و(التمهيد)^(١).

رأيُهُ : بِهُجُونِيُّ الْمُؤْمِنِ فِي طَلَيْطَلَةٍ :

أهمية طليطلة (الثغر الأوسط) :

منذ أن دخل الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس وطليطلة (Toledo) تمثلَ عين الاهتمام من الولاة والأمراء، وكانت تُعرف بالثغر الأوسط، ويبعد الطابع الجهادي في التسمية واضحاً ذا معنى مهمٌ وخظير؛ إذ إنها تُمثلُ الحاجز الشمالي الأوسط للدولة الإسلامية في الأندلس ضدَّ غارات الملك النصرانية المتاخمة؛ ومن هنا فأهميتها تكمن في أمرين:

الأول: الموقع الجغرافي المهم؛ إذ هو موقع إستراتيجي خطير عسكرياً وسياسياً؛ وهذا ما جعلها موضع الاهتمام من كلا الطرفين الإسلامي والإسباني النصراني.

الثاني: المساحة الواسعة والشاسعة لطليطلة وأعمالها (من الكور والمقاطعات) في قلب الأندلس؛ فهي تمتلك شرقاً مملكة بطليوس (الثغر الأدنى)، من قُوريبة وترجالة (TRUJILLO) نحو الشمال الشرقي، حتى قلعة أيوب وشترميرية الشرق،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥٣-١٥٦.

وَتُمَثِّلُ الْجَنُوبُ الْغَرْبِيُّ لِمَلْكَةِ بَنِي هُودٍ فِي سَرَقْسَطَةِ (الشَّغْرِ الْأَعْلَى)، وَتُمَتَّدُ جَنُوبًا إِلَى الْغَرْبِ حَتَّى حَدُودِ مَلْكَةِ قُرْطُبَةِ، وَتُمَتَّدُ شَمَالًا إِلَى الشَّرْقِ فَيَمْبَاهَا وَرَاءَ نَهْرِ تَاجَةِ مَتَاحَةِ لِحَدُودِ مَلْكَةِ قَشْتَالَةِ^(١)، وَهَذَا الْمَوْقِعُ الْخَطِيرُ يَجْعَلُهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْوَضْعِ الْمُصَادَمِ الْعَسْكَرِيِّ الْمُسَلَّحِ مَعَ مَالِكِ الطَّوَافِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْقَوِيِّ ذَاتِ الْمَطَامِعِ التَّوْسِعِيَّةِ، خَاصَّةً بَنِي الْأَنْفُسِ فِي بَطْلَيُوسِ (الشَّغْرِ الْأَدْنِي)؛ إِذْ تُمَثِّلُ طُلَيْطَلَةً لِهَا الْجَانِبِ الْشَّرْقِيِّ نَحْوَ الشَّمَالِ، وَبَنِي هُودٍ فِي سَرَقْسَطَةِ (الشَّغْرِ الْأَعْلَى)؛ إِذْ تُمَثِّلُ طُلَيْطَلَةً لِهَا الْجَانِبِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ، وَبَنِي جَهُورٍ فِي قُرْطُبَةِ؛ إِذْ تُمَثِّلُ طُلَيْطَلَةً لِهَا الْجَانِبِ الشَّمَائِلِيِّ نَحْوَ الْغَرْبِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى فَهِيَ مَوْضِعُ عَدْوَانِ مُسْتَمِرٍّ وَغَارَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ الْمَالِكِ النَّصْرَانِيِّ؛ إِذْ تُعَدُّ طُلَيْطَلَةً الْمُخْطُوَةَ الْأُولَى وَالْأَهْمَّ لِلْسِيَطَرَةِ عَلَى مَلُوكِ الطَّوَافِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي الْقَبْضَةِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَهُوَ مَا تَمَّ بِالْفَعْلِ عَلَى نَحْوِ مَا سُبِّيْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

بنو ذي النون الأصل والتاريخ:

ذَكَرَ أَصْحَابُ التَّارِيخِ أَنَّ بَنِي ذِي النُّونِ أَسْرَةٌ بَرْبِرِيَّةٌ مِنْ قَبَائِلِ هُوَارَةِ، وَاسْمُ جَدِّهِمُ الْأَكْبَرُ هُوَ زَنُونُ، فَصَحَّفَ الرَّسْمَ بِطُولِ الْمَدَّةِ وَمُضِيِّ الزَّمْنِ، فَصَارَ (ذُو النُّونِ)، وَهُوَ اسْمٌ شَائِعٌ فِي قَبَائِلِ الْبَرْبِرِ، وَهُمْ مِنْ أَسْرَةٍ - عَلَى حِدَّتِ تَعبِيرِ ابْنِ عَذَارِيِّ الْمَرَاكِشِيِّ وَابْنِ الْخَطِيبِ - لَمْ يَكُنْ لَهَا نِيَاهَةٌ وَلَا رَئَاسَةٌ إِلَّا فِي زَمْنِ الدُّولَةِ الْعَامِرِيَّةِ؛ فِي فَتَرَةِ الْمُنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَوَلْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّى حدُوثِ الْفَتَنَةِ وَنِكْبَةِ الْخِلَافَةِ^(٢).

وَهُنَاكَ بَعْضُ الرَّوَايَاتِ التَّارِيخِيَّةِ تُؤَكِّدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْرَةَ دُورًَا مِنْذِ أَيَّامِ الْإِمَارَةِ الْأَمُوَيَّةِ ثُمَّ الْخِلَافَةِ، وَقَدْ اسْتَحْكَمَ أَمْرُهُمْ زَمْنَ الدُّولَةِ الْعَامِرِيَّةِ وَالْفَتَنَةِ، فَابْنُ حِيَانِ

(١) انظر: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٩٥/٣، بتصرف.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢٧٦/٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٦، ١٧٧، ١٧٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/٦٦١، ١٤١/٦.

يذكر جدهم ذي النون في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٣٩هـ)، فقد خَلَفَ عنده خَصِيًّا بحصن أُقْلِيش (Ucles) فعالجه حتى برئ. وكان ذلك سبيلاً لتوثيق العلاقة بينهما، فولَّهُ الأمير حكم أُقْلِيش وشَتَّمَرِيَّة (Santa Maria)^(١)، ومن هنا بَرَزَ نجم بنى ذي النون على مسرح الأحداث، وخاصة في زمن الحكم المستنصر، وقد طمع بنو ذي النون بقلعة رباح سنة ٣٠٠هـ زمان الخليفة الناصر لدين الله، فأرسل له حملة عسكرية بقيادة عباس بن عبد العزيز فأخضعته^(٢).

ثم علا كعب بنى ذي النون خاصة في دولة المنصور بن أبي عامر وولده من بعده؛ وفيها قادوا الجيوش وتَوَلَّوا الأعمال والبلاد، وظهر منهم عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون، وكان قد مَلَكَ شَتَّمَرِيَّة كلها، وملكها من بعده ابنه إسماعيل، فلما كانت نكبة الخلافة الأموية وانتهاء عهد الدولة العاميرية وقعت الفتنة، فلحق إسماعيل بالثغر وجمع إليه بنو عمه، وخطب لسلیمان المستعين الملقب بالظافر، فأعطاه سليمان ولاية إقليم أُقْلِيش، ثم أخذ يتوسّع على الممالك المجاورة له، حتى عظمت قوّته، وانقاد له قوّاد الثغور؛ فاستقامت له الأمور، فمنحه سليمان الظافر الوزارة ولقبه بناصر الدولة، فلما اضطربت الفتنة أُعلن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون استقلاله، فكان أَوَّلَ الثوار والمفارقين للجماعة، وأخذ يتوسّع على حساب غيره ويجيبي الأموال، وقد وصفه ابن حيان بالبخل قائلاً: «وكان من البخل بالمال، والتكلف بالإمساك، والتقتير في الإنفاق، بمنزلة لم يكن عليها أحدٌ من ملوك عصره، لم يرغب في صناعة، ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد بمعروف، فيما

(١) ابن بسام: الذخيرة ١٤٢/٧، وابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغارب ١١/٢، ١٢.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/١٥٩.

أعمِلتُ إِلَيْهِ مَطِيَّةً، وَلَا حَمَلْتُ أَحَدًا نَحْوَهُ ناقَةً، وَلَا عَرَجَ عَلَيْهِ أَدِيبٌ وَلَا شَاعِرٌ، وَلَا امْتَدَحَهُ نَاظِمٌ وَلَا نَاثِرٌ، وَلَا اسْتُخْرِجَ مِنْ يَدِهِ دَرْهَمٌ فِي حَقٍّ وَلَا باطِلٍ، وَلَا حَظِيَ أَحَدٌ مِنْهُ بِطَائِلٍ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ سَعِيدُ الْجَدَّ، تَنَقَّدَ إِلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَتَصَحَّبَهُ سَعادَتُهُ، فَيَنْأِي صَعَابَ الْأَمْوَارِ بِأَهْوَانِ سَعِيهِ، وَهُوَ كَانَ فَرَطَ الْمَلُوكِ فِي إِيَّاهُ الْفُرْقَةِ؛ فَاقْتَدَى بِهِ مَنْ بَعْدِهِ... فَصَارَ جَرْثُومَ النِّفَاقِ، وَأَوَّلَ مَنِ اسْتَنَّ سُنَّةَ الْعَصِيَانِ وَالشَّقَاقِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ يَنْبُوعُ الْفَتْنَ وَالْمَحْنِ، فَتَبَارَكَ مَنْ أَمْلَى لَهُ، وَلَمْ يَرْضَ لَهُ عَقْوَةَ الدُّنْيَا مُثْوِبَةً»^(١).

بنو ذي النون في طليطلة:

الظافر إسماعيل بن ذي النون (٤٢٧-٥٤٣٥-١٠٣٦ م):

عندما وقعت الفتنة وانهارت السلطة المركزية بالأندلس أصبحت طليطلة بلا حاكم أو والٍ يتولى أمورها، ويضبط أمرها، ومن ثم آلت إدارة البلاد إلى قاضيها أبي بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأستدي، وبقي في حكم طليطلة إلى أن عزل وسار إلى قلعة أبوب، وظل بها إلى أن توفي سنة ٤١٨ هـ^(٢)، ثم تولى من بعده عبد الرحمن بن متيفه، فضبط أمور طليطلة، وظل كذلك إلى أن وافته المنية، فتولى من بعده ابنه عبد الملك بن عبد الرحمن بن متيفه، فأساء السيرة في أهلهما، وأضطررت الأمور وعمرت الفوضى، فاجتمع زعماء طليطلة على أن يرسلوا إلى حاكم شترموريه عبد الرحمن بن ذي النون، الذي وَطَّدَ ابنه إسماعيل أمور البلاد، وكانت هذه فرصة ذهبية لابن ذي النون، وعلى الفور أرسل لهم ابنه إسماعيل بن ذي النون، فاستولى على طليطلة ودخلها سنة (٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م)، وتلقب بالظافر، وبدأ يتوسع في مملكته الجديدة، واستعuan في تدبير أمور البلاد بكثير الجماعة وشيخ البلدة أبي بكر ابن الحديدي؛ فهو

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/١٤٢، ١٤٣.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ٣/٩٨٧، ترجمة رقم (١٥٣٢)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٦١، وذكر أن القاضي يعيش توفي سنة ٤٢٧ هـ.

شيخها والمنظور إليه بها من أهل العلم والعقل، والدهاء وحسن النظر، فضلاً عن كونه محبوباً من أهل طليطلة، فكان الظافر إسماعيل لا يقطع أمراً دونه، ويُشاوره في مهمات أمره وشئون دولته، ولم تَطُلْ مدة ولاية الظافر إسماعيل؛ إذ وافته المنية سنة (٤٣٥ هـ=١٠٤٣ م)، وخلف من بعده ابنه يحيى بن إسماعيل الملقب بالمؤمن^(١).

المؤمن يحيى بن إسماعيل:

تُوَّيَّ الظافر إسماعيل وملك من بعده ابنه يحيى الملقب بالمؤمن، وذلك سنة (٤٣٥ هـ=١٠٤٣ م)، وسار المؤمن على سُنة أبيه في تسيير أمور مملكته المترامية الأطراف، فأقام بين الناس بالعدل، وكانت السياسة التي انتهجهها المؤمن في بداية عهده سبيلاً لاتساع مملكته.

لم يكن عهد المؤمن عهد هدوء واستقرار، وإنما كان عهد تنازع وفرقابينه وبين ملوك الطوائف الأخرى، وكان من شدّة هذا التنازع والفرقاب أن ظهرت الخسارة والنذالة، واستعنوا بالنصارى بعضهم على بعض، وضعف قوّة الأطراف المتنازعة، وهذا ما حدا بالنصارى أن يُغيِّروا على أملاك المسلمين، ولا يجدون رادعاً يردعهم، ولا قوّة تطاردهم؛ فنهبَت البلاد، وسرقت الأموال، وسبَّيت النساء، وقتل الأطفال والرجال، وحكم الطوائف يتنازعون على أعراض زائلة، فخسروا دينهم ودنياهم، وما أشبه الليلة بالبارحة!

فعلى الرغم من اتساع مُلك المؤمن بن ذي النون إلا أنه شغل خلال فترة حكمه الثلاث والثلاثين بالخصوص مع ملوك الطوائف الآخرين، وخاصة عدوه اللدود سليمان المستعين بن هود صاحب سرقة، والمعتضد بن عباد صاحب

(١) انظر تفصيل الأحداث في: ابن سام: الذخيرة ٢/٩٤٥، وابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب ٢/١١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٧٦، ٢٧٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٦١، وفيه توفي الظافر إسماعيل سنة ٤٢٩ هـ.

إِشْيَلِيَّة وَمِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الْمُعْتَمِدُ، وَابْنُ الْأَفْطَسِ صَاحِبُ بَطْلَيُوسَ.

يُيدِّن حِرَوبُ الْمُؤْمِنِ الْأَشَدِ شَرَاسَةً كَانَتْ مَعَ سَلِيمَانَ بْنَ هُودٍ؛ خَاصَّةً أَنَّهَا حِرَوبٌ عَلَى الْمَنَاطِقِ الْخَدُودِيَّةِ بَيْنِهِمَا، وَلَعِلَّهَا كَذَلِكَ الْأَشَدُ وَقَعًا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؛ إِذَا سَعَانَ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى أَخِيهِ بِالنَّصَارَى أَصْحَابَ قَشْتَالَةِ، الَّذِينَ عَاثُوا فِي أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، عَلَى نِحْوِ مَا سَبَبَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَمِنْ أَشْهَرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي قَامَ بِهَا الْمُؤْمِنُ بْنُ ذِي النُّونِ دُخُولُهُ فِي طَاعَةِ هَشَامِ الْمُؤْيَدِ بِاللَّهِ (أَوْ شَبِيهِ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ) الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْمُعْتَضِدُ بْنُ عَبَادٍ؛ وَذَلِكَ طَمِيعًا فِي نَصْرِهِ ضَدَّ عَدُوِّهِ سَلِيمَانَ بْنَ هُودٍ، وَبِالْفَعْلِ قَبْلَ الْمُعْتَضِدِ الْأَمْرِ وَوَعْدِهِ بِالتَّنَاصُرِ وَالتَّظَافُرِ ضَدَّ خَصِيمِهِ، وَأَخْذَتِ الْبَيْعَةُ هَشَامَ الْمُؤْيَدَ الْمُزَعُومَ فِي طُلْبَيْلَةَ، وَأُعْلَنَ لَهُ بِالدُّعَاءِ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَلَكِنْ يَدُوَّنُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ ذَهَبَ بِهِ الطَّمَعِ الْخَائِبِ كُلَّ مَذَهَبٍ، وَغَرَّهُ الْأَمْلُ وَاتَّبَعَ الْبَاطِلَ، وَاشْتَغَلَ عَنِ الْمُعْتَضِدِ بِحِرَوبِهِ ضَدَّ ابْنِ الْأَفْطَسِ، وَلَمْ يَنْلِ مِنْ ابْنِ عَبَادٍ أَيِّ شَيْءٍ، وَعَادَ مِنْ بَيْعَتِهِ بِخَفْيِ حَنِينٍ^(١).

وَكَانَ مِنْ أَهْمَّ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِ -كَذَلِكَ- اسْتِيلَاءُ عَلَى بَلَنْسِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا سَنَة١٤٥٧هـ=١٠٦٥م؛ حِيثُ كَانَتْ تَحْتَ حُكْمِ عَبْدِ الْمُلْكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَفِيدِ الْمُنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ، وَكَانَ صَهْرًا لِلْمُؤْمِنِ حِيثُ تزَوَّجُ ابْنَتَهُ عَقْبَ وَفَاهُ أَخِيهِ زَوْجَهَا الْأَوَّلِ، فَأَهَانَهَا وَأَسَاءَ عَشْرَتَهَا، وَكَانَ سَيِّعُ السِّيرَةِ، مِنْهُمَا كَانَ فِي الشَّرَابِ وَالْخَلَاعَةِ، مَعَ نَقْصٍ فِي الْمَرْوَةِ وَالْاِنْحَطَاطِ فِي مَهَاوِي الْلَّذَاتِ الْوَضِيعَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبِيلًا لِزَوْالِ مُلْكِهِ، عَلَى مَا جَنَّتْ يَدَاهُ، وَهُوَ مَا حَدَثَ بِالْفَعْلِ، فَلَمَّا عَلِمَ الْمُؤْمِنُ بِحَالِ ابْنَتِهِ مَعَ عَبْدِ الْمُلْكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَقَّدَ عَلَيْهِ، وَأَضْمَرَ الشَّرَّ لَهُ.

وَهُنَاكَ فِي اسْتِيلَاءِ الْمُؤْمِنِ عَلَى بَلَنْسِيَّةِ رَوَايَاتَانِ؛ الْأُولِيَّةُ: أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدَمَ عَلَى عَبْدِ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب /٣، ٢٧٨، ٢٧٩.

الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر من طُليطِلة على سبيل الزيارة، وهناك استقبله صاحب بَلَنْسِيَّة أحسن استقبالاً هو وغلمانه وعيده القصر، فأقام المأمون عنده أياماً، ثم دَبَّر لعبد الملك مكيدة ذات ليلة، فقبض عليه وعلى ابنه وأخرجهما ليلاً إلى شَتَّمِرِيَّة، وقيل: إلى قلعة أَفْلِيش. وبعدها تَمَّلك المأمون شرق الأندلس دون كلفة ولا مشقة ولا دماء، والرواية الثانية تقول: إن المأمون استعان بملك قشتالة على شهره صاحب بَلَنْسِيَّة، فاستولى عليها واعتقل عبد الملك وابنه، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٧ هـ، وقيل: سنة (٤٥٨ - ٦٥١ م)^(١).

وأمام توسيعات المأمون كانت قُرْطُبَة محَلَّ نظره منذ زمن، وكان يتحين الفرصة للانقضاض عليها، وهو ما حدث بالفعل حينما اضطررت الأمور عقب تولي عبد الملك بن جهور أمورها وأساء السيرة بين أهلها، فأغار المأمون عليها عام ٤٦٢ هـ، فاستغاث عبد الملك بن جهور بالمعتمد بن عباد، وكانت تلك نهايةبني جهور في قُرْطُبَة^(٢)، على نحو ما سنذكره في فصل التناحر بين ملوك الطوائف إن شاء الله.

مع كل هذه الحروب والنزاعات التي شهدتها فترة حُكم المأمون، إلا أنه يُعدُّ أطول ملوك الطوائف عهداً؛ فقد دام مُلكه ثلاثة ثلث وثلاثين سنة، واتسعت رقعة مُلكه حتى ملك بَلَنْسِيَّة وأعمالها في شرق الأندلس، وعظمت خزائن المأمون حتى قصده الشعراء والعلماء، وأكثر المأمون من تشييد القصور الفخمة، وال المجالس الباهرة، ومن أشهرها مجلسه المسمى «المكرم»، ونحن ننقل هنا وصفه؛ ليرى القارئ الكريم مدى الرغد الذي ورثه ملوك الطوائف من عصر الأجداد، فأضافوا إليه وتفنوا وأبدعوا، ثم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فصارت هذه الذخائر مطمعاً

(١) ابن الأبار: الحلقة السيراء / ١٢٩، وابن عذاري: اليان المغرب / ٣، ٣٠٣، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٣، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس / ٣، ١٠٢، ١٠١.

(٢) ابن بسام: الذخيرة / ٢ - ٦٠٩، ٦١١، وابن عذاري: اليان المغرب، / ٣، ٢٦٠، ٢٦١، وعنوان: أعماق الأعلام ص ١٤٩ - ١٥٢.

للنصارى يحوزونها بافتراء المسلمين وتناحرهم، بل استطاعت ممالك الأندلس أن تظل قرناً تموّل الملك النصري بما تدفعه من جزية^(١).

هذا وصف مجلس المكرم كما يورده ابن حيان ناقلاً له على لسان ابن جابر شاهد العيان: «وَكُنْتُ مِنْ أَدْهَلَتَهُ فِتْنَةُ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَأَغْرَبَ مَا قَيَّدَ لَحْظَيِّي مِنْ بَهِيٍّ زُخْرِفَهُ - الذي كاد يحبس عيني عن الترقى عنه إلى ما فوقه - إِذَا رَأَهُ الرَّائِعُ الدَّائِرُ بِأَسْهِ حِيثُ دَارَ، وَهُوَ مُتَّخِذٌ مِنْ رَفِيعِ الْمَرْمَرِ الْأَيْضِنِ الْمَسْنُونِ، الزَّارِيَّةُ صَفَحَاتُهُ بِالْعَاجِ فِي صِدْقِ الْمَلَاسَةِ وَنَصَاعَةِ التَّلَوِينِ، قَدْ خَرَّمَتْ فِي جُثْمَانِهِ صُورَ لِبَهَائِمٍ وَأَطْيَارٍ وَأَشْجَارٍ ذَاتِ ثَبَارٍ، وَقَدْ تَعْلَقَ كَثِيرٌ مِنْ تِلْكَ التَّهَائِيلِ الْمَصْوَرَةِ بِمَا يَلِيهَا مِنْ أَفْنَانَ أَشْجَارٍ وَأَشْكَالِ الثَّمَرِ مَا بَيْنَ جَانِ^(٢) وَعَابِثٍ^(٣)، وَعَلَقَ بَعْضُهَا بَعْضًا بَيْنَ مُلَاعِبٍ وَمُثَاقِفٍ، تَرَنُوا إِلَى مَنْ تَأْمَلُهَا بِالْحَاظَ عَاطِفٌ، كَأَنَّهَا مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِ، أَوْ مُشَيْرَةٌ إِلَيْهِ، وَكُلُّ صُورَةٍ مِنْهَا مُنْفَرِدةٌ عَنْ صَاحِبِهَا، مُتَمِيَّزَةٌ مِنْ شَكْلِهَا، تَكَادُ تُقْبِدُ الْبَصَرَ عَنِ التَّعْلِيِّ إِلَى مَا فَوْقَهَا. قَدْ فَصَلَ هَذَا الإِلَازَرَ عَمَّا فَوْقَهُ كِتَابٌ تَقْشِ عَرِيْضُ التَّقْدِيرِ، تُحَرَّمُ مَحْفُورٌ، دَائِرٌ بِالْمَجْلِسِ الْجَلِيلِ مِنْ دَاخِلِهِ، قَدْ خَطَطَهُ الْمِنْقَارُ أَبْيَنَ مِنْ خَطَّ الْتَّزوِيرِ، قَائِمُ الْحَرْوَفِ بِدِبِيعِ الشَّكْلِ، مُسْتَبِينٌ عَلَى الْبَعْدِ، مَرْقُومٌ كُلُّهُ بِأَشْعَارِ حِسَانٍ، قَدْ تُخَيِّرُتْ فِي أَمَادِيَحٍ تُخَرِّعُهُ الْمَأْمُونُ. وَفَوْقَ هَذَا الْكِتَابِ الْفَاصِلِ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ بُحُورٌ مُنْتَظَمَةٌ مِنَ الْزَّجَاجِ الْمَلَوْنِ، الْمَلَبَّسِ بِالْذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ^(٤)، وَقَدْ أُجْرِيَتْ فِيْهِ أَشْكَالُ حِيَوانٍ وَأَطْيَارٍ، وَصُورَ أَنْعَامٍ وَأَشْجَارٍ، يُذْهِلُ الْأَلْبَابَ وَيُقْبِدُ الْأَبْصَارَ. وَأَرْضُ هَذِهِ الْبَحَارِ مَدْحُوَّةٌ مِنْ أَوْرَاقِ الْذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ، مُصَوَّرَةٌ بِأَمْثَالِ تِلْكَ التَّصَاوِيرِ مِنَ الْحِيَوانِ وَالْأَشْجَارِ بِأَتْقَنِ تَصْوِيرٍ وَأَبْدَعِ تَقْدِيرٍ.

(١) بدر و شليميطا: صورة تقريبية للقصاد الأندلسي، منشور في: سلمى الحضراء الجيسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ٢/١٠٦٠.

(٢) الشمر الجانى: الشمر الذى تستطيع أحذنه وجنبه ما دام طريراً رطباً. ابن منظور: لسان العرب، مادة جنى ١٤١، والمجمع الوسيط ١/١٥٣.

(٣) الشمر العابث: الجاف، أو هو المختلط الجاف والرطب. ابن منظور: لسان العرب، مادة عبث ٢/١٦٦.

(٤) ذهب إبريز: الحالص. ابن منظور: لسان العرب، مادة برز ٥/٣٠٩، والمجمع الوسيط ١/٢.

ثم قال: وهذه الدار بُحِيرَاتٌ، قد نُصَّتُ^(١) على أركانها صُورُ أسودٍ مَصوَّغَةٌ من الذهب الإبريز أحکم صياغة، تتخيل لتأملها كالحة الوجوه^(٢) فاغرَةً^(٣) الشُّدُوق^(٤)، ينساب من أفواهها نحو البُحيرتين الماء هُونًا كرِشيش القَطْر أو سُحَالَة اللُّجَين^(٥). وقد وُضع في قعر كَلْ بحيرة منها حوض رخام يُسمَى المَذْبَح، محفورٌ من رفيع المرمر، كَبِيرُ الْحِرْم^(٦)، غريبُ الشكل، بدِيعُ النَّقْش؛ قد أُبَرِزَتْ في جنباته صُورُ حيوانٍ وأطيافِ وأشجار، وينحصرُ ما في شَجَرَاتٍ فضَّة عاليتي الأصلين، غَرِيبَتِي الشكل، مُحَكَّمي الصَّنْعَة، قد غُرِزَتْ كل شجرة منها وَسَطَ كل مَذْبَح بأدقَّ صناعة، يترَقَّى فيها الماء من المذبحين، فَيُنْصَبُ من أعلى أفنانها انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية، فتحدُث لَخْرَجِ نَغَماتٍ تُصْبِي النُّفُوس، ويرتفع بذرْوتها عمودٌ ماء ضخم مُنْضَغَ الاندفاع، ينساب من أفواهها وَيُبَلِّل أشخاصَ أطيافها وثمارها، بآلستِنِيَّةِ كالمبارد الصَّقِيلَة، يُقَيِّد حُسْنَها الْأَلْحَاظَ الثاقبةَ، ويُدَعِيَ الأَذْهَانَ الحادَةَ كليلةً^(٧).

والواقع أنه لم يكن بيلات المأمون بن ذي النون للشعر والأدب دولة زاهرة، كما كان الشأن في إشبيلية وبطليوس، بيد أننا نجد أكابر شعراء العصر وعلمائه يعيشون

(١) نَصَّ: رفع ووضع على المَصَّة؛ أي: على غاية الشهرة والظهور. ابن منظور: لسان العرب، مادة نَصَّ ٩٧ / ٩٧، والمجمع الوسيط ٩٢٦ / ٢.

(٢) كالحة الوجه: مكشة عابسة. الجوهري: الصحاح، باب الحاء فصل الكاف ١ / ٣٩٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة كلح ٢ / ٥٧٤، والمجمع الوسيط ٢ / ٧٩٥.

(٣) فغر: فتح في انتفاخ. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الفاء ٢ / ٧٨٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة فغر ٥ / ٥٩، والمجمع الوسيط ٢ / ٦٩٦.

(٤) الشُّدُوق: جمع الشُّدُوق؛ وهو جانب الفم. انظر: الجوهري: الصحاح، باب القاف فصل الشين ٤ / ١٥٠٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة شدق ١٠ / ١٧٢، والمجمع الوسيط ١ / ٤٧٦.

(٥) سُحَالَة اللُّجَين: ما سقط من الفضة كالبرادة. الجوهري: الصحاح، باب اللام فصل السين ٥ / ١٧٢٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة سحل ١١ / ٣٢٧، والمجمع الوسيط ١ / ٤٢٠.

(٦) الْحِرْم: الجسد. الجوهري: الصحاح، باب الميم فصل الجيم ٥ / ١٨٨٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة جرم ١٢ / ٩٠، والمجمع الوسيط ١ / ١١٨.

(٧) ابن بسام: الذخيرة ٧ / ١٣٢، ١٣٤.

في ظلّ المأمون، وكان من هؤلاء شاعره ابن أرفع رأسه^(١)، صاحب المoshahat المشهورة، والعلامة الرياضي ابن سعيد مؤلف تاريخ العلوم المسمى «طبقات الأمم»، وكان يُلقى دروسه في المسجد الجامع، والعلامة النباتي ابن بصال الطيلطي^(٢).

ويجدر بنا ونحن على مشارف الانتهاء من حياة المأمون بن ذي النون أن نذكر أن ابن حيان المؤرخ الأندلسي الكبير لم يجد من يهدى كتابه (التاريخ الكبير) سوى للمأمون؛ إذ قال في مفتتحه: «وَكُنْتُ اعْتَقِدُتُ الْاسْتِشَارَةَ لِنَفْسِي، وَخَبَأُهُ لِوَلْدِي، وَالضَّنْ بِفَوَائِدِهِ الْجَمَّةَ... إِلَى أَنْ رَأَيْتُ زَفَافَهُ إِلَى ذِي خَطْبَةِ سَيِّنَةِ أَتَتْنِي عَلَى بَعْدِ الدَّارِ، أَكْرَمَ خَاطِبَهُ وَأَسْنَى ذِي هَمَّةَ، الْأَمِيرَ الْمُؤْثِلَ^(٣) الْإِمَارَةَ الْمَأْمُونَ ذِي الْمَجَدِينِ، الْكَرِيمِ الْمَرْفِينِ، يَحْيَى بْنُ ذِي النُّونِ^(٤)^(٥)».

القادر بالله يحيى حفيد المأمون:

مات المأمون بن ذي النون مسموماً بقرطبة - في حادث سنفصل ظروفه بعد قليل إن شاء الله - وخلفه من بعده حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون وذلك سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٥م)، وتلقب بالقادر بالله، وكان القادر بالله سميع الرأي،

(١) ابن أرفع رأسه: هو أبو بكر محمد بن أرفع رأسه الطيلطي، شاعر المأمون بن ذي النون، وله مoshahat مشهورة يغنى بها في بلاد المغرب. ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب ١٨/٢.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١٠٦/٣.

(٣) المؤثر؛ أي: المجموع ذو الأصل، والدائم. ابن منظور: لسان العرب، مادة ألل ٩/١١.

(٤) يقول د. محمود مكي (وهو من المتخصصين في دراسة تاريخ الأندلس): «والحق أننا لا نعرف كيف فعل ابن حيان لكي يُقدم إلى المأمون هذه «المهديّة» من تاريخه، وهو الذي وصف مساواة أسلاف ابن ذي النون ومقاصد حكمهم ما لا نعتقد أنه يعجب هذا الأمير أو ينال منه أدني قبول. والأعجب من ذلك في هذا التقاض هو ما نراه في فقرات أخرى ينقلها ابن سبام كتب بها ابن حيان إلى المعتمد بن عياد يهته بفتح قرطبة وظهوره على المأمون بن ذي النون... والغرب هنا هو أن ابن حيان يرمي المأمون بن ذي النون بأسوأ التهم، مع أنه هو الذي أهدى إليه من قبل تاريخه وطرزه باسمه». (مقدمة تحقيق د. مكي لقطعة من المقتبس ص. ٣٩).

(٥) ابن سبام: الذخيرة ٥٧٨/٢.

قليل الخبرة والتجارب، مع أنه يحكم مملكة عظيمة وطَّلَها له جُدُّه المأمون، وكان المأمون قبل وفاته قد قَسَّم وظائف دولته وعهد بها إلى وزيراه: ابن الفرج وابن الحديدي، فجعل أمور الجنادل ابن الفرج، وأمور المشورة والرأي إلى ابن الحديدي، وأخذ عليهما المواثيق والعهود بحسن الإدارة والنصح، إلا أن القادر بالله وقع تحت تأثير العبيد والخدم ونساء القصر، وطائفة من قرناء السوء وبطانة الشر، ظلّلوا وراءه حتى أُوغروا صدره من ابن الحديدي؛ يسعون للفتك به والتخلص منه، ولم يكن القادر ليتخلص من ابن الحديدي دون تهمة بينة وخيانة ظاهرة؛ حتى يقنع أهل طليطلة بالأمر، فدبّر مكيدة؛ وهي أن يستظهر جماعة كان جُدُّه المأمون قد أودعهم السجن بإيعاز من ابن الحديدي، فأطلق القادر سراحهم ودعاهم إلى مجلسه، ودعا ابن الحديدي إليه أيضًا، فلما حضر ابن الحديدي ورآهم، أيقن بالهلاك، وأسرع إلى القادر يستجيره منهم، إلا أن القادر غادر مجلسه، فتمكّنوا منه وقتلوه، وأمر بنهب دور ابن الحديدي، وكان ذلك في أوائل ذي الحجة سنة (٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م)^(١).

لم ينعم القادر بالله منذ أن فتك بابن الحديدي بالأمان؛ إذ صار أعون الأمس أعداء اليوم، وإذا بمن أُوغروا صدره على ابن الحديدي ينقذون عليه وي Kiddون له الدسائس، فلم ينسوا أن المأمون جَدُّ القادر هو من أودعهم السجن، وكاد يفتكم

٣٦٦

وهكذا بدأت المهموم والمتابع والثورات تنهاى عليه؛ فابن هود صاحب سر قُسطنة يُرهقه بغاراته من ناحية، وأبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية استغل الفوضى واستبدَّ بالأمر، وأعلن الثورة والاستقلال، والنصارى يُغيرون على أملاكه، وكادوا أن يتزعزوا قونقة منه، إلا أنه افتداها بمبلغ كبير من المال.

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/١٥٥-١٥٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٩، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ١٠٧/٣.

ومن ناحية أخرى أعلن أعوان الأمس الثورة الداخلية للإطاحة به، وفعلاً هرب القادر من طُليطلة إلى حصن وبذة، وهنا وجد أهل طُليطلة أنفسهم بلا أمير أو حاكم، فاستقدموا المتكى بن الأفطس ليحكم البلاد سنة (٤٧٢هـ = ١٠٧٩م)، وظلَّ المتكى حاكماً عليه، إلى أن عاد القادر مرة أخرى بمعونة ألفونسو ملك قشتالة، وحاصرت قوَّات النصارى طُليطلة، وهذا ما اضطر المتكى بن الأفطس إلى أن يخرج منها بعد أن أخذ ما استطاع من أموال القادر وخرائمه، ونجحت قوَّات ألفونسو الدخول إلى طُليطلة وإعادة القادر، ودخل القادر طُليطلة في حمى النصارى وجنودهم، وكانت هذه العلاقة المشئومة سبباً في سقوط طُليطلة..

فيما ليت حُكَّام المسلمين يعون الدرس، ويعتمدون على ربهم، ولا يتكللون إلى عدوهم؛ فهذا جزاء الخائين، وصدق الله إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أُولَيَاءَ بَعْضُهُمْ أُولَيَاءَ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصْبِيَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمَعْكُمْ حَيْطَتْ أَعْيُهُمْ فَأَضْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٣].

علماء في بلاط طليطلة:

الواقع أنه لم يكن بلاط طُليطلة للشعر والأدب دولة زاهرة كما كان الشأن في إشبيلية وبطليوس، إلا أنها شهدت دولة زاهرة في علوم الحياة: الرياضيات والطب والنبات والزراعة، ومع هذا حرص المأمون على جمع الشعراء حوله، وكان منهم شاعره ابن أرفع رأسه صاحب الموشحات المشهورة، وكان ذلك سبيلاً إلى علو شأن طُليطلة كما كان في إشبيلية وبطليوس، ومن مشاهير علماء طُليطلة في ذلك الوقت ابن بصال النباتي الشهير، وابن وافد الطيب، والعلامة الرياضي ابن سعيد

مؤلف تاريخ العلوم المسمى (طبقات الأمم)، والزرقالي، وعلامة طليطلة صاعد الأندلسي الطليطلي.

صاعد الأندلسي : (٤٢٠-٥٤٦٤=١٠٢٩-١٠٧٠ م) :

هو القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد، الأندلسي التغلبي القرطبي الطليطلي، المالكي، أصله من قُوْطُبَةٍ، يُعد علامه التاريخ في عصره، وكان من أهل المعرفة والذكاء، والرواية والدرایة من تلاميذ الإمام ابن حزم، وهو أول مفكر عربي حاول تفسير طبائع البشر وفقاً لتغييرات المناخ، وقد ولد قضاء طليطلة للمأمون بن ذي النون، وبقي فيها إلى أن مات.

أشهر كتبه كتاب (طبقات الأمم) الذي ألفه سنة (٤٦٠ هـ=١٠٦٧ م)، حاول فيه استكمال دراسة أستاذه ابن حزم الظاهري عن دور الأندلس في إنتاج العلوم، والتعريف بأهم الشخصيات الفكرية التي برزت في مختلف العهود الإسلامية، إلا أن دراسته اختلفت عن رسالة ابن حزم في (مراتب العلوم)؛ فهو لم يكتفي بأخبار الكاتب، بل حاول التعريف بعصره وظروفه وبيئته، ويسرب شمولية الكتاب و وضع مقدمة تحليلية للتعريف بتاريخ العلوم وتطور الأفكار واتصال الثقافات بعضها من المشرق إلى المغرب وانتهاء بالأندلس وعصره، فجاءت دراسته تاريخية حاول من خلالها الرد على مسائلتين: مجرى التطور، وصلة حلقات التطور ببعضها.

وحتى تكون إجابات صاعد واضحة في معالمها كان لا بد له من تجاوز حدود الأندلس والابتعاد عنها جغرافياً، والغوص في عمق الزمن إلى عهود سابقة على ظهور البيانات السماوية، واضطرر بسبب المستجدات وتغيير خطة كتابه، أن يعيد قراءة مراتب العلوم كونيّاً في سياق رؤية عالمية للتطور الفكري وصولاً إلى العرب وظهور الإسلام والفتحات الكبرى.

فرضت خطة الكتاب على صاعد أن يقوم بمراجعة شاملة وسريعة لتاريخ الأفكار ودور الأمم في صنعها وصلاتها ببعضها، كذلك حاول قدر الإمكان التعريف بالأمة والتعريف بأفكارها، ثم التعريف بأعلامها؛ حتى يربط حلقات التطور في مجرى زمني هادف.

من كتبه: (جواجم أخبار الأمم من العرب والعجم)، و(صوان الحكم) في طبقات الحكماء، و(مقالات أهل الملل والنحل)، و(إصلاح حركات النجوم)، و(تاريخ الأندلس)، و(تاريخ الإسلام)^(١).

ابن وافد (٢٨٧-٩٩٦ م = ٥٤٦٧-٣٨٧ هـ) :

هو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد بن مهند الخمي الطليطي، ولد بطْيَّطَةً ونشأ بها، وعاش في كنفبني ذي النون هناك، وهو أحد أشراف أهل الأندلس، وذوي السلف الصالح منهم، والسابقة القديمة فيهم، اعنى بِهِ بالطب والأدوية المفردة، وألف كتابه (الأدوية المفردة)، الذي قال عنه القاضي صاعد الأندلسي: وتمَّ بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له، جمع فيه ما تضمن كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب.

ولابن وافد في الطب نظريته الشهيرة؛ إذ كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريباً منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ما أمكن التداوي بمفردها، فإن اضطر إلى المركب منها لم يُكثِر التركيب، بل اقتصر على الأقل ما يمكنه منه.

(١) ابن بشكوال: الصلة ترجمة رقم (٥٤٥) / ١، ٣٧٠، والمقربي: نفح الطيب / ٣، ١٨٢، والزركي: الأعلام ١٨٦ / ٣، وموقع معرفة على الرابط: www.marefa.org

ولابن وافد من الكتب: كتاب (الأدوية المفردة)، و(الوساد في الطب)، و(مجربات في الطب)، و(تدقيق النظر في علل حاسة البصر)، وكتاب (المغيث)^(١).

خاتمة: بنو هود في سرقسطة

سرقسطة.. الموقع الجغرافي والأهمية العسكرية:

تُعد مملكة سرقسطة من أهم وأخطر المالك الإسلامية في بلاد الأندلس؛ وخاصة في عصر ملوك الطوائف، واكتسبت الأهمية من أمرين:

الأول: اتساع المساحة الجغرافية لسرقسطة؛ إذ هي تشمل في الجغرافيا الأندلسية مدينة سرقسطة (Zaragoza) وأعماها، تطيلة^(٢) (Tudela)، ووشقة (Huesca)، وبربشترا (Barbastro)، ولاردة (Lareda)، وإفراغة^(٣) (Braga) وطركونة^(٤) (Tarragona)، وطروشة (Tortosa)، وتشغل المنطقة الواسعة الخصبة التي يخترقها نهر إبره (Ebro River)، من مصبّه عند مدينة طروشة، حتى مدخله عند مدينة قلهرة^(٥) في ولاية نافار، ويخترقها فرعها الشالي الكبير نهر سجري والأفرع الصغيرة المتعددة منه نحو بربشترا ووشقة، وفرعه الجنوبي خالون حتى قلعة أيبوب (Calatayud) ودرؤقة، ففي هذه المنطقة الشاسعة التي تكثر فيها الوديان الباينة والواقع الإستراتيجية، كانت تقوم مملكة سرقسطة^(٦).

(١) ابن أبي أصيحة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء / ٣٢٣، ٣٢١.

(٢) تطيلة: مدينة بالأندلس في شرق قرطبة، شريفة البقعة غزيرة المياه كثيرة الأشجار والأنهار، اختطفت في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٣٣.

(٣) إفراغة: مدينة بالأندلس من أعمال ماردة كثيرة الزيتون. ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٢٢٧.

(٤) طركونة: بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طروشة، وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر، منها نهر علان يصب مشرقاً إلى نهر إبره، وهو نهر طروشة، وهي بين طروشة وبرشلونة بينها وبين كل واحدة منها سبعة عشر فرسخاً، وطركونة -أيضاً- موضع آخر بالأندلس من أعمال لبلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢.

(٥) قلهرة: مدينة من أعمال تطيلة في شرق الأندلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٩٣.

(٦) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٦٥.

ثانياً: الموقع العسكري والسياسي الخطير؛ إذ هي حائط الصد الأول والأهم لبلاد الأندلس من هجمات الملك النصرانية الإسبانية؛ فهي تقع بين مملكة قطلونية من الشرق، وملكة نافار أو نبرة من الشمال الغربي، وملكة قشتالة من الجنوب الغربي؛ لذلك فهي في جهاد دائم؛ إذ لم يكُفُ النصارى عن هجماتهم على بلاد الإسلام في الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها؛ لذلك أطلق عليها المسلمون (الشغر الأعلى).

بني تجيب في سرقسطة:

استولى بنو تجيب -وهم أسرة عربية- على إقليم سرقسطة، وعلا كعبهم فيها خلال حكم المنصور بن أبي عامر، حينما أقرَّ يحيى بن عبد الرحمن التجيبي على الشغر الأعلى، وذلك سنة (٩٨٩هـ=١٣٩٧م)، واستمرَّ فيها إلى أن توفي سنة (٤٠١٧هـ=١٠١٧م)، وخلفه ابنه المنذر بن يحيى التجيبي، الذي يُعدُّ أقوى حكام بني تجيب في الأندلس، وكان من بُعدِ نظره أنه رأى أن يهاون النصارى إلى حين؛ ليأمن غاراتهم وعواقب هجماتهم على بلاد الأندلس، فوطد علاقاته مع رامون أمير برشلونة، وسانشو الكبير (شانجة) ملك نافار، وولده فرناندو الأول ملك قشتالة، وألفونسو الخامس ملك ليون، وقد بالغ المنذر في علاقاته معهم، فعقد حفلًا في قصره لعقد المصاورة بين سانشو ورامون، حضره أهل الملة من فقهاء المسلمين وقساوسة النصارى، فسخط الناس عليه واتهموه بالخيانة؛ بيد أن الناس لم يدرکوا بعد هذه السياسة الحكيمية من المنذر إلاً بعد وفاته؛ إذ عادت هجمات النصارى عليهم بعد أن رکن النصارى للدعة ومسالمة المسلمين^(١).

وهذه السياسة هي التي يلجأ إليها أصحاب الملك الصغيرة والدوليات المزقة، وهي سياسة تُنشئها وتُؤديها شهوة حبّ السلطة؛ فإنها شهوة تغيّب العقل؛

(١) ابن بسام: الذخيرة /١٨٠-١٨٥، وابن عذاري: البيان المغرب /٣-١٧٥-١٧٧.

إذ لو كان أمراء الممالك الصغيرة يعمّلُون عقوبَهُم ويتنازلُون عن شهوة السلطان، إذًا لسعوا نحو الوحدة والاتحاد وآثروا جمع الكلمة، بدلاً من هذه الفرقة التي تأتي بالضعف فلا يصير أمام أحدِهم إلاً أن يبذل من ماله أو من مبادئه لأعدائه ما يحفظ به نفسه منهم، ثم ليتحالف معهم ويتصارُبُ بهم على إخوانه.

استطاع المنذر بن يحيى أن يُقيِّم دولته القوية في الثغر الأعلى بسُرْقُسطَة وأعماها، وتلقَّبُ بـالْقَابِ السلاطين! فتلقَّب بالمنصور وال الحاجب ذي الرئاستين!! واستمرَّ في حكم سَرْقُسطَة حتى سنة ٤١٤هـ، وخلفه من بعده ابنه المظفر يحيى بن المنذر حتى توفي عنها سنة (٤٢٩هـ = ١٠٢٩م)، ثم خلفه من بعده ابنه المنذر الثاني بن يحيى، الذي تلقَّب بال الحاجب معزًّا للدولة، وكانت على يديه نهاية عهد بني تُجَيِّب بـسُرْقُسطَة؛ إذ توفي مقتولًا على يد ابن عمٍ له يُسمَّى عبد الله بن حكيم سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٩م)، ثم دعا لنفسه، ولكن يبدو أن أهل سَرْقُسطَة شاروا عليه لسوء حلقه، وهُمُوا بقتله فخرج فارًا بنفسه، وبقي أهل سَرْقُسطَة دون أمير يُسَيِّر شؤونهم؛ فبعثوا السليمان بن هود حاكم لاردة، فدخل سَرْقُسطَة واجتمع الناس عليه، فكان ذلك بداية عهد بني هود بـسُرْقُسطَة، في المحرم سنة (٤٣١هـ = سبتمبر ١٠٣٩م) (١).

بنو هود في سرقة سطنة:

سلیمان المستعین بن هود:

اجتمعت كلمة أهل سرقة على سليمان بن هود كأمير عليهم وتلقب بالمستعين بالله وذلك في المحرم سنة ٤٣١هـ، ومنذ هذا التاريخ بسط بنو هود سلطانهم على الثغر الأعلى لبلاد الأندلس، وكان سليمان بن هود يملك سرقة

(١) انظر تفصيل الأحداث في: ابن بسام: الذخيرة /١-١٨٥، وابن عذاري: البيان المغرب /٣-١٧٨، ١٨٠-١٨١، ٢٢٢، ٢٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧١، ١٧٠، وفيه يذكر ابن الخطيب أن أهل سرقسطة هم من ثار على المنذر بن سعيد وصرفوا طاعته إلى سليمان بن هود، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون /٤-١٦٣.

وأعماها ما عدا طرطوشة، التي كانت بيد الفتيان العامريين، ولعل أشهر الأعمال السياسية والعسكرية في حياة سليمان بن هود ما كان بينه وبين المؤمن بن ذي النون صاحب طليطلة، واستعانا كل منهما على أخيه بالنصارى (حكام نافار وقشتالة)، وظل النصارى يذكرون نار الفتنة بين المسلمين، وكادت الفتنة تأتي على أراضي المسلمين، إلا أن الله وقى المسلمين شرها بموت سليمان المستعين بن هود سنة (٤٣٨هـ=١٠٤٦م)^(١)، وذلك على نحو ما سُنِّيَّ في موضعه إن شاء الله.

المقتدر بِاللهِ أَحْمَدُ بْنُ هُودٍ :

قبيل وفاة سليمان بن هود قسم أعمال دولته على أبنائه الخمسة؛ فولى ابنه أحمد بن سليمان سرقة قسطنة، وولى يوسف لاردة، وولى محمداً قلعة أيبوب، وولى ليناً مدينة وشقة، وولى المنذر تطيلة^(٢)، ويبدو أن هذا العمل كان عملاً سليمانياً؛ إذ زرع العداوة والشقاق والتناحر بين الإخوة، فما أن تُؤْقَيَ والدهم حتى استبدَّ كُلُّ منهم بما تحت يده من أعمال والده، ولكن يبدو أن أحمد بن سليمان كان أسعدهم حظاً، وأقواهم ذكاء وحيلة؛ إذ ظلَّ يتحايل على إخوته على ملكهم جميعاً، فسجنهم، ويسقط سلطانه على سلطانهم، غير لاردة؛ إذ وقف أخوه يوسف الملقب بحسام الدولة، أمام أطعامه واستطاع أن يحمي لاردة من أخيه.

وليس ذلك فحسب، بل وقفت العامة مع أخيه يوسف ضدَّه؛ لما رأوا من بشاعة أفعاله ونکاله بإخوته، وتلقَّب يوسف بالمظفر، وكادت البلاد أن تقع تحت نير الحرب الأهلية بين الأخوين: أحمد المقتدر ويوسف المظفر، ولكن أحمد المقتدر استطاع أن يتغلَّب على أخيه يوسف بالغدر والخيانة والاستهتار بدماء المسلمين؛ إذ استعان بالنصارى على أخيه، واستطاع بقوتهم أن يضمَّ لاردة وتطيلة (أعمال

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣، ٢٧٧-٢٨٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٧، ١٧٨.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣، ٢٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧١.

سَرْقُسْطَةٍ) إِلَى أَمْلَاكِهِ، فَعَظِمَ مُلْكُهُ، وَقَوِيتَ شَوْكُتِهِ^(١)، كَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَضْمِمَ طُرْطُوشَةَ إِلَى أَمْلَاكِهِ بَعْدَ تَغْلِبِهِ عَلَى الْفَتِي نَبِيلِ الْعَامِرِي سَنَةَ (٤٥٢ هـ = ١٠٦٠ م)^(٢)، كَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَّزَعَ دَانِيَةَ مِنْ صَهْرِهِ عَلَى إِقْبَالِ الدُّولَةِ بَعْدَ أَنْ حَاصِرَهَا وَضَيَّقَ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ سَنَةَ (٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م)^(٣)؛ وَبِذَلِكَ أَضَحَتْ سَرْقُسْطَةَ أَكْبَرِ مَالِكِ الطَّوَافَاتِ مِنْ حِيثِ الْمَسَاحَةِ.

مأساة برباستر :

إِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَحْنِ - إِنْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمُهَا - مَا حَدَثَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي بَرْبُشْتَرِ (Barbastro)؛ إِذَا كَانَ الْخَطْبُ بِهَا أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ؛ حِيثَ هَاجَمَ النُّورَمَانِدِيُّونَ الْمَدِينَةَ سَنَةَ (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) وَفَتَكُوا بِأَهْلِهَا، وَأَبَادُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَبْشَعِ صُورِ الْإِبَادَةِ فِي التَّارِيخِ، وَلَمْ يُبَارِدْ الْمُقْتَدِرُ أَحْمَدُ بْنُ هُودَ لِإِنْجَادِ الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَعْمَالِ أَخِيهِ يُوسُفَ الْمَظْفَرِ، وَقَدْ وَصَفَ ابْنُ حِيَانَ الْمَحْنَةَ بِكَلِمَاتٍ مِنَ الدَّمَاءِ لِمَا حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ هُنَاكَ، يَقُولُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ تَخَاذِلَ الْمُقْتَدِرِ عَنْهَا: «فَأَقَامَ الْعَدُوُّ عَلَيْهَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَوَقَعَ فِيمَا بَيْنَ أَهْلِهَا تَنَازُعٌ فِي الْقُوَّةِ لِقَلْتِهِ، وَاتَّصَلَ ذَلِكَ بِالْعَدُوِّ فَشَدَّ الْقَتَالَ عَلَيْهَا وَالْحَصْرَ لَهَا، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ الْأُولَى فِي خَمْسَةِ آلَافِ مُدَرَّعٍ، فَدَهَشَ النَّاسُ وَتَحَصَّنُوا بِالْمَدِينَةِ الدَّاخِلَةِ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حَرُوبٌ شَدِيدَةٌ، قُتِّلَ فِيهَا خَمْسَائَةٌ إِفْرَنجِيٌّ، ثُمَّ اتَّفَقَ أَنَّ الْقَنَّاَةَ الَّتِي كَانَ الْمَاءُ يَجْرِي فِيهَا مِنَ النَّهَرِ إِلَى الْمَدِينَةِ تَحْتَ الْأَرْضِ فِي سَرَبِ مَوْزُونٍ أَنْهَارَتْ وَفَسَدَتْ، وَوَقَعَتْ فِيهَا صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ سَدَّتِ السَّرَبَ بِأَسْرِهِ؛ فَانْقَطَعَ الْمَاءُ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَيَئِسَ مَنْ بَهَا مِنَ الْحَيَاةِ، فَلَادُوا بِطْلَبِ الْأَمَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً دُونَ مَالٍ وَعِيَالٍ، فَأَعْطَاهُمُ الْعَدُوُّ الْأَمَانَ، فَلَمَّا خَرَجُوا نَكَثُ بَهُمْ وَغَدَرُوا، وَقُتِّلَ الْجَمِيعُ إِلَّا

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢٢٢ / ٣، ٢٢٣، ٢٢٤ / ٣.

(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق ٣ / ٢٢٨.

القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجه، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يُحصى، حتى إن الذي خصَ بعض مُقدَّمي العدو لحصنه - وهو قائد خيل روما - نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً، ومن أوقار^(١) الأمتعة والخليل والكسوة خمسمائة جمل، وقدرَ مَنْ قُتل وأُسر بمائة ألف نفس، وقيل: خمسون ألف نفس. ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لَمَّا فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتُنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدتها، فيقول لها: أعطيني ما معك. فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيره».

ويُكمل ابن حيان قائلاً: «وكان السبب في قتلهم أنه خاف مَنْ يَصْلُ لنجدهم وشاهد من كثرةهم ما هاله، فشرع في القتل - لعنة الله تعالى - حتى قتل منهم نِيَّماً وستة آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين مَنْ يَقْيَ، وأمر أن يخرجوا، فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، ونزلوا من الأسوار في الحال للخشية من الازدحام في الأبواب، ومبادرة إلى شرب الماء، وكان قد تحيَّز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجه، وحاروا في نفوسهم، وانتظروا ما ينزل بهم، فلَمَّا خلت مَنْ أُسر وُقُتِلَ وأُخْرِجَ من الأبواب والأسوار، وهلك في الزحمة، تُودي في تلك البقية بأن يُبادر كلُّ منهم إلى داره بأهله وله الأمان، وأرهقوا وأزعجوا، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله، اقسمتهم الإفرنج - لعنهم الله تعالى - بأمر الملك، وأخذ كل واحد داراً بمن فيها من أهلهما، نعوذ بالله تعالى.

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا براءة الجبال، وتحصنوا بمواقع منيعة، وكانت أهل الكون من العطش، فأمَّنَهم الملك على نفوسهم، ويرزوا في صور الahlaki من العطش، فأطلق سبيلهم، وبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر من لم

(١) أوقار جمع وقر: وهو الحِمْل الثقيل، وعَمَّ بعضهم به التقليل والخفيف. الجوهرى: الصاحب، باب الراء فصل الواو / ٢، ٨٤٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة وقر ٥/٢٨٩.

يشهد الحادثة، فقتلوهم إلا القليل من نجا بأجله.

وكان الفرنج -لعنهم الله تعالى- لما استولوا على أهل المدينة يفتضونَ البكر بحضور أبيها، والثَّيْبَ بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمين مثله قط فيما مضى من الزمان، ومن لم يرضَ منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهم خَوَّله وغلمانه يعيشون فيهن عيشه^(١)، وبلغ الْكُفَّرَ منهم يومئذ ما لا تلحظه الصفة على الحقيقة، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخَّيرَ من بنات المسلمين الجواري الأَبْكَارِ والثَّيَّاتِ ذواتِ الْجَمَالِ، ومن صبيانهم الحسان أَلْوَافًا عَدَّةً، حملهم معه ليهدِّيَهم إلى مَنْ فوقَهُ، وترك من رابطة خيله بِرَبُّشَرَ أَلْفًا وَخَمْسَائِهِ، ومن الرَّجَالَةِ أَلْفَيْنِ^(٢).

وقد صوَّرَ الفقيه ابن العسال فجيعة المسلمين هذه فقال: [الكامل]

لَمْ يَقِنْ لَا جَبَلٌ وَلَا بَطْحَاءُ فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَّةٌ شَعْرَاءُ طَفْلٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَذْرَاءُ فَلَهُ إِلَيْهَا اِضْجَاهٌ وَبُغَاءُ فَوْقَ التُّرَابِ وَفَرْسُهُ الْبَيْدَاءُ قَدْ أَبْرُزُوهَا مَا هَا اسْتِخْفَاءُ فَعَلَيْهِ بَعْدَ الْعِزَّةِ اسْتِخْذَاءُ	هَتَّكُوا بِخَيْلِهِمْ قُصُورَ حَرِيمَهَا جَاسُوا بِخَلَالِ دِيَارِهِمْ فَنَأَهُمْ بِهَا كَمْ مَوْضِعٍ غَنِمُوا لَمْ يُرَحِّمْ بِهِ وَلَكَمْ رَضِيَعٍ فَرَقُوا مِنْ أُمَّهِ وَلَرَبَّ مَوْلَودٍ أَبْوَهُ مجَدَّلٌ ^(٣) وَمَصْوَنَةٍ فِي خَدْرِهَا مَحْجُوبَةٍ وَعَزِيزٍ قَوْمٍ صَارَ فِي أَيْدِيهِمْ
--	--

(١) أي أن الإفرنجي إذا وجد خادمة أو غير ذات جمال تكبر أن يهتكها هو فكان يعطيها لخدمه وغلمانه يهتكونها.

(٢) المقري: نفح الطيب ٤/٤٤٩-٤٥١. وانظر مأساة المسلمين في: ابن بسام: الذخيرة ٥/١٨٩-١٨١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٢٥-٢٢٧.

(٣) المجدل: الصريح، أو الملقي بالأرض. ابن منظور: لسان العرب، مادة جدل ١١/١٠٣.

لَوْلَا ذُنُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْهَمْ
 رَكِبُوا الْكَبَائِرَ مَا هَنَّ خَفَاءُ
 مَا كَانَ يُنْصَرُ لِلنَّصَارَى فَارِسُ
 أَبْدَا عَلَيْهِمْ فَالذُّنُوبُ الدَّاءُ
 فَشِرَارُهُمْ لَا يَخْتَفُونَ بِشَرِّهِمْ
 وَصَالَحُ مُنْتَحِلِي الصَّالِحِ رِيَاءُ^(١)

ونحن لَنْ نُعَقِّب على الحادثة بل نترك ابن حيان يُعَقِّب عليها بنفسه؛ لتتبين الأسباب التي أدَّت إلى وقوع تلك الكارثة بال المسلمين، يقول ابن حيان: قد غربَ آل (زماننا هذا) أهليه أشدَّ غربلة، فسَفَسَفَ أخلاقهم، واجتَثَّ أعرافهم، وسفَهَ أحَلامَهُمْ، وخَبَثَ ضَمَائرَهُمْ، فاحتوى عليهم الجهلُ، واقتطعهم الزَّيفُ، وأركستهم الذُّنوبُ، ووَصَمَمْتُهُمُ العيوبُ، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معاني الغيّ بأقوياء، شاءُ من الناس هاملٌ، يُعَلَّلون نفوسهم بالباطل، من أدلّ الدلائل على فرط جهلهم بشأنِهِمْ، اغترارهم بزمانِهِمْ، وبعادهم عن طاعةِ خالقهم، ورفضهم وصيَّةَ رسوله نبيِّهم ﷺ، وذهولهم عن النظر في عاقبةِ أمرِهِمْ، وغفلتهم عن سُدُّ ثغرهِمْ، حتى لظلَّ عدوُهم الساعي لإطفاء نورِهِمْ يتبحجُّ بِعِرَاضَ ديارِهِمْ، ويستقرُّ بسَائِطَ بقاعِهِمْ، يقطعُ كُلَّ يوْمٍ طَرَفًا مِنْهُمْ، ويبيدُ أُمَّةً، ومنْ لِدِينَا وحوالِينا من أهل كلمتنا صُمُوتُ عن ذكرِهِمْ، هاهُ عن بِشِّهِمْ، ما إنْ يُسْمَعُ عندنا في مسجدِ من مساجدنا وَمَحَفَلُ من محافلنا مذَكُورٌ بِهِمْ أو داعٍ لِهِمْ، فضلاً عن نافِرٍ إِلَيْهِمْ أو مواسِيَهُمْ، حتى كأنَّ لِيسوا مَنَّا، أو كأنَّ فتقَهُمْ ليس بِمُفْضِي إِلَيْنا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، بُخْلَنَا بِالغَنَاءِ، عَجَابُ مُغْرِبَةِ فاتِ التَّقْدِيرِ، وعَرَضَتْ للتعْيِيرِ، فللها عاقبةُ الأمورِ، وإليهِ المصير^(٢).

طارَ نَبَأُ الفجيعةِ في بلادِ الأندلسِ كلها، واهتزَتْ لها القلوبُ، وتزلَّتْ النُّفُوسُ، فأسَرَّعَ المقتدرِ بنَ هودٍ - الذي لَحَقَهُ العارُ والمذلةُ لأنَّه تركَ المدينةَ ولم

(١) الحميري: صفة جزيرة الأندلس / ٤١، ٤٠ / ١.

(٢) ابن سام: الذخيرة / ١٨٩، ١٨٨ / ٥.

ينجدها باعتبارها من أملاك أخيه يوسف - فأعلن الجهاد، ونادي بالنفير العام في بلاد الأندلس، فاجتمع له كثير من المتطوعة، وبعث له المعتمد بن عباد خمسائة فارس من إشبيلية، فسار في جمادى الأولى سنة (٤٥٧ هـ = ١٠٦٥ م)، وضرروا الحصار على المدينة، ودارت معركة شرسة مع النصارى قُتل فيها منهم ألف فارس وخمسائة راجل، ودخل بخمسة آلاف سبية من سبيا النصارى سرقةً، وعادت المدينة إلى أملاك المسلمين بعد أن دامت في يد النصارى تسعة أشهر^(١).

يبدو أن علاقة المقتدر مع مالك النصارى كانت صافية؛ بيد أنه كان يستعين بهم في تصرُّفاته العسكرية، وخططه السياسية التوسعية، وكان يستعين بأحد هم على الآخر.

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان نقلًا عن دوزي في تاريخه لسلفي إسبانيا: «وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف في زمانه، وكان يحيط نفسه بشيء من العظمة والأبهة، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب في عصره؛ ومنهم: العلامة الفقيه أبو الوليد الباقي، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ، بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضيات والفلك، وقد كتب كتاباً في الفلسفة والرياضيات»^(٢).

وهكذا استطاع المقتدر أَحْمَدُ بْنُ هُودَ أَنْ يُكَوِّنَ مُلْكَةً مُتَرَامِيَّةً لأَطْرَافِ، وَيُؤَطِّدَ حُكْمَهُ فِيهَا، إِلَى أَنْ تُؤْكَلَ سَنَةً (٤٧٥ هـ = ١٠٨١ م) متأثراً بعضة كلب^(٣)، بعد أن دام حكمه ٣٥ سنة.

(١) ابن بسام: الذخيرة ١٨٩ / ٥، ١٩٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢٢٧ / ٣، ٢٢٨، والحميري: الروض المطار ص ٩١، وصفة جزيرة الأندلس ١ / ٤١، والمقربي: نفح الطيب ٤ / ٤٥٤.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣ / ٢٨٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣ / ٢٢٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧١، ١٧٢، وهنا يذكر ابن الخطيب وابن عذاري أن المقتدر قتل رجلاً صالحًا، كان يعظه ويُذَكِّرُهُ بِاللهِ، فسلط الله عليه كلبًا، فأصابه بكلب، وقد كان المقتدر ينبع كما ينبع الكلاب، وظل كذلك حتى مات. نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

يوسف المؤمن بن هود:

يبدو أن المقتدر ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه والده من قبل؛ بتقسيم مملكته بين ولديه، فخصص ابنه الأكبر يوسف المؤمن بـ سرقة وأعماها، وخصص ابنه الأصغر المنذر بلا ردة وطربوشة ودانية ومتشنون، وكما حدث بين أولاد سليمان بن هود من قبل حدث بين أولاد المقتدر من بعد؛ فقد طمع كل من الأخرين بما في يد أخيه، فاستعان كل منها بحليفٍ من النصارى على أخيه، فارتدى يوسف المؤمن في أحضان السيد القميطور، وجىشه من المرتزقة القشتاليين، وارتدى المنذر في أحضان سانشو ملك أراجون ورامون أمير برشلونة، وتعرّض المنذر وحفاؤه لهزيمتين قاسيتين عند قلعة المنار القرية من لاردة سنة (٤٧٥هـ = ١٠٨٢م)، وأسر فيها أمير برشلونة رامون، والثانية عند أحواز موريلا على مقربة من طربوشة، برز فيهما السيد القميطور كحليفٍ مخلصٍ ليوسف المؤمن^(١).

وقد حاول المؤمن أن يتزعّج بـ لذاته لما تتمتع به من موقع جغرافي، إلا أن حاكمها أبا بكر بن عبد العزيز لاحظ ما ينويه المؤمن، فأسرع وسدَّ باب طمع المؤمن بن هود، بأن زوج ابنته لأحمد المستعين بن يوسف المؤمن، وحملها لزوجها أحمد إلى سرقة، وكان بناؤها في ليلة ٢٧ من رمضان سنة (٤٧٧هـ = ١٠٨٤م)^(٢).

لم تكن شهرة يوسف المؤمن في قدرته العسكرية وطموحاته التوسعية فقط، بل

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣ / ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، والقميطور: اسمه رودريغو دي فيغار، من مواليد قرية فيغار قرب برغش، أما تلقّيه بالسيد، فهي تحريف لكلمة السيد العربية، وقد أطلقها المسلمون الذين خدم بينهم وحارب معهم، وأما وصفه القميطور، فمعناها المحارب الشجاع، فنظرًا لبسالته وشغفه بالقتال، اتخذت الأساطير القشتالية من أعماله عناصر لبطولته، ورفعته إلى مرتبة بطل إسبانيا القومي، وقد خرج هذا الفارس عن كل مبادئ الدين والإنسانية، فتارة يؤجر نفسه لأمراء المسلمين وتارة لأمراء النصارى، ويتدخل بشكل مباشر في الثورات والحرروب في الملك النصرانية والإسلامية. انظر: طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٤٥٤.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣ / ٣٠٤، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣ / ٢٨٦.

كذلك في كفاءته العلمية والفكيرية، وكان مثل أبيه المقتدر عالماً بالرياضيات والفلك، وله فيها تأليف؛ مثل: رسالة الاستكمال والمناظر، وقد ترجمت رسالته الاستكمال في القرن الثاني عشر الميلادي إلى اللاتينية، وقد وصفت رسالته هذه أنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والجيسطي^(١)، كما كان المؤمن محباً لمجالسة العلماء والشعراء^(٢).

لم تدم مدة حكم المؤمن أكثر من أربعة أعوام؛ إذ وافته المنية سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طليطلة من يد القادر بن ذي النون، كانت وفاة المؤمن بن هود نهاية لتوسيعاته، وخلفه في الحكم ابنه أحمد المستعين^(٣).

أحمد المستعين بن هود:

توفي يوسف المؤمن وخلفه ابنه أحمد المستعين، الذي يُعرف بالمستعين الأصغر^(٤)، وأول ما واجهه هو صدُّ غارات النصارى، والوقوف أمام أطماء ألفونسو في انتزاع سرقة طليطلة، فما أن أسقط ألفونسو طليطلة سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م، حتى وجّه قواته ناحية سرقسطة حاضرة المستعين، وضرب الحصار عليها، واستهان المستعين بكل ما يملك من أجل الدفاع عن مدنه وأملاكه أمام الهجوم القشتالي العنيف، وطرق المستعين كل الأبواب من أجل دفع ألفونسو، وعرض عليه المال الكثير، ولكن النصارى رفضوا؛ فالمدينة هي هدفهم ولا هدف غيرها، وأصرَّ ألفونسو على أخذ المدينة، وأذاع عمَّاله في أنحاء سرقسطة أنه ما جاء

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٣، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٢٨٦.

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب ٢/٤٣٧.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٨، ابن الأبار: الحلة السيرة ٢٤٨، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٣.

(٤) ابن سعيد المراكشي: المغرب في حل المغرب ٢/٤٣٧.

إلا للصلحة العامة، وما جاء إلا ليطبق القرآن وتعاليمه السمحاء، ولن يجيء منهم من الضرائب إلا ما يجيزه الشرع الحكيم، وأنهم سوف يكونوا موضع عنایتهم ورعايتهم، كما كان الوضع مع إخوانهم في طليطلة، واستمرّ الحصار القشتالي على سرقةً دون فائدة، ثم جاء النبأ العظيم بقدوم المرابطين لإنقاذ الأندلس سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)، فما أن علم ألفونسو بذلك النبأ حتى بعث مسرعاً إلى المستعين أنه يقبل الجزية التي عرضها، فأجابه المستعين، وكان ألفونسو على علم بأن المستعين لن يدفع إليه درهماً واحداً^(١).

بعد انتصار القوات الأندلسية المرابطية المتحدة على النصارى في الزلاقة في (رجب ٤٧٩هـ = أكتوبر ١٠٨٦م) ضعفت قوّة قشتالة، ولم تَعُدْ تُشكّل خطراً على سرقةً، فاستغلّ المستعين هذه الفرصة وأخذ يتحيّن الفرص للانقضاض على بَلْنسِيَّة حلم آبائه من قبله، وطرق في ذلك الوسائل النبيلة والنذيلة، وقد كُلّت كلُّ محاولات بالفشل؛ خاصة أنه اعتمد على النصارى المرتزقة بزعامة القميطور، الذي شاءت الأقدار أن تَئُولَ بَلْنسِيَّة إلى أملاك القميطور، بعد أن حاصرها بجهوده ونصب عليها المجانق، حتى أكل المسلمين الكلاب والجيف والفثran، بل وأكل الناس من مات من إخوانهم المسلمين، ولما طال الحصار ولم يجد أهل بَلْنسِيَّة من يُنجدهم سقطت المدينة في يد القميطور سنة ٤٨٨هـ، ولم تزل بَلْنسِيَّة في أيدي النصارى حتى استردّها المرابطون سنة ٤٩٥هـ^(٢).

وهكذا فشلت كل المحاولات التي اتخذها المستعين، وفجأة توالت المخاطر على المستعين من كل جانب؛ إذ وقع بين خطرين قد يقضيان على أحلامه، بل وملكه وحياته إذا أساء التصرف معهما؛ الخطر الأول: قادم من الشمال متمثلاً في جيرانه

(١) نقلًا عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٢٨٧.

(٢) ابن عذاري: اليان المغرب ٣/٣٠٣-٣٠٦.

النصارى، والخطر الثاني: زاحف من الجنوب متمثلاً في قوة المرابطين الجديدة، التي تهدف إلى وحدة واحدة تجمع الأندلس كلها، وظلّ المستعين يتحاين التحالف بين هذا وذاك، حتى قُتِلَ في معركة بلتيرة أو فالتيра أمام الفونسو المحارب ملك أрагون في (رجب ٥٠٣ هـ = يناير ١١١٠ م)^(١)، كما أنه خسر مدينة وقشتا إثر هزيمته الكبيرة أمام بيدور الأول بن شانجة رامiro بعد أن حاصرها، واحتدم القتال بين المستعين وبيدور من طلوع الشمس حتى غروبها، وخسر المسلمون أكثر من ١٢ ألفاً من الجنود، وقُتِلَ المستعين، وذلك في ذي القعدة (٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ م)^(٢).

نهاية بنى هود:

مات المستعين بن هود وخلفه من بعده ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة، وباعيه أهل سرْقسطة شريطة لا يخالِف النصارى وألا يستعين بهم، ولكن يبدو أن الأمور سارت على عكس ما أراد الشعب؛ إذ استعان عبد الملك بالنصارى، فغضبت الناس وتحركت الحمية في قلوبهم، ويعثوا إلى المرابطين الذين استجابوا لندائهم بعد أن أفتى الفقهاء بذلك، فدخلتها المرابطون سنة ٥٠٣ هـ، وانتهى بذلك حكم بنى هود في سرْقسطة، وألت إلى المرابطين، ولكن تداعت الأمور وسقطت المدينة في يدي النصارى في رمضان (٥١٢ هـ = ١١١٢ م)^(٣).

ويجب ألا ننسى في نهاية حديثنا عن بنى هود في سرْقسطة أن نذكر دور سرْقسطة المسلمة في ترويج روح التبادل التجاري والمهني بين المشرق والمغرب؛ فقد كانت مملكة سرْقسطة بسيطرتها على جزء كبير من البحر المتوسط، وثغرتها الكبيرين

(١) ابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٢٤٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٤/٥٥، وانظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٤، ويدرك ابن الخطيب أن المستعين استشهد في جهاده ضد النصارى سنة ٥٠١ هـ، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٢٩١.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٢.

(٣) ابن الأبار: الحلقة السيراء ٢/٢٤٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٣.

طَرْكُونَة وَطَرْطُوشَة، تَسْتَقْبِل شَطَرًا كَبِيرًا مِن تَجَارَةِ الْمَشْرُقِ وَتَجَارَةِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ، وَتَعْمَلُ عَلَى تَصْرِيفِهَا إِلَى الْأَمَمِ الْأَوْرَبِيَّةِ، عَنْ طَرِيقِ ثُغُورِ فَرْنَسَا وَإِيطَالِيا، وَكَانَ بَنُو هُود يَجْنُونُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ أَرْبَاحًا طَائِلَةً، كَانَ لَهَا بَعِيدُ الْأَثْرِ فِي دَفْعِ غَارَاتِ النَّصَارَى، مِنْ خَلَالِ دَفْعِ الإِتاَواتِ الْوَفِيرَةِ لِلْمُلُوكِ النَّصَارَى، مُقَابِلًا لِتَقْاءِ عَدُوِّنَاهُمْ أَطْوَلُ وَقْتٍ مُمْكِنٍ^(١).

علماء في بلاط سرقسطة:

كَانَتْ سَرَقْسَطَةُ فِي عَهْدِ بَنِي هُود كَغَيْرِهَا مِنْ حَوَافِرِ الْعِلْمِ فِي الْأَنْدَلُسِ آنَذَاكَ؛ إِذْ تُساوِي فِي مَكَانَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ إِشْبِيلِيَّةَ حَاضِرَةِ بَنِي عِبَادِ، وَبَطْلِيوسَ حَاضِرَةِ بَنِي الْأَفْطَسِ، وَطُلُطِيلَةَ حَاضِرَةِ بَنِي ذِي النُّونِ؛ فَقَدْ نَبَغَ فِيهَا عَلَمَاءُ أَجْلَاءُ؛ كَابِنُ باجَةِ الْفِيلِسُوفِ، وَالْطَّرْطُوشِيِّ الْفَقِيْهِ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ خَلْفِ الْقَارِئِ، فَضْلًا عَنِ الْمَكَانَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَمَتَّعَ بِهَا كُلُّ مَنْ الْمُقْتَدِرُ أَحْمَدُ بْنُ هُود وَابْنُهُ الْمُؤْمِنُ يُوسُفُ؛ فَقَدْ نَبَغَ فِي الْفَلْسَفَةِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالْفَلْكِ.

الطرطوشيُّ (٤٥١-٤٥٢ هـ = ١٠٥٩-١١٢٦ م):

هُوَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدٌ بْنُ الْوَلِيدِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ خَلْفٍ بْنُ سَلِيمَانَ بْنُ أَيُوبِ الْفَهْرِيِّ الْطَّرْطُوشِيِّ^(٢) الْأَنْدَلُسِيِّ الْفَقِيْهِ الْمَالِكِيِّ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُعْرَفُ فِي وَقْتِهِ بِابْنِ أَبِي رَنْدَقَةَ^(٣).

وَقَدْ وُلِدَ سَنَةً (٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م) فِي مَدِينَةِ طَرْطُوشَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، وَقَدْ لَازَمَ الْقَاضِي أَبَا الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ بَسَرَقْسَطَةَ، وَأَخْذَ عَنْهُ مَسَائِلَ الْخَلَافَ، ثُمَّ حَجَّ، فَسَمِعَ

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٩٦ / ٣.

(٢) الطرطوشي بضم الطائين، هكذا ضبطه المقري، وكذا الزبيدي، انظر: المقري: نفح الطيب، ٨٧ / ٢، والزبيدي: تاج العروس، ٢٤٣ / ١٧.

(٣) انظر: ابن بشكوال: الصلة، ٨٣٨ / ٢، (١٢٧٧)، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٩٠ / ١٩.

بالحجاز ثم رحل للعراق وسمع بالبصرة وبيغداد ثم رحل إلى بيت المقدس ثم استقر بالإسكندرية^(١).

قال عنه تلميذه إبراهيم بن مهديّ بن قليُّنا: كان شيخنا أبو بكر زهذه وعبادته أكثر من علمه^(٢)، وقال ابن بشكوال: كان إماماً عالماً عاملاً، زاهداً ورعاً، دينياً متواضعاً، متقدساً متقللاً من الدنيا، راضياً منها باليسير، أخبرنا عنه القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري ووصفه بالعلم والفضل والزهد في الدنيا، والإقبال على ما يعنيه. قال القاضي أبو بكر: وكان كثيراً ما ينشدنا: [الرمل]

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطْنَا
 طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا

 فَكَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
 أَئْهَا لَيْسَتْ لِهِيَّ وَطَنَا

 جَعَلُوهَا بُجْهَةً وَأَخْنَذُوا
 صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنَا^(٣)

وأشهر مؤلفات الطُّرُوشِيُّ هو كتاب (سراج الملوك)، الذي يتناول سياسة الملك وتدبير أمور الرعية. وللطُّرُوشِيُّ عدد آخر من الكتب؛ منها: مختصر تفسير الشعالي، وشرح لرسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، والكتاب الكبير في مسائل الخلاف، وكتاب الفتنة، وكتاب الحوادث والبدع أو بدع الأمور ومحدثاتها، وكتاب بُرُّ الوالدين، ورسالة العدة عند الكروب والشدة، وسراج المهدى، وكتاب في تحريم جبن الروم، والمختصر في فروع المالكية.

عاش الطُّرُوشِيُّ ٦٩ سنة، وتوفي في الإسكندرية سنة (٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) حملة^(٤).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩ / ٤٩٠، وما بعدها، بتصرف.

(٢) المصدر السابق، ١٩ / ٤٩٢.

(٣) انظر: ابن بشكوال: الصلة، ٢ / ٨٣٨، وما بعدها، والمقرى: نفح الطيب، ٢ / ٨٧.

(٤) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٤ / ٢٦٤.

سادساً: الطوائف الأخرى في بلاد الأندلس :

تُعدُّ الطوائف التي ذكرناها آنفًا هي الأقوى في عصر ملوك الطوائف، وإن اختفت من حيث الامتداد الزمني والمكانى، ولكن ليست هذه الطوائف هي كل الطوائف التي شَكَّلت حلقة التاريخ الأندلسي في تلك الحقبة الزمنية القصيرة، التي لا تتجاوز القرن الواحد، وإنما هناك الكثير من الإمارات الأخرى، التي لا تعود أن تكون أُسْرًا متغلبة على بعض المدن، ليست لها أطماء توسيعية، ولم يكن لها شأن كبير في سير الأحداث؛ بيد أنها كانت محل نزاع بين الطوائف الأخرى الأقوى، ومن هذه الطوائف:

أسرة بنى زيري في غرْنَاطَة، في الفترة من (٤٠٣-٤٨٣هـ = ١٠١٣-١٠٩٠م).

أسرة بنى طاهر في مُرْسِيَة، في الفترة من (٤٢٩-٤٧١هـ = ١٠٣٨-١٠٧٨م).

أسرة بنى بُرزال في قَرْمُونَة، في الفترة من (٤٠٤-٤٥٩هـ = ١٠١٣-١٠٦٧م).

أسرة بنى يفرن في رُنْدَة، في الفترة من (٤٠٦-٤٥٧هـ = ١٠١٥-١٠٦٥م).

أسرة بنى دَمَرٍ في مورور، في الفترة من (٤٠٣-٤٥٨هـ = ١٠١٣-١٠٦٦م).

أسرة بنى خزرون في أركش، في الفترة من (٤٠٢-٤٦١هـ = ١٠١١-١٠٦٨م).

ملكة الْمَرِيَّةُ في عهد الفتياَن العاَمِرِيِّينَ، في الفترة من (٤٠٥-٤٣٣هـ = ١٠٤١-١٠١٤م).

ملكة الْمَرِيَّةُ في عهد بنى صِمَادِحَ، في الفترة من (٤٣٣-٤٨٤هـ = ١٠٤١-١٠٩١م).

ملكة دانية والجزائر في عهد الفتياَن العاَمِرِيِّينَ، في الفترة من

(٤٠٠-٤٦٨-٤٠٩هـ = ١٠٧٦-١٠٠٩م).

ملكة دانية والجزائر في عهد بنى هُودَ، في الفترة من (٤٦٨-٤٨٣هـ = ١٠٧٦-١٠٩١م).

مملكة بَلْنِسِيَّة في عهد الفتى العامريين، في الفترة من

(٤٠٠-٤٧٨ هـ = ١٠٠٩-١٠٨٥ م).

إمارة شَتْمَرِيَّة الشرق في عهد بنى رزين، في الفترة من

(٤٠٣-٤٩٧ هـ = ١٠١٢-١٠٤٠ م).

إمارة شَتْمَرِيَّة الغرب في عهد بنى هارون، في الفترة من

(٤١٧-٤٤٣ هـ = ١٠٢٦-١٠٥١ م).

إمارة بالُبُونَت في عهد عبد الله بن قاسم، في الفترة من

(٤٠٠-٤٩٥ هـ = ١٠٠٩-١٠٢٦ م).

دولَة لَبَّة في عهد بنى يحيى، في الفترة من (٤١٤-٤٤٥ هـ = ١٠٢٣-١٠٥٣ م).

إمارة بَاجَة وشِلْب^(١) في عهد بنى مزین، في الفترة من

(٤٣٢-٤٥٥ هـ = ١٠٤١-١٠٦٣ م).

إمارة ولبة وجزيرة شَلْطِيش في عهد بنى البكري، في الفترة من

(٤٠٣-٤٤٣ هـ = ١٠١٢-١٠٥١ م).

ويجدر بنا - وقد ذكرنا باقية طوائف الأندلس - أن نذكر الدور العلمي والحضاري التي ساهمت به هذه الممالك، فقد نبغ في ظلّها العديد من علماء الأندلس وفقهاها، ففي دانية والجزائر - مثلاً - نبغ العالم اللغوي الكبير أبو الحسن ابن سيده، وكان إماماً في اللغة وأدابها، ولِدَ بمُرسِيَّة وانتقل إلى دانية، وانقطع لمجاهد العامرِي، وله كتاب الشهير (المخصص)، وكتاب (المحكم والمحيط الأعظم)، وكان مجاهد العامرِي صاحب دانية والجزائر من علماء عصره، عارفاً بالأدب وعلوم القرآن،

(١) شِلْب: مدينة بغربي الأندلس، بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهي غرب قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان .٣٥٧ / ٣

قالوا عنه: «فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره»، وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مُرْسِيَّة، من علماء عصره، وفي مَيُورَقَة نبغ الحافظ الحميدي صاحب ابن حزم، وهو مؤرخ الأندلس وعالماً في عصره، وله كتاب (جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس).

تلك هي مالك الطوائف أَسْرُّ متغلبة وأخرى مغلوبة، ليس لهم من الأمر إلا دفع الجزية للنصارى الكافرين، والسلطُ على أراضي إخوانهم المسلمين، وليس لدى أبلغ تعبير أقوله في وصف حال تلك الممالك وأصحابها، بقدر ذكري لما قاله الوزير العالم الأديب لسان الدين بن الخطيب؛ إذ يقول: «وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثيرٌ من أهل الأقطار، مع امتيازهم بال محل القريب، والحظة المجاورة لعِبَاد الصليب، ليس لأحد them في الخلافة إرثٌ، ولا في الإمارة سببٌ، ولا في الفروسيَّة نسبٌ، ولا في شروط الإمامة مُكتَسبٌ، اقطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبير، وجَبَّوا العِمَالات والأمسار، وجَنَّدوا الجنود، وقدَّموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتَبْتُ عنهم الكُتَّاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودُونَتْ بأسمائهم الدواوين، وشهَدَتْ بوجوب حَقَّهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتولَّتْ إليهم الفضلاء، وهم ما بين محبوب، وبربري مجلوب، ومحبَّ غير مَحْبُوب، وغُفْلٌ ليس في السُّراة بمَحْسُوبٍ، ما منهم مَنْ يرضي أن يُسمَّى ثائراً، ولا لحزب الحق مُعَايِراً، وقصارى أحد هم أن يقول: «أُقيِّمُ على ما بيدي، حتى يتعَيَّنَ مَنْ يستحقُ الخروج به إليه.

ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يُقبل عليه، ولا لقى خيراً لديه؛ ولكنَّهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً، وخلفوا آثاراً، وإن كانوا لم يُبالوا اغتراراً، من معتمدٍ ومعتقدٍ ومرتضىٍ وموقَّفٍ ومستكْفٍ ومستظاهرٍ ومستعينٍ ومنصورٍ وناصرٍ ومتوكِّلٍ، كما قال الشاعر: [البسيط]

إِمَّا يُزَهَّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَصِدٍ فِيهَا وَمُعْتمَدٍ
 الْأَقَابُ مَلْكَةٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْمِرْجُونِي اِنْتِفَاحًا صُورَةً الْأَسَدِ^(١)

إلى هنا ننتهي من ذكر مالك الطوائف ونشأتها وأشهر الأسر الحاكمة في تلك الفترة، ونتقل في الفصل القادم إلى الحديث عن الفرقة والتناحر بين تلك الممالك الأندلسية.



(١) ابن الخطيب، أعمال الأذام



أ. د. سليمان حسون



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١١ هـ - ١٤٣٢ م

رقم الإيداع: ٢٤٨١٠ / ٢٠١٠

بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

السرجاني، راغب.

قصة الأندلس / تأليف/ راغب السرجاني

القاهرة : مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،
٢٠١٠ (ص)، ٢٤ سم تدمك: ٩٧٧-٤٤١-٨٠٦-٩٧٨ (٩٨٠٠)

١ - الأندلس - تاريخ

١. العنوان

٩٥٣.٠٧١

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٩٩٦٢٦٤٧

مؤسسة أقرأ

لنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - جوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ١٣٦٣٤٤٠٤٣ - ٠١٠٥٢٤٢٠٧ محمول: ٥٣٢٦١٠

الفصل الثاني

الفرقة والتناحر بين ملوك الطوائف

رأينا كيف تَكَوَّنت ممالك الطوائف في الأندلس، وكيف أضحت صرح الخلافة الشامخ إلى بنيان متصدع الأركان، متناثر الأشلاء، ولو أن هؤلاء المغلبين سكنوا إلى ما تغلبوا عليه، ورضوا به من غير طمع ولا جشع، وتحلوا بالنخوة الإسلامية هان الأمر علينا، ولسكن الناس إلى ما آلت إليه الأندلس المسلمة، ولكن يبدو أن هؤلاء الثائرين ومن هم على شاكلتهم قد آثروا الفتنة والشقاق والفراق، واستحلوا دماء المسلمين بأرخص الأثمان، فباعوا دينهم وخسروا دنياهם، مقابل أن يتغلب على أخيه في الدين، وربما أخيه من أمه وأبيه، بل ربما استعان على أبيه وأخيه وعمه وأهله جيئاً.

وتَكَوَّنت في سبيل النوازع الشخصية أحزاب المصالح وتكتلات المصالح، وسرعان ما تتصدع تلك الأحزاب وتفتكك، وينقلب صديق الأمس إلى عدو اليوم والغد والمستقبل، وقد سلك هؤلاء المتكلبون المتحكمون في أراضي المسلمين في الأندلس كل السبل غير الشرعية، التي تُعبّر عن النذالة والخسارة التي تَمْتَعْ بها معظمهم، فاستعنوا بالخيانة والغدر، كما استعنوا بالنصارى على بعضهم البعض، ورضوا بالذلة والمهانة في دفع الجزية والإتاوات مقابل النيل برضاء الملك النصرانية الإسبانية، وهكذا أصبحت الأندلس مسرحاً للصراعات بين المتخاصمين والمتناهدين؛ تلك الصراعات التي شَكَّلت قصّةً مأساةً عاشتها أمّة الإسلام ما يقارب القرن من الزمان.

أولاً: الصراع بين إشبيلية وبطليوس

اتسمت الحروب والنزاعات بين هاتين الملكتين بالشراسة والقُوَّة؛ ربما عاد ذلك إلى التقارب الحدودي الشديد بينهما، إضافة إلى الأطماع التوسيعة التي أتَّسَّم بها أصحابها، وهذا يجعلنا نستقرئ الأحداث قبل وقوعها، فكُلُّ من القاضي أبي القاسم بن عباد وعبد الله بن مسلمة الأفطس يسعى لتوسيعة ممتلكاته وتحصين دولته، وانتهاز الفرص بأسرع وسيلة ممكنة، وكان ذلك إيذاناً باشتعال الحرب بين الملكتين في أي وقت، وهو ما حدث بالفعل.

كان أول صدام عسكري قام به القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية هو قتاله مع عبد الله بن مسلمة الأفطس صاحب بطليوس حول باجة، المدينة التي أصابتها الفتنة والاضطراب إثر إلغاء الخلافة واستئثار كل ثائر بإمارته، ومعلوم أن بطليوس تمثل الحد الشمالي الغربي لإشبيلية، وكان كُلُّ من ابن عباد والأفطس يستعين بالبرير في حروبه وتوسيعاته، وكان القاضي ابن عباد على علاقة وطيدة بمحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، وقد وصف ابن حيان البرزالي بقوله: «وكان ابن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، كثيراً ما يُحِرِّض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قرطبة، فيعمِّ الجهات كلها تدويناً؛ كلما آبا من جهة صارا إلى سواها، حتى أثرا آثاراً قبيحة»^(١).

ولَا يخفى عليك أن علاقة ابن عباد بالبرزالي هي علاقة مصالح متبادلة لا أكثر! وهذا النوع من المصالح لا يدوم، فدعائمه ليست على كتاب الله ولا على سُنَّة رسوله، وسرعان ما يتحول الصديق إلى عدو، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ حاول ابن عباد أن يتزعزع قرمونة من حليفه البرزالي، وكاد له ذلك لو لا تدخل البرير

(١) ابن سام: الذخيرة ٣ / ٢٠.

واختراقهم أراضي إشبيلية، وكانت مقتلة عظيمة قُتل فيها إسماعيل ابن القاضي ابن عباد، وذلك سنة (٤٣٩هـ = ١٠٣٩م) ^(١).

تمثل قرْمُونة الحصن الشمالي الشرقي لإشبيلية، فمن المصلحة العامة لابن عباد أن يكون على علاقة حسنة مع جاره، ومن ناحية البرزالي فمن مصلحته أن يُوطّد علاقته بابن عباد ليستعين به على قتال ابن حمود الطامع في إمارته؛ ومن ثمَّ بعث القاضي ابن عباد لحليفه البرزالي يستعين به في السيطرة على باجة، وأرسل عبد الله الأفطس ابنه محمد المظفر إلى باجة، ويبدو أن ابن الأفطس أسرع إلى باجة قبل الخليفين، وتملَّك المدينة، فأرسل القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل على رأس جيش إلى باجة، ومعه قوَّة من صاحب قرْمُونة محمد بن عبد الله البرزالي، وفرض ابن عباد الحصار على باجة وبداخلها ابن الأفطس، وجاء ابن طيفور صاحب ميراثة بمددٍ لابن الأفطس، فاضطرب الميدان بين الفريقين، وكانت مذبحة مهيبة، قُتل فيها من جيش ابن الأفطس الكثير، وأسر منهم الكثير كذلك، وكان من بين الأسرى محمد بن الأفطس، وأخ ابن طيفور صُليب بإشبيلية سنة ٤٢١هـ، وأرسل ابن الأفطس إلى قرْمُونة ليكون بجوار البرزالي، ثم أطلق سراحه، وكان محمد بن عبد الله البرزالي عرض على ابن الأفطس يوم أطلقه أن يختار على القاضي ابن عباد ليشركه في المنْ عليه بفُكَّه، فأبى ابن الأفطس ذلك وقال: مُقامي في أسرتك أشرف عندي من تحمل مَتَّه، فإذا انفردت باليد عندي وإلا أبقيتني على حالي. فاعجب ابن عبد الله البرزالي بمقاله، ونافس في إسداء اليد عنده لكرال خصاله، وأكرم تشيعه، وبعث به إلى بطليوس ^(٢).

هدأت الأمور بين الملكتين قليلاً، ولم ينسَ ابن مسلمة الأفطس تلك الهزيمة

(١) الحميدي: جذوة الملقبين .٣١ / ٣

(٢) ابن سما: الذخيرة .٢٢ - ١٩ / ٣

الثقيلة، التي أُسرَ فيها ابنه محمد، وكاد أن يُقتل، وظلَّ يتضرر ذلك اليوم الذي يتأثر فيه لنفسه ولابنه، ومرَّت أربعة أعوام، وبعث القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل بجيش توغل شماليًّا في أراضي ابن الأفطس، وهنا كَمَنَ ابن الأفطس لابن عباد، وأغلق عليه طريق رجوعه، وكانت مقتلة عظيمة في جيش إشبيلية، لم ينجُ منها إلا قليل، وفرَّ إسماعيل بن عباد إلى لشبونة وتحصن بها، وكانت حادثة شنيعة لبني عباد سنة ٤٢٥ هـ = ١٠٤١ م^(١).

مرَّت السنون ومات القاضي ابن عباد سنة ٤٣٣ هـ = ١٠٤٢ م، وخلفه ابنه عبَّاد المعتضد بالله، كما مات أيضًا عبد الله بن مسلمة الأفطس سنة ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م، وخلفه ابنه محمد المظفر، وهكذا مات الآباء وهم يحملون خصومات شنيعة جاءت بالويلات على المسلمين.

ولكن السؤال: هل نسي الأبناء أحقاد آبائهم، أم ساروا على نهجهم؟

والحقيقة المرة التي حفظها التاريخ أن الأبناء ساروا أشدَّ ما كان في عهد آبائهم، فلم ينسَ المعتضد بن عباد مأساة والده في سنة ٤٢٥ هـ، كما لم ينسَ المظفر عداوة إشبيلية، وكان شعار كليهما ﴿إِنَّا وَجَذَّبَنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

عادت الحرب أشدَّ ما كانت عليه، واضطربت المعارك بين المعتضد والمظفر؛ إذ حاول المعتضد أن يتزعزع لبلة من صاحبها ابن يحيى، الذي عجز عن صدّ جيوش إشبيلية، فاستغاث بالمظفر صاحب بَطْلُيوس، الذي كان في غنى عن هذه الفتنة، وخرج المظفر لإغاثة ابن يحيى، واستغلَّ فرصة غياب المعتضد عن إشبيلية فبعث بجماعة من البرابرة فعاذوا فيها، وعاث المعتضد في بَطْلُيوس وأعماها، وكادت أن

تكون فتنة يذهب فيها الإسلام والمسلمون من كلا الإمارتين، فتدخل الوزير أبو الوليد بن جهور مسرعاً؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَلُوا فَأَصْلِحُوهَا بَيْنَهُمَا إِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] وجهد ابن جهور جهده في صرفهم، وأرسل ثقات رسle إلى عامتهم، وراح يضرب لهم الأمثال، ويُحَوِّلُّونَهم من سوء العاقبة والمال، حتى صار فيهم كمؤمن من آل فرعون وعظاً وتذكرة، يجد منهم الأطواد الراسية، ويرقي الحيات المتصamaة، واستنَّ القوم في ميدان الغيَّ، وكانت مقتلة عظيمة وفتنة ببرية، اتسمت بالقوة والعنفوانية، وعاش كُلُّ منها في أراضي الآخر، وكانت المزيمة على ابن الأفطس أولاً، لكنه استأنف الكرَّة، واستطاع هزيمة المعتصم هزيمة قاسية، قُتلَ فيها كثير من جنده، وكان ذلك سنة (٤٣٩هـ = ١٠٤٧م) ^(١).

ثم كانت سنة (٤٤٢هـ = ١٠٥٠م) حيث تطورت الحوادث، وتفاقم الأمر، وساء التفاهم بين المظفر بن الأفطس وابن يحيى حليف الأمس، فقد خان المظفر حليفه ابن يحيى، ورفض أن يرُدَّ لابن يحيى ودائمه التي ائتمنه عليها من مال وذخائر، كان ابن يحيى جعلها عند المظفر أيام هجوم المعتصم بن عباد على لَبَّة، ولما ساء الأمر بينهما هاجم المظفر بن الأفطس لَبَّة، فهرع ابن يحيى للمعتصم بن عباد يطلب نجاته، فأرسل له جيشاً قوياً، فتك بابن الأفطس ومزق جيشه شرَّ ممزق، واحتَرَّ من رءوسهم نحو مائة وخمسين، وأفنى حماة رجاله.

ثم جهز المعتصم جيشاً آخر من إشبيلية بقيادة ابنه إسماعيل ووزيره ابن سلام، فتوَجَّه ناحية بَطْلِيوس وأعماها، فعاد شهلاً في أراضي ابن الأفطس حتى مدينة يَابَرَة، وعلى الناحية الأخرى جمع المظفر بن الأفطس رجاله واستدعى حليفه

(١) ابن بسام: الذخيرة / ٣، ٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب / ٣، ٢١٠، ٢٠٩، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس / ٣، ٨٤.

إسحاق بن عبد الله البرزالي، فبعث له بجيش عليه ابنه العزُّ، واجتمع الفريقيان من غير أهبة ولا استعداد، ودارت حرب طاحنة، دارت دائرة على ابن الأفطس، وحزَّ رأس العزُّ بن إسحاق وبعث به إلى إشبيلية، مع رأسِ لعمَّ ابن الأفطس، ولم يجد ابن الأفطس إلاَّ الفرار والنجاة بنفسه، فلجأ إلى يابرة تحت كنف صاحبها عبد الله بن الخراز، وقد قُدِّرَ عدد مَنْ قُتِّلَ في هذه الموقعة بثلاثة آلاف على أقلَّ تقدير^(١).

وفي أواخر سنة ٤٢ هـ (حيث لم تجف دماء المسلمين في يابرة، ولم يتنفس ابن الأفطس الصعداء من هول هزيمته وصمته في يابرة) جهزَ المعتضد بن عباد جيشه وعاث في أراضي ابن الأفطس قتلاً وتشريداً ونهباً، وحرقاً في الأراضي والمزارع، فعمَّت المجاعة في البلاد، وفتح المعتصد حصوناً وبلدانَ، والمظفر لا يستطيع أن يرُدَّ ولم يملك إلاَّ أن اعتصم بحصنَه بطلُيوس، ولم يُخرج من خيله فارساً، وجعل يشكو إلى حلفائه، فلا يجد ظهيراً ولا نصيراً، واشتدَّ البأس على المظفر بن الأفطس، وكادت أن تكون نهايته، إلاَّ أنَّ الوزير أبو الوليد بن جهور تدخلَ درءاً للفتنة، وسعياً في الصلح بين هذين المخاصمين، حتى تمَّ له ذلك في ربيع الأول ٤٣ هـ=١٠٥١ م^(٢).

وهكذا انتهت القطيعة بين إشبيلية وبطلُيوس، بعد أن كادت تُفْني كل شيء، ويبدو أنَّ المعتصد والمظفر لم يرجعاً إلى نحو ما كانا عليه من الحروب والنزاعات، وإنما بحث كل منهما عن عدوٍ هو أضعف منه ينال من لحمه، وينهش من ملْكيه.

ثانياً: الصراع بين إشبيلية وغرناطة :

وقفت مملكة غرناطة حجر عثرة أمام أطاع إشبيلية زماناً طويلاً، فمع ما كان

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣٥، ٣٤ / ٣، وابن عذاري: البيان المغرب ٣ / ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣٦، ٣٥ / ٣، وابن عذاري: البيان المغرب ٣ / ٢١١-٢١٣.

يتمتع به البلاط الإشبيلي من قوّة عسكرية وأدبية على يد بنى عباد، كان البلاط الغرناطي يتمتع كذلك بقدر كبير من القوّة العسكرية على يد بنى زيري، الذين وقفوا أمام كل محاولة لاستئصال البربر في الأندلس، واستطاعوا أن يسيطوا نفوذهم بقوّة على إمارات الجنوبية الأندلسية، وكان هذا بلا شكّ نذيرًا باشتعال الحروب بين بنى عباد وبنى زيري؛ إذ يقف كُلُّ منها في سبيل توسيعات الآخر.

والغريب أنَّ أول اشتباك بين إشبيلية وغرناطة لم يكن في أيٍّ من البلدين، وإنما كان في إستِيجة، إذ سَيَّر القاضي أبو القاسم بن عباد جيشاً بقيادة ابنه إسماعيل؛ لانتزاع قرْمُونة من محمد بن عبد الله البرزالي حليفه بالأمس، فحاصر ابن عباد قرْمُونة ثم نهض إلى حصار حصن أشدونة وإستِيجة، فلم يجد البرزالي إلا أن يستنجد بأخوه البربر، فأرسل إلى إدريس المتأيد الحمودي وقبائل صنهاجة، فأمدَّه إدريس بعسكر يقوده ابن بقنة أحمد بن موسى مُدَبَّر دولته، وخرج باديس بن حبوس صاحب غرناطة، ودار بينهم قتالٌ شرسٌ، انتهى بمقتل إسماعيل بن عباد، وُحُمل رأسه إلى إدريس الحمودي في سنة (٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م)^(١).

وقد اتَّسَمت عَلاقَة بنى عباد بإشبيلية بالعدائية مع باديس بن حبوس في غرناطة، وكانت كُلُّ من الطرفين يتسابق إلى أطماء الآخر يحول بينه وبينها، ويقف أمامه حجر عثرة في سبيل تحقيقها، واتَّسَمت توسيعاتها بأنها ذات اتجاه واحد ومصلحة واحدة؛ ولذلك فهم في صراع دائم؛ وكان الصراع على أُسُدَّه بين المعتصم بن عباد وباديس بن حبوس يتمثَّل في انتزاع مَالَقَة والجزيرة الخضراء، أو أملاك الحمويين السالفة دولتهم.

فقد استطاع المعتصم أن يُسيطر على الجزيرة الخضراء سنة (٤٤٦ هـ =

(١) الحميدى: جذوة المقتبس / ١، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١١٣، ١١٤، وابن عذاري: البيان المغرب ١٩٩/٣.

(١) ، وأئمَّهُ بِذلِك دُولَة بَنِي حُود فِي الْجَزِيرَة، وَبَقَيَ لَهُ مَالَقَةُ التِّي اسْتَطَاعَ بَادِيسُ أَن يَسْتَوِيَ عَلَيْهَا سَنَة (٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) (٢)، وَكَانَ أَهْلَ مَالَقَةَ قَدْ سَمِّوْا مِنْ حُكْمِ الْبَرِّيرِ، فَتَاقَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَى التَّخْلُصِ مِنْهُ، فَبَعْثُوا إِلَى الْمُعْتَضِدِ بْنِ عَبَادِ سَرَّا يَسْتَحْثُونَهُ عَلَى افْتَاحِ مَالَقَةَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمُ الْمُعْتَضِدُ، وَسَيَّرَ لَهُمْ حَمْلَةً بِقِيَادَةِ ابْنِيهِ جَابِرِ وَمُحَمَّدِ الْمُعْتَمِدِ، وَضَرَبُوا الْحَصَارَ عَلَى مَالَقَةَ، وَكَادَتْ أَنْ تَسْقُطَ، إِلَّا أَنْ بَادِيسَ صَاحِبُ غَرَنَاطَةَ أَسْرَعَ إِلَى نَجْدَتِهِمْ، حَتَّى فَوَجَعَ بَهُ جَيْشُ إِشْبِيلِيَّةِ الَّذِي كَانَ عَلَى وَشَكِ النَّصْرِ، فَكَانَتْ مَعرِكَةُ قَاسِيَّةٍ عَلَى جَنْدِ إِشْبِيلِيَّةِ، وَفَرَّ ابْنَا عَبَادِ جَابِرِ وَالْمُعْتَمِدِ يَجْرِيَانِ أَذِيَالَ الْهَزِيمَةِ إِلَى رُنْدَةَ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَة (٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م) (٣).

لَمْ يَأْسِ الْمُعْتَضِدُ بْنُ عَبَادٍ مِنْ هَزِيمَتِهِ أَمَامَ بَادِيسَ بْنَ حَبُوسٍ فِي انتِزَاعِ مَالَقَةَ، فَوَجَّهَ قَوَّاتِهِ إِلَى الْإِمَارَاتِ الْبَرِّيرِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الْوَاقِعَةِ فِي الشَّمَاءِ وَالشَّرْقِ مِنْ إِشْبِيلِيَّةِ؛ وَهِيَ إِمَارَاتٌ: رُنْدَةُ، وَقَرْمُونَةُ، وَأَرْكَشُ، وَشَدُونَةُ، وَمُورُورُ، وَقَدْ اسْتَطَاعَ الْمُعْتَضِدُ أَنْ يُسْيِطِرَ عَلَى إِمَارَاتٍ ثَلَاثَةً؛ هِيَ: قَرْمُونَةُ، وَرُنْدَةُ، وَمُورُورُ كُمَا أَوْضَحْنَا.

وَمَا يَعْنِيْنَا هَنَا هُوَ إِمَارَاتِيُّ أَرْكَشُ وَشَدُونَةُ الَّتِي يُسْيِطِرُ عَلَيْهَا بَنِي يَرْنِيَانِ؛ إِذَا تَجَهَّ أَمِيرُ أَرْكَشِ مُحَمَّدُ بْنُ خَزْرُونَ إِلَى بَادِيسَ بْنَ حَبُوسٍ وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيهِ حَصْنَ أَرْكَشِ مَقَابِلَ أَنْ يُقْطِعُهُمْ أَرْضًا بِغَرَنَاطَةَ يَنْزَلُونَ بِهَا، وَيَكُونُونَ تَحْتَ كَنْفِهِ وَفِي دُولَتِهِ، فَوَافَقَ بَادِيسَ بْنَ حَبُوسٍ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَذُوِّهِمْ وَمَتَاعِهِمْ، فَخَرَجُوا بِذَلِكَ كُلَّهُ فَكَانُوا نَحْوًا مِنْ خَمْسَائِهِ دَابَّة، وَكَانَ مَعَهُمْ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي بَرْزاَلِ أَعْدَاءِ الْمُعْتَضِدِ، وَكَانَ الْمُعْتَضِدُ يَرْقُبُ عَنْ كُثُبِ كُلِّ هَذِهِ التَّحْرُكَاتِ، فَكَمَنَ لَهُمْ كَمِيَّنَا، وَدارَتْ حَرْبُ شَرْسَةٍ بَيْنَ الْطَّرَفَيْنِ مُزَّقَ فِيهَا الْبَرِّيرِ كُلَّ مُزَّقٍ، وَقُتُلَ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣ / ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون / ٤ / ١٥٥، ٦ / ١٨٠.

(٣) ابن بسام: الذخيرة / ٣ / ٤٩، ٥٠، وابن عذاري: البيان المغرب / ٣ / ٢٧٣-٢٧٥، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس / ٣ / ١٣٢.

محمد بن خزرون، وبذلك ردَّ المعتضدُ على هزيمته في مَالَقَة، وانتزع أركش وبلاط شَدُونَة من باديس بن حبوس^(١).

تُوفِيَّ المعتضد بن عباد سنة (٤٦١هـ = ١٠٦٩م)، وخلفه في الحُكْم ابنه المعتمد على الله محمد، وكان المعتمد ذا طموح، ولم يكن ينسى ما كان بين أبيه وبين باديس، وظلَّ يتحيَّن الفرصة تلو الأخرى ليقتنص من غَرْنَاطَة ما يقدر، وكان يُراقب الأحداث في غَرْنَاطَة عن كثب، وكان المعتمد بن عباد مثل آبائه وأجداده يتوجَّس خوفًا من تنامي قُوَّة البربر في الأندلس؛ وخاصةً قاعدهم الأقوى غَرْنَاطَة؛ إذ هي مهبطهم الأول إلى الأندلس عندما يأتون من وراء البحار من عُدوة المغرب، إضافة إلى هذا فإن التزعة العنصرية بين العرب والبربر كانت على أشدّها في إشبيلية وغَرْنَاطَة.

وكانَت سياسة باديس بن حبوس في مجلملها ذات نزعة عنصرية واضحة للبرير؛ فمن ناحية يتقوَّى بهم ضدَّ مالك الأندلس، ومن ناحية يتقوَّون به ضدَّ عدوان الآخرين عليهم، وهو ما رأيناه في أحداث قَرْمُونَة ومالقة وأركش وجَيَان وغيرها من مالك البربر الجنوبيَّة والشرقيَّة في الأندلس، وكانت هذه التزعة العنصرية متملِّكة في دم باديس بن حبوس، حتى أعمته عن الصواب في كثير من قراراته؛ ففي سنة (٤٧٥هـ = ١٠٦٥م) قام أحد الفرسان ويُسمَّى ابن يعقوب باغيتال أبي نصر بن أبي نور أمير رُنْدة البربرية بتدبِّرٍ من المعتضد بن عباد، فلما سمع باديس بن حبوس بالخبر قام للحادثة وقعد، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشقَّ أثوابه... وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه^(٢)، وفكَر في قتل رعاياه الأندلسيين من العرب في غَرْنَاطَة، وأخذ قراره بقتلهم جميعًا في المسجد الجامع بغرناتة يوم الجمعة، وشاور

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣ / ٢٧١ - ٢٧٣.

(٢) الملاَذُ جمع مَلَدٌ: وهو موضع اللذة وكل ما يُشتهي من الأشياء. ابن منظور: لسان العرب، مادة لذذ / ٣ / ٥٠٦، المعجم الوسيط / ٢ / ٨٢٢.

وزيره اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغرانة، مدبر دولته الذي لا يقطع أمراً دونه، فحدّر الوزير من العاقد الوخيمة لذلك الأمر، إلا أنه لم يستمع لنصح وزيره، وحشد جنده، ولكنَّ اللهَ خَيَّب تدبيره، فقد سبقه ابن نغرانة الذي أرسل بعض النساء خفية إلى دور الأندلسين العرب وحدّرهم من الحضور إلى المسجد يوم الجمعة، وهكذا فشل تدبيره، ثم عدل عن قراره بعد أن اقتنع بنصح وزرائه من صنهاجة^(١).

لذلك فالعداوة متبادلة بين العرب في إسبانيا وعلى رأسهم المعتمد وابنه المعتمد (إذ من المعلوم أن بني عباد من لُحْم العربية)، وبين البربر في غرناطة وما حولها وعلى رأسهم باديس بن حبوس ووزرائه من صنهاجة، وهذه العداوة الشديدة تُنذر بحروب دموية وأكثر شراسة من غيرها؛ إذ هي قومية في المقام الأول، وهكذا استحلَّت دماء المسلمين بين عرب وبربر، ولم يَعُد للإسلام بينهم نصيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

وحدث في سنة (٤٦٥هـ = ١٠٧٣م) أن تُؤْقَى باديس بن حبوس، وملك من بعد حفيده عبد الله بن بلقين، وكان صبياً صغيراً لا يملك من أمره شيئاً، وتولَّ أمور دولته الوزير سماحة الصنهاجي، واستبدَّ بالأمر، وكان رجلاً قوياً حاسماً، مرهوب العقاب، شديد السطوة، كما جعل عبد الله بن بلقين أخاه تيمياً على مالقة^(٢)، وقد أدرك المعتمد أن هذه فرصته ليتوسَّع على حساب غرناطة، فحشد جنده واتجه إلى مدينة جيَّان، وانتزعها من يد ابن بلقين سنة (٤٦٦هـ = ١٠٧٤م)، وكانت هذه ضربة قاضية لعبد الله بن بلقين؛ إذ ثَعَدَ جيَّان أخطر قاعدة عسكرية لملكة غرناطة الشمالية، ثم توجَّه المعتمد بن عباد بقواته إلى غرناطة وفرض عليها الحصار، وابتلى

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣١٣/٣، ٣١٤، وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١/٤٣٦-٤٣٨.

وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/١٤٠.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٣٣، ٢٣٤.

الحصون ليُرْهق المدينة بغاراته عليها، ولكنَّه فشلَ ورفع الحصار لحصانة المدينة وشدة بأس وزيرها سِاجة الصنهاجي^(١).

رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه لا يُقبل له بمقاومة جُند المعتمد بن عباد إذا عاود الكرة عليه وأغار على غَرْنَاطَة، وفَكَرَ ابن بلقين وقدَرَ، ثم «فَكَرَ وَقَدَرَ» [المذر: ١٨]، «ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ» [المذر: ٢٠]! إذْ قاده تفكيره إلى أنَّ بعثَ وزيره سِاجة الصنهاجي إلى مَنْ؟! إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس؛ يستعين به على المعتمد بن عباد، وتعهَّد له بدفع جزية مقدارها عشرون ألف دينار، وبالطبع وافق ألفونسو، وخرج عبد الله بن بلقين بجند غَرْنَاطَة وجند النصارى القشتاليين، وأغار على أراضي إِشْبِيلِيَّة، وعاث فيها فسادًا، واستطاع أن يستردَ حصن قَبْرَة الواقع في جنوب غربِ جَيَّان^(٢).

وحدث في عام (٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م) أن سار ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى إِشْبِيلِيَّة وغَرْنَاطَة ومعه وزيره ومستشاره المستعرب الكونت سنندو (شَنْتَنْدَو)؛ ليُطالب بدفع الجزية المفروضة عليهما، ويبدو أنَّ الأمير عبد الله بن بلقين، رفض دفع الجزية؛ معبرًا عن عزَّته، وأنَّه لا يخش ضرًّا من ألفونسو، إلا أنَّ المعتمد بن عباد لم ينسَ هزيمته عند حصن قَبْرَة، فانتهز الفرصة، وأخذ يُؤَلِّبُ ألفونسو على ابن بلقين، وبعث إليه بوزيره ابن عمار، فوقَّع معه حلفًا واتفاقًا؛ خلاصته أنَّ يتعاون الفريقان مسلمو إِشْبِيلِيَّة مع نصارى قشتالة ضدَّ مسلمي غَرْنَاطَة، وأنَّ تكون المدينة ذاتها لابن عباد، وأنَّ يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة، وأنَّ يُؤَدِّي ابن عباد فوقَ ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار، وظهر أثر ذلك الحلف على الفور؛ إذْ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غَرْنَاطَة، وبدأ ابن عمار بتنفيذ الخطة أيضًا، فقام

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٣٤، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/١٤٢.

(٢) نقلًا عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٦٣، ١٤٢، ١٤٣.

بإنشاء حصن على مقربة من غرناطة، وحاول من خلاله أن يؤثر على أهل المدينة بغاراته، ولكنه لم ينل منها مأرباً، وحدث أن انتزع المأمون بن ذي النون قرطبة منه سنة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م)، فاضطر أن يخلي الحصن الذي احتله جنود غرناطة فيما بعد.

ثم حرض ابن عمار ألفونسو مراة أخرى على غزو غرناطة، ومناه بسهولة افتتاحها وضعف جندها، عندئذ رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه يذهب بنفسه إلى ألفونسو، وأن يتفاهم معه، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد ابن بلقين بأداء الجزية السنوية وقدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يسلّم الحصون الواقعة جنوب غربي جيّان، وما أن انتهى الاتفاق حتى باع ألفونسو الحصون لابن عباد جزاء صداقته له^(١)!

هدأت الأمور نوعاً ما بين إشبيلية وغرناطة، ومضت عشرة أعوام وفي سنة (٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م) حدث أن تطورت الأمور في مالقة، وثار تميم بن بلقين أخو الأمير عبد الله بن بلقين، وأعلن استقلاله عن غرناطة وتلقب بالمتصر بالله، فتووجه إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ولكن خشي الأمير عبد الله أن يخالف أخوه تميم المعتمد بن عباد؛ فهادنه وأعطاه حكم مالقة ونواحيها الغربية، وحدث في الوقت نفسه أن ثار كباب بن تميت حاكم أرشدونة وأنتقيرة، فسار إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ثم تم الصلح وعقد المهادة بين المعتمد بن عباد والأمير عبد الله بن بلقين، وسُويت بين الفريقين سائر وجوه النزاع من حدود وغيرها، وكان ذلك أواخر سنة (٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م)^(٢).

(١) انظر هذه الحوادث في مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المسماة بالبيان ص ٦٩، ٧٠، نقاً عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١٤٣ / ٣، ١٤٢.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١٤٤ / ٣، ١٤٥ بتصرف.

وما هي إلا أيام حتى سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس في (صفر ٤٧٨هـ = مايو ١٠٨٥م)، فما كان من الأمير عبد الله وابن عباد إلا أن أرسلوا رسالهما إلى يوسف بن تاشفين يستنقذونه مما داهمهم من النصارى، وما حلّ بأراضي المسلمين بالأندلس! فأين كان هؤلاء عندما استحلوا دماءهم بأيديهم، واستعنوا بالنصارى على بعضهم!

ثالثاً: الصراع بين إشبيلية وقرطبة

بدأ الصراع بين إشبيلية وقرطبة مبكراً منذ أن بدأت أحداث الفتنة في بلاد الأندلس، وسنلاحظ دائمًا أن إشبيلية في ظلّبني عباد هي الطامع الذي لا يقنع إلا بامتلاك ما في يد الآخرين، وكانت قرطبة محل نظربني عباد منذ أن استقلَ القاضي أبو القاسم بن عباد بإشبيلية سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٣م)، وظلت عينه على قرطبة؛ إذ تُمثّل قرطبة مدينة الأندلس الأولى، ومحل الخلافة المنصرمة، وإليها تهفو نفوس الأندلسيين من كل حدب وصوب، وكان أهل قرطبة وعلى رأسهم حاكمها الوزير جهور على علم بكل ذلك، وما يخفيه ابن عباد وغيره من طمع فيها.

وكان من أشهر أعمال القاضي أبي القاسم بن عباد أثناء ولايته -على نحو ما ذكرنا في الفصل السابق- دعوته بظهور الخليفة هشام المؤيد وذلك سنة (٤٢٦هـ = ١٠٣٥م)، ولم تكن نية ابن عباد من وراء ذلك إلا دحض الدعوى الحمودية بالخلافة؛ فال الخليفة الشرعي قد بان وظهر، ومن ناحية أخرى إضفاء للشرعية السياسية في تدبيره وحكمه لإشبيلية؛ فهو يتواتَّع بأمر الخليفة الشرعي للأندلس كلها، الذي لا يملك من أمره شيئاً، وإنما الأمر والتدبير لابن عباد، الذي يُملي عليه ما يريد، والحقيقة أن هذا لم يكن خافياً على ملوك الطوائف وخاصة الوزير ابن جهور حاكم قرطبة.

وبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة للمدعي هشام المؤيد بإشبيلية، أرسل رسالته إلى أمراء الأندلس يطلب منهم أخذ البيعة والنزول على حكم الخليفة الشرعي، بيد أنه لم يعترف به أحد، سوى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، والموفق العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية وصاحب طرطوشة^(١)، وما يعنينا هنا هو موقف الوزير ابن جهور؛ إذ إن موقفه يهم ابن عباد والوزير نفسه؛ فابن عباد يعلم ثقل قرطبة في الأندلس، ويعلم ثقل الوزير ابن جهور ومكانته بين ملوك الطوائف، وسيطرته على قرطبة فاتحة له في السيطرة على الأندلس كلها، وأما الوزير ابن جهور فمع علمه بكذب الدعوة وافتراضها، فهو يريد أن يتذرعها ذريعة لدفع دعوى الحمويين، الذين أرهقوه بغاراتهم على قرطبة محل خلافتهم المزعومة، وامتلاكه لقوّة ابن عباد سبيل لهذا الدفع.

بيد أن أهل قرطبة مالت نفوسهم إلى الخليفة هشام المؤيد، وأعلنوه إماماً للجماعة في الأندلس، ورفض ابن جهور في بادئ الأمر، وكادت أن تقوم ثورة ضده في قرطبة، فأرسل رسالته للوقوف على صحة ما يدّعى ابن عباد، ويبدو أنه باع دينه بعرض من الدنيا، وزور شهادته، وأثبتت صحة دعوى ابن عباد؛ ليدفع الحمويين عن قرطبة، وليريضي أهل قرطبة ويدفعهم عنه، وأخذ ابن جهور البيعة لشام المؤيد المزعوم، وخطب له في مساجد قرطبة وجامعها.

يبدو أن الوزير ابن جهور تراجع عن بيته وأعلن كذب هذه الدعوة، وكان ذلك إيذاناً بالحرب بينه وبين ابن عباد، الذي جمع جيشه واتجه صوب قرطبة لإسقاطها بالقوّة، وفرض الحصار على قرطبة أوائل (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م)، وأمر ابن جهور بسد أبواب المدينة أمامه، ولم يجد القاضي ابن عباد جدو من الحصار،

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/١٩٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٥.

فجمع جيشه وجرّ أذىال خبيته أمامه ووراءه إلى إشبيلية^(١).

هدأت الأمور نوعاً ما بين إشبيلية وقرطبة، وانشغل كُلُّ من القاضي ابن عباد والوزير ابن جهور في توطيد مملكتهما وحروبها الأخرى، ومررت السنوات وتُؤْثِيَ القاضي ابن عباد، وملك من بعده المعتضد سنة (٤٣٢هـ = ١٠٤٢م)، كما تُؤْثِيَ الوزير ابن جهور، وملك من بعده ابنه الوزير أبو الوليد محمد بن جهور سنة (٤٣٥هـ = ١٠٤٤م)، وسارت الأمور هادئة، ولكن يبدو أن أبيا الوليد آثر الراحة، فقدَم ولده الأصغر عبد الملك على ولده الأكبر عبد الرحمن، وسيطر عبد الملك بن جهور على مقاليد قرطبة، وكانت بين عبد الملك والمعتضد صداقة وُدُّ، ولا يخفى علينا أنها صداقة مصالح، كما لا يخفى علينا أن المعتضد فاغر فاه على قرطبة يريد أن يتزعزعها، فكانت الصداقة تمهدًا لما يريد.

على كل حال سيطر عبد الملك بن جهور على قرطبة، إلا أنه أساء السيرة، وسار بين الناس بالمعاصي، وعمت الفوضى البلاد، فلما رأى ذلك أوكل أمور قرطبة سنة ٤٤هـ إلى وزيره ابن السقاء؛ فضبط الأمور، وسار بين الناس بالعدل والحق، وعاد الأمان مرّة أخرى، وساد الاستقرار، وتقوّت قرطبة بعد أن أصا بها الضعف، والمعتضد بن عباد يُراقب الأمور عن كثب، وقرطبة كانت بين قاب قوسين أو أدنى منه؛ فعمد إلى الواقعية بينه وبين وزيره وأوغر صدره عليه، حتى فتك به بكمين كمنه له، وكانت محنَة الوزير ابن السقاء سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م)^(٢).

وهكذا تدخلَ المعتضد بقوّة في شئون قرطبة، واستطاع أن يفتاك بالوزير القوي ابن السقاء، وبذلك انفرد عبد الملك بالسلطة؛ فتجبر وأساء السيرة بين الرعية،

(١) انظر التفاصيل في: ابن عذاري: البيان المغرب /٣، ١٩٨، ١٩٠، ١٩٩، ٢٠١، ١٩٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٥.

(٢) ابن سام: الذخيرة /٢، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦٠٩، ٢٤١، ٢٤٥، وابن عذاري: البيان المغرب /٣، ٢٢٢، ٢٣٣، ٢٣٣.

وَعَمَّتِ الفوْضى ثَانِيَةً، وَهُنَا تَدْخُلُ الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ جَهْوَرٍ وَعَمْدٌ إِلَى تَقْسِيمِ السُّلْطَانَةِ بَيْنَ الْوَلَدَيْنِ، وَذَلِكَ عَام (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م)، فَجَعَلَ إِلَى أَكْبَرِهِمَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ النَّظَرَ فِي أَمْرِ الْجَبَابِيَّةِ، وَالإِشْرَافَ عَلَى أَهْلِ الْخَدْمَةِ وَمَشَاهِدِهِمْ فِي مَكَانٍ مُجَمَّعِهِمْ، وَالتَّوْقِيعُ فِي الصَّكُوكِ السُّلْطَانِيَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لِلْحَالِ وَالْعَقدِ، وَجِئْنَ أَبْوَابَ النَّفَقَاتِ، وَجَعَلَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ النَّظَرَ فِي الْجَنْدِ، وَالتَّوْلِيَّ لِعَرْضِهِمْ، وَالإِشْرَافَ عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ، وَتَجْرِيَدِهِمْ فِي الْبَعْوَثِ، وَالتَّقْوِيَّةِ لِأَوْلَادِهِمْ، وَجِئْنَ مَا يَنْخُصُهُمْ، وَرَضَيَ الْأَخْوَانُ بِذَلِكَ، إِلَّا أَنْ عَبْدَ الْمَلِكَ تَغْلِبَ عَلَى أَخِيهِ؛ فَسُجِّنَ وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالْإِقْامَةِ الْجَبَرِيَّةِ فِي بَيْتِهِ، وَاسْتَبَدَّ بِالْأَمْرِ دُونَهُ، وَانْصَرَفَ النَّاسُ عَنْهُ^(١).

لَمْ تَخْفَ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ عَلَى الْمُعْتَضِدِ لِحَظَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَهُوَ يُرَاقِبُهَا عَنْ كِثْبَرٍ، كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَخْفَ عَلَى مُلُوكِ الطَّوَافِ الْآخَرِينِ، وَخَاصَّةً الْمَأْمُونَ بْنَ ذِي النُّونِ صَاحِبِ طُلْبَيْلَةَ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إِنْ قُرْطُبَةَ كَانَتْ مَوْضِعَ صِرَاعٍ عَنِيفٍ وَسَرِيعٍ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ بَيْنِ إِشْبِيلِيَّةٍ وَطُلْبَيْلَةَ؛ إِذْ إِنْ قُرْطُبَةَ فِي الْمُتَصَفِّ بَيْنَهُمَا وَعَلَى الْمَحْدُودِ الْجَانِبِيِّ لِكُلِّ مِنْهُمَا، فَلِمَنْ يَا تَرَى تَنْتَهِي بِهِ الْأَحْدَاثُ فِي حُكْمِ قِبْضَتِهِ عَلَى قُرْطُبَةِ؟!

هَذَا مَا سَتُوضِحُهُ السُّطُورُ الْقَادِمَةُ ..

عَمَّتِ الفوْضى أَرْجَاءَ قُرْطُبَةَ وَانْفَلَتِ الْأَمْوَارُ مِنْ يَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جَهْوَرٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ فَرْصَةٌ ذَهِبِيَّةٌ لِمَنْ يُرِيدُ الْانْقِضَاضَ عَلَى قُرْطُبَةَ، وَيُبَدِّلُ أَنَّ الْمَأْمُونَ بْنَ ذِي النُّونِ قَدْ أَعْدَّ لِقُرْطُبَةِ عُدُّتَهَا، وَكَانَ هُوَ كَذَلِكَ يُرَاقِبُ الْأَحْدَاثَ عَنْ كِثْبَرٍ، فَجَهَّزَ جِيشَهُ وَأَسْرَعَ نَاحِيَةَ قُرْطُبَةَ وَأَغَارَ عَلَيْهَا سَنَةَ (٤٦٢ هـ = ١٠٧٠ م)، وَلَمْ يَجِدْ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنَ جَهْوَرٍ مَنْ يُسْتَغِيثُ بِهِ سَوْيَ صَاحِبِ إِشْبِيلِيَّةٍ، وَهُوَ حَلِيفُهُ وَصَدِيقُهُ الْمَعْتَمِدُ بْنُ عَبَادٍ؛ إِذْ تُؤْتُقَيُّ الْمُعْتَضِدُ بِاللهِ سَنَةَ (٤٦١ هـ = ١٠٦٩ م)، وَعَلَى الْفُورِ أُرْسَلَ لَهُ الْمَعْتَمِدُ

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/٦٠٦، ٦٠٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٨، ٢٥٩، وابن الخطيب: أعيال الأعلام ص ١٤٩.

سرية مكونة من أربعة آلاف، عليها قائدان خلف بن نجاح و محمد بن مرتين، ووصل الجيش الإشبيلي إلى قرطبة، ونزلوا في ربضها الشرقي، واستطاعوا أن يرددوا جيش ابن ذي النون عنها.

ويبدو أن المعتمد بن عباد دبر مكيدته مسبقاً، وعزم على الاستيلاء على قرطبة، وأعطى أوامره لقائديه بذلك، كما يبدو أن الظروف في قرطبة قد هيأت له أمر السيطرة عليها؛ إذ عَمَّت الفوضى وانتشر الفساد، وكره أهل قرطبة عبد الملك بن جهور، فأرسلوا إلى القائدين ابن مرتين وخلف بن نجاح أن يقبضوا على عبد الملك بن جهور، وأن تكون المدينة في طاعة المعتمد بن عباد، فاجتمعت الخطئتين معًا، خطأ المعتمد المسبقة وخطأ أهل قرطبة، ودبرت المكيدة على أحسن وجه؛ إذ تظاهر قائداً الجيش الإشبيلي بالانصراف والعودة، وذهب القائدان ومن معهما إلى وداع عبد الملك بن جهور بباب المدينة، وهنا اقتحم الجيش الإشبيلي الأبواب وملك المدينة، وسار الجنود في قرطبة سلباً ونهباً وسرقة وفساداً، ودخلت قرطبة في طاعة المعتمد بن عباد، وكان ذلك في شعبان (٤٦٢ هـ = ١٠٧٠ م)، وقد اعتُقل عبد الملك بن جهور وأهله وأخوه عبد الرحمن وأرسلوا إلى إشبيلية مراعاة للحزم.

وأما الشيخ القعيد أبو الوليد بن جهور فقد نُفي إلى جزيرة شلطيش، وكان مما حفظ عنه قوله: اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا. فمات بعد أربعين يوماً من نكبته وسقوط دولته^(١).

ومنذ ذلك التاريخ ارتبط اسم قرطبة بإشبيلية، وجعل المعتمد بن عباد عليها ابنه المعتمد الحاجب سراج الدولة الملقب بالظافر، ووزيره محمد بن مرتين، وأقام الظافر ملكاً على قرطبة باسم أبيه، وظلَّ المؤمنون صاحب طليطلة يتحين الفرص

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/٦٠٩-٦١١، وابن عذاري: البيان المغرب: ٣/٢٦١، ٢٦٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٤٩-١٥٢.

للسيطرة على قُرْطُبَة، وتمَّ له ذلك سنة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٤ م) إثر مكيدة دَبَّرَها المأمون مع رجل يُسَمَّى بِحَكَمَ بْنَ عُكَاشَة ضد الظافر بن المعتمد؛ حيث دخل ابن عكاشة على الظافر بن المعتمد وقتله وحزَّ رأسه، واستولى على أبواب المدينة برجاته، كما قُتِّل ابنَ مرتين وهو غارق في شرابه ولهوه.

ودخل المأمون قُرْطُبَة في موكب عظيم في جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ هـ، وما لبث المأمون أن اعتَلَّ بِقُرْطُبَة ومات بها، وحُجَّل تابوته إلى طُليطلَة في ذي القعدة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م)، وما لبثت قُرْطُبَة أن عادت إلى حوزة المعتمد بن عباد مَرَّة أخرى؛ إذ دخلها بجنده بعد أن راسله أهل قُرْطُبَة، وتغلَّبَ على ابن عكاشة، وحزَّ رأسه ثَانِاً لابنه الظافر، واستخلف المعتمد عليها ابنه الفتح الملقب بالمؤمن، وكان ذلك في ذي الحجة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م) ^(١).

رابعاً: الصراع بين طليطلة وسرقسطة :

كانت الخصومة بين طليطلة وسرقسطة شرسة، كما تلطخت بالخيانة وموالاة النصارى على بعضهم، وتمكينهم من أراضي المسلمين، ويمكننا أن نقول: إن هذه الخصومة تُعدُّ الأسوأ في تاريخ الأندلس، مأساةً حقاً أن يسحق النصارى المسلمين، ويعيثوا في بلادهم تحت إشراف حُكَّام مسلمين، وفي أراضي المسلمين!

إنها أحداثٌ تزرف منها العيون، ويقشعر القلب من ذكرها، ويسليل القلم حسرة من كتابتها!

كان النزاع على أشدّه بين المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وبين سليمان المستعين بن هود صاحب سرقسطة، وكانت تلك فتنة هوجاء عصفت بال المسلمين

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥١، ١٥٢، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٩، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤ / ١٥٩، ابن سسام: الذخيرة ٣ / ٢٦٨ - ٢٧٢.

وزالت هيبيتهم عند النصارى؛ فمعلوم أن سر قسطة تمثل من الناحية الجغرافية الجانب الشمالي الشرقي لطليطلة، وكانت سلسلة المدن والقلاع والمحصون التي تمتدد بين التغ الأعلى (سر قسطة)، وبين التغ الأوسط (طليطلة)، من قلعة أيب و حتى وادي الحجارة هي موضع الاحتكاك والتنازع بين الخصمين^(١).

وعلى الرغم من أن وادي الحجارة من أعمال طليطلة، إلا أن هناك بعضًا من أهلها مالوا إلى سليمان بن هود في سر قسطة، وكانت هذه فرصة لابن هود أن ينفث في روح الفرقة بين أهلها؛ ليتسنى له السيطرة عليها بسهولة، وهو ما حدث بالفعل، فما زالت روح الفرقة تتزايد بين أهلها المشتتين، بين طليطلة وسر قسطة، حتى بعث سليمان بن هود جيشاً عليه ابنه أحمد ولـيَّ عهده، ودخل وادي الحجارة بتدبـير من شيعته، وكان ذلك سنة (٤٣٦هـ = ١٠٤٤م)، وما أن علم المأمون بذلك حتى هرع إلى وادي الحجارة، ودارت بينه وبين أحمد بن هود معارك طاحنة، سالت فيها كثير من الدماء، وكانت الغلبة فيها لابن هود، وفر المأمون وتبعه أحمد بن هود بجيشه، وحاصره في مدينة طليطلة، الواقعة على نهر التاجة غرب طليطلة، وبعث أحمد لأبيه سليمان بن هود يعلمه بالخبر، فأمره بترك المأمون والرجوع إلى سر قسطة، ورفع الحصار عن طليطلة، وبذلك نجا المأمون من موته مؤكـد^(٢)!

كانت هزيمة منكرة بلا شك للmAمون بن ذي النون، إلا أنه لم ييأس وغلبه الجنوح إلى الغلبة والأنفة، ويـا ليـت أـفـتهـ كانتـ علىـ نـصـارـىـ الإـسـبـانـ! وإنـماـ كانتـ أـفـتهـ علىـ مـسـلـمـيـ سـرـ قـسـطـةـ،ـ الـذـيـنـ اـسـتـهـانـ بـدـمـائـهـ،ـ وـجـعـلـهـمـ عـرـضـةـ لـجـنـودـهـ ولـلنـصـارـىـ،ـ كـمـاـ سـنـرـىـ!

لم يـهـنـ المـأـمـونـ وـلـمـ يـلـنـ لـهـ عـزـمـ،ـ وـلـمـ تـأـخـذـ الرـاحـةـ حـتـىـ يـأـخـذـ بـثـارـهـ منـ سـلـيمـانـ بنـ

(١) عـنـانـ: دـوـلـةـ الإـسـلـامـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ .٩٨/٣

(٢) ابن عـذـارـيـ: الـبـيـانـ الـمـغـرـبـ .٢٧٧/٣ ، ٢٧٨ ، ١٧٧ ، وـابـنـ الـخـطـيـبـ: أـعـمـالـ الـأـعـلـامـ صـ ١٧٧ ، ١٧٨ .

هود، فَمَاذا يفعل المأمون؟ وقد أنهكته الهزيمة وأخذت منه جُلّ جيشه وعسكره، فَكَرَّ المأمون بن ذي النون ووجد ضالته في الاستعانا بالنصارى على أخيه المسلم، والتجأ إلى فرناندو الأول ملك قشتالة يستعين به، مقابل أن يدفع له الجزية، فاستجاب فرناندو للطلب، ونَعْمَ ما يطلبه المأمون!

وعلى الفور ولم تمضِ أيام حتى كانت خيل النصارى تعيث فساداً في بلاد سليمان بن هود؛ قتلاً ونهباً وسرقة، وليس لهم رادع يردعهم! فأين جيوش سليمان بن هود؟ وأين عنجيئته وجبروته؟ أم أن قوَّته على المسلمين! أم أنه: [الكامل]

أَسْدُ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةُ فَرَخَاءُ تَفْرُّ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ^(١)

لقد فَرَّ سليمان بن هود وتبعه جنوده، وتحصَّنوا بحصونهم، وتركوا رعيتهم لسيوف النصارى!

كان مصاباً عظيماً للMuslimين في سرقة سسطة؛ إذ كان ذلك الهجوم في وقت الحصاد، فقام النصارى بحصده وحمله، ولم يكتفوا بذلك بل خربوا الزروع والأراضي، وحملوا ما شاء لهم أن يحملوه إلى بلادهم، وكانت فرصة للمأمون أن يثأر هزيمته، فأغار على بلاد ابن هود ونهب منها ما شاء.

ولم يكتفي المأمون بذلك فقط، بل عزم على عقد تحالفات أخرى مع ملوك الطوائف؛ يستعين بهم على ابن هود، وعرض المأمون على المعتصم بن عباد صاحب إشبيلية صداقته وتحالفه، واستمررت المفاوضات بينهما، وقبلَ المعتصم بالله ذلك الحلف وتلك النصرة، على أن يعترف المأمون بالدعوة الهاشمية، ويعيّد للمدعو هشام المؤيد، وتكون له الدعوة في مساجد طليطلة، ووافق المأمون بن ذي النون، مع أن أباه إسماعيل بن ذي النون قد رفضها من قبل، ولكنها المصالح!

(١) البيت لعمران بن حطان السدوسي.

ويبدو أن المؤمن خرج من ذلك الحلف خاسراً خائباً؛ إذ انشغل العتصد عنه بقتال ابن الأفطس صاحب بَطْلِيوس، فلم ينل منه ما يريد، وعاد بتحالفه بخفي حنين^(١).

أما ابن هود فإنه وقع في تلك السقطة التي وقع فيها المؤمن، وذهب إلى النصارى يستعين بهم -أيضاً- على المؤمن، وبعث إلى فرناندو ملك قشتالة باهدايا والتحف، وأغراه في طُلَيْطَلَة، فاستجاب فرناندو ولَبَّى دعوته، وبعث بسراياه فعاثت في أراضي طُلَيْطَلَة فساداً وتخريراً، حتى وصلت إلى وادي الحجارة، وقلعة النهر (قلعة هنارس).

لم يأس المؤمن من المعركة والتمس مساعدة غرسية ملك نافار، وهو أخو فرناندو ملك قشتالة وكانت بينهما عداوة، وبعث المؤمن إلى غرسية بالأموال والتحف يستنصره على ابن هود، فأغارت قوات غرسية على أراضي سَرْقُسطَة المتاخمة له فيما بين تُطِيلَة وَوَشَقَة، وافتتح قلعة قلبرة أو قَلْهَرَة من ثغر تُطِيلَة سنة (٤٣٧هـ = ١٠٤٥م)، والتي فتحها المنصور بن أبي عامر، وعاثت فيها قوات النصارى تخريراً.

وهكذا استباح النصارى في قشتالة ونافار بلاد المسلمين في طُلَيْطَلَة وَسَرْقُسطَة، بمساعدة ابن هود وابن ذي النون المشؤومة الذمية، وانهارت خطوط الدفاع، وساعات أحوال المسلمين، فاضطر أهل طُلَيْطَلَة إلى أن يبعثوا كبراءهم إلى سليمان بن هود؛ طلباً للصلح، وحفظاً لأراضي المسلمين من ظفر النصارى بها، واستحوذهم عليها، وتظاهر كل من سليمان بن هود والمؤمن بالقبول والمصالحة، ثم غدر سليمان بن هود بما كان عاهد عليه أهل طُلَيْطَلَة والمؤمن، ويبدو أن كلاًّ منها لم يكن مستعداً لقبول الصلح؛ فالعداوة بينهما ملأت القلوب !

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣، ٢٧٩، ٢٧٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٨.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى خرج سليمان بن هود بجنوده، ومعه طالعة من حلفائه النصارى متوجهًا إلى مدينة سالم من أعمال طليطلة، ولم تتصمد حاميتها أمامه، وقتل منهم الكثير، وبسط نفوذه على الحصون التي انتزعاها منه المأمون، وكان معه في ذلك كله عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون، وهو أخو المأمون، وجعل يدُّله على عورات المأمون وثغراته، ولما علم المأمون بالحادثة أسرع لاسترداد المدينة ويدافع عنها، وانتهز فرناندو حليف ابن هود غياب المأمون، فبعث سراياه فعاثت في أراضي طليطلة خراباً وتقتيلاً، حتى يئس أهلها، ويعثوا إلى فرناندو يطلبون الصلح والمهاينة، فطلب منهم أموالاً كثيرة، واشترط عليهم شروطاً لم يقدروا عليها، وقالوا له: لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابة واستدعيناهم لكشف ما نحن فيه من المعضلة.

فرد عليهم فرناندو (وياللّٰه لـم يرُد) قائلاً: «أَمَا استدعاكُمُ الْبَرَابِرَةُ، فَأَمْرَكُمْ تَكْثُرُونَ بِهِ عَلَيْنَا، وَتَهَدِّدُونَا بِهِ، وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، مَعَ عَدَاوَتِهِمْ لَكُمْ، وَنَحْنُ قَدْ صَمَدْنَا لَكُمْ مَا نَبَالِي مِنْ أَتَانَا مِنْكُمْ، فَإِنَّا نَطْلُبُ بِلَادَنَا الَّتِي غَلَبْتُمُونَا عَلَيْهَا قَدِيمًا فِي أَوَّلِ أَمْرِكُمْ؛ فَقَدْ سَكَنْتُمُوهَا مَا قُضِيَ لَكُمْ، وَقَدْ نَصَرْنَا الآن عَلَيْكُمْ بِرَدَاءِ تَكُمْ، فَارْحَلُوا إِلَى عُدُوِّتُكُمْ (يقصد عدوة المغرب)، وَاتْرُكُوا لَنَا بِلَادَنَا؛ فَلَا خَيْرٌ لَكُمْ فِي سُكَّانِكُمْ مَعْنَا بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَنْ نَرْجِعَ عَنْكُمْ، أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ»^(١).

وهكذا لم يجد أهل طليطلة قبولاً لما عرض عليهم من الصلح، وعلى الجانب الآخر كان غرسية وجنوده حلفاء المأمون يعيشون في أراضي ابن هود فساداً وتخريباً، ودامت هذه الفتنة الهوجاء بين هذين الأميرين المشؤومين على المسلمين لمدة ثلاثة سنوات (٤٣٥-٤٣٨هـ=١٠٤٦-١٠٤٣م)، ولم تنتهِ إلا بموت سليمان المستعين بن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣٨٢.

هود صاحب سر قُسْطَةٍ؛ إذ تفَسَّرَ المأمون بن ذي النون الصعداء^(١).

طُلَيْطِلَة وَسَرَقُسْطَةٍ.. سليمان بن هود والمأمون بن ذي النون.. إنها نموذج صارخ لتلك الحروب والخصومات التي عاشتها أمَّة الإسلام، وعانت ويلاتها في تلك الفترة المشئومة على المسلمين فترة ملوك الطوائف.

هدأت الأمور نوعاً ما بين الملكتين؛ إذ انشغل أولاد سليمان الخمسة في النزاع على أملاك أبيهم، وقد استطاع المقتدر بالله أَحْمَدْ بْنُ هُودَ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى إِخْوَتِهِ، وَأَنْ يُكَوِّنَ مُلْكَةً مِنْ أَعْظَمِ مَالِكِ الطَّوَافِ، بَعْدَ أَنْ ضَمَّ طُرُطُوشَةَ إِلَى مَالَكِهِ سَنَةَ (٤٥٢هـ = ١٠٦٠م)^(٢)، كَمَا انتزعَ دَانِيَةً مِنْ صَهْرِهِ عَلَيْ إِقْبَالِ الدُّولَةِ بَعْدَ أَنْ حَاصَرَهَا وَذَلِكَ سَنَةَ (٤٦٨هـ = ١٠٧٦م)^(٣)؛ وَبِذَلِكَ أَصْحَّتَ سَرَقُسْطَةَ أَكْبَرَ مَالِكِ الطَّوَافِ مَسَاحَةً وَأَعْظَمَهَا قَوَّةً.

كَمَا بَدَأَ الْمَأْمُونُ يَتَوَسَّعُ عَلَى حِسَابِ الْمَهَالِكِ الصَّغِيرَةِ الْأُخْرَى، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُكَوِّنَ مُلْكَةً قَوِيَّةً مَتَّرَامِيَّةً حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى بَلَيْسِيَّةِ شَرْقاً، وَمَا لَبِثَ الْمَأْمُونُ إِذَا وَافَتْهُ الْمِنِيَّةُ بَعْدَ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ عَامًا، وَذَلِكَ بِقُرْطُبَةَ سَنَةَ (٤٦٧هـ = ١٠٧٥م)، وَخَلَفَهُ حَفِيدُهُ يَحِيَّيُ الْقَادِرُ عَلَى أَمْلَاكِ طُلَيْطِلَةِ وَأَعْمَالِهَا.

لَمْ يَكُنْ يَحِيَّيُ الْقَادِرُ عَلَى مَقْدَارِ الْكَفَاءَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَنْ جَدِّهِ الْمَأْمُونِ؛ إِذَا كَانَ سَيِّئُ الرَّأِيِّ، قَلِيلُ الْخَبَرَةِ وَالْتَّجَارِبِ، فَوَقَعَ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْعَبِيدِ وَالْخَدْمِ وَنِسَاءِ الْقَصْرِ، وَطَائِفَةً مِنْ قَرْنَاءِ السَّوَءِ وَبِطَانَةِ الشَّرِّ، ظَلُوا وَرَاءَهُ حَتَّى أَوْغَرُوا صَدْرَهُ مِنْ مَدِيرِ دُولَتِهِ ابْنِ الْحَدِيدِيِّ، فَقُتِلَ فِي أَوَّلِ ذِي الْحِجَّةِ

(١) انظر تفاصيل ذلك في، ابن عذاري: البيان المغرب /٣ - ٢٧٧ - ٢٨٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٨، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس /٣ - ٩٨ - ١٠١.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب /٣ - ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق /٣ - ٢٢٨.

(٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م) - على نحو ما فصلنا - وسرعان ما انقلب عليه أعون الأمس، وصاروا يُؤْلِّبون العامة عليها، وانهالت عليه الضغوط من كل جانب، وكانت هذه فرصة للمقتدر بن هود أن يُغير على طُليطلة وأعماها، وفعلاً كثُف المقتدر غاراته واستعان بالنصارى في ذلك، ولم يستطع يحيى القادر بن ذي النون أن يُرُد عليه، وظلَّ الأمر هكذا حتى استطاع المقتدر بن هود أن يتزعز منه مدينة شُتُّرية^(١).

تطورت الأحداث كثيراً في كُلٍّ من طُليطلة وسَرْقُسطَة؛ إذ تصاعد الخطر النصراوي على بلاد المسلمين، وبدأ ألفونسو السادس يُسَدِّد ضرباته القوية على ممالك الطوائف المختلفة، حتى أضعفها وأنهكها؛ مرَّةً بالجزية، ومرَّةً بالغارات المتالية، والواقع أن أحوال يحيى القادر في طُليطلة كانت تُنذر بالخطر ووقوع النكبة؛ إذ اندلعت الثورة ضده في طُليطلة وهرب منها إلى حصن وَيْدَة سنة ٤٧٢ هـ، إلا أنه استطاع أن يعود على حراب ألفونسو مرَّةً أخرى، والتي أعقبتها زواله وخروجه ذليلاً من طُليطلة؛ إذ وقعت النكبة وسقطت في يد ألفونسو في صفر ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م)، وخرج القادر يحيى إلى بَلَنْسِيَّة تحت الحماية القشتالية في شوال ٤٧٨ هـ = ١٠٨٦ م).

وعاث النصارى قتلاً وتخرِيباً في المسلمين وديارهم تحت سمعه وبصره، ولم يُحرِّك ساكناً، وأمام هذه التطورات الخطيرة يصل الخبر إلى بَلَنْسِيَّة بالعبور المرابطي، فيهرب النصارى في بَلَنْسِيَّة إلى ألفونسو لنجدةهم من الاتحاد الأندلسي المرابطي، وتكون معركة الزَّلَاقَة وينتصر المسلمون في (رجب ٤٧٩ هـ = أكتوبر ١٠٨٦ م)، ويتنفس أهل بَلَنْسِيَّة الصعداء، بخروج النصارى وانتصار المسلمين، وهكذا انتقلت دولة القادر بن ذي النون من طُليطلة إلى بَلَنْسِيَّة.

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس . ١٠٧ / ٣

وعلى الجانب الآخر ثُوَّيْيِي المقتدر أَحْمَد بْن هُود سَنَة (٤٧٥هـ = ١٠٨١م)، بعد ٣٥ سَنَة حاكِمًا عَلَى سَرْقُسْطَة، بِيد أَبْنَاءِ المقتدر يُوسُف وَالمنْذَر اقْتُلَا فِيهَا بَيْنَهُمَا عَلَى عَرْشِ أَيْمَهُمَا، وَاسْتَعَان كُلُّ مِنْهُمَا بِالنَّصَارَى عَلَى أَخِيهِ، فَارْتَمَى يُوسُفُ الْمُؤْمِنُ فِي أحْضَانِ السَّيِّدِ الْقَمِيْطُورِ، وَجِيَشُهُ مِنَ الْمُرْتَزَقَةِ الْقَشْتَالِيِّينَ، وَارْتَمَى الْمُنْذَرُ فِي أحْضَانِ سَانْشُو مَلِكِ أَرَاجُونَ وَرَامُونَ أَمِيرِ بَرْسُلُونَةِ، وَاتَّهَمَ الْفَتَنَةُ بِتَغْلِبِ يُوسُفِ الْمُؤْمِنِ بْنِ هُودِ عَلَى مُلْكَةِ سَرْقُسْطَةِ، وَانْحَصَرَ سُلْطَانُ الْمُنْذَرِ فِي لَارِدَةِ وَطُرْطُوشَةِ، وَبِدَائِتِ أَطْمَاعُ يُوسُفِ تَتَّجَهُ صَوْبَ بَلَنْسِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ فَشَلَ فِي اِنْتِزَاعِهَا مِنْ يَدِ حَاكِمَهَا أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَحْسَسَ بِالْخَطَرِ، وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا مَفاوضَاتٌ اِنْتَهَتْ بِالْتَّقَارِبِ بَيْنَهُمَا بِالْمَصَاهِرَةِ؛ إِذْ زَوَّجَ أَبُو بَكْرَ ابْنَتَهُ لِأَحْمَدِ الْمُسْتَعِنِ بْنِ يُوسُفِ الْمُؤْمِنِ وَذَلِكَ سَنَة (٤٧٧هـ = ١٠٨٥م)، وَمَاتَ الْمُؤْمِنُ سَنَة (٤٧٨هـ = ١٠٨٦م)، وَلَمْ يُحَقِّقْ حَلْمَهُ وَخَلْفَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْنَهُ أَحْمَدُ الْمُسْتَعِنِ.

تَطَوَّرَتِ الأَحْدَاثُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ فِي الْمُلْكَيْنِ، وَأَسْفَرَتْ مَعرِكَةَ الزَّلَاقَةِ عَنْ انْجِلاءِ الْحَصَارِ الْقَشْتَالِيِّ عَنْ بَلَنْسِيَّةِ (٤٧٩هـ)، وَتَجَدَّدَتِ أَطْمَاعُ الْمُسْتَعِنِ بْنِ هُودِ فِي بَقِيَةِ أَمْلَاكِ طُلَيْطِلَةِ، وَأَخْذَ ذِيَّحَيَّنَ الْفَرَصَ لِيَقْتَصِهَا وَلِيُحَقِّقَ حَلْمَ آبَائِهِ، وَجَاءَتِ الْفَرَصَةُ إِذْ أَنَّ عَمَهُ الْمُنْذَرَ كَانَ يَرْقُبُ هُوَ الْآخِرُ الْفَرَصَةَ لِلْاِسْتِيلَاءِ عَلَى بَلَنْسِيَّةِ، وَحَشَدَ جَنُودَهُ وَفَرَضَ عَلَيْهَا الْحَصَارَ سَنَة (٤٨١هـ = ١٠٨٠م)، وَهُنَا هَرَعَ الْقَادِرُ بْنُ ذِي النُّونِ إِلَى حَلِيفِهِ أَحْمَدِ الْمُسْتَعِنِ بْنِ هُودٍ، الَّذِي لَبِّيَ دُعَوَتِهِ مَسْرِعًا وَهُوَ يَنْوِي نِيَّةَ الْاِسْتِيلَاءِ، مُسْتَعِنًا فِي ذَلِكَ عَلَى الْقَمِيْطُورِ وَجَنُودِ الْمُرْتَزَقَةِ، وَمَا أَنْ اقْتَرَبَ الْمُسْتَعِنُ وَمَنْ مَعْهُ مِنْ مُرْتَزَقَةِ الْقَمِيْطُورِ، حَتَّى أَنْهَى الْمُنْذَرُ الْحَصَارَ وَعَرَضَ عَلَى يَحِيمِي صِدَاقَتِهِ، وَهُنَا ظَهَرَتِ الْأَلْاعِيبُ كُلُّ مِنَ الْقَمِيْطُورِ وَالْمُسْتَعِنِ، وَظَلَّ كُلُّ مِنْهُمَا يَلْعَبُ عَلَى الْآخِرِ، وَتَفَكَّكَ الْحَلْفُ بَيْنَهُمَا؛ إِذْ ظَهَرَتِ النَّوَايَا الْخَفِيَّةُ فِي سِيَطَرَةِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى بَلَنْسِيَّةِ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ أَنْ غَدَتِ بَلَنْسِيَّةُ فِي يَدِ الْقَمِيْطُورِ، وَكَانَتِ مَصَابًا عَظِيمًا، وَمَحْنَةً

جليلة للمسلمين هناك وذلك سنة (٤٨٨هـ = ١٠٩٦م)، وبقيت بِلَنْسِيَّةٍ في أيدي النصارى حتى استرَدَّها المرابطون سنة ٤٩٥هـ^(١).

عاد المستعين حاملاً أدیال الخيبة من فشل محاولاته في انتزاع بِلَنْسِيَّةٍ، إلى أن قُتل في معركة بلتيرة أو فالتيра أمام ألفونسو المحارب ملك أراجون في (رجب ٥٠٣هـ = يناير ١١١٠م)، وخلفه ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة، والذي كانت نهاية دولة بنو هود على يديه؛ فقد دخل المرابطون سَرْقُسطَةَ سنة (٥٠٣هـ = ١١١٠م)، وكانت آخر مالك الطوائف سقوطاً في يد المرابطين، وظلَّت في أيديهم إلى أن سقطت في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في رمضان (٥١٢هـ = ١١١٨م)^(٢).

وهكذا انتهت الأحداث بين ملكيَّ طليطلة وسَرْقُسطَةَ، والتي كان الاعتماد فيها واضحاً على جند النصارى والمرتزقة، والذي كان له بعيد الأثر في تدهور الأوضاع حتى سقوط الملكتين.

* * *

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣٠٢-٣٠٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٢٩/٣، ٢٨٧.

(٢) ابن الأبار: الحلقة السيراء ٢٤٨/٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/١٦٣.

الفصل الثالث

المشهد الصليبي.. تطور الحال في الممالك النصرانية



مررت الممالك النصرانية الإسبانية في الشمال خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بنفس الأطوار التي مررت بها الأندلس الإسلامية في الجنوب، فمرة في طور القوة والشاطط، ومرة في طور التفرق والنزاع، وطور القوة يأتي من وحدة تلك الممالك المتنازعة فيما بينها، وطور الضعف يأتي من التنازع بينها، فكما رأينا الحال في الأندلس عندما تنازعها ملوك الطوائف، وقاتلوا فيما بينهم؛ حتى إن الأخ يقتل أباه وأخاه وأهله ليستأثر بالحكم دونهم، كان هذا هو الوضع - كذلك - في الممالك النصرانية.

ولا نعرف أياً من الطرفين أخذ بُشَّةَ الآخر!

وفيما يلي في هذه السطور نحاول أن نلقي بعض الضوء على حال تلك الممالك وعلاقتها بملوك الطوائف، وكيف توحدت تلك الممالك وعادت حركة الاسترداد النصرانية على الأندلس المسلمة؟

أولاً: الممالك النصرانية في الشمال :

انقسمت المملكة النصرانية في الشمال في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي إلى ثلاث ممالك؛ هي على النحو التالي:

ملكة نافار أو نبرة: وهي أكبر الملك النصرانية، وكان يحكمها سانشو الكبير.

أما مملكة ليون: فكان يحكمها برمودو الثاني (٩٨٢-٩٩٩م)، وخلفه في الحكم ابنه ألفونسو الخامس، وظلّ بها حتى تُوقي سنة ١٠٢٧م، وذلك خلال إحدى غاراته على أراضي المسلمين في شمال البرتغال، وحاصر مدينة بازو، فأصابه سهم مسموم فقتله، فخلفه ابنه برمودو الثالث.

وأما مملكة قشتالة: وكان يحكمها سانشو غرسية حتى سنة ١٠٢١م، ثم خلفه ابنه غرسية بن سانشو.

وكان بين هذه الملك تنازع وفرقة، وكان كل منها - تماماً كما كان يحدث بين ملوك الطوائف - يتربّب الفرصة المناسبة للانقضاض على ملك الآخرين، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ قصد غرسية بن سانشو ملك قشتالة مملكة ليون؛ ليتم عقد زواجه من اخت ملكها برمودو الثالث، فقتل غيلة هناك في الكنيسة أثناء مراسيم الحفل، وبذلك أصبحت مملكة قشتالة بلا ملك ولا أمير، وكان ذلك سنة ١٠٢٨م، وكان لهذا الحدث أثره الكبير في تغيير الخريطة السياسية في الملك النصرانية.

كان سانشو الكبير ملك نافار (نبرة)، يرقب الأحداث عن كثب، وكانت تلك فرصته الذهبية؛ إذ كان سانشو زوجاً لأنخت غرسية القتيل، وبالتالي فهو الوريث الشرعي لميراث زوجته، فجمع قوته واحتلّ قشتالة، وضمّها إلى مملكته، ووضع عليها ابنه فرناندو؛ وبذلك أصبحت قشتالة ونافار مملكة واحدة.

أصبحت إسبانيا مفترقة بين ملكتين، الأولى يحكمها سانشو وولده فرناندو؛ وهي مملكة قشتالة ونافار، والثانية يحكمها برمودو الثالث؛ وهي مملكة ليون.

كانت عين سانشو الكبير على ليون؛ إذ بها تتوحد إسبانيا على يديه ويُصبح هو الملك الأوحد للنصارى الإسبان، وكانت وسليته في ذلك أن توجه فرناندو ملك

قشتالة وعقد زواجه على أخت برمودو الثالث ملك ليون، وبالطبع كان ذلك الزواج زواج مصلحة إلى حين، فكما استطاع سانشو أن يتغلب على قشتالة بزواجه من أخت غرسية القتيل، أراد فرناندو أن يخضع ليون بالطريقة ذاتها، ولكن يبدو أن فرناندو استعجل ثمرته فهاجم مملكة ليون وافتتحها لنفسه، ففرَّ برمودو الثالث ليقرب الفرصة لاسترداد عرشه، وقد حاول ذلك مراراً ولكنه لقي مصرعه على يد صهره، وبذلك توحَّدت ممالك إسبانيا الثلاثة على يد سانشو الكبير، وكان ذلك سنة ١٠٣٧ م.

وكان سانشو قُبيل وفاته قد قسَّ مملكته بين أولاده الأربعة؛ فجعل قشتالة وليون وجِليقية من نصيب ابنه فرناندو، وخصَّ ابنه الأكبر غرسية بنافار، وجعل لابنه رامiro ما تسمى بمملكة أрагون، واقطع لابنه كونزالو منطقة صغيرة هي ولاية سوبرابي وربا جورسيا، هذا فضلاً عن إمارة بَرْشُلونَة في شمال شرقى إسبانيا، والتي يحكمها رامون برنجيز الأول.

وكان هذا التقسيم إذنًا بعودة الفُرقَة والتناحر بين الإخوة الأشقاء، وهو ما حدث بالفعل، بعد وفاة سانشو الكبير^(١).

ثانية : فرناندو وتوحيد الجبهة الصليبية :

اندلعت الحرب الأهلية في إسبانيا النصرانية بين الإخوة الأشقاء، وكانت حرباً دموية وشرسة، استعان أطرافها بالغيلة والخيانة والخدعية.

لم يقتتنع رامiro بنصبيه من مملكة أبيه، وطمع في نصيب أخيه غرسية؛ أي: مملكة نافار نفسها، ولم تكن قوَّاته كفيلة بتحقيق أحلامه، فعقد حلفاً مع جاره المسلم ابن هود صاحب سَرْقُسطَة على أن يُمدَّه بجنود من عنده، ثم زحف رامiro في قوَّاته

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣٧٦-٣٧٨ / ٣

المتحدة، إلى نافار و معه حلفاؤه من المسلمين، و ضرب حصاره على قلعة تافالا، وعلى عجل جمع غرسية جيوشه، وفي جنح الظلام انقض بقواته على جيش رامIRO، وكانت مقتلة عظيمة ومفاجأة، وقتل كذلك معظم جيش المسلمين المشارك في المعركة، وكان ذلك سنة ١٠٤٢ م.

وعلى الجانب الآخر كان غرسية ملك نافار يرى أنه أحق بقشتالة من أخيه فرناندو؛ فهو أكبر إخوته سنًا، و تملكت الغيرة قلبه من أخيه الأصغر فرناندو، فدبّر له حيلة و مكيدة يكون فيها مقتل فرناندو؛ إذ دعا غرسية أخاه فرناندو لزيارتة في نافار؛ فهو على فراش الموت، و يحيط أن يرى أخاه قبل انقطاع حياته، و فعلًا ليلى فرناندو دعوة أخيه الأكبر، ولكنه فطن إلى حيلته بفعل عيونه، فعاد مسرعًا، و قلبه يمتليء حقدًا على أخيه، ولم يكن غرسية على علم بأن فرناندو اكتشف حقيقة أمره و مكيدته، وبعث فرناندو برسالة لأخيه غرسية يدعوه لزيارتة بقشتالة، فسار إليه وهو مطمئن النفس من أخيه، وما لبث حتى قبض عليه فرناندو و اعتقله، ولكنه استطاع الفرار وهو يُضمِّر لأخيه الانتقام، فكان لا بد من الحرب!

جمع غرسية حشوده مستعينًا في ذلك بحليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، كما جمع فرناندو حشوده من قشتالة و ليون، و اشتباك الفريقان عند سهل أتابوركا شرقي برغش، وكانت معركة دامية، انقلب فيها الموازين على غرسية و حلفائه من المسلمين، و قُتل غرسية بضربة قاضية، فانهار جيشه ولاذ بالفرار، و قصر فرناندو مطاردته على جيش المسلمين، فمُرْقُوا شرًّا مُرْقًّا، و كانوا بين أسير و قتيل، و وقع اختيار فرناندو على سانشو بن غرسية ملوكًا جديداً على نافار؛ ليكون وريثاً لأبيه^(١).

وهكذا توحدت ممالك إسبانيا النصرانية مرة أخرى؛ إذ أصبحت قشتالة و ليون

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣٧٨-٣٨١.

ونافار وِجْلِيقِيَّةً وأرجون تحت قبضة ملك واحد هو فرناندو بن سانشو الكبير.

ثالثاً : فرناندو وحرب الاسترداد الأولى

حقاً إن التاريخ يُعيد نفسه، وما أشبه أحداث الواقع بالتاريخ.. ففي الوقت الذي كانت إسبانيا النصرانية تنزع نحو الوحَّدة والقوَّة على يد فرناندو، الذي استطاع بالفعل أن يُكَوِّن جبهة نصرانية صليبية مُوحَّدة، كانت إسبانيا المسلمة أو الأندلس الإسلامية تصطلي ب Niran الفرقَة والتنازع والتشرذم بين أبناء الدين الواحد، فما أن أُغيت الخلافة الأموية (عقد الأُمَّة ورمز وحدتها) وذلك في قُرْطُبَة سنة ٤٢٢هـ = ١٠٣١م)، حتى أصبحت الأندلس فرقاً ممزَّقة وقطعاً متاثرة، وطوائف متنازعة متقاتلة.

وكان هذا التنازع سبِيلاً إلى أن يقوِّي بعضهم على بعض بتكوين تحالفات والتكتلات والاستعاناً بغيرهم؛ ليتقوى بهم على جاره المسلم، وربما كان جاره أباً أو أخيه، وكان لا بدًّ لهذا الخليف أن يكون في موضع قوَّة واتحاد؛ لذلك اتجهت أنظار ملوك الطوائف إلى النصارى الصليبيين، الذين يحملون رُوح الحقد والكراهية لل المسلمين.

فكانت هذه الاتحاد الذي أحدهُ فرناندو بن مالك إسبانيا الصليبية، وحالة التنازع والفرقَة بين ملوك الطوائف سبِيلاً إلى تغيير ميزان القوى السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة الأيبيرية بشَقِّيهَا الإسلامي والنصراني، وكانت هذه القوة النصرانية بداية لما يُسمَّى بحرب الاسترداد الصليبية ضدَّ الممالك الأندلسية المُسلمة.

تمركزت سياسة حرب الاسترداد التي تزعمها فرناندو الأول^(١) ملك قشتالة على أكثر من جهة، وكان يهدف من هذا الأمر إلى إضعاف قوَّة ملوك الطوائف،

(١) فرناندو الأول ملك قشتالة: يُطلق عليه في المصادر العربية (فرذند ملك الجلاقة).

وإخضاعهم لسلطانه وسيطرته؛ إماً من خلال السيطرة على أراضيهم، أو إضعافهم وإرهاق كاهم بدفع الجزية والإتاوات، ولم يُؤَلْ فرناندو نظره وقوَّته إلَّا للمالك الأقوى بين ملوك الطوائف، وكانت هذه المالك هي طُبِطَلَةُ وَإِشْبِيلَةُ وَسَرْقُسطَةُ وبَطَلِيوسُ وغيرها من المالك الضعيفة.

فما أن انتهى فرناندو من توحيد جبهته الصليبية بعد تغلُّبه على إخوته، حتى وجَّه أمره وقوته إلى بني الأفطس أصحاب بَطَلِيوس؛ لإخضاع وضمّ ممتلكاتهم إلى دولته، وملعون أن بَطَلِيوس تُمثِّل الحدود الشمالية والغربية لدولة الأندلس؛ أي: تشمل دولة البرتغال الحالية بكاملها؛ فهي تضمُّ لشبونة (lispon)، وشَنْتَرِين (Santarém)، وقلْمُرِيَة (Coimbra) وغيرها، وفي سنة (٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) تأهَّب فرناندو الأول وجمع جيشه وغزا بلاد بَطَلِيوس، وعبر بقوَّاته نهرِي دويرة وتورمس، وهاجم الحدود الشمالية لملكه بَطَلِيوس، واستطاع أن يُخضع مدنه بازو ولا ميجو الواقعتين في شمال البرتغال، وعاث فيها فساداً وتخريباً، ثم قام بعملية تصفيية وتطهير عرقي ضد مسلمي المدينتين؛ إذ طرد المسلمين منها واستوطنها بالنصارى^(١).

وبعد أن تَمَّت السيطرة لفرناندو طلب من المظفر بن الأفطس دفع الجزية والإتاوة، بيد أن المظفر رفض دفع الجزية له، وهذا ما دفع فرناندو أن يُغيِّر مرَّة أخرى، فبعث بحملة من عشرة آلاف جندي عاثت تخريباً وقتلاً، ولم تلق مقاومة تُذَكَّر من جند ابن الأفطس، وظلَّت قوَّات النصارى تعيث في أراضي المسلمين فساداً حتى وصلت مدينة شَنْتَرِين، وكان ابن الأفطس على علمٍ بتحرُّكات النصارى، فسبق النصارى إلى شَنْتَرِين، وعلِمَ أنه لا قَبْلَ له بجيش النصارى، فعرض عليهم الصلح والمدننة، وانتهت المفاوضات على أن يدفع ابن الأفطس

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس / ٣، ٨٦، ٨٥ . ٣٨٣

الجزرية السنوية ومقدارها خمسة آلاف دينار^(١).

يبدو أن فرناندو قنع بخضوع طليطلة وأصحابها منبني الأفطس، فوجه وجهته الثانية ناحية طليطلة، وقد بيّنا - سابقاً - أن فرناندو كان يبعث سراياه لتعيث فساداً في أراضي طليطلة، أثناء حلفه مع ابن هود في فترة الصراع المحتدم بين سليمان المستعين بن هود وبين المؤمن بن ذي النون، كما أن المؤمن كان يستعين بغرسية ملك نافار، وكانت جيوش النصارى تعيث في أراضي المسلمين بتحريض من الأميرين المشئومين.

وأدرك فرناندو بعد توحيد جبهته أن لا قبل للملوك الطوائف برده؛ إذ هم منهمكون في حرب بعضهم البعض، ففي سنة (٤٥٤هـ = ١٠٦٢م) هاجم فرناندو حدود مملكة طليطلة الشماليّة الشرقيّة؛ فأغار على مدينة سالم ووادي الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس)، وعاث فيها فساداً وتخريباً، ولم يكن أمام المؤمن إلا أن هرع مسرعاً إلى فرناندو، وجمع معه أطناناً من الذهب والفضة، وقدم له الهدايا اعترافاً بطاعته، وتعهد بدفع الجزية له^(٢).

وبعد أن اطمأن فرناندو إلى ولاء المؤمن بن ذي النون، خرج بقوّات كثيفة سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م) وأغار على مملكة إشبيلية، وأحرق قراها وخرب أراضيها، فلم يجد المعتصد بن عباد بدلاً من أن يحتذى حذو المؤمن صاحب طليطلة، وهرع المعتصد مسرعاً إلى فرناندو وقدم له الهدايا؛ معلناً الولاء والطاعة، كما عرض عليه الصلح والمهدنة والسلم فقبلَ منه! وطلب منه أن ينقل رفات القديسة خوستا، التي استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودُفنت بإشبيلية، فوافق المعتصد بن عباد، وحملَت رفات القديسة في احتفال فخم، ونقلت إلى ليون^(٣).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب / ٣، ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس / ٣، ٣٨٣، ١٠١.

(٣) عنان: دولة الإسلام في الأندلس / ٣، ٣٨٤.

وهكذا استطاع فرناندو أن يخضع طليطلة وبطليوس وإشبيلية تحت قبضته، بارهاقام بالجزية والغارات، وكان في كل ذلك يعُدْ عَدُّه وخطته الكبرى للسيطرة على قلمرية من أعمال بطليوس، التي فتحها المنصور بن أبي عامر في ٣٧٥هـ، قصد فرناندو قلمرية بجيوشه وفرض عليها الحصار سنة (٤٥٦هـ = ١٠٦٤م)، وكان قائدها في ذلك الوقت رجلًا يُسمى راندة، وقد غادر المدينة بعد أن راسل فرناندو سرًا، وخرج هو وأهله سالمين، ثم توجه إلى المظفر بن الأفطس الـيـ قتلـه جـزـاء خـيـانتـه وـتـعاـونـه مـعـ الصـلـيـبيـيـنـ، وـيـبـدـوـ أـنـ الـمـسـلـمـيـنـ حـاـوـلـوـاـ المـقاـوـمـةـ، وـلـكـنـ نـفـدـتـ أـقـوـاتـهـ، وـلـمـ تـلـبـثـ الـمـديـنـةـ حـتـىـ سـقـطـتـ بـعـدـ سـتـةـ أـشـهـرـ مـنـ الـحـصـارـ، بـعـدـ حـكـمـ إـسـلـامـيـ دـامـ أـكـثـرـ مـنـ بـضـعـ سـبـعينـ سـنـةـ^(١).

لم يُعدُّ أمام فرناندو إلا أن يُخْضِعَ مملكة بني هود، التي تُسَمَّى بالثغر الأعلى سرْقُسْطَةً؛ فهي المملكة الوحيدة التي يماطل أصحابها فرناندو في دفع الجزية والإتاوات المفروضة عليهم، كما أنه أراد أن يُخْضِعَ بَلْنِسِيَّة لسلطانه، فتوَجَّه بقواته سنة (٤٥٧هـ = ١٠٦٥م) صوب بَلْنِسِيَّة مخترقاً في ذلك حدود سرْقُسْطَة الجنوبيَّة، وأعمل فيها القتل والتخريب، ونهب الزروع والقرى، كما أنه اجتاز سائر البقاع والمحصون؛ وبذلك أرغم المقتدر بن هود على دفع الجزية.

ثم اتجه من فوره ناحية بَلْنِسِيَّةٍ وفرض عليها الحصار، ولما طال الحصار ورأى فرناندو أن حصن المدينة منيعة، ووسائل الدفاع لدىها قوية، عزم على الحيلة والمكيدة؛ فتظاهر بالانسحاب والغادرة، فخرج أهل المدينة فرحين بالنصر متبعين فلول المنهزمين، متزينين بزينة النصر والأُبَّة، وهنا وفي غفلة من أهل بَلْنِسِيَّة وأميرها عبد الملك بن عبد العزيز المنصور، ارتدت القوات الصليبية، وأعملت في أهل بَلْنِسِيَّة القتا، والأُسْرَ، واستسلمت المدينة لفرناندو، ولكنه أحس بالمرض فآخر

(١) ابن عذاري: البيان المغرب /٣، ٢٣٨، ٢٣٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨٤.

العودة إلى ليون، ولم تمض أيام حتى تُوفي سنة (٤٥٧هـ = ديسمبر ١٠٦٥م)^(١).

وهكذا استطاع فرناندو أن يسيطر قوّته على إسبانيا الصلبية وإسبانيا الإسلامية بسلطانه المادي بقوته وجيوشه، والمعنوي بالجزية والإتاوات، التي يُرهق بها ملوك الطوائف.

رابعاً: موت فرناندو والصراع بين ورثته

عمد فرناندو قُبِيلَ وفاته إلى تقسيم مملكته المتحدة على أبنائه الثلاثة وبنتيه، وبيدو أن فرناندو لم يتعلّم من درس والده سانشو الكبير عندما قسم مملكته المتحدة بين أبنائه، وقد ذاق فرناندو لظى الفُرقة التي كانت بينه وبين إخوته! على كل حال اتّخذ فرناندو قراره بالتقسيم، وجمع الأساقفة والأشراف في سنة ١٠٦٤م، وانتهى إلى تقسيم الدولة على أبنائه الثلاثة: سانشو الابن الأكبر، وألفونسو، وغرسية، وبنتيه: أوراكا، وإلبيرا.

فخصَّ سانشو بقشتالة وحقوق الجزية من مملكة سَرْقُسطَة.

وخصَّ ألفونسو بليون وحقوق الجزية من مملكة طَلَيْطَلة.

وخصَّ غرسية بِجَلِيقِيَّة والبرتغال، وحقوق الجزية من مملكة إشبيلية وبَطَلْيُوس.

وخصَّ أوراكا بمدينة سَمُورَة الحصينة.

وخصَّ إلبيرا بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة.

وكان هذا التقسيم سبِيلًا إلى اندلاع الشقاق بين الإخوة الأشقاء، وسيبِيلًا إلى الفُرقة والتنازع بينهم، وهو ما حدث بالفعل.

(١) انظر: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٢٤ / ٣، ٢٢٥، ٢٨٦، ٣٨٧.

كانت مملكة نافار في ذلك الوقت تحت يد سانشو بن غرسية، كما كانت مملكة أراغون تحت حكم سانشو بن رامiro، وقد طمع سانشو بن فرناندو في ضمّ الملكتين إلى أملاكه، وقد شعر ملِكَاً أراغون ونافار ببنية ملك قشتالة، فكَوَّنا حلَّها ضده، واستطاعاً أن يصداه عن مملكتيهما في معركة فيانا عام ١٠٦٧ م، وبعد عام هاجم سانشو بن فرناندو ملك قشتالة أراضي ليون، وحاول أخوه ألفونسو رَدَّهُ، ولكنه هُزم وتنازل لسانشو عن بعض ممتلكاته عام ١٠٦٨ م.

ثم أعاد سانشو كَرَّته على ليون، وهُزم في بادئ الأمر، ولكنه استطاع بحيلة رديجو ياث (الذي يُعرف بالقميظور) أن يتصرّ على ألفونسو؛ إذ أغارت على جيش ليون ليلاً، ودخل سانشو ليون ظافراً، واعتقل أخيه ألفونسو وسجنه في يوليو عام ١٠٧١ م، ولكنه خرج من معقله بوساطة أخته أوراكا، وحدّدت إقامته في دير ساهاجون، وقد ذَبَّرت أخته أوراكا له مكيدة، استطاع بها أن يهرب، والتَّجَأ إلى مملكة طُليطلة؛ ليكون في رعاية المأمون بن ذي النون، وقد استقبله المأمون أحسن استقبالاً، وأكرمه وعاش في كنفه أحسن معيشة.

ويبدو أن ألفونسو لم يكن يقضي منفاه في هو ولعب وubit، وإنما كان يتنقل بين جنبات طُليطلة، تلك المدينة التي يحلم أن يمتلكها يوماً ما؛ وما يؤيد ذلك قول الأستاذ بيدال: «كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين ويترىض في جنبات المدينة الحصينة، ويفكر من أيّ الأماكن وبأيّ نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها»^(١). وقضى ألفونسو تسعة أشهر في منفاه معززاً مكرّماً، إلى أن شاءت الأقدار وتطورت الأحداث في قشتالة!

لم يقنع سانشو بما تمَّ له من السيطرة على ليون، بل أراد أن يتزعزع الملك من أخيه

(١) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣٩١ / ٣

غرسية ملك حِلْقِيَّة والبرتغال، وقد تمَّ له ذلك، وفرَّ غرسية هاربًا ليكون في حمى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وذلك سنة ١٠٧١ م.

لم يُيقِّن لسانشو من مُلْكِ أخيه سوى مُلْكِ أخيه في مدینتي سَمُورَة وَتُورُو، وعقد عزمه على أن ينزع منها ملکهما، واستطاع فعلاً أن يستوليَ على تورو، ولم تصمد أخيه إلى بيرة أماه، ثم توجَّه بجيشه إلى سَمُورَة، فصمدت أماه كثيراً، ففرض عليها الحصار، وفي ذات يوم وفد إلى معسكره فارس، وطلب مقابلته؛ ليُبَيِّنه عن بعض أحوال المدينة المحصورة، وما كاد الفارس يراها حتى طعنَه بحربته فأرداه قتيلاً، وانقضَّ الحصار عن المدينة، بيد أن أخيه أوراكا كانت وراء هذه الجريمة، وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٠٧٢ م.

وهكذا بقيت المملكة بلا ملك يتولى شؤونها، ولم يبقى من إخوة القتيل سوى ألفونسو اللاجئ في بلاط طُليطلَة، وغرسية اللاجئ في بلاط إشبيلية، فإلى مَنْ تَنَول المملكة الواسعة؟!

خامساً: ألفونسو ملكاً على عرش ليون:

وهكذا قُتل سانشو جزاء طمعه واعتدائه على حقّ إخوته، فاجتمع الأشراف على استدعاء ألفونسو من طُليطلَة؛ ليتولَّ الحكم مكان أخيه، بشرط أن يُقسمَ أنه لم يشتراك بأي حال في تدبير مقتل أخيه سانشو، فأرسلت أخيه أوراكا إليه تستدعيه وتعلِّمُه بالأمر، وعلى الفور أعلم ألفونسو المأمونَ بن ذي النون بالنَّبأ، فما كان من المأمون إلا أن أعرب عن سروره وغبطته، ووعده بمساعدته بالمال والخيل، ولم يطلب سوى صداقته، وأن يعده أن يساعدَه ضد إخوانه من المسلمين، فقطع له ألفونسو عهده، وودَّعه المأمون في موكب عظيم إلى حدود مملكته.

ويا لخيئة المأمون! إذ ماذا كان سيفعل لو علم أن ألفونسو هو مَنْ سُيُّسِقَط

ملكته، وَهُنَّ حَفِيدَهُ الْقَادِرُ!

على كل حالٍ غَدَأ ألفونسو ملِكًا على عرش ليون وقشتالة، وهكذا عادت المملكة الصليسية وحدة واحدة، كما كانت عليه، عهد سانتشو الكبير وفرناندو الأول.

ييد أن غرسية الآخر لألفونسو طمع في أملاك أخيه ومتلكاته الحسد، فدبّر له ألفونسو مكيدة بإيعاز من أختهما أوراكا؛ إذ دعا ألفونسو أخاه غرسية للتفاهم، وما كاد يصل غرسية حتى قُبض عليه، وزُجَّ في السجن إلى أن ثُوُقَّيْ سنة ١٠٩٠ م، وخلص عرش الملكة لألفونسو بلا منازع^(١).

三

⁽¹⁾ انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس /٣-٣٨٩-٣٩٥.

الفصل الرابع

ألفونسو السادس وحرب الاسترداد



كان ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة أقوى ملك نصراوي صليبي في ذلك الوقت، ولم ينسَ ألفونسو يوماً عداوة آبائه وأجداده لل المسلمين في الأندلس؛ لذلك ليس غريباً أن يستأنف ألفونسو حرب الاسترداد الصليبية في إسبانيا الإسلامية، بل تكون أشدّها ضراوة وقوّة وحمية.

وقد أتّسمت فترة الصراع الإسلامي الصليبي في عهد ألفونسو بالدينية، وكان ذلك بتأييد من البابوية الكنسية؛ لذلك أتّسم الصراع بالحماسة الشديدة من أجل تحقيق أهداف الكنيسة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس.

أولاً: الإغارة على ممالك الطوائف

حرب الاسترداد الثانية:

عندما اعتلى ألفونسو عرش قشتالة وليون سنة (٤٦٦ هـ = ١٠٧٢ م) كان الصراع على أشدّه بين إشبيلية وغرناطة، وقد سبق وفصلنا كيف استعانت كلتا الممالكين بألفونسو السادس على بعضهما، حتى أرهقهما بالجزية وبها آثاره من تقتيل وتخريب وإفساد باسم تحالفه مع المماليك.

كانت العلاقة بين ألفونسو وملكة سرقسطة تسير من سيء إلى أسوأ، وحدث

أن تُوفِّيَ يوسف المؤمن بن هود في السنة نفسها التي سقطت فيها طليطلة بيد ألفونسو (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م)، فتوجه إلى سرقة، وضرب الحصار عليها، إلا أن حملته باءت بالفشل؛ إذ جاءت الأنباء إليه بقدوم المرابطين لنجدتها إخوانهم بالأندلس، فعاد إلى قشتالة ليعدّ عدّته.

أما عن بلنسية فقد كانت تمر بفوضى سياسية تحت حكم القادر يحيى بن ذي النون، الذي دخلها تحت الحماية القشتالية في شوال (٤٧٨ هـ = ١٠٨٦ م)، فقد تعرّضت بلنسية لضغط المنذر بن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سرقسطة، وكانت المدينة تشرط أملكه، فالتمس المساعدة من كل من ألفونسو السادس وأحمد المستعين، الذي هرع إلى القمبيطور، غير أن المصالح تضاربت بين الخليفين، فاضطر المستعين أن يستعين برامون أمير برشلونة، كما استعان القمبيطور بـألفونسو السادس، وحدث أن انتصر القمبيطور على رامون، واستولى بذلك على شرق الأندلس وبلنسية منها، وفرض الجزية عليها، وتعهد يحيى بدفع مائة ألف دينار سنويًا مقابل حمايته له، بيد أن العلاقة ساءت بين القمبيطور وألفونسو السادس، فقبض ألفونسو السادس على زوجة القمبيطور وأولاده، وهاجم بلنسية في الوقت الذي كان فيه القمبيطور في سرقسطة؛ لتنظيم الدفاع عنها تجاه خطر المرابطين!^(١)

وهكذا أصبحت ملوك الطوائف كلها تحت نير^(٢) هجمات النصارى والتي أنهكت قوى ملوك الطوائف وأضعفت قواهم، ونتج عنها أن سقطت طليطلة على نحو ما سنفصله إن شاء الله.

(١) انظر تفاصيل الأحداث في بلنسية عند: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٢٢٧-٢٥٢، وطبقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٤٧٦، ٤٧٧.

(٢) النير: الخشبة المترضة فوق عنق الثور لجر الحرواث أو غيره. ابن منظور: لسان العرب، مادة نير ٥/٤٦، والمعجم الوسيط ٢/٩٦٦.

ثانياً: أخذ الجزية من المسلمين:

إنَّ أشدَّ وأنكى ما كان من أمر ملوك الطوائف في هذه الفترة أنهم كانوا يدفعون الجزية للنصارى، فكانوا يدفعون الجزية لألفونسو السادس، وهم في ذلة ومهانة؛ كانوا يدفعون الجزية حتى يحفظ لهم ألفونسو السادس أماكنهم وبقاءهم على الحكم في بلادهم.

كانت سياسة ألفونسو السادس التي استعان بها في إنجاح خطته وسيطرته على مالك الطوائف تعتمد على شقين، الأول: إرهاقهم بالغارقات المتواصلة، والثاني: إرهاقهم بالجزية والإتاوات؛ وبذلك تضعف قوى ملوك الطوائف العسكرية والاقتصادية، فلا يقدرون على المدافعة.

وكانَ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَحَدُّوا إِلَيْهِودَ وَالنَّصَارَى أَوْ لِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْ لِيَاءً بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢ - ٥١]

قد نزل في أهل الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث يتغلّلون ويتأولون في مودة وموالاة النصارى بالخوف من دائرة تدور عليهم من قيل إخوانهم، وهنا يعلق ~~بطة~~ بقوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وهو بعينه الذي سيحدث في نهاية هذا العهد كما سترى، حين يكون النصر فيسر هؤلاء في أنفسهم ما كان منهم من موالاة النصارى في الظاهر والباطن، ويندمون حين يفضحهم الله ويُظهر أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، وذلك بعد أن كانوا مستورين لا يدرى أحد كيف حاهم.

وإنها لعبرة وعظة يصوّرُها القرآنُ الكريمُ منهجُ ودستورُ الأُمَّةِ في كل زمان

ومكان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُرُوزًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارُ أُولَئِكَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [المائدة: ٥٧].

غير أن الصورة لاح فيها نور من العزة والإباء قادم من بطيؤس، التي أرهقتها غارات الفونسو، فمع أن كل المالك وأمراء الطوائف كانوا يدفعون الجزية إلى الفونسو السادس إلا المتوكل بن الأفطس أمير مملكة بطيؤس.

وبعد أن أسقط الفونسو طليطلة سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، وجد نفسه قادرًا على تحدي ملوك الطوائف جيًّا، وهنا أرسل الفونسو السادس للمتوكل بن الأفطس رسالة شديدة اللهجة يطلب فيها منه أن يدفع الجزية، كما كان يدفعها إخوانه من المسلمين في المالك الإسلامية المجاورة، فرد عليه المtoكل برسالة قوية تثبت ما كان عليه من علم وعزوة وإرادة، قال:

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدعٍ في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويهدد بجنوده الوافرة، وأحواله المتضادرة، ولو علم أن الله جنودًا أعزَّ بهم ملة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ، «أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ» [المائدة: ٥٤]، بالقوى يُعرفون وبالتباهية يتضررون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة «فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ» [آل عمران: ١٦٦]، و«لِيَمِيزَ اللهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ» [الأنفال: ٣٧]، «وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ» [العنكبوت: ١١].

وأمَّا تعيرك لل المسلمين فيما وهن من أحواهم، وظهر من اختلاهم؛ فالذنب المركبة... ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاء؛ لعلمت أيًّا مصاب أذناك، كما كانت آباؤك مع آبائنا تتجرجعه... وبالأسس كانت قطيعة^(١) المنصور^(٢) على

(١) القطيعة: المال المفروض على العدو كل عام، وهي نوع من أنواع الجزية، يضمن بها المادنة من المسلمين.

(٢) المنصور: هو المنصور بن أبي عامر مؤسس الدولة العاميرية.

سلفك، إهداء ابنته إليه^(١)، مع الذخائر التي كانت تَفُدُ في كل عام عليه... وأما نحن؛ وإن قلت أعدادنا، وعُدِم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلاَّ سيوفاً تشهد بحدتها رقاب قومك، وجلاًّا تبصره في نهارك وليلك، وبالله تعالى وملائكته السوَّمين، نتقوَّى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما ﴿تَرْبَصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ﴾ [التوبية: ٥٢]؛ نصر عليكم فيما لها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل الله فيما لها من جنة، وفي الله العوض بما به هَدَّدتَ، وفرج يبت ما مددت، ويقطع بك فيما أعددت^(٢)

فما كان من ألفونسو السادس إلاَّ أن وجم ولم يُفَكِّر، ولم يستطع أن يُرسل له جيشاً؛ فقد غزا كل بلاد المسلمين في الأندلس خلاً بَطْلِيوس، لم يتجرأ على أن يغزوها، فكان يعلم أن هؤلاء الرجال لا يقدر أهل الأرض جميعهم على مقاومتهم، فأعزَّ الإسلامُ ورفع من شأن المتوكل بن الأفطس ومنْ معه من الجنود القليلين حين رجعوا إليه، وبمجرد أن لَوَّحوا بجهاد لا يرضون فيه إلاَّ بإحدى الحسينين، نصر أو شهادة.

إِلَّا أن المتوكل صاحب هذه الرسالة، وصاحب العلم والفضل، ختم حياته على أسوأ وأحزى ما يكون الختام؛ إذ هو لما أتى فرج الله وتوحدَت الأندلس استولت عليه شهوة الملك؛ حتى تحالف مع ألفونسو عدوه القديم ضد المسلمين، وما أغنى عنه ذلك شيئاً! إذ لقي جزاء خيانته قتلاً في خاتمة ما كان أحسن به أن يتتجنبها!

ثالثاً : جرأة مفاجئة:

بعد أن استطاع ألفونسو إسقاط طليطلة في صفر سنة (٤٨٧هـ = ١٠٨٥م)، علا وتحير وتسمى بندي الملتين، وراح يستهين بملوك الطوائف، لا يُفرق بين أحد منهم،

(١) لما أُجبر أجداده على دفع الجزية، فكان ملك نافار جدُّ ألفونسو السادس قد أرسل ابنته هدية إلى المنصور حتى يأمن جانبه، وهي أمُّ عبد الرحمن بن المنصور الذي انتهت بحكمه الدولة العاميرية.

(٢) الحال الموصية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، ص ٣٦، ٣٧.

وكانت خطوطه التالية بعد طُلُطُلة إخضاع إشبيلية لسلطانه، وكان ألفونسو - كما أوضحنا - قد اعتمد في إرهاق إشبيلية على الجزية والغارات المتواصلة، ولكن حدث أمر قلب موازين الأمور في الأندلس..

أرسل ألفونسو سفارته على رأسها وزير يهودي لأخذ الجزية من المعتمد بن عباد، وكان المعتمد قد تأخر عن موعد دفع الجزية لانشغل بالبغزو ابن صمادح صاحب المرية، فغضب ألفونسو وطلب فوق الجزية أن يتسلّم بعض الحصون، ثم بالغ في طلباته فطلب أن تلد امرأته جنينها في مسجد قرطبة، وأن تسكن في الزهراء؛ بحجّة أن الأطباء أشاروا عليه بنقاء الهواء في الزهراء، كما أن القساوسة أشاروا عليه بهذا الموضع من الجامع، فرفض المعتمد هذه الطلبات، وإذ باليهودي - وهو مجرد رسول - يرد على المعتمد بكلام مهين أمام مجلسه ووزرائه^(١).

وكان العادة النقوس التي قد بقي بها شيء من عوائق الفطرة السوية، أخذت الغيرة المعتمد على الله، وبنخوة كانت مفقودة قام المعتمد على الله فضرب اليهودي وقطع رأسه وصلبه بقرطبة، واعتقل بقية الوفد.

جُنَّ جنون ألفونسو السادس، وعلى الفور جمع جيشه وأتى بحده وحديده، يُحرّب في أراضي إشبيلية، وبعث سراياه فعاشرت في أراضي باجة ولبلة، وأحرق كل القرى حول حصن إشبيلية الكبير، ثم عاث في أراض شذونة وانحدر غرباً يُحرّب ويحرق، ثم فرض الحصار على إشبيلية^(٢).

حصار إشبيلية:

فرض ألفونسو حصاره على إشبيلية (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) بعد أن خرب أعمالها

(١) الحميري: الروض المطار، ص ٢٨٨.

(٢) الحميري: الروض المطار ص ٢٨٨، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/٧٣، ٧٤.

حرقاً ونهباً، ثم بعث برسالة للمعتمد بن عباد مع رجل يُسمى البرهانس، وهي رسالة ملؤها الوعيد والانتقام، يقول له فيها:

«من الإمبراطور ذي الملتين الملك أذفونش بن شانجة إلى المعتمد بالله سَدَّد الله آراءه، وبصَرِّه مقاصد الرشاد، قد أبصرت تَزْلُزَ أقطار طَلِيْطِلَة، وحصارها في سالف هذه السَّيِّنَ، فأسلمتم إخوانكم، وعطَّلتم بالدُّعَة زمانكم، والخذير مَنْ أيقظ بالله قبل الواقع في الجَبَلَة^(١)، ولو لا عهِد سَلَفَ بَيْنَنَا نحفظ ذِمَّامَه، ونسعى بنور الوفاء أمَامَه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يُعجل إلَّا مَنْ يخاف الفُوت فيها يرُومَه، وقد حملَنا الرسالة إليك السيد البرهانس، وعنه من التسديد الذي يلقى به أمثالك، والعقل الذي يُدَبِّر به بلادك ورجالك، مما أوجب استتابته فيها يدُقُّ ويَجُلُّ، وفيما يصلح لا فيها يخلُّ، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك»^(٢).

فلَمَّا قدم الرسول أحضر المعتمد بن عباد أكابر القوم ووزراءه وفقهاءه، فلَمَّا قرأ الكتاب بكى فقيه الأندلس أبو عبد الله بن عبد البر وقال: قد أُبصِرَنا بِصائرنا أنَّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة اللَّعين قوَّةً بلاده، فلو تصافرنا لم نصبح في التَّلاف تحت ذَلِّ الخلاف، وما بقي إلَّا الرجوع إلى الله والجهاد.

ثمَّ أخذ المعتمد رسالَةً لـألفونسو وكتب عليها: [الكامل]

الذُّلُّ تَأْبِاهُ الْكِرَامُ وَدِينُنَا	لَكَ مَا نَدِينُ بِهِ مِنَ الْبُأْسَاءِ
تَغْزُوكَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْإِمْسَاءِ	

(١) جَبَلَة: هي ما يصاد بها من أي شيء. ابن منظور: لسان العرب، مادة جبل ١١ / ١٣٤.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢ / ٢٥، والحلل الموثقة، ص ٣٨، ٣٩.

الله أَعْلَى مِنْ صَلَبِكَ فَادْرُغْ
سَوْدَاءَ غَابْتُ شَمْسُهَا فِي غَيْمَهَا
مَا يَبْيَنْتَا إِلَّا النَّرَالُ وَفَتْنَةُ
رُزْقًا ثُرَى بِالْوَجْنَةِ الْوَجْنَاءِ^(١)

فَأَتَقْدُمْ إِذَا لَقِيتَ أَسْنَةَ^(٢)

ثم قال:

«من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضيد بالله، إلى الطاغية الباغية أدفونش الذي لقب نفسه ملك الملوك، وتسمى بذى الملتين، سلام على من اتبع الهوى، فأول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو الملتين والمسلمون أحلى بهذا الاسم؛ لأنَّ الذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملتقكم، وإنما كانت سنة سعد أَعْظَم منها مُناديكم، وأغفل عن النظر السَّدِيد جميل مُناديكم، فركينا مركب عجز يشحذ الكيس، وعاطيناك كثوس دعَة، قلت في أثنائها: ليس. ولم تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنما لعجب من استعجالك وإعجابك بِصُنْعِ وافقتك فيه القدر، ومتى كان لأسلافك الأخددين مع أسلافنا الأكرمين يدُ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعد بحرب، وكذا وكذا... إلى أن قال: فالحمد لله الذي جعل عقوبة توبيخك وتقریعك بما الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك»^(٣).

طاول المعتمد على الله في التحصن، وفي محاولة لبِّ الهزيمة النفسية في قلوب

(١) الغَيْمَاء: الشديدة من شدائِ الدهر. ابن منظور: لسان العرب، مادة غمَمٌ ١٢ / ٤٤١، والمعجم الوسيط ٦٦٣ / ٢

(٢) الْوَجْنَةُ: ما ارتفع من الحَدَّيْن للشَّدْقِ والْمَحْجَرِ. والْوَجْنَاءُ: تامة الحَلْقُ غليظة لحم الْوَجْنَةِ صُلْبة شديدة. ابن منظور: لسان العرب، مادة وجَنٌ ١٣ / ٤٤٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢ / ٢٤ - ٢٦، وانظر: الحميري: الروض المطار على ص ٢٨٨، والحلل الموشية ص ٣٨ - ٤٢.

ال المسلمين والفت في عضدهم أرسل ألفونسو السادس رسالة قبيحة أخرى إلى المعتمد على الله بن عباد يقول فيها: «كثُر بطول مقامي في مجلسي الذِّبَان^(١)، واشتَدَّ على الحَرَّ فاتَّهَنْتَني من قصرك بمروحة أَرْوَحْ بها عن نفسي، وأطْرَدْ بها الذِّبَاب عنِّي».

يُريد وبكل كبراءة وغرور أن يُخبره أن أكثر ما يُضايقه في هذا الحصار هو الذِّبَاب أو البعض، أمّا أنت وجيشك وأمتك وحصونك فهي أهون عندي منه.

وبنخوة أخرى أخذ المعتمد على الله بن عباد الرسالة وقلبها، وكتب على ظهرها ردًا وأرسله إلى ألفونسو السادس، ولم يكن هذا الرد طويلاً، إنه لا يكاد يتعدى السطر الواحد فقط، وما أن قرأه ألفونسو السادس حتى تملَّكتُ الخوف والرعب والفرع وأخذ جيشه، ورجع من حيث أتى..

لم تكن رسالة المعتمد بن عباد إلا قوله: قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسانظر لك في مراوح من الجلود الْلَّمْطِيَّة^(٢) في أيدي الجيوش المرابطية، ثُرِيح منك لا تروع عليك إن شاء الله^(٣).

لم يكن أمام المعتمد على الله غير أسلوب التهديد هذا؛ فقط لَوَح بالاستعانة بالمرابطين، وقد كان ألفونسو السادس يعلم جيداً من هم المرابطون، فهو مطلع على أحوال العالم الخارجي، فما كان منه إلا أن أخذ جيشه وانصرف وفضَّ حصار إشبيلية.

وهنا أیقن المعتمد فداحة جرمـه وخطأه في دفع الجزية للنصارى، وإغارتـه على مالك المسلمين، وقد أیقن أنه لا قبل له بـألفونسو إلا بالمرابطين، وقد استنكر عليه

(١) الذِّبَان جمع: ذِبَاب. ابن منظور: لسان العرب، مادة ذبب / ١٣٨٠.

(٢) الْلَّمْطِيَّة: نسبة إلى لطة وهي قبيلة بأرض المغرب الأقصى. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان / ٥ / ٢٣.

(٣) انظر: الحميري: الروض المطار، ص ٢٨٨، وصفة جزيرة الأندلس، ص ٨٥، والمقرري: نفح الطيب، ٣٥٨، السلاوي: الاستقصاص لأخبار دول المغرب الأقصى، ٣٨ / ٤.

بعضهم، وقالوا له: **الملُّوكُ عَقِيمٌ^(١)**، والسيفان لا يجتمعان في غمد. فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: رعي الجمال خير من رعي الخنازير^(٢).

*** *

(١) الملك عقيم: مثل يراد به أن الملك لو نازعه ولده ملوكه لم يلبث أن يُلْكِه، فيصير كأنه عقيم لم يولد له.
 العسكري: جمهرة الأمثال ٢/٢٤٧، والميداني: مجمع الأمثال ٢/٣١١.

(٢) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/٢٥، والحميري: الروض المطار من ٢٨٨، والسلاوي: الاستقصا للأخبار دول المغرب الأقصى ٢/٣٨.

الفصل الخامس

سقوط طليطلة



كان نتيجة زلزال عصر الطوائف هو سقوط طليطلة، ففي سنة (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) سقطت طليطلة، هذا التغر الإسلامي الأعلى في بلاد الأندلس، تلك المدينة العظيمة التي كانت عاصمة للقوط قبل دخول المسلمين في عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله.

طليطلة التي فتحها طارق بن زياد بستة آلاف؛ فتحها بالرعب قبل مسيرة شهر منها.

طليطلة التغر الذي كان يستقبل فيه عبد الرحمن الناصر الجزية من بلاد النصارى، ومنه كان ينطلق هو ومنْ تبعه من الحكام الأتقياء لفتح بلادهم في الشمال.

طليطلة المدينة العظيمة الحصينة، التي تحوطها الجبال من كل النواحي عدا الناحية الجنوبية.

فمَعَ قَصَّةِ سُقُوطِ طَلِيْطَلَةِ :

تعرَّضت مدينة طليطلة لهجمات كثيرة من النصارى في عهد فرناندو الأول وابنه ألفونسو السادس، هذا إضافة إلى غارات ملوك الطوائف المجاورة لها إثر النزاعات المتبادلة بينهم، وكان النصارى على علم بأن طليطلة واسطة العقد في بلاد

الأندلس، فلو سقطت فمن المؤكد أن تسقط قُرطُبة وبَطْلُيوس وغَرْنَاتَة وإشبيلية وهكذا تباعاً.

أولاً: سذاجة المأمون بن ذي النون:

تُرى لو يعلم المأمون بن ذي النون أن ألفونسو هو من سُيُّسقُط طُلَيْطَلة، هل كان سُيُّحسن ضيافته؟!

إنها لسذاجة حقاً من المأمون، فالفونسو الذي هرب من حرب أهلية مع أخيه سانشو، وأحسن المأمون ضيافته تسعة أشهر كاملة.. وأخذ عليه عهده أن يحفظ طُلَيْطَلة له ولأبنائه.. وقبل ألفونسو، وكأنه استخفَ بعقل ذلك الرجل!

المأمون بن ذي النون يستضيف ابن فرناندو الذي أثقل كاهله وكاهل المسلمين بالجزية والغاريات والإتاوات، الآن يستقبل ابنه الذي عمّا قليل سُيُّسقُط طُلَيْطَلة!

يبدو أن ألفونسو كان أكبر ذكاءً من المأمون؛ إذ كان ألفونسو يتريّض في جنبات طُلَيْطَلة ويأكل من خيراتها، ويختالط أهلها، ويعرف كمائنه ونقاط قوتها وضعفها، ويتأمل أسوارها، لقد جعل ألفونسو حياته في طُلَيْطَلة من منفى إلى مهمّة استخباراتية سيحتاج إليها بعد حين.

وما هي إلاّ أشهر قليلة وأصبح ألفونسو ملكاً على قشتالة سنة ١٠٧٢ م، وأخذ يُعدّ عدّته لإسقاط طُلَيْطَلة.

ثانياً: فساد القادر بن ذي النون:

مات المأمون بقرطبة وخلفه من بعده حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون وذلك سنة (١٠٧٥ هـ = ٤٦٧ م)، وتلقّب بالقادر بالله، وكان القادر بالله سبيع الرأي، فاسد الخلق، أحاط نفسه ببطانة سوء، فتحكمَت فيه نساء القصر، وسار وراء هوى الغانيات والمعنيات، وما لبثت هذه البطانة السيئة حتى أوغرروا صدره

على وزيره الرجل القوي ابن الحديدي، الذي قتله في أوائل ذي الحجة (١٠٧٦هـ = ١٩٦٨م) ^(١).

وما لبث القادر أن جنى عاقبة فساده واعتهاه على بطانة السوء، وانهالت عليه الثورات والهموم من كل جانب؛ فالمقتدر بن هود صاحب سر قُسطنة يُرهقه بغاراته من ناحية، وأبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية أعلن الثورة والاستقلال، والنصارى من ناحية ثالثة يُغيرون على أعمال مملكته، وكادت قونقة أن يتزعها منه سانشو رامiro ملك أراجون، لو لا أنه افتداها بمبلغ كبير من المال، وحاول القادر أن يجد عوناً ونصيراً له أمام تلك المتاعب والهموم، فالتجأ إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، يطلب مساعدته، وبالطبع وافق ألفونسو، ولكن في مقابل ماذا؟!

وافق ألفونسو في مقابل أن يتنازل له القادر بن ذي النون عن بعض الحصون القرية من الحدود، وقد تسلّم منها بالفعل حصون سرية وفتورية وقنالش، كل ذلك إضافة إلى الأموال الباهظة التي اشتراطها عليه، والتي يعجز عنه القادر، إلا أنه وافق لحاجته إليه!

ثالثاً: ثورة أهل طليطلة:

في خضم كل هذه الأحداث كان المتأمرون داخل طليطلة يُمهدون لشورة انقلابية على القادر وأعوانه، وأمام هذه التنازلات المخزية من القادر، واستشراء الفساد في طليطلة اندلعت ضده الثورة الداخلية ونادت بالإطاحة به، وفعلاً هرب القادر من طليطلة إلى حصن وبذة، وأصبح أهل طليطلة بلا أمير ولا حكومة ولا نظام، فاستقدموا المتوكل بن الأفطس ليحكم البلاد سنة (٤٧٢هـ = ١٠٧٩م).

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/١٥٠-١٥٥، وأبن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٩، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/١٠٧.

رابعاً : ألغونسو يعيد القادر على حرب العصبيين :

انتقل القادر بن ذي النون من ملجئه في وَبِذَة إلى مدينة قونقة، وأرسل إلى ألفونسو يطلب مساعدته، ويُذَكَّرُه بـسالف الْوَدِ بينه وبين جدّه المأمون وما كان للمأمون من فضل في عونه وإغاثته، فاستجاب له ألفونسو، وسار معه في سرية من جنوده، فهي فرصة سانحة لألفونسو أن يبسط سلطانه على القادر، إلى أن تخين الفرصة ويبسط سلطانه على المدينة كلها، فعاد القادر مرّة أخرى بمعونة ألفونسو ملك قشتالة، وحاصرت قوّات النصارى طُليطِلة، مما اضطر المتوكل بن الأفطس إلى أن يخرج منها بعد أن أخذ من أسلاب القادر ما شاء؛ من أثاث وفراش وآنية، وسلاح وكتب وغيرها، وبعث بها إلى بَطْلِيوس، ونجحت قوّات ألفونسو في الدخول إلى طُليطِلة وإعادة القادر إليها بعد عشرة أشهر من خروجه منها، ودخل القادر طُليطِلة في حمى النصارى وجنودهم، ويقال: إن ألفونسو حاصر طُليطِلة والمتوكل بداخلها، واضطرب المتوكل أن يغادرها بالفرار، وكان ذلك في ذي الحجة سنة (٤٧٣هـ = ١٠٨٠م) ^(١).

خامساً : ألفونسو يحاصر طُليطِلة :

الواقع أن ألفونسو كان قد أعدّ عدّته للقضاء على طُليطِلة، ووضع خطته العسكرية التي تمهّد لمشروعه الواسع بالسيطرة على مالك الطوائف كلها، وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية لِمَا رأى من استفحال أمر ألفونسو وقوّته فكر كيف يصنع؛ وبدلًا من أن يسلك مسلك الشرفاء الأعزاء فُيساند طُليطِلة، أو يسارع فِي كُون حلفًا من ملوك المسلمين، إذا به يخشى على نفسه من أن ينساب تيار الغزو القشتالي إلى مملكته، فرأى أن يعقد مهادنة وصلحًا مع ألفونسو يأمن بها على أراضيه، فبعث وزيره ابن عمار ليتفاوض مع ألفونسو، وتمت المعاهدة والاتفاق على ما يلي:

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧، ١٦٤، ١٦٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/١٠٨.

- يؤدّي المعتمد للملك القشتالي الجزية سنويًا.
 - يُسمح للمعتمد بغزو أراضي طليطلة الجنوبيّة على أن يسلّم منها إلى الملك القشتالي الأراضي الواقعة شمالي سيرامورينا (جبال الشارات).
 - لا يعترض المعتمد على مشروع ألفونسو القاضي بالاستيلاء على طليطلة.
- وهكذا ضَحَى المعتمد بعقل إسلامي مهمٌ؛ لكي يفوز بإمارات لم تخضع له بعد، وهذا خطأ سياسي جسيم يضاف إلى أخطائه، ودلالة على استهتاره نحو أمته ودينه^(١).

وفي شوال (٤٧٤هـ = ١٠٨٢م) ضرب ألفونسو الحصار على طليطلة، وشدَّدَ غاراته عليها، وظلَّ على ذلك أربع سنوات كاملة؛ يجْرِب في الزروع والأراضي والقرى، وعاش الناس في ضيق وكرب، وليس بين المسلمين مُحْير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

وفي الوقت الذي تُحاصر فيه طليطلة كان ملوك الطوائف يُقدّمون ميثاق الولاء والمحبة له؛ أي: الجزية والإتاوة، ولم يجرؤ أحد منهم على الاعتراض عليه في ذلك إلا الم وكل بن الأفطس الذي أُخْرِج من طليطلة قبل قليل، وفي الوقت نفسه الذي تُحاصر فيه طليطلة نجد أن ممالك الطوائف الأخرى تتنازع فيما بينها، أو تُرْدُّ غارات النصارى المتواصلة عليها.

سادساً: وسقطت طليطلة:

هكذا أصبحت طليطلة وحيدة بلا مأوى!

وهكذا أصبحت طليطلة تنتظر ساعة الحسرة والسقوط.

(١) طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٤٤٣، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣ / ١٠٩.

وهكذا تركت طليطلة المدينة المنكوبة لصيرها، وفي خريف سنة ٤٧٧هـ = ١٠٨٤م اقترب ألفونسو من المدينة، وأحكم الحصار بشدة، وضاق الناس ذرعاً، وكان موقف القادر مريضاً، وكأن هناك اتفاقاً بينه وبين النصارى! وحاول أهل المدينة أن يطيلوا انتظارهم عسى نجدة من المسلمين تنجدتهم، ولكن ليس بين مسلمي الأندلس في ذلك الوقت مجيراً!

ولما طال الحصار واستحکم على المسلمين وضاق بهم، أرسلوا جماعة من زعائهم إلى ألفونسو تتحدث عن الصلح والمهادنة، فما كان من ألفونسو إلا أن أهانهم، وسخر منهم واستدعى سفراء ملوك الطوائف، وقد كانوا جميعاً يومئذ لديه ينطبوهن ودده، ويقدّمون إليه الأموال، وهكذا خرج زعماء طليطلة وقد فقدوا أملهم، عادوا خائبين، وأيقنوا سوء المصير^(١).

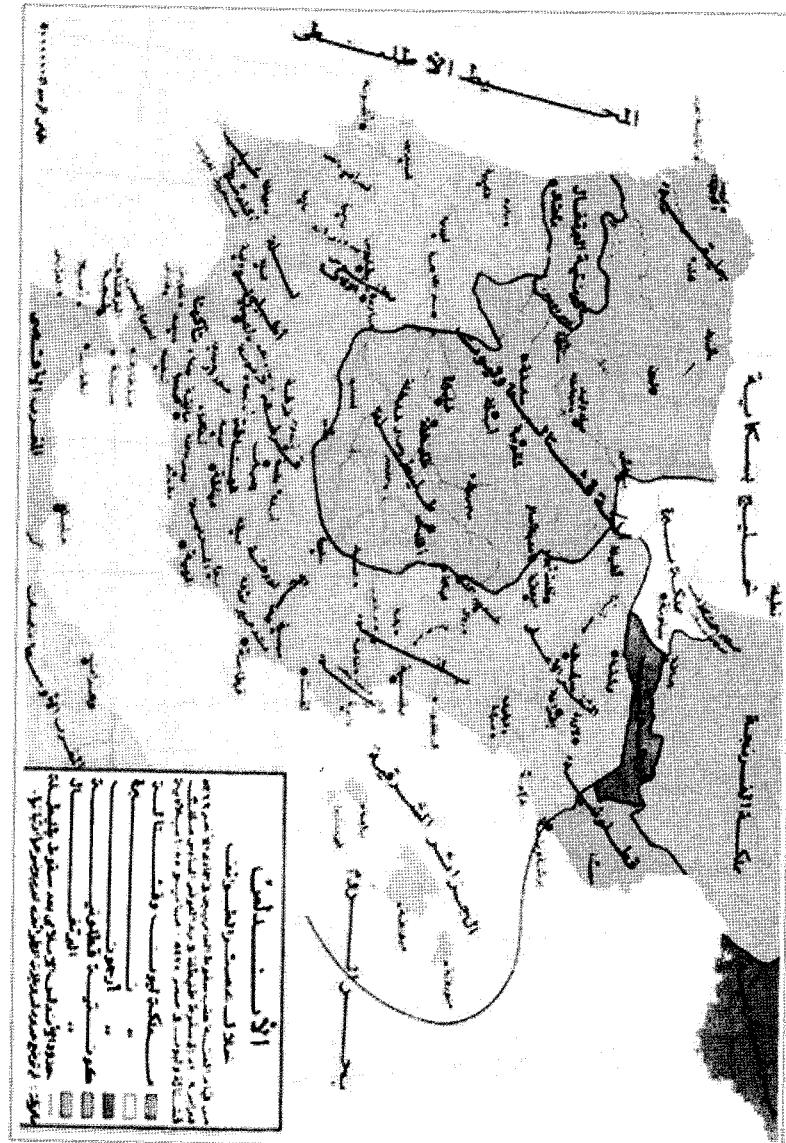
مضى على الحصار إلى الآن تسعه أشهر، وتحطمت كل الآمال المرجوة في الصلح والمهدنة، وهكذا عرضت المدينة التسلیم، بعد أن عجزت عن المقاومة، وبعد أن سلمها ملوك الطوائف ثمناً لدينهم، وشرفهم وعزّتهم!

وكان من ضمن شروط التسلیم:

- أن يؤمّن أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم.
- أن يغادرها من يشاء حاملاً أمواله، وأن يُسمح لمن عاد منهم باسترداد أمواله.
- أن يؤذوا الجزية إلى ملك قشتالة على ما كانوا يؤذونه لملوكهم من المكوس والضرائب.
- أن يحتفظ المسلمون للأبد بمسجدهم الجامع، وأن يتمتعوا بالحرية التامة في إقامة شعائرهم وشريعتهم.

(١) ابن سام: الذخيرة ٧-١٦٥، ١٦٧، وعنوان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١١٢، ١١٣.

خريطة رقم (١٢) سقوط طليطلة



- تسليم سائر القلاع والمحصون.

وأما بالنسبة للقادر بن ذي النون:

يمكّنه ملك قشتالة من الاستيلاء على بلنسية، وبالتالي تخضع له القواعد الشرقية كلها^(١).

وكانت هذه العلاقة المشوّمة بين القادر بن ذي النون وألفونسو السادس ملك قشتالة سبباً في سقوط طليطلة، وخروج القادر المنكود منها ذليلاً هو وأهله، وما أبلغ تعبير ابن بسام في وصف حال القادر عند خروجه! إذ يقول: «وخرج ابن ذي النون خائباً مما تناه، شرقاً بعقبى ما جناه، والأرض تضجُّ من مقامه، وتستأذنُ في انتقامه، والسماء تودُّ لو لم تُطلع نجماً إلا كدرتُه عليه حتفاً ميداً، ولم تُشئ عارضاً إلا مطرأته عذاباً فيه شديداً، واستقرَّ بمحلَّة أذفنوش (ألفونسو) خفور الذمَّة، مُذَآل الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونَ حُرمه سِرْ و لا حجاب، حدثني مَنْ رأه يومئذ بتلك الحال وبهذه أصطراطٍ؛ يرصُدُ فيه أي وقت يَرْحَل، وعلى أي شيء يَعُول، وأي سبيلٍ يتمثَّل، وقد أطافَ به النصارى والمسلمون، أولئك يضحكونَ من فعله، وهؤلاء يتعجَّبونَ من جهله»^(٢).

وما أبلغ شهادة ابن الخطيب في القادر وأهله عندما قال: «والطاغيةُ بين يديه يتَّبِعُ^(٣) بيده عنده، واستقرَّ بها شَرُّ استقرار، واقتضاه الطاغيةُ الْوَعْدُ، وسلبه الله النصر والسعادة، وهلكت الذمم، واستؤصلت الرّمَم، ونُفِّذ عقابُ الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومُتَعَوِّدُ العقوق، ومُقيمي أسواق الشفاق والنفاق، والمَثَل

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١١٣ / ٣، ١١٤.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ١٥٦ - ١٥٧ / ٧.

(٣) التَّبَّاجُحُ: التمكّن في الحلول والمُقام والنفقة. ابن منظور: لسان العرب، مادة بحث ٤٠٦ / ٢، والمجمِّع الوسيط ٣٩ / ١.

السائر في الآفاق»^(١).

وفي صفر (٤٧٨هـ = ١٠٨٥م) دخل ألفونسو السادس ملك قشتالة طليطلة، وهكذا سقطت طليطلة وخرجت من قبضة الإسلام، وغدت عاصمة للنصرانية، وحاضرة لملكة قشتالة، التي يتربع على عرشها ألفونسو السادس.

وبسقوط طليطلة اهتز العالم الإسلامي في الشرق والغرب، يصوّر الشاعر ابن عسّال بقوله: [البسيط]

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسِ حُثُوا مَطِيقُكُمْ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
الثَّوْبُ يُسَلِّمُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى
مَنْ جَاءَهُ الشَّرَّ لَا يَأْمُنْ بَوَاقِهِ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطِ^(٢)

وهي صورة عجيبة ينقلها ذلك الشاعر (إعلام ذلك الوقت) المحبط، حتى كأنه يدعو أهل الأندلس جميعاً بكل طوائفه ودوالياته إلى الهجرة والرحيل إلى بلاد أخرى غير الأندلس؛ لأن الأصل الآن هو الرحيل، أما الدفاع أو مجرد البقاء فهو ضرب من الباطل أو هو (الغلط) بعينه، ولقد سانده وعَضَدَ موقفه هذا أن من الطبيعي إذا ما انسلت حبة من العِقد -مثلاً- فإن الباقي لا حالة مفروطة، فما الحال إذا كان الذي انسَلَ من العِقد هو أو سطه (طليطلة) أو سط بلاد الأندلس، فذاك أمر ليس بالهزل، بل وكيف يعيشون بجوار هؤلاء (الحيّات) إنهم رضوا لهم بالبقاء؟! فما من طريق إلا الفرار وشدّ الرّحال.

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٨١.

(٢) الصندي: وفيات الأعيان ٥/٢٨، والمقربي: نفح الطيب ٤/٣٥٢. والسفط: وعاء يوضع فيه الطيب. المعجم الوسيط ١/٤٣٣.

سابعاً: استدعاء المرابطين:

وعلى إثر سقوط طليطلة، بدأ ألفونسو يُعدّ عذّته، ويتجهز للهجوم على الملك الأخرى، لا سيما إشبيلية وبطليوس وسرقسطة وما حولها، وبدأ ألفونسو يستخدم سياسة الاستهزاء والاستهتار بزعماء الأندلس، وتسمى بذى الملتين، وتطور الأمر أن حاصل إشبيلية على نحو ما ذكرنا، حتى كان ما كان من فكرة الاستنجاد بالمرابطين.

إلا أن ما يدلّك على فساد الحكم في ذلك الوقت هو أن بعضهم رفض فكرة المعتمد، وراسله في أن يعود عن قرار الاستنجاد بالمرابطين، وخوّفوه من أن نزول المرابطين إلى الجزيرة قد يُغريهم بحكمها بأنفسهم، وحقّا إن شهوة الملك هذه تذهب الدين والعقل والمروعة وسائر الصفات الكريمة، فما أكثر الحسرات التي يعانيها القارئ في تاريخ الأندلس وهو يقرأ أخبار هذه الفئة التي سكتتها شهوة الحكم الصوري الضعيف الهش، الذي لا يتماسك أمام العدوّ، ولا يتتوسع إلا على حساب دماء المسلمين، ويرضى بالذلة ودفع الجزية، ويُسكت عن إخوانه المحاصرين والمقطولين، ولا يُبصر أن الدور سيأتي عليه، فلا يرضي حتى بالنجدة تعبّر إليه لاحتمال أن تحوز الملك دونه! أي فساد في الدين هذا، بل في العقل، بل في الفطرة السوية؟!

إلا أن الله ألم المعتمد بهذه العزيمة والإصرار، وقال كلمته الخالدة التي صارت مثلاً: «رَاعَيُ الْجَمَالَ خَيْرٌ مِنْ رَاعَيِ الْخَنَازِيرِ». ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة. وقال لعذّاله ولوّامه: يا قوم؛ إني من أمرى على حالي: حالة يقين، وحالة شكّ، ولا بدّ لي من إحداهما، أما حالة الشكّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكّن أن لا

يفعل، فهذه حالة شكّ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أُسخّطتُ الله تعالى، فإذا كانت حالة الشكّ فيها عارضة، فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يُسخطه؟ فحيثئذ قصر أصحابه عن لومه»^(١).

والحق أن المعتمد -أيضاً- لم يترك من حسنات في سيرته إلا هذه الخطوة، ثم جهاده وصبره في معركة الزلاقة الذي سيأتي بيانه، أما قبل هذا القرار وبعده فهو ليس إلا واحداً من ملوك الطوائف، سكته شهوة السلطان؛ حتى أذهبت عنه كل أثر من عقل أو فضيلة، وسنراه كيف سيقاتل المسلمين المرابطين بما لم يفعل مثله مع النصاري.

ولكن لا نسبق الأحداث؛ فأمام الحالة الإيمانية والجهادية العالية التي كان عليها المعتمد بن عباد تحرك النخوة في قلوب الأمراء الآخرين، فقام المتوكل بن الأفطس صاحب بطلوس وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، فوافقوا المعتمد بن عباد في رأيه، وبذلك اجتمعت الحواضر الكبرى في الأندلس على استدعاء المرابطين، وتقدّمت الوفود تلو الوفود إلى المغرب العربي؛ يقول الحميري: «وكان يوسف بن تاشفين لا يزال يقدّم عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجھشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويُصغي إلى قولهم، وترقّ نفسه لهم»^(٢).

فمن هم المرابطون؟ وما صفاتهم؟ ومن يكون يوسف بن تاشفين؟
هذا حديثنا في الباب القادم إن شاء الله.

* * *

(١) المقرى: نفح الطيب / ٤٣٥٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار / ١، ٢٨٨، ٢٨٩.

الباب السابع
حصر الملايين

في بداية عهد جديد من عهود الأندلس ودورة أخرى من دورات التاريخ بعد هذا الضعف وذاك السقوط، كانت رسالة المعتمد على الله إلى ألفونسو السادس - التي أثارت الرعب والفزع في قلبه بمجرد أن قرأها، فأخذ جيشه وعاد إلى قشتالة - كانت تلك الرسالة هي مهد ذلك العهد وبداية تلك الدورة الجديدة.

ترى من هم المرابطون؟ إنهم أبطال مجاهدون، لا يهابون الموت، أقاموا دولة إسلامية امتلكت كل مقومات القوة، تربعت على المغرب العربي وما تحته.

الفصل الأول

نظرة على تاريخ المغرب

قبيلة جدالة وأصل المراطين:

في أعماق صحراء موريتانيا، وبالتحديد في الجنوب الفاصل، حيث الصحراء الممتدة، والجدب المفتر، والحر الشديد، وحيث أناس لا يُتقنون الزراعة ويعيشون على البداوة.. في هذه المناطق كانت تعيش إحدى القبائل الأمازيغية (البربرية) الكبيرة، والتي تُدعى قبيلة صنهاجة، كانت هذه القبائل محبوبة تعيش في الصحراء بعيداً عن أي عمران؛ حتى إن الرجل منهم ربما يُعمر دهراً طويلاً ويموت دون أن يرى في حياته خبراً، فضلاً عن أن يتذوقه، وظلوا هكذا حتى انتشر فيهم الإسلام في القرن الثالث الهجري.

ومع ابعادهم في أعماق الصحراء في أقصى المغرب فقد استمرا على جهالتهم وبذواتهم فكان لم يعرفوا الإسلام وتعاليمه وكأنه لم يدخل بلادهم، ثم اجتمعوا كلهم حول ملِك واحد، ثم مات ملوكهم وخلفه حفيده، ثم ابن حفيده الذي ثار عليه الصنهاجيون فقتلوه، واختلف أمرهم، وصاروا طوائف عديدة، ثم اجتمعوا بعد فترة أخرى حول ملك آخر كان من لتونة (وهي قبيلة كبيرة من صنهاجة)، واسمه ابن تيفاون اللمنوني.

غير أنه لم يُعمر طويلاً، فقد مات في إحدى المعارك، فخلفه صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي، الذي كان من قبيلة جدالة (وتنطق الجيم مثل الكاف الفارسية أو الجيم القاهرية)، التي هي -أيضاً- قبيلة كبيرة من صنهاجة مثلها مثل لتونة، فصار

يحيى بن إبراهيم رئيس صنهاجة.

ومن أَعْجَبُ ما يرويه المؤرخون عن الجهل التام بتعاليم الإسلام ذلك الذي ساد الناس في هذا الزمن، أن يُخرج «أحدهم ابنه وابنته لرعاية السوام، فتأتي البنت حاملًا من أخيها، فلا يُنكرون ذلك، وكان من دأبهم الإغارة بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً»^(١)، وانتشر بينهم الزنا، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره^(٢). وكان الرجل منهم يتزوج ما يشاء من النساء بلا عدد؛ حتى إن يحيى هذا -رئيسهم- كان متزوجًا من تسع نسوة، فهم لا يعرفون من الإسلام لا صلاة ولا زكاة ولا شرائع، اللهم إلا الشهادتين فحسب^(٣).

لقد كانت هذه الأوضاع أشد وطأةً مما نحن عليه الآن، فلننظر كيف يكون القيام، ولتدبر تلك الخطوات المنظمة التي سار أصحابها وفق منهج رسول الله ﷺ في بناء الدولة وإصلاح أحوال الأمة.

يحيى بن إبراهيم يحمل هم المسلمين:

أراد يحيى الجداي أن يحج، وكان الحج في هذا الزمان يعني -أيضاً- رحلة في طلب العلم، فاستخلف ابنه إبراهيم وسار إلى الشرق، وفي طريق عودته ذهب إلى القิروان، وقابل هناك أبا عمران موسى بن عيسى الفاسي، وهو شيخ المالكية في مدينة القิروان، وكان المذهب المالكي هو المنتشر في بلاد الشمال الإفريقي والمغاربة، كما كان هو المذهب السائد في بلاد الأندلس آنذاك، قابل يحيى بن إبراهيم أبا عمران الفاسي، ذلك العالم الكبير الذي يقول عنه الحميدي: فقيه القิروان، إمام في وقته، دخل الأندلس، وله رحلة إلى المشرق وصل فيها إلى العراق،

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣١ / ٨٢.

(٢) علي الصلاي: دولة المغارطيين، ص ١٥.

(٣) ابن أبي زرع: الأئمـ المطربـ، ص ١٢٤.

وسمع بالقيروان وبمصر وبمكة وكان مكثراً عالماً^(١). كما وصفه الحميري في الروض المعطار بالفقية الإمام المشهور بالعلم والصلاح^(٢).

ونقل ابن فرحون صاحب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (المالكي) أنه كان من أحفظ الناس وأعلمهم؛ جمع حفظ المذهب المالكي إلى حدث النبي ﷺ، ومعرفة معانيه، وكان يقرأ القرآن بالسبعين ويُجوده، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم، أخذ عنه الناس من أقطار المغرب والأندلس، واستجازه مَنْ لم يَلْقَهُ، وله كتاب التعليق على المدونة، كتاب جليل لم يُكمل، وغير ذلك^(٣).

لا نشكُ في أن يحيى سمع من الفقيه أبي عمران ما أدهشه وأيقظه، وعرّفه بأن قومه يعيشون في جاهلية كبرى، ولا نشكُ كذلك في أن يحيى – وهو الزعيم الحريص على أهله وقومه – حمل لهم الكبير لما اكتشفعه من حقيقة الحال، وما هو إلا أن أخبر يحيى شيخه أبي عمران بأنه من قوم لا يعرفون شيئاً عن أمور دينهم، فعامة الناس لا يعرفون إلا الشهادتين، وقليل من الخاصة مَنْ يُصلُّون، وأنَّ لا علم لهم من العلوم ولا مذهب لهم من المذاهب؛ لأنهم منقطعون في الصحراء، لا يذهب إليهم إلا بعض التجار الجهَّال، وأن فيهم أقواماً يرغبون في تَعلُّم العلم، والتتفقه في الدين، لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فاختبره الفقيه حتى تأكد من حقيقة هذه الفاجعة^(٤).

فعرض الفقيه ذلك على طلابه فأبُوا، فأرسله إلى أحد فقهاء بلاد المغرب ويدعى وجاج بن زلو المطبي، وكان من طلابه، وكان قد تَفَقَّهَ وجلس للتدريس، فرحل إليه يحيى الجداли، فأرسل معه الفقيه وجاج واحداً من ألمع وأذكى تلاميذه وهو عبد الله بن ياسين.

(١) الحميدي: جنوة المقتبس، ٣٣٨/١، بختصار.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٤٣٥.

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب، ٣٣٨، ٣٣٧/٢.

(٤) ابن أبي زرع: الأئمَّة المطروب ص ١٢٢ وما بعدها.

الفصل الثاني

عبد الله بن ياسين وتأسيس دعوة المرابطين

شَرِيْ مَنْ هُوَ هَذَا الشَّيْخ؟!

كان عبد الله بن ياسين - الزعيم الأول للمرابطين، وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، (ت ١٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م) - من فقهاء المالكية.

كان من حُذَّاق الطلبة الأذكياء النباء النبلاء، من أهل الدين والفضل، والتقوى والورع والفقه، والأدب والسياسة، مشاركاً في العلوم^(١)، قال الذهبي: «كان عالماً قوي النفس، ذا رأي وتدبير»^(٢). أي ذا شخصية قوية له علم وبصر بالأمور وله قدرة على حسن التصرف. وهذا هو ذا يقبل القيام بهذه المهمة الكبيرة، التي أحجم عنها أقرانه من تلاميذ الفقيه وجاج، وفضل أن يغور في الصحراء.

عبد الله بن ياسين ومهمة الأنبياء:

الْأَجَّهُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِنٍ صَوْبُ الصَّحَرَاءِ الْكَبِيرِيِّ، مُخْتَرُّاً جَنُوبَ الْجَزَائِرِ وشمال موريتانيا حتى وصل إلى الجنوب منها، حيث قبيلة جُدَّالة، وحيث الأرض المجدبة والحر الشديد، وفي أناة شديدة، وبعد ما هاله أمر الناس في ارتکاب المنكرات أمام بعضهم البعض، ولا يُنْكِرُ عليهم مُنْكِرٌ، بدأ يُعَلِّمُ الناس؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكان الناس في جهل مطبق يصفه القاضي عياض

(١) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٢٣، والسلاوي: الاستقصاء، ٢/٧.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣١/٨٠.

رَحْمَةُ اللَّهِ بِقُولِهِ: كَانَ الدِّينُ عِنْدَهُمْ قَلِيلًاً، وَأَكْثُرُهُمْ جَاهِلِيَّة، لَيْسَ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ غَيْرَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَلَا يَعْرِفُ مِنْ وظَائِفِ الْإِسْلَامِ سُوَاهُمَا^(١).

وَلَكِنْ ثَارَ عَلَيْهِ زُعْمَاءُ الْقَوْمِ وَأَصْحَابُ الْمَصَالِحِ، فَهُمْ أَكْبَرُ مُسْتَفِيدِي مَا يَحْدُثُ، فَبِدَأَ النَّاسُ يَجَادِلُونَهُ وَيَصْدُرُونَهُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ يَحْبِي بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْجُذَالِيَّ زَعِيمَ الْقَبْيَلَةِ أَنْ يَحْمِيهِ.

لَمْ يَقْنُطِ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَاسِينَ، وَحَاوَلَ الْمَرَّةَ تِلْوَ الْمَرَّةَ، فَضَرَبَهُ وَأَهَانَهُ، ثُمَّ هَدَّدُوهُ بِالْطَّرَدِ مِنَ الْبَلَادِ أَوِ الْقَتْلِ، إِلَّا أَنْ مَوْقِفَ الشَّيْخِ لَمْ يَزُدْ إِلَّا صَلَابَةً، وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَهُوَ يَدْعُو وَيَدْعُو، حَتَّى طَرَدُوهُ بِالْفَعْلِ، وَلِسَانُ حَالِمِهِ: دُعَكُ عَنَا، اتَّرَكْنَا وَشَانِنَا، ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَعَلَمْهُمْ بِدَلَّا مَنَا، دَعْ هَذِهِ الْبَلَادَ تَعِيشَ كَمَا تَعِيشُ فَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَانِكَ. وَكَأَنِّي أَرَاهُ رَأْيَ الْعَيْنِ وَهُوَ يَقْفَ خَارِجَ حَدُودَ الْقَبْيَلَةِ وَبَعْدَ أَنْ طَرَدَهُ النَّاسُ، تَنَحَّدُرُ دَمْوَعَهُ عَلَى خَدَّهُ، وَيَقُولُ مُشْفَقًا عَلَى قَوْمِهِ: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾

[يس: ٢٦].

يُرِيدُ أَنْ يُعَيِّرَ وَلَا يَسْتَطِعُ، أَنْفُسُ تَتَفَلَّتُ مِنْهُ إِلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالْانْحِرَافِ عَنِ النَّهَجِ الْقَوِيمِ، وَلَا سَبِيلٌ إِلَى تَقْوِيمِهَا، حَرَّ في نَفْسِهِ أَنْ يُولَدَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْبَلَادِ فَلَا يَجِدُونَ مَنْ يُعَلَّمُهُمْ وَيُرِشِّدُهُمْ، فَأَرَادَ أَنْ يَبْقَى، وَلَكِنْ كَيْفَ يَبْقَى؟ أَيْدِلْخُلُ جُدَالَةُ مِنْ جَدِيدٍ؟ إِذَا سِيَقْتُلُونَهُ، فَلَوْ كَانَ فِي مَقْتَلِهِ صَلَاحٌ لَهُمْ فَأَهْلًا بِالْمَوْتِ، لَكِنْ هِيَهَا تُثْمِي هِيَهَا!

عبد الله بن ياسين ونواة دولة المرابطين:

جلَسَ رَحْمَةُ اللَّهِ يُفْكِرُ وَيَمْعَنُ النَّظرَ، فَهَدَاهُ رَبُّهُ يَعْلَمُ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَعَمَّقَ فِي الصَّحْرَاءِ نَاحِيَةً الْجَنْوَبِ بَعِيدًا فِي أَعْمَاقِ الْقَارَةِ الْإِفْرِيقِيَّةِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَزِيرَةِ

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ٦٤/٢.

يُرجَح أنها تقع في منحني نهر (النيل)، على مقربة من مدينة تبكتو، فمن هنا بدأ أمر المُرَابطين^(١)، يصف ابن خلدون هذه الجزيرة بقوله: «يجيب بها النيل^(٢)، ضحاصاً^(٣) في الصيف، يخاض بالأقدام، وغمراً^(٤) في الشتاء يُعبر بالزوارق»^(٥).

صنع عبد الله بن ياسين خيمة بسيطة، وكان من الطبيعي أن يكون في جُدالة بعض الناس - وخاصة من الشباب - الذين تحركت قلوبهم وفطرتهم السوية لهذا الدين، فحين علموا خبر شيخهم في مقربة البعيد هذا، نزلوا إليه من جنوب موريتانيا ولم يتجاوز عددهم في بادئ الأمر سبعة نفر من جدالة، على رأسهم الأمير يحيى بن إبراهيم الجداли^(٦)، الذي ترك قومه ومكانته فيهم ونزل مع الفقيه، وتضييف بعض المصادر أن معهم اثنين من كبار قبيلة لوتنة؛ هم: يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر^(٧)!
وفي خيمته وبصبر وأنة شديدين أخذ الشيخ عبد الله بن ياسين يعلمهم الإسلام كما أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، وكيف أن الإسلام نظام شامل متكملاً، ينظم كل أمور الحياة.

بداية المُرَابطين، وتربيّة على منهج الرسول الكريم ﷺ:

مع كثرة الخيام وازدياد العدد إلى الخمسين، فالمائة، فالمائة وخمسين، فالمائتين،

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣٠٢ / ٣.

(٢) المقصود هنا فرع من نهر النيل، ولا علاقة له بالنيل الذي في مصر والسودان، وقد كان يعرف هذا النهر في ذلك الوقت باسم النيل.

(٣) الضحاص: الماء القليل وقرب الضرع يكون في الغدير وغيره. انظر: الجوهري: الصحاح، باب الحاء فصل الضاد ١ / ٣٨٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة ضحاص ٢ / ٥٢٤، والمujam الوسيط ١ / ٥٣٤.

(٤) الغمر: الماء الكبير الذي يعلو ويغطي الأماكن. انظر: الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الغين ٢ / ٧٧٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة غمر ٥ / ٢٩، والمujam الوسيط ٢ / ٦٦١.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ١٨٣.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٢٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٢٢٧، والسلاوي: الاستقصاء، ٢ / ٨.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ١٨٣.

أصبح من الصعب على الشيخ توصيل علمه إلى الجميع، فقسّمهم إلى مجموعات صغيرة، وجعل على كل منها واحداً من النابغين، وهو منهج رسول الله ﷺ حين كان يجلس ﷺ مع أصحابه في مكة يُعَلِّمُهُمُ الإسلام، وفي بيعة العقبة الثانية حين قسم الاثنين والسبعين رجلاً من أهل المدينة المنورة إلى اثنين عشر قسماً، وجعل على كل قسم (خمسة نفر) منهم نقيراً عليهم، ثم أرسلهم مرّة أخرى إلى المدينة المنورة حتى قامت للمسلمين دولتهم.

وهكذا - أيضاً - كان منهج الشيخ عبد الله بن ياسين، حتى بلغ العدد في سنة (٤٤٠ هـ = ١٤٤٨ م)، بعد أربعة أعوام فقط من بداية دعوته ونزوشه إلى الجزيرة إلى ألف نفس مسلمة، **﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الصف: ١٣].

فبعد أن طرد الرجل وأُوذى في الله وُضُرب وُهُدُد بالقتل، إذا به ينزل بمفرده إلى أعمق الصحراء حتى شهال السنغال وحيداً طريداً شريداً، ثم في زمن لم يتعدّى أربع سنوات يتخرّج من تحت يديه ألف رجل على أفضل ما يكون من فهم الإسلام وفقه الواقع.

يروي ابن أبي زرع فيصف هذه المرحلة من حياة المرابطين بقوله: «فدخلها (الجزيرة) ودخل معها سبعة نفر من كdale، فابتنيا بها رابطة، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر، فتسامع الناس بأخبارهم، وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، فكثر الوارد عليهم والتوابون، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الآخرة، ويرغبهم في ثواب الله تعالى، ويُحدّرهم أليم عذابه، حتى تمكن حبّه منهم في قلوبهم، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ هو يُعلّمهم الكتاب والسنّة والوضوء والصلوة والزكاة، وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيباً، فوعظهم وشوّقهم إلى الجنة، وخوّفهم

من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم الأجر، ثم دعاهم إلى جهاد مَنْ خالفهم من قبائل صنهاجة، وقال لهم: يا معاشر المربطين؛ إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده. فقالوا: أيها الشیخ المبارك؛ مُرِنَا بما شئت تجذنا سامعين مطينين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا. فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وَخَوْفُوهُمْ عقاب الله، وأبلغوهُمْ حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقّ وأفْلَعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ فخلوا سبيلاً لهم، وإن أَبْوَا مِنْ ذَلِكَ وتمادوا في غيهم وجُلُوا في طغيانهم، استعنَّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين. فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشائره، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عَمَّا هُمْ بِسَبِيلِهِ، فلم يكن منهم من يقبل ولا يرجع، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين، فجمع أشياخ القبائل ورؤسائهم وقرأ عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، وَخَوْفُوهُمْ عقاب الله، فأقام يُحَذِّرُهُمْ سبعة أيام وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فساداً، فلَمَّا يئس منهم قال للأصحاب: قد أبلغنا الحجة وأنذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله تعالى»^(١).

معنى المربطين :

أصل كلمة الرباط هي ما تُربط به الدابة، ثم قيل لكل أهل ثغر يدفع عنَّ خلفه رباط، فكان الرباط هو ملازمَةِ الجَهَاد^(٢)، وروى البخاري بسنده عن سهل بن سعيد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٢٥، وما بعدها، والسلاوي: الاستقصاصا ٨/٢.

(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ربط ٣٠٢/٧.

وَمَا عَلَيْهَا...» الحديث^(١).

ولأن المرابطين أو المجاهدين كانوا يتّخذون خياماً على الشغور يحمون فيها ثغور المسلمين، ويُجاهدون في سبيل الله؛ فقد تسمى الشيخ عبد الله بن ياسين ومن معه من كانوا يُراطرون في خيام على نهر السنغال بجماعة المرابطين، وُعرفوا في التاريخ بهذا الاسم.

كما تُطلق عليهم بعض المصادر الملثمين، فيقال: أمير الملثمين، ودولة الملثمين. ويرجع سبب هذه التسمية كما يذكر ابن خلkan في (وفيات الأعيان) إلى أنهم: «قوم يتلثمون ولا يكشفون عن جوهرهم؛ فلذلك سمّوه الملثمين، وذلك سُنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلفٍ، وسبب ذلك على ما قيل: أن (حمير) كانت تتلثم لشدة الحر والبرد، يفعله الخواص منهن، فكثر ذلك حتى صار يفعله عامتُهم. وقيل: كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم، فيطربقون الحي، فيأخذون المال والحرير، فأشار عليهم بعض مشائخهم أن يبعشو النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدها هم في البيوت ملثمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو ظنواهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلواهم، فلزمو اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو»^(٢).

وقال ابن الأثير في سبب اللثام: وقيل كان سبب اللثام لهم أن طائفه من لتونة خرجنوا غائرين على عدوهم، فخالفتهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلاً المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو، أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتأثمن ويُضيقنَ حتى لا يعرفنَ، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدّم

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رياط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥)، والترمذني (١٦٦٤)، وأحمد (٢٢٩٢٣)، والبيهقي (١٧٦٦٥).

(٢) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ١٢٩/٧.

المشيخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء باليوت، فلما أشرف العدو؛ رأى جمّعاً عظيماً فظنّه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريرهم. فيینما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سُنة يُلازموه، فلا يُعرف الشّيخ من الشّاب، فلا يُزيرونـه ليلاً ولا نهاراً، وما قيل في اللثام: [الكامل]

قَوْمٌ هُمْ ذَرَكُ الْعُلَاءِ فِي حَمِيرٍ
وَإِنْ اتَّمُوا صِنْهَاجَةً فَهُمْ هُمْ
لَمَّا حَوَّا إِحْرَازَ كُلَّ فَضِيلَةٍ
غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمُ فَتَلَثَّمُوا^(١)

إنَّ مَنْ يقرأ عن الشّيخ عبد الله بن ياسين والمرابطين الذين كانوا معه قراءة عابرة، يظُنُّ أنهم جماعة من الناس اعتزلوا قومهم ليعبدوا الله بعيداً عن ضوضاء العمران ومشاكل الناس فحسب، ولم يكن الأمر كذلك على الإطلاق؛ بل كان هذا الاعتزال جزءاً من خطة كبيرة، يتم تفديها خطوة بعد خطوة، بفهم سليم وعمق في التفكير، ودقة في التخطيط، وبراعة في التنفيذ.

عندما وصل عدد المرابطين إلى ألف، بعثهم الشّيخ ابن ياسين إلى أقوامهم لينذروهم، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات، واتباع أحكام الدين الصحيح، ففعلوا ما أمروا به، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ومجانبة التقاليد المنافية للدين، فلم يُضعِّف لهم أحد من أقوامهم، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه، واستدعي أشياخ القبائل ووعظهم، وحدّرهم عقاب الله، ونصحهم باتباع أحكامه، فلم يلقَ منهم سوى الإعراض والتحدي، فعندها قرر عبد الله وصحابه

(١) ابن الأثير: الكامل، ٣٣١ / ٨، والبيتان تُسْبَّا لأبي محمد بن حامد الكاتب، انظر: السلاوي: الاستقصا لأنباء دول المغرب الأقصى ٤ / ٢.

إعلان الحرب على أولئك المخالفين^(١).

وبالفعل بدءوا يستعدُّون لغزو البلاد والقبائل المحيطة بهم، وأرسلوا يُنذرون ويعذرون، ثم بدأت غزواتهم بالفعل للقبائل والبلاد، ففتحوا الكثير منها، وأخضعوا القبائل المحيطة بهم، وتسامع بهم فقهاء بعض البلاد الأخرى، فأرسلوا إليهم ليخلصُوهم من حكامهم الطغاة.

يحيى بن عمر اللمتوني والمراطون:

استشهد أمير المرابطين يحيى بن إبراهيم الجداي في إحدى الغزوات المرابطية، والأمير يحيى هو الرجل الذي بدأ به أمر المرابطين، وهو أحد السبعة الذين انزلوا مع الشيخ ابن ياسين في الرباط بعد أن أخرج من أراضي جدالة في أول الأمر، فعرض عبد الله بن ياسين الزعامة على جوهر الجداي ولكن جوهراً زهد فيها وأعرض عنها، فما كان من عبد الله بن ياسين إلا أن اتخذ قراراً حكيماً وبعيد النظر حقاً، إلا وهو صرف الزعامة إلى يحيى بن عمر اللمتوني^(٢)، وقد كان هو وأخوه فقط من قبيلة ملدونة -ثاني القبائل الكبرى في المنطقة- مع السبعة من جدالة، الذين انحازوا إلى الرباط مع الشيخ ابن ياسين في أول الأمر.

وفي الحقيقة نحن لا نستبعد أن يكون الشيخ ابن ياسين قد اتفق مع جوهر الجداي -زعيم جدالة بعد يحيى- على التنازل عن الرئاسة ليحيى بن عمر اللمتوني؛ لما في توليه الرئاسة على قوم غالبيتهم من جدالة^(٣) من معانٍ تربوية تقاوم ترسيبات العصبيات القديمة، كذلك لما في هذا من مصلحة الدعوة وجذب اللمتونيين، فلقد

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس .٣٠٣، ٣٠٢ / ٣ .

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/٣٢٨ .

(٣) سبق أن ذكرنا أن ملدونة وجدالة كانتا القبيلتين القويتين والكبرى في هذه المنطقة من المغرب الأقصى، ويمكن تقرير الصورة لدى القارئ باستحضاره ما كان بين الأوس والخزرج قبل الإسلام.

كان يحيى وأبو بكر من زعماء ملتوة، لكنهما تركا هذه الزعامة لما آمنا به من دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين. ولقد كان لا بدّ من عرض الأمر أولاً على جدالي فتركها لثلاً يظن الجداليين ظناً سيناً بالطريقة التي جعلت ملتوياً زعيماً عليهم؛ إن آثار التعصب القبلي والعائلي لا تزول في سنوات قليلة، وكان لا بدّ من مراعاتها في مثل هذه القرارات الفارقة، ولقد شهد التاريخ ابن ياسين قد نجح بالفعل في هذا القرار الفارق، وصار يحيى بن عمر الل المتوفي زعيماً للمرابطين.

كان هذا في سنة (٤٤٥هـ = ١٠٥٣م)، وبالفعل وبتأثير من هذا القرار وكذلك بازدياد نطاق الجهاد المروطي، الذي تساقطت أمامه الإمارات والقبائل الصغيرة والمتناشرة، اتسعت دولة المرابطين ودخل في سلطانها الآلاف من الناس.

وفي مثال لحسن الختام وبعد قليل من دخول قبيلة ملتوة في جماعة المرابطين يستشهد زعييمهم الشيخ يحيى بن عمر الل المتوفي في إحدى غزواتهم سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م)، ثم يتولى من بعده أخوه الشيخ أبو بكر بن عمر الل المتوفي.

وقد دخل الشيخ أبو بكر بن عمر الل المتوفي بحماسة شديدة مع الشيخ عبد الله بن ياسين، وببدأ أمرهم يقوى وأعدادهم تزداد، وببدأ المرباطون يصلون إلى أماكن أوسع حول المنطقة التي كانوا فيها في شمال السنغال، فبدءوا يتبعون حتى وصلت حدودهم من شمال السنغال إلى جنوب موريتانيا، وأدخلوا معهم جُدَّالة، فأصبحت جُدَّالة ولتوة -وهما القبيلتان الموجودتان في شمال السنغال وجنوب موريتانيا- جماعة واحدة تمثل جماعة المرابطين.

ثم تنتهي قصة المؤسس الكبير والاسم الخالد الشيخ عبد الله بن ياسين باستشهاده في حرب برغواطة التي كانت -كما يقول المؤرخون- على غير ملة الإسلام، في سنة (٤٥١هـ = ١٠٥٩م) بعد أن أمضى أحد عشر عاماً من تربية الرجال على الجهاد.

الفصل الثالث

يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينٍ وَتَأْسِيسُ دُولَةِ الْمَرَابطِينَ

أَبُو بَكْرٍ بْنِ عُمَرَ الْمَتُونِيِّ (٤٨٠هـ = ١٠٨٧م) وَزَعَامَةُ دُولَةِ الْمَرَابطِينَ

بعد الشيخ عبد الله بن ياسين يتولى الشيخ أبو بكر بن عمر المتنوي زعامة جماعة المرابطين، وقد جُمعت له الزعامة الدينية والسياسية، فلقد كان من علماء المرابطين، وفي خلال ستين من زعامته لهذه الجماعة الناشئة يكون قد ظهر في التاريخ ما يُعرف بدولية المرابطين، وأرضها آنذاك شمال السنغال وجنوب موريتانيا، وهي بعد لا تكاد تُرى على خريطة العالم.

وفي سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م) بعد ستين من تولي الشيخ أبي بكر بن عمر المتنوي زعامة المرابطين، يسمع بخلاف قد نشب بين جدالة ولتونة وأصبح فتنة، ومن المؤرخين من يقول: إن الفتنة كانت بين مسوقة ولتونة. فتوجّه أبو بكر بن عمر المتنوي بقسم من المرابطين ليحلّ الخلاف بين المتصارعين هناك، تاركًا زعامة المرابطين لابن عمّه يوسف بن تاشفين.

وبعد أن استطاع أبو بكر بن عمر المتنوي أن يحلّ الخلاف ويطفئ نار الفتنة التي اشتعلت، إذا به يتوجه إلى السودان - وهي المناطق الجنوبيّة للمغرب العربي - ليدعو أهل هذه المناطق إلى الإسلام، ولقد وجد قبائل وثنية لا تعبد الله بالكلية، وجدوها تعبد الأشجار والأصنام وغير ذلك، وجد قبائل لم يصل إليها الإسلام قط.

أقبل الشيخ أبو بكر بن عمر المتنوي بسبعة الآلاف الذين معه يُعلمُونَهُم

الإسلام ويُعرَفون بهم دين الله، وبصیر شدید ظلّ أبو بكر بن عمر اللمتوني يدعوهم إلى الإسلام، فدخل منهم جمّع كثير وقاومه جمّع آخر؛ ذلك أنّ أهل الباطل المستفيدين من وجود الأصنام لا بدّ أن يحافظوا على مصالحهم؛ فالتقى معهم في حروب طويلة.

ظلّ الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني يتوسّع في دعوته، ويتنقل من قبيلة إلى قبيلة، وفي سنة (١٠٧٦هـ=١٤٦٨م) وبعد خمس عشرة سنة كاملة من تركه جنوب موريتانيا وهو زعيم على دولة المغاربة، يعود حَمَلَهُ بعد مهمّة شاقة في سبيل الله عَزَّلَهُ يدعو إلى الله على بصيرة، فيدخل في دين الله مَنْ يدخل، ويحارب مَنْ صَدَّ الناس عن دين الله عَزَّلَهُ حتى يُرْدَهُ إلى الدين، أو يَصُدَّهُ عن صَدِّهِ.

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المغاربة، وأتقاهم وأكثرهم ورعاً وديناً، وحجاً للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحاري القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وقاد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام، وساهموا في بناء دولة المغاربة الفتية، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس، وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المغاربة حضارة متميزة^(١).

يوسف بن تاشفين (٤٠٠-٥٠٠هـ=١٠٠٩-١١٠٦م) ومهام صعبة

يصفه الذهبي في (سير أعلام النبلاء) فيقول: كان ابن تاشفين كثير العفو، مقرّباً للعلماء، وكان أسمر نحيفاً، خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائساً، حازماً، يخطب خليفة العراق^(٢).

(١) الصلاي: دولة المغاربة، ص ٦٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/٢٥٣.

ووصفه ابن الأثير في (الكامل) بقوله: كان حليماً كريماً، دينًا خيراً، يحب أهل العلم والدين، ويحكمهم في بلاده، ويبالغ في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة، ولا نقلبه لها، وظهر ذلك عليه، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام^(١).

ولم تكن دولة المرابطين التي تركها الشيخ أبو بكر بن عمر الممتوني في يد ابن عمه يوسف بن تاشفين قد استقرت بعد؛ لذا أوصى أبو بكر خليفته على الدولة بقتل بنبي يفرن وزناته ومغراوة؛ وهم القوى الثلاث الرئيسة التي تناولت المرابطين^(٢).

نظر يوسف بن تاشفين في شمال موريتانيا (المنطقة التي تعلوه) وفي جنوب المغرب العربي فرأى من حال البربر - الذين يعيشون في هذه المنطقة وبالتحديد في سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م) - أموراً عجيبة؛ منها:

أولاً: قبيلة غمارة:

هي من قبائل البربر وقد وجد فيها - قبل أكثر من مائة عام من ذلك الوقت - رجالاً يدعى حاميم بن من الله يَدْعُى النبوة، والغريب أنه لم يُنكِر نبوة رسول الله ﷺ، بل قال: إنهنبي على دين الإسلام. ثم أخذ يُشرع للناس شرعاً جديداً، وهم يتبعونه في ذلك، ويظنون أن هذا هو الإسلام^(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩٩/٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٣٤، وأبن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص ٢٣٢، والسلاوي: الاستقصا، ٢٢/٢.

(٣) ظهر هذا الرجل - وكان اسمه حاميم - سنة ٣١٣هـ، وأرسل إليه عبد الرحمن الناصر عليه السلام من قتله سنة ٣١٥هـ، ويذكر المؤرخون أن أتباعه عادوا إلى الإسلام بعد قتيله، على أن ابن خلدون يذكر أن قد تباً بعد رجل آخر من غمارة، ولم يذكر تاريخ ذلك، وأنهم حتى أيام ابن خلدون كانوا يمارسون السحر، وقد ذكروا الكثير من بدع حاميم هذا.

وقد فرض حاميم بن من الله على قبيلته صلاتين فقط في اليوم والليلة؛ إحداها في الشروق والأخرى في الغروب، وببدأ يؤلف لهم قرآنًا بالبربرية، ووضع عنهم الوضوء، ووضع عنهم الطهور من الجنابة، كما وضع عنهم فريضة الحج، وحرّم عليهم أكل بيس الطيور، وأحلّ لهم أكل أنثى الخنزير، وأيضاً حرّم أكل السمك حتى يذبح^(١)، وإنه خلط وسفة بين خاصة حين يدعى أنه من المسلمين، كما أنه من العجب أن يتبع الناس على هذا الأمر، ويعتقدون أن هذا هو الإسلام^(٢).

قبيلة برغواطة:

هي قبيلة أخرى من قبائل البربر في تلك المنطقة، على رأسها كان رجل يُدعى صالح بن طريف بن شمعون^(٣)، وقد ادعى ذلك الذي لم يكن بصالح -النبوة، وفرض على الناس خمس صلوات في الصباح وخمسًا في المساء، وفرض عليهم وضوء المسلمين نفسه، بالإضافة إلى غسل السرّة وغسل الخاصرتين، كما حرّم عليهم الزواج من بنات أعمامهم، وجوز لهم الزواج بأكثر من أربعة، ومع كل هذا فقد كان يدعى أنه من المسلمين^(٤).

وكان الأمير على برغواطة أيام ظهور المرابطين أبا حفص عبد الله من أحفاد صالح بن طريف، وقد بدأ المرابطون بحرفهم في أيام الشيخ عبد الله بن ياسين وقد قُتل الشيخ في حربهم، فلما مات أوصى المرابطين باستكمال حربهم وبألا يهنوّا في حربهم أو يحبّنوا، وبمجّرد أن واراه أبو بكر بن عمر عاد لحرب برغواطة، ولم يتركهم الأمير أبو بكر إلا

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٩٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٩٨، ٩٩، وتاريخ ابن خلدون، ٢١٦/٦، والسلامي: الاستقصاء، ٢٤٩، ١٤٨/١.

(٣) ظهر صالح بن طريف هذا في أيام هشام بن عبد الملك وادعى النبوة كأبيه، وشمعون هذا ليس هو جده الأدنى، وإنما يقولون: إن أباه كان يهودياً من حصن برباط الأندلس، وأنه من ولد شمعون بن يعقوب القطناني.

(٤) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٣٢، وتاريخ ابن خلدون، ٢٠٧/٦، والسلامي: الاستقصاء، ١٨/٢.

بعد أن هزمهم شرّ هزيمة.

قبيلة زناتة:

كانت قبيلة زناتة من القبائل السنّية في المنطقة، وقد تفشت فيهم الظلم، فكانوا يسلبون وينهبون مَنْ حولهم، والقوى فيهم يأكل الضعيف، ويحمل حالم قول السلاوي: «استبد أمراء الأطراف وملوك زناتة بالغرب كُلُّ بما في يده، وعدم الوازع، وتصرّفوا في الرعایا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم»^(١).

و كذلك كانت الحروب قد بدأت بين المرابطين والزناتيين من أيام عبد الله بن ياسين، وقد استطاع المرابطون فرض سيطرتهم على الكثير من مناطق زناتة في عهد عبد الله بن ياسين أيام يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر، وظلّ أبو بكر على حرب زناتة وبطونها، وفرض سيطرته على أراضيهم بعد موت الشيخ ابن ياسين، وقد أوصى أبو بكر يوسف باستكمال حربهم، وألأّ يتوقف عن ذلك.

كان من هذا القبيل الكثير والكثير الذي يكاد يكون قد مرق من الدين بالكلية، وقد كانت هناك قبيلة أخرى تعبد الكبش وتتقرّب به إلى رب العالمين، وبالتحديد في جنوب المغرب، تلك البلاد التي فتحها عقبة بن نافع ثم موسى بن نصیر رحمه الله^(٢).

يوسف بن تاشفين وصناعة الدولة

شقَّ ذلك الوضع كثيراً على يوسف بن تاشفين رحمه الله، فأخذ جيشه – الذي كان قد بلغ أربعين ألفاً^(٣) – وانطلق إلى الشمال وحاربه كل القبائل الأخرى في المنطقة، حتى حاربته قبيلة زناتة السنّية، وبمرور الأيام بدأ الناس يتعلّمون منه الإسلام،

(١) السلاوي: الاستقصا، ١٢ / ٢.

(٢) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٩١، نقلًا عن الصلاي: دولة المرابطين، ص ٥٩.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٣٨.

ويدخلون في جماعته المجاهدة^(١).

وبعد رجوع الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني في سنة (٤٦٨هـ = ١٠٧٦م) وبعد خمس عشرة سنة من الدعوة - كما ذكرنا - في جنوب السنغال وأدغال إفريقيا، يرى يوسف بن تاشفين حَلَّهُ اللَّهُ الذي كان قد تركه على شمال السنغال وجنوب موريتانيا فقط في سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م) يراه أميراً على السنغال بكمالها، وموريتانيا بكمالها، والمغرب بكمالها، والجزائر بكمالها، وتونس بكمالها، وعلى جيش يصل إلى مائة ألف فارسٍ غير الرجال، يرفعون راية واحدة ويحملون اسم المرابطين.

وجد أبو بكر بن عمر اللمتوني كذلك أن هناك مدينة قد أُسست على التقوى لم تكن على الأرض مطلقاً قبل أن يغادر، وتلك هي مدينة مرَاكش، والتي أسسها الأمير يوسف بن تاشفين، وكان أول بناء له فيها هو المسجد الذي بناه بالطين والطوب للبن، تماماً كما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يحمل بنفسه الطين مع الناس تشبّهاً - أيضاً - بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢)، وهو الأمير على مائة ألف فارس^(٣).

وكذلك وجد الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني رجلاً قد أسس دولة لم تُعرف في المنطقة منذ سنوات وسنوات، ثم هو بعد ذلك يراه زاهداً متقدّساً ورعاً تقىً، عالماً بيديه، طائعاً لربه، فقام الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بعملٍ لم يحدث إلاً في تاريخ المسلمين فقط، حيث قال ليوسف بن تاشفين: أنت أحق بالحكم مني؛ أنت الأمير، فإذا كنت قد استخلفتُك لأجلٍ حتى أعود، فإنك تستحقُ الآن أن تكون أميراً على هذه البلاد، أنت تستطيع أن تجمع الناس، وتستطيع أن تملك البلاد ونشر الإسلام أكثر من ذلك، أما أنا فقد ذقت حلاوة دخول الناس في الإسلام، فسأعود مرّة

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٢٣٤، ٢٣٤، والسلاوي: الاستقصا، ٢/٢٣.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٣٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/٢٥.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٣٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/٢٧.

أخرى إلى أدغال إفريقيا أدعو إلى الله هناك.

أبو بكر بن عمر اللمتونى رجل الجهاد والدعوة

نزل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتونى رحمه الله مَرَّةً أخرى إلى أدغال إفريقيا يدعو من جديد، فأدخل الإسلام في غينيا بيساو جنوب السنغال، وفي سيراليون، وفي ساحل العاج، وفي مالي، وفي بوركينا فاسو، وفي النيجر، وفي غانا، وفي داهومي، وفي توجو، وفي نيجيريا وكان هذا هو الدخول الثاني للإسلام في نيجيريا؛ حيث دخلها قبل ذلك بقرون، وفي الكاميرون، وفي إفريقيا الوسطى، وفي الجابون.

فكانت أكثر من خمس عشرة دولة إفريقية قد دخلها الإسلام على يد هذا المجاهد البطل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتونى رحمه الله، هذا الرجل الذي كان إذا دعا إلى الجهاد في سبيل الله - كما يذكر ابن كثير في البداية والنهاية - كان يقوم له خمسين ألف مقاتل؛ أي: نصف مليون من المقاتلين الأشداء، غير مَنْ لا يقومون من النساء والأطفال، وغير بقية الشعوب في هذه البلاد من أعداد لا تُحصى قد هداها الله على يديه.

وما من شك أنه كلما صلىَ رجل صلاة في النيجر أو في مالي أو في نيجيريا أو في غانا، وكلما فعل أحد منهم من الخير شيئاً أضيف إلى حسنات الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتونى وَمَنْ معه رحمهم الله.

ويذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، فيقول: «أبو بكر بن عمر أمير الملثمين، كان في أرض فرغانة، اتفق له من الناموس^(١) ما لم يتفق لغيره من الملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدوٍ خمسين ألف مقاتل، كلٌّ يعتقد طاعته، وكان

(١) الناموس: صاحب سرّ الخير، وصاحب سرّ الملك، أو الرجل الذي يطلعه على سرّه وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره، ابن منظور: لسان العرب، مادة نمس ٦/٢٤٣.

يُقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين، ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحة اعتقاده ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلتْه...»^(١). ثم ها هو ذاته وبعد حياة طويلة متجردة لله يَكْ يُسْتَشْهِدُ في إحدى فتوحاته في سنة (٤٨٠هـ = ١٠٨٧م).

دولة المرابطين ويوسف بن تاشفين أمير المسلمين وناصر الدين

كانت بداية حديثنا عن تاريخ المرابطين هي سنة (٤٤٠هـ = ١٠٤٨م) وكانت البداية برجل واحد فقط هو الشيخ عبد الله بن ياسين، والآن بعد ثمان وثلاثين سنة فقط، وتحديداً في سنة (٤٧٨هـ = ١٠٨٥م) يُصبح يوسف بن تاشفين جنكيلاً زعيم هذه الدولة العظيمة، ويُسمّي نفسه: أمير المسلمين وناصر الدين، وحين سُئل لماذا لا تتسمى بأمير المؤمنين؟ أجاب: «حاشا لله أن تسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاءبني العباس؛ لكونهم من تلك السلالة الكريمة؛ لأنهم ملوك الحرمين: مكة، والمدينة، وأنا رجلهم، والقائم بدعوتهم»^(٢).

كان العباسيون في هذه الفترة لا يملكون سوى بغداد فقط، وكان يوسف بن تاشفين يريد للMuslimين أن يكونوا تحت راية واحدة، ولم يُرد جنكيلاً أن يشق عصا الخلافة، ولا أن ينقلب على خليفة المسلمين، وكان يتمنى أن لو استطاع أن يضم قوّته إلى قوّة الخليفة العاسي هناك، ويُصبح رجلاً من رجاله في هذه البلاد؛ فقال مجّعاً مؤملاً: وأنا رجلهم في هذا المكان. وهذا هو الفقه الصحيح، والفهم الشامل للإسلام.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢ / ١٦٥.

(٢) مجهول: الحلل المنشية ص ٢٩. وبعض المصادر - كابن أبي زرع في روض القرطاس ولسان الدين بن الخطيب في أعيال الأعلام والإحاطة - تذكر أنه اخذه هذا اللقب بعد نصر الزلاقة في سنة ٤٧٩هـ.

الفصل الرابع

الأندلس تستعين بالمرابطين



في سنة (٤٧٨هـ = ١٠٨٥م) - كما ذكرنا - كانت قد سقطت طليطلة، ومنذ سقوطها في ذلك التاريخ لم تُعْد إلى المسلمين، ثم حوصلت إشبيلية؛ مع أنها كانت تقع في الجنوب الغربي للأندلس وبعيدة عن مملكة قشتالة النصرانية التي تقع في الشمال، ثم كاد المعتمد على الله بن عباد أن يحدث معه مثلما حدث مع بربُشَّر أو بَلْنِيسيَّة لو لا أنَّ الله عليه بفكرة الاستعانة أو التلويع بالاستعانة بالمرابطين.

ويبدو أن فكرة الاستعانة بالمرابطين كانت فكرة شعبية خرجت أول ما خرجت من العلماء والمشايخ، وتلقاها العامة بالقبول والتأييد، ثم صارت مطلبًا عامًّا، ونداء متكررًا يجد الدعم الشعبي، ويوحى به عند الأمراء، ومن الواضح - أيضًا - أنها بدأت من قبل سقوط طليطلة بأعوام، ولو أن ملوك الطوائف امتلكوا مثل هذا الوعي الشعبي لكانوا قد منعوا سقوط طليطلة، وما لحقهم من الذل قبلها وبعدها.

يُورد النويري أنه قد «بلغ مشايخ قُرْطُبة ما جرى، فاجتمعوا بالفقهاء وقالوا: هذه مدائن الأندلس قد غلب عليها الفرنج، ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمررت الأحوال على ما نرى عادت نصرانيةً كما كانت. ثم ساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم، فقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة، وإعطائهم الجزية إلى الفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم، وابن عباد هو الذي حمل الفرنج على المسلمين، حتى جرى ما جرى وطلب منه ما طلب، وقد دبرنا رأيًا نعرضه عليك. قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب إفريقيا، ونعلمهم أنهم إن

وصلوا إلينا قاسمناهم في أموالنا، وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله تعالى. قال: أخاف أن يُحَرِّبُوا الأندلس كما فعلوا بأفريقيا ويتركوا الفرنج ويبدعوا بكم، والمرابطون أقرب إلينا وأصلح حالاً. قالوا: فكاتب يوسف بن تاشفين ورَغَبَ إليه أن يدخل إلينا بنفسه، أو يرسل إلينا قائداً من قواده. قال: أمّا الآن فقد أشرتم برأي فيه السداد. وقدم المعتمد إلى قُرْطُبة في أثر ذلك، فدخل عليه القاضي وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قُرْطُبة وما اتفقا عليه، فقال المعتمد: نعم ما أشاروا به، وأنتم رسوئي إليه. فامتنع القاضي واستعفا، وإنما أراد أن يُقْوِي عزمه على إرساله، فقال: لا أجد لها غيرك.

فسار القاضي وصحبه أبو بكر ابن القصيرة الكاتب إلى أمير المسلمين، فوجدها بسببة، فأبلغاه الرسالة، وأعلمه بحال المسلمين وما هم عليه من الخوف والجزع من الأذفونش، وأنهم يستنصرون بالله ثم به؛ وأن المعتمد يستنجد به...»^(١).

بل نستطيع أن نقول: إن حركة المشايخ والفقهاء قد وصلت إلى يوسف بن تاشفين من قبل هذا، ففي سنة أربع وسبعين وأربعين، وفد جماعة من أهل الأندلس على يوسف بن تاشفين، وشكوا إليه ما حلّ بهم من أعدائهم، فوعدهم بإمدادهم، وإعانتهم، وصرفهم إلى أوطنهم^(٢).

كما وردت عليه -أيضاً- الرسائل والكتب من أهل «الأندلس، يثثون حالم، ويُحَرِّكونه إلى نصرهم. وفي سنة اثنين بعدها ورد عليه عبد الرحمن بن أسباط من أميرية؛ يشرح حال الأندلس»^(٣).

وكان من كتب إليه -قبل ذلك- المتكفل على الله ابن الأقطس صاحب

(١) التوزيري: نهاية الأرب، ٢٦٦، ٢٦٧، وابن الأثير: الكامل ٨/٤٤٥، ٤٤٦.

(٢) مجهول: الحلل المنشية، ص ٣٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٤/٣٥٠.

بطليوس يستصرخ حين هاجم العدو بلاده، ولما بلغ خطابه هذا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتب إليه يُعدُّه بالجواز، والإمداد على العدو^(١).

إلا أن يوسف بن تاشفين كانت لديه مشكلتان رئستان؛ الأولى: أنه لم يُسيطر على سبتة، وهو الميناء المهم الذي يُعدُّ منفذًا للدخول إلى الأندلس، فقد كان ما يزال يُسيطر عليه البرغواطين وعليهم زعيمهم سُقُوت البرغواطي. والثانية: أنه ما كان يمكنه العبور إلى الأندلس من دون النزول في أراضي غرناطة أو إشبيلية، فهي أقرب المناطق إلى المغرب؛ لذا فما كان أمام ابن تاشفين إلا أن يتضرر رسالة من المعتمد بن عباد لكي يستطيع أن ينزل إلى الأندلس بأمان ولا يعتبر محاربًا مهاجمًا لأراضي إشبيلية أو غرناطة.

إلا أن ابن تاشفين -بعد أن وصلته استغاثات الأندلس- وجَّه جهوده إلى فتح سبتة، ففتحها بالفعل، ثم بدأ يستكثر من الأعداد وتجهيز الإمدادات متظرًا أن تأتيه الرسل من ابن عباد ملك إشبيلية.

ولا شك أن ابن عباد كان يفهم كل هذا ويعلمها؛ ولذلك فإنه لما راسل ابن تاشفين خاطبه خطاباً مَنْ يعرف وعوده السابقة للعامة وللمتوكل ابن الأفطس، «متتجزاً وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية»^(٢).

انتشر في الأندلس الرد الذي كتبه المعتمد إلى ألفونسو والذى يُهدَّد فيه بagliوش المرابطية، وما أظهره من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين، والاستظهار به على العدو، فاستبشر الناس، وفرحوا بذلك، وفُتحت لهم أبواب الآمال، وأما ملوك طوائف الأندلس فلَمَّا تحققاً عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك، اهتمُّوا منه -أي: صاروا مهمومين مما عزم عليه- ومنهم مَنْ كاتبه، ومنهم

(١) مجهول: الحلل المروية، ص ٣٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/١٨٦.

مَنْ كَلَمَهُ مُوَاجِهَةً، وَحَذَرُوهُ عَاقِبَةً ذَلِكَ، وَقَالُوا لَهُ: الْمُلْكُ عَقِيمٌ، وَالسِيفَانُ لَا يُجْتَمِعُانَ فِي غَمْدٍ وَاحِدٍ. فَأَجَابُوهُمْ أَبْنَى عِبَادُ بِكَلْمَتِهِ السَّائِرَةِ مَثَلًاً: رُعِيَ الْجَهَالُ خَيْرٌ مِنْ رُعِيَ الْخَنَازِيرِ. وَمَعْنَاهُ: أَنْ كُونَهُ مَأْكُولًا لِيُوسُفَ بْنَ تَاشْفِينَ أَسِيرًا لَهُ يَرْعِي جَهَالَ فِي الصَّحَارَاءِ، خَيْرٌ مِنْ كُونَهُ مَزَّقًا لِلأَذْفُونَشَ أَسِيرًا لَهُ يَرْعِي خَنَازِيرَ فِي قَشْتَالَةِ. وَقَالَ لَعْذَالُهُ وَلُوَامَهُ: يَا قَوْمٌ؛ إِنِّي مِنْ أَمْرِي عَلَى حَالَتِي: حَالَةُ يَقِينٍ، وَحَالَةُ شُكٍّ، وَلَا بُدَّ لِي مِنْ إِحْدَاهُمَا؛ أَمَا حَالَةُ الشُكِّ فَإِنِّي إِنْ أَسْتَنِدُ إِلَى أَبْنَى تَاشْفِينَ أَوْ إِلَى الأَذْفُونَشَ فَفِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَفِي لِي وَيَبْقَى عَلَى وَفَائِهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ لَا يَفْعَلُ، فَهَذِهِ حَالَةُ الشُكِّ، وَأَمَّا حَالَةُ الْيَقِينِ فَإِنِّي إِنْ أَسْتَنِدُ إِلَى أَبْنَى تَاشْفِينَ فَأَنَا أُرْضِيُ اللَّهَ، وَإِنْ أَسْتَنِدُ إِلَى الأَذْفُونَشَ أُسْخَطُ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِذَا كَانَتْ حَالَةُ الشُكِّ فِيهَا عَارِضَةً، فَلَا يُؤْمِنُ شَيْءٌ أَدْعُ مَا يُرْضِيُ اللَّهُ وَآتَيَ مَا يُسْخَطِهِ. فَحِينَئِذٍ قَصْرُ أَصْحَابِهِ عَنْ لَوْمَهِ^(١).

وَكَانَ مِنْ وَافِقِ أَبْنَى عِبَادٍ عَلَى رَأْيِهِ الْمُتَوَكِّلُ بْنُ الْأَفْطَسِ صَاحِبُ بَطْلِيوسَ، وَكَذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَلْقَيْنِ صَاحِبُ غَرْنَاطَةَ، فَأَصْبَحَتْ (غَرْنَاطَةُ وَإِشْبِيلِيَّةُ وَبَطْلِيوسُ) الْحَوَاضِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ الضَّخِيمَةُ مُتَقَوِّةً عَلَى الْاسْتِعَانَةِ بِالْمُرَابِطِينَ.

وَفَورًا موافقةِ الْأَمْرَاءِ الْثَلَاثَةِ جَعَلُوا مِنْهُمْ سُفَارَةً كَانَتْ مَكْوَنَةً مِنْ قَضَاهُ الْمَدِنِ الْثَلَاثَةِ: قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةِ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَدْهَمَ، وَقَاضِي غَرْنَاطَةِ أَبُو جَعْفَرِ الْقَلِيعِيِّ، وَقَاضِي بَطْلِيوسَ أَبُو إِسْحَاقِ بْنِ مُقَانَا، ثُمَّ أَضَافَ الْمُعْتَمِدَ إِلَيْهِمْ وَزِيرَهُ أَبَا بَكْرِ بْنِ زِيدُونَ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِمْ مَا يَلِيقُ بِهِمْ مِنْ وَظِيفَاتِ يَوسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ، وَتَرْغِيَّبِهِ فِي الْجَهَادِ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي تَلْكَ السُّفَارَةِ مِنْ إِبْرَامِ الْعَقُودِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَعَلَى هَذَا، فَقَدْ كَانَ الْوَفْدُ مَكْوَنًَا مِنْ هُؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ فَقَطَ^(٢).

وَكَانَ يَوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ لَا يَزَالَ يَفْدُ عَلَيْهِ وَفُودًا ثُغُورَ الْأَنْدَلُسِ مُسْتَعْطِفِينَ

(١) المقربي: نفح الطيب، ٣٥٩ / ٤.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٨٨، والمقربي: نفح الطيب، ٣٥٩ / ٤، والسلاوي: الاستقصا، ٣٩ / ٢.

مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويُصغي إلى قولهم، وترق نفسم لهم^(١).

وفي سنة (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) يستقبل يوسف بن تاشفين الوفد الذي جاء من قبل بعض ملوك الطوائف - كما ذكرنا - يطلبون العون والمساعدة في وقف وصد هجمات النصارى عليهم^(٢)، فأعاد العدة للله وجه السفن، وبينما يعبر مضيق جبل طارق وفي وسطه يهيج البحر، وترتفع الأمواج، وتکاد السفن أن تغرق، وكما كان قائداً يقف هنا قدوة وإماماً، خاسعاً ذليلاً، يرفع يديه إلى السماء ويقول:

«اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه علىي حتى لا أجوزه». فتسكن الريح، ويَعْبُرُ هو ومن معه^(٣)، وعند أول وصول له - والوفود تتظره ليستقبلوه استقبال الفاتحين - يسجد لله شكرًا لأن مكنته من العبور، وأن اختاره ليكون جندياً من جنوده يَعْلَمُ ومجاهداً في سبيله^(٤).

يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينَ وَقَدْوَةً كَانَتْ قَدْ افْتَقَدَتْ وَغَيَّبَتْ

يدخل يوسف بن تاشفين أرض الأندلس، ويدخل إلى إسبانيا والناس يستقبلونه استقبال الفاتحين، ثم يقصد إلى بطليوس حيث كانت على مقربة من الزلاقة التي كان قد نزلها ألفونسو السادس، فتوجه إليه أمير المسلمين بجيشه^(٥).

(١) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٨٩.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٤٤٦ / ٨.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٤٥ ، والسلاوي: الاستقصا، ٣٤ / ٢، وانظر رسالته إلى قيم بن باديس، نقلًا عن محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٤٧ / ٣.

(٤) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٠ / ٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤٤٧ / ٨، وابن الأبار: الحلقة السيرة، ٢ / ١٠٠، وابن خلkan: وفيات الأعيان، ١١٦ / ٧، وتاريخ ابن خلدون، ٦ / ١٨٦، والحميري: الروض المعطار، ص ٩٢، والمقربي: نفح الطيب، ٣٦٤ / ٤، والسلاوي: الاستقصا، ٢ / ٤٣، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٤٦.

واجتمع بالمعتمد بن عباد بِإِشْرِيْلِيَّة، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً، وخرج من أهل قُرْطُبَة عسcker كثير، وقصده المطوّعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى ألفونسو فجمع عساcker، وحشد جنوده، وسار من طَلِيْطَلَة^(١).

وببدأ يلحق بركب يوسف بن تاشفين المجاهدون المتطوعة من قُرْطُبة وإشبيلية وبِطَلْيُوس، وهكذا حتى وصل الجيش إلى الزَّلاقَة في شمال البلاد الإسلامية، وعدهم يربو على الثلاثين ألف رجل.

ولا نعجب فهذه هي أهمية القدوة و فعلها في المسلمين، وصورتها كما يجب أن تكون، تحركت مكامن الفطرة الطيبة، وعواطف الأخوة الصادقة، والغيرة على الدين الخاتم، تلك الأمور التي تُوجَد لدى عموم المسلمين بلا استثناء، وتحتاج فقط إلى من يحرّكها من سبّاتها.

三

(١) المقرى: نفح الطيب، ٤/٣٦١.

الفصل الخامس

معركة الزلاقة



تحركَتُ ثلاثون ألفَ رجل بقيادة يوسف بن تاشفين ليصلوا إلى الزلاقة، وهو ذلك المكان الذي دارت فيه موقعة هي من أشهر المواقع الإسلامية في التاريخ.

كان النصارى قد استعدُّوا لقدوم يوسف بن تاشفين فجمعوا عدداً ضخماً من المقاتلين، بلغ في بعض التقديرات أكثر من ثلاثة ألف مقاتل^(١)، على رأسهم ألفونسو السادس بعد أن جاءه العون من الملك النصرانية فرنسا وإيطاليا وغيرها، وقدم ألفونسو السادس يحمل الصليان وصور المسيح، وهو يقول: بهذا الجيش أقاتل الجن والإنس، وأقاتل ملائكة السماء. فهو يعرف تماماً أنها حرب صليبية ضد الإسلام^(٢).

الرسائل والعرب الإعلامية

وكان ألفونسو السادس من قبل هذا أرسل إلى ابن تاشفين رسالة كلها غرور واستعلاء، وهذا نصها:

باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله

(١) تُعبّر المصادر التاريخية عن عدد الروم بالعبارات التي تفيد الكثرة والضخامة، وأمامَنْ ذكروا العدد ف منهم من قال: إنهم كانوا ثمانين ألف فارس، ومائتي ألف راجل. ومنهم من قال: إنهم كانوا ثمانين ألف فارس لا بعين الدروع دون غيرهم. وهذه هي رواية صاحب الحلال الموشية الذي يعود ويقول بعد ذلك: إنه قُتل في هذه الغزوة من النصارى ثلاثة ألف. ومنهم من يقول: إنهم كانوا خمسين ألف مقاتل. ومنهم من يقول: إن أقل تقدير لهم أنهم كانوا أربعين ألف دارع، ولكل دارع أتباع.

(٢) الحميري: الروض المطار، ص ٢٨٩، والمقربي: فتح الطيب، ٤/٣٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/٤٢.

وكلمته، الرسول الفصيح، أما بعد: فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسموهم بحُكم الظهر وجلاء الديار، وأسيبي الذراري وأمثال بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة مناً بوحد منكم، فالآن خَفَّ الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بوحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناناً، وقد حُكِيَ لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تُقدِّم رجلاً وتُؤخِّر أخرى، فلا أدرى أكان الجُنُب أبطأ بك أم التكذيب بما وعد رُبُّك، ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقوح معها، وهو أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشوانى والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقتلوك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنية كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مثَّلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الم��ين والحكم على البرئين، والله تعالى يُوفِّق للسعادة ويُسْهِل الإرادة، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، إن شاء الله تعالى^(١).

فلما تمَّ عبور جيش المراطين إلى الأندلس أرسل يوسف بن تاشفين برسالة إلى ألفونسو السادس يقول له فيها: بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا،

(١) ذكرت بعض المصادر أن هذه الرسالة إنما أرسلها ألفونسو الثامن إلى يعقوب المنصور الموسى بعد هذا بحوالي قرن من الزمان، إلا أن التحقيق يؤدي إلى أنها مرسالة من ألفونسو السادس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. انظر: ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٣٧، وابن خلkan: وفيات الأعيان ٧/٦، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥/١٩٨.

ومنيت أن تكون لك سفن تعبّر بها البحر إلينا، فقد عربنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» [الرعد: ١٤]. وخياره يوسف بن تاشفين بين الإسلام والجزية وال الحرب^(١).

تَسْلِمُ الْفُونُسُو السادس الرسالة وما أن قرأها حتى استشاط غضباً و«جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه وكفره، وقال: ألم يمثل هذه المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟!» ثم أرسل ليوسف بن تاشفين متوعداً ومهدداً: فإنني اخترت الحرب، فما رددك على ذلك؟ وعلى الفور أخذ يوسف بن تاشفين الرسالة، وقلبها وكتب على ظهرها: الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، والسلام على من آتى العهد. فلما وقف ألفونسو على هذا الجواب ارتعى له، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به^(٢).

قال صاحب (الروض المعطار): «ولما تحقق ابن فرذلند^(٣) -ألفونسو السادس- جواز يوسف استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبائهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يُحصى عدده، وجعل يُصغي إلى أنباء المسلمين متغِيظاً على ابن عباد، حانقاً ذلك عليه، متوعداً له، وجوايسיס كل فريق تتردّد بين الجميع، وبعث -ألفونسو السادس- إلى ابن عباد أن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاد بعيدة وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيها بقى، ولا أكلفكم تبعاً، أنا أمضى إليه وألقاكم في بلادكم؛ رفقاً بكم وتوفيراً عليكم. وقال لأهل وَدَه ووزرائه: إني رأيت

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٤٦، والحميري: الروض المعطار، ص ٢٩٠، والحلل الموشية، ص ٥٣، والمقرى: نفح الطيب، ٤/٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٨/٤٤٦، ومجهول: الحلل الموشية، ص ٥٣.

(٣) فرذلند: هو التعريب لاسم فرناندو، أول من بدأ بحرب الاسترداد وأخذ الجزية من المسلمين، وابنه هو ألفونسو السادس، والذي يعرب اسمه إلى: الفُشن ألفونش وأذفونش.

إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني^(١) بين جدرها ربما كانت الدائرة علىَّ؛ فيكتسحون البلاد، ويحصدون مَنْ فيها في غداة واحدة، لكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت علىَّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الطرق وراءهم إلاَّ بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صونٌ لبلادي، وجبرٌ لمكاري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفتُ أنا أن يكون منهم فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها^(٢).

وفي محاولة ماكرة الخديعة المسلمين أرسل ألفونسو السادس يجذُّد يوم المعركة، فأرسل أن: غداً الجمعة، ولا تُحبُّ مقاتلتكم فيه؛ لأنَّه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثيرون في محلتنا، ونحن نفتقر إليهم، وبعده الأحد عيدنا، فلنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين^(٣).

سَلَّمَ يوسف بن تاشفين الرسالة، وكاد ينخدع بها لأنَّه كان يعتقد أنَّ الملوك لا تغدر^(٤)، ولقد كانت هذه أولى جولاتِه مع النصارى، إلاَّ أنَّ المعتمد بن عباد فهم الخديعة ونبَّه يوسف بن تاشفين إلى ما قد يكون فيها من الغدر^(٥).

تجهيز الجيش ورؤيا ابن رميلة

بحذر تامٌ لم يلتفت يوسف بن تاشفين إلى ما جاء في رسالة ألفونسو السادس، وقام بتبئنة الجيش وتجهيزه يوم الخميس، ووضعه على أتمِ الاستعداد. إنها لحظة لم يتذوَّقها الأندلسيون منذ سنوات وسنوات في أرض الأندلس،

(١) ناجزه: نازله وقاتلته. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نجز / ٥، ٤١٣، والمعجم الوسيط / ٢، ٩٠٣.

(٢) الحميري: الروض المطار، ص ٢٩٨، وما بعدها.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٤٦، والحلل الموسية، ص ٥٧.

(٤) عبد الواحد المراكشي: الموجب ١٩٤، ١٩٥.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٤٧.

يقوم جيش مسلم ويستعد لحرب النصارى من بعد سنوات الذل والهزيمة والجزية، ولا شك أنها لحظات تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق، كاشتياقها إلى الشهادة، ويأمر يوسف بن تاشفين بقراءة سورة الأنفال، ويأمر الخطباء بتحفيز الناس على الجهاد، ويأمرُ هو بنفسه عَزَّوَجَلَّ على الفصائل ينادي ويقول: طوبى لمن أحرز الشهادة، ومنْ بقي فله الأجر والغنية. وجاء في الروض المعطار: ووعظ يوسف وابن عباد أصحابها، وقام الفقهاء والعلماء يعظون الناس ويحضرونهم على الصبر، ويُحذّرُونهم الفرار^(١).

وفي ليلة الجمعة كان ينام مع الجيش شيخ كبير من شيوخ المالكية في قُرطبة، وهو الفقيه الناسك أبو العباس أحد ابن رُميَّة القرطبي، والذي قال عنه ابن بشكوال في الصلة: كان معتنِّا بالعلم، وصحبة الشيوخ، وله شعر حسن في الزهد، وكان كثير الصدقة و فعل المعرفة، وكان أبو العباس هذا من أهل العلم والورع والفضل والدين^(٢).

لم تكن مهمَّةُ الشيخ يومها هي مجرد الجلوس في المسجد، أو إلقاء الدروس، أو تعليم القرآن فقط، فقد كان هذا الشيخ يفَّقهُ أمور دينه، ويعلم أن هذا الجهاد هو ذرورة سنام هذا الدين، وفي هذه الليلة يرى ابن رُميَّة هذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول له: «يَا ابْنَ رُميَّةَ، إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وَإِنَّكَ مُلَاقِنَا».

يستيقظ ابن رُميَّة من نومه وهو الذي يعلم أن رؤية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام حقٌّ؛ لأن الشيطان لا يتمثَّل به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ففي البخاري بسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَحَبَّلُ إِلَيْكُمْ، وَرَوْيَا الْمُؤْمِنُونَ جُزْءًا مِّنْ

(١) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٩٠.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ١١٨ / ١٤٤.

سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزُءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»^(١).

يقوم الشيخ فرحاً مسروراً، لا يستطيع أن يملك نفسه، فقد بشّره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيموت في سبيل الله، فالحسنَين أمام عينيه، نصر للمؤمنين وشهادة تناهه، فيما لها من فرحة! وياله من أجر!

وعلى الفور يذهب ابن رُميَّة حَمَّادٌ في جنح الليل فُيُوقظ قادة المسلمين حتى أيقظ المعتمد بن عباد، وقصّ عليهم رؤيا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شك أن هذه الرؤيا قد هزّت ابن عباد فأرسل بخبرها إلى يوسف بن تاشفين وكلّ قوّاد الجيش، وقاموا من شدّة فرحهم وفي منتصف الليل وأيقظوا الجيش كله على صوت: رأى ابن رُميَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: «إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وَإِنَّكَ مُلَاقِيَنَا»^(٢).

مخابرات ابن عباد تراقب الموقع:

وكان المعتمد بن عباد يراقب -فيما يراقب- معسكر المرابطين أيضًا «خوفاً عليهم من مكائد ابن فرذند؛ إذ هم غرباء لا عِلْمَ لهم بالبلاد، وجعل يتولّ ذلك بنفسه؛ حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين -المرابطين- كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه أو لقضاء حاجته فيجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بال محلّة بعد ترتيب الكراديس -وهي كتائب الخيل- من خيل على أفواه طرق محلاتهم، فلا يكاد الخارج منهم عن المحلّة يُخطئ ذلك من لقاء ابن عباد لكثره تطاوافه عليهم»^(٣).

ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنها أشرفوا على محلّة ألغونسو وسمعاً ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحقت بقية الطلائع محققين

(١) البخاري: كتاب التعبير، باب من رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام، (٦٥٩٣) واللفظ له، ومسلم: كتاب الرؤيا، باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى» (٢٢٦٦).

(٢) الحميري: الروض المغفار، ص ٢٩٠، والمقربي: فتح الطيب، ٣٦٥ / ٤، والسلامي: الاستقصاء، ٤٥ / ٢.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤٧، والحميري: الروض المغفار، ص ٢٩٠.

بتحرُّك ألفونسو، ثم جاءت الجواسيس من داخل معسكر ألفونسو يقولون: «استرقنا السمع الساعة، فسمينا ابن فرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسرع هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد، غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، وإن انكشف لكم هان عليكم هؤلاء الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة». وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر ابن القصيرة إلى يوسف يُعرّفه بإقبال ألفونسو ويستحثُّ نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي الأرض طيًّا حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرّفه جليمة الأمر^(١).

الجيش الإسلامي وخطبة الإعداد والهجوم

بعد ترتيب الجيش وصلاة فجر يوم الجمعة الموافق ١٢ من شهر رجب ٤٧٩هـ = ٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦م، نقض ألفونسو السادس عهده، وبدأ بالهجوم في ذلك اليوم؛ إذ الغدر والخيانة ومخالفة العهود هو الأصل عندهم.

ولقد صُدم الجيش الإسلامي، وفوجئ بالفعل -كما ستؤكّد الرسالة التي كتبها يوسف بن تاشفين نفسه فيما بعد- وانحاطَ عليه جيش النصارى بكتائب «تملاً الآفاق»، وبدت الصدمة الأولى صدمة هائلة حقًا!

كان الجيش الإسلامي قد انقسم إلى ثلاث فرق رئيسة:

الأولى: فرقة الأندلسيين وتضم الجيش الأندلسي وعلى رأسه المعتمد بن عباد ومعه ملوك الأندلس؛ ابن صمادح صاحب المريّة، وعبد الله بن بلقين بن حبوس صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الشغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس.. وغيرهم، وقد أمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد^(٢)، كان المعتمد في

(١) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٩٠، والمقربي: نفح الطيب، ٢/٣٦٥، والسلامي: الاستقصاء، ٢/٤٥.

(٢) ابن أبي زرع: روض الترطاس، ص ١٤٦، والسلامي: الاستقصاء، ٢/٤٤، ٤٥.

القلب والموكل بن الأفطس في ميمنتها، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس الآخرين في مؤخرة هذه الفرقة^(١)، وقد اختار المعتمد أن يكون في المقدمة وأول من يصادم الجيش الصليبي^(٢).

يريد بذلك أن يغسل عار السنين السابقة وما رأه من ذل وهوان، أو لعله كان يريد أن يحوز القدر الأعلى من النصر إن تم؛ فيُنسب الأمر له، والله أعلم بالنوايا.

وقيل في روایات أخرى بأن يوسف بن تاشفين خشي ألا يثبت المعتمد بن عباد، وألا يبذل جهده في الحرب، فكان وضعه في المقدمة بطلب من يوسف بن تاشفين^(٣).

الثانية: فرقة من جيش المرابطين وعلى رأسهم البطل المراطي الكبير داود ابن عائشة، وكانت هذه الفرقة خلف الجيش الأندلسي.

الثالثة: جيش المرابطين الرئيسي بقيادة يوسف بن تاشفين يختفي خلف أحد التلال على مسافة من الجيش، بحيث لا يرى هذا الجيش، فيُظنُّ أن كل جيش المسلمين هو الفرقتان الأولى: جيش الأندلسيين وجيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة^(٤).

وقد أراد يوسف بن تاشفين من وراء ذلك أن تخدم الموقعة فتنبهك قوى الطرفين حتى لا يستطيعا القتال، وكما يحدث في سباق الماراثون فيقوم هو ويتدخل بجيشه ليعدل الكفة لصالح صف المسلمين^(٥).

(١) مجھول: الحلل الموشية ص ٥٩.

(٢) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٧/١١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ٨/٤٤٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ٨/٤٤٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٤٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ٧/٢٤٢، ٢٤٣.

(٥) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٧/١١٨.

لم تكن خطة يوسف بن تاشفين عليه السلام جديدة في حروب المسلمين؛ فقد كانت هي الخطة نفسها التي استعملها خالد بن الوليد رض في موقعة الوجلة في فتوح فارس، وهي -أيضاً- الخطة نفسها التي استعملها النعمان بن مقرن رض في موقعة نهاوند في فتوح فارس أيضاً، فكان عليه السلام رجلاً يقرأ التاريخ ويعرف رجالاته ويعتبر

.٣٦٠

الزلقة و Miracle و معركة الوجود الإسلامي في الأندلس

لما كان يوم الجمعة الموافق ١٢ من شهر رجب ٤٧٩ هـ = ٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦ م هجم ألفونسو السادس بجيشه الضخم على الجيش الأول للمسلمين (الجيش الأندلسي)، مال ألفونسو السادس على المعتمد بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فاستحر القتل فيهم، وصبر ابن عباد -جيشه الأندلسي- صبراً لم يُعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعَصَّته الحرب، واشتد البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون، وساعَت ظنون أصحابه، وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله، وأثخنَ ابن عباد جراحات وضربَ على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه، وجرحت يمنى يديه، وطُعن في أحد جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس، كلها هلك واحد قدّم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت يضرب يميناً وشمالاً، وتذَكَّر في تلك الحال ابنَه صغيراً كان مغرماً به، كان تركه بإشبيلية علياً اسمه المعلى وكنيته أبو هاشم، فقال: [المتقارب]

أبا هاشِمِ هَشَمَتْنِي الشَّفَارُ
فَلِلَّهِ صَرِبِي لِذَاكَ الْأُوَارُ^(١)
ذَكَرْتُ شَخِصَكَ تَحْتَ الْعَجَاجِ^(٢)
فَلَمْ يُنْتَزِي ذِكْرُه لِلْفِرَارِ

(١) الأوَار: شَدَّةُ الشَّيءِ وقوته، ابن منظور: لسان العرب، مادة أوَار / ٤ .٣٥

(٢) العجاج: الغبار، الجوهري: الصحاح، باب الجيم فصل العين / ١ ، ٣٢٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة عجَاج / ٢ .٣١٨

ثم ما هو إلا أن انضم إليه القسم الأول من جيش المرابطين وقائده داود بن عائشة، وكان بطلاً شهماً ففَسَّ بمجيئه عن ابن عباد^(١).

إلا أن ألفونسو كان قد قسَّم هو الآخر جيشه إلى قسمين، فانهال بالقسم الآخر على جيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة بأعداد ضخمة، «فاقتتلوا قتالاً عظيماً، وصبر المرابطون صبراً جيلاً، ودار لهم اللعين بكثير جنوده حتى كاد يستأصلهم، وكانت بينهم مضاربة تفللت فيها السيوف، وتكسرت الرماح، وساررت الفرقة الثانية من عسكر اللعين مع البرهانس وابن رذمير نحو ملحة (العله يقصد محلة) ابن عباد، فداروا بها، واستمرَّت الهزيمة على رؤساء الأندلس إلى جهة بطليوس، ولم يثبت منهم غير ابن عباد وجيشه، فإنهما ثبتوا في ناحية يُقاتلون لم ينهزموا، وقاتلوا قتالاً شديداً، وصبروا صبر الكرام لحرب اللثام...»^(٢). وبذا المعسكر الإسلامي مرة أخرى في حالة الهزيمة.

وهنا بدأ تحرك الجيش الم ABI المركبي الرئيسي الذي يقوده ابن تاشفين، وذلك بعد أن كانت قد أُنْهكت قوى الطرفين من المسلمين والنصارى، وبعد طول صبر ينزل يوسف بن تاشفين بالقسم الرئيسي من جيش المرابطين الذين كانوا معه، وهم في كامل قوتهم، فيحاصرون الجيش النصارى.

قسَّم يوسف بن تاشفين الجيش الذي كان معه إلى قسمين: فالقسم الأول وقائده سير ابن أبي بكر - في قبائل المغرب وزنانة والمصادمة وغماره وسائر قبائل البربر - يساعد جيش المسلمين الذي يقوده داود ابن عائشة والمعتمد بن عباد، والقسم الثاني بقيادته هو ومعه باقي قبائل صنهاجة والمرابطين يلتَّفُ خلف جيش النصارى، ويقصد

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/٤٧٧، وعبد الواحد المراكشي: المعجب ص ١٩٤، ١٩٥، والحميري: الروض المعطار، ص ٢٩١، والمقربي: نفح الطيب، ٤/٣٦٦، والسلامي: الاستقصا، ٢/٤٦.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤٧.

مباشرة إلى معسكرهم، «فأضر منها ناراً وأحرقها، وقتل منْ كان بها من الأبطال والرجال والفرسان، الذين تركهم ألفونسو بها يحرسونها ويحمونها، وفرّ الباقيون منهزمين نحو ألفونسو، فأقبلت عليهم خيله من محلته فارّين، وأمير المسلمين يوسف في أثرهم بساقته وطبلوه وبنوده، وجيوش المرابطين بين يديه يحكمون في الكفرة سيفهم، ويروونها من دمائهم، فقال ألفونسو السادس: ما هذا؟! فأخبر الخبر بحرق محلته ونهبها، وقتل حماتها، وسبى حريمها، فرد وجهه إلى قتاله، وصمم أمير المسلمين نحوه، فانتشت المخوب بينهما، فكانت بينهما حروب عظيمة لم يسمع قط بمثلها...»^(١).

وحين علم النصارى أن المسلمين من ورائهم، وأنهم محاصرون «ارتاعت قلوبهم، وتجلجلت أفئتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم، وأتاهم الصريح بهلاك أموالهم، وأخيتهم، فسقط في أيديهم، فشنوا أعنّتهم، ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمّت الفتان، واحتلّت الملتان، واشتدت الكّرات، وعظمت الهجمات، والخروب تدور على اللعين، وتطحن رءوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيлем عن يمينه وشماله، وتداعي الأجناد والخشم والعيid للنزال، والترجّل عن ظهور الخيل، ودخول المعركة، فأمدّ الله المسلمين بنصره، وقدف الرعب في قلوب المشركيـن»^(٢).

وهكذا حاصر جيش النصارى بين الجيش الأندلسي من الأمام، وجيـش المرابطين من الخلف، وبالفعل بدأ الضطراب والتراجع في صفوف النصارى، وقد التفّ جنود النصارى حول ألفونسو السادس يحمونه، ثم حدثت خلخلة عظيمة في جيـشـهم.

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/٤٧٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤٧ وما بعدها.

(٢) مجهول: الحلـلـ الموشـيةـ ص ٥٩.

يقول الحميري: «فبادر إليه يوسف، وصدمهم بجمعه، فردهم إلى مركزهم، وانتظم به شمل ابن عباد، ووجد ريح الظفر، وتبasher بالنصر، ثم صدقوا جميعاً الحملة، فتز لزلت الأرض بحوافر خيولهم، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبراً عظيماً، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف، وحمل معه حملة نزل معها النصر، وتراجع المهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين فصدقوا الحملة»^(١).

تزداد شراسة الموقعة حتى قبيل المغرب، ثم ومن بعيد يُشير يوسف بن تاشفين إلى أربعة آلاف فارسٍ من رجال السودان المهرة، وهم حرسه الخاص فيتجلون عن خيولهم، ليقتسموا -فيما يشبه المهمة الخاصة- قلب جيش النصارى وينفذون إلى ملتهم، وبالفعل نفذ أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمدة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة، وأن يطعنه بخنجره في فخذيه طعنة نافذة^(٢).

يصف صاحب الحلل الموشية هذه اللحظات من المعركة بقوله: «واشتدت الكَّرات، وعظمت الهجمات، والحروب تدور على اللعين، وتطحن رؤوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيالهم عن يمينه وشماله، وتداعي الأجناد والحشم والعبيد للنزال، والتراجُل عن ظهور الخيل، ودخول المعرك فأمَدَ الله المسلمين بنصره... وفي أثناء ذلك، تلاقى بالطاغية أذفنش غلام أسود بيده خنجر يدعوه البرابر بالأفطس، قطع جرز درعه، وطعنه في فخذيه في مدار سرجه، فكان أذفنش يقول بعد ذلك: التحق بي غلام أسود فضربني في الفخذ بمنجل أراق دمي. فتخيل له الأفطس أنه منجل لكونه رآه معيجاً»^(٣).

(١) الحميري: الروض المعطار ص ٢٩٠ وما بعدها.

(٢) ابن خلkan في وفيات الأعيان، ١١٨/٧، والسلاوي: الاستقصا، ٤٧/٢، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣٢٥/٥.

(٣) مجھول: الحلل الموشية ص ٦١.

ويقول لسان الدين بن الخطيب: «ولم تزل الكرةات بين المحلات تعاقب، والهجمات سجالاً تداول، وال الحرب تدور، وأمرَ الأمير يوسف العبيد فترجّلوا عن الخيل في نحو ألف، ودخلوا المعرك بالزارق (الرماح القصيرة الخفيفة) لعجز السلاح عن الخيل الدارعة، فأثرت فيها بالطعن، وجعلت ترمي بفرسانها، ولصق منهم بالأذفونش عبد قبض على عنانه، وضربه بخنجر...»^(١). وبقي أثر الطعنة مع ألفونسو بقية عمره، فكان يخرج منها^(٢).

ثم لجأ ألفونسو إلى تل يحتمي به كان قريباً من معسكره ومعه نحو الخمسين إلة فارس كلهم مكلوم، وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم... وما جاء الليل تسلل وهو لا يلوى على شيء، وأصحابه يتسلطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة^(٣)، وبعض الروايات تقول بأن الذين نجوا أقل من الثلاثين^(٤). وغنم المسلمين كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك^(٥). واستشهد من المسلمين فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل^(٦).

وبذلك كانت الزلاقة دون مبالغة كاليموك والقادسية.

كان رأي المعتمد بن عباد أن يواصل الجيش مطاردته لألفونسو المنحسب حتى يقضي عليه نهائياً، ولكن ابن تاشفين كان يرى أن الضغط عليهم وإرهاقهم يجعلهم يستسلمون في القتال، فيقاتلون قتال من لا يرى حياته إلا بموت خصمها، وفي هذا ضرر على المسلمين، لا سيما وأن مطاردة ألفونسو وهو على هذا الحال قد تُوقع في طريقه بعض المسلمين المنسحبين، الذين يتواصل عودتهم إلى الجيش مع انقلاب كفة

(١) ابن الخطيب: أعيال الأعلام، القسم الثالث، ص ٢٤٣.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٩٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٠ وما بعدها.

(٤) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ١١٧/٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/٤٧٧، وابن خلkan: وفيات الأعيان ٧/١١٧.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ١٤٨.

المعركة، وهم بالنسبة له أقل قوة وهو أقدر على الإيقاع بهم، فإن انتظروا هذا اليوم فتكمال عدد المسلمين برجوع الذين انسحبوا، هان عليهم أن يقاتلوه في اليوم الثاني، وردَّ عليه ابن عباد بقوله: إن فرَّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه. إلا أن يوسف أصرَّ على الامتناع وقال: الكلب إذا أرهق لا بدَّ أن يعُضَّ^(١).

ونحن إذ نقرأ التاريخ الآن نرى أن ابن عباد كان أصوب رأيَا من ابن تاشفين في هذا الأمر، فلقد استمرَّ الفونسو يقاتل المسلمين بعدها عشرين سنة ولم يضعف ولم يتوانَّ، ويُتوقع أن لو كان قُضيَّ عليه في يوم الزلاقة لكننا نكتب الآن تاريخاً آخر، ولكان المسلمون استطاعوا أن يستعيدوا طليطلة مرة أخرى.. إلَّا أنه لا يسعنا أن نعرف بأننا نقول الرأي الآن بعدما انتهت الأحداث وانقضت المعارك، وما ندرى لو كنا في ذلك الموقف ماذا قد يكون الاختيار.

وما أن تنتهي أحداث الزلاقة حتى يصل إلى يوسف بن تاشفين نبأ مُفزع من بلاده بالغرب، إنه يحمل مصيبة قد حلَّت به وبداره، فابنه الأكبر قد مات، فيتعجل هذا برجوع ابن تاشفين إلى المغرب^(٢).

ابن تاشفين يروي أحداث الزلاقة:

لقد تم العثور على وثيقة مهمة عن المعركة، وثيقة كتبها بطل الزلاقة نفسه، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقد نقلها الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (دولة الإسلام في الأندلس)^(٣)، ووصفها بقول: «رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تيم بن المعز بن باديس بالهديّة؛ يصف فيها

(١) الحميري: الروض المطار، ص ٢٩٠ وما بعدها، ومجهول: الحلل الموشية، ص ٥٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٥٢، والحلل الموشية، ص ٦٦، والحميري: الروض المطار، ص ٢٩٢، والقرني: فتح الطيب، ٤ / ٣٧٠، والسلاماوي: الاستقصاء، ٤٩ / ٢.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣ / ٤٤٦. (متقدمة من المخطوط رقم ٤٤٨ الغزيري بمكتبة الإسکوريال 49R. Fol. 53V).

بلاد الغرب، وجوازه للأندلس للجهاد بها، وهزيمته للأذفنش أمير النصارى في رجب سنة تسع وسبعين وأربعين. وفيها مما يهمنا الآن في هذه الوثيقة، هو شرح أمير المسلمين لأدوار المعركة، يقول:

«فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه (الفونسو السادس)، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفاً لها، فسمع بنا، وقصد قصتنا، وورد وردنا، واحتلّ بفنائها متظراً لنا، فبعثنا إليه نحضره على الإسلام، ودخوله في ملة محمد، أو ضرب الجزية عليه، وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى وبين لنا في كتابه؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فأبى وتمرد، وكفر ونخر، وعمل على الإقبال علينا، وحثّ في الورود علينا، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ، فلما كان بعد ذلك، برزنا عليه أيامًا، فلم يجينا، فبقينا وبقوا، ونحن نخرج الطائع إليه، ونتابع الوثوب عليه، وبيننا على لقائه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعين.

فلما كان يوم الجمعة ثانية، ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق؛ وتقلّبت تقلّب الحتوف للأحداق؛ قد استلموا الدروع للكفاح، وربطوا في سوقهم الألواح، ويطوّنهم ملأى من الخمر، يقدّرون أن الدائرة علينا تدور، ونحن في أحياناً صيحة اليوم المذكور، كلّ مِنَا سَاهِ، وجيئنا لاه، فقصد أشدّهم شوكه، وأصلبّهم عوداً، وأنجدهم عديداً، محلّة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله - وفقه الله - عماد رؤساء الأندلس وقطبهم، لا يقدرون عسكراً إلا عسكره، ولا رجالاً إلا رجاله، ولا عديداً إلا عديده، وداود من أصحابنا منا إلى إزائه، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً، كهبوط السيل، بسوابق الخيل، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات، الذين كانوا يدخلون من قبله الأموال والضياع، استكَّت آذانهم^(١)، واضطربت أضلاعهم،

(١) استكَّت آذانهم: أي صُمِّت. ابن منظور: لسان العرب، مادة سلك ١٠ / ٤٣٩.

ودهشت أيديهم، وزلزلت أقدامهم، وطارت قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فرّوا يطلبون معللاً يعصّمهم، ولا عاصم إلا الله، ولا هارباً منه إلا إليه، فلحقوا من بطليوس بالكرامات، لما عاينوا من الأمور المضلالات، وأسلموه (المعتمد) -أيده الله- وحده في طرف الأخبية، مع عدد كثير من الرجال والرماء، قد استسلموا للقضاء، فوثبوا (الروم) عليه وثبت الأسد على الفرائس، يعظمون الكنایس، فحبسهم حيناً وحده مع من إليه من ذكرناه، وبسطوا منهم الأرض، ولم يبق من الكل إلا البعض، ولجأ في الأخبية بعد أن عاين المنية، وتحلّصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته، بعد أن وقف وقفه بطل مثله، لا أحد يردد عليه، ولا فارس من فرسانه وعيده يرجع إليه، لا يروعه أحد منهم فيهم، ولا يهابهم فيسام.

ثم قَصَدَتْ كَتِيَّةُ (كتيبة ألفونسو) سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم، عسكر داود وأخيته، فجالوا فيها جولاناً، وقتلوا منخلق ألواناً، واستشهد الكل بحمد الله، وصاروا إلى رضوان الله، ونحن في ذلك كله غافلون، حتى ورد علينا وارد، وقصد إلينا قاصد، فخرجنـا من رواء الشعب، كقطع اللهب، بجميع من معنا، على الخيل المسومة العراب، يتسابقـنـ الطعن والضراب، فلما رأينا، ووـقـعـتـ أعينـهـمـ علينا، ظنـنـواـ أنـ الدـائـرةـ فـيـنـاـ وـلـدـيـنـاـ، وـأـنـ طـعـمـ أـسـيـافـهـمـ، وـلـقاءـ رـمـاحـهـمـ، فـكـبـرـتـاـ وـكـبـرـ الكلـ معـناـ، مـبـتـهـلـيـنـ لـلـهـ وـحـدـهـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ، وـنـهـضـنـاـ لـلـمـنـونـ الـذـيـ لـاـ بـدـ مـنـهـ، وـلـاـ مـيـصـ لـأـ حـدـ عـنـهـ، وـقـلـنـاـ هـذـاـ آـخـرـ يـوـمـنـاـ مـنـ الدـنـيـاـ، فـلـتـمـوـتـواـ شـهـداءـ.

فحملوا علينا كالسهام، فثبـتـ اللهـ أـقـدـامـناـ، وـقـوـىـ أـفـدـنـاـ، وـالـمـلـائـكـةـ معـناـ، وـالـلهـ تعالىـ وـلـيـ النـصـرـ لـنـاـ، فـوـلـواـ هـارـبـيـنـ، وـفـرـرـواـ ذـاهـبـيـنـ، وـتـسـاقـطـ أـكـثـرـهـمـ بـقـدـرـ اللهـ تـعـالـيـ دونـ طـعـنـةـ تـلـحـقـهـ، وـلـاـ ضـرـبةـ تـشـخـنـهـ، وـأـضـعـفـ الرـعـبـ أـيـديـهـمـ، فـطـعـنـاـهـمـ بالـسـمـهـرـيـةـ^(١) دونـ الـوـخـزـ بـالـإـبـرـ، وـضـاقـتـ بـهـمـ الـأـرـضـ بـمـاـ رـحـبـتـ، حتـىـ إنـ هـارـبـهـمـ

(١) السمهريّة: الرماح الصلبة. ابن منظور: لسان العرب، مادة سمهر ٤ / ٣٨١.

لا يرى غير شيء إلا ظنه رجلاً، وفتكت فيهم السيوف على رغم الأنوف، فوالله! لقد كانت تقع على الدروع فتفريها، وعلى البيضات فتبريهما، وزرَقَ^(١) الرجالة منا على خيلهم الرماح، فشكُوكُهم بها فرحت بهم.

فما كنت ترى منهم فارساً إلاً وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكلُّ يجُرُّ عنانه، كأنه مُعْقَل بعقده، ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربي المصون، السابق اللاحق، المعدُّ للحقائق، وما منا إلاً مَنْ له جرناز^(٢) فيه سيفان، وبيدنا الثالث، عسى أن يحدث من حادث، فصاروا في الأرض مجذلين^(٣)، موتى مغَرَّفين^(٤)، وقد تراجع الناس بعد الفرار، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم؛ يقطعون رءوسهم، وينقلون بإزاء محلات، حتى علت كالجبال الراسيات، عدد لا يُقدَّر، ومدد لا يُحَذَّر، والتجريد فيهم، والأيدي متعاودة لبطونهم، واستأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطיהם وأماناتهم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقل، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا، قد أثخنا جراحًا بإزاء محلاتهم، يرتادون الظلام للهروب في المقام، والله! لقد كان الفرسان والرجالات يدخلون محلاتهم، ويعثرون في أختيهم، ويتنهبون أزوادتهم، وهم ينظرون شرراً نظر التيوس إلى شفار الجازرين، إلى أن جنَّ الليل وأرخي سدوله، ولَوْا هاربين، وأسلموا رحائهم صاغرين، فكم من دلاص^(٥) على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة، ولقد ارتبط كل فارس من الخمسة الأفراص أو أزيد.

(١) زرق: أي ضربها بالأسنة، انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة زرق ١٣٨ / ١٠.

(٢) هكذا في المصدر.

(٣) المجدل: الصربيع، أو الملقي بالأرض. ابن منظور: لسان العرب، مادة جدل ١١ / ١٠٣.

(٤) مغَرَّف: أي تقلب في التراب.

(٥) الدُّرُّ الدِّلَاص: البراقة، الملسماء، اللينة. ابن منظور: لسان العرب، مادة دلص ٧ / ٣٧.

وأمّا البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأما الثياب والمتاع فناهيك، والأسرة بأوطية الحرير، والثياب والأوبار عدد ليلهم، ولا يكُلون في الانتقال، ولا يسامون من تشريط الأموال، ولحقوا قوريه، ومنها إلى حيث ألقـت رحلها أم قشع^(١)، فصحيحـنا ضـهايرنا، وأخلصـنا للمـعتمد على الله نـياتنا وسـرائرنا، ورجـعنا بـحمد الله غـانـمين منـصورـين.

لم يستشهدـ منـا إلـا الفـرقـةـ التي قـدرـ اللهـ عـلـيـهاـ بـذـلـكـ، وـقـدـرـنـاـ أـنـ الـكـلـ مـنـهـمـ هـلـكـ لـقـلـةـ مـعـرـفـتـهـمـ وـجـهـاتـهـمـ بـقـتـالـ النـصـارـىـ، وـتـرـامـيـهـمـ لـلـشـهـادـةـ، قـدـسـ اللهـ أـرـواـحـهـ، وـكـرـمـ مـثـواـهـمـ وـضـرـيـحـهـمـ، وـجـعـلـ الجـنـةـ مـيـعـادـاـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـهـمـ، وـفـقـدـنـاـ مـنـ أـكـابـرـنـاـ نـحـوـ عـشـرـيـنـ رـجـلاـ مـنـ شـهـدـتـ نـجـدـتـهـ فـيـ الـمـغـرـبـ، وـانـقـلـبـتـ خـيـرـ مـنـقـلـبـ. وـلـحـقـنـاـ إـشـبـيلـيـةـ حـضـرـتـهـ (ـالـمـعـتمـدـ)ـ عـمـرـتـ بـبـقـاهـيـهـ، وـأـقـمـنـاـ عـنـهـ أـيـامـاـ، وـرـفـعـنـاـ عـنـهـ مـوـدـعـينـ، لـاـ تـوـدـعـ قـاطـعـ...ـ»^(٢).

لَا تُرِيدُنَّكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا:

بعد هذه المعركة جمع المسلمون من الغنائم الكثير، لكن يوسف بن تاشفين وفي صورة مشرقة ومشرفة من صور الإخلاص والتجدد، وفي درس عملي بلين لأهل الأندلس عامةً، وأمرائهم خاصةً يترك كل هذه الغنائم لأهل الأندلس، ويرجع في رُهـدـ عـجـيبـ وـوـرـعـ صـادـقـ إـلـىـ بـلـادـ الـمـغـرـبـ، لـسـانـ حـالـهـ: «لـاـ تـُرـيـدـ مـنـكـمـ جـزـاءـ وـلـاـ شـكـورـاـ» [الإنسان: ٩].

قال المقربي في نفح الطيب: وأقامـتـ العـساـكـرـ بـالـمـوـضـعـ أـرـبـعـةـ أـيـامـ؛ـ حتىـ جـمـعـتـ الـغـنـائـمـ، وـاسـتـؤـذـنـ فـيـ ذـلـكـ السـلـطـانـ يـوسـفـ، فـعـفـ عنـهـاـ، وـآثـرـهـاـ مـلـوكـ الـأـنـدـلـسـ،

(١) أم قشع: الحرب، أو المنية. ابن منظور: لسان العرب، مادة قشع ١٢ / ٤٨٤.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣ / ٤٤٨، وما بعدها.

وَعَرَّفُوهُمْ أَنْ مَقْصِدَهُ الْجَهَادُ وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ، وَمَا عَنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ مِنْ ثَوَابٍ مُّقِيمٍ، فَلَمَّا رَأَتْ مَلُوكُ الْأَنْدَلُسِ إِثْرَ يَوْسُفَ لَهُمْ بِالْغَنَائِمِ اسْتَكْرِمُوهُ، وَأَحْبَبُوهُ وَشَكَرُواهُ فَذَلِكَ^(١)

يَعُودُ جَلَّهُ إِلَى بَلَادِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ أَنْ جَمَعَ مَلُوكُ الْأَنْدَلُسِ وَأَمْرَاهُمْ بِالْإِتْفَاقِ، وَإِطْرَاحِ التَّنَابُذِ وَالتَّخَاصِمِ؛ حَتَّى لَا يُضِيعُوا بِحِمَاقَاتِهِمْ ثَمَارَ هَذَا النَّصْرِ^(٢)، وَعَادَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ الْبَطَلُ الْإِسْلَامِيُّ الْمُغَوَّرُ وَعُمْرُهُ آنذاكْ تِسْعُ وَسَبْعُونَ سَنَةً!

كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ لِهِ جَلَّهُ أَنْ يُرْسِلَ قَائِدًا مِنْ قَوَادِهِ إِلَى أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ، وَيَبْقَى هُوَ فِي بَلَادِ الْمَغْرِبِ، بَعِيدًا عَنْ تَخْطِيَّ القَفَارِ وَعَبُورِ الْبَحَارِ، وَبَعِيدًا عَنْ وِيلَاتِ الْحَرُوبِ وَإِهْلَاكِ النُّفُوسِ، وَبَعِيدًا عَنْ أَرْضِ غَرْبِيَّةِ وَأَنَاسِ أَغْرِبِ؛ لَكِنَّهُ جَلَّهُ وَهُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ يَتَخَطَّى تَلْكَ الصُّعَابَ، وَيَرْكِبُ فَرْسَهُ، وَيَحْمِلُ رُوحَهُ بَيْنَ يَدِيهِ، لِسَانُ حَالَهُ أَذْهَبُ إِلَى أَرْضِ الْجَهَادِ لِعَلَّيْ أَمْوَاتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

شَعَارُهُ هُوَ: [الْوَافِرُ]

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفِ مَرْوُمٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمُؤْتَ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ كَطْعَمِ الْمُؤْتَ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ^(٣)

لَكِنَّهُ جَلَّهُ لَمْ يَمْتَ هَنَاكَ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبَنَاءِ.

وَاسْتَشْهَدَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفَضَلَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَعْيَانِ النَّاسِ؛ مِثْلُ: ابْنِ رَمِيلَةِ صَاحِبِ الرَّؤْيَا المَذَكُورَةِ، وَقَاضِي مَرَاكُشِ أَبِي مَرْوَانِ عَبْدِ الْمُلْكِ الْمَصْمُودِيِّ..

(١) المقرئ: نفح الطيب، ٣٦٩ / ٤.

(٢) انظر: عبد الله بن بلقين: التبيان، ص ٣٣٩، نقلاً عن حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢٨٢

وسعدهون عباس نصر الله: دولة المرابطين، ص ٩٧.

(٣) ديوان المنبي، ص ١٩٥.

وغيرهما، رحمهم الله تعالى^(١).

المعتمد على الله بن عباد وشرف الجهاد:

ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح، وقرأت القراء، وقامت على رأسه الشعراة فأنشدوه، يقول عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشده إياها، فقرأ القارئ: ﴿إِلَّا أَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبه: ٤٠]. فقلت: بُعدًا لي ولشعري، والله! ما أبقيت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به، وطار ذكر ابن عباد بهذه الواقعية وشهر مجده، ومالت إليه القلوب، وسالمته ملوك الطوائف، وخاطبوه جيًعا بالتهئة، ولم يزل ملحوظاً معظمًا إلى أن كان من أمره مع يوسف ما كان^(٢).

* * *

(١) الحميري: الروض المطار، ص ٢٩٢، والمقربي: نفح الطيب، ٤/٣٦٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/٤٨.

(٢) الحميري: الروض المطار، ص ٢٩٢، والمقربي: نفح الطيب، ٤/٣٧٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/٥٠.

الفصل الثامن

سقوط ممالك الطوائف



ظلَّ الصراع بين المسلمين والنصارى قائماً بعد الزلاقة، بل لقد كثُر عيُّث النصارى في بلاد المسلمين، وتخريَّبهم لها، ولم يستطع حكام الطوائف فعل شيء، بل وصلت الأحوال إلى أن سقطت بلنسية - وهي حاضرة الشرق الأندلسي، ومن أبرز حواضر الأندلس كلها - في يد النصارى. كذلك لم تنته الصراعات بين ملوك الطوائف وما نفَّذوا وصية يوسف بن تاشفين لهم بالاتحاد؛ فاستغاث الناس بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين للمرة الثانية، وكذلك فعل المعتمد بن عباد - أيضاً - فمن أجل ذلك كان الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى أرض الأندلس.

ويتكرر ما حدث في العبور الأول إذ يقوم المرابطون بنصرة الأندلسيين وهزيمة النصارى في أكثر من موقعة، إلا أنه وفي أثناء حصار حصن لبيط (Aledo) في سنة ٤٨١هـ=١٠٨٨م)، رأى من خداع أمراء الطوائف وشهاد عنديٍّ من تمرد هم ونفاقهم، وجنوحهم إلى مالأَّة النصارى ما أغضبه وأحفظه عليهم، ثم تكررت هذه الأحوال للمرة الثالثة، فعبر ابن تاشفين مرة ثالثة إلى الأندلس في عام ٤٨٣هـ=١٠٩٠م)، فجهز جيوشه ودخل إلى الأندلس.

فالواقع يقول أن ابن تاشفين لم يطبع في الأندلس، وتردَّد كثيراً قبل العبور، وعفَّ عن الغنائم بعد ذلك وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس ولم يأخذ منها شيئاً، ثم يعود في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف، وتحالف بعضهم مع عدوِّ الإسلام، وكان الجواز الثالث لوضع حدًّا لمهزلة ملوك الطوائف، لقد آن -

وباسم الإسلام - هذه الدوليات الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي^(١)

منذ أن انتهى من الجهد في المرة الثانية، ثبت له بقاء حال أمراء الطوائف على ما هم عليه من تفرق وتخاذل، واستعداء للنصارى، وكيف تخلَّف بعضهم عن مشاركته في الجهاد مجاملة للمشركين. بل لَمَا قام بحصار النصارى - عَقِبَ جوازه الثاني في حصن ليبيط - تخلَّف بعض رؤساء الشرق عن معاونته، وقالوا: إنَّ طاعته ليست بواجبة؛ لأنَّه ليس إماماً شرعياً من قريش. وأبشع من ذلك وأشنع أن رسالة قد وقعت في يد يوسف وُجْهت من بعض ملوك الطوائف إلى العدو، يُشَجِّعه على المقاومة والصمود، وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمرِّدين، أنه خادم أمير المؤمنين المستظہر، وأن الخطبة تجري باسمه على أكثر من ألفي منبر، وتُضَرِّب السكة باسمه^(٢).

ورغم دلائل الولاء هذه للخليفة في بغداد، إلا أنَّ لا ولاء لهم ولا انتهاء من ملوك الطوائف تمسَّحوا الآن في الشرع، الذي يتھكونه منذ حكموا حتى أذلوا المسلمين وبладهم، ووضعوها في يد النصارى، ويدلوا لهم الأموال والهدايا، وتحالفوا معهم على إخوانهم المسلمين.

عندئِذ اعترض يوسف بن تاشفين أمره في افتتاح مالك الطوائف، وأخذ يستولي عليها تبعاً، وأرسل إلى بغداد طلباً للخليفة ليحصل على كتاب منه بتوليته المغرب والأندلس، وكان يهمه - إلى جانب الحصول على المرسوم الخلافي - أن يحصل على سند شرعي يُبرِّر تصرُّفه نحو أولئك الأمراء، فلما وصل الفقيه أبو محمد العربي وولده أبو بكر إلى بغداد، لقي الإمام أبو حامد الغزالى قطب فقهاء المشرق يومئِذ،

(١) شوقي أبو خليل: الزلاقة، ص ٦٤، ٦٥.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/٤١-٤٤.

وشرح له أحوال الأندلس، وخلال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وما اضططع به من أعمال الجهاد وإعزاز الدين، وما كان عليه أمراء الطوائف من تفرق وتخاذل، واستعداء للنصارى، وكيف تخلف بعضهم عن مشاركته في الجهاد بجاملة للمشركين. وشرح حاله الحال، ثم طلب الفقيه ابن العربي إلى الإمام الغزالى أن يزوره فيما تقدم بفتوى **بَيْنَ حُكْمِ الشَّرْعِ فِيهِ، وَأَنْ يُرَوَّدَهُ** بكتاب إلى أمير المسلمين، فأفتقى الإمام الغزالى بحكم الشرع في موقف ملوك الطوائف، حسبما شرحه ابن العربي للإمام، وعن حق يوسف في الحصول على المرسوم الخلافي بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه، وقد عاد الإمام الغزالى بعد ذلك، فكتب إلى يوسف كتاباً يعرض فيه بالتفصيل إلى قصة ملوك الطوائف، حسبما رواه له ابن العربي، وإلى ما كانت عليه الأندلس في ظل حكمهم، من التخاذل والذل... ثم يشير بعد ذلك إلى ما أصدره من فتوى في شأن ملوك الطوائف، وإلى ما كان ابن العربي بتصديه من السعي إلى استصدار المرسوم الخلافي بولاية يوسف على جميع بلاد المغرب، وتمكين طاعته، وإلى ما كان يبيه ابن العربي من دعاية واسعة للإشادة بحكم يوسف وخلاله؛ سواء في العراق أو في المشاهد الكريمة بأرض الحجاز.

وكذلك حصل ابن العربي من العلامة أبي بكر الطرطوشى - حين مروره على ثغر الإسكندرية، وهو في طريق العودة - على خطاب آخر برسم يوسف، ويسدى الطرطوشى في كتابه النصح إلى يوسف بأن يحكم بالحق وفقاً لكتاب الله.

وقد توفي الفقيه ابن العربي بثغر الإسكندرية في فاتحة سنة (٩٣٤ هـ)، وعاد ابنه أبو بكر إلى الأندلس في العام نفسه، وهو يحمل الرسائلين - رسالة الغزالى ورسالة الطرطوشى - وكذلك مرسوم الخليفة المستظاهر إلى عاهل المراطبين^(١).

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٨/٤٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦، ١٨٧، ١٨٨، ٤٧٠، والمقرى: نفح الطيب، ٤/٣٧٣، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/٤١-٤٤.

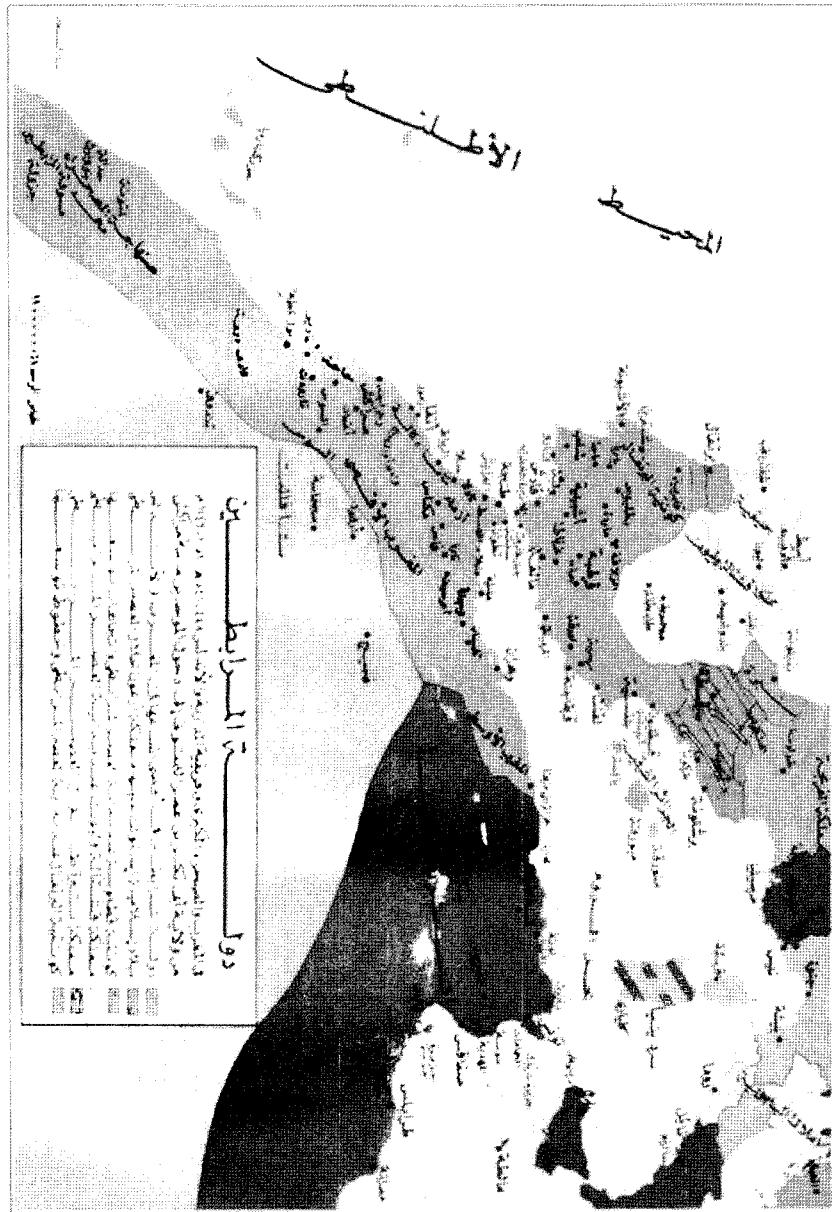
يوسف بن تاشفين ودولة واحدة على المغرب والأندلس:

لم يكن دخول يوسف بن تاشفين الأندلس أمراً سهلاً، فقد حاربه الأمراء هناك بما فيهم المعتمد على الله بن عباد، ذلك الرجل الذي لم يجد العزة إلا تحت راية يوسف بن تاشفين رحمه الله قبل وبعد الزلاقة، قام المعتمد على الله بمحاربته وأتى له أن يحارب مثله!

استعرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف، وانتهت بضم كل مالك الأندلس إلى دولة المرابطين، واستطاع أن يضمها إلى بلاد المسلمين، وقد أصبح يوسف بن تاشفين الآن أميراً على دولة تملك من شمال الأندلس وبالقرب من فرنسا وحتى وسط إفريقيا، دولة واحدة اسمها دولة المرابطين.

ولقد ظلَّ هذا الشيخ الكبير يحكم حتى سنة (١١٠٦هـ=١٥٠٠م)، وكان قد بلغ من الكبر عتياً، وتوفي رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد، وقد وفَّى تمام المائة^(١)؛ منها سبع وأربعون سنة في الحكم، وكان تمام ستين سنة على ميلاد دولة المرابطين، تلك التي أصبحت من أقوى دول العالم في ذلك الزمان.

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/٤٥، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٥٦.



خرابها (١٣) دولة المراقبين

الفصل التاسع

الجهاد السياسي والعسكري للمرابطين



حاول المرابطون بعد دخولهم الأندلس تحرير الأرضي الأندلسية، التي أخذت من المسلمين على مدار السنوات السابقة؛ فحاربوا في أكثر من جبهة، حتى اقتربت حدود دولة المرابطين من فرنسا^(١).

كما حاولوا كثيراً تحرير طليطلة، (وكان ذلك كما ذكرنا من قبل آنها من أكثر وأشدّ مدن الأندلس حصانة على الإطلاق)؛ لكنهم فشلوا في هذا الأمر، وإن كانوا قد أخذوا معظم القرى والمدن التي حولها.

المرابطون ومواصلة الانتصارات:

بعد موت يوسف بن تاشفين بعام واحد، وفي سنة (٥٠١ هـ = ١١٠٧ م) وبعد ما يقرب من اثنين وعشرين سنة من الزلاقة، تدور واحدة من أضخم المواقع بين المسلمين وبين النصارى، وهي التي سُمِّيت في التاريخ بـموقعه أقْلِيش، وقد تولَّ القيادة فيها على المسلمين تميم بن يوسف بن تاشفين، وكان هذا في عهد علي بن يوسف بن تاشفين الذي تولَّ الدولة خلفاً لأبيه، وتولَّ القيادة على الصليبيين سانشو بن ألفونسو السادس، وانتصر المسلمون -أيضاً- انتصاراً ساحقاً في هذه الموقعة، وقتل من النصارى ثلاثة وعشرون ألفاً من بينهم سانشو بن ألفونسو وقائد

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/٥٤، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٦٠

جيش النصارى^(١)، وقيل عن هذه المعركة بأنها الزلاقة الثانية^(٢).

وسانشو هذا هو ابن ألفونسو السادس من زوجته التي كانت قبل ذلك جارية—واسمها زائدة—أعجبت المأمون بن المعتمد بن عباد الذي كان واليًا على قرطبة، فلما انهزم المأمون وفتح المرابطون قرطبة فرّت هي ومعها ولداتها—حفيداً المعتمد—إلى ألفونسو فتنصرت وتزوجها، وأنجب منها ولده سانشو هذا، فهذه عاقبة الطغاة المستبددين!

كان سانشو في الحادية عشرة من عمره، وأرسله أبوه ألفونسو لإثارة حماسة الجندي، بعدما أوهنته الشيخوخة ولم يعد قادرًا على قيادة الجيش بنفسه؛ إذ كان قد بلغ الشهرين في ذلك الوقت.

وتواترت انتصارات المسلمين بعد هذه المعركة؛ ففي عام (١١١٥ هـ = ٥٠٩ م) استطاع المسلمون أن يفتحوا جزر البليار، تلك التي كانت قد سقطت من جديد في عهد ملوك الطوائف، وقد أصبح المسلمون يسيطرون على جزء كبير من أراضي الأندلس تحت اسم دولة المرابطين^(٣).

ولقد مرّت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاثة:

- ١ - مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.
- ٢ - مرحلة الخدر من ملوك الطوائف، بعد أن ظلّ وضعهم وضع التنافس والتھاد والتباغض بينهم، ولم يفكّروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد بالآخرين.

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤ / ٥٠، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٦٠.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث ص ٢٥٣.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٦٢.

٣ - مرحلة ضمّ الأندلس إلى المغرب؛ فوضعوا حدًّا لمهزلة ملوك الطوائف^(١).

صير ألونسو السادس:

حزن ألونسو على وحيده سانشو حزناً شديداً، حتى مات بعدها بعشرين يوماً^(٢)، وذلك في ٢٩ يونيو سنة ١١٠٩ م (ذي الحجة من عام اثنين وخمسين)^(٣)، فحزن القشتاليون قاطبة لوفاته، وقد أسس ألونسو خلال أربعة وأربعين عاماً من حكم قوي مستنير مجد قشتالة إلى قرون، وكان يلقب بـ «نور إسبانيا ودرعها»، وبلغت قشتالة في عهده من القوة ما لم توهنه بعدئذ حرب أهلية ولا تقسيم^(٤).

ومن أشهر العلماء في عهد علي بن يوسف:

القاضي أبو بكر ابن العربي (٤٦٨-١٠٧٦ هـ=١١٤٨-١١٠٩ م):

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي الأندلسي المالكي، ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨ هـ، تعلم في الأندلس ثم ارتحل مع أبيه، فتعلم في بغداد ثم في دمشق ثم في بيت المقدس ثم في مكة ثم في مصر، وفي الإسكندرية مات أبوه فدفن هناك، ثم رجع إلى الأندلس في سنة ٤٩١ هـ.

ومن أشهر شيوخه الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالى، والفقىء أبو بكر الشاشى، والعلامة الأديب أبو زكريا التبريزى، والطروشى وجماعة آخرين^(٥).

وقد نقل إلى الأندلس علمًا كثيراً وإسناداً عالياً، وتخرج على يديه أئمة كثiron،

(١) شوقي أبو خليل: الزلاقة، ص ٧٢، والصلابي: دولة المغاربيين، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٥٩.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤ / ٥٠.

(٤) يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المغاربيين والموحدين ١ / ١٤٢.

(٥) انظر: ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٤ / ٢٩٧.

من أشهرهم القاضي عياض، وأبو جعفر بن الباذش^(١).

وله مؤلفات كثيرة من أشهرها: العواصم من القواسم، وأحكام القرآن، وأنوار الفجر في التفسير، أتمه في ثمانين ألف ورقة، والناسخ والمنسوخ، والقبس، شرح موطاً مالك بن أنس، وعارضه الأحوذى شرح صحيح الترمذى^(٢).

يذكره ابن بشكوال فيقول: «الإمام العالم الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس، وأخر أئمتها وحافظتها... كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدّماً في المعرف كلها، متتكلّماً في أنواعها، نافذاً في جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة ولين الكتف، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبتات الوعد، واستقاضى ببلده فنفع الله به أهله لصرامته وشدّته، ونفوذه أحکامه، وكان له في الظالمين سورة مرهوبة، ثم صُرِفَ عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه».

وتوفي حَمَّلَهُ اللَّهُ بالعدوة ودُفِنَ بمدينة فاس في ربيع الآخر سنة ثلاثة وأربعين وخمسينه^(٣).

عياض بن موسى بن عياض القاضي (٤٧٦ـ١٠٨٣=١١٤٩ـ٤٥٤هـ):

هو القاضي الإمام المجتهد اليحصبي، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل، ولد بسبطة في النصف من شعبان عام (٤٧٦هـ).

وقد ألف ابنه القاضي أبو عبد الله محمد كتاباً يذكر فيه مآثر أبيه، سماه:

(١) انظر: المقرى: فتح الطيب، ٢/٣٠.

(٢) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٠/١٩٧، وما بعدها بتصرف.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، ٢/٨٥٦.

(التعريف بالقاضي عياض)، وقد نقل عنه الكثير من المؤرخين والعلماء، وكان عمرون (أبو جد القاضي عياض) رجلاً خياراً من أهل القرآن، وحجَّ أحدى عشرة حجة، وغزا مع المنصور بن أبي عامر غزوات كثيرة، ثم انتقل إلى سُبْتَة وُلد له ابنه عياض، ثم ولَد لعياض ابنه موسى، ثم ولد موسى القاضي أبو الفضل عياض.

وكان أبوه حافظاً لكتاب الله، مع الحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه، وكان من أئمة الحديث في وقته، أصولياً متكلماً، فقيهاً حافظاً للمسائل، نحوياً أدبياً شاعراً خطيباً.

رحل القاضي عياض إلى الأندلس، فدرس بقرطبة ومُرسية وغيرهما، ثم عاد إلى سُبْتَة، فكان من علمائها وهو ابن ثلاثين سنة أو أكثر بقليل، ثم جلس للشوري، ثم ولي القضاء، فسار في ذلك حسن السيرة مشكور الطريقة، ثم انتقل إلى غرناطة في أول صفر سنة ٥٣١ هـ، فتولى القضاء بها، ثم قضاة تادلة.

وله من المؤلفات كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وإكمال المعلم في شرح مُسلم، والمستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لعرفة أعلام مذهب مالك، والإعلام بحدود قواعد الإسلام، والإلماع في ضبط الرواية وتقييد السِّماع.. وغيرها كثیر.

قال ابن بشكوال: جمع من الحديث كثيراً، وله عنایة كثيرة به واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفُنْ في العلم والذكاء واليقظة والفهم^(١).

وقال الفقيه محمد بن حمادة السبتي: جلس القاضي -يعني القاضي عياضاً- للمناظرة وله نحو من ثمان وعشرين سنة، وولي القضاء وله خمس وثلاثون سنة، كان هِيَّناً من غير ضعف، صلباً في الحق... ولم يكن أحداً بسبَّة في عصره أكثر

(١) ابن بشكوال: الصلة، ٢/٦٦٠، ٦٦١.

تواлиf منه... وحاز من الرئاسة في بلده والرقة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده، وما زاده ذلك إلاً تواضعًا وخشية الله تعالى^(١).

وقال عنه القاضي ابن خلkan في (وفيات الأعيان): كان إمام وقته في الحديث وعلومه، والنحو واللغة، وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم^(٢).

وقال أبو عبد الله محمد الأمين في كتابه (المجد الطارف والتالد)، يصف مكانة القاضي عياض العلمية، وقدره الرفيع بين علماء الإسلام: «مَقَامُ عِيَاضٍ مُثْلِّ مَقَامِ الْبَخَارِيِّ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ... وَانْظُرْ إِلَى عِيَاضٍ فَلَا تَرَى تَأْلِيفًا مُعْتَبِرًا مِنْ تَوَالِيْفِ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَلَا أَصْحَابِ السِّيرِ وَالْفِقَهَاءِ إِلَّاً وَجَدْتَهُ مَشْحُونًا بِكَلَامِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَرْتَحِلْ إِلَى الْمَشْرِقِ»^(٣).

وقد توفي بِحَمْلِهِ بِمَرَّاكِشِ ليلاً الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة من سنة (٤٥٤ هـ)، ودفن في باب إيلان من داخل سور^(٤).

* * *

(١) انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ، ٦٨/٤.

(٢) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٤٨٣/٣.

(٣) انظر: عبد الحفيظ الكتاني: فهرس الفهارس، ٨٠٤/٢.

(٤) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢٣٠-٢٢٢/٤، بتصرف.

الفصل الحادي عشر

المرابطون.. الضعف ثم الانهيار



في سنة (١١١٨ هـ = ١٢٥١ م) تحدث في داخل بلاد المغرب وفي عقر دار المرابطين ثورة تؤدي بأثر سلبي إلى هزيمتين متتاليتين لهم في بلاد الأندلس، كانت الأولى هزيمة قتيبة، والثانية هزيمة القليعة.

المرابطون الهزيمة والانحدار.. وقفية متألمة:

على إثر قيام ثورة في المغرب في عقر دار المرابطين، وعلى إثر هزيمتين متتاليتين لهم في الأندلس من قبل النصارى، يحق لنا أن نتساءل: لماذا تقوم الثورة في هذا الوقت في دولة المرابطين؟! ولماذا هذا الانحدار وتلك الهزائم المتالية؟!

وفي تحليلٍ موضوعيٍّ لهذه الأحداث نعود بالتاريخ إلى بداية نشأة دولة المرابطين وقيامها، فمنذ عام (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) ولدة سبعين عاماً تقريباً، وحتى عام (٥٠٩ هـ = ١١١٥ م) حيث الانتصارات المتالية، وحيث العلو والارتفاع، وحيث الأموال والغنائم، والدنيا التي فُتحت على المسلمين، والتي وصلوا فيها إلى درجة عالية من العزّ والسلطان والتمكين، فما المتوقع بعد ذلك، وما الأحداث الطبيعية التي من الممكن أن تحدث كما سبق ورأينا؟!

لا شكَّ أن الشيء الطبيعي والمتوقع حدوثه هو حصول انكسار من جديد لل المسلمين، وحدوث فتنه من هذه الدنيا التي فُتحت على المسلمين، وفتنة من هذه

الأموال التي كثرت في أيديهم.

وقد يتساءل البعض: هل من المقبول بعد انتصارات أبو بكر بن عمر اللمتوني، وانتصارات يوسف بن تاشفين وأعماليه، وبعد الزلاقة، هل من المقبول بعد كل هذا أن يحدث انكسار للمسلمين؟!

وفي معرض الرد على هذا نقول: كيف نتعجب من حدوث هذا الانكسار الذي حدث بعد وفاة يوسف بن تاشفين، ولا نستغربه وقت أن حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ متجلساً في الردة الكبيرة التي حدثت بين المسلمين؟ وهو -بلا شكًّ- أعظم تربية وأقوى أثراً من يوسف بن تاشفين ومن على شاكلته؛ وخاصة إذا كانت هناك شواهد بيّنة لهذا الانكسار وتلك الرجعة.

شواهد الانكسار وعوامل السقوط في دولة المرابطين:

كدوره طبيعية من دورات التاريخ، وما لا يُعدُّ أمراً غريباً أو غير متوقع، كانت هناك شواهد بيّنة لأنكسار وتراجع دولة المرابطين عما كانت عليه قبل ذلك؛ نستطيع أن نجملها فيما يلي:

أولاً : فتنة الدنيا وإن ظلَّ أمر الجهاد قائماً :

بالرغم من عدم توقف الجهاد، وبالرغم من صولات وجولات علي بن يوسف بن تاشفين، التي كانت له مع النصارى وفي أكثر من موقعة، إلا أن المرابطين كانوا قد فتنوا بالدنيا، وهو يُعدُّ شيئاً غريباً جدًا، وفي تحليل لنشأ هذا الشاهد وجد أن سببه خطأ كبير كان قد ارتكبه المسلمون في دولة المرابطين، وهم عنه غافلون، وليتنا نأخذ العضة والعبرة منه؛ فقد جعلوا جل اهتمامهم التركيز على جانب واحد من جوانب الإسلام، وتركوا أو أهملوا الجوانب الأخرى، كما نرى من إغفال هذه الجوانب في كتب التاريخ؛ فقد انشغل المرابطون -في أرض الأندلس وفي بلاد

المغرب وما حولها من البلاد - بالجهاد في سبيل الله عن إدارة الحكم وعن السياسة داخل البلاد، شغلوا بالأمور الخارجية عن الأمور الداخلية، والإسلام بطبيعته دين متوازن، ونظام شامل لا يغلب جانبًا على جانب، وقد رأينا مثلاً وأضحاً لهذا الأمر في تلك الدولة المتوازنة التي أقامها عبد الرحمن الناصر رحمه الله، في نواحي العلم والجهاد، والاقتصاد والقانون، وال عمران والعبادة.. وكل شيء؛ حيث الدولة التي تسد حاجات الروح والجسد، فسادت وتمكنت وظلت حيناً من الدهر.

ومثلها - أيضاً - كانت بداية دولة المغاربة وإقامة الجماعة المتوازنة على يد الشيخ عبد الله بن ياسين، تلك التي اهتم في قيامها بكل جوانب الحياة وعوامل ومقومات الدولة المتكاملة، التي تعطي كل جانب من مقوماتها قدرًا مناسباً من الجهد والوقت والعمل، فتعلّموا أن يكونوا فرساناً مجاهدين، ورهباناً عابدين، كما تعلّموا أن يكونوا سياسيين بارعين، وتعاونيين على منهج صحيح من الإسلام وأصوله، لكن أن يؤجّه المسلمون كل طاقاتهم إلى الجهاد في سبيل الله في سنة خمسين من الهجرة وما بعدها، ثم يتذرون أمور السياسة الداخلية وتنقيف الناس وتعليمهم أمور دينهم، فتلك هي قاصمة الظهر.

ثانياً: كثرة الذنوب رغم وجود العلماء:

كثرت الذنوب والمعاصي في دولة المغاربة؛ سواءً أكان ذلك في الأندلس أو في أرض المغرب، وهذا مع وجود العلماء الكثيرين في ذلك الوقت، وكثرة الذنوب كان أمراً طبيعياً خاصةً بعد أن فتحت البلاد وكثرت الأموال؛ وذلك لأنَّ معظم الذنوب تحتاج إلى أموال لاقرافها، وأصحاب النفوس الضعيفة، الذين كانوا يقطنون في دولة المغاربة (في المغرب) كانوا يفكرون في الذنوب لكن لا يقدرون عليها، أما الآن وقد فتحت الدنيا عليهم وكثرت الأموال في أيديهم، فتحرّكت هذه النفوس الضعيفة ناحية الذنوب، وبدأت ترتكب من الذنوب والكبائر ألواناً وأشكالاً.

ولا شك أنه كان هناك الغني الشاكر، لكن الحق أن هذا هو الاستثناء وليس القاعدة، والأصل أن الناس جميعاً يفتون بالدنيا، ويقعون في الذنوب إذا كثر المال في أيديهم، يقول ﷺ في معرض قصة نوح عليه السلام: «فَقَالَ الْمُلُّوُّكُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بِأَدِي الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظَنُنَّكُمْ كَاذِبِينَ» [هود: ٢٧]. والأرذل هم ضعاف الناس وبساطة القوم وفقراؤهم، وهم الذين اتبعوا نوح عليه السلام، واتبعوا الرسل من بعده، واتبعوا كل الدعاة إلى يوم القيمة؛ ومن هنا فإن كثرة الذنوب أمر طبيعي ومتوقع كنتيجة مباشرة لكثرة الأموال، لكن أين العلماء الكثيرون المنتشرون في بلاد الأندلس وببلاد المغرب العربي في ذلك الوقت؟!

كيف يُفتَنُ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَرَأْيُهُ الْجَهَادُ خَفَّاقَةُ، وَكَيْفَ تَكُثُرُ الذُّنُوبُ رَغْمَ وَجُودِ
الْعُلَمَاءِ الْأَجَلَاءِ؟!

واقع الأمر أن العلماء هم الذين يقع على عاتقهم العبء الأكبر من هذا التدني وذاك الانحدار؛ إذ نراهم وقد انشغلوا بفرعيات الأمور وأغفلوا أساسياتها؛ لقد طرقوا أموراً وتركوا أموراً أولى وأهمّ منها، أخذوا يؤلفون المؤلفات، ويعقدون المنازرات، ويُقسّمون التقسيمات في أمور لا يبني عليها كثير عمل، ولا كثير جدوى؛ بينما أغفلوا أموراً ما يصح لهم أبداً أن يتركوها أو يغفلوها، يقول عبد الواحد المراكشي: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويخظى عنده إلا من علم الفروع -أعني فروع مذهب مالك- فنفت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، وثبت ما سواها، وكثير ذلك حتى سُيَّ النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ؛ فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتکفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقييح علم الكلام، وكرامة السلف له، وهجرهم من

ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه هذه الأقوال، حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعّد منْ وُجَدَ عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالى حَفَظَهُ اللَّهُ المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقديم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى منْ وُجَدَ عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك»^(١).

لقد أحرق علي بن يوسف بن تاشفين بالفعل كتب أبي حامد الغزالى، باعتبارها تخالف الإسلام الصحيح، وهو الإمام الذي لقب بحجۃ الإسلام، وكان سيد فقهاء المشرق، وهو الذي أفتى ليوسف بن تاشفين بحكم الشرع في ملوك الطوائف، فكانت فتواه أقوى ما استند إليه يوسف في إزالة مالك الطوائف وتوسيع دولة المرابطين!

النتائج التي ترتب على تعمق العلماء في الفروع دون الأصول:

كان الاتجاه العلماء في ذلك الوقت إلى التعمق في الفروع وإهمال الأصول، كمَنْ ترك جُهَّه البحر واتجه إلى القنوات الفرعية، فأنَّى له الوصول؟! وأنَّى لعمله الفائدة المرجوَّة منه؟! فكان -ونتيجة طبيعية لذلك- أن نتج عن هذا القلب الخاطئ، وذاك التعمق في الفروع تلك الأمور الخطيرة التالية:

أولاً: جدال عظيم عقيم بين العلماء وال العامة:

وذلك أن العلماء لم يفهموا أو لم يستطعوا أن يفهموا حاجة العامة، كما لم تعرف العامة ما يتمنَّى به العلماء، وقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو أعلم البشر، وأحکم الخلق - يتكلَّم بالكلمة فيفهمه علماء الصحابة ويفهمه الأعرابي البسيط، كما كان

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٣٦، وما بعدها.

يفهمه الرجل وتفهمه المرأة، والكبير والصغير، كل على حِدّ سواء.

ثانياً: عزلة العلماء عن مجتمعاتهم:

باتجاه العلماء إلى دقائق الأمور من الفروع لم يَعُدْ يشغلهم حال مجتمعاتهم، ولم يعودوا هم يعرفون شيئاً عَمَّا يدور فيها، وما يَحْلُّ بها من مصائب وذنوب، فتوسَّعَت الهوَّةُ كثِيرًا بينهم وبين مجتمعاتهم، وحدثت بذلك عزلة خطيرة لهم في العهد الأخير للمرابطين؛ فكانت الخمور تُباع وتُشترى، بل وتصنَّع في البلاد ولا يتكلَّم أحد، وكانت الضرائب الباهظة تُفرض على الناس غير الزكاة وبغير وجه حقٍّ، ولا يتكلَّم من العلماء أحد، وكان الظلم من الولاة لأفراد الشعب ولا يتكلَّم من العلماء أحد، وكانت هناك ملاهي الرقص لا تُستَر، بل تُعلَن عن نفسها في سفور ولا يتكلَّم من العلماء أحد، وإنه لعجب والله! أن تحدث مثل هذه الأمور في هذا الزمن (من بعد سنة خمسينات الهجرة) وتلك الدولة المرابطية، فقد كانت النساء تخرج سافرات بلا حجاب، والعلماء لا هون بالحديث عن المرجئة والمعطلة، وغيرها من أمور الجدال العقيمية والفرقَة المقيمة، ويعتقدون أن مثل هذه الأمور هي التي يجب أن يُشغل بها المسلمون، وغيرها هي الأقل أهمية من وجهة نظرهم^(١).

ثالثاً: أزمة اقتصادية حادة:

كان من بين شواهد الانكسار الأخرى في نهاية دولة المرابطين، وبعد فتنة الدنيا والمال، وغياب الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام، وكثرة الذنوب، وجود الفكر عند العلماء وانزعالهم عن المجتمع، كان فوق كل هذه الأمور أن حدثت أزمة اقتصادية حادة في دولة المرابطين؛ ففي سنة (٥٣٢هـ) وقع السيل العظيم بطنجة، حل الدمار

(١) عبد الواحد المراكشي: الموجب، ص ٢٤١، وانظر وثائق مرابطية نشرها حسين مؤنس في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد - العدد ٢ (سنة ١٩٥٤م).

والجدر، ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب^(١). وكذلك فتك الجراد بحقول الأندلس من سنة (٥٢٦هـ) وحتى سنة (٥٣١هـ)، فاشتتدت المجائحة وانتشر الوباء في سنة (٥٢٦هـ) بأهل قرطبة، فكثر الموتى وبلغ مُدُّ القمح ١٥ ديناراً^(٢)، وكان قد وقع قبل ذلك بسنة (٥٢٥هـ)، حريق ضخم في سوق الكتانيين بقرطبة، واتصالها بسوق البز، كذلك حدث في سنة (٥٣٥هـ) حريق ضخم آخر في سوق مدينة فاس، فاحتراقت سوق الشياط والقراقين وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون، وأن ذلك كان في أول الليل فتلفت أموال جليلة، وافتقر فيه خلق كثير^(٣).

وبعض المصادر تتحدث -أيضاً- عن القحط الذي حلَّ بالبلاد، فيبيت الأرض وجفَّ الزرع وهلكت الدواب^(٤).

وقد يرى البعض أن هذا من قبيل المصادفة البحتة والعجيبة في الوقت نفسه، لكنها والله! ليست مصادفة؛ بل هي في كتاب الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن سُنْتِهِ الثوابت، يقول تعالى في كتابه الكريم: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [الأعراف: ٩٦].

وهذا كلام نوح عليه السلام في حديثه لقومه؛ حيث يقول: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرِسِّلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» [نوح: ١٠ - ١٣].

فالله عَلَيْهِ السَّلَامُ يبتلي المؤمنين دائماً بالقحط وبالازمات الاقتصادية الحادة عندما يتبعدون عن طريقه، وعن نهجه القويم الذي رسَّمه لهم، ومن هنا فلو لوحظ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/٩٦.

(٢) ابن القطان المراكشي: نظم الجمان، ص ٢٢٨، ٢٢٦، ٢٣٥، ٢٣٠، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٥٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٢، ٢٦٨.

(٤) انظر: مراجع الغنائي: سقوط دولة الموحدين، نقاً عن الصلاي: دولة المرابطين، ص ٢٢٩.

تدهور في الحالة الاقتصادية لأحد البلدان أو المجتمعات، وبدأت الأموال تقلُّ في أيدي الناس، وبداءوا يعملون لساعات وساعات ولا يحصل لهم ما يكفي لسد رمقهم، أو ما يكفي لعيشهم عيشة كريمة، فاعلم أن هناك خللاً في العلاقة بين العباد وربهم ﷺ، وأن هناك ابتعاداً عن منهجه وطريقه المستقيم؛ إذ لو كانوا اُطْبِعُونَه بارك لهم في أقواتهم وأرزاقهم.

وبالطبع سبق وأعقب هذه الأحداث التي وقعت في بلاد المرابطين هزائم متعددة من قبل النصارى، فكانت - كما ذكرنا - موقعة قُنْتَدَة في سنة (١٤٥٥هـ = ١١٢٠م)، والتي هُزم فيها المسلمون هزيمة منكرة^(١)، ومثلها وبعدها - أيضاً - كانت موقعة القُلْيَة في سنة (١١٢٩هـ = ٥٢٣م)، والتي مُني فيها المسلمون - أيضاً - بالهزيمة المنكرة^(٢).

* * *

(١) انظر في خبر هذه الموقعة: ابن الأثير: الكامل، ٩/٢٠٦.

(٢) انظر خبر هذه الموقعة: ابن القطان: نظم الجمان، ص ١٥٢، وما بعدها.

الباب الثامن
حضر المولدین

الفصل الأول

محمد بن تومرت وتأسيس دعوة الموحدين



المؤسس محمد بن تومرت (٤٧٣-٥٢٤ هـ = ١٠٨٠-١١٣٠ م) وبداية الثورة على

المغاربة:

كانت دولة المرابطين تتوجه بقوّة نحو هاوية سحيقة وكارثة محقّقة، وكان لا بدّ أن تتحقّق سُنة الله تعالى بتغيير هؤلاء واستبدالهم بغيرهم، وهذا ما تمّ بالفعل؛ إذ قام سنة (١١١٨ هـ = ١٠٥٥ م) رجل من قبائل مصمودة الأمازيغية (البربرية) يُدعى محمد بن تومرت بثورة على المرابطين، وكان محمد بن تومرت صاحب منهج في التغيير والإصلاح مختلف بالكلية عن منهج الشيخ عبد الله بن ياسين حفظ له.

وقد ولدَ محمد بن تومرت هذا سنة (٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م)^(١)، ونشأ في بيت متدين في قبيلة مصمودة^(٢)، وقد نسب هو نفسه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب^(٣)، لكن غالباً الأمر أنه من قبائل الأمازيغ (البربر) في هذه المنطقة، وقد ظلَّ محمد بن تومرت في هذا البيت إلى سنة (١١٠٧ هـ = ٥٥٠ م)، وكان قد بلغ من العمر آنذاك

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٠١/٩، فقد قال: «ثم مات المهدى وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: خمساً وخمسين سنة». وعلى هذا فهو إماماً مولود في ٤٦٩ أو ٤٧٣ هـ، وفي مولده اختلاف كبير غير هذا.

(٢) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون: ٢٣٦/٦.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٢٣٦/٦، ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء، ٥٣٩/١٩: «المدعى أنه علوى حسني وأنه الإمام المقصوم المهدى».

سبعاً وعشرين سنة، وكان شغوفاً بالعلم، وكانت عادة الطلاب في ذلك الزمان أن يتوجّلوا فيسائر البلاد الإسلامية؛ ليتعلّموا من علماء المسلمين في مختلف الأقطار؛ وهذا فقد سافر محمد بن تومرت في سنة (١١٠٧هـ = ١٥٠٠م) إلى قُرطبة وتلقى العلم هناك، ولم يكتفِ بذلك بل عاد وسافر إلى بلاد المشرق، فذهب إلى الإسكندرية ثم إلى مكة، حيث أدى فريضة الحجّ، وهناك تلمذ على أيدي علماء مكة فترة من الزمان، ثم رحل إلى بغداد وقضى فيها عشر سنوات كاملة؛ يتلقى العلم على أيدي علماء بغداد جميعهم، وكانت بغداد توج آنذاك بتيارات مختلفة من علماء السنة والشيعة والمعتزلة.. وغيرهم الكثير منأخذ وتلقى على أيديهم العلم.

وذهب محمد بن تومرت بعد ذلك إلى المشرق، وتذكر بعض المصادر أنه تلقى العلم على الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله - إلا أن هذا غير صحيح بيقين^(١) - وعاد

(١) يقول الأستاذ عبد الله عنان مفتداً هذه المقوله: «ونحن نقف قليلاً عند هذه الرواية، التي يرددها كثير من مؤرخي المشرق والمغرب؛ إذ متى وأين كان هنا اللقاء؟ وفي أي الظروف؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه في طلب العلم سنة ٥٠٠ أو ٥٠١هـ، وقضى فترة في الأندلس، وفي المهدية، وفي الإسكندرية، ثم سافر إلى مصر لقضاء فريضة الحج، وقصد على إثر ذلك إلى بغداد، وإذا فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥هـ، وقد كان الإمام الغزالي ي بغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي ٤٨٤، ٤٨٨هـ = ١٠٩١، ١٠٩٥م)، وفي سنة ٤٨٨هـ غادر العاصمة العباسية في رحلته التأملية الشهيرة التي استطالت حتى ٤٩٩هـ، والتي زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة، وإذا فيكون من المستحيل مادياً أن يكون ابن تومرت - الذي غادر وطنه لأول مرة في سنة ٥٠٠هـ - قد استطاع أن يتلقى بالغزالى في بغداد أو غيرها من المدن التي زارها في خلال رحلته، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عودة الغزالى؛ ذلك أنه لم يمكنه بها سوى فترة يسيرة، ثم رحل منها إلى نيسابور، حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان ملك شاه، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفي في (جحادي الثانية ٥٠٥هـ = ديسمبر سنة ١١١٢م).

ويتبّع من ذلك جلّيّ بطّلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالى من الناحية التاريخية، وفضلاً عن ذلك فإنه يوجد دليل مادي آخر على بطّلان هذه القصة أو الأسطورة؛ ذلك أنها تقرن بواقعة أخرى خلاصتها أن ابن تومرت حينما لقي الإمام الغزالى، وأخبره بما وقع من احرق المرابطين لكتابه (إحياء علوم الدين) بال المغرب والأندلس، تغيّر وجهه، ورفع يده إلى الدعاء، والطلبة يؤمّون، فقال: «اللهم مزق ملوكهم كما مزقتموه، وأذهب دولتهم كما أحرقوه». وأن ابن تومرت رجا الإمام عائذًا أن يدعوه الله أن يكون ذلك على يده، فاستجاب الإمام، ودعا الله بذلك.

بعدها إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب العربي^(١)، ويصف ابن خلدون محمد بن تومرت بعد عودته تلك في سنة (٥١٢ هـ = ١١١٨ م) وكان قد بلغ من العمر تسعًا وثلاثين سنة، فيقول: أصبح محمد بن تومرت «بحرًا متفرجراً من العلم، وشهاباً وارياً من الدين»^(٢). يعني أنه جمع علوماً كثيرة وأفكاراً جمةً من تيارات إسلامية مختلفة، وأصبح بالفعل من كبار علماء المسلمين في هذه الآونة.

محمد بن تومرت ونهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في طريق عودته من بلاد العراق والشام مكث محمد بن تومرت فترة في الإسكندرية يُكمل فيها تعليمه، وهناك بدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن خلال سيرته ورغم أنه - كما ذكرنا - كان عالماً كبيراً، إلا أنه كان شديداً غاية الشدة في إنكار المنكر والأمر بالمعروف، شدة تصل إلى حد التنفير، فكان ينفر عن كثير من الناس حينما يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر، حتى إنه خرج من الإسكندرية

= وينقض هذه الواقعة من أساسها أن قرار المرابطين بحرق كتاب (الإحياء) قد صدر لأول مرة في سنة ٥٠٣ هـ في أوائل عهد علي بن يوسف، وذلك حسبياً يخبرنا ابن القطان، أعني بعد أن غادر الغزالي بغداد إلى نيسابور لآخر مرّة، وقيل وفاته بنحو عام، فأين إذًا ومتى كان لقاء ابن تومرت به؟ وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية، أن نصدق تلك القصة التي سُجّلت حول حرق كتاب الإحياء؟ هي أسطورة إذًا، سُجّلت كما سُجّلت نسبة ابن تومرت إلى آل القيس؛ لتغدو هالة تحيط بشخصه وسيرته، وتُذكّر عناصر الخفاء والقدسية حول شخصه وإمامته، وقد اختير الإمام الغزالي ببطولتها بالذات لتبوئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع في العالم الإسلامي... ومن ثم فإننا نجد كثيراً من المؤرخين والمفكريين يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها، فابن الأثير ينفيها بصرامة ويقول لنا: «والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أي: بالغزالى)». ويُبَدِّي ابن خلدون ريبة فيها، ويحملها على حمل الزعم، وكذلك يُعاملها لسان الدين بن الخطيب، وكذلك فإن البحث الحديث يُنكرها وينفيها، ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألماني ميلر، والعلامة المستشرق إنجناس جولدسيهير... على أن ذلك كله لا يعني أن ابن تومرت لم يتتأثر في تعاليمه الدينية بآراء الغزالى ونظرياته...». محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/١٦١-١٦٣.

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٤٥، وتاريخ ابن خلدون، ٦/٢٢٦، والسلاوي: الاستقصاء، ٢/٧٨.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/٢٢٦.

مطروداً منها، طردها إليها بعدها خشي منه، ثم ركب في سفينة متوجهة إلى بلاد المغرب العربي، وعلى السفينة -أيضاً- ظلَّ محمد بن تومرت على حِدَّته في أمره بالمعروف ونفيه عن المنكر، فمنع الخمور على ظهر السفينة، وأمر بقراءة القرآن.

واشتَدَّ على الناس واختلف معهم كثيراً، فألقوه في عرض البحر، وتركوه وساروا إلى بلاد المغرب، وهو يسبح بإزاء السفينة نصف يوم كامل، فلما رأوا ذلك اشقووا عليه، وأنزلوا مَنْ أخذه من البحر وعظم في صدورهم، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب^(١)، وفي تونس تنتهي رحلته فينزل إلى بلد تُسمَّى المهدية، ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق، وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلَّة الملاهي، أو أوانِي الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاءوا إليه وقرءوا عليه كتباً من أصول الدين^(٢).

كان محمد بن تومرت يُريد تغيير المنكر كله تغييرًا جذرِيًّا ودفعه واحدة، والحق أن هذا أمر مخالف لسُنَّة الله تعالى؛ فحين بدأ الرسول ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة لم يأمر بهذا التغيير الجنري المفاجئ ولا سعي إليه، بل إن الأمور كانت تتنزل عليه ﷺ من عند الله ﷺ بصورة متدرِّجة؛ فقد نزل أمر اجتناب الربا على درجات متسلسلة، ومراعية للتدريج مع الناس، وكذلك كان الأمر في تحريم الخمور وتجريمهما، والناس قبل ذلك لم تكن تعرف لكتلِيهما حرمة، حتى في أمر الجهاد والقتال في سبيل الله؛ فلم يتتنزل هذا التكليف دفعه واحدة.

تلك الأمور التي فقهها جيداً عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين توَّلَ الخلافة؛ فقد كانت هناك كثير من المنكرات في دمشق وما حولها من البلاد، وكان ابن عمر بن

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٤٦.

(٢) السلاوي: الاستقصا، ٢/٧٩.

عبد العزيز رحمه الله شديداً في الحقّ، فأراد أن يُغيّر كل هذه المنكرات مستقرياً بسلطان أبيه، إلا أنه وجد أباه عمر بن عبد العزيز يسير فيها بطريقة متدرّجة فشقّ ذلك عليه، فذهب إليه، وقال له: يا أبي؛ أنت تملك الأمور الآن، ولك هيمنة على بلاد المسلمين، فيجب أن تُغيّر هذا المنكر كله، وتُقيم الإسلام كما ينبغي أن يُقام. فقال له عمر بن عبد العزيز رحمه الله: يا بُنْيَ؟ لو حملت الناس على الحقّ جملةً واحدة تركوه جملةً واحدة^(١).

لكن محمد بن تومرت لم يكن ينحو مثل هذا المنحى، إنما يُريد أن يُغيّر كل شيء تغييرًا جذريًّا، بل وبأسلوب فظٌّ شديد، وقد قال جلّ شأنه يخاطب نبيه الكريم: «فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَأَ غَلِظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩]. خطابٌ لشخصه صلوات الله عليه؛ وهو المؤيد بالوحى، وأحكم الخلق، وأعلم البشر جميعاً: إن دعوتَ إلى الله سبحانه بفظاظة وغلظة انقضَّ الناس عنك، فيما البال بعموم الناس من دونه؟!

محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي ولقاء الأفكار التورية:

ولما كان ابن تومرت في بجایة قابل رجلاً، كان يُريد هو -أيضاً- ما كان يُريده ابن تومرت في أول رحلته في طلب العلم إلى الأقطار الإسلامية المختلفة، ذلك الرجل كان يُدعى عبد المؤمن بن عليٍّ، وفي أول لقاء له به سأله عن سبب تركه بلاده وسياحته في البلاد، فأجابه بأنه يبحث عن العلم والدين، فردَّ عليه محمد بن تومرت بأن بضاعتك وما تبغيه لدى^(٢)، فالتقى كثيراً، وقد أخذ محمد بن تومرت يُعلّمه من علمه ما أعجب عبد المؤمن بن عليٍّ كثيراً، وتأخّيا في الله، وظلاً معًا في طريقهما لم يفترقا حتى مات محمد بن تومرت على نحو ما سيأتي بيانه^(٢).

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤١٩/٦.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٤٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/٢٢٧، والسلامي: الاستقصاء، ٢/٨٠، ومنهم من قال: إنه لقيه بملالة على بعد فرسخ من بجایة. ومنهم من قال: بفندارة من بلاد متيبة. انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٠٠.

أخذ عبد المؤمن بن علي العلم من محمد بن تومرت مع الطريقة الفظة في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ الاثنان معًا يدعوان إلى الله في بلاد المغرب العربي، وقد انضم إليهما خمسة آخرون، وأصبحوا بذلك سبعة أفراد بـمحمد بن تومرت نفسه^(١)، وعلى هذه الحال وجد محمد بن تومرت ومن معه أن المنكرات قد كثُرت بصورة لافتة في بلاد المرابطين، ووُجد أن الخمور قد تفشت حتى في مَرَاكِش، تلك العاصمة التي أسسها يوسف بن تاشفين رحمه الله من قبل، وكانت ثغرة من ثغور الإسلام، كما رأى الولاة وقد بدءوا يظلمون الناس، ويفرضون عليهم الضرائب، ويعذبون أموال اليتامي، ووُجد - أيضًا - ذاك السفور والاختلاط قد انتشر وصار شيئاً مألوفاً بين الناس؛ حتى إنه شاهد بنفسه امرأة سافرة وقد خرجت في فوج كبير، وعليه حراسة ما يماثل أفواج الملوك، وحينما سُأله عن صاحبة هذا الفوج وتلك المرأة السافرة، علم أنها اخت أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فأنكر ذلك عليها إنكاراً شديداً؛ حتى إن بعض المصادر تثبت أنه وأصحابه كانوا يضربون وجوه مطايها حتى أوقعوها من عليه^(٢).

محمد بن تومرت وفكرة في التغيير

لا بدّ من تغيير لهذا الوضع المخزي، كانت هذه هي الفكرة التي اختمرت واستحوذت على رأس محمد بن تومرت؛ فجلس مع أصحابه وعددتهم ستة نفر، ثم عرض عليهم فكرته في التغيير، فكان رأيه أن المعاصي والمنكرات قد استشرت في بلاد المرابطين، وأن السيل قد بلغ الذبي، وأن الحل في هذا الأمر هو أن نبدأ بالرأس، ونُقصي الحُكَّام عن الحُكْم، فنبداً بعلي بن يوسف بن تاشفين ومن معه من الحُكَّام

(١) انظر: ابن خلkan: وفيات الأعيان: ٤٩ / ٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩ / ٥٤٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢ / ٨٣.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢ / ٢٣١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ٢٢٧.

والولاة وقادة الجيش، فنخرج عليهم فنقصيهم عن الحكم؛ ومن ثم يكون الأمر في أيدينا، فنستطيع أن نغير في البلاد وفق ما يقتضيه كتاب الله وسنته رسوله ﷺ.

فمحمد بن تومرت يريد أن يختصر طريق التربية، ويختصر الطريق الطويل الذي بدأه عبد الله بن ياسين من قبله، والذي سار فيه سنوات وسنوات حتى تمكّن من الأمور، يريد إقصاء علي بن يوسف بن تاشفين ومن معه، ثم بعد أن يتملّك الأمور يبدأ في تعليم الناس من فوق كرسي الحكم وبسلطان القانون.

وإذا أكملنا السير مع محمد بن تومرت فإن عليًّا بن يوسف بن تاشفين كان يُقيّم شرع الله ﷺ، وكان يجاهد في سبيل الله، إلا أنه كانت تشوّبه بعض التجاوزات والمخالفات، مثل التي ذكرناها، وهذه المخالفات لم تكن تُعطي الحق لمحمد بن تومرت ومن معه - أيًا كانت نياتهم فيها ييدو لنا، وأيًّا كان تقْسِفهم وزهدهم وعلمهم الغزير - أن ينحرجوه عليه، بل كان عليهم أن يُقيّموا الأمر من جديد، وأن يعاونوه على العودة إلى طريق الإسلام الصحيح، وكان عليهم تعليم الناس وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة.

ولننظر إلى تغيير رسول الله ﷺ في بداية الدعوة، وحينما خالفه المشركون في مكة؛ فقد كان من الممكن أن يفعل الأمر نفسه الذي فَكَرَ فيه محمد بن تومرت، كان من الممكن أن يُوصي عليًّا بن أبي طالب والزبير بن العوَّام وطلحة بن عبيد الله أن يقوم كُلُّ منهم فيقتل رجلاً من صناديد قريش، ثم يتولّ هو الحكم في مكة، ومن ثم يُقيّم شرع الله ﷺ.

ولأنها ليست سُنّة الله في التغيير لم يتبعها رسول الله ﷺ، بل أخذ يُرَيِّ الناس بالتدريج سَنَةً بعَد سَنَةً، حتى قضى ثلاث عشرة سنة في مكة على تلك الحال، ثم هاجر إلى المدينة المنورة وتابع مسيرته في تربية الناس بالتدريج، حتى كانت موقعة

بدر مع الكافرين، وتلتها الواقع الكثيرة التي أصقلت معادن المؤمنين؛ حتى تمكّن رسول الله ﷺ بعد ذلك من السيطرة على الأمور كلها في جزيرة العرب، واستطاع أن يُنشئ جيلاً من الرجال على طراز فريد من نوعه، استطاعوا من بعده أن يحملوا الرسالة إلى أهل الأرض قاطبة.

بین علی بن یوسف بن تاشفین و محمد بن تومرت :

هذا هو المنهج الذي سلكه محمد بن تومرت قاصداً به الإصلاح والتغيير، وهو -بلا أدنى شكًّ - مخالف تماماً للنهج القويم، ونجح رسول الله ﷺ في العمل ذاته على نحو ما رأينا.

سمع عليٌّ بن یوسف بن تاشفین بمحمد بن تومرت وبدعوته، وبمنطق سليم فكرَ الخليفة في عقد مناظرة بين محمد بن تومرت وبين علماء دولة المرابطين، يكون مقرّها قصر الخليفة نفسه، فقدم محمد بن تومرت على رأس أتباعه الستة، وأتى علماء المرابطين، وكان على رأسهم كبير العلماء وقاضي القضاة مالك بن وهيب، وبدأ الفريقان في المناظرة.

ونظرة أولية إلى فكرة عَقْد مثل هذه المناظرة يُوحِي بأن عليًّا بن یوسف بن تاشفین كان رجلاً ما زال يحمل من الخير الكثير، وإنما - وعلى أقل تقدير - كان من الممكن أن يفتعل مثل هذه المناظرة ويقوم بعدها بسجن محمد بن تومرت، أو قتلها أو فعل أيّ شيء آخر من هذا القبيل، خاصةً وهو ذلك الشائر على الحاكم، والذي يريد قلب وتغيير نظام الحكم، وهذا ما سيزداد تأكيداً في نهاية هذه المناظرة في صالح الأمير على نحو ما سيأتي.

وفي هذه المناظرة تفوق محمد بن تومرت على علماء دولة المرابطين تفوّقاً ملحوظاً، فقد كان - كما ذكرنا - من كبار العلماء المتشبعين بالعلم، وكان كما وصفه ابن خلدون بحرًا متفرّجاً من العلم وشهاباً في الدين، وهو الذي أمضى عشر سنين

في بغداد يتعلم علم المجادلة، وفنون المحاورة على يد العقليين من المعتزلة وغيرهم، فاستطاع محمد بن تومرت أن يحاجّ علماء دولة المرابطين جمِيعاً في كل القضايا التي أثيرت بينه وبينهم، حتى بكى عليٌّ بن يوسف بن تاشفين في مجلسه؛ لما رأى من كثرة المعاشي في دولته، وهو لا يدرِي عنها شيئاً، أو هو يدرِي عنها لكنه لم يُعْرِّفَها، بكى من الخشية لما سمع حجج وأقاويل محمد بن تومرت، لكن ذلك لم يُشفع له عنده، وظلَّت الحِلْةُ واضحةً جليةً في كلامه وحديثه مع الأمير.

وكان علماء الدولة ووزراؤها يعلمون أنه يحرّض الناس على الخروج على الحاكم، فأسرَّ مالك بن وهيب قاضي القضاة في أذنِ عليٍّ بن يوسف بن تاشفين؛ بأنَّ عليه أن يعتقل هذا الرجل، وينفق عليه ديناراً كل يوم في السجن، وإلا ستمُّرْ عليك الأيام فتنفق عليه كل خزائنك دون أن تقدر عليه؛ لكن الوزير أشار على علي بن يوسف بن تاشفين بعدم فعل ذلك؛ خاصَّةً وأنه جلس في مجلسه وبكي من خشية الله عَزَّلَه حين سمع كلاماته، فلا يُعقل أن تأتي بعد ذلك وتعتقله، فتحدَّث بذلك ببلبة عند عموم الناس، كما أنه بمَنْ معه سبعة نفر فقط، أمَّا أنت فحاكم دولة ضخمة، وهي دولة المرابطين؛ فكيف تخشى من هذا الرجل؟!

وازن عليٌّ بن يوسف بن تاشفين بين رأي مالك بن وهيب قاضي القضاة وبين رأي الوزير، واستقرَّ أخيراً على ترك محمد بن تومرت؛ خشية أن يأثم إن حبسه دون وجه حقٍّ؛ فالرجل ما زال به خير، وكان من الممكن أن يصلاح أمره إذا حاول معه محمد بن تومرت ومَنْ معه بالتالي هي أحسن، لكنه لم يفعل^(١).

محمد بن تومرت وجماعة الموحدين

ما أن خرج محمد بن تومرت من مجلس الأمير علي بن يوسف بن تاشفين من

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٥١، وابن كثير: البداية والنهاية، ٢٣١ / ١٢، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٢٢٧ / ٦.

مَرَّاًكُش حتى نزل على صديق له في بلد مجاور، وذهبوا بعدها إلى قرية في عمق الجبل اسمها تينمل، وهي التي ستكون عاصمة للدولة التي سوف يُؤسّسها محمد بن تومرت بعد ذلك^(١).

وكان محمد بن تومرت زاهداً أشدَّ الزهد، وكان لا يحمل في يده إلا عصا وركوة^(٢)، ولا يأكل إلا القليل من الطعام، وكان - كما ذكرنا - صاحب علم غزير، فبدأ الناسُ في هذه القرية الصغيرة يتلقون حوله ويسمعون لكلامه، وبدأ يؤثّر فيهم بشكل طبيعي؛ لما كانوا عليه من المعاصي والمنكرات، تلك التي انتشرت في بلاد المرابطين، ثم بدأ يُكوّن حوله جماعة بدت صغيرة، وقد سُمِّيَّها جماعة الموحدين^(٣)، وهي تسمية خطيرة لما سنعلمه بعد قليل.

يدرك عبد الواحد المراكشي مراحل دعوة ابن تومرت وتراثه الناس في تينمل، فيقول: «من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره، ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير من غير أن يُظهر إمرة ولا طلبة ملك، وألْفَ لهم عقيدة بلسانهم، وكان أفعى أهل زمانه في ذلك اللسان، فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم لها، وأشربت قلوبهم محبتها، وأجسامهم طاعتها، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه؛ أولًا على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء، ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة، وأمر رجالاً منهم من استصلاح عقوفهم بنصب الدعوة واستئثار رؤساء القبائل، وجعل يذكر المهدي ويُشَوّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبة ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله. ورفع نسبه إلى النبي ﷺ وصرح بدعوى العصمة

(١) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٥ / ٥٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩ / ٤٥٥.

(٢) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء والدلـل الصغيرة. المعجم الوسيط ٣٧١ / ١.

(٣) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ٥ / ٥١.

لنفسه، وأنه المهدى المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة؛ حتى استقر عندهم أنه المهدى، وبسط يده فباعوه على ذلك، وقال: أبأياعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله. ثم صنف لهم تصانيف في العلم منها: كتاب سماه (أعز ما يطلب)، وعقائد في أصول الدين، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يُطن شيئاً من التشيع، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء^(١).

قويت شوكة محمد بن تومرت، وبمجرد أن قويت شوكته ظهرت عليه انحرافات عقائدية خطيرة؛ فقد كان لأخذة العلم من تيارات مختلفة تمثل سنة وشيعة ومعتزلة، وغيرهم في بلاد الشام وبغداد ومكّة ومصر وغيرها من البلاد، كان من جراء ذلك أن ظهر عليه خليط من العقائد المختلفة؛ والتي تمثلت فيما يلي:

أولاً: أدئع العصمة:

وعند أهل السنة والجماعة أن العصمة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم يقولوا بها لغيرهم، حتى لكتاب الصحابة الذين خصّهم الله بالفضل؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم^(٢)؛ فابن تومرت بهذا النهج قد وافق الرافضة الثانية عشرية، الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم؛ حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبار والصغار والنسيان، كما قالوا: إن الإمام كالنبي، يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمداً وسهوأ، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان^(٣).

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٥٤، وأبن الأثير: الكامل ٩/١٩٦.

(٢) انظر: ابن تيمية: منهاج أهل السنة، ٧/٥٩.

(٣) انظر: أبو حامد الغزالى: فضائح الباطنية، ص ١٤٢، والخميني: الحكومة الإسلامية، ص ٥٢، ومن المفيد أن نقل قول الخميني: «إإن من ضروريات مذهبنا أن لأنتمنا مقاما لا يلجه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنوارا، فجعلهم الله بعرشه محدثين، وجعل لهم من المزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله».

وهكذا نرى محمد بن تومرت قد اشتَطَ كثيراً في القول بالعصمة لنفسه، وهذا - بلا شكّ - انحراف عقدي خطير؛ لأن الاعتراف بعصمتة أو عصمة غيره يُوجب الإيمان بكل ما يقوله، فقد أعطاه ذلك معنى النبوة، وإن لم يُعطه لفظها.

ثانياً: أدعى أن المرابطين من المحسنة:

كان المرابطون يُثبتون لله تعالى صفاته كما هي، لكن محمد بن تومرت أخذ فكر
المعتزلة في نفي الصفات عن الله تعالى، وهي قضية جدلية طويلة لا تُريد الخوض في
تفاصيلها، وخلاصة الأمر في ذلك أنه لما ثبت أنَّ المرابطين يُثبتون الصفات لله تعالى،
ادعى أنهم من المحسنة؛ وتبعاً لهذا الادعاء فقد قال بکفر المرابطين، وادعى أن عليَّ
بن يوسف بن تاشفين ومنْ معه من الولاة والعلماء، ومنْ يعمل تحت حكمهم ومنْ
يرضي بحكمهم، هو من الكافرين^(١).

وهذا منحى خطير؛ إذ إنه كفرٌ حُكَّام الدولة التي كان يعيش فيها، وهي دولة المرابطين التي تشمل بلاد الأندلس والمغرب العربي في ذلك الوقت.

فكان يقول لأتباعه: «واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه والشريك والنمقاص، والأفاق والحدود والجهات، ولا تجعلوه - سبحانه - في مكان أو جهة، فإنه تعالى موجود قبل الامكنة والجهات، فمن جعله في جهة ومكان فقد جَسَّمه، ومنْ جسمه فقد جعله مخلوقاً، ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن»^(٢). لقد تبَنَّى ابن تومرت منهج المعتزلة في الأسماء والصفات؛ حيث نفى كل ما عساه أن يُوهم الشبه والمثلية لله سبحانه، حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله تعالى في الكتاب والسُّنَّة؛ وهذا سَمَّي أ أصحابه بالموحدين؛ لأنهم في رأيه هم الذين يُوَحِّدون الله لنفيهم الصفات عنه بَلَى، كما كان يُسَمَّى أتباعه

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩ / ٥٥٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ٢٢٧.

(٢) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص ٢٠٤، نقلًا عن الصلاي: دولة الموحدين، ص ٤١.

بالمؤمنين، ويقول لهم: «ما على وجه الأرض من يُؤمِّن إيمانكم»^(١).

ثالثاً: استحلَّ دماء المرابطين:

وبعَدَ هذا التكفير السابق لغير الموحدين استحلَّ محمد بن تومرت دماء المرابطين؛ ومنْ ثُمَّ فقد أمر بالخروج عليهم وقتلهم، وأنه ليس هناك إثم في ذلك؛ بل إن في قتلهم إحراراً لثواب عظيم^(٢)، وهنا يبرز أحد أخلاق محمد بن تومرت فقد كان متساهلاً في الدماء، وهي خاصية من خصائص الخوارج، الذين تَعلَّمُ على أيدي بعضهم - كما ذكرنا - أثناء رحلته لطلب العلم.

كان ابن تومرت يهدف إلى هدم دولة المرابطين من جذورها، وبناء دولة الموحدين على أنقاضها مهما كلفه ذلك؛ وقد استباح في سبيل ذلك الدماء والأرواح والأموال، وكانت غايته تلك مبررة - من وجهة نظره - لكل وسيلة، فكان لا يتردد في قتل منْ يشكُّ في إيمانه بما يدعيه من مبادئ، حتى ولو كان من أتباعه؛ فقد قام ابن تومرت بما سُمِّي التمييز؛ أي: تمييز أتباعه الصادقين من المداهنين والمنافقين والمخالفين، فيقتلهم على الفور ليظلَّ صفة قوياً^(٣).

ومن المعلوم أنَّ من أهمَّ مقاصد الشريعة الإسلامية الحفاظ على النفس، وما فعله هذا الآثم إنما هو اعتداء بغير حقٍّ على أنفسِ حرم الله إزهاقها، وفي فعله هذا انحراف واضح عن الشرع، وارتکاب متعَمِّد للكبائر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَذَابُهُ عَظِيْمٌ﴾ [النساء: ٩٣].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٥٥.

(٢) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ٢٢٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٩٩ / ٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ٢٢٨.

تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرن بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله؛ حيث يقول -سبحانه- في سورة الفرقان: **﴿وَالَّذِينَ لَا يُنْهَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِنَّمَا أَخْرَجَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحُقْقِ﴾** [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: **﴿فَلَمْ تَعَاوَنُوا أَثْلَامُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** إلى أن قال: **﴿وَلَا تَعْنِيَنِي النَّفْسُ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحُقْقِ ذَلِكُمْ وَصَاحِبُكُمْ بِهِ لَعْنَكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** [الأنعام: ١٥١]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا... منها: **«لَرَوَالِ الدُّنْيَا أَهُونُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ فَنِي رَجُلٌ مُسْلِمٌ»**^(١).

إن أمر القتل في غاية الخطورة ولا يستحله إلا من تجرد من كل معاني الأخلاق والرحمة ومن كل المعاني الإنسانية.

وفي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«لَا يَحْلِلُ دَمُ امْرِيَّ مُسْلِمٍ يُشَهِّدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا يَحْدُدَنِي ثَلَاثٌ: الشَّيْبُ الرَّازِيُّ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»**^(٢).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب -بغير حق- ولكنها -كذلك- جريمة قتل للوشحة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم، إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها؛ ومن ثم قُرنت بالشرك في مواضع كثيرة؛ واتجه بعضهم -ومنهم ابن عباس- إلى أنه لا توبة منها.. ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى: **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشَرِّكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»** [النساء: ٤٨]. فرجأ للقاتل التائب المغفرة.. وفسر الخلود بأنه الدهر الطويل. والذين تربوا في مدرسة الإسلام الأولى، كانوا يرون

(١) رواه الترمذى: كتاب الديات، باب في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، والنمساني (٣٩٨٧)، وصححه الألبانى انظر: صحيح الجامع (٥٠٧٧).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/٢٣٧٦.

(٣) البخارى: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: **«أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ»** (المائدة: ٤٥) (٦٤٨٤)، عن عبد الله بن مسعود رض، ومسلم: كتاب القسمامة، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) واللفظ له.

قاتلي آبائهم وأبنائهم وإخوانهم - قبل إسلامهم - يمشون على الأرض - وقد دخلوا في الإسلام - فيهيج في نفوس بعضهم ما يهيج من المرارة، ولكنهم لا يُفَكِّرون في قتلهم، لا يُفَكِّرون مرّة واحدة؛ ولا يخطر لهم هذا الخاطر في أشد الحالات وجداً ولذعاً ومرارة؛ بل إنهم لم يُفَكِّروا في إنقاذهم حقاً واحداً من حقوقهم، التي يُحْوِلُها لهم الإسلام^(١).

كان لا بدّ لنا من هذا الوقفة مع هذا الأمر الخطير؛ أمر الدماء التي استحلّها هذا الآثم المخادع، أمّا عملية التمييز التي سبق الإشارة إليها فقد استعان فيها ابن تومرت برجل على شاكلته يُسمّى أبو عبد الله بن محسن الونشريسي، وكان يُلقبه بالبشير؛ إمعاناً في خداع الناس وإضلالهم، وقد طلب ابن تومرت من هذا الفاسق أن يُخفي علمه وحفظه للقرآن، ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلما كان عام تسعة عشر وخمسين (٥١٩ هـ) خرج يوماً، فقال: تعلمون أن البشير - يُريد الونشريسي - رجل أميٌّ، ولا يثبت على دابة، فقد جعله الله مُبَشِّراً لكم، مُطْلِعاً على أسراركم، وهو آية لكم قد حفظ القرآن، وتعلّم الركوب، وقال: اقرأ. فقرأ الخاتمة في أربعة أيام، وركب حصاناً وساقه، فبُهْتُوا، وعَدُوهَا آية لغباوتهم، فقام خطيباً، وتلا: ﴿لِيَوْمَرَ اللَّهُ الْخَيْثَ بِنَ الطَّيْبِ﴾ [الأفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثُرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا البشير مطلع على الأنفس ملهم، ونبيكم ﷺ يقول: «إِنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مُحَدِّثِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»^(٢). وقد صَحِبَنا أقوام أطلعه الله على سرّهم، ولا بدّ من النظر في أمرهم، وَتَيَمِّمِ العدل فيهم،

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢/٧٣٦.

(٢) والحديث رواه أبو هريرة رض قال: قال رسول الله ص: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَّةِ مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَخْدَدُ فَإِنَّهُ عُمَرٌ». البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي (٣٤٨٦) واللفظ له، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رض، باب من فضائل عمر رض (٢٣٩٨).

ثم نودي في جبال المصامدة: مَنْ كَانَ مطِيعاً لِلإِمَامِ فَلِيأْتُهُ، فَأَقْبَلُوا يَهْرُونَ، فَكَانُوا يُعَرَّضُونَ عَلَى الْبَشِيرِ، فَيُخْرِجُ قَوْمًا عَلَى يَمِينِهِ، وَيَعْدُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَقَوْمًا عَلَى يَسَارِهِ، فَيَقُولُ: هُؤُلَاءِ شَاكُونَ فِي الْأَمْرِ. وَكَانَ يُؤْتَى بِالرِّجَالِ مِنْهُمْ، فَيَقُولُ: هَذَا تَائِبٌ رُّدُّوهُ عَلَى الْيَمِينِ تَابَ الْبَارِحةُ. فَيَعْتَرِفُ بِمَا قَالَ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ فِيهِمْ عَجَابٌ، حَتَّى كَانَ يُطْلَقُ أَهْلَ الْيَسَارِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا هُمْ إِلَيْهِ مُنْتَهٍ، فَلَا يَفْرُّ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِذَا تَجَمَّعَ مِنْهُمْ عَدَّةٌ، قَتَلُوهُمْ قَرَابَاهُمْ حَتَّى يَقْتَلَ الْأَخْ أَخَاهُ!»^(١).

وأورد ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) هذا الأمر فقال: «وكان الونشريسي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السر؛ بحيث لا يعلم أحد ذلك منه، فلما كان سنُه تسع عشرة، وخف المهدى -ابن تومرت- من أهل الجبل، خرج يوماً لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنساناً حسن الشياب، طيب الريح، فأظهر أنه لا يعرفه، وقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريسي. فقال له المهدى: إن أمرك لعجب! ثم صلَّى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إنَّ هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي فانظروه، وحقّقوه! فلما أضاء النهار عرفوه، فقال له المهدى: ما قصَّتك؟ قال: إنني أتاني الليلة مَلَكٌ من السماوات، فغسل قلبي، وعلَّمني الله القرآن والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى المهدى بحضورة الناس، ثم قال له: نحن نختبرك. فقال: افعل.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أيّ موضع سُئلَ، وكذلك الموطأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعَجَبَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ، واستعظاموه، ثم قال لهم: إن الله تعالى قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنَّةَ من أهل النار، وأمركم أن تقتلوا أهل النار، وتتركوا أهل الجنَّةَ، وقد أنزل الله تعالى ملائكةَ إِلَى البَئْرِ الَّتِي فِي الْمَكَانِ الْفَلَانِ يشهدون بصدقِي.

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/٥٤٦.

فسار المهدى والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر، وصَلَّى المهدى عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله؛ إن أبا عبد الله الونشريشى قد زعم كيت وكيت. فقال مَنْ بها: صدق. وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلما قيل ذلك من البئر، قال المهدى: إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطَمَّ لثلاً يقع فيها نجاسة، أو ما لا يجوز. فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمَّها - وبهذا يكون قد قتل الرجال الذين اتفق معهم على هذا القول؛ لثلاً يفْتَضَح أمره - ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريشى يعْدُ إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار. فيُلْقى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغُرّ ومن لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة. فيُرْكَ على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أَمِنَ على نفسه وأصحابه^(١).

هذا فعل ابن تومرت بمن معه، فكيف يكون فعله بالمرابطين؟!

ولقد رُويت عنه كثير من الأخبار التي احتال فيها؛ حتى ظهر وكأنه يعلم الغيب، ولا نشك أن له عيوناً وأتباعاً، كما لا شك في أنه شخصية قوية ذات بصر وخبرة وفراسة، يروي المراكشي واقعة منها فيقول: «أُخْبِرْنِي مَنْ رَأَاهُ - مَنْ أُثْقِ إِلَيْهِ - يضرِّ النَّاسَ عَلَى الْخَمْرِ بِالْأَكْمَامِ وَالنَّعَالِ وَعَسْبِ النَّخْلِ؛ مُتَشَبِّهًا فِي ذَلِكَ بِالصَّحَّابَةِ». ولقد أخبرني بعض مَنْ شهدَه وقد أتى برجل سكران، فأمر بحده، فقال: رجلٌ من وجوه أصحابه يُسَمَّى يوسف بن سليمان: لو شدَّدْنَا عليه حتى يُخْبِرَنَا مَنْ أَيْنَ شرَبَهَا لَنَحْسَمْ هَذِهِ الْعُلَمَاءَ مِنْ أَصْلَهَا. فأَعْرَضَ عنْهُ، ثم أعاد عليه الحديث، فأَعْرَضَ عنْهُ، فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا: شربتها في دار يوسف بن سليمان. ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت، ثم كُشفَ على الأمر، فإذا عيَّدَ ذلك الرجل سقوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيمًا.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٩٩، ١٩٨/٩.

إلى أشياء كان يُخَبِّرُ بها فتفتح كُلُّ مَا يُخَبِّرُ، ولم يزد كذلك وأحواله صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين المذكورين تختَلُّ، وانتقاد دولتهم يتزايد، إلى أن تُؤْتَى ابن تومرت... بعد أن أَسْسَ الأمور، وأحْكَمَ التدبير، ورَسَمَ لهم ما هم فاعلوه^(١).

كذلك يروي الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وقد بلغني فيما يُقال: أن ابن تومرت أخفى رجالاً في قبور دُوَارِسَ^(٢)، وجاء في جماعة لِيُرِيهِم آية، يعني فصاح: أئُها الموتى أجيروا. فأجابوه: أنتَ المهدي المعصوم، وأنتَ وأنت.. ثم إنه خاف من انتشار الحيلة، فخسف فوقهم القبور فما توا»^(٣).

وقفة مع محمد بن تومرت وجماعته الموجدة

في جماعته الجديدة كان محمد بن تومرت يقتل العشرات من المخالفين له، حتى من فرقته وجماعته (الموحدين)، فالذى يُخَالِفُهُ في الرأي ليس له من دواء إلَّا القتل، وهو أمر في غاية الغرابة؛ نظراً لما عنده من العلم الغزير، وأغرب منه كان ادعاؤه بعض الخوارق، وأنه هو المهدي المنتظر!

ولا شكَّ في أنْ يعتقدَ صدقَه وما يذهب إليه من أقواله تلك كثيرٌ من الناس؛ وذلك - كما ذكرنا - لأنشغال علماء الدولة بالأمور الفرعية عن تعليم هؤلاء الناس أصول العقائد وأصول العبادات، فقد أقام العلماء جداراً عازلاً بينهم وبين العامة، الذين لا يعرفون أين الحقُّ وأين الباطل، والذين لا يستطيعون أنْ يُميِّزوا بين الغثِّ والسمين.

ومن هنا حين رأى مثل هؤلاء الناس رجلاً مثل محمد بن تومرت في شخص

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) دوَارِسَ: جمع دارس: وهو العافي وذهب الأثر ومتقادم العهد. ابن منظور: لسان العرب، مادة درس ٦، ٧٩/٦.
المعجم الوسيط ٢٧٩/١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/٥٥١.

العالم الكبير، وهو يروي من أحاديث رسول الله ﷺ عن فلان وفلان، ثم هو يحفظ كتاب الله، ويعلم سير الصالحين والسابقين، ويعلم فقه كذا وكذا، حين رأوا ذلك ما كان منهم إلا أن يسمعوا ويطيعوا لما يقوله، وما يملئه عليهم عالمهم ومعلمهم، وقد اعتقدوا جمِيعاً بعصمته، واعتقدوا جمِيعاً بحلٍ قتل المرابطين، بل والثواب الجزيل على قتلهم.

ولنا أن نتخيل مثل هذا الأمر في حقّ المرابطين، الذين فتحوا البلاد، وأقاموا صرح الإسلام في بلاد المغرب والأندلس لسنوات وسنوات، الآن وبعد ظهور بعض المنكرات في بلادهم، وبعد انشغالهم بالجهاد عن التعليم، أصبحوا يُكَفِّرونَ وَتُحْكَلُ دماءُهم، ويُقاتَلونَ من قِبَلِ جماعة المُوَحَّدين، ذلك الاسم (المُوَحَّدين) الذي يُشير بقوّة إلى أن غيرهم كفار وليسوا بمُوحدين أو مسلمين.

* * *

الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وتأسيس دولة الموحدين



الرابطون والموحدون وقتل الأعداء

حل محمد بن تومرت على عاتقه وعاتق جماعته -الموحدين- أمر مقاتلة المرابطين وسفك دمهم، يقول ابن خلدون ملخصاً معارك المرابطين والموحدين: «ولما تمّ له (محمد بن تومرت) خمسون من أصحابه سَيَّاهُمْ أيت الخمسين، وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكаниهم من هرغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتاته وتينملل، فاجتمعوا إليه، وأوقعوا بعسكر لمتونة، فكانت هزيمة الفتح، وكان الإمام (أي: ابن تومرت) يَعْدُهم بذلك، فاستبصروا في أمره (أي تأكدوا من صدق ابن تومرت)، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وتردّدت عساكر لمتونة إليهم مرّة بعد أخرى ففُضُّلُوهُم... وكانوا يُسَمِّون لمتونة الحشم، فاعتزم على غزوهم، وجمع كافة أهل دعوته من المصامدة، وزحف إليهم فلقوه بكيك، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات، فلقيهم هناك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف، وإبراهيم بن تاعبشت، فهزّمهم الموحدون...»^(١).

لقد استطاع ابن تومرت أن يتحصن في تينملل وأن يُخرج منها الجيوش التي تفتكت بالدولة المراطية، ولقد استطاع بطبيعة الحال أن يُوَسِّع الأرض التي حوله

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/٢٢٨.

والتي ينطلق منها، ولقد التقوا مع المرابطين في موقع عديدة؛ كان منها تسع مواقع ضخمة، انتهت سبع منها بانتصارهم على المرابطين، وهُزموا في اثنتين.

وأكبر هزائمهم كانت حين استفحلا خطرهم فجهز لهم علي بن يوسف بن تاشفين جيشاً كبيراً، ثم خرج من الموحدين جيشاً كبيراً على قيادته عبد المؤمن بن علي، يروي عبد الواحد المراكشي كيف سارت المعركة فيقول: «ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة، جلُّهم من أهل تينملل مع مَنِ انضاف إليهم من أهل سوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلينَ، الذين سَمُّوا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي الموصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلواهم؛ فقد أباحت لكم السنة قتالهم». وأمرَ على الجيش عبد المؤمن بن علي وقال: أنتم المؤمنون، وهذا أميركم. فاستحقَ عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين.

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش، فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة، بجيش ضخم من سراة لتونة، أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين، فلما تراءى الجماعان، أرسل إليهم المصامدة (من الموحدين) يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت، فرددوا عليهم أسوأ ردٍّ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت، فردَ عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة، ويُذكِّره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة، فلم يردع ذلك عبد المؤمن؛ بل زاده طمعاً في المرابطين، وَحَقَّ عنده ضعفهم، فالتفت الفتتان، فانهزم المصامدة وقتلَ منهم خلق كثير، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه، فلما جاء الخبر لابن تومرت، قال: أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا: نعم. قال: لم يفقد أحداً»^(١).

(١) عبد الواحد المراكشي: العجب، ص ٢٥٩.

وقفة مع تاريخ محمد بن تومرت

الحقيقة أن سيرة هذا الرجل فيها خلط كثير جداً، وتفاصيل كثيرة متشابكة في معظم الأحيان، وهي على شابكها تتناقض وتتجاذب، فلا يدرى المرء أي الأحداث أصدق، أو إليها أسبق، وبخاصة أن القدماء الذين كتبوا عن هذا الرجل لم يؤرّخوا بدقة له أو للأحداث في عهده، اللهم إلا في القليل جداً، وهذا أمر يُعذرون فيه؛ إذ إن الظروف التي أحاطت بالرجل، أو التي أحاطت نفسه بها -عن قصد أو غيره- تحول دون الدقة في الإخبار عنه؛ فلقد كان على غراسته ووحدته وصمته، دائم الترحال، ولم يستقر إلا في منطقة جبلية وعرة وحصينة؛ بل منهم من يقول: إنه استقر حيناً في منطقة وعرة، ثم ارتحل عنها بعد قليل (ثلاث سنوات تقريباً) لمنطقة أخرى كانت أكثر حصانة منها ووعورة، وأشدّ قسوة على أهلها ومن راموهم بسوء، وهذا هو الأرجح، ولقد اعتمد على ساكني هذه المناطق في دعوته، ولنا أن نتوقع حال من يسكن هذه المناطق وعقلياتهم، بل يكفيانا أن نتذكر أنهم ساروا خلفه رغم ادعائه المهدى والعصمة، ورغم ما فعله بهم يوم التمييز، ثم إنه قتل في يوم التمييز كلَّ منْ كان يخافه على نفسه ودعوته وأتباعه من أهل الفهم بين هؤلاء القوم، وقتلهم بأيدي أهاليهم، بل إن من المصادر من يذكر أن هؤلاء الذين قُتلوا لم يحاولوا الحرب، وانتظروا حتى قتلهم أهلوهم، وإن كان ثمة مصادر أخرى ذكرت ما يختلف عن هذا؛ فمنهم من قال: إنه متى ذُكر أن فلاناً من أهل النار يُكتَفِ ثم يقتل. ومنهم من ذكر أنه كان يُلْقَى من أعلى الجبل في ساعتها، ومنهم.. ومنهم.. المهم أن أهل الفهم من هؤلاء لم يكونوا علماء، ولكنهم كانوا قوماً قد لا يصدقون كذبه وادعاءه، وينشرون ذلك بفطرتهم، فيُبَطِّلون به العزائم من حوله أو ما شابه؛ لهذا فإن المرء لا يُعجِّبُ إذا وجد أن كتاب (أخبار المهدى ابن تومرت) لأبي بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيذق - وقد كان من أتباع ابن تومرت المقربين، وسابع من بايعوه في

تinement - لم يكن يذكر توارييخ كثیر من الأحداث، بل ولا حتى عام حدوثها، حتى معارك ابن تومرت نفسها لم يكن الرجل يذكر تواريختها ولا سنة وقوعها، اللهم إلا ما ذكره على سبيل الإجمال في نهاية كتابه عن أهم ما حصل من سنة ١٨٥هـ إلى سنة ٢٧٥هـ، فهذا رجل كان من كبار أتباع ابن تومرت، ولا يهتم أن يسوق الحدث ومعه تاريخ وقوعه؛ لذلك فإن المؤرخين معدورون في وقوع هذا الخلط.

موقعة البحيرة أو البستان:

كانت موقعة البحيرة أو موقعة البستان سنة (١٣٠هـ = ١٢٤م)، انتصر فيها المرابطون على الموحدين، وقتل فيها من الموحدين أربعون ألفاً، وهذه المعركة - البستان أو البحيرة - هي التي سبقت بحادث التمييز؛ حيث قام ابن تومرت بقتل كلّ من يشكُّ في ولائه له، بل جعل أهله وأقرباءهم هم الذين يقتلونهم، كما سبق الإشارة إلى هذا الأمر.

قال ابن الأثير: «فجهَّزَ المُهَدِّي - ابن تومرت - جيشاً كثيفاً يبلغون أربعين ألفاً، أكثرهم رجالة، وجعل عليهم الونشريسي، وسيَّرَ معهم عبد المؤمن، فنزلوا وساروا إلى مراكش فحصرواها، وضيقوا عليها، وبها أمير المسلمين علي بن يوسف، فبقي الحصار عليها عشرين يوماً، فأرسل أمير المسلمين إلى متولي سِجْلَمَاسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش، فجمع جيشاً كثيراً وسار، فلما قارب عسكر المُهَدِّي خرج أهل مراكش من غير الجهة التي أقبل منها، فاقتتلوا واشتَدَّ القتال، وكثُرَ القتل في أصحاب المُهَدِّي، فُقِتِلَ الونشريسي أميرهم، فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميراً عليهم. ولم يزل القتال بينهم عاماً النهار، وصلَّى عبد المؤمن صلاة الخوف؛ الظهر والعصر، وال Herb قائمة، ولم تصلَّ بالمغرب قبل ذلك، فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم، أسلدوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك - والبستان يُسمَّى عندهم البحيرة؛ فلهذا قيل: وقعة البحيرة، وعام البحيرة - وصاروا يقاتلون من جهة

واحدة إلى أن أدركهم الليل، وقد قُتِلَ من المصامدة أكثرهم، وحين قُتل الونشريسي دفنه عبد المؤمن، فطلبه المصامدة، فلم يرَوه في القتلى، فقالوا: رفعته الملائكة. ولما جنَّهم الليل سار عبد المؤمن ومن سلم من القتلى إلى الجبل^(١).

لم تَفْتُ هذه الهزيمة في عضد ابن تومرت، ولم يُصبِه اليأس، وإن كان أصحابه قد بدءوا يَسْكُون في مهديَّته المزعومة؛ فلجأ نتِيجةً لذلك إلى الحيلة والكذب؛ ليبعث الأمل من جديد في نفوس أصحابه، ويُوَهِّمُهم بأنهم على الحق، وأن هؤلاء المُلْثِمين على الباطل، ولا بُدَّ أن يُهزموا.

يقول المراكشي في المعجب: «ولما رجع القوم إلى ابن تومرت، جعل يُهُون عليهم أمر الهزيمة، ويُقرُّر عندهم أن قتلاهم شهداء؛ لأنهم ذابُون عن دين الله، مُظَهِرون للسنَّة؛ فزادهم ذلك بصيرةً في أمرهم، وحرصاً على لقاء عدوِّهم، ومن حينئذٍ جعل المصامدة يشنُون الغارات على نواحي مَرَاكُش، ويقطعون عنها موادَّ المعيشة وموصول المرافق، ويقتلون ويُسْبُون، ولا يُبْقُون على أحدٍ من قَدْرُوا عليه؛ وكثُر الداخلون في طاعتهم والمنحاشون إليهم، وابن تومرت في ذلك كله يُكثِر التزهُّد والتقلُّل، ويُظْهِر التشبيه بالصالحين، والتشدد في إقامة الحدود؛ جاريًّا في ذلك على السنَّة الأولى»^(٢).

لم يلبث ابن تومرت أن تُؤْكَدَ بعد معركة البحيرة هذه، تارِكًا أصحابه بعد أن أمر عليهم عبد المؤمن، ولما مات كَفَنَه عبد المؤمن بن علي وصَلَّى عليه، ودفنه بمسجده^(٣).

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول؛ بسبب هذه الهزيمة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩ / ٢٠٠.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٢-٢٦٠.

(٣) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ٢٢٩.

الشديدة التي نزلت بأتباعه في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح مع ذلك في ترسیخ دعوته في قلوبهم، حتى صدّقوه وآمنوا بمهدیّته، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم؛ كما حصل في حادثة التميّز التي تقشعر لها الأبدان؛ حيث قتلت كل قبيلة أبناءها دون أن يُصيّبها التردد أو الخيرة.

وصية ابن تومرت والبيعة لعبد المؤمن:

ومن عجيب ما ينقل المراكشي في (المعجب) أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعي هؤلاء المسماين بالجماعة، وأهل خسين، وهم من قبائل متفرقة، لا يجمعهم إلا اسم المصامدة، فلما حضروا بين يديه قام - وكان متكتئاً - فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم أنشأ يتربّى عن الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - ويدرك ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزمية في أمرهم، وأن أحد هم كانت لا تأخذنـه في الله لومة لائم، وذكر من حَدَّ عمره ابنه في الخمر، وتصميـمه على الحقّ في أشباه هذه الفضول، ثم قال: فانقرضـت هذه العصابة - نـصر الله وجـوهاها، وشكـر لها سـعيـها، وجـزاها خـيراً عن أـمـةـ نـبـيـهاـ - وخطـبت الناس فـتنـةـ تركـتـ الحـلـيمـ حـيرـانـ، وـالـعـالـمـ مـتـجـاهـلاًـ مـذاـهـناًـ، فـلـمـ يـتـفـعـ العـلـمـاءـ بـعـلـمـهـ، بل قـصـداـواـ بـهـ الـمـلـوـكـ، وـاجـتـلـبـواـ بـهـ الدـنـيـاـ، وأـمـالـواـ جـوـهـ النـاسـ إـلـيـهـ...ـ شـمـ إـنـ اللهـ - سـبـحانـهـ وـلـهـ الـحـمـدـ - مـنـ عـلـيـكـمـ أـيـهـاـ الطـافـةـ بـتـأـيـدـهـ، وـخـصـكـمـ مـنـ بـيـنـ أـهـلـ هـذـاـ العـصـرـ بـحـقـيـقـةـ تـوـحـيـدـهـ، وـقـيـضـ لـكـمـ مـنـ أـلـفـأـكـمـ ضـلـالـاًـ لـاـ تـهـتـدـونـ، وـعـمـيـاًـ لـاـ ثـبـرـونـ؛ـ لـاـ تـعـرـفـونـ مـعـرـوفـاًـ، وـلـاـ تـنـكـرـونـ مـنـكـراًـ،ـ قـدـ فـشـتـ فـيـكـمـ الـبـدـعـ،ـ وـاسـتـهـوـتـكـمـ الـأـبـاطـيلـ،ـ وـرـيـئـنـ لـكـمـ الشـيـطـانـ أـصـالـيـلـ وـتـرـهـاتـ أـنـزـهـ لـسـانـيـ عـنـ النـطـقـ بـهـ،ـ وـأـرـبـاًـ بـلـفـظـيـ عـنـ ذـكـرـهـاـ،ـ فـهـدـاـكـمـ اللهـ بـهـ بـعـدـ الضـلـالـةـ،ـ وـبـصـرـكـمـ بـعـدـ الـعـمـيـ،ـ وـجـمـعـكـمـ بـعـدـ الـفـرـقـةـ،ـ وـأـعـزـكـمـ بـعـدـ الـذـلـلـةـ،ـ وـرـفـعـ عـنـكـمـ سـلـطـانـ هـؤـلـاءـ الـمـارـقـينـ،ـ وـسـيـورـثـكـمـ أـرـضـهـمـ وـدـيـارـهـمـ،ـ ذـلـكـ بـهـ كـسـبـتـهـ أـيـدـيـهـمـ،ـ وـأـضـمـرـتـهـ قـلـوـبـهـمـ،ـ

وما ربك بظلم للعيid؛ فجحدوا الله -سبحانه- خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به سعيكم، ويتبخل أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكُونُوا يداً واحدة على عدوكم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل، وعمّكم الصغار، واحتقرتكم العامة، فتختطفكم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أوّلها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد أن بلّوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله وخرجه، واختبرنا سيرته وعلانيته، فرأينا في ذلك كله ثباتاً في دينه، مبتصراً في أمره، وإنني لأرجو ألا يختلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن، فاسمعواه وأطيعوا ما دام ساماً مطيناً لربه، فإن بدأ أو نكس على عقبه، أو ارتاب في أمره ففي الموحدين -أعزهم الله- بركة وخير كثير، والأمر أمر الله يتعلّد من شاء من عباده.

فبایع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت، ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً؛ فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله؛ ثم تُؤيّن ابن تومرت بعد عهده هذا بيسير، واجتمع أمر المصادمة على عبد المؤمن^(١).

أول خلفاء دولة الموحدين

وفي سنة (١٤٦=٥٤١هـ) بنزغ نجم دولة الموحدين، وكان أول حكامها عبد المؤمن بن علي^(٢) (٤٨٧-٩٤٠هـ=١١٦٣-٥٥٨هـ) صاحب محمد بن تومرت، والرجل الثاني بعد ابن تومرت المؤسس الحقيقي والفعالي لجماعة الموحدين.

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٢-٢٦٤.

وهو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي، نسبته إلى كومية (من قبائل الأمازيغ البربر). ولو أنه -أيضاً- كان ينسب نفسه إلى العرب من مضر^(١). ولد في مدينة تاجرت بالغرب قرب تلمسان، ونشأ فيها طالب علم، وأبوه صانع فخار^(٢).

ويصف عبد الواحد المراكشي عبد المؤمن بن عليّ فيقول: وكان أبيض ذات جسم عميم، تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، معتدل القامة، وضيء الوجه، جهوريّ الصوت، فصيح الألفاظ، جزيل المنطق، وكان محبياً إلى النفوس، لا يراه أحد إلا أحبه بديهيّة؛ وبلغني أن ابن تومرت كان يُشيد كلما رآه: [البسيط]

تَكَامَلْتَ فِيكَ أَخْلَاقُ خُصِّصْتَ بِهَا فَكُلُّنَا إِبْكَ مَسْرُورٌ وَمُغْتَبِطٌ
فَالسَّنْ ضَاحِكٌ وَالْكَفُ مَانِحٌ وَالصَّدْرُ مُنْشِرٌ وَالْوَجْهُ مُنْبِسطٌ^(٣)

وذكر الذهبي في كتابه العبر، وابن العماد في شذرات الذهب أنه كان ملكاً عادلاً، سائساً، عظيم الهيئة، علي الهمة، متين الديانة، كثير المحسن، قليل المثل، وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن العظيم، ويختبئ لبس الحرير -وهذا يعني أنَّ لبس الحرير كان عادة وإنما في زمانه- وكان يصوم الاثنين والخميس، ويهتمُ بالجهاد والنظر في الملك كأنه خلق له. ثم بعد هذه الأوصاف نجد هذه العبارة التي تحمل كثيراً من علامات الاستفهام حيث يقول: وكان سفاكاً للدماء من خالقه^(٤)!

وقال عنه الزركلي في الأعلام: وكان عاقلاً حازماً شجاعاً موفقاً، كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير، عظيم الاهتمام بشئون الدين، محباً للغزو

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون، ١٢٦/٦، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٥، السلاوي: الاستقصا ٩٩/٢.

(٢) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٩٩/٢.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٦.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ٤/١٨٣، والذهباني: العبر ٣/٢٩.

والفتح، خضع له المُغْرِبَان (الأقصى والأوسط)، واستولى على إشبيلية، وقُرطبة، وغرناطة، والجزائر، والمهدية، وطرابلس الغرب، وسائر بلاد إفريقيا، وأنشأ الأساطيل، وضرب الخراج على قبائل المغرب، وهو أول من فعل ذلك هنالك^(١).

ومثل هذه الأوصاف ذكرها ابن كثير - أيضًا - في البداية والنهاية، بقوله: «وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يُقتل، وكان إذا أذن المؤذن قبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد... ولكن كان سفاكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير»^(٢). وهذه بالطبع هي تعاليم محمد بن تومرت.

إضافة إلى هذا المنهج العقيم وتلك الصفة السابقة - التساهل في أمر الدماء - فقد كان محمد بن تومرت حين يعلم أن أتباعه يتظرون إلى الغنائم، التي حصلوها من دولة المرابطين في حرثهم معهم، كان يأخذها كلها فيحرقها^(٣).. وكان يُعذّر بالضرب من يفوته قيام الليل من جماعته؛ فنشأت جماعة من الطائرين الزاهدين العابدين، لكن على غير نهج رسول الله ﷺ، الذي لم يكن يحرق الغنائم، أو يضرب المباطئين أو المشاقلين عن قيام الليل، أو يتبع مثل هذا المنهج وتلك الرهبة المشددة.

وعلى كلٌّ فقد كان عبد المؤمن بن علي - على ما يبدو - غير مقتنع بفكريٍ العصمة والمهدية، اللتين ادعاهما محمد بن تومرت واقتصر بها أتباعه من بعده؛ ويدفعنا إلى ذلك أن رجلاً بعلم وعقل عبد المؤمن لا شك علم - على الأقل بعد وفاة ابن تومرت - أنه ليس المهدى الذي ذكرت الأحاديث أنه يملأ الأرض عدلاً، ثم يتبعه نزول المسيح ابن مريم وما إلى ذلك من الحوادث، لكنه على الجانب الآخر

(١) الزركلي: الأعلام، ٤ / ١٧٠.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ / ٣٠٦.

(٣) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣٦ / ١٢٠.

فإن عبد المؤمن بن عليٍّ لم ينفي مثل هذه الأفكار الصالحة صراحة؛ وذلك لأن غالبية شيوخ المُوحِّدين كانوا على هذا الفكر وذلك الاعتقاد، فخاف - على ما يظهر - إن هو أعلن أن أفكار محمد بن تومرت هذه مخالفة للشرع، وأن ينفرط العِقد ويحدث التفكُّك في هذه الفترة الحرجة من دولة المُوحدين.

مشاهد من حياة عبد المؤمن بن عليٍّ:

نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عبد الواحد المراكشي قوله: أخبرني غير واحد من أرضي نقله، أنه (عبد المؤمن) لما نزل مدينة سلا - مدينة بأقصى المغرب - عبر النهر، وضربت له خيمة على الشاطئ، وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة... فخرَّ ساجداً، ثم رفع وقد بلَّ الدمع لحيته... فقال: أعرف ثلاثة أشخاص ورددوا هذه المدينة لا شيء لهم إلاَّ رغيف واحد، فراموا عبور هذا النهر، فأتوا صاحب القارب، وبذلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثة، فقال: لا آخذه إلاَّ على اثنين خاصة. فقال لهم أحدهم وكان شاباً جلداً: خذنا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحة... فجعل الشاب يسبح، فكلما أعيَا دنا من القارب ووضع يده عليه ليستريح، فيضرره صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه؛ فما بلغ البر إلاَّ بعد جهد شديد. فما شكَّ السامعون للحكاية أنه هو العابر سباحة، وأن الاثنين المذكورين هما: ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي^(١).

وكان عبد المؤمن من الولد ستة عشر ذكراً؛ وهم: محمد وهو أكبر ولده، ووليُّ عهده، وهو الذي خلع بعد ذلك، وعلى، وعمر، ويوسف، وعثمان، وسليمان، ويجيبي، وإسماعيل، والحسن، والحسين، وعبد الله، وعبد الرحمن، وعيسى، وموسى، وإبراهيم، ويعقوب^(٢).

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٩٦، والذهبى: سير أعلام النبلاء، ٢٠ / ٣٧٣.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٦.

الصراع الممرين والاستقوط المدوي:

عاد عبد المؤمن بن علي إلى تينملل بعد موقعة البحيرة - التي سبقت الإشارة إليها - ثم مات ابن تومرت بعد ذلك بقليل، فبُويع من بعده عبد المؤمن بن علي، وأقام في تينملل فترة يتآلف القلوب، ويُحسن إلى الناس، وكان جواداً مقداماً في الحروب، ثابتاً في الشدائـد.

وفي سنة (٥٢٨ هـ) جهز عبد المؤمن جيشاً كبيراً، وقاده إلى مدينة تادلة، ودارت بينه وبين أهلها حرب، انتهت بانتصار عبد المؤمن بن علي، ودخول المدينة عنوة، وسار بعدها في الجبال يفتح المدن التي تليها.

وفي سنة (٥٣١ هـ) توفي ولـي العهد سير بن علي بن يوسف، فاستدعى علي بن يوسف ابنه تاشفين من الأندلس، وكان أميراً عليها، وجعله ولـي عهده، ثم قـللـه أبوه بعد ذلك قيادة جيش قوي، وأرسله لمحاربة عبد المؤمن، فسار بالجيش في الصحراء قبلة جيش عبد المؤمن، الذي كان يسير في الجبال، وكانت تـحدـثـ بينـهـماـ منـاـوشـاتـ منـ وقتـ لـآخرـ، ولكنـ لمـ تـحدـثـ بينـهـماـ حـرـوبـ أوـ مـعـارـكـ كـبـيرـةـ.

وفي شتاء سنة (٥٣٣ هـ) وصل عبد المؤمن إلى جبل كـرـنـاطـةـ، فنزل في أرض صلبة بين شجر، ونزل تاشفين مقابل عبد المؤمن في سهل لا نبات فيه، وفي أثناء ذلك توالي هطول الأمطار أياماً، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة الوحل، تسونـخـ فيهاـ قـوـائـمـ الخـيـلـ إـلـىـ صـدـورـهـاـ، وـيـعـجزـ الرـجـلـ عـنـ المشـيـ فيهاـ، وـسـدـدـتـ المـيـاهـ الـطـرـقـ؛ حتـىـ انـقـطـعـتـ عنـ تـاشـفـينـ وـجـيـشـهـ الـإـمـداـدـاتـ، فـكـانـواـ إـذـاـ أـرـادـواـ نـارـاـ لـمـ يـجـدـواـ إـلـاـ رـمـاحـهـمـ لـيـوـقـدـواـ بـهـاـ النـارـ، وـأـنـهـكـهـمـ الجـوعـ والـبرـدـ وـسـوءـ الحالـ.

وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة صلبة في الجبل، لا يـيـالـونـ بشـيءـ،

والإمدادات متصلة إليهم، فاستغل ذلك عبد المؤمن وأرسل جيشاً في ذلك الوقت إلى وجرة من أعمال تلمسان، وقدم عليهم أبا عبد الله محمد بن رقو، وهو من أهل الخمسين، بلغ خبرهم إلى محمد بن يحيى بن فانوا (والى تلمسان من قبل المرابطين)، فخرج في جيش من المرابطين، فالتقوا بموضع يُعرف بخندق الخمر، فهزّتهم جيش عبد المؤمن، وقتل محمد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنموا ما معهم ورجعوا، فتوّجَ عبد المؤمن بجميع جيشه إلى غماره، فأطاعتة قبائلها، وأقام عندهم مدة.

وظلَّ يسير بجيشه في الجبال، وتأسفين يحاذيه في الصحراء، حتى تُوفيَ أمير المسلمين علي بن يوسف بمراكش، وخلفه ابنه تاسفين سنة (٥٣٥هـ)، فزاد طمع عبد المؤمن في البلاد، إلا أنه ظلَّ مع ذلك معتصماً بالجبال، ولم ينزل إلى الصحراء.

وفي سنة (٥٣٨هـ) توّجَ عبد المؤمن بجيشه إلى تلمسان للاستيلاء عليها، فسارع تاسفين لنجدتها، وعسكر الفريقان هناك دون حرب، اللهم إلا مناورات بسيطة، وظلاً كذلك حتى سنة (٥٣٩هـ)، حتى رحل عبد المؤمن إلى جبل تاجرة، ووَجَّهَ جيشاً مع عمر الهمتّاني إلى مدينة وهران، فهاجمها بغتة، واستولى عليها، فسمع بذلك تاسفين فسار إليها، فخرج منها عمر، ونزل تاسفين بظاهر وهران على البحر في شهر رمضان من السنة نفسها، وفي هذا الشهر قُتل تاسفين هناك، وصُلِّيَتْ جُنُّته.

وقيل في سبب موته: إنه قصد حصناً هناك على رابية، وله فيه بستان كبير، فيه من كل الشوار، فاتفق أن عمر الهمتّاني، أرسل سرية إلى ذلك الحصن، ولم يعلموا أن تاسفين فيه، فأشعلاوا النار في بابه، فأراد تاسفين الهرب، فركب فرسه، فوثب الفرس من داخل الحصن إلى خارج سوره، فسقط في النار، فأخذ تاسفين فاعترف، فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن، فمات في الحال بسبب إصابته، ثم صلبوه، وقتل كُلُّ من معه، وتفرق عسكره ولم يَعُدْ لهم جماعة، فتولى بعده أخيه إسحاق بن علي بن يوسف.

ولما قُتِلَ تاشفين أرسل عمر الهمتّاتي إلى عبد المؤمن بالخبر، فجاء من تاجرة في يومه بجميع جنوده، وتفرق عسكر تاشفين، واحتدم بعضهم بمدينة وهران، فلما وصل عبد المؤمن دخلها بالسيف، وقتل فيها ما لا يحصى، ثم سار عبد المؤمن إلى تاهرت وأقادير؛ فامتنعت أقادير وغلقت أبوابها، وتأهّب أهلها للقتال.

وأمّا تاهرت فكان فيها يحيى ابن الصحراوية، فهرب منها بجنوده إلى مدينة فاس، وجاء عبد المؤمن إليها، فسارع إليه أهلها للدخول في طاعته، ولكنه لم يقبل منهم، وقتل أكثرهم، ودخلها ورتب أمرها، ورحل عنها تاركاً جيشاً يحاصر أقادير.

وسار إلى مدينة فاس سنة (٤٥ هـ) فحاصرها تسعة أشهر، وفيها يحيى ابن الصحراوية، وعسكره الذين فرُوا من تاهرت، فلما طال حصار المدينة عمد عبد المؤمن إلى نهر يدخلها، فسده فترة، حتى إذا اجتمع الكثير من الماء فتح المجرى فجأة، فهدم سورها، وكُلَّ ما بجوار النهر من مبانٍ وإنشاءات، فلما أراد دخوها خرج إليه أهلها، وقاتلوه خارجها؛ فلم يتمكّن من دخولها.

ثم عاد إلى فاس وأعيانها فكاتبوا عبد المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس، فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبوابها، فدخلها جشه في أواخر (٤٥ هـ)، و Herb يحيى ابن الصحراوية، وسار إلى طنجة، ورتب عبد المؤمن أمر مدينة فاس، وأمر فنودي في أهلها: مَنْ ترك عنده سلاحاً وعُدَّةً قتال حلَّ دمه. فحمل كلُّ مَنْ في البلد ما عندهم من سلاح إليه، فأخذه منهم.

ولما فرغ عبد المؤمن من فاس وتلك النواحي، سار إلى مراكش وهي عاصمة المرابطين، وكانت من أكبر المدن وأعظمها، وكان يحكمها حينئذ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكان صبياً صغيراً، فوصل مراكش سنة (٤١ هـ)، وعسكر على جبل صغير في غرب المدينة، وبنى عليه مدينة له ولجنوده، وبنى بها جامعاً،

وبنى له بناءً عالياً يُشرف منه على المدينة، ويرى أحوال أهلها، وأحوال المقاتلين من أصحابه، وحاصرها أحد عشر شهرًا، قاتلَ المدينة فيها قتالاً كثيراً، كان المرابطون يخرجون فيه من المدينة لقتال الموحدين، وأرهق الحصار عبد المؤمن، وقلَّ الطعام عنده، فعزز على أن ينصب كميناً لأهل مراكش ليُضعفهم به.

فأمر جنوده فزحفوا يوماً إلى مراكش، فخرج إليهم جنود المرابطين كالعادة، فدارت بين الفريقين معركة شديدة، ثم انهزم الموحدون وفروا أمام المرابطين، فتبعهم المرابطون إلى المدينة التي بناها عبد المؤمن له وبلغنوه على الجبل، ودارت بين الفريقين معارك شديدة، وهُدِمت أجزاء كبيرة من سور مدينة عبد المؤمن، وكان عبد المؤمن يشاهد المعركة من أعلى البناء الموجود على الجبل، وكان قد اتفق مع رجاله أن ينهزوا أمام المرابطين، حتى إذا لحق بهم المرابطون أمر بضرب الطبول؛ فتخرج مجموعة أخرى من رجاله كانت مختبئة، لتحيط بالمرابطين حتى تقضي عليهم، فلما اشتَدَّ المعركة صاح الموحدون بعد المؤمن ليأمر بضرب الطبول، فقال لهم: اصبروا حتى يخرج كل طامع في البلد، فلما خرج أكثر أهل مراكش، أمر بضرب الطبول، فخرج الكمين عليهم، فقاتلواهم ودارت الدائرة على المرابطين، وقتلوا مقتلة عظيمة.

وبهذا ضعفت قوات المرابطين داخل مراكش ضعفاً شديداً، وكان إسحاق بن علي صبياً صغيراً، وكان يُدير دولته مشايخ المرابطين، فحدث أن أحدهم واسمه عبد الله بن أبي بكر خرج إلى عبد المؤمن مستأمناً، وأطلبه على عوراتهم وضعفهم، فزاد طمع عبد المؤمن فيهم، وشدَّد عليهم الحصار، ونصب عليهم المنجنيقات والأبراج، حتى فنيت أقواتهم، وأكلوا دواهيم، ومات من العامة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان، فأنتن البلد من ريح الموتى.

وكان بمراكش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم، فجاءوا إليهم نجدة، فلما طال عليهم الأمر راسل الفرنج عبد المؤمن يسألونه الأمان،

فأجابهم إليه، ففتحوا له باباً من أبواب البلد يقال له: باب أغمات. فدخلت عساكره بالسيف، وملكوا المدينة عَنْوة، وقتلوا مَنْ وَجَدُوا، ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأمير إسحاق وجميع مَنْ معه من أمراء المرابطين، فُقِتُلُوا.

وكان إسحاق هذا صغيراً؛ فلما قُبِضَ عليه، وخفَ أنْ يُقتلَ أخذ يبكي ويذمِّنْ عبد المؤمن ويتولَّ إليه، فقام إليه الأمير سير بن الحاج، وكان مُقيداً إلى جانبه فبصق في وجهه، وقال: تبكي على أبيك وأمك؟ اصبر صبر الرجال، فهذا رجل لا يخاف الله، ولا يدين بدين. فقام الموحدون إليه بالخشب فضربوه حتى قتلوه - وكان من شجعان المرابطين، المعروفين بالإقدام - وقدم إسحاق على صغر سنِّه، فضربت عنقه سنة (٥٤٢ هـ)، وكان آخر ملوك المرابطين، وكانت مدة ملكهم سبعين سنة، ولَيَّ منهم أربعة: يوسف، وعلي، وتأشفيين، وإسحاق.

ولما فتح عبد المؤمن مَرَكُش أقام بها، وجعلها عاصمة لدولة الموحدين، وكان عبد المؤمن لما دخل مَرَكُش قد أكثَرَ القتل في أهلها؛ فاختفى كثيرٌ من أهلها، فلما كان بعد سبعة أيام أمر فنودي بأمان مَنْ يَقِيَ من أهلها فخرجوا، فأراد أصحابه قتلهم فمنعهم، وقال: هؤلاء صنَاعٌ وأهل الأسواق مَنْ ننتفع به. فتركوا، وأمر بإخراج القتلى من البلد، فأخرجوهم، وبنى بالقصر جامعاً كبيراً، وزخرفه فأحسن عمله، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تأشفيين^(١).

وقال عبد الواحد المراكشي في المعجب: ولم يزل عبد المؤمن - بعد وفاة ابن تومرت - يطوي الممالك مملكة، ويَدُوَّنُ خ البلاد^(٢) إلى أنْ ذَلَّت له البلاد وأطاعتَه العِباد^(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/٢٠١، وما بعدها بتصرف.

(٢) داخَ البلدَ يَدُوَّنُهَا: قهرها واستولى على أهلها. ابن منظور: لسان العرب، مادة دُوَّنَ، ٣/١٦.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٧٠.

وبينظرة إجمالية فإنَّ عدَّةً مَنْ قُتِلَ من المسلمين في الواقع التي دارت بين المرابطين والموحدين تجاوز عشرات الآلاف، وذلك في نحو ثمانٍ وعشرين سنة؛ من سنة (١١١٨هـ = ١٢٥٠م) وحتى قيام دولة الموحدين في سنة (١١٤١هـ = ١٢٥٤م)، وقامت دولة الموحدين كما قامت دولة المرابطين من قبل، لكن على أسلاء الآلاف من المسلمين، وكان هذا هو الطريق الذي سلكه محمد بن تومرت ومَنْ معه، وكان هذا هاجهم في التغيير.

تداعيات سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين:

متابعةً للأحداث بصورة متسلسلة فقد كان لسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في عام (١١٤٦هـ = ١٢٥٤م) ومقتل ما يربو على الثمانين ألف مسلم في بلاد الأندلس؛ نتيجة الحروب بينهما - كان لهذه الأحداث العظام تداعيات خطيرة على كل بلاد المغرب العربي والأندلس، وما يهمنا هنا هو ما حدث في الأندلس، فكان كما يلي:

أولاً: بعد قيام دولة الموحدين بعام واحد وفي سنة (١١٤٧هـ = ١٢٥٣م) سقطت المريّة في أيدي النصارى، وهي تقع على ساحل البحر المتوسط في جنوب الأندلس؛ أي: هي بعيدة جدًا عن مالك النصارى، لكنها سقطت عن طريق البحر بمساعدة فرنسا.. وفي المريّة استُشهدَآلافٌ من المسلمين، وسُبِّيَّت أكثر من أربعة عشر ألف فتاة مسلمة^(١)، وفي هذا يقول المقربي التلمساني: «وأَحْصَيَ عدد من سُبَّيَّ من أَبْكَارِهَا فَكَانَ أَرْبَعَةُ عَشَرَ أَلْفًا»^(٢).

ثانياً: بعد ذلك - أيضًا - بعام واحد وفي سنة (١١٤٨هـ = ١٢٥٤م) سقطت

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٩/٣٤٧، وعد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٧٩، والمقربي: نفح الطيب، ٤/٤٦٣، والسلامي: الاستقصا، ٢/١١٨.

(٢) المقربي: نفح الطيب، ٤/٤٦٣.

طُرُطُوشة ثم لاردة في أيدي النصارى، وهم في مملكة سرقسطة التي تقع في الشمال الشرقي، والتي كان قد حررها المرابطون قبل ذلك^(١).

ثالثاً: وفي العام نفسه -أيضاً- توسعَت مملكة البرتغال في الجنوب، وكانت من أشدّ الممالك ضراوة وحرابة على المسلمين^(٢).

رابعاً: بدأ النصارى يتخطّون حدود الأندلس ويهاجرون بلاد المغرب العربي، فاحتلّت تونس في السنة ذاتها -أيضاً- من قبل النصارى، وهي خارج بلاد الأندلس^(٣).

ولقد كانت مثل هذه التداعيات شيئاً متوقعاً نتيجة الفتنة الكبيرة، والخروب التي دارت بين المسلمين في بلاد المغرب العربي.

* * *

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٥٧/٩، والسلاوي: الاستقصاء، ١١٨/٢.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤/٣٥٠، ٤/٥٢٦، ٤/٥٢٧، ويوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١/٢٥٧.

(٣) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/٣٥٠، وتاريخ ابن خلدون، ٥/٢٠٣.

الفصل الثالث

عصر القوّة في دولة المُوحدين



أعمال عبد المؤمن بن علي في المغرب

كان عبد المؤمن بن علي - كما ذكرنا - صاحب شخصية قوية، وصاحب فكر سياسي عالي؛ فبدأ وبطريقة عملية منظمة وشديدة في تأسيس وبناء دولته الفتية الناشئة؛ فعمل على ما يلي:

أولاً: أنشأ الكثير من المدارس والمساجد، واهتم غاية الاهتمام بالتعليم والتنقيف، وكان - كما يقول عبد الواحد المراكشي - «مؤثراً لأهل العلم محباً لهم، محسناً إليهم، يستدعىهم من البلاد إلى الكون^(١) عنده والجوار بحضرته، ويُجرب علىهم الأرزاق الواسعة، ويُظهر التنويه بهم، والإعظام لهم، وقسم الطلبة طائفتين طلبة المُوحدين وطلبة الحضر، هذا بعد أن تسمى المصامدة بالمُوحدين؛ لتسمية ابن تومرت لهم بذلك؛ لأجل خوضهم في علم الاعتقاد، الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه»^(٢).

ثانياً: عمل عبد المؤمن بن علي على إقرار الخدمة العسكرية بالعلوم التحقيقية،

(١) الكون عندى: أي الحضور إليه، وأن يكون عنده.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٦٩، والسلاوي: الاستقصاء، ١٤٥ / ٢.

وأنشأ معسكراً بقصره لتدريس وتعليم وتخرير رجال السياسة والحكم، وكان يمتحن الطلاب بنفسه، فأنشأ جيلاً فريداً من قواد الحروب والسياسيين البارعين في دولة الموحدين، وكان يُدرّبهم على كل فنون الحرب؛ حتى إنه أنشأ بحيرة صناعية كبيرة في بلاد المغرب لتعليم الناس كيف يتقاتلون في الماء، وكيف تكون الحروب البحرية، وكان -أيضاً- يختبر المقاتلين الموحدين بنفسه^(١).

أقام مصانع ومخازن ضخمة وكثيرة للأسلحة؛ ليستعدَّ بذلك لحرب الصليبيين في الأندلس^(٢).

لكن هذا لم يكن ليغيب الطرف عن كون عبد المؤمن بن عليٍّ ذا فردية في نظام الحكم والإدارة؛ أي أنه كان -بلغة العصر- حاكماً ديكتاتورياً، فرديًّا الرأي لا يأخذ بالشوري، ولقد كان سفاكاً للدماء، حتى أحصى له مؤرخ العهد الشهير بـ«البيدق» أكثر من ثلاثين ألف قتيل بدأ بها عهده لنشر الرعب وثبتت أقدام الدولة بالسيف^(٣).

بل لما سرق من تاجر بعض ماله، جمع عبد المؤمن أشياخ القبيلة التي وقع فيها السرقة، فأخرج للتاجر ماله منهم، ثم أمر بقتل الجميع «فأقبلوا يتضرّعون ويبيكون، وقالوا: تؤخذ -سيدنا- الصالحة بالمفسدين؟ فقال: يُخرج كُل طائفة منكم مَنْ فيها من المفسدين. فصار الرجل يُخرج ولده، وأخاه، وابن عمِّه، إلى أن اجتمع نحو مائة نفسٍ، فأمر أهلهم أن يَتوَلّوا قتلهم، ففعلوا. فخرجتُ (والكلام للتاجر) من المغرب إلى صقلية خوفاً على نفسي من أهل المقتولين»^(٤).

(١) مجھول: الحلل الملوثة، ص ١٥٠.

(٢) السلاوي: الاستقصا، ١٤٣/٢.

(٣) البيدق: أخبار المهدى ابن تومرت، ص ٦٩.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٥٩/٣٨.

وكان يتمثل ببيت الشعر الذي يقول: [البسيط]

وَحَكْمِ السَّيْفِ لَا تَعْبُأُ بِعَاقِبَةِ
وَخَلَهَا سِيرَةٌ تَبْقَى عَلَى الْجَنَبِ
فَمَا تُنَالُ بِغَيْرِ السَّيْفِ مَنْزَلَةُ
وَلَا تُرَدُّ صُدُورُ الْحَيْلِ بِالْكُتُبِ^(١)

هذا كله في بلاد المغرب العربي، ولم تكن بلاد الأندلس قد دخلت بعد في حسابات عبد المؤمن بن عليٍّ في ذلك الوقت، إلا ما كان منه في إرسال الجيوش إليها؛ لتحوزها بعد انتصاره على المرابطين، وكان ذلك بعد استيلائه على مراكش، وفي بعض المصادر بعد استيلائه على فاس وتلمسان؛ إلا أنه أولى اهتمامه أكثر لل المغرب؛ لأنَّه كان يعمل على أن يستقرَّ له الأمر أولاً في بلاد المغرب العربي حيث أنصار المرابطين في كل مكان، فلقد كانت المغرب حاضرة الدولة.

عبد المؤمن بن علي في الأندلس

بعد تساقط المرابطين في المغرب أمام الموحدين، تبعهم الموحدون في الأندلس، واستولوا على المدن الأندلسية التي كانت في يد المرابطين، وفي سنة (٤٣٥ هـ = ١١٤٨ م) وبعد استيلاء الموحدين على كثير من البلاد الأندلسية، قدم القاضي ابن العربي إلى بلاد المغرب، وبايع عبد المؤمن بن علي، وطلب النجدة لأهل الأندلس، وإن مبايعة القاضي ابن العربي لعبد المؤمن بن علي قد تعطي إشارة إلى أنَّ عبد المؤمن بن علي لم يكن يعتقد أو يدعو إلى أفكار ضالةٍ كما في الدعوة إلى العصمة أو المهدية، أو غيرها مما كان يَدِينُ به محمد بن تومرت وبعض من أتباعه^(٢).

قيلَ عبد المؤمن بن علي الدعوة من القاضي ابن العربي، وجَهَّزَ جيشه، وانطلق إلى بلاد الأندلس، وهناك بدأ يحارب القوات الصليبية، حتى ضمَّ معظم بلاد

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٩٧.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/٢٣٤، والحلل الموسية، ص ١٤٧، والسلاوي: الاستقصا، ١١٧/٢.

الأندلس الإسلامية، التي كانت في أملاك المرابطين إلى دولة الموحدين، وكان من قاتله هناك بعض أنصار دولة المرابطين، إلا أنه قاتلهم وانتصر عليهم وذلك في سنة ١١٥٠ هـ = ٥٥٤ م^(١).

وفي سنة ١٥٧ هـ = ١٥٢ م استطاع أن يستعيد المريّة^(٢)، وفي سنة ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م استعاد تونس من يد النصارى، وبعدها بقليل - ولأول مرة - استطاع أن يضمّ ليبيا إلى دولة الموحدين، وهي لم تكن ضمن حدود دولة المرابطين^(٣).

وبهذا يكون قد وصل بحدود دولة الموحدين إلى ما كانت عليه دولة المرابطين، إضافة إلى ليبيا، وقد اقتربت حدود دولته من مصر كثيراً، وكان يُفكّر في أن يُوحّد كل أطراف الدولة الإسلامية تحت راية واحدة تكون لدولة الموحدين.

يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٣٣-١١٢٨ هـ = ١١٨٤-٥٨٠ م) وحكم الموحدين

في عام ٥٥٨ هـ = ١٦٣ م تُوقيّي عبد المؤمن بن علي في رباط سلا في طريقه للجهاد في الأندلس، وتُقل إلى تينملل فُدُن فيها إلى جانب قبر ابن تومرت، وخلفه على الحكم ابنه محمد، ثم خلع لفسقه وسوء خلقه، وولي الأمر يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وكان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، وقد كان مجاهداً شهماً كريماً، إلا أنه لم يكن في كفاءة أبيه القتالية^(٤).

وقد وصفه الزركلي في الأعلام فقال: وكان حازماً شجاعاً، عارفاً بسياسة رعيته، له علم بالفقه، كثيراً الميل إلى الحكمة والفلسفة، استقدم إليه بعض علماء الأقطار؛ وفي جملتهم أبو الوليد بن رشد... وهو باني مسجد إشبيلية، أتمّه سنة

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/١١٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٩/٤١٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/١٢٢.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/٢٣٧.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٠٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/١٤٤.

(٥٦٧هـ)، وإليه تُنسب الدنانير (اليوسفية) في المغرب، وكانت علامته في المكاتبات
وعلامة مَنْ بعده: «الحمد لله وحده»^(١).

وقد ظلَّ يوسف بن عبد المؤمن بن علي يحكم دولة الموحدين اثنين وعشرين
عاماً مُتَّصلة، منذ سنة (٥٥٨هـ = ١١٦٣م) وحتى سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٥م)، وقد
نَظَمَ الأمور وأحكَمَها في كل بلاد الأندلس وبِلَادِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ، وكانت له أعمال
جهادية ضخمة ضدَّ النصارى، لكنه كان يعييه شيء خطير؛ وهو أنه كان متفردَّ
الرأي لا يأخذ بالشَّورى، وهذا -بالطبع- كان من تعليم وتربيَّة أبيه عبد المؤمن بن
علي صاحب محمد بن تومرت كما ذكرنا.

وقد مات يوسف بن عبد المؤمن بن علي وهو في جهاد الصليبيين عند مدينة
شنترين بغرب الأندلس نتيجة خطأ إداري قاتل، يرويه الذهبي هكذا: «وفي سنة
تسع وسبعين تجهَّزَ للغزو، واستنفر أهل السهل والجبل والعرب، فعبر بهم الأندلس
فنزل إشبيلية، ثم قصد مدينة شنترين -أعادها الله إلى المسلمين- وهي بغرب
الأندلس، أخذها ابن الريق -لعنه الله- فنازلاً أبو يعقوب وضايقها، وقطع
أشجارها، وحاصرها مدة، ثم خاف المسلمون البرد وزيادة النهر، فأشاروا على أبي
يعقوب بالرجوع فوافقهم، وقال: غداً نرحل. فكان أول مَنْ قَوَّضَ خباءه أبو
الحسن علي ابن القاضي عبد الله المالقي، وكان خطيبهم، فلما رأه الناس قَوَّضُوا
أخبيتهم ثقةً به ل مكانه، فعبر تلك العشية أكثرُ العسكر النهر، وتقدَّموا خوف الزحام،
وبات الناس يعبرون الليل كله، وأبو يعقوب لا علم له بذلك، فلما رأى الروم عبور
العسكر، وأخبرهم عيونهم بالأمر، انتهزوا الفرصة وخرجوا وحملوا على الناس،
فانهزمو أمامهم حتى بلغوا إلى مخيَّم أبي يعقوب، فُقْتَلَ على باب المخيَّم خَلْقَ من
أعيان الجندي، وخُلِصَ إلى أمير المؤمنين، فطُعن تحت سُرْتَه طعنة مات منها بعد أيام

يسيرة، وتدارك الناس، فانهزم الروم إلى البلد، وقد قصوا ما قصوا، وعبر الموحدون بأبي يعقوب جريحاً في محفة... ولم يسيروا بأبي يعقوب إلا ليلتين أو ثلاثة حتى مات»^(١).

من أشهر علماء الأندلس في شبهه

ابن العوام الإشبيلي (ت: ١١٨٥ هـ)

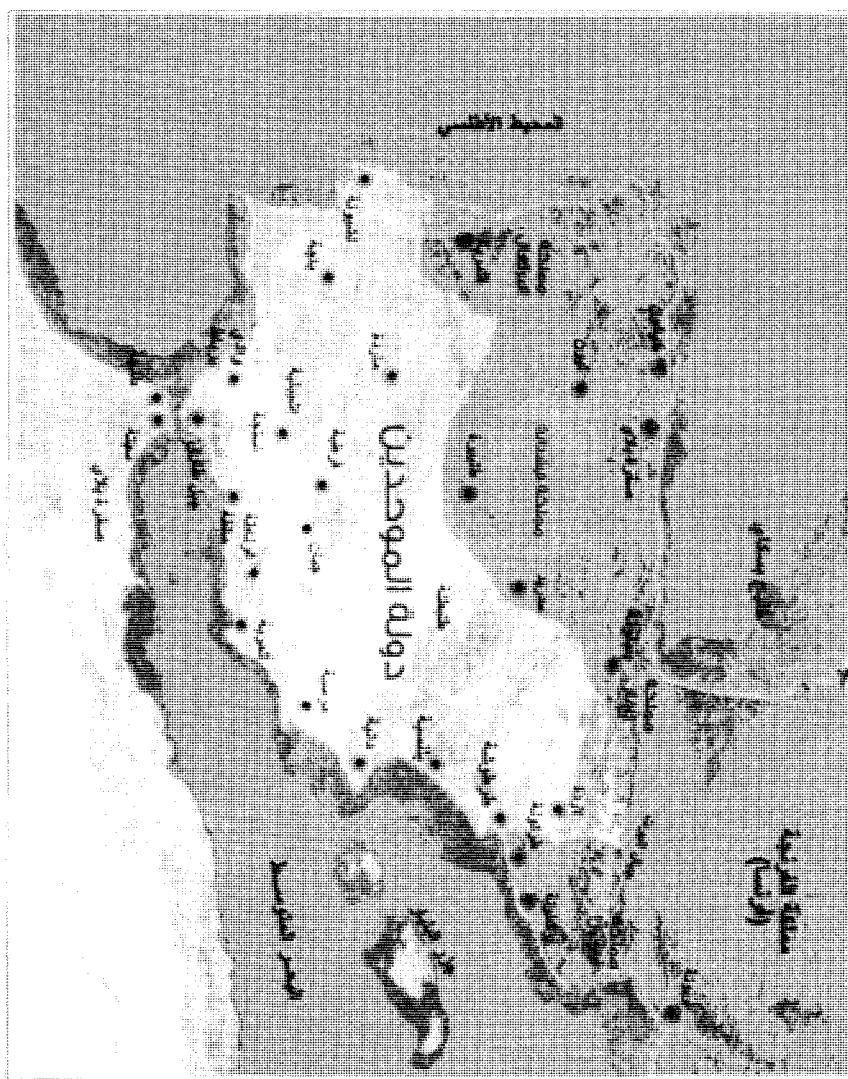
هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد، الشهير بابن العوام الإشبيلي، وقد عاش في فترة قلقلة في بلاد الأندلس؛ هي فترة غروب الحضارة الإسلامية عنها، وعاش في إشبيلية في منطقة الوادي الكبير المزدهر بنباته المتنوعة، والمعروف بخصبه وازدهار الفنون الزراعية بين أهله.

اهتمَ ابن العوام بالفلاحة فأتقنها، وصنفها عمِّا كاماً، ولو لا ابن العوام ومنْ أتقن (علم الفلاحة) من علماء الأندلس المسلمين، لما وصل هذا العلم بِرُقيه إلى أوربا بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي، وفي هذا العلم خاصة استفاد العلماء المسلمين وغيرهم من نتاج ابن العوام المميز في التربة والأسمدة والحرث والسبقي... وقد نُقلَ إلى اللغات الأجنبية مبكراً، ونتيجة لكثرة تجاريته وجُرأته عرف العرب - كما عرف الأوروبيون فيما بعد - خواصَ التربة، وكيفية تركيب السداد، وأساليب الغرس والزراعة والسبقي.

ولابن العوام كتاب في الفلاحة عظيم الشأن، ليس لاحتوائه على فنون الزراعة فقط؛ بل لكونه تتبع في الأندلس نظريات جديدة في الكيمياء والطبيعة، واختصر فيه علوم القدماء في الزراعة، وما زال هذا الكتاب - برغم أهميته النظرية والتطبيقية - لم يتحقق بعد تحقيقاً جيداً^(٢).

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٠ / ٣٢٣، وانظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٣٢.

(٢) انظر: محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، ٥ / ١٨٤، بتصرف.



خريطة رقم (١٤) دولة الموجدين

وأَلَفَ ابن العوام -أيضاً- رسالة في (تربيَة الْكَرْم)، وقد عُثر له على مخطوط بعنوان: (عيون الحقائق وإيضاح الطرائق)، وقد توفي حَلَّةَ سنة (١١٨٥هـ = ١١٨٥م)^(١).

ابن طفيلي (٤٩٤-٥٥٨١هـ = ١١٠٠-١١٨٥م) :

هو الفيلسوف الشهير أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيلي القسيسي من أهل وادي آش جنوب الأندلس، وهو صاحب المؤلف الفلسفية الشهير: رسالة حي بن يقطان.

قال عنه لسان الدين بن الخطيب: كان عالماً صدراً، حكيمًا فيلسوفاً، عارفاً بالمقالات والأراء، كلفاً بالحكمة المشرقة، محققًا، متصوفاً، طبيباً ماهراً، فقيهاً، بارع الأدب؛ ناظماً، ناثراً، مشاركاً في جملة من الفنون^(٢).

وقال عنه المراكشي في (المعجب): صرف عناته في آخر عمره إلى العلم الإلهي ونبذ ما سواه، وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظمه لأمر النبوات ظاهراً وباطناً، هذا مع اتساعه في العلوم الإسلامية، وكان أبو بكر لهذا أحد حسنهات الدهر في ذاته وأدواته^(٣).

وقد أخذ ابن طفيلي على عاتقه جمع العلماء وجلبهم من البلاد والأقطار إلى بلاط يوسف بن عبد المؤمن، وكان يحصّه على إكرامهم والتنويه بهم، وكان من جلبهم إليه الفيلسوف الكبير والفقير المالكي المعروف أبو الوليد بن رشد، فمن هنا عُرف ابن رشد وبلغ ما بلغ^(٤).

وله شعر «غاية في الجودة»^(٥)؛ ومنه في الزهد: [البسيط]

(١) انظر: الزركلي: الأعلام، ١٦٥/٨، بتصرف.

(٢) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤٧٩، ٢.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣١٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٥) الصندي: الوافي بالوفيات، ٤٦٣/١.

يَا بَاكِيَا فُرْقَةَ الْأَحْبَابِ عَنْ شَحَطٍ^(١)
 هَلَّا بَكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ؟!
 نُورٌ تَرَدَّدَ فِي طَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ
 فَانْحَازَ عُلُواً وَخَلَّ الطَّيْنَ لِلْكَفَنِ^(٢)
 يَا شَدَّ مَا افْتَرَقَ مِنْ يَعْدَ مَا اعْتَلَقَ
 أَطْنَهَا هُدْنَةً كَانَتْ عَلَى دَخْنٍ^(٣)
 إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي رِضَا اللَّهِ اجْتِمَاعُهُمَا
 فِي أَهَامَ صَفْقَةٍ تَمَّتْ عَلَى غَيْنِ^(٤)

عاش ابن طفيل ٨٧ سنة، وتُوقيت بمراكش سنة (١١٨٥هـ = ١٨١١م)، وحضر الخليفة يعقوب المنصور جنازته^(٤).

أبو يوسف يعقوب المنصور المودي (٥٥٩٥-٥٥٦٠=١١٩٩-١١٦٠م) والعاصر الذبيهي لدولة الموحدين:

بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن بن علي تولى من بعده ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وقد لقب بالمنصور، وكان له ابن يُدعى يوسف، فُعرف بأبي يوسف يعقوب المنصور المودي.

يُعرّفه ابن خلكان فيقول: أبو يوسف يعقوب بن أبي يوسف يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسى الكومي، صاحب بلاد المغرب... كان صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو، جميل الوجه، أَفْوَهُ أَعْيَنَ شديد الكحل، ضخم الأعضاء، جَهُورِيَّ الصوت، جَزْلَ الألفاظ، من أصدق الناس لهجة، وأحسنهم حديثاً، وأكثرهم إصابة بالظنّ، مجرياً للأمور، ولـي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات

(١) الشحط: البُعد. ابن منظور: لسان العرب، مادة شحط ٧/٣٢٧.

(٢) هُدْنَةٌ عَلَى دَخْنٍ: أي سكون لعلة لا للصلح، وشبهها بدخان الخطب الرَّاطِبُ لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصَّلاَح الظاهر. ابن منظور: لسان العرب، مادة دخن ١٣/١٤٩.

(٣) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣١٣، ٣١٤.

(٤) الصُّفْدِي: الواقي بالوفيات، ١/٤٦٣.

الأمور، ولما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديميه، فباعوه وعقدوا له الولاية، ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده، ولقبوه بالنصرور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة ملتهم، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلاح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها، ومهّد مصالحها في مدة شهرين، وأمر بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في مملكته، فأجاب قومًّا وامتنع آخرون^(١).

وقد تولى أبو يوسف يعقوب المنصور المودي حكم دولة الموحدين خمس عشرة سنة متصلة؛ من سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٤م) وحتى سنة (٥٩٥هـ = ١١٩٩م)، وكان أقوى شخصية في تاريخ دولة الموحدين، ومن أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين بصفة عامة، وقد عُدَّ عصره في دولة الموحدين بالعصر الذهبي.

ونستطيع أن نتناول سيرته في الأندلس من خلال هذين العنصرين:

أولاً: التحصين الأموي في الشريعة الأندلسية

مثل عبد الرحمن الداخل ومنْ بعده عبد الرحمن الناصر، وغيرهم من فعلوا ما لم يفعله الشيخوخ والكبار، تولى أبو يوسف يعقوب المنصور المودي وكان عمره ستًا وعشرين سنة فقط^(٢)، وقد قام بالأمر على أحسن ما يكون، ورفع راية الجهاد،

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/٧، ٤.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٧٠، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢١٧، وفي روايات أخرى أن سنه كانت اثنين وثلاثين سنة. انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٣٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٢/٣١٢، وتأريخ الإسلام، ٤٢/٢١٣.

ونصب ميزان العدل، ونظر في أمور الدين والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي هي أحسن.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور المودي أن يُغَيِّرَ كثيراً من أسلوب السابقين له؛ فكانت سنته الهدوء والسكينة والعدل والحلم؛ حتى إنه كان يقف ليقضي حاجة المرأة وحاجة الضعيف في قارعة الطريق^(١)، وكان يَؤْمُنُ الناس في الصلوات الخمس^(٢)، وكان زاهداً، يلبس الصوف الخشن من الثياب، وقد أقام الحدود حتى في أهله وعشيرته؛ فاستقامت الأحوال في البلاد، وعظمت الفتوحات.

بلغت أعمال أبي يوسف يعقوب المنصور المودي الجليلة في دولته أوجها، فحارب الخمور^(٣)، وأحرق كتب الفلسفه، واهتم بالطب والهندسة^(٤)، وألغى المناظرات العقيمة، التي كانت في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد المويدين^(٥)، وزاد كثيراً في العطاء للعلماء، «وانشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت»، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل مَنْ يقبل صلته منهم بالصلات الجزيئة^(٦)، ومما هو إلى مذهب ابن حزم الظاهري؛ وأحرق الكثير من كتب الفروع، وأمر بالاعتماد على كتاب الله وعلى كتب السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ^(٧).

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/٢٢٥، والسلاوي: الاستقصاء، ٢/١٩٩.

(٢) ثم انقطع عن ذلك بعد أن «أبطأ يوماً عن صلاة العصر إيماناً كاد وقتها يفوت، وقعد الناس يتظروننه، فخرج عليهم فصل، ثم أوسعهم لوماً وتائياً، وقال: ما أرى صلاتكم إلا لنا، وإنماً في معنكم عن أن تُقدّموا رجلاً منكم فيصلّي بكم، أليس قد قدم أصحاب رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب، أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتَّبعُون، والمُهداة المُهتدون». فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامية». انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٦١، والذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/٢١٩.

(٣) انظر: ابن عذاري، قسم المويدين، ص ١٧٣.

(٤) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٨٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٣١٧.

(٥) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٥٤.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٥٤.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٥٥.

وفي دولته اهتمَ -أيضاً- أبو يوسف يعقوب المنصور الموصلي بالعمران، وقد أكمل إنشاء مدينة الرباط التي كان قد اخترطها ورسم حدودها أبوه يوسف، وسمَّاها رباط الفتح^(١)، وأقام فيها المستشفى الكبير الذي يصفه عبد الواحد المراكشي مبهوراً بقوله: «وبني بمدينة مراكش بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من القوش البدعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادةً على أربع بركٍ في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفُرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام، وما يُنفق عليه خاصة خارجًا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدھان والأکحال، وأعدَ فيه للمرضى ثيابٍ ليلٍ ونهار... من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقصَه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بما يعيش به ريثما يستقلُّ، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركَ وسببه، ولم يقصره على القراء دون الأغنياء، بل كلُّ منْ مرض بمَرَاكُش من غريبٍ حُمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاتة يركب ويدخله، يعودُ المرضى ويسأل عن أهلِ بيتِ أهلِ بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القوَّةُ عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله^(٢).

وكان -أيضاً- يجمع الزكاة بنفسه ويُفرِّقُها على أهلها، وكان كريماً كثير الإنفاق؛ حتى إنه وزَّع في يوم عيد أكثر من سبعين ألف شاة على القراء^(٣).

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٤١، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٣١٣.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٦٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٣١٧.

المنصور المودي يتبرأ من أباطيل ابن تومرت:

ويتبين هذا في خطاب ابنه المؤمن^(١) لما أبطل القول بالمهدي، وأزال رسومها فكان مما قال: «وقد كان سيدنا المنصور عليه السلام همَّ أن يتصدِّع بها به الآن صَدَعْنَا، وأن يرُقَّع للأمة الخرق الذي رقَّنا، فلم يُساعدَه لذلك أمله، ولا أَجَلَه إِلَيْهِ أَجْلَه، فقدم على رَبِّه بصدق نية، وخاصص طَوْيَةً، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فَهَا الظُّنُّ بمن لم يَدْرِ بِأَيِّ يَدٍ يَأْخُذُ كِتَابَه...»^(٢).

وكان مجلسه عليه السلام عامراً بالعلماء وأهل الخير والصالحين، وقد ذكر الذهبي عليه السلام في السير أنه كان يُجيد حفظ القرآن والحديث، ويتكلّم في الفقه ويناظر، وكان فصيحاً مهيباً، يرتدي زي الزهاد والعلماء، ومع ذلك عليه جالة الملك^(٣).

وعدم اعتراف المنصور المودي بأفكار ابن تومرت المخالفة للكتاب والسنّة يجعله من أهل السنّة والجماعة، ومن الفتنة الصالحة المصلحة، التي يتحقق الله بها النصر والتمكين لدینه والعزة والمنعنة لأهله -تعالى-. وقد أورد المراكشي ما يُفيد براءة المنصور المودي من أفكار ابن تومرت الضالة، فقال: أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة، قال: قال لي أمير

(١) أعلن المؤمن - الخليفة المودي فيما بعد - وهو ابن المنصور بطريق المهدية في عام ٦٢٦ هـ، وأصدر مرسومه يقول فيه: «ولتعلموا أنا نبئنا الباطل، وأظهرنا الحقّ، وأن لا مهدي إلا عيسى ابن مريم، وما سُمِّي مهدياً إلا أنه تكلّم في المهد، وتلك بدعة قد أزَلَّناها، والله يُعيينا على القلادة التي تقلدناها، وقد أزَلَّنا لفظ العصمة عن لا ثبت لها عصمة؛ فلذلك أزَلَّنا عنه رسمه، فسقط وثُبِّت، وتمَحَّى ولا ثبت، وقد كان سيدنا المنصور عليه السلام همَّ أن يتصدِّع بها به الآن صَدَعْنَا، وأن يرُقَّع للأمة الخرق الذي رقَّنا، فلم يُساعدَه لذلك أمله، ولا أَجَلَه إِلَيْهِ أَجْلَه، فقدم على رَبِّه بصدق نية، وخاصص طَوْيَةً، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فَهَا الظُّنُّ بمن لم يَدْرِ بِأَيِّ يَدٍ يَأْخُذُ كِتَابَه...». أمر بقطع ذكر إمامهم المهدي من الخطبة في جميع بلاده، وما اسمه من المخاطبات ومن النقش في السكّة، وقطع النساء بعد الصلاة... وما أشبه ذلك مما كان العمل عليه من أول دولة الموردين.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموردين، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٣١٦.

المؤمن أبو يوسف: يا أبا العباس؛ اشهد لي بين يدي الله تعالى أنني لا أقول بالعصمة.
يعني: عصمة ابن تومرت – قال (أبا العباس): وقال لي يوماً وقد استاذته في
 فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس؛ أين الإمام؟ أين الإمام^(١)؟

ويقول أيضاً: أخبرني شيخ من لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس
يسمى أبو بكر بن هانئ مشهور البيت هناك، لقيته وقد عَلَتْ سُنُّه، فرويت عنه قال
لي: لما رجع أمير المؤمنين – يعني: المنصور الموصي – من غزوة الأرك، وهي التي
أوقع فيها بالأذفش وأصحابه، خرجنا نتلقاه فقدمني أهل البلد لتكليمه، فرفعت
إليه، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاطه وولاته وعماله على ما جرت عادته،
فلما فرغت من جوابه سألني كيف حالني في نفسي، فتشكّرْتُ له، ودعوت بطول
بقاءه، ثم قال لي: ما قرأت من العلم؟ قلت: قرأت تواليف الإمام. – يعني: ابن
تومرت – فنظر إلى نظرة الغضب، وقال: ما هكذا يقول الطالب، إنما حكمك أن
تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت شيئاً من السنة. ثم بعد هذا قُلْ ما شئت^(٢).

وكان يقعد للناس عامّة، لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير، حتى اختصم
إليه رجالان في نصف درهم، فقضى بينهما، وأمر الوزير أبو يحيى صاحب الشرطة أن
يضربيها ضرباً خفيفاً؛ تأدبياً لها، وقال لها: أما كان في البلد حكام قد نصبوا مثل
هذا. فكان هذا - أيضاً - مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا
يُنفدها غيره.

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين؛
يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم، وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما
يسألهم عن عمالهم وقضاةهم وولاتهم، فإذا أثروا خيراً؛ قال: اعلموا أنكم مسئولون

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٩.

عن هذه الشهادة يوم القيمة، فلا يقولنَّ امرؤ منكم إلا حَقًّا. وربما تلا في بعض المجالس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوئُنَا قَوَّامِينَ بِالْقُسْطِ شُهَدَاءُ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أُوْلَئِكُمْ وَالْأَكْثَرُ مِنْهُمْ لَا يُفْلِتُونَ﴾ [النساء: ١٣٥] ^(١).

أمثلة على الموحدين في بلاد الأندلس :

إضافة إلى أعماله السابقة في دولة الموحدين -بصفة عامة- فقد وَطَّدَ أبو يوسف يعقوب المنصور الأوضاع كثيراً في بلاد الأندلس، وقوَى التغور هناك، وكان يُقاتل فيها بنفسه، وقد كانت أشدُّ الممالك ضراوة عليه مملكة البرتغال، ثم مِنْ بعدها مملكة قشتالة، وقد كان له في الأندلس ما يلي:

مواجِهَةُ بَنْيِ غَانِيَةٍ :

وبني غانية: هم أبناء محمد بن علي من قبيلة مسوفة، وكان علي بن يوسف بن تاشفين قد أرسل محمدَ بن علي وأخاه يحيى إلى الأندلس قبل ظهور ابن تومرت، و«غانية» هو اسم أم هذين الرجلين (يحيى و محمد ابني علي)، دُعيَا به جريأا على عادة أهل هذه البلاد من نسبة الرجال في أحابين كثيرة لأهمهم^(٢)، وبعد ما مات يحيى أخوه محمد بن علي (ابن غانية) وظهرت دعوة الموحدين، وبدأت تنتشر على حساب دولة المرابطين، انتقل محمد ابن غانية إلى جزر البليار، وأقام فيها دولة له ولأبنائه من بعده، وساعدته على ذلك قيام ابن مردينيش في شرق الأندلس؛ وهذا ما حمى جانب بني غانية من سطوة الموحدين، فلما دان شرق الأندلس للموحدين، بدأ إسحاق بن محمد ابن غانية، يُلطف الموحدين، ويُرسل لهم من وقت لآخر بهدايا من غنائمه وسببيه من النصارى، وكان الموحدون -في أول الأمر- لا يعيشون بهذه الجزر، ولكنهم مع مرور الوقت سَعَوا لإدخالها في طاعتهم، فأرسلوا إلى إسحاق بذلك،

(١) المصدر السابق، ص ٣٦١-٣٦٣.

(٢) وقد رأينا هنا في أسماء كبار قادة المرابطين كداود ابن عائشة.

فماطل قدر استطاعته، ثم استشهد في إحدى غزواته قبل أن يُرْدَّ عليهم، فخلفه ابنه عليٌّ على الحكم، ثم مات بعد قليل يوسف بن عبد المؤمن في غزوة شنترين، فقويت نفوسبني غانية، وأعلنوا صراحة رفضهم الدخول في طاعة الموحدين، ثم زادوا فسعوا لاستغلال موت الأمير الموحدي على هذا النحو، واتصلوا ببعض أعيان بجاية (في شمال دولة الجزائر الآن)، واتفقوا معهم على نصرتهم، ثم خرجوا بأساطيلهم في أوائل عهد المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي سنة (٥٨٠ هـ) واستولوا عليها، وبدأ بينهم وبين الموحدين في الأندلس وإفريقيا صراع طويل.

وفي سنة (٥٨٩ = ١١٨٩ م) حاربهم المنصور أبو يعقوب، واستطاع أن يسيطر على جزيرتين من جزر البليار الثالث، ثم واجه تمردthem كذلك في المغرب، وكان من جراء ذلك أن ضفت كثيراً قوّة الموحدين في الأندلس.

استغلَّ ملك البرتغال انشغال أبي يوسف يعقوب المنصور في هذه المواجهات، واستغلَّ الضعف الذي كان نتيجة طبيعية لذلك، واستعان بجيوش ألمانيا وإنجلترا البريّة والبحريّة، ثم حاصر إحدى مدن المسلمين هناك، واستطاع أن يحتلّها ويُخرج المسلمين منها، وقد فعل فيها من الموبقات ما فعل، ثم استطاع أن يُواصل تقدُّمه إلى غرب مدينة إشبيلية في جنوب الأندلس^(١)، وهنا أضحت الوضع في غاية الخطورة.

سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور -ثالث الخلفاء الموحدين - العصر الذهبي للدولة الموحدية، والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الموحدية، ولقد كان العصر الذهبي قصيراً، لا يتناسب مع دولة ضخمة متaramية الأطراف، غزيرة الشروة

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٥٦، يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد الموحدين، ص ٧٩.

والموارد مثل دولة الموحدين؛ فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوّتهم، وكان تحت إمارتهم حشود من الجندي القوي القادر على كسب المعارك، لم يتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي؛ فقد كانت جيوش الموحدين تعُج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين من است Alma التهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهماليين، الذين انضموا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يَخُلِّ الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة. ورغم وجود هذه القوات، إلا أن هذه القوة العسكرية الموحدية كانت دائمًا مُفْكَكة، تنقصها القيادة الحازمة، التي تقبض على الجيش قبضة حكمة، وتُوَجِّهُ الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة، وكان شديد الإيمان؛ فانتقل إيمانه إلى رجاله، وأصبحت جيوش الموحدين في أيامه قوّة ضاربة كبرى^(١).

* * *

(١) حسين مؤنس: معلم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

الفصل الرابع

معركة الأرك الخالدة

بعد القضاء على ثورات بني غانية أخذ أبو يوسف يعقوب المنصور المودي يُفَكِّر في كيفية إعادة الوضع إلى ما كان عليه، وإيقاف أطماع النصارى في بلاد الأندلس، علم أولاً أن أشدَّ قوَّتين عليه هما قوَّة قشتالة وقوَّة البرتغال، لكنه استقبل رسالة من ملك قشتالة يسعى فيها إلى الصلح والمهادنة، بل ويعرض عليه أن يُخالفه ضدَّ مَنْ يشاء من أعداء أبي يوسف وأبناء ملَّة ملك قشتالة، وذكر أبو يوسف في رسالته أنه بعد أن رَوَى في الأمر واستخار عزم على إجابة مطلب ملك قشتالة فَقِيلَ مسامته، بما لا يتعارض مع عزَّة الإسلام والمسلمين^(١).

وفي سنة (٥٨٥ هـ)، جاء عدوَانُ ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز؛ يروي عبد الواحد المراكشي فيقول: «قَصَدَ بِطْرُو بْنَ الرِّيق^(٢) - لعنه الله - مدِينة شلب من جزيرة الأندلس فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس^(٣) والشوابي^(٤)،

(١) ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحديه: الرسالة الرابعة والثلاثون، ص ٢٢٢.

(٢) أمير البرتغال ألفونسو هنريكيز كما كان يسميه العرب وقتها.

(٣) البطس: مفردها بطة، وهي من أنواع المراكب البحرية الكبيرة، عرفها العرب المسلمين منذ بداية العصر الإسلامي، واستعملوها في الحروب البحرية والأعمال التجارية، عدد أشرعنها أربعون شراعاً، تحمل على متنها ما يزيد عن ألفين وخمسين شخصاً. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص ٨١.

(٤) الشوابي: جمع شوبة، وهي طراز من السفن المستخدمة للأغراض الحربية عرفها اليونان والروماني واستعملها العرب في العصر الإسلامي، تسير بالشراع، يصل عدد مجاديفها إلى ١٠٠، وهي مزودة بأبراج خاصة، وتحمل على متنها حوالي ١٥٠ من المقاتلين المزودين بأسلحتهم. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص ٢٨٧.

وكان قد وَجَّهَ إِلَيْهِمْ يُسْتَدْعِيهِمْ إِلَى أَنْ يُعِينُوهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلْ لَهُمْ سُبِّيَ الْبَلْد، وَلَهُ هُوَ الْمَدِينَةُ خَاصَّة، فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَنَزَلُوا عَلَيْهَا مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَمُلْكُوهَا، وَسَبَوْهَا أَهْلَهَا، وَمَلْكَ ابْنِ الرِّيقِ -لَعْنَهُ اللَّهُ- الْبَلْد، وَتَجَهَّزَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَيْوشِ عَظِيمَةٍ، وَسَارَ حَتَّى عَبَرَ الْبَحْرَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا مَدِينَةُ شَلْبُ الْمَذْكُورَةِ، فَنَزَلَ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَطْقُ الْرُّومُ دَفَاعَهُ، وَخَرَجُوا عَنْهَا وَعَمَّا كَانُوا قَدْ مَلْكُوهُ مِنْ أَعْمَالِهَا، وَلَمْ يَكُفِّهِ ذَلِكَ حَتَّى أَخْذَ حَصْنًا مِنْ حَصُونَهُمْ عَظِيمًا يُقالُ لَهُ: طَرْشُ»^(١).

ثُمَّ عَادَ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورَ إِلَى عَاصِمَتِهِ مَرَاكِشَ فِي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ بَعْدَ هَذَا النَّصْرِ الْمُؤْزِرِ عَلَى الْبُرْتُغَالِ، وَالْمَدِينَةِ مَعْ قَشْتَالَةِ، وَبِقِيَّتِ طَائِفَةً أُخْرَى لَمْ تَصَالِحْ الْمَنْصُورَ، وَهِيَ الَّتِي سَتَكُونُ السَّبِبُ فِي الْحَرْبِ الْقَادِمَةِ.

بَعْدَ أَقْلَمِ مِنْ خَمْسِ سَنَوَاتٍ «جَمِيعَتِ تَلْكَ الطَّائِفَةِ (الَّتِي لَمْ تَصَالِحْ) جَمِيعًا مِنْ الْفَرْنَجِ وَخَرَجُوا إِلَى بَلَادِ الْإِسْلَامِ، فَقَتَلُوا وَسَبُوا، وَغَنَمُوا وَأَسْرُوا، وَعَاثُوا فِيهَا عِيشًا شَدِيدًا»^(٢)، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ اجْتَمَعَ مَعْهُمُ الْفُونْسُو الثَّامِنُ بَعْدَ انْقِضَاءِ مَدَةِ الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَنْصُورِ، فَبَعَثَ إِلَى جَمِيعِ الشَّغُورِ الْإِسْلَامِيِّ يُنْذِرُ بِاِنْتِهَاءِ الْمَدِينَةِ -وَكَانَ الْمَنْصُورُ مُنْشَغِلًا بِمَعَارِكِهِ فِي الْمَغْرِبِ ضَدَ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ مِنْ بَنِي غَانِيَةِ وَغَيْرِهَا- ثُمَّ بَعَثَ بِقَادَتِهِ إِلَى مُخْتَلَفِ أَنْحَاءِ الْأَنْدَلُسِ يُغَيِّرُونَ عَلَيْهَا وَيُثْخِنُونَ فِيهَا، وَقَدْ مَالَ الْمَنْصُورُ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ مِنْ أَمْرِ الْمُتَمَرِّدِينَ أَوْلًا، لَوْلَا أَنْ تَوَالَتْ كَتَبُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ عَلَيْهِ تُشِيرُ بِاِشْتِدَادِ وَطَأَةِ الْعَدُوِّ إِلَى مَا لَا يَطِقُ، فَعَدَلَ عَنْ عَزْمِهِ وَبَدَأَ فِي التَّفْكِيرِ صَوْبَ الْعَبُورِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ^(٣).

وَقَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ بِسَنَوَاتٍ قَلَّا لِلْكَافِرِ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَعِيشُونَ نَشْوَةً

(١) عبد الواحد المراكشي: *العجب* ص ٣٥٦، وابن عذاري: *البيان المغرب*، ص ٢٠٤-٢١٢، وابن خلدون: *تاريخ ابن خلدون*، ٦/٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: *ال الكامل* ١٠/٢٣٧، وابن خلkan: *وفيات الأعيان* ٧/٨.

(٣) محمد عبد الله عنان: *دولة الإسلام في الأندلس* ٥/١٩٧.

النصر الكبير الذي حققه صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الخالدة في سنة (١١٨٧هـ = ٥٨٣م)؛ أي: قبل هذه الأحداث بسبعين سنة فقط، وما زال المسلمون في المغرب يعيشون هذا الحدث الإسلامي الكبير، ويتمسّنون ويريدون أن يُكررُوا ما حدث في المشرق؛ خاصّةً بعد أن قام أبو يوسف يعقوب المنصور المودي بتحفيزهم في الخروج إلى الجهاد، فتنافسوا في ذلك **﴿وَقَاتَلُوكُلَّا فِي أَفْسَسِ الْمُسْتَأْفِسِينَ﴾** [المطففين: ٢٦].

كان ثمة جيش جاهز لمواجهة المتمردين على المنصور، ولكن لما تغيرت الوجهة أقبل المجاهدون المتطوعة، وقد بدأ هذا الاستئثار في سنة (١١٩٤هـ = ٥٩٠م)، وبعدها بعام واحد وفي سنة (١١٩٥هـ = ٥٩١م) انطلقت الجيوش الإسلامية من المغرب العربي والصحراء وعبرت مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس؛ لتلتقي مع قوّات الصليبيين الرابضة هناك في موقعة ما برح التاريخ يذكرها ومحملها^(١).

موقعة الأرك الخالدة:

الأرك: حصن على بُعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنة، ومحملها اليوم: (Sta Maria de Alarcos) غرب المدينة الإسبانية الحديثة (giudad real) «المدينة الملكية»، والأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه^(٢).

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: العجب، ص ٣٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢١٧.

وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/٢٤٥.

(٢) شوقي أبو خليل: الأرك، ص ٥٤.



وفي التاسع من شهر شعبان سنة (١١٩٥هـ = ١٦٩١م) وعند هذا الحصن الكبير الذي يقع في جنوب طليطلة على الحدود بين قشتالة ودولة الأندلس، في ذلك الوقت التقت الجيوش الإسلامية مع جيوش النصارى هناك^(١)، وكان ألفونسو الثامن قد أعدَّ جيشه بعد أن استعان بملكه ليون ونافار، في قوَّةٍ يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفاً ومائتي ألف نصري، وقد أحضروا معهم بعض جماعات من اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم؛ ليتمَّ بيعهم بعد ذلك في أوروبا^(٢).

وعلى الجانب الآخر فقد أعدَّ أبو يوسف يعقوب المنصور المودي جيشاً كبيراً، بلغ قوامه مائتي ألف مسلم^(٣) من جراء تلك الحمية، التي كانت في قلوب أهل المغرب العربي وأهل الأندلس على السواء؛ خاصة بعد انتصارات المسلمين في حطين (١١٨٧هـ = ١٦٣٥م) في الشرق.

في منطقة الأرك وفي أول عمل له عقد أبو يوسف يعقوب المنصور المودي مجلساً استشارياً يستوضح فيه الآراء والخطط المقترنة في هذا الشأن، ولقد كان هذا على غير نسق كل القادة الموحدين السابقين له، والذين غالب عليهم التفرد في الرأي، فسار على منهجه رسول الله ﷺ في ذلك الأمر، وفي هذا المجلس الاستشاري استرشد أبو يوسف يعقوب المنصور بكل الآراء؛ حتى إنه استعان برأي أبي عبد الله بن صناديد في وضع خطة الحرب، وهو من الزعماء الأندلسيين وليس من قبائل المغرب البربرية،

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٣٧/١٠، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٢٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٣٧/١٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/٤، ٢٤٥/٤، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٢/٦.

ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥/٥، ٢١٣، يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد

المراطين والموحدين ٢/٨٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٣١٩.

وكان هذا -أيضاً- أمراً جديداً على دولة الموحدين، التي كانت تعتمد على جيوش المغرب العربي فقط، فضمَّ أبو يوسف يعقوب المنصور قُوَّةَ الأندلسيين إلى قُوَّةِ المغاربة والبربر القادمين من الصحراء^(١).

الاستعداد ووضع الخطط:

في خطةٍ شبيهةٍ جداً بخطَّةِ موقعة الزَّلاقةِ قَسَّمَ أبو يوسف يعقوب المنصور الجيش إلى نصفين، فجعل جزءاً في المقدمة، وأخضى الآخر خلف التلال، وكان هو على رأسه، ثم اختار أميرًا عامًّا للجيش، هو كبير وزرائه أبو يحيى بن أبي حفص، وقد ولَّ قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد؛ وذلك حتى لا يُوغر صدور الأندلسيين وتضعف حماستهم حين يتربَّل عليهم مغربي أو ببربي^(٢).

وإنما هذه الخطة فقد جعل الجزء الأول من الجيش النظامي المودي ومن الأندلسيين، «فجعل (أميرُ الجيش أبو يحيى) عسكراً الأندلس في الميمنة، وجعل زناته والمصادمة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة، وجعل المطوعة والأغزار (المهالك المصريون) والرماة في المقدمة، وبقي هو في القلب في قبيلة هتاتة»^(٣).

وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال أرسل الأمير المودي رسالة إلى كل المسلمين، يقول فيها: إنَّ الْأَمِيرَ يَقُولُ لَكُمْ: اغفِرُوا لَهُ، فَإِنَّ هَذَا مَوْضِعُ غَفْرَانٍ، وَتَغَافِرُوا فِيهَا بَيْنَكُمْ، وَطَبِّيُوا نُفُوسَكُمْ، وَأَخْلَصُوا اللَّهَ نِيَّاتَكُمْ. فَبَكَى النَّاسُ جَمِيعَهُمْ، وَأَعْظَمُوا مَا سَمِعُوهُ مِنْ أَمِيرِهِمُ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصَ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مُوقَفُ وَدَاعٍ، ثُمَّ قَامَ الْخَطَّابُ يَخْطُبُونَ عَنِ الْجَهَادِ وَيُذَكَّرُونَ بِفَضْلِهِ وَشَرْفِهِ وَمَكَانِتِهِ وَيُحَمِّسُونَ الْجَنْدَ لَهُ^(٤)،

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٢٣، والسلاوي: الاستقصا، ١٨٧ / ٢.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٦، والسلاوي: الاستقصا، ١٨٩ / ٢.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢١٩.

«فنشط الناس، وطابت النفوس، ومن الغد صدع بالنداء، وبأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء»^(١).

اللقاء المرتقب:

في تلك الموقعة كان موقع النصارى في أعلى تلّ كبير، وكان على المسلمين أن يقاتلوا من أسفل ذلك التلّ، لكن ذلك لم يرُد المسلمين عن القتال، وقد بدأ اللقاء ونزل القشتاليون كالسيل الجارف..

ولترك ابن أبي زرع يروي قصة المعركة، يقول:

«تحرك من جيش العدو - دمّره الله تعالى - عقدة كبيرة من سبعة آلاف فارس إلى شانية ألف فارس، كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزَّرَد^(٢) النظيف النضيد، فدفعت نحو عسكر المسلمين... فوصلت تلك العقدة التي دفعت بأجمعها حتى لطمت أطراف رماح المسلمين في صدور خيلهم أو كادت، ثم تقهقرت قليلاً، ثم عادوا بالحملة. فعلوا ذلك مرتين، ثم تهيئوا للدفعة الثالثة، والقائد ابن صناديذ والزعيم العربي يناديان برفع أصواتهما: اثبتوا عشر المسلمين؛ ثبت الله أقدامكم بالعزم الصادقة.

دفع النصارى على القلب الذي فيه أبو يحيى؛ قاصدين إليه يظنون أنه أمير المؤمنين، فقاتل عليه قتالاً شديداً وصبر صبراً جميلاً، حتى استشهد عليه واستشهد معه جماعة من المسلمين من هناتة والمطوعة، وغيرهم من ختم الله تعالى له بالشهادة، وسبقت له من الله تعالى السعادة.

وصبر المسلمون صبراً جميلاً، ورجع النهار بالغبار ليلاً، وأقبلت قبائل المطوعة

(١) ابن الخطيب: رقم الحلل، ص ٥٩.

(٢) الرَّد: حلق المفتر والدرع. ابن منظور: لسان العرب، مادة زرد ٣/١٩٤، والمعجم الوسيط ١/٣٩١.

والعرب والأغزاز والرماة، وأحاطوا بالنصارى الذين دفعوا من كل جانب، ودفع القائد ابن صنادييد بجيوش الأندلس وحسودها، وزحفت معه قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وسائل البربر إلى الربوة التي فيها ألفونسو الثامن -لعنه الله- يُقاتلون مَنْ فيها من جيش الروم.

وكان ألفونسو -لعنه الله- فيها مع جيوش الروم وجميع عساكره وأجناده فيما يزيد على ثلاثة ألف، ما بين فارس وراجل، فتعلّق المسلمين بالربوة وأخذوا في قتال مَنْ بها فاشتبَّه القتال، وعظمت الأهوال، وكثير القتل في النصارى الذين دفعوا في الحملة الأولى، وكانت نحو العشرة آلاف زعيم، انتخبهم اللعين ألفونسو الذميم، وصلَّت عليه الأقْسَة^(١) صلاة النصر، ورَسُوا عليهم ماء المعمودية في الطهر، وتحالفوا بالصلبان أَلَا يفروا حتى لا يتركوا من المسلمين إنساناً، فصدق الله عَجَلَ وعده، ونصر جنده.

فلَمَّا اشتد القتال على الكفار، وأيقنوا بالفناء والبوار، وَلَوْا الأدبار، وأخذوا في الفرار، إلى الربوة التي فيها ألفونسو ليعتصموا بها، فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها، فرجعوا على أعقابهم ناكصين في الوطأ، فرجعت عليهم العرب والمطوعة وهنّاتة والأغزاز والرماة فطحنوهم طحناً، وأفْتوهُم عن آخرهم، وانكسرت شوكة ألفونسو بفنائهم؛ إذ كان اعتقاده عليهم، وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين، وأطلقوه أَعْتَهُم نحوه، وقالوا له: قد هزم الله تعالى العدو.

فضربت الطبول، ونشرت الرایات، وارتفعت الأصوات بالشهادة، وخفقت البنود، وتسبقت لقتال أعداء الله الأبطال والجنود، وزحف أمير المؤمنين بجيوش الموحدين، قاصداً لقتال أعداء الله الكافرين، فتسابقت الخيل وأسرعت الرجال، وقصدوا نحو الكفرة، للطعن والنزال، في بينما ألفونسو الثامن -لعنه الله- قد همَّ

(١) الأقْسَة: جمع قسيس.

وعزم أن يحمل على المسلمين بجميع جيشه، ويصدهم بجندوه وحشوده؛ إذ سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض، والأبواق قد طبت الرُّبا والبطاح، فرفع رأسه لينظر فيها، فرأى رايات الموحدين قد أقبلت، واللواء الأبيض المنصور في أولها عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالب إلى الله. وأبطال المسلمين قد تسبقت وجيوشهم قد تناست وتتابعت، وأصواتهم بالشهادة ارتفعت، فقال: ما هذا؟ فقيل له: هذا أمير المؤمنين قد أقبل، وما قاتلك اليوم كله إلا طلائع جيشه، ومقدّمات عساكره، فقذف الله بكل الرعب في قلوب الكافرين، وولوا الأدبار منهزمين، وعلى أعقابهم ناكصين.

وتلا حقت به فرسان المجاهدين، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتلون آثارهم، ويحكمون فيهم رماحهم وشفارهم، ويررون من دمائهم السيف، ويذيقونهم مرارة الحتوف، وأحاط المسلمون بحصن الأراك، وهم يظنون أن الفونسو -لعنه الله- قد تحصن فيه، وكان عدو الله قد دخل فيه من باب، وخرج من الناحية الأخرى، فدخل المسلمون الحصن بالسيف عنوة، وأضرموا النيران في أبوابه، واحتلوا على جميع ما كان فيه وفي محلة النصارى من الأموال والذخائر والأرزاق، والأسلحة والعدد، والأمتعة والدواب، والنساء والذرية، وقتل في هذه الغزاة من الكفرة ألف لا تُعد ولا تُحصى، ولا يعلم لها أحد عددًا إلا الله تعالى.

وأخذ في حصن الأراك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسارى، فامتنَّ عليهم أمير المؤمنين، وأطلقهم عندما ملكهم؛ ليكون له بذلك يد الامتنان ويد علیاً عليهم، فعزَّ فعله ذلك على الموحدين وعلى كافة المسلمين، وحسبَت له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك^(١).

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٢٢٥ وما بعدها. وانظر حوادث المعركة مختصرة في: ابن عذاري في البيان المغرب - قسم الموحدين - ص ٢١٤ - ٢٢٠، وابن الخطيب: رقم الحلول ص ٥٩.

طارت أخبار النصر في كل مكان، ودوت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة؛ بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادة لا تُوصف؛ خاصة وأنها بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار حطين العظيم.

قال المقرى: وكان عدة مَنْ قُتِلَ من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستة وأربعين ألفاً، وعدد الأسرى ثلاثين ألفاً، وعدد الخيام مائة ألف وستة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفاً، والبغال مائة ألف، والحمير أربعين ألف، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم؛ لأنَّهم لا يبلِّ لهم، وأمَّا الجواهر والأموال فلا تُحصى، وبيع الأسير بدرهم^(١)، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسَّم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفونسو ملك النصارى إلى طُليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكسر صليبه، وآل أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة؛ حتى يأخذ بالثار، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدُّ، ثم لقيه يعقوب وهزمه، وسار خلفه إلى طُليطلة وحاصره، ورمى عليها بالمجانيق، وضيقَ عليها، ولم يبقَ إلا فتحها، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته ونساؤه وبَكَيْنَ بين يديه، وسألته إبقاء البلد عليهم، فرقَّ لهنَّ ومنَّ عليهم بها، ووهب لهنَّ من الأموال والجواهر ما جَلَّ، ورَدَّهُنَّ مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قُرْطُبة، فأقام شهراً يُقسِّم الغنائم^(٢).

نتائج انتصار الأرك:

تمَّ خُضُّ عن انتصار الأرك الكبير آثار ونتائج عظيمة؛ أهمُّها ما يلي:

(١) أُمْرَ بيع الأسير بدرهم - كما عند المقرى - مما يتناقض مع روایات المعاصرین للمعركة من امتنان المنصور عليهم بإطلاقهم بغير فداء.

(٢) المقرى: نفح الطيب، ٤٤٣ / ١.

ثانيةً: النصر المادي

كان من أهم آثار انتصار الأرك تَبَدُّ جيش النصارى بين القتل والأسر؛ فقد قُتِل منهم في اليوم الأول فقط - على أقل تقدير - ثلاثة ألفاً، وقد جاء في نفح الطيب للمقري أن عدد قتل النصارى وصل إلى ستة وأربعين ألفاً ومائة ألف قتيل، من أصل خمسة وعشرين ألفاً ومائتي ألف مقاتل، وكان عدد الأسرى بين عشرين وثلاثين ألفاً أسير^(١)، وقد مَنَ عليهم المنصور بغير فداء؛ إظهاراً لعظمة الإسلام ورأفته بهم، وعدم اكتراثه بقوّة النصارى^(٢).

رغم الکسب المادي الكبير جداً، إلا أنه كان أقل النتائج المترتبة على انتصار المسلمين في موقعة الأرك؛ فقد حصد المسلمون من الغنائم ما لا يُحصى، وقد بلغت - كما جاء في نفح الطيب - ثمانين ألفاً من الخيول، ومائة ألفٍ من البغال، وما لا يُحصى من الخيام^(٣).

وقد وزَّ المنصور عليه السلام هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل رسول الله صلوات الله عليه وسلم، فوزَّ على الجيش أربعة أخاسها، واستغلَّ الخمس الباقى في بناء مسجد جامع كبير في إشبيلية؛ تخليداً لذكرى الأرك، وقد أنشأ له مئذنة سامقة يبلغ طولها مائة متر، وكانت من أعظم المآذن في الأندلس في ذلك الوقت، إلا أنها - وسبحان الله! - حين سقطت إشبيلية بعد ذلك في أيدي النصارى تحولت هذه المئذنة - والتي كانت رمزاً للسيادة الإسلامية - إلى برج نواعيس للكنيسة، التي حلَّت مكان المسجد الجامع^(٤)، وهي موجودة إلى الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) المصدر السابق، ٤٤٣ / ١.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٢٨.

(٣) المقري: نفح الطيب، ٤٤٣ / ١.

(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٢٩.

ثالثاً: النصر المعنوي:

كان من نتائج موقعة الأرك -أيضاً- ذلك النصر المعنوي الكبير الذي ملأ قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ فقد ارتفع نجم دولة الموحدين كثيراً، وارتفعت معنويات الأندلسين، وهانت عليهم قوّة النصارى، وارتقت -أيضاً- معنويات المسلمين في كل بلاد العالم الإسلامي؛ حتى راحوا يعتقدون الرقاب، ويُخْرِجُون الصدقات فرحاً بهذا الانتصار.

وكان من جراء ذلك -أيضاً- أن استمرّت حركة الفتوح الإسلامية، واستطاع المسلمون فتح بعض الحصون الأخرى، وحاصروا طليطلة إلا أنها -كما ذكرنا من قبل- كانت من أحسن المدن الأندلسية؛ فلم يستطيعوا فتحها^(١).

رابعاً: صراعات شتى بين ممالك النصارى:

نتيجةً لموقعة الأرك -أيضاً- حدثت صراعات شتى بين ليون ونافار من ناحية، وبين قشتالة من ناحية أخرى.. فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن (ملك قشتالة) مسئولية الهزيمة^(٢)، وكان من نتائج ذلك -أيضاً- أن وقعت هم الهزيمة النفسية، وترتب على هذا -أيضاً- أن أتت السفارات تطلب العهد والمصالحة مع المنصور المودي.

خامساً: معايدة جديدة بين قشتالة وال المسلمين:

أيضاً كان من نتائج موقعة الأرك أن تمت معايدة جديدة بين قشتالة وال المسلمين على الهدنة ووقف القتال مدة عشر سنوات، أراد المنصور أن يُرَتِّب فيها الأمور من

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٦٠، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٢٤٥ / ٦، والمقرى: نفح الطيب، ١٩٢ / ٢، وانظر تفاصيل غزو المنصور لأراضي قشتالة في جموع رسائل موحدة، الرسالة الخامسة والثلاثون، ص ٢٣١.

(٢) انظر: يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٩٥ / ٢، وليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدة ص ٢٣٨.

جديد في بلاد الموحدين^(١).

أشهر الخدمة في تأسيس الأندية

ابن رشد الحفيد (١١٢٦-١١٩٨ م) - (٤٥٩-٤٢٠ هـ)

هو أبو الوليد، محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، كان مولده سنة (١١٢٦=٢٠٥٥ م)، وقد نشأ في بيت من بيوت العلم؛ فقد كان جده ابن رشد - كما قال عنه ابن بشكوال في الصلة - فقيهاً عالماً، حافظاً للفقه، مُقدّماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيراً بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرئاسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن والهدي الصالح^(٢).

نشأ ابن رشد الحفيد في هذا البيت، ومع أنه لم يدرك جده العظيم هذا - حيث توفي جده وعمر الحفيد شهر واحد - إلا أنه ورث العلم الغزير، خاصة في الفقه عن أبيه الذي تربى وتعلم على يد جده وعن غيره من فقهاء عصره، وقيل: إنه تلقى علوم الفلسفة على ابن باجة^(٣).

وقد ذكر الذهبي أن ابن رشد ما ترك الاشتغال مذ عَقَل سوي ليالتين: ليلة موت أبيه، وليلة عرسه، وأنه سوَّد فيها ألف وقَيْدَ نحوَ من عشرة آلاف ورقة، ومال إلى علوم الحكماء، فكانت له فيها الإمامة، وله من التصانيف: بداية المجتهد ونهاية المقتضى في الفقه، والكليات في الطب، وختصر المستصنف في الأصول، وشرح

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٦٠، وقالت بعض المصادر: إن مدة المددنة كانت خمس سنين.
انظر: ابن الأثير: الكامل، ١٠/٢٣٨، والسلاوي: الاستقصاء، ١٩٣/٢.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ٣/٨٣٩، (١٢٧٨).

(٣) رحاب عكاوي: ابن رشد، ص ٩.

أرجوزة ابن سينا في الطب، والمقدمات في الفقه، وكتاب الحيوان، وكتاب جوامع كتب أرسطوطاليس، وشرح كتاب النفس، وكتاب في المنطق، وكتاب تلخيص الإلهيات لنيقولاوس، وكتاب تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو، وكتاب تلخيص الاستقصادات لجالينوس، ولخص له كتاب المزاج، وكتاب القوى، وكتاب العلل، وكتاب التعريف، وكتاب الحميات، وكتاب حيلة البرء، ولخص كتاب السماع الطبيعي، وكتاب تهافت التهافت، وكتاب منهاج الأدلة، وكتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، وكتاب شرح القياس لأرسطو، ومقالة في العقل، ومقالة في القياس، وكتاب الفحص في أمر العقل، والفحص عن مسائل في الشفاء، ومسألة في الزمان، ومقالة فيها يعتقده المشاعون وما يعتقده المتكلمون في كيفية وجود العالم، ومقالة في نظر الفارابي في المنطق ونظر أرسطو، ومقالة في اتصال العقل المفارق للإنسان، ومقالة في وجود المادة الأولى، ومقالة في الرد على ابن سينا، ومقالة في المزاج، وسائل حكمية، ومقالة في حركة الفلك، وكتاب ما خالف فيه الفارابي أرسطو^(١).

أثر فلسفة ابن رشد على الغرب:

كان لابن رشد فضل كبير على روجر بيكون الفيلسوف الشهير؛ فقد استفاد هذا الأخير من مؤلفاته وحيّاً، واستنزل من حكمته إهاماً، وذكره في كتابه اللاتيني (أبوس ماجوس)، وأثنى عليه وعلى مواهبه وسعة علمه، فقال: «إنه فيلسوف متين متعمق، صَحَّحَ كثيراً من أغلاط الفكر الإنساني، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يُستغنى عنها بسواءها، وأدرك كثيراً مما لم يكن قبله معلوماً لأحد، وأزال الغموض عن كثير من الكتب التي تناولها ببحثه».

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٣٠٨، ٣٠٩.

وأما توماس الأكويني الذي أصبح قديساً؛ لأنَّه كان أعظم لاهوقي في كنائس الغرب، وأكبر فلاسفة القرون الوسطى، فقد سطع نجمه وعلا بكتابه إجمال اللاهوت (سوماتيولوجيا)، وقد ذكر توماس أسباب اتصاله بالأفكار الدينية، ودلَّ على أنَّ الفضل في وضع كتابه شكلاً ومادة يعود إلى طريقة ابن رشد وفلسفته.

على أنَّ فيلسوف قُرْطُبَةَ - ابن رشد - لم يسلم من ألسنة رجال الكنيسة؛ فقد ذمَّوه بكل شفقة ولسان، وطعنوا عليه أقبح طعن؛ فقد قال عنه بترارك: «إنه ذلك الكلب الكلب الذي هاجه غيط مقوت؛ فأخذ ينبع على سيده ومولاه المسيح والديانة الكاثوليكية». وأما دانتي فقد جعله في هدوء ووقار يتبوأ مقعده في الجحيم جراء له على كفره واعتزاله^(١).

ومن ثناء العلماء عليه ما نقله الذهبي عن ابن أبي أصيبيعة من قوله: كان أوحد في الفقه والخلاف، وبرع في الطب^(٢)، وقول الذهبي نفسه: «وكان يُفزع إلى فتياه في الطب، كما يُفزع إلى فتياه في الفقه، مع وفور العربية، وقيل: كان يحفظ ديوان أبي تمام والمتنبي^(٣).

كان الخليفة أبو يعقوب يستعين بابن رشد إذا احتاج الأمر للقيام بمهام رسمية عديدة، ولأجلها طاف في رحلات متتابعة في مختلف أصقاع المغرب؛ فتنتقل بين مَرَّاكِش وإشبيلية وقرطبة، ثم دعاه أبو يعقوب في سنة (٥٧٨هـ) إلى مَرَّاكِش فجعله طبيبه الخاص، ثم ولاه منصب القضاء في قُرْطُبَةَ، فلما مات أبو يعقوب يوسف وخليفه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور زادت مكانة ابن رشد في عهده مكنته ورفعة،

(١) محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ص ٢٢٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٠٨/٢١، وانظر: ابن أبي أصيبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣١٩/٣.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٠٨/٢١.

وَقَرَّبَهُ الْأَمِيرُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ كَادَ لَهُ بَعْضُ الْمَقْرِئِينَ مِنَ الْأَمِيرِ، فَأَمَرَ الْأَمِيرَ بِنْفِيهِ إِلَى قَرْيَةٍ كَانَتْ لِلْيَهُودِ، وَأَحْرَقَ كَتَبَهُ، وَأَصْدَرَ مَنْشُورًا إِلَى الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً يَنْهَا هُمْ عَنْ قِرَاءَةِ كُتُبِ الْفَلْسَفَةِ، أَوِ التَّفْكِيرِ فِي الْإِهْتِمَامِ بِهَا، وَهَذَدَدَ مَنْ يُخَالِفُ أَمْرَهُ بِالْعَقوَبَةِ^(١).

وَقَدْ مَاتَ ابْنُ رَشْدٍ حَبْوَسًا فِي دَارَهُ بِمَرَّاكُشِ، وَذَلِكَ سَنَةُ (١١٩٨هـ = ٥٩٥م)^(٢).

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ زَرْقُونَ (٥٨٦هـ - ١١٩٠م) :

هُوَ كَمَا يَصِفُهُ الْذَّهَبِيُّ فِي السِّيرِ - الْمُسْنِدُ الْفَقِيْهِ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ الْإِشْبِيلِيِّ الْمَالِكِيِّ، الْمُعْرُوفُ بِابْنِ زَرْقُونَ... وَزَرْقُونُ هُوَ لَقْبُ جَدِّهِمْ سَعِيدٍ.

وَقَدْ وُلِدَ سَنَةَ (٥٠٢هـ) فِي شَرِيشَ الْأَنْدَلُسِ وَتُسَمَّى الْآنَ هَرِيزُ فِي جَنُوبِ إِسْبَانِيَا، تَلَقَّى الْعِلْمَ عَلَى شِيوْخِهَا، ثُمَّ اتَّقَلَّ مَعَ أَبِيهِ إِلَى مَرَّاكُشِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَتَجَوَّلَ فِيهَا، وَلَازَمَ الْقَاضِي عِياضًا (٥٤٤هـ)، وَتَلَقَّى الْعِلْمَ بِمَرَّاكُشِ وَبِسَبَّتَةَ، وَتَوَلََّ ابْنَ زَرْقُونَ الْقَضَاءَ فِي إِشْبِيلِيَّةَ وَشِلْبَ.

وَكَانَ مُسْنِدُ الْأَنْدَلُسِ فِي وَقْتِهِ، وَلَهُ مَؤَلَّفٌ جَمِيعُهُ بِيْنَ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ لِلتَّرْمِذِيِّ وَسِنَنِ أَبِي دَاوُدِ فِي الْحَدِيثِ، وَقَدْ تُوَقِّيَّ بِإِشْبِيلِيَّةِ فِي نَصْفِ رَجَبِ (٥٨٦هـ = ١١٩٠م) عَنْ أَرْبَعِ وَثَانِيَنِ سَنَةٍ^(٣).

الإمام الشاطبي (٥٣٨هـ - ١١٤٤م) :

هُوَ كَمَا يَصِفُهُ الْذَّهَبِيُّ فِي السِّيرِ: الشِّيْخُ الْإِمَامُ، الْعَالَمُ الْعَامِلُ، الْقَدوَةُ، سِيدُ الْقَرَاءِ، أَبُو مُحَمَّدٍ، وَأَبُو الْقَاسِمِ الْقَاسِمِ بْنِ فِيْرُهُ بْنِ خَلْفِ بْنِ أَحْمَدَ الرَّعِينِيِّ، الْأَنْدَلُسِيِّ

(١) رحاب عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام، ٢٤٩/٢.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣٠٩/٢١.

(٣) المصدر السابق ، ١٤٧/٢١ ، وما بعدها بتصرف.

الشاطبي، الضرير، ولد في شاطبة من بلاد الأندلس سنة (١١٤٤هـ = ٥٣٨م) ^(١).

قرأ بيبلده القراءات (أي علم قراءات القرآن الكريم) وأتقنها، ثم رحل إلى بلنسية بالقرب من بلده وسمع الحديث، ثم رحل للحج فأخذ العلم - أيضًا - بالإسكندرية ^(٢).

ومن أشهر مؤلفات الإمام الشاطبي قصيده الرائعة العظيمة الفائدة، الجمة النفع، المسماة: (حرز الأمانى ووجه التهانى في القراءات السبع)، والتي عُرفت بـ «متن الشاطبية»، وقد أبدع بِهِ اللَّهُ تَعَالَى فيها غاية الإبداع، ورزقه الله من التوفيق في هذا المتن ما لا يُوصف إلَّا بأنه نور من الله بِهِ اللَّهُ تَعَالَى نور به عقله وقلبه، فأطلق لسانه بهذا المتن العظيم (متن الشاطبية)؛ ويقع هذا المتن في أبيات تزيد على الألف، وقد قال بِهِ اللَّهُ تَعَالَى في خاتمه: [الطوبل]

وَأَبْيَاتُهَا أَلْفُ تَزِيدُ ثَلَاثَةً
وَمَعْ مِائَةٍ سَبْعِينَ زُهْرَاً وَكُمَّلاً

قال الشارح: زُهْرَاً وَكُمَّلاً: حالان من الضمير في تزييد الراجع إلى الأبيات؛ أي: هي زاهرة كاملة، يعني: مضيئة كاملة الأوصاف. ثم قال بِهِ اللَّهُ تَعَالَى:

وَقَدْ كُسِيتْ مِنْهَا الْمَعَانِي عِنَايَةً
كَمَا عَرِيَتْ عَنْ كُلِّ عَوْرَاءِ مِفْصَلًا

قال الشارح: أثني في هذا البيت على معانيها وألفاظها؛ فنصب (عنایة) على أنه مفعولي كُسيت؛ أي أنه اعنى بها فجاءت شريفة المعانى، حسنة المباني، وقابل بين الكسوة والعرى، فقال: كُسيت معانيها عنایة، وعريت في التعبير عنها عن كل جملة عوراً؛ أي لا تُنبئ عن المعنى المقصود فهي ناقصة ^(٣).

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٦٢، ٢٦١، ٢١ / ٢٦٢، ٢٦١.

(٢) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ٢ / ٢٠ - ٢٢.

(٣) أبو شامة: إبراز المعانى من حرز الأمانى، ص ٧٥٦.

وَنَظَمْ -أيضاً- قصيده الرائية المسماة: (عقيلة أتراب القصائد في أنسى المقاصد)، وهي في علم الرسم^(١)، و(ناظمة الزهر) وهي في علم عدد الآي، وله - أيضاً- قصيدة دالية تقع في خمسينات بيت لُّحْنٍ فيها التمهيد لابن عبد البر^(٢).

وتتلمذ عليه كثيرون، فقد كان شيخ القراء بلا منازع، وقد بارك الله له في تصنيفه وأصحابه، فلا نعلم أحداً أخذ عنه إلا قد نجح^(٣).

قال عنه الإمام ابن الجوزي: وكان إماماً كبيراً أujeجوبة في الذكاء، كثير الفنون، آية من آيات الله تعالى، غاية في القراءات، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، إماماً في اللغة، رأساً في الأدب مع الزهد والولادة والعبادة والانقطاع والكشف، شافعي المذهب، مواطباً على السنة، بلغنا أنه ولد أعمى، ولقد حكم عنده أصحابه ومنْ كان يجتمع به عجائب، وعظموه تعظيمًا بالغاً؛ حتى أنسد الإمام الحافظ أبو شامة المقطسي حَفَظَهُ اللَّهُ من نظمه في ذلك: [الوافر]

رَأَيْتُ جَمَاعَةً فُضَلَاءَ فَازُوا
بِرَؤْيَاةِ شَيْخِ مِصْرَ الشَّاطِئِيِّ
وَكُلُّهُمْ يُعَظِّمُهُ وَيُنْتَزِي
كَتَعْظِيمِ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ^(٤)

وقال عنه المقربي في نفح الطيب: وكان إماماً علاماً ذكياً، كثير الفنون، منقطع القرین، رأساً في القراءات، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، واسع العلم، وقد سارت الركبان بقصيده: (حرز الأماني) و(عقيلة أتراب الفضائل) اللتين في القراءات والرسم، وحافظهما خلق لا يُحصُّونَ، وخضع لها فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذاق القراء، ولقد أوجز وسهَّل الصعب^(٥).

(١) أي رسم المصحف وهو كتابة القرآن الكريم.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١، ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) ابن الجوزي: غاية النهاية، ٢/٢٢.

(٤) ابن الجوزي: غاية النهاية، ٢/٢٠، ٢١.

(٥) المقربي: نفح الطيب، ٢/٢٤.



وقال السبكي في حق الإمام الشاطبي: إنَّه كان قويًا الحافظة، واسع المحفظ،
كثير الفنون، فقيهاً، مقرئاً، محدثاً، نحوياً، زاهداً، عابداً، ناسكاً، يتوفَّد ذكاءً. وقال
السخاوي: أقطع آنَّه كان مكافشاً، وأنَّه سأله كثيرون حاله، ما كان أحدٌ يعلم أي
شيءٍ هو^(١).

وقال ابن خلَّakan: ولقد أبدع كل الإبداع في حِرْز الأمانِي، وهي عمدة قراءة هذا
الزمان في نقلهم، فقلَّ مَنْ يستغل بالقراءات إلَّا ويُقدِّم حفظها ومعرفتها، وهي
مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة، وما أظنه سُقِّى إلى أسلوبها، وقد رُوِيَ
عنه آنَّه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدي هذه إلَّا وينفعه الله؛ لأنني نظمتها لله^(٢).

وقال عنه الذهبي: كان يتوفَّد ذكاءً، له الباع الأطول في فن القراءات والرسم
والنحو والفقه والحديث، وله النظم الرائق مع الورع والتقوى، والتأنُّ والوقار...
وكان إذا قرِئَ عليه (الموطأ) و(ال الصحيحان)، يُصْحِّحُ النسخ من حفظه، حتى كان
يقال: إنه يحفظ وقر بغير من العلوم^(٣).

ومن عجيب ما يُروى له من الكرامات، ما أورده الإمام ابن الجوزي، قال:
أخبرني بعض شيوخنا الثقات عن شيوخهم أن الشاطبي كان يُصلِّي الصبح بجلس
بالفالضالية، ثم يجلس للإقراء، فكان الناس يتسابقون السُّرَى^(٤) إليه ليلاً، وكان إذا
قعد لا يزيد على قوله: مَنْ جاء أولاً فليقرأ. ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق، فافتَّقَ في
بعض الأيام أن بعض أصحابه سبق أولاً، فلما استوى الشيخ قاعداً، قال: مَنْ جاء
ثانياً فليقرأ. فشرع الثاني في القراءة، وبقي الأول لا يدرِي حاله، وأخذ يتفَكَّر ما وقع

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/٢٧٣، والمقرئ: نفح الطيب، ٢/٢٤.

(٢) انظر: ابن خلَّakan: وفيات الأعيان، ٤/٧١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/٢٦٢، ٢٦٤.

(٤) السُّرَى: سير عامة الليل. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل السنين ٦/٢٣٧٦، وابن منظور: لسان العرب، مادة سرا ١٤/٣٧٧، والممعجم الوسيط ١/٤٢٨.

منه بعد مفارقة الشيخ من ذنب أوجب حرمان الشيخ له، ففطن أنه أَجْنَبَ تلك الليلة، ولشدَّة حرصه على النوبة نسي ذلك لَمَّا انتبه، فبادر إلى الشيخ، فأُطْلِعَ الشيخ على ذلك، فأشار للثاني بالقراءة، ثم إنَّ ذلك الرجل بادر إلى حمام جوار المدرسة فاغتسل به، ثم رجع قبل فراغ الثاني، والشيخ قاعد أعمى على حاله، فلما فرغ الثاني قال الشيخ: مَنْ جاءَ أَوْلًا فليقرأ. فقرأ، وهذا من أحسن ما نعلم وقع لشيخ هذه الطائفة، بل لا أعلم مثله وقع في الدنيا^(١).

توفي رحمته -بعد حياة حافلة بالعلم الواسع الغزير والجهاد في نشره- بالقاهرة في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م) ودُفِنَ بالقرافة بين مصر والقاهرة بمقبرة القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وقبره مشهور معروف^(٢).



(١) ابن الجوزي: غاية النهاية، ٢٢١ / ٢.

(٢) المصدر السابق، ٢٢ / ٢.

الفصل الخامس

معركة العتاب.. والهزيمة المريرة



لقي المنصور ربه في سنة (١١٩٩هـ = ٥٩٥م) عن عمر لم يتعدّي الأربعين سنة، تمّ له فيه حكم دولة الموحدين خمس عشرة سنة؛ من سنة (١١٨٥هـ = ٥٨٠م) وحتى وفاته في سنة (١١٩٩هـ = ٥٩٥م)، ثم تولّى من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو محمد عبد الله، وعمره آنذاك سبعة عشرة سنة وأشهر^(١)، ورغم أن صغر السنّ ليس به ما يشوبه في ولادة الحكم خاصة وقد رأينا من ذلك الكثير، إلا أنَّ الناصر لدين الله لم يكن على شاكلة أبيه في أمور القيادة.

وكان المنصور الموحدي قد استخلف ابنه الناصر لدين الله قبل وفاته على أمل أن يُمدّ الله في عمره؛ فيستطيع الناصر ل الدين الله أن يكتسب من الخبرات ما يؤهّله لأن يُصبح بعد ذلك قائداً فادحاً على شاكلة أبيه، لكن الموت المفاجئ للمنصور الموحدي عن عمر لم يتجاوز الأربعين عاماً وضع الناصر لدين الله على رئاسة البلاد وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره^(٢).

الناصر ل الدين الله وعقبات في الطريق:

كان الناصر ل الدين الله شاباً طموحاً قوياً مجاهداً^(٣)، لكنه لم يكن في كفاءة أبيه،

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: *العجب*، ص ٣٨٦.

(٢) ابن عذاري: *البيان المغرب*، قسم الموحدين، ص ٢٣٠.

(٣) انظر: عبد الواحد المراكشي: *العجب*، ص ٣٨٦.

وفضلاً عن هذا فقد كانت البلاد محاطة بالأعداء من كل جانب، والنصارى بعد لم ينسوا هزيمتهم في موقعة الأرك، التي كانت قبل سنوات قلائل، ويريدون أن يعيدوا الكرة من جديد على بلاد المسلمين.

لكن المشكلة التي ما فتئت تورق المُوحِّدين، وتمثل شوكة في ظهر المسلمين، هم بنو غانية، والحقيقة أن بنى غانية قاموا بأسوأ دور يمكن أن يقوموا به، ولقد كان المنصور قد عزم على أن يواصل الجهاد حتى يقضي على التهديد النصراوي الإسباني نهائياً؛ لو لا أن استغل هؤلاء انشغاله بالجهاد في الأندلس فنشطوا حركتهم في إفريقيا مرة أخرى؛ حتى كان تمردhem هذا من أسباب قبوله بمهادنة النصارى، فلما مات المنصور زاد نشاطهم وتكشف، فبدأت الخلخلة والاضطرابات تتزايد داخل الدولة الإسلامية الكبيرة، وفي سبيل استعادة الوضع إلى ما كان عليه وجه الناصر للدين الله جل طاقته للقضاء على ثورات بنى غانية داخل دولة المُوحِّدين، فخاض معهم معارك وحروب كثيرة، حتى استطاع في نهاية الأمر إخادها تماماً، وكان على محمد الناصر أن يبدأ عهده بالعمل على استئصال شوكتهم، فوجّه الحملات، وتوجه هو بنفسه إلى إفريقيا لحرب بنى غانية فيها، وعاد سنة (٤٦٠هـ) بعدما تمكّن من الاستيلاء على المدن التي استولوا عليها من قبل في إفريقيا^(١).

الفونسو الثامن واستغلال الوضع الراهن:

في هذه الأثناء التي كان يسعى فيها الناصر للقضاء على ثورات بنى غانية، كان قد تجدد الأمل عند ألفونسو الثامن، فعمل على تجهيز العدة لرداً الاعتبار، وقبل انتهاء المدة ومخالفة لمعاهدة التي كان قد عقدها مع المنصور المُوحدي قبل موته، هجم ألفونسو الثامن على بلاد المسلمين، فنهب القرى وأحرق الزروع، وقتل

(١) عبد الواحد المراكشي المعجب، ص ٣٩٨، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٢٤٩/٦.

العزل من المسلمين، وكانت هذه بداية حرب جديدة ضد المسلمين^(١).

إضافة إلى ضعف كفاءة القيادة في دولة الموحدين المتمثلة في الناصر لدين الله، والتي لم تكن بكم القيادة السابقة، فقد كان ثمة عيب خطير آخر في القيادة، كان متأصلاً في أجداده من قبله، وهو اعتداد الناصر لدين الله برأيه ومخالفته أمر الشورى^(٢)، ذلك العيب الذي تقاداه أبوه من قبله، فأفلاج وساد وتمكّن، ونصره الله يشكّل، وفوق هذا وذاك فكان المسلمون قد أُهْمِكُوا في ردّ الثورات المتالية لبني غانية داخل دولة الموحدين.

وزاد من ذلك أمر آخر كان في غاية الخطورة، وهو أن الناصر لدين الله كان قد استعان ببطانة سوء، ووزير ذميم الخلق وسيع التدبير والسياسة يُدعى أبا سعيد بن جامع، والذي شكَّل كثيراً من المؤرخين في نياته، وشكَّل كثيراً من الأندلسين والمغاربة المعاصرين له في اقتراحاته^(٣).

النهايى والنتيجة العامة:

على الجانب الآخر من أحداث دولة الموحدين كانت هناك تعبئة روحية عالية في جيش النصارى، يقودها البابا في روما بنفسه، وقد أعلنوها حرباً صليبية، وراحوا يُضفرون عليها ألواناً من القدس^(٤).

وقد زاد الأمر تعقيداً إرسال البابا رسالة إلى مملكة نافار - وكانت قد وقعت

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٩٨، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٣٣، والسلاوي: الاستقصاء، ٢٢٠ / ٢.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٢٤٩ / ٦، والسلاوي: الاستقصاء، ٢٢٠ / ٢.

(٣) انظر: السلاوي: الاستقصاء، ٢٢١ / ٢.

(٤) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٩٩، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٣، والحميري: الروض المطار، ص ٤١٦، ويوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١٠٩ / ٢، وما بعدها.

معاهدة مع المنصور المودي قبل وفاته - يحصّها فيها على نبذ المعاهدة التي مع الموحدين، وعلى استعادة العلاقة مع القشتاليين، وكان القشتاليون - كما ذكرنا - قد اختلفوا مع مملكة ليون ونافار بعد هزيمة الأرك، لكن البابا الآن يريد منهم التوحد في مواجهة الصفة المسلم، فخاطب ملك نافار بنقض عهده مع المسلمين ومحالفة ملك قشتالة، فما كان منه إلا أن أبدى السمع والطاعة^(١).

تكون دول أوربا بذلك قد توحدت، ويبلغ عدد جيوشها مائتي ألف نصري، يتقدّمُهم الملوك والرهبان نحو موقعة فاصلة بينهم وبين المسلمين.

جيش الموحدين وطريقه نحو العقاب:

في مقابل جيوش النصارى تلك كان الناصر لدين الله قد أعلن الجهاد، وجمع المجاهدين من بلاد المغرب العربي والأندلس وقد بلغ الجيش عدداً عظيماً أوصلته بعض الروايات إلى نصف مليون، وإن كنا نرى في هذا العدد مبالغة كبيرة بالقياس للظروف التاريخية لهذه الفترة^(٢).

انطلق الناصر لدين الله بجيشه من بلاد المغرب وعبر مضيق جبل طارق، ثم توجّه إلى ذهب إلى إشبيلية، ثم إلى سلبرطة، ثم عاد إلى إشبيلية، ثم ذهب إلى العقاب، وفي طريقه إلى العقاب بقي فترة في ظاهر جيان، وعُرفت منطقة العقاب بهذا الاسم لوجود قصر قديم كان يحمل هذا الاسم في تلك المنطقة - وهي تلك المنطقة التي دارت فيها الموقعة، وقد كانت - وسبحان الله - اسمًا على مسمى، فكانت بحق عقاباً للمسلمين على مخالفات كثيرة، ظهر بعضها سابقاً وسيظهر الباقى تباعاً^(٣).

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٤.

(٢) المقربي: نفح الطيب، ١/٤٤٦، والسلامي: الاستقصاء، ٢/٢٢٠، ويوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والمغاربة، ٢/١٠٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٥ - ٢٦٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/٢٤٩.

دخل الناصر لدين الله أرض الأندلس بهذا العدد الكثيف من المسلمين، وفي أول عمل حربي له حاصر قلعة سلْبَطْرَة، وكانت قلعة كبيرة وحصينة جدًا، وبها عدد قليل من النصارى، وكانت تقع في الجبل جنوب طُليطلَة، لكنَّ حصانة القلعة أعجزت المسلمين عن فتحها، حتى كاد الناصر أن يتتجاوزها؛ إلا أنَّ الوزير ابن جامع أصر على ضرورة فتح القلعة فبقيت الجيوش تحاصر القلعة^(١).

نتائج الاستبداد وملامح الهزيمة:

كان من جرَأء هذا العمل الذي قام به الناصر لدين الله أن حدث ما يلي:

أولاً: إضاعة الوقت في حصار قلعة سلْبَطْرَة، وقد كان من الممكن أن يهاجم النصارى بهذا الجيش الكثيف قبل أن يتجمعوا في كامل عددهم.

ثانياً: أكمل النصارى استعداداتهم خلال هذه الفترة الطويلة، واستطاعوا أن يستجلبوا أعداداً أخرى كثيرة من أوروبا.

ثالثاً: أصاب الضرر الآلاف من المسلمين من صقيع جبال الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث كان الناصر لدين الله قد دخل بلاد الأندلس في شهر مايو، وكان مناسباً جداً للقتال، إلا أنه ظلَّ يحاصر سلْبَطْرَة حتى قَدِم الشتاء القارس، وبدأ المسلمون يهلكون من شدة البرد، وشدة الإنهاك في هذا الحصار الطويل^(٢).

أبو الحجاج يوسف بن قادس والتحيز إلى فئة المؤمنين:

في بدايةِ لحربِ فاصلةٍ قُسمَ الجيش النصري إلى ثلاثة جيوش كبيرة، فالجيش الأول: هو الجيش الأوربي، والجيش الثاني: هو جيش إمارة

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٣٦، والسلاوي: الاستقصاء، ٢٢١ / ٢، وثمة رواية أخرى ولها دلائل كثيرة تقول بأنَّ فتح هذه القلعة كان في غزوة مستقلة، انظر: الحميري: الروض المطار، ص ٣٤٤، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٠، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٩٩.

(٢) يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١٠٨ / ٢.

أرجون، والجيش الثالث: هو جيش قشتالة والبرتغال وليون ونافار، وهو أضخم الجيوش جميعها^(١).

قامت هذه الجيوش الثلاث بحصار قلعة رياح، وهي قلعة إسلامية كان قد تملكها المسلمون بعد موقعة الأرك، وكان على رأسها القائد البارع الأندلسي الشهير أبو الحجاج يوسف بن قادس رض وهو من قادة الأندلس المشهورين، حوصلت قلعة رياح حصاراً طويلاً من قبل الجيوش النصرانية، وقد طال أمد الحصار حتى أدرك أبو الحجاج يوسف بن قادس أنه لن يفلت منه، كما بدأت بعض الحوائط في هذه القلعة تتهاوى أمام جيش مملكة أرجون.

أراد أبو الحجاج يوسف بن قادس أن يتحقق الأمان والأمان لمن في الحصن من المسلمين، وأراد أن يتحيز إلى فئة المؤمنين وينضم إلى جيش المسلمين، فعرض على النصارى معااهدة تقضي بأن يترك لهم القلعة بكامل المؤن وكامل السلاح، على أن يخرج هو ومن معه من المسلمين سالمين؛ ليتجهوا جنوباً فيلتقوا بجيش المُوحدين هناك دون مؤن أو سلاح، فوافق ألفونسو الثامن على هذا العرض، وبدأ بالفعل انسحاب أبي الحجاج يوسف بن قادس من الحصن ومن معه من المسلمين، وقد اتجهوا إلى جيش الناصر لدين الله.

ولأن الوليمة ليست قصراً على ألفونسو الثامن، فقد اعترض على هذا الانسحاب جيش النصارى الأوروبي المتحد مع جيش قشتالة.. فقد كانوا يرون أنهم ما أتوا من أبعد بلاد أوربا ومن إنجلترا وفرنسا والقسطنطينية إلا لقتل المسلمين؛ فلا يجب أبداً أن يتركوا ليخرجوا سالمين.

وقد فعل ألفونسو الثامن ذلك حتى إذا حاصر مدينة أخرى من مدن المسلمين

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والمُوحدين، ٢/١١٢.

يفتحون له كما فعل سابقوهم؛ لأنه لو قاتلهم بعد العهد الذي أبرمه معهم فلن يفتح له المسلمون بعد ذلك مدنهم، فاختلَّ الأُوربيون مع الفونسو الثامن، وعليه فقد انسحبوا من الموقعة^(١).

وبذلك يكون قد انسحب من موقعة العقاب وقبل خوضها مباشرةً خمسون ألفاً من النصارى، وبالطبع فقد كان هذا نصراً معنوياً ومادياً كبيراً لل المسلمين، وهزيمة نفسية وهزة كبيرة في جيش النصارى، وقد أصبح جيش المسلمين بعد هذا الانسحاب أضعاف جيش النصارى^(٢).

بطانة السوء وقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس:

عندما عاد أبو الحجاج يوسف بن قادس إلى الناصر لدين الله، وعندما علم منه أنه قد ترك قلعة رباح وسلمها بالمؤون والسلاح إلى النصارى، أشار عليه وزير السوء أبو سعيد بن جامع بقتله؛ بتهمة التفاسع عن حماية القلعة، ولم يتردد الناصر لدين الله، في تنفيذ هذا القتل بحق القائد المجاهد أبي الحجاج يوسف بن قادس^(٣).

وإن هذا - وبلا شك - ليعد خطأً كبيراً من الناصر لدين الله، وعملاً غير مبرر، ويُضاف إلى جملة أخطائه السابقة؛ وذلك للاتي:

أولاً: أن أبي الحجاج يوسف بن قادس لم يخترع بانسحابه هذا؛ بل كان متحرّفاً لقتال، ومتخيّراً إلى الجيش المتأهّب للحرب، كما أنه لو مكث هلك، ولو لم يهلك وكانت قد حُيّدت قواته عن الاشتراك في الموقعة؛ بسبب الحصار المفروض عليها.

ثانياً: وعلى فرض أن أبي الحجاج يوسف بن قادس قد أخطأ، فلم يكن - على

(١) عبد الواحد المراكشي: *العجب*، ص ٤٠١، وابن أبي زرع: *روض القرطاس*، ص ٢٣٨، والسلاوي: *الاستقصاء*، ٢٢٢ / ٢، ويوفِّ أشياخ: *تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين*، ١١٤ / ٢.

(٢) شوقي أبو خليل: *العقاب*، ص ٣٤، ويوفِّ أشياخ: *تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين*، ١١٤ / ٢.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: *روض القرطاس*، ص ٢٣٨، وابن خلدون: *تاريخ ابن خلدون*، ٦ / ٢٤٩.

الإطلاق - عقاب هذا الخطأ القتل؛ خاصة وأنه لم يتعمّده، بل كان اجتهاداً منه. وإن مثل ذلك قد حدث في حروب الردّة حينما أخطأ عكرمة بن أبي جهل رض في إحدى المعارك، وكان خليفة المسلمين حينئذٍ أبو بكر الصديق رض، فما كان من أبي بكر في معالجة خطأ عكرمة إلا أن عَنَّفَه باللسان وأوضح له خطأه، ثُمَّ أعاده مع جيشه من جديد إلى القتال؛ لمساعدة جيش آخر من جيوش المسلمين، بل أرسل إلى قائد هذا الجيش الآخر -يرفع من رُوح عكرمة وجيشه- بأن يستعين برأي عكرمة بن أبي جهل فإنَّ له رأياً^(١).

ومن هنا وبهذه الطريقة وبجانب فَقْدِ قَوَّةٍ كبيرة جدًا (بفقد هذا القائد البارع)، فقد فَقَدَ الجيش الإسلامي -أيضاً- قَوَّةَ الأندلسين، الذين شعروا أن هناك فارقاً بينهم وبين المغاربة؛ مما كان له أثر سلبي كبير على واقع المعركة، على نحو ما سيأتي بيانه.

وفي ذلك يقول المقرري في نفح الطيب: وهذه الواقعة - العقاب - هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميّعاً، وما ذاك إلَّا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخفَّ بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النّيَّات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، والله غالب على أمره، ولم تقم بعدها -أي: بعد موقعة العقاب- للMuslimين قائمة تحمد^(٢).

خطبة الناصر لدين الله ومتابعة الأخطاء:

تكملة للأخطاء السابقة فقد وضع الناصر لدين الله خطبة شاذة في ترتيب جيشه وتقسيمه، حيث لم يَسِرْ فيه على نهج السابقين، ولم يقرأ التاريخ كما قرأه المنصور

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ٢/٢٧٥.

(٢) المقرري: نفح الطيب، ٤/٣٨٣.



الموحدي ويوسف بن تاشفين.. فقد قسّم جيشه إلى فرقة أمامية وفرقه خلفية، لكنه جعل الفرقة الأمامية من المتطوعين، وعدهم ستون ألفاً ومائة ألف متطوع، وضعهم في مقدمة الجيش ومن خلفهم الجيش النظامي الموحدي^(١).

وإنْ كان هؤلاء المتطوعة الذين في المقدمة متحمسين للقتال بصورة كبيرة، فليست لهم الخبرة والدرأة بالقتال، كما هو الحال بالنسبة لتلك الفرقة المنتخبة من أجود مقاتلي النصارى، والتي هي في مقدمة جيشهم.

فكان من المفترض أن يضع الناصر لدين الله في مقدمة الجيش القادرين على صدّ الهجمة الأولى للنصارى؛ وذلك حتى يتملّك الخطوات الأولى في الموقعة، ويرفع بذلك من معنويات المسلمين ويحطّ من معنويات النصارى، لكن العكس هو الذي حدث؛ حيث وضع المتطوعة في المقدمة.

ولقد زاد من ذلك -أيضاً- فجعل الأندلسين في ميمنة الجيش، وما زال الأمل والحرقة تكمن في قلوبهم من جرّاء قتل قائدتهم الأندلسي المجاهد المغوار أبي الحجاج يوسف بن قادس، فكان خطأ كبيراً -أيضاً- أن جعلهم يتلقّون الصدمة الأولى من النصارى^(٢).

فنستطيع الآن حصر أخطاء الناصر لدين الله وهو في طريقه نحو العقاب على النحو التالي:

أولاً: إطالة الحصار لقلعة سلْبُطْرَة حتى تمكّن النصارى من الاستعداد والتجهيز.

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٢٣٩، يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١١٨/٢

(٢) يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١١٨/٢

ثانياً: الاستعana ببطانة السوء، الممثلة في وزير السوء أبي سعيد بن جامع.

ثالثاً: قتل القائد الأندلسي المشهور أبي الحجاج يوسف بن قادس.

رابعاً: تنظيم الجيش وتقسيمه الخاطئ في أرض الموقعة.

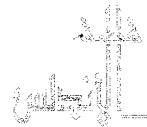
خامساً: أمر في غاية الخطورة وهو الاعتقاد في قوّة العدد والعدّة، فقد دخل الناصر لدين الله الموقعة وهو يعتقد أنه لا محالة منتصر^(١)؛ فجيشه أضعاف الجيش المقابل، ومن هنا تبدّي في الأفق سحائب حنين جديدة، يخبر عنها عَبْدُكَ بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا عَجَبْتُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبه: ٢٥].

العقاب.. والعقاب المرُّ:

تماماً وكما تكرّرت حنين في أرض الأندلس قبل ذلك في بلاط الشهداء، وفي موقعة الخندق مع عبد الرحمن الناصر وهو في أعظم قوّته، تكرّر حنين -أيضاً- مع الناصر لدين الله في موقعة العقاب وهو في أعظم قوّة للموحدين، وفي أكبر جيش للموحدين على الإطلاق، بل وفي أكبر جيوش المسلمين في بلاد الأندلس منذ أن فُتحت في سنة (٩٢١هـ=٧١١)، ولتوالي الأخطاء السابقة كان طبيعياً جداً أن تحدث المزيمة، فقد هجم المتطوعون من المسلمين على مقدمة النصارى، لكنهم ارتموا ارتماماً شديداً بقلب القشتاليين المدرّب على القتال، فصلُّوهم بكل قوّة ومزّقوا مقدمة المسلمين، وقتلوا منهم الآلاف في الضربة الأولى لهم.

واستطاعت مقدمة النصارى أن تخترق فرقة المتطوعة بكمالها، والبالغ عددهم - كما ذكرنا - ستين ألفاً ومائة ألف مقاتل، وقد وصلوا إلى قلب الجيش الموحدى النظامي، الذي استطاع أن يصدّ تلك الهجنة، لكن كانت قد هبطت وبشدة

(١) انظر: المقرى: نفح الطيب، ٣٨٣ / ٤، والسلاوي: الاستقصاء، ٢ / ٢٢٠.



معنيات الجيش الإسلامي؛ نتيجة قتل الآلاف منهم، وارتفعت كثيراً معنيات الجيش النصاري للنتيجة نفسها.

وحين رأى ألفونسو الثامن ذلك أطلق قوات المدد المدرّبة لإنقاذ مقدمة النصاري، وبالفعل كان لها أثر كبير، وعادت من جديد الكرّة للنصاري.

وفي هذه الأثناء حدث حادث خطير في جيش المسلمين، فحين رأى الأندلسيون ما حدث في متطوعة المسلمين، واستشهاد الآلاف منهم، إضافة إلى كونهم يقاتلون مرغمين مع الموحدين -كما ذكرنا قبل ذلك- وأيضاً كونهم يعتقدون بالعدد وليس في الثقة بالله ﷺ، كل هذه الأمور اعتملت في قلوبهم، ففرُوا من أرض القتال.

وحين فَرَّت ميمنة المسلمين من أرض الموقعة التفَّ النصاري حول جيش المسلمين، وبدأت الهلكة فيهم، فُقْتُلَ الآلاف من المسلمين بسيوف النصاري في ذلك اليوم، والذي سُمِّي بيوم العقاب أو معركة العقاب^(١).

هُزم المسلمون هزيمة قاسية، وفَرَّ الناصر لدين الله من أرض الموقعة، ومعه فلول الجيش المنكسر، والمصاب في كل أجزاء جسده الكبير.

وقد قال الناصر لدين الله وهو يفُرُّ: صدق الرحمن وكذب الشيطان^(٢). حيث دخل الموقعة وهو يعلم أنه منصور بعده، فعلم أن هذا من إلقاء الشيطان وكذبه، وصدق الرحمن: «وَيَوْمَ حُكِّمَ إِذَا أَعْجَبْتُمْ بِكُثْرَتِكُمْ فَنَكُمْ تُغْنَىْ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ إِيمَانَ رَحْبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ» [التوبة: ٢٥]، فولى الناصر لدين الله مدبراً.

(١) انظر: شوقي أبو خليل: العقاب، ص ٤٥، ويوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١١٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٣٩، ٢٢٤ / ٢، والسلاوي: الاستقصا، ٢ / ٢٢٤.

الخطاطي

C

卷之三

卷之三

三

6

لار

三

فدرالية طبقة

三

十一

三

مترجم

1

3

三

مکالمہ

10

三

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

卷之三

وَمَا زَادَ مِنْ مَرَارَةِ الْمُزِيْمَةِ أَنْ يَرْتَكِبْ خَطَأً آخَرَ لَا يَقْلُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ عَنْ هَزِيمَتِهِ الْمُنْكَرَةِ السَّابِقَةِ وَفِرَارِهِ مِنْ أَرْضِ الْمُعْرِكَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَمْكُثْ بَعْدَ مَوْقِعَةِ الْعِقَابِ فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي تَلَى مِبَاشِرَةَ مَدِينَةِ الْعِقَابِ، وَهِيَ مَدِينَةُ بَيَّاسَةِ، بَلْ فَرَّ وَتَرَكَ بَيَّاسَةَ، ثُمَّ تَرَكَ أَبْيَذَةَ، تَرَكَ كُلَّتِيهِمَا بِلَا حَامِيَةٍ وَانْطَلَقَ إِلَى مَدِينَةِ إِشْبِيلِيَّةِ^(١)، وَمَا زَالَتْ قُوَّةُ النَّصَارَى فِي عَظَمَاهَا، وَمَا زَالَتْ فِي بَأْسِهَا الشَّدِيدُ.

الفَوَاجِعُ بَعْدَ الْعِقَابِ :

مَأْسَةُ بَيَّاسَةِ :

انْطَلَقَتْ قُوَّةُ النَّصَارَى بَعْدَ عِقَابِ الْمُسْلِمِينَ وَهَزِيمَتِهِمْ تِلْكَ فِي مَوْقِعَةِ الْعِقَابِ فَاقْتَحَمَتْ بَيَّاسَةَ، وَكَانَ أَهْلَهَا قَدْ هَجَرُوهَا خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا إِلَّا الْضَّعْفَاءُ وَالْمَرْضَى، وَكَانُوا قَدْ اجْتَمَعُوا بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ فِي الْمَدِينَةِ لِلَاخْتِمَاءِ بِهِ، فَقَامَ النَّصَارَى بِقَتْلِهِمْ جَيْعَانًا بِالسِّيفِ.. قَالَ الْمَرَاكِشِيُّ فِي الْمَعْجَبِ: «فَأَمَا بَيَّاسَةُ فَوْجَدَهَا - أَيُّ الْفَوْنُوسُ - أَوْ أَكْثَرُهَا خَالِيَّةٌ فَحَرَقَ أَدْوَرَهَا وَخَرَبَ مَسْجِدَهَا الْأَعْظَمِ»^(٢).

مَأْسَةُ أَبْيَذَةِ :

قال صاحب الروض المعطار: أَبْيَذَةُ مَدِينَةِ الْأَنْدَلُسِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَيَّاسَةَ سَبْعَةِ أَمِيَالٍ، وَهِيَ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ وَعَلَى مَقْرَبَةِ النَّهَرِ الْكَبِيرِ، وَلَهَا مَزَارِعٌ وَغَلَاتٌ قَمْحٌ وَشَعِيرٌ كَثِيرٌ جَدًّا، وَفِي سَنَةِ تِسْعَ وَسَمْتَاهُ مَالَتْ عَلَيْهَا جَمْعُ النَّصَرَانِيَّةِ بَعْدَ كَائِنَةِ الْعِقَابِ، وَكَانَ أَهْلَهَا قَدْ أَنْفَوْا مِنْ إِخْلَائِهَا، كَمَا فَعَلَ جِيرَانُهَا أَهْلُ بَيَّاسَةِ، وَلَمْ تَرْفَعْ تِلْكَ الْجَمْعَ يَدًا عَنْ قَتَاهَا حَتَّى مَلَكُتُهَا بِالسِّيفِ، وَقُتُلَ فِيهَا كَثِيرٌ، وَأَسْرَوْا كَثِيرًا^(٣).

(١) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٢٤٠، والسلاوي: الاستقصاء، ٢/٢٢٤.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٤٠٢.

(٣) الحميري: الروض المعطار، ص ٦.

وقال المراكشي في المعجب: ونزل -أي ألفونسو- على أُبُدَّة، وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كبير من المنهزمة وأهل بِيَاسَة وأهل البلد نفسه، فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً، ثم دخلها عنْوَة، فقتل وسيى وغنم، وفصل هو وأصحابه من السيي من النساء والصبيان بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة، فكانت هذه أشدّ على المسلمين من الهزيمة!^(١)

وقد تدهور حال المسلمين كثيراً في كل بلاد المغرب والأندلس على السواء، حتى قطع المؤرخون بأنه بعد موقعة العقاب ما كنت تجد شاباً صالحًا للقتال لا في بلاد المغرب ولا في بلاد الأندلس، فكانت موقعة واحدة قد بَدَّدت وأضاعت دولة في حجم وعِظَم دولة الموحدين^(٢).

ثم إنَّ الناصر لدين الله قد انسحب أكثر مما كان عليه، فانسحب من إشبيلية إلى بلاد المغرب العربي، ثم اعتكف في قصره، واستخلف ابنه ولِيًّا للعهد من بعده، وهو بعد لم يتجاوز خمس عشرة من السنين.

ثم تُؤْيَّد الناصر لدين الله بعد هذا الاستخلاف بعام واحد في سنة (٦١٠هـ=١٢١٤م) عن عمر لم يتجاوز الرابعة والثلاثين، وتروي بعض المصادر أنه مات وهو عازم على الجهاد في الأندلس «عزمًا لم يُعرف عن ملك قبله»^(٣). وتولَّ حكم البلاد من بعده ولِيًّا عهده وابنه المستنصر بالله، وعمره آنذاك ست عشرة سنة فقط^(٤).

ومن جديد وكما حدث في عهد ملوك الطوائف تضييع الأمانة، ويُوَسَّدُ الأمر

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٤٠٢.

(٢) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/٤٤٦.

(٣) مجاهد: الحلل الموثقة، ص ١٦١ وابن الخطيب: رقم الحلل، ص ٦٠، والسلامي الاستقصاء، ٢٢٥/٢.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٤٠٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢، ٣٤٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/٢٥٠، والسلامي: الاستقصاء، ٢٢٦/٢.

لغير أهله، وتتوالى الهزائم على المسلمين بعد سنوات طويلة من العلو والسيادة والتمكين لدولة الموحدين.

أشهر العلماء في عهد الأنصار:

ابن جبير (٤٥٠-١٢١٧هـ=١١٤٩-١٤٠٣م):

هو العلامة أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أديب رحالة، ولد سنة (٤٥٠هـ) ببلنسية، تعلم القراءات، وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقديم في صناعة الشعر والكتابة^(١)، من أشهر مؤلفاته (رحلة ابن جبير)، و(نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان)، وهو ديوان شعره، و(نتيجة وجد الجوانح في تأيين القرن الصالح) وهو مجموع ما رثى به زوجته (أم المجد)^(٢).

ومن شعره: [المسرح]

فَمَنْ تَائَى أَصَابَ أَوْ كَادَا تَأْمُنُ مَنْ بَغَى كَيْدِ مَنْ كَادَا عَبْدُ مُسِيَّ لِفَسِيَّهِ كَادَا يُلْقَ خُطُوبًا بِهِ وَأَنْكَادَا ^(٣)	تَأَنَّ فِي الْأَمْرِ لَا تَكُنْ عَجِلاً وَكُنْ بِحَبْلِ الِإِلَهِ مُعْتَصِمًا فَكَمْ رَجَاهُ فَنَالَ بُغْيَتَهُ وَمَنْ تَطْلُلْ صُحبَةُ الزَّمَانِ لَهُ ^(٤)
--	--

ومن شعره -أيضاً- قوله وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصناً نصيراً من أحد بساتينها فذوى^(٤) في يده: [مزوء الرجز]

(١) المقري: نفح الطيب، ٢/٣٨٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/٢٣٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/٤٦، ٤٧.

(٤) ذوى: ذبل ويس. ابن منظور: لسان العرب، مادة ذوى ١٤، ٢٩٠، والمجمع الوسيط ١/٣١٨.

لَا تَغْرِبْ عَنْ وَطَنِ
وَادْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوْيِ
أَمَّا تَرَى الْغُصْنَ إِذَا
مَا فَارَقَ الْأَصْلَ

ومن إبداعه في التتر ما أورده صاحب *فتح الطيب* أن ابن جبير قال في رحلته في حق دمشق: جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروض المدن التي اجتليناها، قد تحملت بأزاهير الرياحين، وتجلى في حل سندسية من البساتين، وحملت من موضع الحسن بمكان مكين، وتزيينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه منها إلى ربوة ذات فرار ومعين، وظل ظليل، وماء سلسيل، تناسب مذانبه انسياقات الأراقم بكل سهل، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل، تبرأ لنظرها بمجحتي صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظباء، فتكاد تنادي بها الصمم الصلاب، «ازْكُضْ بِرْجِلِكَ هَذَا مُغْتَسَلُ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» [ص: ٤٢]، قد أحدق بها البساتين إحداق الهالة بالقمر، واكتفتها اكتناف الكمامه للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موقع لحظة بجهاتها الأربع نظرته اليانعة قيد النظر، والله صدق القائلين فيها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء؛ فهي بحيث سامتها وتحاذها! ^(٢).

ومن ثناء العلماء عليه قول لسان الدين بن الخطيب في حقه: إنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث، والمشاركة في الآداب. وقول المقربي في *فتح الطيب*: وكان أبو الحسين بن جبير المترجم قد نال بالأدب دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها ^(٣).

(١) المقربي: *فتح الطيب*، ٢/٣٨٢.

(٢) المصدر السابق، ٢/٣٨٦، ٣٨٧.

(٣) المصدر السابق، ٢/٤٨٧.

تُوقيٌّ ابن جبير بالإسكندرية في التاسع والعشرين من شعبان سنة (٦١٤هـ) ^(١).

ابن الشرطبي (٥٥٣-١١٦١هـ = ١٢١٤ م).

هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري مالقي، قرطبي الأصل، يكنى أباً محمد، ويُعرف بالقرطبي، ولد بـالقاهرة لشمانٍ بقين من ذي القعدة سنة (٥٦٥هـ)، الموافق لشهر نوفمبر ١١٦١ م ^(٢).

كان - كما يوصف - كاملاً في المعرفة، صدرَ في المقربين والمجوّدين، رئيس المحدثين وإمامهم، واسع المعرفة، مُكثراً، ثقةً، عدلاً، أميناً، مكينَ الرواية، رائق الخطّ، نبيل التقيد والضبط، ناقداً، ذاكراً أسماء رجال الحديث وطبقاتهم وتواريخهم، وما حُلوا به من جرح وتعديل، لا يدانيه أحد في ذلك، عزيز النظر، متيقظاً، متوقّد الذهن، كريم الخلال، حميد العشرة، دمتاً، متواضعاً، حسن الخلق، محبّاً إلى الناس، نزيه النفس، جميل الهيئة، وقوراً، مُعظماً عند الخاصة والعامة، ديننا، زاهداً، ورعاً، فاضلاً، نحوياً ماهراً، ريان من الأدب ^(٣).

قال تلميذه الأثير جعفر بن زعورو: بِتُّ مَعَهُ لَيْلَةً فِي دُوَيْرَتِهِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ بِجَبْلِ فَارَهِ ^(٤) لِإِلْقَاءِ وَالْمَطَالِعَةِ، فَقَامَ سَاعَةً كَنْتُ فِيهَا يَقْظَانِا، وَهُوَ ضَاحِكٌ مَسْرُورٌ، يَشِدُّ يَدَهُ كَأَنَّهُ ظَفَرَ بِشَيْءٍ نَفِيسٍ، فَسَأَلْتُهُ، قَالَ: رَأَيْتَ كَأَنَّ النَّاسَ قَدْ حُشِرُوا فِي الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ، وَأُتِيَّ بِالْمُحَدِّثِينَ، وَكَنْتُ أَرَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ النَّمِيرِيَّ يُؤْتَى بِهِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدِي اللَّهِ تَعَالَى، فَيُعْطَى بِرَاءَتِهِ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِي، فَأُوْقَفْتُ بَيْنَ يَدِي رَبِّي، فَأُعْطَانِي بِرَاءَتِي مِنَ النَّارِ، فَاسْتِيقْظَتُ، وَأَنَا أَشَدُّ عَلَيْهَا يَدِي اغْتَبَاطًا بِهَا وَفَرَحاً، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ^(٥).

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/٢٣٩.

(٢) المصدر السابق، ٣/٤٠٨.

(٣) المصدر السابق، ٣/٤٠٥.

(٤) جيل فاره: جيل يشرف على مدينة مالقة من ناحية الجنوب الشرقي. انظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ١/٥٠٦، حاشية رقم (٤).

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/٤٠٦، ٤٠٧.

وقد ألف في العروض مجموعات نيلية، وفي قراءة نافع، وللّهـ أسانيد الموطأ،
وله كتاب (المبدي لخطأ الرّندي)، وألف في القراءات أيضاً.

وقد تُوفي رحمته في السابع من ربيع الآخر سنة (٦١١هـ)^(١).

* * *

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤٠٨ / ٣.

في موقف مدّ في عمر الإسلام في بلاد الأندلس بضع سنوات ظهرت بعض الأمراض في الجيوش القشتالية، وهذا الذي اضطرهم إلى العودة إلى داخل حدودهم^(١).

وفي سنة (٦١٣هـ=١٢١٧م) وبعد موقعة العقاب بأربع سنوات، ونظرًا للرديء الأوّل في بلاد المغرب، وتولى المستنصر بالله أمور الحكم، وهو بعد طفل لم يبلغ الرشد، ظهرت حركة جديدة من قبيلة زناتة في بلاد المغرب واستقلّت عن حكم دولة الموحدين هناك، وأنشأت دولة سُنّيَّة هي دولة بنو مرين، والتي سيكون لها شأن كبير فيما بعد في بلاد الأندلس^(٢).

وفي سنة (٦٢٦هـ) سقطت جزيرة ميورقة، أكبر وأفضل جزر البليار، وبعد قليل تبعها سقوط بياسة، وهي صغرى جزر البليار، وبقيت الجزيرة الوسطى (جزيرة منورقة) دهرًا تحت حكم المسلمين لكن تحت طاعة النصارى وفي حكمهم^(٣).

(١) الحميري: الروض المطار، ص ٦، ويوسف أشياخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢ / ١٢٤.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦ / ٢٥١.

(٣) حتى سقطت سنة (٦٨٦هـ).

وفي العام التالي (٦٢٧هـ) استقلَّ بنو حفص بتونس، وانفصلوا بها عن دولة الموحدين^(١).

وقد دار صراع شديد على السلطة بعد وفاة المستنصر بالله؛ حيث لم يكن قد استخلف بعدُ، فتولَّ عمُّ أبيه عبد الواحد من بعده، إلَّا أنه خُلع وقتل، ثم تولَّ من بعده عبد الله العادل، وعلى هذا الحال ظَلَّ الصراع، وأصبح الرجل يتولَّ الحكم مدةً أربع أو خمس سنوات فقط ثم يُخلع أو يُقتل، ويأتي غيره وغیره، حتى سارت الدولة نحو هاوية سحيقة.

وفي سنة (٦٢٥هـ=١٢٢٨م) استقلَّ رجل يُسَمَّى ابن هود بشرق وجنوب الأندلس، وكان كما يصفه المؤرخون: مفرطاً في الجهل، ضعيف الرأي، لم يُنصر له على النصارى جيش^(٢).

وفي سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) حدث حادث خطير ومرهق، إنه حادث سقوط قُرْطُبة حاضرة الإسلام^(٣).

المأساة الكبرى وسقوط قُرْطُبة:

في موقف لا نملك حاله إلَّا التأسف والندم، في سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) وبعد حصار طال عدَّة شهور، وبعد استغاثة بابن هود الذي كان قد استقلَّ بدولته جنوب وشرق الأندلس، والذي لم يُعرِّج اهتماماً لهذه الاستغاثات؛ بسبب كونه منشغلًا بحرب ابن الأخرم، ذلك الأخير الذي كان قد استقلَّ -أيًضاً- بجزء آخر من بلاد الأندلس، في كل هذه الظروف سقطت قُرْطُبة، سقطت حاضرة الإسلام في بلاد الأندلس.

(١) السلاوي: الاستقصاء، ٢٤٠ / ٢.

(٢) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٧٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤ / ١٦٨، والمقرري: نفح الطيب، ٤٦٤ / ٤، ٢١٥ / ١.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤ / ١٦٩، والحميري: الروض المعطار، ص ٤٥٩، والمقرري: نفح الطيب، ٤٤٨ / ١.

وكان أمراً غاية في القسوة حين لم يجد أهل قُرطُبة بُدًّا من الإذعان والتسليم والخروج من قُرطُبة، وكان الرهبان مصرّين على قتلهم جميعهم، لكن فرناندو الثالث ملك قشتالة رفض ذلك؛ خشية أن يُدَمَّرَ أهل المدينة كنوزها وأثارها الفاخرة، وبالفعل خرج أهلها متوجهين جنوباً تاركين كل شيء، وتاركين حضارة ومنارة ومجدًا عظيماً كانوا قد خلّفوه^(١).

سقطت قُرطُبة التي أفاضت على العالم أجمع خيراً وبركة، وعلماً ونوراً، سقطت قُرطُبة صاحبة ثلاثة آلاف مسجد، وصاحبة ثلاثة عشر ألف دار، سقطت قُرطُبة عاصمة الخلافة لأكثر من خمسين عاماً، سقطت قُرطُبة صاحبة أكبر مسجد في العالم، سقطت جوهرة العالم قرطبة^(٢).

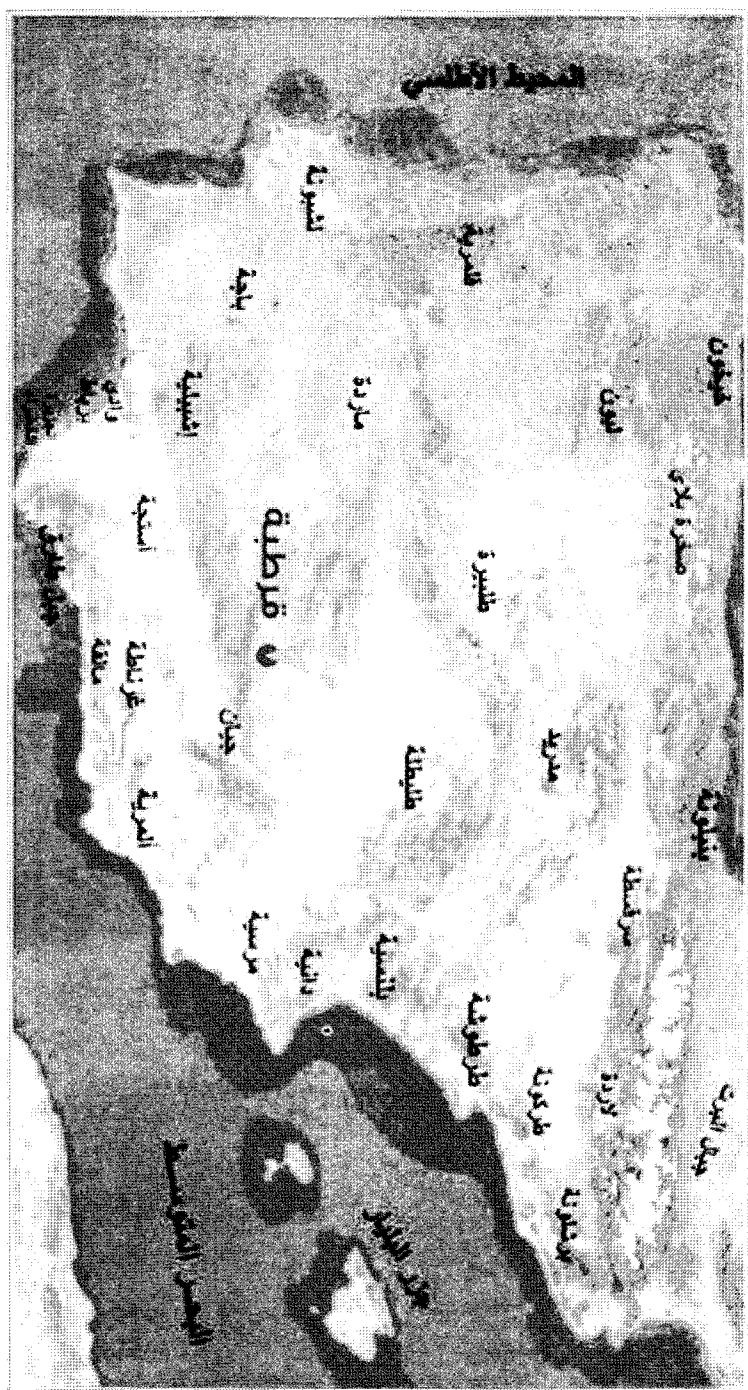
سقطت قُرطُبة في الثالث والعشرين من شهر شوال لسنة ثلاثة وثلاثين وستمائة من الهجرة.. سقطت وفي يوم سقوطها تحول مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة، وما زال كنيسة إلى اليوم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله!

تتابع المأسى:

بعد سقوط قُرطُبة وفي سنة (١٢٣٥ هـ=٦٣٧ م) استقلَّ بنو الأحمر بغرناطة بعد موت ابن هود في السنة نفسها، وسيكون لهم شأن كبير في بلاد الأندلس على نحو ما سنَّيْنِه، وفي سنة (١٢٣٦ هـ=٦٣٨ م) وبعد استقلال ابن الأحمر بغرناطة بسنة واحدة، وبعد حصار دام خمس سنوات متصلة سقطت بلنسية على يد ملك أراجون بمساعدة فرنسا، وكان حصاراً شديداً كاد الناس أن يهلكوا جوعاً، وكان خلاله عدّة مواقع؛ أشهرها موقعة أنيشة سنة (١٢٣٧ هـ=٦٣٩ م) التي هلك فيها الكثير من المسلمين من بينهم الكثير من العلماء.

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢٤ / ٦.

(٢) راجع فصل «قرطبة.. جوهرة العالم» من الباب الخامس.



مکتبہ ربانی

وكان بنو حفص في تونس قد حاولوا مساعدة بلنسية بالمؤن والسلاح، لكن الحصار كان شديداً، حتى اضطروا للترك البلد تماماً في سنة (٦٣٦ هـ = ١٢٣٩ م) وهُجّر خمسون ألفاً من المسلمين إلى تونس، وتحولت للتّو كُلُّ مساجد المسلمين إلى كنائس، وكانت هذه سياسة مُتبعة ومشهورة للنصارى في كلّ البلاد الإسلامية التي يُسيطرون عليها، إما القتل وإما التهجير^(١).

وفي سنة (٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م) سقطت دانية بالقرب من بلنسية^(٢)، وفي سنة (٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م) سقطت جيَان^(٣)، وهكذا لم يبق في بلاد الأندلس إلا ولايات فقط؛ ولاية عَرَنَاطَة في الجنوب الشرقي من البلاد، وولاية إشبيلية في الجنوب الغربي، تمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس^(٤).

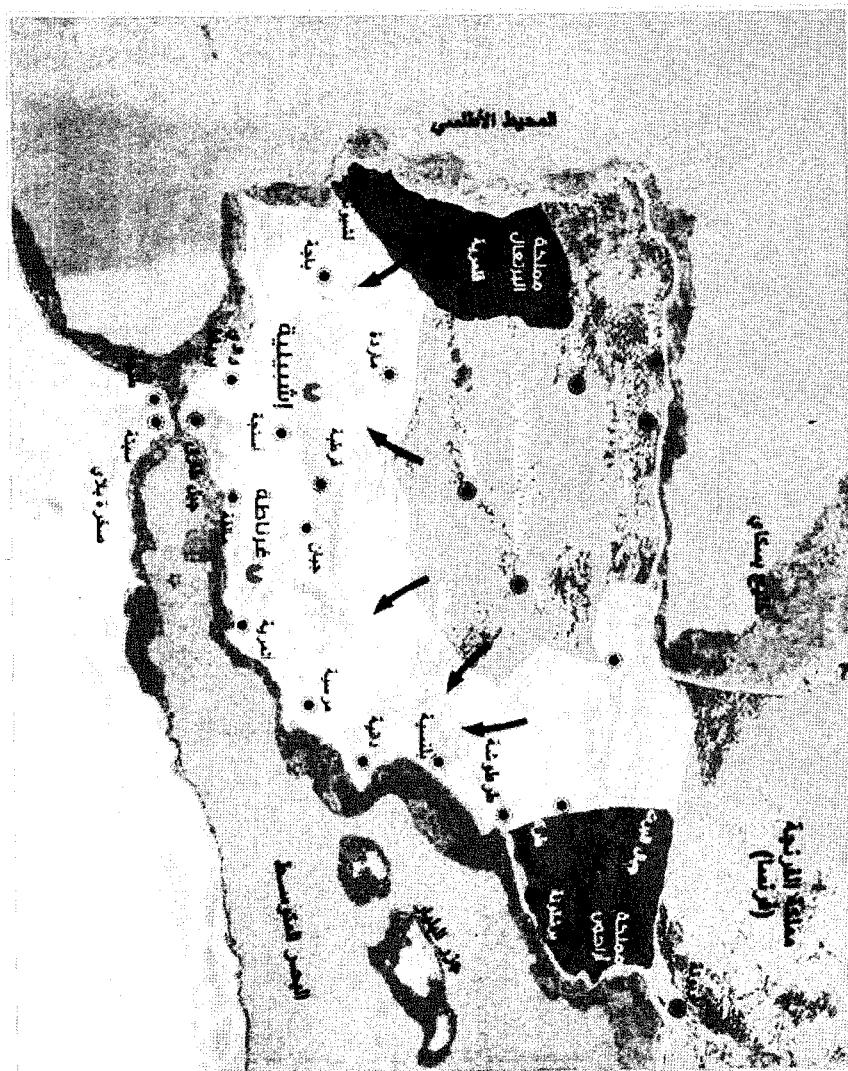
هذا مع الأخذ في الاعتبار أن كل ولايات إفريقيا قد استقلَّت عن دولة الموحدين، فسقطت بذلك الدولة العظيمة المهيأة المتسعة البلاد المترامية الأطراف.

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١٧٦ / ٤، والمقرى: نفح الطيب، ٤ / ٤٦٠.

(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، ص ٦١.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٦ / ٤٦٨.

(٤) انظر: المقرى: نفح الطيب، ١ / ٢٠٦.



خريطة رقم (١٦) غرب ناطة واسبيلية

قد يُفاجأ البعض ويتعجب لهول هذا السقوط المريع لهذا الكيان الكبير بهذه الصورة السريعة المفاجئة، فيسعى للبحث عن عللها وأسبابه، وحقيقة الأمر أن هذا السقوط لم يكن مفاجئاً؛ فدولة الموحدين كانت تحمل في طياتها بذور الضعف وعوامل الانهيار؛ وكانت كثيرة؛ نذكر منها ما يلي:

تعاملها بالظلم مع دولة المرابطين، وقتلها الآلاف من لا يستحقون القتل؛ وإن طريق الدم لا يمكن أبداً أن يُثمر عدلاً، يقول ابن تيمية: «إِنَّ اللَّهَ يُقْيِمُ الدُّولَةَ وَإِنَّ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقْيِمُ الظَّالِمَةَ وَإِنَّ كَانَتْ مُسْلِمَةً»^(١).

إن عاقبة الظلم وخيمة، وربما تتأخر عقوبة الظلم؛ لكنها -بلا شك- تقع على الظالم؛ فالله تعالى يُمْهِلُ وَلَا يُهْمِلُ، وقد أسرف الموحدون كثيراً في إراقة دماء من خالفهم من المسلمين، بل في سفك دماء من يشكون في ولائه لهم من كانوا معهم - كما رأينا في أمر التمييز الذي قام به ابن تومرت قبل وقعة البحيرة أو البستان، التي عجل الله لهم العقاب فيها وقتل منهم الكثير، فقد جعل ابن تومرت الأهل يقتلون أبناءهم، بعدما أقنعوا أنفسهم من أهل النار، وذلك بحيلة ماكرة شاركه فيها أحد الخبثاء مَنْ هو على شاكلته -وهذا أمر في غاية الخطورة- لقد حذر النبي ﷺ كثيراً

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ٢٨/١٤٦.

من العداء بين المسلم وأخيه المسلم، ومن التدابر والتحاسد والتناجر والتباغض، روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحَاسِدُوا وَلَا تَنَاجِشُوا، وَلَا تَبَاغِضُوا وَلَا تَدَابِرُوا، وَلَا يَئِعَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعٍ بَعْضٍ، وَكُوْنُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْرَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَجْعُلُهُ التَّقْوَىٰ هَاهُنَا - وَيُشَيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ - يَحْسُبُ امْرِئٌ مِّنَ الشَّرِّ أَنْ يَنْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»^(١).

ثانيًا: العقائد الفاسدة التي أدخلها ابن تومرت على منهج أهل السنة، وبالرغم من أن المؤمنين قاوموها وأبطلوها، إلا أن أشياخ الموجي يعتقدون في عصمة محمد بن تومرت وفي صدق أقواله، حتى ذلك العهد؛ وهو ما جعل هذا الإصلاح كأنه ترقيع في ثوب مهلهل عقائديًا.

وثمة أمر آخر لا يقل خطورة عن هذا الأمر، ألا وهو تكفير المراطين، وقد بنى ابن تومرت على هذه الفكرة جواز قتلهم وحرقهم، وسببي نسائهم، وهدم دولتهم، وتقويض بنائها من القواعد.

إن تكفير المسلمين قضية في متنهى الخطورة، لا ينبغي لعاقل بحال من الأحوال أن يقع فيها، ففي البخاري بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَاتَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»^(٢). وعند مسلم: «إِنَّمَا امْرِئٌ قَاتَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَاتَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ»^(٣).

وقال أبو حامد الغزالى: «والذى ينبغي أن يميل المسلم إليه الاحتراز من

(١) مسلم: كتاب الصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧١٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (١١٨٣٠).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٥٧٥٢).

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر (٦٠).

التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصليين إلى القبلة، المصرّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك مجحمة (قارورة) من دم مسلم»^(١).

وقال ابن تيمية: «مَنْ ثَبَّتْ إِيمَانَهُ بِيقِينٍ لَمْ يَزُلْ عَنْهُ بِالشَّكِّ، بَلْ لَا يَزُولُ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحَجَةِ، وَإِزَالَةِ الشَّبَهَةِ»^(٢).

ثالثاً: كان من عوامل سقوط دولة الموحدين -أيضاً- الثورات الداخلية الكثيرة التي قامت داخل دولة الموحدين، وكان أشهرها ثورة بنى غانية، والتي كانت في جزر البليار، وفي تونس.

رابعاً: الإعداد الجيد من قبل النصارى في مقابل الإعداد غير المدروس من قبل الناصر للدين ومن تبعه بعد ذلك.

خامساً: وهو أمر مهمٌ وجده خطير، وهو افتتاح الدنيا على دولة الموحدين، وكثرة الأموال في أيديهم، وهذا ما أدى إلى الترف والبذخ الشديد ثم التصارع على الحكم.

سادساً: بطانة السوء المتمثلة في أبي سعيد بن جامع وزير الناصر للدين ومن كان على شاكلته بعد ذلك.

ويعلق على ذلك الدكتور شوقي أبو خليل بقوله: «لقد كان الناصر ألعوبة في يد وزير ابن جامع، الذي لم يكن مسؤولاً عن هزيمة العقاب فقط، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر أيضاً، لقد وضع ابن جامع الأسباب القوية التي أدت إلى تصدع سلطان الموحدين من أساسه.

(١) أبو حامد الغزالى: الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٥٧.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ٤٦٦ / ١٢.

لقد كتب لأسرة ابن جامع التي تولّى كثير منها الوزارة، وعلى رأسها أبو سعيد بن جامع أن تؤدي أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين، بمشاركة الأعراب البدو، وأشياخ الموحدين.. لقد تصرف ابن جامع - الذي يمثل بطانة السوء - بدولة الموحدين، فكان له أثره الخطير، ليس في ميدان السياسية الداخلية والخارجية للدولة فحسب، بل على وجود دولة الموحدين نفسها^(١).

سابعاً: إهمال الشورى من قبل الناصر ل الدين الله وَمَنْ بعده من الأمراء، وإنها لخالفة صريحة للقرآن الكريم؛ فالله تعالى يقول: «وَشَاءُرُّهُمْ فِي الْأَمْرِ» [آل عمران: ١٥٩]، وقال الله تعالى في صفات المؤمنين: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمَمَّا رَزَقَنَا هُمْ يُفْقِدُونَ» [الشورى: ٣٨]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: لا يُبررون أمراً حتى يتشاوروا فيه؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجريها^(٢).

فهذه العوامل وغيرها اجتمعت لتسقط هذا الكيان الكبير، والذي لم يبق منه في بلاد الأندلس إلاً ولا يtan فقط؛ مما عرّنّاطة وإشبيلية، ومع ذلك ظلّ الإسلام في بلاد الأندلس لأكثر من ٢٥٠ سنة من هذا السقوط المرّ لدولة الموحدين!

وهذه قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين:

- ١ - عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ=١١٢٩-١١٦٣م).
- ٢ - أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٨٠-٥٥٨هـ=١١٦٣-١١٨٤م).
- ٣ - أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (٥٩٥-٥٨٠هـ=١١٨٤-١١٩٩م).

(١) شوقي أبو خليل: العقاب، ص ٥٩، ٦٠.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٧، ٢٢١/٧.

- ٤ - أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥-٦١٠ هـ = ١١٩٩-١٢١٣ م).
- ٥ - أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠ هـ = ١٢١٣-١٢٢٤ م).
- ٦ - عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢١-٦٢٠ هـ = ١٢٢٤ م).
- ٧ - أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) (٦٢١-٦٢٤ هـ = ١٢٢٤-١٢٢٧ م).
- ٨ - يحيى بن الناصر (٦٢٤-٦٢٧ هـ = ١٢٣٠-١٢٢٧ م).
- ٩ - المأمون بن المنصور (٦٢٧-٦٣٠ هـ = ١٢٣٢-١٢٣١ م).
- ١٠ - الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠-٦٤٠ هـ = ١٢٣٢-١٢٤٢ م).
- ١١ - السعيد علي أبو الحسن (٦٤٠-٦٤٦ هـ = ١٢٤٢-١٢٤٨ م).
- ١٢ - أبو حفص عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥ هـ = ١٢٤٨-١٢٦٦ م).
- ١٣ - أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨ هـ = ١٢٦٦-١٢٦٩ م).

* * *

الباب الناجع
ملجأة عز ناجية
وسقط الأندلس

الوضع الآن هو سقوط دولة الموحدين على إثر موقعة العقاب، ثم سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة، وسقطت جيّان في سنة (٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م).

هذا ولم يبق في الأندلس إلا ولايتان فقط كبرتان نسبياً، الأولى هي ولاية غرناطة، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالي ١٥٪ من بلاد الأندلس، والثانية هي ولاية إشبيلية، وتقع في الجنوب الغربي، وتمثل حوالي ١٠٪ من أرض الأندلس.

هاتان الولايات هما اللتان بقيتا فقط من جملة بلاد الأندلس، وكان من العجيب -كما ذكرنا- أن يظل الإسلام في بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة، فكانت هذه علامات استفهام كبيرة، ولا بدّ من وقفة معها بعض الشيء.

الفصل الأول

تأسيس مملكة غرناطة



ابن الأحمر وملك قشتالة ومعاهدة الخزي والشnar^(١):

كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الأونة العصيبة يذهب إلى حد التضاحية بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات، وكانت وسائل القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيب أمام الأطامع الشخصية الوضيعة، ففي العام نفسه الذي سقطت فيه جيّان بعد حروب غير مؤثرة بين المسلمين والنصارى، وفي سنة (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) وحماية حقوق وواجبات مملكة قشتالة النصرانية وولاية غرناطة الإسلامية، يأتي فرناندو الثالث ملك قشتالة ويعاهد ابن الأحمر الذي يتزعم ولاية غرناطة، ويعقد معه معاهدة يضمن له فيها بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات^(٢).

وقبل أن نتحدث عن بنود هذه الاتفاقية وتلك المعاهدة، نتعرف أولاً على أحد طرف هذه المعاهدة وهو ابن الأحمر، فهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، والذي ينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ^(٣)، لكن شتّان بين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا، وبين سعد بن عبادة الخزرجي!

(١) الشنار: العيب والعار.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤١، ٤٢، ٧/٤١، ٤٢.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٩٢/٢.

وقد سُمّي بابن الأحمر ولم يكن هذا اسمًا له، بل لقبًا له ولأبنائه من بعده حتى نهاية حكم المسلمين في غرناطة.

وكانت بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا هي:

أولاً: يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنويًا^(١)، وكان هذا تجسيداً لحال الأمة الإسلامية، وتعبيرًا عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفال نجم دولة الموحدين القوية المهيأة، والتي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانياً: أن يحضر اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس)، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش^(٢)، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنياً.

ثالثاً: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية؛ وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تماماً^(٣).

رابعاً: أن يسلمه ما باقي من حصون جيّان -المدينة التي سقطت أخيراً- وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة موقع في غاية الأهمية تحيط بغراطة نفسها^(٤).

خامساً: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حربه ضد أعدائه إذا

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢/٧.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٣/٧. مع ملاحظة أن النظام السائد في الملك النصرياني حتى ذلك الوقت هو النظام الإقطاعي الذي يتمتع فيه الأمراء أصحاب الإقطاعيات بنفوذ واستقلال كبير في حدود إقطاعياتهم على أن يكون من واجبائهم إمداد الدولة بالأموال والضرائب، وأن تكون أمواهم وقواهم في خدمة العرش حال احتياج الملكة إليهم.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢/٧.

(٤) ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، ص ٦٨، وتاريخ ابن خلدون، ١٩٠/٧.

احتاج إلى ذلك؛ أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أياً كانت الدولة التي يحاربها^(١).

التداي والانحطاط وسقوط إشبيلية:

وأوف ابن الأحمر بالتزاماته هذه، وكان أكبر معين لفرناندو الثالث على سقوط إشبيلية في يده، وهي -يومئذ- أعظم القواعد الأندلسية قاطبة، وقد كانت العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة، لا سيما في عصر الطوائف تحت حكم بنى عباد.

استطاع فرناندو الثالث أن يستولي على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامي بمساعدة محمد بن الأحمر، وفقاً للتحالف المعقود بينهما، ثم عمد بعد ذلك إلى افتتاح باقي الحصون القرية من إشبيلية. واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة، مقابل تعهده بأن يمحق دماء المسلمين، وأن يمنحهم شروطاً سخية، ولم تأتِ أواسط (سنة ١٢٤٧ م) الموافقة سنة (٦٤٥ هـ) حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية، وانتسَف سائر البسائط والضياع القرية منها، وببدأ النصارى حصارهم لإشبيلية في أغسطس ١٢٤٧ م (جادي الأولى سنة ٦٤٥ هـ)^(٢).

التزام صاغر، وانتهاك لتعاليم الإسلام وشرائعه، وضرب لرابطة النصرة والأخوة الإسلامية، وموالاة للنصارى وأعداء الإسلام على المسلمين، ما كان من ابن الأحمر إلا أن سمع وأطاع، وبكامل عدته يتقدم فرسان المسلمين الذين يتقدمون بدورهم جيوش قشتالة نحو إشبيلية، ضاربين حصاراً طويلاً وشديداً حولها.

يتحرك الجيش الغرناطي مع الجيش القشتالي ويحاصرون المسلمين في إشبيلية،

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٤٢/٧.

(٢) المصدر السابق، ٤٣/٧، ٤٤.

ليس لشهر أو شهرين، إنما طيلة سبعة عشر شهرًا كاملاً، يستغيث فيها أهل إشبيلية بكل منْ حولهم، لكن هل يسمع من به صمم؟!

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادِيَتْ حَيَاً وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
 وَكَوْ نَارٌ نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ وَلَكِنْ أَنْتَ نَفَخْ فِي رَمَادٍ^(١)

فالغرب الآن مشغول بالثورات الداخلية، وبين مرين يصارعون الموحدين في داخل المغرب، والمملكة الوحيدة المسلمة في الأندلس غرناطة هي التي تحاصر إشبيلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) وبعد سبعة عشر شهرًا كاملة من الحصار الشديد، تسقط إشبيلية بأيدي المسلمين ومعاونتهم للنصارى، تسقط إشبيلية ثانية أكبر مدينة في الأندلس، تلك المدينة صاحبة التاريخ المجيد والعمران العظيم، تسقط إشبيلية أعظم ثغور الجنوب ومن أقوى حصون الأندلس، تسقط إشبيلية ويغادر أهلها البلاد، ويهجّر ويشرد منها أربعين ألف مسلم، وواحسرتاه على المسلمين، تفتح حصونهم وتدمير قوتهم بأيديهم^(٢): [الوافر]

وَمَا فَتَىءَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى مَضِي بِالْجَدِيقَوْمُ آخْرُونَا
 وَأَصْبَحَ لَا يُرَى فِي الرَّكِبِ قَوْمِي وَقَدْ عَاشُوا أَئِمَّةً سِينِينَا
 وَآلَنِي وَآلَمَ كُلَّ حُرَّ سُؤَالُ الدَّهْرِ: أَيْنَ الْمُسْلِمُونَ؟^(٣)

أين المسلمين؟! إنهم يحاصرون المسلمين! المسلمين يقتلون المسلمين!

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدي: شعر عمرو بن معدى كرب الزبيدي، ص ١١، والبيتان من بحر الوافر.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٨٤، وابن أبي زرع: الذخيرة السنوية، ص ٧٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٧١.

(٣) ديوان هاشم الرفاعي، ص ٣٨٣.

ال المسلمين يُشَرِّدون المسلمين!

وعلى هذا تكون إشبيلية قد اختفت من الخارطة الإسلامية، وما زال إلى الآن مسجدها الكبير الذي أسسه يعقوب المنصور الموصي بعد انتصار الأرك الخالد، ما زال إلى اليوم كنيسة يُعلق فيها الصليب، ويُعبد فيها المسيح بعد أن كانت من أعظم ثغور الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

غرناطة ولماذا يعاهدها ملك قشتالة؟

لم تكن غرناطة -في سنة (١٢٤٦هـ = ١٢٤٨م)- تمثل أكثر من ١٥٪ وهي تضم ثلاثة ولايات متحدة؛ هي: ولاية غرناطة، وولاية مالقة، وولاية ألميرية، ثلاثة ولايات تقع تحت حكم ابن الأحمر، وإن كان هناك شيء من الاستقلال داخل كل ولاية.

ولنا أن نتساءل ونتعجب: لماذا يعقد فرناندو الثالث اتفاقية ومعاهدة مع هذه المملكة التي أصبح القضاء عليها ميسوراً؟! لماذا لم يأكل غرناطة كما أكل غيرها من بلاد المسلمين ودون عهود أو اتفاقيات؟!

والواقع أن ذلك كان للأمور التالية:

أولاً: كانت بغرناطة كثافة سكانية عالية؛ وهذا ما جعل من دخول جيوش النصارى إليها من الصعوبة بمكان، وقد كان من أسباب هذه الكثافة العالية أنه لما كانت تسقط مدينة من مدن المسلمين في أيدي النصارى كان النصارى -كما ذكرنا- يتوجهون نهجاً واحداً، وهو إما القتل أو التشريد والطرد من البلاد.

فكان كلما طرد رجل من بلاده عمّق واتجه ناحية الجنوب، فتجمّع كل المسلمين الذين سقطت مدنهم في أيدي النصارى في منطقة غرناطة في الجنوب الشرقي من البلاد^(١)،

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/١٧١.

فأصبحت ذات كثافة سكانية ضخمة، وهذا ما يصعب معه دخول قوات النصارى إليها.

ثانياً: كانت غرناطة ذات حصون كثيرة ومنيعة جداً، نشأت هذه الحصون كسبب طبيعي من جراء الاحروب المتواصلة قديماً، والتهديد المرتقب بالفناء على يد النصارى، هذه الحصون والأسوار هي نفسها التي جعلت غرناطة مملكة قوية، بل وقد نقول: إنها قد حددت حدودها، وكانت هذه الحصون تحيط بغرناطة وأمرية ومآلقة^(١).

ومن هنا وافق فرناندو الثالث على عقد مثل هذه المعاهدة، وإن كانت كما رأينا معاهدة جائرة ومخزية، يدفع فيها ابن الأحمر الجزية، ويحارب بمقتضاها مع ملك قشتالة، ويتعهد فيها بآلا يحاربه في يوم ما.

غرناطة وموعد مع الأجل المحتوم:

كعادتهم ولطبيعة متأصلة في كينونتهم، ومع كون المعاهدة السابقة بين ابن الأحمر وملك قشتالة تقوم على أساس التعاون والتصالح والنصرة بين الفريقين، إلا أنه بين الحين والآخر كان النصارى القشتاليون بقيادة فرناندو الثالث ومنْ تبعه من ملوك النصارى يخونون العهد مع ابن الأحمر، فكانوا يتهمون على بعض المدن ويحتلونها، وقد يحاول هو (ابن الأحمر) أن يسترد هذه البلاد فلا يفلح، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لم تؤسس مملكة غرناطة -آنذاك- على التقوى، بل أسسها ابن الأحمر على شفاعة جرف هارٍ، معتمداً على صليبي لا عهد له ولا أمان؛ «أَوْكُلُّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَنَدَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِلْ أَكْتُرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» [البقرة: ١٠٠].

ولقد فاتح النصارى ابن الأحمر وبدعوه بالعدوان، وغزوا أراضيه في سنة

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤٤٣ / ٧، ٤٤٤.

(١٢٦٠هـ=١٢٦١م)، واستطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر، أن يهزّهم وأن يردهم عن أراضيه^(١)، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها في ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين، ولما عبرت الكتائب المرئية بعد ذلك بقليل (١٢٦٢هـ)، استطاع قائدهم الفارس عامر بن إدريس أن يتزعزع مدينة شريش من يد النصارى، ولكن لمدى قصير فقط، وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة.

وما كان هذا التطور الخطير الذي يهدد «حرب الاسترداد» النصرانية ويضرّ بها في مقتل، ويعيد إلى الأندلسيين الأمل في استرجاع البلاد الذهاب والمجد السليب - ما كان هذا التطور الخطير بالذى يسكنّ عليه ملك قشتالة ألفونسو العاشر، فشدّد ضغطه على القواعد الأندلسية، حتى كانت أواخر سنة (١٢٦٣هـ=١٢٦٢م)، وفيها نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى^(٢)، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين، فأخرج أهلها المسلمين منها، وقتل وسبى كثيراً منهم، وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان.

وفي العام التالي (١٢٦٣هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة في العمل على افتتاح ما بقي من القواعد الأندلسية، وسرى الخوف إلى نواحي الأندلس، وعادت

(١) مع أن الصراع بين دولة الموحدين المحضرة وبين دولة بني مرين الناشئة، كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة، فإن كتائب المجاهدين من بني مرين والمتطوعة من أهل المغرب، لم تلبّي أن هرعت إلى غوث الأندلس. وعبر القائد أبو معروف محمد بن إدريس بن عبد الحق المرئي وأخوه الفارس عامر - البحر في نحو ثلاثة آلاف مقاتل جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين. وكانت حوادث الأندلس المؤسسة تُحدث وقعاً عميقاً في المغرب، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريح مما تکابده من عدوان النصارى واستطالتهم، والاستنصار بأهل العدوة إخوانهم في الدين، وكان علماء المغرب وخطباؤه وشعراؤه يثونون دعوة الغوث والإنجاد. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤٧/٧.

(٢) كانت قد سقطت قبل ذلك بربع قرن، ودخلت في حكم الصليبيين، ولكن ظلت تحكم بالأمير المسلم - تحت سلطان النصارى - حتى ذلك الوقت.

الرسائل ترى على أمراء المغرب وزعمائه، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس، وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت، خاصة وقد بدأ عدوان النصارى يحدث أثره، ويدأت هزائم قوات ابن الأحمر في ذلك الوقت على يد دون نونيو دي لاري (دوننه) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (١٢٦٣هـ = ١٢٦٤م).

وكتب الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبعة رسائل طويلة إلى قبائل المغرب، يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد في سبيل الأندلس، وفيها يقول: «ولا تخلدوا بركون إلى سكون، والذين يدعوكم لنصره، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره» والصليب قد أوعب في حشده، فالبدار البدار، بإرهاب الجند وإعمال الجهاد في نيل الجد...». وتكرر مثل هذا الصريح إلى سائر أمراء إفريقيية، وأعلن ابن الأحمر بيته للملك المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس، فبعث إليه المستنصر هدية وما لا ي涯 عنه. ولكن هذه المساعي لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجحة، وبقيت الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوي بمفردها، وتتوّجّس من سوء المصير.

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة ومصادقته، فنزل له في أواخر سنة (١٢٦٥هـ = ١٢٦٧م) عن عدد كبير من البلاد والمحصون، بلغ أكثر من مائة موضع، ومعظمها في غرب الأندلس؛ وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى.

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة في نحو ثلاثين عاماً فقط (١٢٦٧هـ = ٦٥٥هـ) في وابل مروع من الأحداث والمحن، واستحال الوطن الأندلسي الذي كان قبل قرن فقط يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية، إلى رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة.

وفي تلك الآونة (سنة ١٢٦٨هـ وما بعدها) عاد النصارى إلى التحرك والتحرش

بالمملكة الإسلامية، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاد فيها فساداً وتخريباً.

وهنا وجد ابن الأحمر نفسه في مأزق، وحينها فقط علم أنه عاهد من لا عهد له، فماذا يفعل؟ ما كان منه إلا أن يمم وجهه شطر بلاد المغرب حيث بني مرين، وحيث الدولة التي قامت على أنقاض دولة الموحدين، والتي كان عليها رجل يُسمى يعقوب المنصور المريني، و«المريني» تمييزاً بينه وبين يعقوب المنصور الموحدي في دولة الموحدين، وكلاهما كانا على شاكلة واحدة، وكلاهما من عظماء المسلمين، وكلاهما من كبار القادة في تاريخ المسلمين.

بعث ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف يعقوب المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد، ونصرة إخوانه المسلمين فيها وراء البحر، وينبهه بما بدا من عدوان النصارى ونفيهم في القضاء على ما بقي من ديار الأندلس، ولكن ابن الأحمر لم يعشْ ليرى نتيجة هذه الدعوة؛ إذ توفي بعد ذلك بقليل^(١).

* * *

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤٧/٥٠.

الفصل الثاني

بنو مرین يرثون دولة الموحدین في المغرب



بنو مرین فرع من قبیلة زناتة الأمازیغیة (البربریة) الشهیرة^(١)، والّتی یتمییز إلیها عدّ من القبائل التي لعبت أدواراً مهمّة في تاريخ المغرب العربي، مثل مغیلة ومدیونة ومغراوة وعبد الواد وجراوة، وغيرهم، وكان بنو مرین في أول أمرهم من البدو الرحل، وفي سنة (٦٠١ هـ) نشبّت بينهم وبينبني عبد الواد وبني واسین حرب فارتحلوا بعيداً وتوجلوا في هضاب المغرب، ونزلوا بواحی ملویة الواقع بين المغرب والصحراء، واستقرّوا هنالك إلى سنة (٦١٠ هـ)، وهي السنة التي مات فيها محمد الناصر الموحدی عقب موقعة العقاب، وتولى من بعده ابنه المستنصر، وكان صبياً لا علم له بالسياسة وتدبیر الملك، فانشغل باللهو والعبث وترك تدبیر الملك لأعمامه ولکبار رجال الموحدین، فأساءوا وتهاونوا في الأمور وخلدوا إلى الراحة والدعة، وكانت غزوّة العقاب قد أضعفّت قواهم، وقضت على كثير من رجالهم وشبابهم، ثم جاء بعدها وباء عظيم قضى على كثير من أهل هذه المناطق، وكان بنو مرین في ذلك الوقت يعيشون في الصحراء والقفار، وكانوا يرتحلون إلى الأرياف وأطراف المدن المغربيّة في الصيف والربيع للرعي فيها طوال الصيف والربيع، وجلب الحبوب والأقوات التي يستعينون بها على الحياة في الصحراء المجدبة، فإذا أقبل الشتاء اجتمعوا كلّهم ببلدة تسمى «أكرسیف» ثم شدّوا الرحال إلى مواطنهم في الصحراء.

(١) ابن أبي زرع: الذخیرة السنیة في تاريخ الدولة المرینیة، ص ١٤، وتاريخ ابن خلدون، ٧/١٦٦.

فلما كانت سنة (٦١٠هـ) ذهبوا على عادتهم إلى المدن والأرياف، ووجدوا أحوال هذه البلاد قد تغيرت وتبدلّت، ورأوا ما آلت إليه أحوال الموحدين من التهاون والخلود للراحة، وما آلت إليه أحوال الشعب بعد ضياع رجاله وشبابه في موقعة العقاب، وفي الوباء الذي عم بلاد المغرب والأندلس بعدها، ووجدوا هذه البلاد مع ذلك طيبة المنبت، خصية المرعى، غزيرة الماء، واسعة الأكنااف، فسيحة المزارع، متوفّرة العشب لقلة الرعي فيها، خضراء التلول والربى، فدفعهم ذلك إلى ترك القفار والاستقرار في هذه البلاد، وأرسلوا إلى قومهم في الصحراء يخبرونهم بذلك كله، وأنهم عزموا على الاستقرار هناك، ويحضّونهم على اللحاق بهم، فأسرع باقي بنـي مـرين بالانتقال إلى هذه البلاد الخصبة وانتشروا فيها^(١).

ولأنـهم كانوا قومـاً من الـبـدو لم يعتادوا الخضـوع لـغـيرـهـمـ، فقد عملـوا على بـسـطـ سيـطـرـهـمـ عـلـىـ هـذـهـ الـبـلـادـ، وـشـنـواـ الغـارـاتـ عـلـىـ الـبـلـادـ الـمـحـيـطـ بـهـمـ كـعـادـةـ أـهـلـ الـصـحـراءـ، فـلـمـ كـثـرـ عـيـثـهـمـ وـزـادـتـ شـكـاـيـةـ النـاسـ مـنـهـمـ، أـرـادـ الـخـلـيفـةـ الـمـسـتـنـصـرـ الـموـحـديـ أـنـ يـقـضـيـ عـلـيـهـمـ، فـأـرـسـلـ لـهـمـ جـيـشـاـ عـامـ (٦١٣هـ)، وـكـانـ أـمـيـرـهـمـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ أـبـوـ مـحـمـدـ عـبـدـ الـحـقـ بـنـ حـيـوـ، فـاشـتـبـكـ فـيـ الـفـرـيقـانـ، وـدارـتـ بـيـنـهـمـ حـرـبـ شـدـيـدةـ استـمـرـتـ أـيـامـاـ، وـانتـهـتـ بـهـزـيمـةـ الـمـوـحـديـنـ هـزـيمـةـ شـدـيـدةـ وـبـاـنـتـصـارـ بـنـيـ مـرينـ واستـحوـاذـهـمـ عـلـىـ أـمـوـالـ الـمـوـحـديـنـ وـسـلاـحـهـمـ، فـزـادـ ذـلـكـ مـنـ قـوـةـ بـنـيـ مـرينـ، وـسـرـتـ هـيـبـتـهـمـ فـيـ بـلـادـ الـمـغـرـبـ^(٢).

وـاستـمـرـتـ الـمـعـارـكـ بـعـدـ ذـلـكـ بـيـنـ بـنـيـ مـرينـ وـبـيـنـ الـمـوـحـديـنـ، حـتـىـ كـانـتـ سـنـةـ (٦٣٩هـ)، وـفـيـهـاـ أـرـسـلـ الـخـلـيفـةـ الرـشـيدـ الـمـوـحـديـ جـيـشـاـ لـقـتـالـ بـنـيـ مـرينـ فـهـزـمـ الـمـوـحـديـنـ هـزـيمـةـ شـدـيـدةـ، وـاستـولـىـ بـنـوـ مـرينـ عـلـىـ أـمـوـالـهـمـ وـسـلاـحـهـمـ^(٣)، وـتـوـفـيـ

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، ص ٢٤-٢٧، ١٦٩، و تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٧، والسلامي: الاستقصاء، ٣/٤.

(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، ص ٢٧، ١٦٩، و تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٧.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/١٧١.

الرشيد بعد ذلك بعام، فخلفه أخوه أبو الحسن السعيد، وهو الذي استنجد به أهل إشبيلية^(١)، وصمم أبو الحسن السعيد هذا على القضاء على بنو مرين فضاعف في ذلك جهوده، وسَيَّر لقتاهم سنة (٦٤٢ هـ) جيشاً ضخماً، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة هُزم فيها بنو مرين، وُقتل فيها أميرهم في ذلك الوقت أبو معْرِف محمد بن عبد الحق.

وتولى إمارة المرينيين بعد مقتل أبي معْرِف أخيه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبي يحيى، وفي عهده اشتَدَّ ساعد بنو مرين، وتغلبوا على مكناسة سنة (٦٤٣ هـ)^(٢)، ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد سنة (٦٤٨ هـ)، ثم استولوا على سجلة ودرعة سنة (٦٥٥ هـ)، وبعد ذلك بعام واحد توفي أبو يحيى، وصار الأمر بعده إلى أخيه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وتلقب بالمنصور بالله، وجعل مدينة فاس عاصمة دولته^(٣)، وفي سنة (٦٥٧ هـ) نشب الحرب بين بنو مرين وبين الأمير يَغْمُر اسْنَ بن زيان ملك المغرب الأوسط، وزعيم بنو عبد الواد، فانتصر يعقوب المنصور المريني، وارتد يَغْمُر اسْنَ إلى تلمسان مهزوماً^(٤)، وفي سنة (٦٥٨ هـ) هاجم نصارى إسبانيا ثغر سلا من بلاد المغرب، وقتلوا وسبوا كثيراً من أهله، فأسرع المنصور المريني بإنجاده، وحاصر النصارى بضعة أيام حتى جلووا عنه^(٥).

ثم جاءت سنة (٦٦٧ هـ)، وفيها كانت الموقعة الخامسة بين المرينيين والموحدين في أواخر هذه السنة سار الخليفة الواثق بالله الموحدي لقتال بنو مرين، والتقي

(١) ابن عذاري: *البيان المغرب، قسم الموحدين*، ص ٣٨٠ - ٣٨٤.

(٢) ابن أبي زرع: *الذخيرة السنوية*، ص ٦٣، ٦٦، ٦٧٢، ١٧١، ١٧٢.

(٣) ابن أبي زرع: *الذخيرة السنوية*، ص ٥٨، ٧٧، ٧٨، ٨٣.

(٤) ابن خلدون: *تاريخ ابن خلدون*، ٧/١٧٧، ١٧٨.

(٥) ابن أبي زرع: *الذخيرة السنوية*، ص ٩٣، ٩٤، والسلاوي: *الاستقصاء*، ٣/٢١، ٢٢.

الفريقيان في وادي غفو بين فاس ومراكش، فانتصر بنو مرين، وقتل من الموحدين عدد كبير، وكان على رأس القتلى الخليفة الموحدي نفسه، واستولى المرينيون على أمواهم وأسلحتهم^(١)، ثم ساروا إلى مراكش، فدخلها يعقوب المنصور بجيشه في التاسع من المحرم سنة (٦٦٨ هـ)، وتسمى بأمير المسلمين^(٢)، وبذلك انتهت دولة الموحدين بعد حوالي قرن ونصف من الزمان، وقامت بعدها دولة بنو مرين الفتية التي سيطرت على المغرب الأقصى كله.

* * *

(١) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، ص ١١٧، ١١٨، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/١٨٢.

(٢) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، ص ١١٨.

الفصل الثالث

يعقوب المنصور المريني وجهاده في الأندلس

يعقوب بن منصور المريني رجل الشجاعة

في وصف بلين ليعقوب المنصور المريني يقول المؤرخون المعاصرون له: إنه كان صواماً قواماً، دائم الذكر، كثير الفكر، لا يزال في أكثر نهاره ذاكراً، وفي أكثر ليله قائماً يصلياً، مكرماً للصلحاء، كثير الرأفة والحنين على المساكين، متواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفاً في سفك الدماء، كريماً جواداً، وكان مظفراً، منصور للراية، ميمون النقيبة، لم تهزمه راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغز عدواً إلا قهره، ولا لقى جيشاً إلا هزمته ودمّرها، ولا قصد بلدًا إلا فتحه^(١).

ولأنها صفات عظيمة لمؤلاء القادة المجاهدين الفاتحين، يجب أن يقف أمامها المسلمون كثيراً، ويتمثلونها في قراره أنفسهم، ويجعلون منها نبراساً يضيء حياتهم.

وفي تطبيق عملي لإحدى هذه الصفات وحين استعان محمد بن الأحمر الأول بيعقوب المنصور المريني مثلاً في دولة بني مرين، ما كان منه إلا أن أعد العدة وأتى بالفعل، وقام بصد هجوم النصارى على غرناطة.

بلاد الأندلس واستيراد النصر وقفنة عابرة

لقد تعوّدت بلاد الأندلس استيراد النصر من خارجها، كانت هذه مقوله

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، ص ٨٥، ٨٦.

ملمودة طيلة العهود السابقة؛ فلقد ظلت لأكثر من مائة عام تستورد النصر من خارج أراضيها؛ فمرة من المرابطين، وأخرى من الموحدين، وثالثة كانت من بنى مرين وهكذا، فلا تكاد تقوم لل المسلمين قائمة في بلاد الأندلس إلا على أكتاف غيرهم من بلاد المغرب العربي وما حولها.

ومن الطبيعي ألا يستقيم الأمر لتلك البلاد التي تقوم على أكتاف غيرها أبداً، وأبداً لا تستكمل النصر، وأبداً لا تستحق الحياة، لا يستقيم أبداً أن تنفق الأموال الضخمة في بناء القصور الضخمة الفارهة في غرناطة؛ مثل قصر الحمراء الذي يُعدُّ من أعظم قصور الأندلس ليحكم منها ابن الأحر أو غيره، وهو في هذه المحاصرة من جيوش النصارى، ثم يأتي غيره ومن خارج الأندلس ليدافع عن هذه البلاد وتلك القصور.

الإمام محمد بن عبد الله بن أبي بكر

في سنة (٦٧١ هـ = ١٢٧٣ م) يموت محمد بن الأحر الأول وقد قارب الثمانين من عمره، وقد استخلف على الحكم ابنه وسمى، بل وسمىًّا معظم أمراء بنى الأحر كان اسم ابنه هذا محمدًا، فكان هو محمد بن محمد بن يوسف بن الأحر، وكانوا يلقبونه بالفقير «لانتحاله طلب العلم أيام أبيه»^(١).

لما تولى محمد الفقير الأمور في غرناطة نظر إلى حال البلاد فوجد أن قوة المسلمين في بلاد الأندلس لن تستطيع أن تبقى صامدة في مواجهة قوة النصارى، هذا بالإضافة إلى أن ألفونسو العاشر حين مات ابن الأحر الأول ظن أن البلاد قد تهافت، فما كان منه إلا أن أسرع بالمخالفة من جديد وبالهجوم على أطراف غرناطة، ما كان - أيضًا - من محمد الفقير إلا أن استعان بيعقوب المنصور المريني رحمه الله، وكان

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١٩١/٧.

أبوه قد وصاه عند موته بالتمسک بعروة أمير المسلمين في المغرب^(١).

وعلى كُلِّ فقد أتى بنو مرين، وكان العبور الأول للمنصور المريني رحمه الله في صفر سنة (٦٧٤هـ)، وكان قد سبق ذلك بعام إرساله خمسة آلاف جندي بقيادة ابنه للجزيرة؛ حتى يفرغ من استعداده للجواز، وكان قبل ذلك بعدهة أعوام سنة (٦٦٣هـ) قد أرسل حوالي ثلاثة آلاف مجاهد تحت قيادة بعض أقاربه إلى الأندلس في حياة الشيخ ابن الأحمر فاستقروا بالأندلس -كما ذكرنا- واستطاعوا أن يرددوا الهجوم عن غرناطة، وحفظها الله من السقوط المدوي^(٢).

وهناك وفي مكان خارج غرناطة وبالقرب من قرطبة يلتقي المسلمين مع النصارى، هههه وعلى رأسهم واحد من أكبر قواد مملكة قشتالة يدعى دون نونيو دي لاري (الذى سمي الموقعة باسمه، فُعِّلَتْ بموقعة الدونونية^(٣)).

في سنة (٦٧٤هـ = ١٢٧٦م) تقع موقعة الدونونية، وكان على رأس جيوش المسلمين المنصور المريني رحمه الله، وقد أخذ يحفز الناس بنفسه على القتال، وكان مما قاله في خطبته الشهيرة في تحفيز جنده في هذه الموقعة:

أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ قَدْ فَتَحَتْ لَكُمْ أَبْوَابَهَا، وَزَيَّنَتْ حُورُهَا وَأَتْرَابَهَا، فَبَادِرُوا إِلَيْهَا
وَجِدُّوا فِي طَلْبِهَا، وَابْذَلُوا النَّفَوسَ فِي أَئْمَانِهَا، أَلَا وَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظَلَالِ السَّيْفِ؛
﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَرُّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَإِنَّمَا أَنفُسُهُمْ بِمَا هُمْ بِهِ أَنْجَنَّةٌ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُقَاتَلُونَ وَيُعَذَّبُونَ وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ فِي السُّورَةِ وَالْأَنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ
اللَّهِ فَكُلَّ شَيْءٍ وَإِنَّمَا يَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُنْكَرُ كُلُّ حَمْدٍ لِلَّهِ وَكُلُّ
الْمُنْكَرٍ كُلُّ شَيْءٍ وَإِنَّمَا يَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُنْكَرُ كُلُّ حَمْدٍ لِلَّهِ وَكُلُّ
الْمُنْكَرٍ كُلُّ شَيْءٍ [النُّور: 111].﴾

(۱) این خلدون: تاریخ این: خلدون، ۷/۱۹۱.

(٢) ابن أبي زرع: الذخرة السنّة، ص ١٤٤-١٤٦، وتاريخ ابن خلدون، ٧/١٩١، ١٩٢.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: الذخرة السنّة، ص ١٤٨.

فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة؛ فمَنْ مات منكم مات شهيداً، ومن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، فـ

آل عمران: ٢٠٠ [١].

وبهؤلاء الرجال الذين أتوا من بلاد المغرب، وبهذه القيادة الربانية، وبهذا العدد الذي لم يتجاوز عشرة آلاف مقاتل حقق المسلمون انتصاراً باهراً وعظيماً، وقتل من النصارى ستة آلاف مقاتل، وتم أسر سبعة آلاف وثمانمائة آخرين، وقتل دون نونيو قائد قشتالة في هذه الموقعة^(٢)، وقد غنم المسلمون غنائم لا تُحصى، وما انتصر المسلمون منذ موقعة الأرك في سنة (٥٩١ هـ = ١١٩٥ م) كهذا النصر في الدونونية في سنة (٦٧٤ هـ = ١٢٧٦ م).

عاد المنصور -عقب غزوة الدونونية- إلى الجزيرة الخضراء، واستقر بها خمسة وثلاثين يوماً، وزَّع خلالها الغنائم، وأرسل إلى العدو بخبر الغزوة، وكذلك أرسل إلى ابن الأحرر، ثم عاد بعد ذلك، وقاد جيشه إلى أحواز إشبيلية، وحاصرها حصاراً شديداً، قتل فيه وسبى، وضيق على إشبيلية تضييقاً شديداً، ثم رحل بجيشه عنها محلاً بالغنائم إلى شريش، وحاصرها هي الأخرى فترة، ثم فَضَّ الحصار وعاد إلى الجزيرة^(٣).

وبعد ثلاث سنوات من هذه الموقعة في سنة (٦٧٧ هـ = ١٢٧٩ م) تنتقض إشبيلية، فيذهب إليها من جديد يعقوب المريني رحمه الله، ومن جديد وبعد حصار فترة من الزمن يصالحونه على الجزيرة، ثم يتوجه بعد ذلك إلى فرطبة ويحاصرها، فرضخ له أيضاً على الجزيرة^(٤).

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنوية، ص ١٤٩.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ١٩٣/٧.

(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنوية، ص ١٥٨، وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون، ١٩٣/٧.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١٩٦/٧، ١٩٧.

كان النصارى معتصمين بمدنهم، يحتمون بأسوارها وقلاعها، أو قل: هي أسوار وقلاع بناها المسلمون من قبل. إلا أن ألفونسو العاشر لم يكن من المتخاذلين والضعفاء والجبناء الذين ابتي بهم المسلمون في أيام السقوط فتركوا هذه المدن، أو سلموها، أو حتى عاونوا النصارى في إسقاطها.

بل حتى في هذه الفترة لم تكن ما بقي من بلاد الأندلس متوحدة تحت سلطان ابن الأحمر، بل خرج عليه بنو أشقيقولة^(١)، وسيطروا على مالقة وقمارش ووادي آش، وكثيراً ما حاربهم هو وحاربهم أبوه من قبله، بل إن ابن الأحمر لم يشترك في موقعة الدونونية لهذا النزاع مع بنو أشقيقولة^(٢).

حاصر المسلمون إشبيلية، واستنفدها قدر الإمكان، وكان فيها ألفونسو العاشر، وأرسل المنصور السرايا إلى مختلف النواحي لتوسيع العمل نفسه، واقتحمت سراياه عدة حصون، ثم عاد السلطان بالغنائم والسببي إلى الجزيرة، وأراح في الجزيرة بعض الوقت، ثم خرج إلى شريش فاشتدى في التضييق عليها، وأرسل ولده إلى إشبيلية، فاكتسح ما استطاع من حصونها، ثم عاد إلى أبيه وعادا معاً بالجيوش وبالغنائم إلى الجزيرة، ثم دعا ابن الأحمر للغزو، فاستجاب له، وخرج جاسوياً إلى قرطبة، فضيقوا عليها قدر الإمكان، وخربوا ما استطاعوا من حصونها، وأرسلوا السرايا إلى المدن الأخرى للتضييق عليها كأرجونة وبركونة وجيان، وملك قشتالة لا يجرؤ على الخروج لهم، ثم إنه لم يجد أمامه بدّاً من مسامتهم، وبالفعل أرسل إلى أمير المسلمين يطلب المسالمة والصلح، فترك أمير المسلمين القرار في ذلك لابن الأحمر إعلاءً ل شأنه، فوافق ابن الأحمر بعد استئذان أمير المسلمين في ذلك، وعاد أمير

(١) بنو أشقيقولة هم ابن أخت السلطان محمد بن الأحمر الفقيه، وكانت وقعت بينهم وبين السلطان خال нем (محمد الفقيه) حروب تسفيت في مقتل فرج أحد الأخوة الأربع (بني أشقيقولة)؛ فوقدت العداوة بين أمه أخت السلطان، وأخيها، وهي العداوة التي لم تنته ولم يتفع فيها صلح.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١٩٧/٧، والسلاوي: الاستقصا، ٣/٤٥-٤٨.

المسلمين مع ابن الأحمر إلى غرناطة، وترك له غنائم هذه الغزوة، ثم عاد أمير المسلمين للجزيرة^(١).

محمد بن الأحمر الفقيه والخيانة العظمى:

في أثناء رجوع يعقوب المريني رحمه الله يموت حاكم مالقة – وهو من بنى أشقيقولة الذين كانوا يسيطرون عليها – فيتولى عليها ابنه من بعده، إلا أن هذا الابن شرع في التزول عن مالقة لأبي يعقوب المنصور المريني^(٢)؛ نكاية في حاله محمد الفقيه، بل إلى الحد الذي قال فيه للمنصور: إن لم تخرها أعطيتها للفرنج ولا يتملّكها ابن الأحمر، وكان من الطبيعي – والحال هذا – أن يسارع المنصور لأخذها والاستجابة لبني أشقيقولة^(٣).

ولا شك أن موقفه كان في غاية الصعوبة؛ إذ هو الحريص دائمًا على طمأنة محمد الفقيه واسترضائه؛ فلقد كان هذا الأخير لديه من البطانة مثل ما كان للمعتمد بن عباد من قبله، وهم من يرضي بالنزول للنصارى ولا يرضى أن ينزل إلى الجزيرة، أمثال يوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور المريني!

ولا شكًّا – أيضًا – في أن المنصور المريني لم يشأ أن تضيع جهوده في الجهاد سدى، ولا بدّ أنه فكر في ضرورة أن يكون للمرinيين قوات في أرض الأندلس يمكنها ردع المحاولات النصرانية، كما يمكنها شلّ الأفكار التي قد تجول في رأس ابن الأحمر حول التحالف مع النصارى، أو النزول لهم عن مزيد من الأراضي.

ولقد كان للمنصور المريني قوات في جزيرة طريف على الساحل الجنوبي لبلاد الأندلس، اشترط نزول ابن الأحمر عنها لدى استدعائه له للغوث والإنجاد؛ وذلك

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١٩٦/٧، ١٩٧.

(٢) ابن الخطيب: اللمحات البدرية ص ٤٥، وتاريخ ابن خلدون ٧/١٩٧.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ١/٥٦٤، وأعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٢٨٨، والسلاوي: الاستقصاء، ٣/٤٨.

حتى تكون هذه القوات مددًا قريباً لبلاد الأندلس إذا احتاجوا إليهم في حربهم ضد النصارى، وسيلاً سهلاً للعبور المغربي إلى الأندلس.

وهنا كرر محمد بن الأحمر الفقيه سيرة المعتمد بن عباد، وخشي أن تتكرر قصة يوسف بن تاشفين حينما ساعد ملوك الطوائف ثم حاز الأندلس بعده وأدخلها في حكم المرابطين^(١)، ففكر عازمًا على أن يقف حائلاً وسدًا منيعًا حتى لا تضم بلاد الأندلس إلى دولة بنى مرين.

ويما لهول! هذا الفكر الذي كان عليه ذلك الرجل الذي لُقب بالفقيه الذي ما هو بفقيه! فماذا يفعل إذاً لكي يمنع ما تكرر في الماضي، ويمنع ما جال بخاطره؟ بنظرة واقعية وجد أنه ليست له طاقة يعقوب المنصور المريني، فماذا يفعل؟!

كرر سيرة الخيانة ذاتها؛ ومثلما أرسل المعتمد بن عباد من قبل إلى ألفونسو السادس، فعل محمد بن الأحمر الفقيه (!!) مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، واستعان به في طرد يعقوب المنصور المريني من جزيرة طريف^(٢).

ولم يكتفي بهذا، بل سارع ابن الأحمر «الفقيه» (!!) في مراسلة الأمير المغربي يغمراسن بن زيان -ملك المغرب الأوسط، والعدو اللدود للسلطان يعقوب المريني^(٣) - للمحالفه على المنصور المريني.

وعلى موعد مع الزمن يأتي ملك قشتالة بجيشه وأساطيله ويحاصر جزيرة

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١٩٨/٧.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون، ٧/٢٠٠.

(٣) بل إن يغمراسن هو الأمير الذي منعت معاركه المرينيين من سرعة الاستجابة لغزو الأندلسين من قبل؛ حتى إنه رفض رسالة المنصور المريني بعقد هدنة بينهما لأنه سيتوجه إلى الأندلس التي تستغيث من بلاد النصارى، فما أمكن المنصور المريني أن يتوجه للجهاد مع الأندلسين إلا بعد أن انتصر على يغمراسن هذا في معارك قوية، وبعد وقت ثمين ذهب فيه من المسلمين الأندلسين بلاد وأرواح وسبايا.. نسي ابن الأحمر هذا وأرسل ليغمراسن ليحالقه ضد المنصور المريني.

طريف، وما أن يسمع بذلك يعقوب المنصور المريني حتى يُريد أن يعبر من توه إلى الأندلس، إلا أن حوادث المغرب ومضائقات يغمر أ insan تمنعه وتعوقه، حتى لقد بلغ الحال بال المسلمين المحاصرين في الأندلس أنهم «قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر»^(١)، فأغمه هذا، فأرسل ابنه الأمير أبا يعقوب على رأس أسطول ضخم في أوائل سنة ٦٧٩ هـ = ١٢٧٩ م)، وتحددنا مصادر التاريخ عن فقيه من سبعة اسمه أبو حاتم العزفي أبي البلاء الحسن في حشد الناس، واستنفارهم للجهاد؛ حتى ركب أهل سبعة جيعاً للجهاد من الفتى الذي بلغ الحلم فما فوقه، وتوفرت لهم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت^(٢).

وأستطيع ابن الأحمر في ظل هذه الكوارث التي أثارها للمرinيين بالغرب والأندلس أن يأخذ مالقة ويستولي عليها ويدخلها في حكمه، وعندئذ تكون الأمور قد عادت إلى ما كان يجب ويرغب من إخراج المرinيين من مالقة.

ثم بدا ابن الأحمر -ما وصل إليه حال المسلمين المحاصرين من جيوش النصارى- أن النصارى يستعدون لأخذها، وليس فقط إخراج المرinيين منها، وأنها على وشك أن تقع بأيديهم بالفعل، فندم على ما صنع ونبذ عهده وأعد أساطيله وجعلها مددًا للمسلمين، واجتمعت الأساطيل بميناء سبعة تناهز السبعين، فنشبت بين الأسطول الإسلامي وبين الأسطول النصاري معركة هائلة هُزم فيها النصارى، واستولى المسلمون على سفنهم، ونزلوا بالجزيرة، ففرّ منها النصارى في الحال.

أما كان الفقيه يعتبر بالتاريخ حتى نهايته، فيُصر فيه نصر ابن تاشفين على ابن عباد ومعه الفرنج، ولو فعل ذلك لا كتملت له مسيرة القصة فيعتبر بها كلها، بدل أن يخشى من أحد فصوّلها فيكرر سيرة الخيانة!! إنه نموذج للحاكم الذي تضيع على يديه الملك

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/٢٠٢.

(٢) المصدر السابق.

والبلاد، وتحمّى بسيرته أمجاد سطراها العظيماء والفاتحون والمجاهدون الكبار. وللنقطة التي ملأت قلب الأمير أبي يعقوب -ابن المنصور المريني، وقائد النصر البحري- على ابن الأحمر، فتَكَرَّر في أن يتحالف مع النصارى ضد ابن الأحمر حتى يُذهب ملكه في غرناطة، وأرسل بهذا إلى أبيه في المغرب، فأنكر عليه المنصور ذلك ورفضه تماماً. وفي هذا الوقت نفسه ينقلب النصارى على ابن الأحمر، ويتحالفون معبني أشبيلية ويهاجون غرناطة، إلا أن ابن الأحمر استطاع ردهم عنها.

ورغم خطورة الموقف الذي أوقع ابن الأحمر نفسه فيه؛ إذ جعل الكل أعداءه، فتحالف على نصیره الوحيد وهم المرینيون، فجعلهم عدواً جديداً يضاف إلى النصارى وإلى بنی أشبيلية رغم خطورة هذا الموقف ودقته إذا به يستقبل الرسالة التي تنزل على قلبه برداً وسلاماً، وهي رسالة من السلطان يعقوب المنصور المریني، يجذّد فيه الرغبة في الصلح والتحالف، ويحذر من خطورة انتقام هؤلاء المسلمين على الأندلس ومصيرهم.

وما كان أمام ابن الأحمر الفقيه إلا أن يقبل ويستجيب أمام هذا الخلق الإسلامي الكريم، فيكسب قوماً طالما جاهدوا معه، ونصروه وأعزوه، وعادوا لهم بمحاقته، فلم يلبث إلا أن دارت عليه الدوائر^(١).

هدأت العلاقات وصفت بين المنصور وبين ابن الأحمر لفترة من الزمن، ثم انقلب الحال في قشتالة نفسها؛ إذ ثار سانشو بن ألفونسو العاشر على أبيه، فلجأ ألفونسو العاشر إلى المنصور المریني، الذي جاز إلى الأندلس معاونةً لألفونسو، واستغللاً لهذه الفرصة في ضرب بعضهم البعض، ثم جاز مرة ثانية بعد أن مات ألفونسو العاشر، فصالحه النصارى وعقدوا معه عقداً للهدنة والموافقة^(٢).

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٠١-٢٠٤، وأبن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص ٢٨٩.

ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/١٠٢، ١٠٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٠٥، ٢٠٦.

ثم وَفَد سانشو بعد ذلك على أمير المسلمين، وفيها سأله المنصور سانشو أن يرسل إليه من الكتب التي أخذوها من بلاد المسلمين في الأندلس، فأرسل إليه بعد عودته إلى بلاده ١٣ حملًا^(١).

مُكَلَّفُ الْأَنْجَوِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَنْجَوِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى بْنِ الْمُنْصُورِ

بعد الموقعة السابقة بعام واحد وفي سنة (٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) يموت المنصور المريني رحمه الله ويخلفه على إماراةبني مرين ابنه يوسف بن المنصور^(٢)، ومن حينها يذهب ابن الأحرر الفقيه إليه ويعرض عليه الولاء والطاعة، وكان قد تم اتفاق بينهما فيما مضى حينما نزل الجيش المغربي إلى الأندلس وهزم الأساطيل النصرانية، وفيه أن ينزل الأمير يوسف بن يعقوب لابن الأحرر عن كل التغور الأندلسية التابعة لبلاد العدوة المغربية، عدا الجزيرة وطريف، وتفرق الملكان وهم على أكمل حالات المصادفة، ثم كذلك نزل السلطان يوسف المريني لابن الأحرر عن وادي آش بعد ذلك سنة (٦٨٦ هـ)^(٣).

في هذه الأثناء وبعدها نقض سانشو المعاهدة التي كان أبرمها مع المرينيين؛ مستغلًا انشغال السلطان المغربي بشئون المغرب وأضطراباته، فهاجموا البلاد الإسلامية، فعبر إليه السلطان، وغزا بلاده وهزمها، وهنا أرسل سانشو إلى ابن الأحرر يُحَوَّفَه السلطان المريني على ملكه، ويسأله محالفته حتى يتمكنوا من منعبني مرين من العبور إلى الأندلس ثانية، وأن ليس إلى ذلك من سبيل إلا أن يستولوا على جزيرة طريف.

ومن جديد اعتملت الوساوس في قلب ابن الأحرر، ووقع في الفخ النصراني القاتل، وما درى المسكين أنه يخنق نفسه بيده، فوافق على التحالف مع النصارى شريطة أن يأخذ

(١) المصدر السابق، ٧/٢٠٩.

(٢) ابن الخطيب: رقم الحلال، ص ٨٩، ٩٠، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢١٠.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢١١.

هو طريف إن استولى عليها، أما ملك قشتالة فإنه يحصل على ستة حصون من ابن الأحمر، وبالفعل حاصر ملك قشتالة طريف، وكان ابن الأحمر يمدء بالمؤن والأقوات، واستمرَّ الحصار حتى أنهك أهلها تماماً، وسلموا الملك قشتالة على شروط.

وك سابقة وعلى موعد أيضاً مع الزمن يأتي بالفعل جيش النصارى ويحاصر طريف كما فعل في السابق، لكن في هذه المرة يستطيعون أن يسقطوا طريف.

لكن النصارى بعد أن استولوا عليها لم يعودوها إليه، وإنما أخذوها لأنفسهم؛ وبذلك يكونون قد خانوا العهد معه، وتكون قد حدثت الجريمة الكبرى والخيانة العظمى وسقطت طريف^(١).

وكان موقع طريف هذه في غاية الخطورة؛ فهي تطل على مضيق جبل طارق، ومعنى ذلك أن سقوطها يعني انقطاع بلاد المغرب عن بلاد الأندلس، وانقطاع العون والمدد من بلاد المغرب إلى الأندلس تماماً.

أبو عبد الله بن الحكيم وأمور يندى لها الجبين:

في سنة (١٣٠٢هـ = ١٧٠١م) يموت ابن الأحمر الفقيه^(٢) ويتولى من بعده محمد الثالث، والذي كان يلقب بالأعمش^(٣)، ويُعرف بالمخلوع، وكان رجلاً ضعيفاً جداً، وقد تولى الأمور في عهده الوزير أبو عبد الله بن الحكيم - الذي ما هو بحكيم - حيث كانت له السيطرة على الأمور في بلاد غرناطة^(٤)، و«انصرف عن موالة سلطان المغرب إلى موالة ملك قشتالة»^(٥).

(١) المصدر السابق، ٢١٦/٧، والسلاوي: الاستقصاء، ٣/٧١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/٥٦٦، واللمحة البدري، ص ٤٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٢٨.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/٥٤٤، ٥٤٩، واللمحة البدري، ص ٤٨، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٢٨.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/٥٤٩، واللمحة البدري، ص ٥١، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٢٨.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٢٨.

لم يكتفي أبو عبد الله بن الحكيم بذلك، لكنه زاد على السابقين له في هذه الحالات وغيرها بأن فعل أفعلاً يندي لها الجبين، فأوزع أبو عبد الله المخلوع إلى ابن عمه حاكم مالقة بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان يوسف المريني، والدخول في طاعة ابن الأحمر، ثم جهز جيشاً وذهب ليقاتل، ترى من يقاتل؟! أيقاتل النصارى الذين هم على حدود ولايته، أم من يقاتل؟!

كانت الإجابة المخزية أنه ذهب بجيشه واحتلَّ سبتة في بلاد المغرب، ذهب إلى دولة بنى مرین واحتلَّ مدينة سبتة حتى يقوى شأنه في مضيق جبل طارق، وتم احتلال سبتة بالفعل وأعلن أبو عبد الله بن الحكيم الأمان لأهل سبتة، وإرساله حكم سبتة المخلوعين إلى غرناطة^(١).

وفي سبيل لزعزعة الحكم في بنى مرین، انطلق رجل مغربي كان من المرینيين الذين يقيمون في الأندلس ويدعى عثمان بن أبي العلاء، انطلق من سبتة إلى البلاد المغربية المحيطة في محاولة للسيطرة عليها؛ أملأً في أن يتمكن من السيطرة على المغرب، وساعدته على ذلك مشاكل المغرب الداخلية، ثم ما كان من مقتل السلطان يوسف المریني، وما أدى إليه من فتنة بين ولديه أبي سالم وأبي ثابت، انتهت بانتصار أبي ثابت واستيلائه على العرش، ثم مات أبو ثابت بعد ذلك بقليل، وخلفه أخوه أبو الريبع سليمان، وهو الذي هزم عثمان بن أبي العلاء بعد ذلك فارتدى إلى الأندلس من جديد^(٢).

وإنه -بلا شك- غباء منقطع النظير، أمر لا يقرُّه عقل ولا دين، لكن هذا ما حدث، فكانت النتيجة أنه بعد ذلك بأعوام قليلة استغل النصارى الثورة التي قامت على أبي عبد الله المخلوع وتولية أخيه أبي الجيوش نصر بدلاً منه، فزحفوا

(١) المصدر السابق، ٧/٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٣٦-٢٣٨.

بجيوشهم نحو جبل طارق حتى سقط في أيديهم في سنة (١٣٠٩هـ = ٧٠٩م)،
فعُزلت - بهذا - بلاد الأندلس عن بلاد المغرب، وترك غرناطة لمصيرها
المحتمم^(١).



(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ٣/٣٣٩، واللمحة اليدرية، ص ٦٢، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٢٤٠.

الفصل الرابع

غرناطة تصارع السقوط

وطيلة ما يقرب من مائتي عام، منذ سنة (١٣٠٩هـ = ٧٠٩م) وحتى سنة (١٤٩٢هـ = ٨٩٧م) ظلّ الحال كما هو عليه في بلاد غرناطة، ولم تسقط.

وكان السر في ذلك والسبب الرئيس، والذي من أجله حُفظت هذه البلاد هو وجود خلاف كبير وصراع طويل كان قد دار بين مملكة قشتالة وملكة أراجون، (المملكتان النصريتان في الشمال)؛ حيث تصارعاً معاً بعد أن صارت كل مملكة منهم ضخمة قوية، وكانتا قد قاما على أنقاض الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس.

وقفة مع غرناطة وعوامل ثباتها طيلة هذه الفترة^(١) :

كانت غرناطة تتردّد بين القوة والضعف وبين المزيمة والثبات وبين الأمان والقلق وبين المهدوء والاضطراب، رغم ذلك في الدّاخل كانت - خلال عمرها البالغ حوالي قرنين ونصف - تمتلئ بالإنتاج، كما تطفح بالخير والرفاه، توفرت لها أيام مشهودة في الانتصار والغلبة، مع قلة الإمكانيات وقسوة الظروف وكثافة الأعداء.

في هذه الظروف - وحتى مع الأيام العصيبة والانشغال - استطاعت أن تسير في الموكب الحضاري، على قدر ما أوتيت من إمكانيات، وأن تُقدم ألواناً عديدة من

(١) عبد الرحمن العجي: التاريخ الأندلسي، ص ٥٥٩-٥٦٢.

الإنجاز؛ مما يدل على حيوية هذه الأمة المسلمة واستعدادها للعمل والإنتاج، بقدر ما لديها من معانٍ الإسلام، وما تملك من رسوخ عقيدته، إن الذي أصاب المسلمين بتقصيرهم وتخاذلهم حين الهبوط عن المستوى الكريم الذي أراده الإسلام كان أكثر مما أصابهم من عدوهم^(١). مع اعتبار أهمية هذا الأخير في الإشغال والاستنزاف والإطباق من كل جهة، ينتقص من أطرافها ويأكل وجودها ويطعن حضارتها، تراثاً تذروه رياحها العاصفة.

أول إنجاز هو الاستعداد - في تلك الظروف - للمحافظة على ما تبقى للأندلس من أرض، تأوي إليها البقية الباقي، والسير في الوجهة القوية على قدر؛ بعض هذه الإنجازات كانت موجودة واستمرت، وبعضها الآخر وجد أيام غرناطة؛ وجدت أيامها «مشيخة الغزاوة»، التي خلّفت تلك البطولات بجانب الانتصارات الأخرى^(٢).

امكّن الحفاظ على التكوين والبناء الاجتماعي في عدد من الجوانب، ولو بحدود تضيق أو تسع، وهو الذي ساعد على الوقوف في هذا الخضم الصعب لعدة أجيال، كما أن الآفاق والقيم التي رعاها وحافظ عليها أنتجت بناء حضاريًا كبيرًا في مختلف الميادين، قد تغور أحياناً بعد أن كانت تفورة.

وفي العلوم المتعددة الحقول قدمت التأليف الكثيرة والإنتاج الضخم، كما حافظت على ما خطته يد العلماء الذين سبقوها وانتفعوا به.

نجد ثبتاً طويلاً من أسماء اللامعين بعضها في الإحاطة لابن الخطيب وفي نفح الطيب للمقربي، كما أنشئت المدارس ومعاهد العلم الأخرى في كل ناحية، وتوفرت

(١) انظر: المقربي: نفح الطيب، ٤/٥٠٩، ٥١٠، وأزهار الرياض، ١/٥٣-٥٥.

(٢) انظر في أصل «مشيخة الغزاوة» ودورها: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/٣٦٦، ٣٦٧، والمقربي: نفح الطيب، ١/٤٥٢-٤٥٤.

الاختراعات؛ من مثل: المدافع التي ترمي نوعاً من المحروقات، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة، وانتقلت عنهم إلى أوروبا^(١)، وما يزال متحف مدريد الحربي يحفظ حالياً البنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة.

وفي الصناعات ازدهرت أنواع كثيرة؛ فقد كانت هناك صناعة السفن، ثم الأنسجة، وصناعة الورق والفالخار المذهب العجيب^(٢)، وأنتجت الكثير في ميدان الأصباغ والدباغة والجلود، وصناعة الحلوي، والصناعات الفنية الدقيقة. كذلك برزت بالزراعة ووسائل الري والعناية بها وأنواع المزروعات.

ثم الجانب العماني المتمثل في المباني المختلفة؛ كالمساجد، والقصور، والدور، والقناطر، وقصر الحمراء الذي ما زال باقياً، مزييناً بالتقاويس التي تدل على فنية ماهرة رائعة، كذلك المباني الحربية المتعددة.

وكان للتنظيميات المختلفة في المجتمع والدولة دورها وأهميتها، فقد غدت مدينة غرناطة في وقتها من أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومبانيها ومرافقها المتنوعة، وكانت تضم حوالي مليون نسمة، وتُتصدرَ كثيراً من الصناعات إلى عدة بلدان؛ منها الأوربية.

وظهرت آثارها على هذه البلدان الأوربية في بعض المسائل الأخرى المعنية، فانتفعت - إلى حدٍ - بالفروسية التي كانت لها الحفلات الرائعة المتفننة، بما تحتويه من ضروب البراعة والرشاقة والأعراف.

(١) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢١١/٧، وما بعدها.

(٢) ابن بطوطه: رحلة ابن بطوطه، ٤/٢١٨.

الفصل الخامس

اتحاد الممالك النصرانية

و قبل الحديث عن هذه الفترة الخرجة من تاريخ مملكة غرناطة الإسلامية، لا بد أن نقف سريعاً أمام هذا العامل المهم الذي كان سبباً في الاحتضار السريع لآخر دول المسلمين في الأندلس، وهذا العامل هو اتحاد الملكتين النصرانيتين قشتالة وأراجون، بعد أن كانتا ملكتين مختلفتين متخاصمتين، تحارب كل منهما الأخرى وتعمل على القضاء عليها، بالرغم مما كان يربطهما من وحدة الدين والجنس، واشتراكهما -أيضاً- في عدد من الأهداف، والتي كان أهمها على الإطلاق هو القضاء على الإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ خوفاً من أن يستحوذ على شبه الجزيرة ثانية كما حدث من قبل، فيقضي بذلك على سلطانها، الذي يعملاً على توطيدته، ولو على حساب بعضها البعض.

وقد ظهرت بوادر هذا الاتحاد سنة (١٤٧٩هـ = ١٤٧٤م) عندما توفي هنري الرابع ملك قشتالة، فثارت بذلك حول تولي العرش مشكلة دقيقة، وهي أن هذا الملك لم يترك سوى ابنة صغيرة هي خوانا (چنة)، ولكن تسبّبها إليه مع ذلك كان موضع شكٌّ، وكانت تُنسب إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دي لاكييفا؛ ولذلك كان اسمها الشائع خوانا بلترانيخا، وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء، في حين كانت الأميرة إيزابيلا أخت الملك هنري على العكس من ذلك، فكانت تتمتع بعطف الشعب القشتالي، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء؛ حتى إن

أخاه الملك هنري قد اعترف بحقها في العرش، وأيد الكورتيس (مجلس النواب القشتالي) أحقيتها بالعرش عقب وفاة أخيها ألفونسو سنة (١٤٦٨ م)؛ ولذلك لم يكن ثمة لبس في أحقيه هذه الأميرة في تولي عرش قشتالة خلفاً لأخيها.

وكانت إيزابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام بابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني ابن الملك خوان الثاني ملك أراجون، وقصة هذا الزواج أن الأنظار كانت تتطلع إلى إيزابيلا مذ كبرت؛ للاحتمالات القوية التي كانت تؤهلها لعرش قشتالة، وكان خوان الثاني ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرناندو؛ لما كان بين العائلتين المالكتين من أواصر القربي الوثيقة، ولأن ذلك سيقرب بالطبع سبل الاتحاد بين المملكتين؛ ولذلك كان فرناندو أول المتقدمين خطبة إيزابيلا، ولكن أخيها الملك لم يرض عن اقتراح فرناندو بأخته، وكان ينافس فرناندو في خطبة إيزابيلا عدد من النساء والبناء الطامعين في عرش قشتالة، مثل الأمير فرناندو الأرجوني؛ وكان من هؤلاء ألفونسو ملك البرتغال وكبير فرسان قلعة رياح، وقد وافق الملك هنري على أن ترتبط أخته بكبير فرسان قلعة رياح، إلا أن الأميرة كان لها رأي آخر؛ إذ إنها آثرت بعد إمعان النظر أن تقبل خطبة ابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني؛ للبواعث نفسها التي جعلت أباها يحرص على هذه الزفاف، ولأنه يجمع بينهما من الجد بيت ملكي واحد، ووضعت شروط هذا الزواج بين الفريقين سراً؛ نظراً لمعارضة الملك هنري لهذه الزفاف، فكان من هذه الشروط أن يتعهد فرناندو باحترام قوانين قشتالة وتقاليدها، وأن يجعل مقر إقامته في قشتالة، وألا يغادرها دون إذن إيزابيلا، وألا يتخذ أية قرارات أو تعينات في المملكة دون إذنها. وتعهد بالأخص بمتابعة الحرب ضد المسلمين.

وفي أكتوبر سنة (١٤٦٩ م) الموافقة سنة (٨٧٤ هـ) عُقد الزواج في مدينة بلد الوليد - حيث كانت تقيم إيزابيلا في ذلك الوقت - في حفل خاص لم يشهده سوى

قليل من الأصدقاء، ثم أخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج برسالة تشرح فيها بواعث إقدامها على ذلك.

وأعلنت إيزابيلا في ديسمبر (١٤٧٤م) عقب وفاة أخيها هنري ملكة لقشتالة وليون في بلدة شقوبية؛ حيث كانت تُقيم آنذاك، ودخلت مدن أخرى في طاعتها، ولكن الأمر لم يكن سهلاً؛ لأن ثمة فريق من النبلاء كان يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى، كما كان زوج إيزابيلا الأمير فرناندو الأرجوني يطمع هو الآخر في انتزاع العرش لنفسه؛ باعتباره آخر الأبناء من الذكور لعائلة المالكة، ولكن إيزابيلا تمسكت بحقها، واتفقت مع زوجها على مزاولة الملك المشترك؛ فتكون إيزابيلا ملكة أصلية لقشتالة لها الرأي الأول في الأمور الجليلة، في حين يجري القضاء وتُسَك العملة باسميهما.

وكان خصوم إيزابيلا في ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طليطلة قد تفاهموا مع ملك البرتغال ألفونسو الخامس على تأييد سعيهم في تنصيب خوانا ملكة لقشتالة، وهي ابنة اخت ألفونسو الخامس، فغزا ملك البرتغال في مايو سنة (١٤٧٥م) أراضي قشتالة، واحتراق هضابها الشهالية حتى مدينة سمورة، ويدر فرناندو وإيزابيلا بالسير في قواتهما إلى لقائهما، واستبكي الفريقيان على مقربة من تورو بجوار سمورة، فهُزم القشتاليون في البداية، ولكن ألفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقة، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر، وانتهى بانتصار القشتاليين.

وهكذا استقر الملكان على العرش بلا منازع، وفي سنة (١٤٧٩م) توفي خوان الثاني ملك أراجون، فتولى ابنه العرش من بعده، وبذلك اتحدت الملكتان الإسبانيتان في ظلّ عرش واحد بعد أن فَرَقت بينهما المنافسات والصراعات أحقاباً.

وكان فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكي - إلى جوار قمته بالقدرة الفائقة

في الإدارة والسياسة وال الحرب - أميراً لا وازع له، يجذب في سياسته إلى الغدر ومجانبة الوفاء، وكان رجل الفرصة السانحة، يلتمس إلى تحقيق أطّاعه الكبيرة أيّ الوسائل؛ منها ابتعدت عن المبادئ الأخلاقية المقررة ومقتضيات الفروسيّة والوفاء، كما ظهر ذلك من قبل في سيرته، وكما سيظهر من بعد في تصرّفاته ومعاملته للأئمة الأندلسيّة المغلوبة.

وكانت زوجة الملكة إيزابيلا تتمتع بكثير من الذكاء والعزم، وكانت تُثْبِت برقتها وتواضعها واحتشامها حب الشعب القشتالي وإعجابه؛ بيد أنها كانت تحجّيش بتنزعة صليبية عميقه تذهب كثيراً مذهب التّعصب الأعمى، وكانت تقع تحت تأثير الأحبّار المعصبيّن وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم، وكان مشروع القضاء على الإسلام في الأندلس يُذكى في نفس هذه الملكة الصليبية (التي تُنعت - أيضًا - بالكاثوليكيّة) أشنع ضروب التّعصب، ويحملها على مؤازرة ديوان التّحقيق الإسپاني، أو ما عُرِف خطأً بمحاكم التفتيش، فكانت تقرّ كل ما جنح إلى ارتکابه هذا الديوان من الجرائم باسم النصرانية.

وفي الوقت الذي استقر الملك فيه للملكيّن الكاثوليكيّين تحت راية إسبانيا الموحدة القويّة، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة من الحروب الأهليّة، وإهمال أميرها أبو الحسن علي بن سعد بن الأحرم لشئون دولته، وركونه إلى الراحة والدّعّة، وسعيه خلف ملاذه - إلى مرحلة خطيرة من الضعف والتمزق؛ لذلك فما أن استقر الأمر للملكيّن الكاثوليكيّين حتى أشهرا الحرب على المملكة الإسلاميّة؛ ليبدأ هذا الفصل المؤسّي من حياة المسلمين في الأندلس^(١).

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/١٨٠ - ١٨٥، بتصريف.

الحكماء السادس

الصراع في غرناطة^(١)

قبل السقوط بست وعشرين سنة تقريباً، وفي سنة (١٤٦٧هـ = ١٨٧١م) كان يحكم غرناطة في ذلك الوقت رجل يُدعى علي بن سعد بن محمد بن الأحمر، والذي كان يُلقب بالغالب على عادة ملوك الغرناطيين^(٢)، وكان له أحد الإخوة يُعرف بأبي عبد الله محمد الملقب بالزغل (الزغل يعني الشجاع)، فكان الأول غالب بالله، وكان الثاني زغلاً أو شجاعاً.

وكم حدث في عهد ملوك الطوائف اختلف هذان الأَخوان على الحكم، وبدأ يتصارعان على مملكة غرناطة الهزيلة الضعيفة، والمحاطة في الشمال بملك قشتالة وأragon النصريتين.

وكالعادة -أيضاً- استعان أبو عبد الله محمد الزغل بملك قشتالة في حرب أخيه

(١) ينبغي أن نسجل هنا شكرًا بالغاً للمجهود الرائع الذي بذله الأستاذ محمد عبد الله عنان في التاريخ لهذه الفترة، وهو يُعدُّ مصدرًا رئيسيًا لها، فهو الفترة تعانى ندرة في المصادر العربية، وقد بذل الأستاذ عنان جهداً مبكراً في جمع وتحليل الروايات القشتالية والإفرنجية المتاحة، كما قد ثُر على وثائق كثيرة في شكل مخطوطات عربية وإفرنجية في رحلاته لإسبانيا والمغرب، وغيرها من المدن الأندلسية القديمة والمغاربية أيضًا، ولا يكاد يخلو كتاب -أرَخ هذه الفترة بعده- من الاعتماد على ما أتى به.

(٢) كان محمد بن يوسف بن نصر مؤسس هذه الدولة بغرناطة يُلقب أيضًا بـ«الغالب بالله»، وهكذا كان أبو عبد الله محمد بن علي آخر ملوك غرناطة، والذي عُرف في التاريخ الإسباني من بعده بـ«الملك الصغير»، وكان يُلقب بـ«الغالب بالله»، ويُعلق الأستاذ محمد عبد الله عنان على ذلك بقوله، ٧/٢٨٨: «وهي شعار سائر ملوك غرناطة».

الغالب بالله، وقامت على إثر ذلك حرب بينهما، إلا أنها قد انتهت بالصلح، لكنهما - ويا للأسف - قد اصطلحَا على تقسيم غرناطة إلى جزء شمالي على رأسه الغالب بالله وهي الولاية الرئيسة، وجزء جنوبى وهي مالقة ومعها بعض الولايات الأخرى، وعلى رأسها أبو عبد الله محمد الرغل^(١).

وبعد هذا التقسيم بثلاثة أعوام، وفي سنة (١٤٧٤هـ = ١٤٧٤م) يحدث أمر غایة في الخطورة في بلاد الأندلس، فقد تزوج فرناندو الخامس ملك أراجون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة؛ وبذلك تكون الدولتان قد اصطلحتا معاً، وأنهتا صراعاً كان قد طال أمده، ولم يأتِ عام (١٤٧٩م) إلاً وكانت الملكتان قد توحدتا معاً في مملكة واحدة هي مملكة إسبانيا، وكانت هذه بداية النهاية لغرناطة.

غرناطة وصراع أسرى في ولاية الغالب بالله:

على الجانب الآخر كانت غرناطة في ذلك الوقت سنة (١٤٧٩هـ = ١٤٧٩م) منقسمة إلى شطرين؛ شطر مع الزغل، والآخر مع الغالب بالله، وفي هذه الأثناء حدث سيل عظيم في غرناطة، «ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ ملك الأمير أبي الحسن في التقهقر والانتكاس والانتفاخ؛ وذلك أنه اشتغل باللذات والانهياك في الشهوات واللهو بالنساء المطربات، وركن إلى الراحة والغفلات، وضيع الجندي وأسقط كثيراً من نجدة الفرسان، ونقل المغارم وكثير الضرائب في البلدان، ومكس الأأسواق ونهب الأموال، وشح بالعطاء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك، وكان للأمير أبي الحسن وزير يُوافقه على ذلك، ويظهر للناس الصلاح والعفاف، وهو يعكس ذلك... فمن جملة انهاكه أنه اصطفى على زوجته روميَّة اسمها ثريا، وهجر ابنة عمِه وأولادها منه... فبقيت الحال كذلك مدة والأمير مشتغل باللذات منهمك في الشهوات، وزيره يضبط المغارم ويقللها، ويجمع

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ١٩٤/٧.

الأموال و يأتي بها ، ويعطيها لمن لا يستحقها ، وينفعها عمن يستحقها ، ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان ، ويقطع عنهم المعروف والإحسان ، حتى باع الجنديا بهم وخيلهم وآلات حربهم ، وأكلوا أثاثها وقتل كثيراً من أهل الرأي والتدبر والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها ، ولم يزل الأمير مستمراً على حاله والجيش في نقص ، والملك في ضعف ، إلى أن انقضى الصلح الذي كان بينه وبين النصارى ، فلم يشعر بهم أحد حتى دخلوا مدينة الحمة ...»^(١).

كان السلطان الغرناطي قد ركز إلى الخلافات التي نشببت بين رؤساء النصارى ، وما وقع بينهم من حروب ؛ «بعضهم استقل بملك قرطبة وبعض بإشبيلية ، وبعض بشريش ، وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات ، وركن إلى الراحات ، وأضع الأجناد ، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورفض الجهاد ، والنظر في الملك ليقضي الله تعالى ما شاء ، وكثرت المغامرة والمظالم ، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكان - أيضاً - قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصارى لا يغزوون بعد البلاد ، ولا تنتهي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد ، وأتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب ، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون ، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد ، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد»^(٢).

كان الغالب بالله الذي يحكم غرناطة متزوجاً من امرأة تدعى عائشة ، وقد عرفت في التاريخ بعائشة الحرة ، وكانت له جارية نصرانية تُسمى ثريا قد فتن بها وغرق في عشقها^(٣) ، «فمن جملة إنها كه أنه اصطفى على زوجته روميَّة اسمها ثريا ، وهجر ابنة عمها وأولادها منه ، فأدرك ابنة عمها من الغيرة ما يدرك النساء على

(١) مجهول: بنية العصر ، ص ٤٥ - ٥٠.

(٢) المقري: نفح الطيب ، ٤ / ٥١٢ ، ٥١٢.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ، ٧ / ٢٠٠.

أزواجهن، وقع بينهما نزاع كثیر، وقام الأولاد محمد ويوسف مع أمهما، وغلظت العداوة بينهم، وكان الأمير أبو الحسن شديد الغضب والسيطرة؛ فكانت الأم تخاف على ولديها منه، فبقيت الحال كذلك مدة، والأمير مشغول باللذات منهمك في الشهوات... وفي هذا اليوم (٢٧ جمادى الأولى ٨٨٧هـ) بلغ الخبر لمن كان في لوحة أن ابني الأمير أبي الحسن محمدًا ويوسف هربا من القصبة خوفاً من أبيهما؛ وذلك أن شياطين الإنس صاروا يوسمون لأمهما ويخوّفونها عليهما من سطوة أبيهما، ويعودونها مع ما كان بينها وبين مملوكة أبيهما الرومية ثريا من الشحنة، فلم يزالوا يغوغونها حتى سمحت لهم بها، فاحتالت عليهما بالليل، وأخرجتها إليهم، وساروا بهما إلى وادي آش، فقام أهل وادي آش بدعوتها، ثم قامت غرناطة -أيضاً- بدعوتها، واشتعلت نار الفتنة ببلاد الأندلس، ووقعـت بينـهم حروب وكـوـائـن أعرضـنا عن ذكرـها لـقـبـحـها؛ لأنـ الـأـمـرـ آلـ بـيـنـهـمـ إـلـىـ أـنـ قـتـلـ الـوـالـدـ وـلـدـهـ، وـلـمـ تـزـلـ نـارـ الفتـنـةـ مشـتـعـلـةـ وـعـلـامـاتـهاـ قـائـمةـ فـيـ بـلـادـ الـأـنـدـلـسـ وـالـعـدـوـ دـمـرـهـ اللهـ -ـمـعـ ذـلـكـ كـلـهـ مشـتـغـلـ بـحـيـلـتـهـ فـيـ أـخـذـ الـأـنـدـلـسـ، إـلـىـ أـنـ سـاعـدـهـ الزـمـانـ وـوـافـقـتـهـ الـأـقـدـارـ^(١).

ويعرض لنا الأستاذ محمد عبد الله عنان هذا الأمر في أسلوب قصصي شائق مستعيناً فيه بالروايات العربية والقشتالية، فيقول: «تحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس ثمة -في تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية- شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة، التي تذكرنا خلالها البديعة وموافقها الباهرة، وشجاعتها المثلث إبان الخطوب المدحمة بما نقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والواقف... كانت عائشة الحرة ملكة غرناطة في ظل مُلك يختضر، ومجده يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيب... وكانت عائشة ترى من الطبيعي أن

(١) مجهول: نبذة العصر، ص ٤٦-٦٢، وانظر أيضاً: المقرى: نفح الطيب، ٤/٥١٢-٥١٤.

يئول الملك إلى ولدها، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع؛ ذلك أن السلطان أبو الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدعة، واسترسل في أهوائه وملاده، واقترب للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحُسْن، تعرفها الرواية الإسلامية باسم «ثريا» الرومية، وتقول الرواية الإسبانية: إن ثريا هذه واسمها النصراني إيسابيلا... فهام بها السلطان أبو الحسن، ولم يلبث أن تزوجها، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة، التي عُرفت عندئذ بـ«الحرة»؛ تميزاً لها عن الجارية الرومية، أو إشادة بظهورها ورُفيع خلالها... وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ، وأنقلته السنون، وغدا أداة سهلة في يد زوجه الفتية الحسناء، وكانت ثريا فضلاً عن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطماء، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصبية، التي تحوزها المملكة الإسلامية عملاً جديداً في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطيرة.

وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ؛ ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن خصيمتها عائشة ولدين؛ هما: سعد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحد هما، وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوظه، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولي العهد المرشح للعرش، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك على عقب الجارية النصرانية، ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها، وأقصى عائشة ولديها عن كل عطف ورعاية، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش أمنع أبراج الحمراء، وشدد في الحجر عليهم، وعوملوا بمتهمي الشدة والقسوة. فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء، الذين يؤثرون الأميرة

الشرعية ولديها بعطفهم وتأييدهم، وكان نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي، وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين؛ فريق يؤيد الأميرة الشرعية ولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيته، واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين، واضطربت الأهواء والشهوات والأحقاد، واستند السخط على أبي الحسن وحظيته التي أصبحت سيدة غرناطة الحقيقة، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ. وذهب ثريا في طغيانها إلى أبعد حدّ، فحضرت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبد الله عشرة أياماً. وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة، فلم تستسلم... بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج أقوى أمراء غرناطة، وأخذت تُدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة؛ ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قط. ويقال: إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء. ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن، قررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة، وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة (١٤٨٢هـ = ١٨٨٧م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف... وكان اسم عائشة ورفيع خلالها، وقصة فرارها الجريء تثير أيها عطف وإعجاب، وظهر ولدها الأمير الفتى أبو عبد الله محمد في وادي آش حيث جمع عصبيته وأنصاره، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة ولديها بعيداً عن غرناطة، يدافع النصارى عن أسوار لوشة، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة»^(١).

فرناندو الخامس واستغلال النزاع والفرقة:

حيال هذا الوضع الذي آل إليه حال المسلمين في الأندلس استغل فرناندو الخامس هذا الموقف جيداً لصالحه، وبدأ يهاجم حصون غرناطة؛ حيث كان يعلم أن

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١٩٦٧ - ٢٠١٢.

هناك خلافاً وشقاً كبيراً داخل البلد، فدارت المعارك بين المسلمين والقشتاليين على أكثر من جبهة، استطاع المسلمون الانتصار في بعضها، وانهزموا في البعض الآخر، وهذه المهزائم لم تكن لقوة عدوهم بقدر ما كانت للضعف الذي كان قد وصلت إليه مملكتهم، نتيجة لاستمراء أميرهم لحياة الدعة والراحة، أما الشعب فإنه كان متحفزاً للدفاع عن نفسه تحفزاً كبيراً، ثم تتابعت الأحداث، إذ قامت ثورة وضعت أبي عبد الله محمدًا في السلطة، وفرَّ أبوه إلى الزغل في مالقة، وهناك ومن مالقة كان الزغل يدفع النصارى عنها أشد دفاع، واستطاع -بعون الله- رد النصارى بعد هزائم شديدة مريرة، فقدوا فيها الكثير ومنهم بعض زعمائهم، كما فقدوا فيها الكثير من العُدد والآلات، فنشط أبو عبد الله هو الآخر لغزو النصارى، وغزاهم بالفعل واستطاع أن ينتصر عليهم... وأن يتوجل في بلادهم، وأثناء عودته من هناك محملاً بالغنائم، قطع عليه النصارى طريق عودته، ودارت بين الفريقين معركة قرب إلياسنة هُزم فيها المسلمون، وأُسر ملكهم أبو عبد الله محمد الصغير^(١).

وبعد أُسر الصغير عاد أبوه الزغل لحكم غرناطة، فأصبحت من جديد إمارة واحدة تحت حكم الزغل، غير أن المرض كان قد هدَّه وذهب ببصره؛ إذ أصيب بمرض شبه الصرع، وأصيب في بصره، وأصابه خدر في جسده، وعاقبه الله تعالى بأنواع من البلاء؛ فتنازل عن الملك لأخيه محمد بن سعد، وُحمل إلى مدينة المنكب فأقام بها حتى مات^(٢).

وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده، لا بياض الحب له

(١) مجهول: نبذة العصر، ص ٥٠-٦٧، والمكري: نفح الطيب، ٤/٤، ٥١٢-٥١٥، ومحمد عبد الله عtan: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٢٠١-٢٠٣، ومحمود علي مكي: التاريخ السياسي للأندلس ص ١٣٤، منشور في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمي الخضراء الجيوسي.

(٢) مجهول: نبذة العصر ص ٦٨، ٦٧، والمكري: نفح الطيب، ٤/٤، ٥١٥، ومحمد عبد الله عtan: دولة الإسلام في الأندلس ٧/٢٠٤.

والشفقة عليه، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن شره ومنافسته، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة، وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده، فأبى فرناندو، وأثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين، وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها، بمؤازرة الحزب الذي يناديه، وأرسلت إلى ملك قشتالة سفارية على رأسها الوزير ابن كماشة؛ ليفاوض في الإفراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاهما، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلي: أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجه إيزابيلا، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبيلا من الذهب، وأن يُفرج في الحال عن أربعيناء من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة يختارهم ملوكهم، ثم يطلق بعد ذلك كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام، وأن يُقدم أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه. وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبها بالإفراج عن أبي عبد الله فوراً، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه المدن متى تم فتحها، تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير»^(١).

الملك إيزابيلا والملك فرناندو

كان على الساحة الآن «الصغير» ومعه ولاية غرناطة، والزغل ومعه وادي آش، ثم ملك إسبانيا وتحت قبضته مالقة، واستكمالاً لآمال كان قد عقدها قديماً، وفي سنة ٨٩٥هـ = ١٤٩٠م انطلق ملك إسبانيا من مالقة إلى ألمرية على ساحل البحر المتوسط، واستولى على كل ما في طريقه إليها من مدن وحصون، ثم تم تسليم ألمرية

(١) محمد عبد الله عنان في دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٤، ٢٠٥.

له بعد ذلك، وقد دافع المسلمون عن مدنهم أشد دفاع وأسناد، ولكن فارق الإمكانيات لم يساعدهم، ولم يحل شيء دون وقوع المصير المحتوم^(١).

ثم منها توجه إلى وادي آش (التي هي في يد الزغل) فاستولى عليها، بعد أن رأى الزغل أنه قد أحاط به، وأنه ما عاد يستطيع الدفع عن بلاده، وبعد أن استنجد بمن استطاع الاستنجاد به من ملوك المسلمين^(٢).

كان الوضع الآن أن حوصلت مدينة غرناطة وكل قراها ومزارعها من كل مكان بجيوش النصارى، أحاطوها من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب، وكان كما قال رسول الله ﷺ: «يُوْشِكُ الْأَمْمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قُصْعَتِهَا». فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذ قال: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكُنُّكُمْ غُنَّاءٌ كَغُنَّاءِ السَّيْلِ، وَلَيُنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمُهَابَةُ مِنْكُمْ، وَلَيُقْذَفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ». فقال قائلٌ: يا رسول الله، وما الوهن. قال: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكُرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ»^(٣).

فقد تداعت ملوك النصارى حول مملكة غرناطة الصغيرة والضعيفة جدًا في ذلك الوقت، واستولى ملك إسبانيا (تشاتالا وأرجون متحدتين) على برجين: برج ملاحة غرناطة، وبرج قرية همان، وكانا برجين كبيرين حصينين، فزادهما تحصيناً وشحنهما بالرجال، وما يحتاج إليه من آلية الحرب؛ ليضيق على أهل غرناطة؛ لأنهم كانوا قريين منها، فضيق بذلك عليهم أشد الضيق.

وفي أول عام (٩٨٥هـ = ديسمبر ١٤٨٩م) وحسبما تشير بعض الوثائق، تم

(١) مجھول: نبذة العصر، ص ٩٨، والمقری: نفح الطیب، ٤/٥٢٢، ٢٢٧، ٢٢٦.

(٢) مجھول: نبذة العصر، ص ٩٩-١٠١، والمقری: نفح الطیب، ٤/٥٢٤، ٥٢٢، ٢٢٧/٧، ٢٢٨.

(٣) أبو داود: كتاب الملائم، باب في تداعي الأمم على أهل الإسلام (٤٢٩٧)، وقال الألباني: صحيح.

صلح جديد، «حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبي عبد الله نفسه في المحرم سنة ٨٩٥هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩)، وهي عبارة عن خطاب موجه منه إلى قادة وأشياخ بلدة أجيجر، وفيه ينوه أبو عبد الله بهذا (الصلح السعيد) المعقود لعامين، ويدعوه إلى الدخول فيه... وبالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصّلة، فإن بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبي عبد الله قد تعهد في هذا الصلح بأن يُسلّم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين، متى تم تسليم بسطة وألميرية ووادي آش. وعلى أي حال ففي فاتحة سنة ١٤٩٠م (أوائل صفر ٨٩٥هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبي عبد الله سفاره لتخاطبه في موضوع التسليم... ولم يطلب (ملك قشتالة) تسليم غرناطة ذاتها، ولكن طلب تسليم مدينة الحمراء مقر الملك والحكم.

فَمَاذَا كَانَ جَوابُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ؟

لقد كان في سابق موافقه ما يحمل الملكين الكاثوليكيين على توقع استسلامه وخضوعه، ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان؛ إذ أرسل إليهما القائد أبي القاسم الملحي برسالة (بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٤٩٠هـ = ٢٢ يناير سنة ١٤٩٠م)؛ وبالرغم من اللهجة المذهبة المقرونة بعبارات الخصوع والطاعة التي اختتمت بها الرسالة، فقد كان فحواها هو الرفض. لكن الملكان الكاثوليكيان أصرّا على طلبها، فاعترض أبو عبد الله أن يشهر عليهما الحرب، لو لا أن نصحه بعض الأكابر بالروبة والتريث. فأرسل وزيره يوسف بن كُماشة ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة، له علائق طيبة مع النصارى يدعى إبراهيم القيسي إلى الملكين الكاثوليكيين في إشبيلية؛ لإقناعهما بالعدول عن مطلبهما، ولكنهما عادا خائين، وعلى ذلك استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى.

وهذا نقف قليلاً لتأمل هذا الموقف الجديد من جانب أبي عبد الله؛ أجل كانت

الخطوب والمحن التي جازتها الأندلس في هذه الأعوام المليئة بالحوادث، قد جعلت من أبي عبد الله رجلاً آخر، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً، ويستشف من ورائها القدر المحظوم، وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوي، ولكنه فقد في الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة، وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهايًّا من أملاك مملكة قشتالة، وعيَّن لها حكام من النصارى، وتدرج من يبقى من أهلها، أو غدوا مرجِّنين يدينون بطاعة ملك النصارى، وذاعت بها الدعوة النصرانية، وارتدى كثير من المسلمين حرصاً على أوطانهم ومصالحهم، أو اتقاء الريب والمطاردة، ولكن كثيراً منهم من أسفقوا على أنفسهم ودينهم جازوا البحر إلى المغرب.

وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقي؛ حتى غدت الحاضرة ترتج بسكانها الجدد، وحتى أصبحت تضمُّ بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعين ألف نفس، وكانت موجة عامة من اليأس والنقطة تغمر هذه الآلوف، التي أوديت في الأوطان والأنس والولد والمال، دون أن تخني ذنباً أو جريمة، وكانت فكرة التسلیم للعدو الباغي أو مهادنته تلقى استنكاراً عاماً، ولم يكن أبو عبد الله يجهل هذا الاتجاه العام، فلما وفد إليه سفيراً ملكي قشتالية في طلب التسلیم، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجنِّي، وأدرك -وربما لأول مرة- فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعونته علىبني وطنه ودينه، ولما أصرَّ فرناندو على تخنيه جمع أبو عبد الله الكباء والقادة، فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهما، وأبلغ أبو عبد الله ملك قشتالة بأنه لم يَعُدْ له القول والفصل في هذا الأمر، وأن الشعب الغرناطي يأبى كل تسلیم أو مهادنة، ويُصَمِّم على المقاومة والدفاع. هكذا كان جواب أبي عبد الله ملكي قشتالة، وهكذا حمل الأمير الضعيف -بعزم

شعبه - من الاستكانة والمهادنة إلى التحدي والمقاومة»^(١).

وما أن علم ملك قشتالة بامتناع أبي عبد الله عن التسلیم ذهب إلى غرناطة، وحاصرها، فحاربه المسلمون وبرز إليه الأمير أبو عبد الله محمد، وصمد المسلمون في وجه الطاغية صموداً بطولياً رده -فضل الله- خائباً خاسراً إلى بلاده، وما أن ذهب حتى بدأ المسلمون بقيادة أبي عبد الله يغزوون البلاد النصرانية المحیطة، ويساعدون الشوار المسلمين في البلاد التي استولى عليها النصارى قريباً، وقد استطاعوا بالفعل الاستيلاء على عدد من الحصون والمدن القرية والمهمة، ثم عاد الطاغية لمحاصرة غرناطة، ورده الله دون أن ينال منها شيئاً، ورجع المسلمون لغزوتهم، وهكذا حتى جاءهم الطاغية محاصرًا للمرة الثالثة، وكله تصميم على لا يرحل هذه المرة عن غرناطة إلا بعد فتحها، ولعل أحد أسباب تصميمه هذا هو خوفه من هذا النشاط الذي ظهرت به غرناطة في فترتها الأخيرة، على أن غرناطة لم تستسلم لهذا الحصار، وعملت على كسره ضاربة بذلك أروع أمثلة البطولة والفروسية، بل كانت سرايا المسلمين تخرج للعيث في البلاد النصرانية القرية^(٢).



(١) مجهول: نبذة العصر، ص ١٠٣، ١٠٢، والمقرى: فتح الطيب، ٤ / ٥٢٣، ٥٢٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧ / ٢٢٩ - ٢٣٢، ونقلنا عن هذا المصدر الأخير باختصار.

(٢) مجهول: نبذة العصر، ص ١٠٣ - ١١٧، والمقرى: فتح الطيب، ٤ / ٥٢٣، ٥٢٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧ / ٢٣٢ - ٢٣٦.

الفصل السادس

حركة الجهاد قبيل سقوط غرناطة



برز في هذا الحصار الأخير داخل غرناطة حركة جهادية بارزة على رأسها رجل يُسمى موسى بن أبي غسان، فكان أن حركَ الجهاد في قلوب الناس، وبدأ يُجْمِسُهم على الموت في سبيل الله، وعلى الدفاع عن بلدهم وهويتهم، فاستجاب له الشعب وتحرك للدفاع عن غرناطة^(١).

وطيلة سبعة أشهر كاملة ظل أصحاب الانتفاضة في دفاعهم عن حصون غرناطة ضد الهجمات النصرانية الشرسة، وإليك طرفاً من هذا الصمود يحكيه الفارس المعاصر صاحب كتاب نبذة العصر:

«رجع ملك قشتالة إلى فحص غرناطة، ونزل بمحلته بقرية عتقة، ثم شرع في البناء، فبني هنالك سوراً كبيراً في أيام قلائل، وصار يهدم القرى، ويأخذ ما فيها من

(١) يقول الأستاذ عنان: «لم نعثر في المصادر العربية التي بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله؛ ومرجعنا في ذلك هو المؤرخ الإسباني كوندي، الذي يقول: إنه نقل روايته عن مصادر عربية. ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر، وأشار الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني - في رحلاته - إلى من يُدعى (موسى أخا السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة) (رحلة الوزير المشورة بعنابة معهد فرانكوني ص ١٣)... وقصة موسى تشغل حيزاً كبيراً في الروايات الإسبانية... ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى وفروسيته لا على أنها محققة من الناحية التاريخية، ولكن لأنها تقدم لنا صوراً رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهما وأخر قواعدهم». انتهى كلام الأستاذ عنان دولة الإسلام في الأندلس (هامش) ٢٣٧/٧. والحقيقة أنها لا تتوقع أن تزد المدارس الإسبانية شخصية إسلامية تقدّم دفاعاً رائعاً عن غرناطة، بل الأقرب إلى التوقع أن تزد حركة صحوة ودفاع وجihad قبيل فترة السقوط، وهي الحركة التي تُعدُّ من طابع الناس جميعاً، ولا شك أن ندرة المصادر العربية عن هذه الفترة تمثل عنصراً سليماً في مثل هذه اللحظات التاريخية، فلا نجد -ملء الفراغ- إلا أن نستنطق الروايات الأخرى ونستخدم التوقيع والترجيح.

آلـة الـبـنـاء، ويجـعـلـه عـلـى العـجـلـ، ويـحـمـلـه إـلـى ذـلـك الـبـلـد الـذـي بـنـاهـ، ويـبـنـيـهـ، وـهـوـ مـعـ ذـلـك يـقـاتـلـ الـمـسـلـمـينـ وـيـقـاتـلـونـهـ قـتـالـاً شـدـيـداًـ، وـحـارـبـ مـلـكـ الرـومـ -أـيـضاًـ أـبـرـاجـ الـقـرـىـ الدـائـرـةـ بـغـرـنـاطـةـ وـأـخـذـهـاـ، وـلـمـ يـبـقـ إـلـاـ قـرـيـةـ الـفـخـارـ، فـلـمـ يـزـلـ يـلـحـ عـلـيـهاـ وـيـجـلـبـ عـلـيـهاـ بـخـيـلـهـ وـرـجـلـهـ، وـيـطـمـعـ أـنـ يـجـدـ فـرـصـةـ فـلـمـ يـقـدـرـ عـلـىـ شـيـءـ، حـتـىـ قـتـلـ لـهـ عـلـيـهاـ خـلـقـ كـثـيرـ مـنـ الرـومـ، وـوـقـعـتـ عـلـيـهـاـ مـلاـحـمـ كـثـيرـةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـينـ وـالـنـصـارـىـ؛ـ لـأـنـ الـمـسـلـمـينـ كـانـوـاـ يـلـحـوـنـ عـلـىـ حـمـاـيـتـهـاـ خـوـفـاًـ مـنـ أـنـ يـمـلـكـهـاـ الرـومـ؛ـ فـتـكـونـ سـبـبـاًـ فـيـ إـخـلـاءـ قـرـىـ الـجـبـلـ وـحـصـارـ الـبـلـدـ، فـلـمـ يـزـالـواـ يـدـافـعـونـ عـنـهـاـ وـيـقـاتـلـونـ مـنـ قـصـدـهـاـ؛ـ حـتـىـ قـصـرـ عـنـهـاـ الـعـدـوـ؛ـ لـكـثـرـةـ مـاـ قـتـلـ لـهـ عـلـيـهاـ مـنـ خـيـلـ وـرـجـالـ.

وـلـمـ تـزـلـ الـحـرـبـ مـتـصـلـةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـينـ وـالـنـصـارـىـ كـلـ يـوـمـ؛ـ تـارـةـ فـيـ أـرـضـ الـفـخـارـ، وـتـارـةـ فـيـ أـرـضـ بـلـيـانـةـ، وـتـارـةـ فـيـ أـرـضـ رـسـانـةـ، وـتـارـةـ فـيـ أـرـضـ طـفـيـرـ، وـتـارـةـ فـيـ أـرـضـ يـعـمـورـ، وـتـارـةـ فـيـ أـرـضـ الـجـدـوـيـ، وـتـارـةـ فـيـ أـرـضـ رـمـلـةـ أـفـلـومـ، وـتـارـةـ فـيـ أـرـضـ الرـبـيـطـ، وـتـارـةـ وـادـيـ مـنـتـشـلـ، وـغـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـمـوـاضـعـ الـتـيـ عـلـىـ غـرـنـاطـةـ، وـفـيـ كـلـ مـلـحـمـةـ مـنـ هـذـهـ الـمـلاـحـمـ يـشـخـنـ كـثـيرـ مـنـ أـنـجـادـ الـفـرـسـانـ بـالـجـراـحـاتـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ، وـيـسـتـشـهـدـ آخـرـونـ، وـمـنـ الـنـصـارـىـ أـضـعـافـ ذـلـكـ، وـالـمـسـلـمـونـ فـوـقـ ذـلـكـ صـابـرـونـ مـحـتـسـبـونـ، وـاـثـقـونـ بـنـصـرـ اللـهـ تـعـالـىـ، يـقـاتـلـونـ عـدـوـهـمـ بـنـيـةـ صـادـقـةـ وـقـلـوبـ صـافـيـةـ، وـمـعـ ذـلـكـ يـمـشـيـ مـنـهـمـ الـرـجـالـ فـيـ ظـلـامـ الـلـيـلـ لـمـحـلـةـ الـنـصـارـىـ، وـيـتـعـرـضـونـ لـهـمـ فـيـ الـطـرـقـاتـ، فـيـغـنـمـونـ مـاـ وـجـدـوـاـ مـنـ خـيـلـ وـبـغـالـ وـحـمـيرـ وـبـقـرـ وـغـنـمـ وـرـجـالـ، وـغـيرـ ذـلـكـ حـتـىـ صـارـ الـلـحـمـ بـالـبـلـدـ مـنـ كـثـرـتـهـ:ـ رـطـلـ بـدـرـهـ.

وـمـعـ ذـلـكـ لـمـ تـزـلـ الـحـرـبـ مـتـصـلـةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـينـ وـالـنـصـارـىـ، وـالـقـتـلـ وـالـجـراـحـاتـ فـاـشـيـانـ فـيـ الـفـرـيقـيـنـ سـبـعـةـ أـشـهـرـ، إـلـىـ أـنـ فـنـيـتـ خـيـلـ الـمـسـلـمـينـ بـالـقـتـلـ، وـلـمـ يـبـقـ مـنـهـاـ إـلـاـ القـلـيلـ، وـفـنـيـ -أـيـضاًـ كـثـيرـ مـنـ نـجـدـةـ الـرـجـالـ بـالـقـتـلـ وـالـجـراـحـاتـ^(۱).

(۱) مـجـهـولـ:ـ بـنـةـ الـعـصـرـ صـ ۱۱۷ـ وـمـاـ بـعـدـهـ.

إلا أن البسالة وحدها لا تكفي في ظل وضع كهذا؛ إذ المسلمين محاصرون داخل المدينة ولا يمكنهم الحصول على الإمدادات، فيما النصاري يحاصرونهم من الخارج، وخطوط الإمدادات مفتوحة من بلادهم، ولا سيما أن الحرب دفعت بكثير من الغرناطيين إلى الخروج من البلدة، بما انتهتها من الخوف والفزع، وتبعات الحرب المتواصلة، فظلت غرناطة تضعف شيئاً فشيئاً، ثم لما دخل فصل الشتاء ونزلت الثلوج أصابت طريق البشرة -الذي كانت الأطعمة تأتي عبره إلى غرناطة- فقل الطعام عند ذلك في أسواق المسلمين في غرناطة، واشتد الغلاء وأدرك الجوع كثيراً من الناس وكثير السؤال.

وهنا لم يكن أمام الغرناطيين إلا التسليم بالأمان، فذهب جمع منهم إلى ملكهم محمد؛ طالبين منه أن يفاوض ملك قشتالة على التسليم بالأمان، وقد أورد صاحب نبذة العصر ما يُفيد بأن التسليم كان رغبة قائمة في نفس محمد الصغير من قبل، إلا أنه خاف من العامة، فكان يُراسل ملك قشتالة سراً، ولهذا قطع ملك قشتالة الحرب فترة، وبقي على ما هو فيه من الحصار والتشديد، متظراً جهود محمد الصغير في إقناع العامة بالتسليم بالأمان، فلما أثمرت جهوده مع العامة، وذهب وفدهم إليه، سارع مستجبياً لهم، ثم سارع مرسلاً وزراءه إلى ملك قشتالة، الذي سارع بدوره بالقبول^(١).

ونحن نذهب إلى قبول هذه الرواية وترجيحها، لا سيما وأن سيرة ملك غرناطة وطبيعة وزرائه تدفعنا لإسائة الظن بهم، ثم وجدها الأستاذ محمد عبد الله عنان يوافق هذه الرواية -بعدما كان يرتاب فيها- لما ظهر من وثائق فيما بعد؛ أفادت بأن مساعي كانت تبذل في الخفاء لتحقيق ما يمكن من الضمانات والمغانم الخاصة لأبي عبد الله وأسرته ووزرائه، فعقدت معااهدة سرية منح فيها أبو عبد الله وأفراد أسرته ووزرائه منحاً خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها، هذا بخلاف الأموال التي

(١) مجهول: نبذة العصر ص ١٢١ وما بعدها.

كانوا يملكونها وتصرفو فيها بالبيع، منذ بدأت الحوادث تتوجه في غرناطة^(١).

واستقرَّ الأمر على تسليم غرناطة بالأمان، يروي المقرري فيقول: «ثم عدداً مطالب وشروطًا، أرادوها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش؛ منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والخصوص، ويختلف على عادة النصارى في العهود... وكانت الشروط سبعة وستين؛ منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعتهم وعقاراتهم، ومنها: إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشرعيتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبو أحدًا، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي من يتولى عليهم من قبل سلطانهم... وأن يفتک جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعيناً نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان، لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر ما لهم والكرياء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهرون من أسلم على الرجوع للنصارى ودينتهم، وأن مَنْ تَنَصَّرَ من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله، ويحضر له حاكم من المسلمين وأخر من النصارى، فإن أبي الرجوع إلى الإسلام تمادي على ما أراد، ولا يعاتب على مَنْ قُتل نصراً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراً على السور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسيير المسلم في بلاد

النصارى آمناً في نفسه وماليه، ولا يجعل علامه كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٌ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويوضع خط يده، وأمثال هذا ما تركنا ذكره^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَحْمِلُنِي وَكُلُّهُ لِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَرْأَى

في رد فعل طبيعي وصريح له حيال ما حدث وقف موسى بن أبي غسان رحمه الله في قصر الحمراء وقال: لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنا إلى شهامة ملِكِهم؛ إن الموت أقل ما تخشى (يريد أن هناك ما هو أصعب من الموت)؛ فأمامنا نهب مدينتنا وتدميرها، وتدينيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجحور الفاحش والتعصب الوحشي، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله! لن أراه^(٢).

يريد موسى بن أبي غسان أنه لن يرى كل هذا الذل، الذي سيحل بالبلاد جراء هذا التخاذل والتقاعس، وأنه اختار الموت الشريف، ثم غادر المجلس وذهب إلى بيته وليس سلاحه وامتنع جواده.

وانطلق يقابل سرية من سرايا النصارى، وبمفرده يقابل موسى بن أبي غسان خمس عشرة رجلاً من النصارى، فيقتل معظمهم، ثم يُقتل هو في سبيل الله رحمه الله^(٣).

(١) المcri: نفح الطيب، ٤ / ٥٢٤-٥٢٧، وانظر: مجهول نبذة العصر ص ١١٩ وما بعدها، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٤٥ / ٥ وما بعدها.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٥٤ / ٧، ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق، ٧ / ٢٥٥، ٢٥٦، وتنهي المصادر القشتالية حياة موسى بأنه اتحرر، ونحن نستبعد هذا الاختهار في سيرة مجاهد كهذه السيرة.

الفصل الثامن

ـ قوط غرناطة



كان مقتل موسى بن أبي غسان وتسليم ابن الأحمر الصغير غرناطة إيذاناً بانتهاء عصر الدولة الإسلامية في مملكة غرناطة.

أعطى أبو عبد الله محمد الصغير الموافقة بالتسليم للملكيين فرناندو الخامس وإيزابيلا، ولم ينسَ أن يرسل إليهما بعضاً من الهدايا الخاصة^(١)، وبعد التسليم بأيام يدخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى، ويُعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكيين الكاثوليكين^(٢)، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس.

وفي نكسة كبيرة وفي ظلّ الذل والصغار يخرج أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير من القصر الملكي، ويسيير بعيداً في اتجاه بلدة أندرش^(٣)، حتى وصل إلى ربوة عالية تطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه، وإلى ذاك المجد الذي قد ولّ، وبحزن وأسى قد تبدّى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتهملك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له أمه «عائشة الحرة»: أجل؛ فلتبك كالنساء

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٢٥٧.

(٢) المصدر السابق، ٧/٢٦٠.

(٣) وهي البلدة التي كان قد قرر الإقامة فيها، أو أراد له فرناندو ذلك، انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٢٦٤.

مُلْكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال^(١).

وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل -الذي وقف عليه أبو عبد الله محمد الصغير - موجوداً في إسبانيا، وما زال الناس يذهبون إليه، يتأملون موضع هذا الملك الذي أضاع مُلْكًا أَسَسَهُ الأجداد، ويعرف (هذا التل) بـ «زفة العربي الأخيرة»، وهو بكاء أبي عبد الله محمد الصغير حين ترك ملكه^(٢).

وقد تم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، سنة ٨٩٧هـ = ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م^(٣).

وقد هاجر بعدها أبو عبد الله محمد الصغير إلى بلاد المغرب، ويدرك المقربي أنه استقر بفاس، وبنى بها قصوراً على طراز الأندلس، وأن المقربي نفسه قد تجوّل في هذه القصور، ورأى ذريته في فاس سنة (١٠٢٧م) يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعذبون من جملة الشحاذين^(٤).

فلعنة الله على هذا الذل! ولعنة الله على هذا الترك للجهاد! اللذين يوصلان إلى هذا المثوى وتلك المنزلة.

وما كان من أمر، فقد اندثرت حضارة ما عرفت أوروبا مثلها من قبل؛ إنها حضارة الدنيا والدين، وقد انطوت صفحة عريضة خسر العالم أجمع بسببها الكثير والكثير، وقد ارتفع علم النصرانية فوق صرح الإسلام المغلوب، وأفل وإلى الآن نجم دولة الإسلام في بلاد الأندلس.

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢٦٧/٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٢٦٧/٧.

(٣) نبذة العصر، ص ١٢٥، والمقربي: نفح الطيب، ٤/٥٢٥، و محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢٥٨-٢٦٧/٧.

(٤) المقربي: نفح الطيب، ٤/٥٢٩.

ولیت شعری، این موسی بن نصیر؟!

أين طارق بن زياد؟!

أين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر؟!

أين المنصور بن أبي عامر؟

أین یوسف بن تاشفین؟!

أين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟!

أين يعقوب المنصور المُوحدي؟!

أين يعقوب المنصور المريني؟!

أين كل هؤلاء؟

غابوا وانقطعت آثارهم وإمداداتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

سقوط وضياع غرناطة.. العوامل والأسباب:

كانت عوامل انحدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حدٍ كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه العوامل نفسها قد زادت وبشدة في فترة غرناطة؛ ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسماً؛ وكان من هذه العوامل ما يلي:

العامل الآخر

كان الإغراء في الترف، والرکون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة والميوعة، هي أولى العوامل التي أدّت إلى تلك النهاية المؤلمة، وقد ارتبطت كثيراً فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في المللذات، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والانحطاط الكبير في الأهداف؛ قال تعالى: ﴿رَأَكُمْ فَسَهَّلْنَا بِإِيمَانِ قُرْبَةٍ كَائِنَةَ شَاهِلَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا فِي مَا أَخْرَجْنَا هُنَّا أَحْسَنُوا بِأَنَّسَنَا إِذَا هُمْ سَنَّا بِإِيمَانِ كُفَّارِنَا لَا تَقْرَبُنَا إِنَّمَا أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنياء: ١١-١٣].

وهكذا يا أهل غرناطة، أين ستذهبون؟ وإلى أين ستركضون؟ ارجعوا إلى قصر الحمراء، وارجعوا إلى مساكنكم وما أترفتم فيه، وسلموا هذه البلاد إلى النصارى، وتذوقوا الذلة كما لم تعملا للعزّة وللكرامة!

العامل الثاني:

ترك الجهاد في سبيل الله، وهو أمر ملازم لمن أغرق في الترف؛ فالجهاد سنة ماضية إلى يوم القيمة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمين في عزة ويموتون في عزة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة وينخلدون فيها.

وإن الناظر إلى عهد الأندلس ليتساءل: أين أولئك الذين كانوا يجاهدون في حياتهم مرة أو مرتين كل عام، وبصفة مستمرة ودائمة؟! أين يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين الحاجب المنصور؟ وأين عبد الرحمن الناصر وغيرهم؟

وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى ملوك غرناطة، ومنْ كان على شاكلتهم حين ذُلوا وأهينوا لما تركوا الجهاد في سبيل الله؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَاقْلُتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَأْتُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبه: ٣٩ - ٣٨].

وقد يظن البعض أنه يجب على الملتزمين بالمنهج الإسلامي أن يضحيوا بأرواحهم، ويظلوا يعيشون حياة الضنك والتعب والألم في الدنيا؛ وذلك حتى يصلوا إلى الآخرة، وإنحقيقة الأمر على عكس ذلك تماماً؛ إذ لو عاش المسلمون الملتزمون بمنهج الإسلام على الجهاد لعاشوا في عزة ومجده، وفي سلطان ومُلك من الدنيا عريض، ثم لهم في الآخرة الجنة خالدين فيها بإذن الله.

يتبع العاملين السابقين عامل الإسراف في المعاصي؛ فجيش المسلمين لا يُنصر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى.

فإذا بُعد المسلمون عن دين ربهم، وإذا هجروا نهج رسولهم ﷺ كُتب عليهم الهمكة والذلة والصغار، يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ وَخَلْقَتُمُوهُمْ، فَلَمَّا تَعْمَلُوا مَا شَاءَتُمْ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَهْلِكُهُ»^(١).

وإذا كان هذا حال محقرات الذنوب، تلك التي يستحقها العبد من فرط هوانها، فلا تزال تجتمع عليه حتى تملأه، فما البال وما الخطب بكبائر الذنوب من ترك الصلاة، والزنا، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسب واللعنة، وأكل المال الحرام، فأي نصر يُرجى ويتوّقع بعد هذا؟!

كانت هذه هي أهم عوامل السقوط في دولة الأندلس، وهناك غيرها الكثير مثل:

- الفرقّة والتشرذم.

- موالة النصارى واليهود والمرشّكين:

وقد قال ﷺ: «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَسْبِحَ مُلْتَهِمُ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ أَهْدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [البقرة: ١٢٠].

وقال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُونَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا زَمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» [التوبه: ١٠].

وقال ﷺ: «إِنَّمَا أَكْبِرُ الْمُجْرِمِينَ لَا تَنْهَاهُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَفْرِيَاءَ يَعْضُلُونَ

(١) أحمد (٣٨١٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيرة. والطبراني: المعجم الكبير ٤٤٩ / ٥، والبيهقي: شعب الإيمان (١٧٠)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٦٨٧).

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ إِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [المائدة: ٥١]. وأيات غيرها كثيرة.

- توسيد الأمر لغير أهله:

وكان ذلك واضحاً جدًا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور المودي، وأيضاً ولاية جميع أبناء الأحمر في ولاية غرناطة.

- الجهل بالدين:

وقد وضح جيداً قيمة العلم والعلماء في زمن عبد الله بن ياسين، وزمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وما حدث في عهدهما من قوّة بعد هذا العلم، ووضح - أيضاً - أثر الجهل في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحدين، حيث انتشر الجهل بين الناس، وسادت بينهم آراء ومعتقدات غريبة وعجيبة، كان من ذلك - أيضاً - ما حدث من الجهل بأمر الشورى، وهو أصل من الأصول التي يجب أن يحكم بها المسلمون، وكيف اعتذروا بآرائهم، وكيف قبل الناس ذلك منهم؟!

ومثل ما كان من غزو محمد بن الأحمر الأول لإشبيلية، وقد تبعه الناس في ذلك؛ ظنناً منهم أنهم على صواب، وأنهم أصحاب رسالة وفضيلة، وأيُّ جهل بالدين أكثر من هذا؟!

* * *

الفصل الناجع

مصير المسلمين بعد سقوط غرناطة

كالعادة ولطبيعة جبلىت نفوسهم عليها - بعد أن ترك أبو عبد الله محمد الصغير البلاد - لم يوف النصارى بعهودهم مع المسلمين، بل تنكروا الكلامهم والتزامهم بالحفظ على الحريات الدينية في غرناطة، وحماية الأماكن المقدسة للمسلمين، وما إلى ذلك مما ورد في شروط تسليم المدينة، فقد أهانوا المسلمين بشدة، وصادروا أموالهم؛ وكان ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهِرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيمُّ إِلَّا وَلَا ذَمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثُرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبه: ٨].

وبعد تسع سنوات من سقوط غرناطة، وفي سنة (١٠٥١م) أصدر الملكان فرناندو الخامس وإيزابيلا أمراً كان خلاصته أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفارة (المسلمين)، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، فإذا كان بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم؛ خوفاً من أن يتآخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين تنصر وتألأً يفسدوا إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت أو بمصادرة الأموال^(١).

ومن هذا المنطلق قام النصارى بعدة أمور؛ كان منها:

أولاً: التنصير:

ولكي يعيش آخرون في بلاد الأندلس في ظل حكم النصارى الإسبان، تَنَصَّر

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٣٢٤.

من المسلمين بعضهم^(١)، وهؤلاء لم يرتضى لهم النصارى الإسبان حتى بالنصرانية، فلم يتركوهم دون إهانة، وقد سموهم بالمورسكيين؛ احتقاراً لهم، وتصغيراً من شأنهم، فلم يكن المورسكي نصرانياً من الدرجة الأولى؛ لكنه كان تصغيراً لهذا النصراني الأصيل^(٢):

وقد نقل إلينا الدون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية؛ تضمنت طائفه من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين في تهمة الكفر والمرopic، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة:

«يعتبر الموريسكي أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال: إن يسوع المسيح ليس إلهًا، وليس إلا رسولًا. أو أنَّ صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراوي أن يُيلِّغَ عن ذلك، ويجب عليه - أيضًا - أن يُيلِّغَ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدًا من الموريسكيين يُباشر بعض العادات الإسلامية؛ ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يختلف يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلًا باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده، أو يسميهم بأسماء عربية، أو يُعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة، أو يقول: يجب ألا يعتقد إلا في الله وفي رسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان، ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر -السحور- أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاه؛ بأن يُوجَّه وجهه نحو الشرق، ويركع

(١) انظر : نبذة العصر ، ص ١٣٠ ، والقى : نفح الطيب ، ٤ / ٥٢٧

(٢) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٤٥، ٧/٧.

ويسجد، ويتلوا سوراً من القرآن، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية، أو ينشد الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب - الحناء - في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخامس، أو يلمس بيده على رءوس أولاده أو غيرهم؛ تفيذاً لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكتفون بهم في أثواب جديدة، أو يدفنون في أرض بكرٍ، أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة واصفاً إياه بالنبي ورسول الله، أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله، أو يقول: إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله؛ لأنهم ماتوا مسلمين... إلخ^(١).

ثانياً: التهجير:

لم تخل البلاد الإسلامية من ثورات شعبية ومواجهات محدودة الإمكانيات بمنطق «حرب العصابات»، وكان المجاهدون يختبئون في الجبال والأودية والمناطق البعيدة، ثم يشنون غاراتهم على القوات الإسبانية، وقد نجحوا كثيراً في إنزال خسائر مؤثرة بالإسبان، وقد اشتدت هذه الحركات لا سيما بعد قرار التنصير الذي اعتمدته إسبانيا، فزاد عدد الثائرين والمنهازين للمجاهدين، وقد عزم الإسبان في البداية على القضاء على الثوار، إلا أنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً، فلما يئسوا من القضاء عليهم، أصدروا عفواً عاماً عنهم، وسمحوا لهم بالهجرة إلى بلاد المغرب، دون أن يأخذوا معهم غير الثياب التي كانت عليهم، أما الباقيون فقد كان ثمة أمر ملكي بمنع الهجرة، ثم صدر الأمر بعد ذلك عام (١٦٠٩م) - أي بعد مائة سنة تقريباً - بنفي الموريسيكيين^(٢).

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣٤٦ / ٧.

(٢) مجهول: بذلة العصر، ص ١٣٢، والمقربي: فتح الطيب، ٤، ٥٢٨، ٥٢٧ / ٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣٤٥ / ٧.

ثالثاً:محاكم التفتيش وأهوال تشيب لها الولدان:

هدف الإسبان إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للMuslimين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمين عقائد النصارى ودينهم المنحرف، وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقدسية، وبدأ القتل فيهم، وجاهد المسلمين ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمُرّضوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة^(١).

لم يقف الأمر عند حد التهجير والتنصير، وإنما أعقب ذلك أن قام الكردينال الإسباني كمينس -وكان صليبياً حاذداً- بحرق ثمانين ألف كتاب جُمعت من غرناطة وأرباضها في يوم واحد^(٢).

ثم أنشأ الإسبان بعد ذلك ما سُمي في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادعوانصرانية وأخفوا الإسلام، فكانوا إذا وجدوا رجلاً يدعىنصرانية ويُخفي إسلامه، كان يجدوا في بيته مصحفاً، أو يجدوه يُصلّي، أو كان لا يشرب خمراً، أقاموا عليه الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم في السجون، ويعذبونهم عذاباً لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون في أجسادهم أسياخاً محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بالآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل، ويفسخون الفك، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المذنب تدريجياً، وأيضاً أحواض يُقيَّد فيها الرجل، ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت،

(١) على الصالبي: دولة الموحدين، ص ٢٠٩.

(٢) شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، ص ٩٨، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣١٦ / ٧.

وكانوا -أيضاً- يقومون بدفعهم أحياً، ويجلدو نفسياتهم ببساطة من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بالآلات خاصة.

كل هذه الآلات الفتاكية وغيرها شاهدها جنود نابليون حين فتحوا إسبانيا بعد ذلك، وقد صوروها في كتاباتهم، وعبروا عن شناعتها بأنهم كانوا يصايبون بالغثيان والقيء، بل والإغماء من مجرد تخيل أن هذه الآلات كان يُعذّب بها بشر، وقد كان يُعذّب بها مسلمون، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ^(١).

وما يُذكر.. أن هناك عذاباً اختص به النساء العنيفات اللائي كن يستمنن رجال المحكمة؛ وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور، يضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها في جللها، وتظهر لم يراها عن كثب كأنما هي جنّية، لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجنّ، أو تموت جوعاً ورغعاً ^(٢).

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقوها في قلبه وفي خفيته من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين! وكم فيها من الضعفاء والمعدورين! لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصليبان، ويستجدون للأوثان، ويفأكلون الخنزير والميتات،

(١) شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، ص ١٠٩-١١٣.

(٢) علي مظهر: محاكم التفتيش، ص ٩٨.

ويشربون الخمر التي هي ألم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيبهم، ومنْ فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرَها! ومصيبة ما أعظمها! وطامة ما أكبرها!^(١).

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين؛ حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان، فإذا علم أن رجلاً أغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لا بسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام، لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين؛ حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونًا، أو كان أحد عائلته كذلك؛ فيعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته^(٢).

وكان دستور ديوان التحقيق (الاسم الرسمي لمحاكم التفتيش) يحيز محاكمة الموتى والغائبين، وتصدر الأحكام في حقهم، وتوقع العقوبات عليهم كالأخباء، فتصادر أموالهم، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو نبش قبورهم وتستخرج رفاتهم؛ لترحق في موكب «الأوتودافى»، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده، فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتياز بعض المهن الخاصة^(٣).

وبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى إسبانيا وأصدر مرسوماً سنة (١٨٠٨ م) بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية.

ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل

(١) مجهول: نبذة العصر، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) الصلاي: دولة الموحدين، ص ٢١١.

(٣) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/٣٣٨.

إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية؛ كتب الكولونيل ليموتسيكي أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: «كنت سنة ١٨٠٩ م ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة، وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء دواعين التفتيش في المملكة الإسبانية، غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ».

وصمم الرهبان الجزوiet أصحاب الديوان الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقاماً من القرار الصادر، وإلقاء للرعب في قلوب الفرنسيين؛ حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي أجتاز شارعاً يقل المرور فيه من شوارع مدريد؛ إذ باثنين مسلحين قد هجمَا عليّ؛ يعييان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً، ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة، وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح، وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام، فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذوا بالهرب، وتبين من ملابسهما أنها من جنود ديوان التفتيش، فأسرع إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النهاية وقال: لا شك بأن من يُقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم، والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع، وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة..».

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عنوة، ثم يتبع قائلاً: «أصدرت الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً وعلى جنودهم الحراس توطة لتقديمهم إلى مجلس عسكري، ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراسٍ هزار، وسجاجيد فارسية، وصور ومكاتب كبيرة، وقد صنعت أرض هذه الغرفة من

الخشب المصقول المدهون بالشمع، وكان شذى العطر يعيق أرجاء الغرف، فتبعدوا الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة، التي لا يسكنها إلا ملوك قصرروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أن تلك الروائح المعطرة تنبعت من شمع، يوقد أمام صور الرهبان، ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سدى، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها، فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش، فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون و يؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهّماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكّد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت، وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن الفتانت «دي ليل» استمهلني قائلاً: أيسْمَح لي الكولونيَّلْ أَنْ أُخْبِرَهُ أَنْ مَهْمَتَنَا لَمْ تَنْتَهِ حَتَّى الْآنْ؟! قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريضاً؛ فهذا تزيد يا لفتانت؟! قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف؛ فإن قلبي يحذّنني بأن السرّ تختها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة - وكنا نرقب الماء - فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفع الضابط «دي ليل» من شدة فرحة، وقال: ها هو الباب، انظروا. فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرن الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.



وُفْحَ الْبَابِ، فَظَهَرَ لَنَا سَلْمٌ يَؤْدِي إِلَى بَاطِنِ الْأَرْضِ، فَأَسْرَعْتُ إِلَى شَمْعَةٍ كَبِيرَةٍ يَزِيدُ طُولُهَا عَلَى مَتْرٍ، كَانَتْ تَضِيءُ أَمَامَ صُورَةِ أَحَدِ رُؤْسَاءِ مَحاكمِ التَّفْتِيشِ السَّابِقِينَ، وَلَا هَمَّتْ بِالنَّزْوَلِ، وَضَعَ رَاهِبٌ يَسُوعِي يَدِهِ عَلَى كَتْفَيِ مُتَلَطِّفًا، وَقَالَ لِي: يَا بْنِي؛ لَا تَحْمِلْ هَذِهِ الشَّمْعَةَ بِيَدِكَ الْمُلْوَثَةَ بِدَمِ الْقَتَالِ، إِنَّهَا شَمْعَةٌ مَقْدَسَةٌ.

قَلْتُ لَهُ: يَا هَذَا؛ إِنَّهُ لَا يَلِيقُ بِيَدِي أَنْ تَنْجُسَ بِلَمْسِ شَمْعَتِكُمُ الْمَلَطَخَةَ بِدَمِ الْأَبْرِيَاءِ، وَسَنَرِي مِنَ النَّجْسِ فِينَا، وَمِنَ الْقَاتِلِ السَّفَاكِ؟!

وَهَبَطَتْ عَلَى درَجِ السَّلْمِ يَتَبَعَّنِي سَائِرُ الضِّبَاطِ وَالْجُنُودِ، شَاهِرِينَ سِيَوفَهُمْ حَتَّى وَصَلَنَا إِلَى آخرِ الدَّرَجِ، فَإِذَا نَحْنُ فِي غُرْفَةٍ كَبِيرَةٍ مَرْعُوبَةٍ، وَهِيَ عِنْدَهُمْ قَاعَةُ الْمَحْكَمَةِ، فِي وَسْطِهَا عَمُودٌ مِنَ الرَّخَامِ، بِهِ حَلْقَةٌ حَدِيدِيَّةٌ ضَخْمَةٌ، وَرَبِطَتْ بِهَا سَلاَسِلٌ مِنْ أَجْلِ تَقيِيدِ الْمَحَاكِمِينَ بِهَا.

وَأَمَامُ هَذِهِ الْعُمُودِ كَانَتِ الْمَصْطَبَةُ الَّتِي يَجِلسُ عَلَيْهَا رَئِيسُ دِيوَانِ التَّفْتِيشِ وَالْقَضَايَا لِمَحَاكِمَةِ الْأَبْرِيَاءِ، ثُمَّ تَوَجَّهُنَا إِلَى غُرْفَةِ التَّعَذِيبِ وَتَمْزِيقِ الْأَجْسَامِ البَشَرِيَّةِ، الَّتِي امْتَدَّتْ عَلَى مَسَافَاتٍ كَبِيرَةٍ تَحْتَ الْأَرْضِ.

رَأَيْتُ فِيهَا مَا يَسْتَفِرُ نَفْسِي، وَيَدْعُونِي إِلَى الْقَشْعَرِيرَةِ وَالتَّقْرَزِ طَوَالِ حَيَايِي.

رَأَيْنَا غَرْفَةً صَغِيرَةً فِي حَجْمِ جَسْمِ إِنْسَانٍ، بَعْضُهَا عَمُودِيُّ وَبَعْضُهَا أَفْقِيُّ، فَيَقِيِّ سَجِينُ الْغَرْفِ الْعَمُودِيَّةِ وَاقِفًا عَلَى رِجْلِيهِ مَدَةً سَجْنِهِ حَتَّى يَمُوتُ، وَيَبْقَى سَجِينُ الْغَرْفِ الْأَفْقِيَّةِ مَدَدًا بَهَا حَتَّى الموتِ، وَتَبْقَى الجَثَثُ فِي السَّجِنِ الضَّيقِ حَتَّى تُبْلَى، وَيَتَسَاقِطُ الْلَّحْمُ عَنِ الْعَظَمِ، وَتَأْكُلُهُ الْدِيَدانُ، وَلَتَصْرِيفُ الرُّوَاحِ الْكَرِيَّةِ الْمُبَعَثَةِ مِنْ جَثَثِ الْمَوْتَى فَتَحُوا نَافِذَةً صَغِيرَةً إِلَى الْفَضَاءِ الْخَارِجِيِّ.

وَقَدْ عَرَثْنَا فِي هَذِهِ الْغَرْفِ عَلَى هِيَاكِلِ بَشَرِيَّةٍ مَا زَالَتْ فِي أَغْلَالِهَا.

كَانَ السُّجَنَاءُ رِجَالًاً وَنِسَاءً، تَرَاوَحُ أَعْمَارُهُمْ مَا بَيْنَ الرَّابِعَةِ عَشَرَةَ وَالْسَّبْعِينِ،

وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم ، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعاً عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى الشور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يُقبلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهدًا يُبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدعون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً، حتى يهشم الجسم كله، وينخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبراء المساكين، ثم عثرنا على صندوق في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال؛ حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام في كل دقيقة نقطة، وقد جنَّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المُعذَّب على حاله تلك حتى يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المُعذَّب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسِكاكينه وختاجرها، فإذا أغلق مُزق جسم المُعذَّب المسكين، وقطعه إرباً إرباً.

كما عثروا على آلات كالكلاليب تغرس في لسان المعتذب ثم تشدُّ ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكاللليب تغرس في أذن النساء وتسحب بعنفٍ؛ حتى تتقطع الأذناء أو تبتَّر بالسكاكين.

وعثروا على سياط من الحديد الشائك، يُضرب بها المعتذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليهوديين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدققت عظامه دقاً، وسحقها سحقاً، وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة^(١) وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاين شرّ مزق، ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك، ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهباً ثم أخذ ينهب ما بالدير^(٢).

* * *

(١) السيدة الجميلة هي آلة التعذيب التي بها السكاين.

(٢) علي مظهر: محكم التفتیش، ص ١٣٢ - ١٣٩.

الفصل العاشر

من علماء الحياة في غرناطة



الشريف الإدريسي (٤٩٣-١١٦٥هـ = ١١٠٠م)

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي، مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية، ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة، ويعتبر الشريف الإدريسي - بحق - عمدة الجغرافيين المسلمين، فقد ترك لنا موسوعة جغرافية عظيمة هي كتابه الرائع: «نזהه المشتاق في اختراق الأفاق».

قام برحلات عديدة وتجوّل في شبه الجزيرة الإسبانية، كما وصل إلى شواطئ فرنسا وإنجلترا الجنوبيّة، بعدها عبر البحر إلى المغرب وتجوّل في شماله وجنوبه، وعاش حيناً في مراكش، وحياناً آخر في قسنطينة^(١)، ثم رحل إلى المشرق وتجوّل في آسيا الصغرى، وكان لهذه الرحلات أكبر الأثر في تكوين معلوماته الجغرافية، التي مهدت لوضع مؤلفه الجغرافي الكبير «نזהه المشتاق في اختراق الأفاق».

انتهى المطاف بالإدريسي في جزيرة صقلية، وهناك استقبله ملكها «روجر الثاني» في بلاطه وأغدق عليه وكفله بالرعاية، حيث كان يسبق وصول الإدريسي إلى صقلية صيته كر حالة وكمال جغرافي فدّ، وفي صقلية صمم الإدريسي خريطة للعالم هي الأدق والأفضل حتى وقت قريب.

(١) قسنطينة: مدينة شرق الجزائر.

ثم وضع مؤلفاً جغرافياً عاماً يستعرض فيه العالم المعروف في ذلك الوقت، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين وأماكنها، وصورها، وبحارها وجبلها، ومزروعاتها وعللها، وما يذكر عنها من العجائب، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومذاهبهم، وأزيائهم ولغاتهم، وقد استغرق فيه خمسة عشر عاماً، وانتهى من وضعه سنة (١١٥٤ هـ = ١٥٤٩ م).

وعن كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» قال عنه الزركلي: وهو أصح كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوربا وإيطاليا، وكل من كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه^(١). وقالت عنه دائرة المعارف الفرنسية: إن كتاب الإدريسي هو أول كتاب جغرافي تركه لنا العرب، وإن ما يحتويه من تحديد للمسافات ووصف دقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى.

وله أيضاً: الجامع لصفات أشتات النبات (في علم النبات^(٢))، وروض الأنس وزهرة النفس، وأنس المهج وروض الفرج، وهذا بخلاف الكرة الفضية المرسوم عليها خريطة العالم.

توفي الشريف الإدريسي سنة (١١٦٥ هـ = ١٥٦٠ م).

لسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٧ هـ = ١٣١٣-١٢٧٤ م):

هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، وزير مؤرخ أديب نبيل، كان أسلافه يُعرفون ببني الوزير، ولد ونشأ بغرناطة، استوزرها سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (سنة ٧٣٣ هـ) ثم ابنه (الغني بالله) محمد من بعده، وعظمت مكانته، ولكنه شعر بسعى حاسديه في الوشاية به، فكاتب السلطان عبد العزيز بن

(١) الزركلي: الأعلام ٧/٢٤.

(٢) يبحث هذا الكتاب في ٥٦٠ نوعاً من النباتات، واعتمد عليه ابن البيطار، ولو لا إنجاز الإدريسي العظيم في المجرى لعدّ من أهم علماء النبات.

علي المريني برغبته في الرحلة إليه.

وترك الأندلس خلسة إلى تلمسان، وكان السلطان عبد العزيز بها، فبالغ في إكرامه، وأرسل سفيراً من لدنـه إلى غرناطة بطلب أهله وولده، فجاءوه مكرمين، واستقر بفاس القديمة، قال عنه المغربي: الوزير، الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصيت في المغرب والشرق المزري، عرف الثناء عليه بالعنبر والعتبر، المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تخبر عن ذلك، ولا ينبعـث مثلـهـ خـبـيرـ، عـلـمـ الرـؤـسـاءـ الـأـعـلـامـ، الوزير الشهير الذي خدمـتهـ السـيـوفـ وـالـأـقـلامـ، وـغـنـيـ بـمـشـهـورـ ذـكـرـهـ عـنـ مـسـطـورـ التـعـرـيفـ وـالـإـعـلـامـ، وـاعـتـرـفـ لـهـ بـالـفـضـلـ أـصـحـابـ الـعـقـولـ الـراـجـحةـ وـالـأـحـلـامـ.

محنة ابن الخطيب:

لما مات عبد العزيز، وخلفه ابنه السعيد بالله، ثم خلع وتولى المغرب السلطان (المستنصر) أحمد بن إبراهيم، وقد ساعده (الغني بالله) صاحب غرناطة مشترطاً عليه شروطاً؛ منها: تسليمـهـ (ابـنـ الخطـيـبـ)، فـقـبـضـ عـلـيـهـ المـسـنـصـرـ، وـكـتـبـ بـذـلـكـ إـلـىـ الغـنـيـ بالـلـهـ، فـأـرـسـلـ وزـيـرـهـ اـبـنـ زـمـرـكـ إـلـىـ فـاسـ، فـعـقـدـ بـهـاـ مـجـلـسـ الشـورـىـ، وـأـخـضـرـ ابنـ الخطـيـبـ، فـوـجـهـتـ إـلـيـهـ تـهـمـتـاـ الزـنـدـقـةـ، وـسـلـوكـ مـذـهـبـ الـفـلـاسـفـةـ، وـأـفـتـىـ بـعـضـ الـفـقـهـاءـ بـقـتـلـهـ، فـأـعـيـدـ إـلـىـ السـجـنـ، ثـمـ دـسـ لـهـ رـئـيـسـ الشـورـىـ سـلـيـمانـ بـنـ دـاـودـ بـعـضـ الـأـوـغـادـ كـمـاـ يـقـولـ المؤـرـخـ السـلاـويـ -ـ منـ حـاشـيـتـهـ، فـدـخـلـوـاـ عـلـيـهـ السـجـنـ لـيـلـاـ، وـخـنـقـوـهـ، وـذـلـكـ فـيـ سـنـةـ (١٣٧٦ـ هـ = ١٧٧٦ـ مـ)، ثـمـ دـفـنـ فـيـ مـقـبـرـةـ (بـابـ الـمـحـرـوقـ) بـفـاسـ.

أَلْفَ الْكَثِيرُ مِنَ الْكِتَبِ الْقِيمَةِ الَّتِي تُعَدُّ مَرْجِعًا خَالِدًا؛ مِنْهَا: الإِحْاطَةُ فِي أَخْبَارِ غَرْنَاتَةِ، الْإِعْلَامُ فِي مَنْ بَيْعَ قَبْلَ الْاحْتِلَامِ مِنْ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ، وَاللَّمْحَةُ الْبَدْرِيَّةُ فِي الدُّولَةِ النَّصْرِيَّةِ، وَرَقْمُ الْحَلْلِ فِي نَظَمِ الدُّولِ، وَأَعْمَالِ الْأَعْلَامِ، وَمَقْنَعَةُ السَّائِلِ عَنْ

المرض الهائل، روضة التعريف بالحب الشريف، وعمل من طب ملن أحب، والتاج المجل في مساجلة القدح المعل، والوصول لحفظ الصحة في الفصول، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، والكتيبة الكامنة، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ودرة التنزيل .. وغيرها من المؤلفات الجيدة^(١).

ابن بطوطة (٧٠٣-٥٧٧٩ = ١٣٧٧-١٣٠٤ م) :

هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة، ولد في طنجة، عام (١٣٠٣هـ = ١٣٧٧ م)، يتميّز إلى قبيلة «لواته»، وهي قبيلة بربرية كبيرة، كانت بطنونها تنتشر على طول الساحل الإفريقي الشمالي من المحيط إلى ليبيا.

يُعدُّ ابن بطوطة أشهر رحالة عربي، بل سيد رحالة القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي دون منازع؛ حيث إنه قضى ٢٨ عاماً متنقلًا أو مرتحلاً في أجزاء العالم المعروف في أيامه، وقد بدأ رحلته التي استغرقت كل هذه السنين من موطنه في طنجة محتاراً ساحل شمال إفريقيا، حتى وصل إلى مصر، ومنها إلى جزيرة العرب، ثم الشام، ثم بلاد فارس، ثم البحرين، وعمان، ثم شرق إفريقيا، بعدها تحولَ في آسيا الصغرى والقرم وحوض الفوْجَا الأدنى - الجنوبي - ودخل القسطنطينية ثم توجَّه شرقاً إلى خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند - حيث مكث ثمان سنوات، ثم زار جزر المالديف وبعض جزر الهند الشرقية والصين، وكان قد بدأ تلك الرحلة سنة (١٣٢٥ م) ليعود إلى طنجة سنة (١٣٤٧ م)، واتصل ابن بطوطة خلال رحلاته تلك بالكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بهم على أسفاره.

(١) انظر في تفاصيل حياته، مقدمة التحقيق الذي كتبه الأستاذ محمد عبد الله عنان لكتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة».

بعد ذلك قام برحلتين قصيرتين: الأولى في ربوع الأندلس سنة (١٣٥٠م)، والثانية في السودان ووسط إفريقيا سنة (١٣٥٢م)؛ ليعود ويستقر في فاس سنة ١٣٥٤م؛ لي ملي فيها وصف رحلته التي سماها: «تحفة الناظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، المشهور لدينا باسم «رحلة ابن بطوطة»، وقد أملأها على ابن جُزي الكاتب بيلات السلطان المغربي أبي عفان المريني، وذلك سنة (١٣٥٦م).

وقد قدر المسافة التي قطعها ابن بطوطة في رحلته بنحو ١٢٠ ألف كيلومتر... ولنا أن تخيل أي رحلة تلك وأي رحالة كان ابن بطوطة؛ إذا تصورنا وسائل النقل التي كانت متوفرة في تلك الحقبة من الزمن!

ويمكّننا تقسيم رحلات ابن بطوطة كما جاءت في كتابه «تحفة الناظار» إلى ثلاث رحلات:

- الرحلة الأولى: تقع في الفترة الزمنية من سنة ١٣٣٤م إلى سنة ١٣٤٩م، زار فيها ابن بطوطة شمال إفريقيا، ومصر، والشرق الأوسط، وشرق إفريقيا، وجزيرة العرب، واليمن، ثم قصد القسطنطينية، وبعد أن أقام بها فترة من الزمن عاد إلى الهند، ثم سافر مع أعضاء البعثة الدبلوماسية التي أرسلها سلطان الهند محمد شاه، فزار جزائر الهند ومالديف وسيلان والصين.

- الرحلة الثانية: في الفترة ١٣٥١م إلى ١٦٥٢م، وتجوّل فيها في بلاد الأندلس.

- الرحلة الثالثة: في الفترة من ١٣٥٢م إلى ١٣٥٤م وتجوّل فيها في السودان وغرب إفريقيا.

وتستمد رحلات ابن بطوطة قيمتها من تميُّز صاحبها عن سواه من الرحالة السابقين في التفوق في الدرس؛ إذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ألمَّ بها وبسطها بتفصيل، وإذا كان ابن بطوطة سابع سبعة من أعلام الرحالة العرب (المقدسي

والإدريسي وابن جبير والسمعاني وياقوت والبيروني)، إلا أنه أكثرهم تميّزاً، وأشدّهم عنابة بالحديث عن الحالة الاجتماعية للمجتمع أو البلد الذي يراه.

قال ابن جزي - تلميذ ابن بطوطة وكاتب كتابه -: لا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر، ومنْ قال: رحال هذه الملة لم يبعد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة. واتخذ حضرة فاس مقراً ومستوطناً بعد طول جولاته.

مات في مراكش سنة (١٣٧٩هـ = ١٢٥٦م)، وتُلقب به جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين.

ابن البناء المراكشي (١٤٥٤-١٤٥٦هـ = ١٣٢١-١٣٢٣م)

هو الشيخ المحقق أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان بن البناء الأزدي المراكشي، سُميَّ بـ«ابن البناء»؛ لأن أباه كان يعمل بناءً؛ ولُدَّ في مراكش سنة (١٢٥٦هـ = ١٤٥٤م)، من مؤلفاته: حاشية على الكشاف، ومتهى السلوك (في علم الأصول)، وكليات في المنطق وشرحها، وكليات (في العربية)، والمقالات (في الحساب)، واللوازم العقلية في مدارك العلوم، والروض المريع في صناعة البديع، وعنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، ورسالة في المكايل، وجزء في المساحات، ومقالة في علم الإسطرلاب، وقانون (في معرفة الأوقات بالحساب).

ومن كتبه - أيضاً - «تلخيص أعمال الحساب»، وقد نظمه ابن غازي، وشرح نظمه، وطبع النظم وشرحه بفاس، ويعُدُّ هذا الكتاب المرجع الأساسي في علم الحساب في أوروبا، حتى مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر ميلادي) واهتم علماء الغرب بتحقيقه وترجمته إلى لغات مختلفة، حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي)، ويفكك جورج سارتون في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم» أن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء المراكشي يحتوي على

نظريات حسابيه وجبريه مفيدة؛ إذ أوضح العويس منها إيضاحاً لم يسبق إليه أحد؛ لذا يرى سارتون أنه يُعتبر من أحسن الكتب التي ظهرت في علم الحساب. أمّا ديفيد يوجين سمث فقد ذكر في كتابه تاريخ الرياضيات أن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء يشتمل على بحوث كثيرة في الكسور ونظريات جمع مربعات الأعداد ومكعباتها، وقانون الخطأين لحل المعادلة من الدرجة الأولى.

ويذكر فرانسيس كاجوري في كتابه «المقدمة في الرياضيات» أن ابن البناء المراكشي قدّم خدمة عظيمة بإيجاده الطرق الرياضية البحتة لإيجاد القيم التقريبية لجذور الأعداد الصم. أمّا العلامة ابن خلدون فيقول عن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء: «وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المبني، وهو كتاب جدير بذلك، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم؛ لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها، وإذا قصد شرحها، إنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال، وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل.

وأضاف عمر رضا كحال في كتابه «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» قائلاً: «كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء يحتوي على بحوث مختلفة، تمكن ابن البناء من جعلها -على الرغم من صعوبتها بعضها- قريبة المتناول والمأخذ، وقد أوضح النظريات العويسية والقواعد المستعصية إيضاحاً لم يُسبق إليه فلا تجد فيها التواء أو تعقيداً.

عاش ابن البناء ٦٧ سنة، وتوفي في مراكش سنة (١٣٢١هـ = ١٧٦١م).



الباب العاشر
تاريخ الأندلس
وقفة مع قبل



على طول الدراسة السابقة كان تاريخ الأندلس يحوي أكثر من ثمانية عـام، وهذا الذي ينبغي على المسلمين أن يقفوا معه وقفـات ووقفـات؛ يأخذون منه العبرة والدرس، ويكررون ما حـدث فيه من أفعال العـظـاء، وفي الوقت ذاته يتـجـنـبـون أفعال الأـقـزـامـ؛ تلكـ التيـ أدـتـ إلىـ هذهـ الحالـ التيـ رأـيـناـهاـ آخرـ عـهـودـ الأـنـدـلـسـ وـفـترـاتـ السـقوـطـ.

بداية لم يكن سقوط الأندلس بالسقوط المفاجـعـ، فقد كان هذا متـوقـعاـ منذـ أـكـثـرـ منـ مـائـيـ عـامـ، إـلاـ أنهاــ وـبـمـددـ منـ بـنـيـ مـرـينـ مـرـةـ، وـبـخـلـافـ النـصـارـىـ مـرـةـ أـخـرىـ معـ بـعـضـهـمـ بـعـضــ صـمـدـتـ وـصـبـرـتـ بـعـضـ الشـيـءـ، لـكـنـ الـذـيـ حدـثـ فيـ النـهاـيـةـ هوـ الـذـيـ كانـ مـتـوقـعاـ.

وهـنـاـ لاـ بـدـ لـنـاـ مـنـ وـقـفـةـ عـلـىـ أـسـبـابـ هـذـاـ الـانـهـيـارـ، وـالـتـيـ كـانـ مـنـ شـأـنـهاـ أـنـهـاـ مـاـ أـنـ تـتـكـرـرـ فـيـ أـيـ مـنـ الـأـزـمـانـ أـوـ الـأـوـقـاتـ، وـفـيـ أـيـ مـنـ الـبـلـدـانـ أـوـ الـقـارـاتـ، فـإـنـهـاــ وـلـاـ شـكــ سـتـعـملـ عـمـلـهـاـ، وـتـكـوـنـ الـعـاقـبـةـ وـالـتـيـجـةـ مـنـ الـعـاقـبـةـ وـتـلـكـ التـيـجـةـ نـفـسـهـاـ.

الفصل الأول

نظرة في قيام وسقوط الدول والحضارات

بعد الوصول إلى هذه المرحلة من الضعف والتفتت والهوان هناك تعليق عام وتحليل، واستراحة على طول طريق الأندلس منذ الفتح وحتى هذه المرحلة، نستجلِّي فيه سُنَّة من سنن الله ﷺ في كونه بصفة عامة، وفي الأمة الإسلامية بصفة خاصة، وهي سُنَّة قيام وسقوط الأمم، وسُنَّة الارتفاع والهبوط، تلك التي لوحظت بشكل لافت في الدولة الإسلامية خاصة.

وحقيقةُ الأمر أنه منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، بل حتى قيام الساعة، اقتضت سُنَّة الله في الأمم والحضارات بصفة عامة أن تقوم ثم تسقط وتزدهر ثم تندثر، فمن سنن الله أن كانت هناك قوانين اجتماعية وإنسانية عامة تتصل مباشرة بضبط مسيرة الحياة الإنسانية ومسيرة الأمم والشعوب، فإذا ما التزمت الأمم والحضارات بهذه القواعد دامت وكانت في خير وسعادة، وإذا حادت عنها لقيت من السقوط والاندثار ما هي أهل له؛ قال تعالى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» [آل عمران: ١٤٠].

وليست الأمة الإسلامية بمنأى عن هذه السنن الكونية، فمنذ نزول الرسالة على رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية تأخذ بأسباب القيام فتقوم، ثم تحييد عنها فيحدث الضعف ثم السقوط.

وأسباب قيام الدولة الإسلامية كثيرة على نحو ما ذكرنا فيما مضى، والتي كان من أهمّها:

أولاً: الإيمان بالله ﷺ والاعتقاد الجازم بنصرته وقدرته.

ثانياً: الأخوة، والوحدة، والتجمّع ونبذ الفرق.

ثالثاً: العدل بين الحاكم والمحكوم.

رابعاً: العلم، ونشر الدين بين الشعوب.

خامسًا: إعداد العدة، والأخذ بالأسباب: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخُيُلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُفْقِدُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤْفَ إِلَيْكُمْ وَأَئُنْهُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

[الأنفال: ٦٠].

فإذا أخذ المسلمون بهذه الأسباب فإنهم سرعان ما يقومون، وغالب الأمر يكون القيام بطيناً ومتدرجاً، وفيه كثير من الصبر والتضحية والثبات، ثم بعد ذلك يكون القيام باهراً، ثم يحدث انتشار للدولة الإسلامية بصورة ملموسة، حتى تفتح الدنيا على المسلمين، وهنا يصبر القليل على الدنيا وزيتها ويقع الكثيرون في الفتنة.

«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمُلْكُ»^(١).

ومن جديد يحدث الضعف فالسقوط، وعلى قدر الفتنة بالمادة والمدنية يكون الارتفاع والانحدار، والسقوط والانهيار.

وأمر الفتنة هذه هو الذي فقهه عمر بن الخطاب رض في سنة (١٧٥ هـ = ٧٣٥ م) حينما أمر بوقف الفتوحات في بلاد فارس، في عمل لم يتكرر في تاريخ المسلمين، إلا لدى قليل منهم على شاكلته، وذلك حين فتحت الدنيا على المسلمين وكثرت الغنائم في أيديهم.

(١) الترمذى: (٢٣٣٦) وقال: هذا حديث صحيح غريب. وأحمد (١٧٥٦)، وابن حبان (٣٢٢٣)، والحاكم: (٧٨٩٦)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الذهبي

خاف عمر رض أن تملك الدنيا من قلوب المسلمين، وخشى أن يُفتَنوا بالدنيا وينسروا الآخرة فيخسروا دولتهم، وكان هم أن يُدخل شعبه الجنة، لا أن يُدخله بلاد فارس، إذا كان دخول فارس على حساب دخول الجنة، وقال رض: وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا^(١). ولم يعد رض إلى مواصلة الفتوح إلا بعد أن هجم الفرس على المسلمين، وخف على المسلمين الهزيمة والضياع.

والأمة الإسلامية تنفرد بأنها أمة لا تموت ودائماً في قيام، فإذا سقطت أتبع السقوط قيام، أما لا يتبع السقوط قيام فهذا ليس من سنن الله مع المسلمين، ولا يحدث إلا مع أمم الأرض الأخرى غير الإسلامية، تلك الأمم التي يغلب عليها سقوط واندثار لا يتبعه رجعة، حتى وإن طال أجل القيام والازدهار، ومن أصدق الأمثلة على ذلك حضارة الفراعنة، واليونان، وإمبراطوريتي فارس والروم، وإمبراطورية إنجلترا التي لا تغرب عنها الشمس.. وهذه السنة الكونية يمثلها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَحْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَحْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُكَيِّدَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِيهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشَرِّكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وما يثبت سُنَّة الله هذه في الدولة الإسلامية قول رسول الله ص: «إِنَّ اللَّهَ يَعِثُ لَهُذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَيَّةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(٢). فمعنى هذا أنه سقوط، ومن بعد السقوط ارتفاع وعلوٌ، وهذا الارتفاع سيكون على يد مجدد أو مجموعة مجددin، وهكذا إلى قيام الساعة.

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك /٤٩٨/٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، /٣٨٢/٢.

(٢) أبو داود: كتاب الملائم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤٢٩١)، وقال: رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل. والحاكم (٨٥٩٢)، وقال الألبانى: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٥٩٩).

والتاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه الفترات، فيه الكثير من أحداث الارتفاع والهبوط، ثم الارتفاع والهبوط، ولم يكن هذا خاصاً بتاريخ الأندلس فقط؛ بل إن صحابة رسول الله ﷺ شاهدوا ذلك بأعينهم، وبعد وفاته ﷺ مباشرةً حدث سقوط ذريع وانهيار مرؤٌ، وردة في كل أطراف جزيرة العرب، التي لم يبق منها على الإسلام سوى مكة والمدينة وقرية صغيرة تسمى هجر (هي الآن في البحرين).

وبعد هذا السقوط يحدث قيام عظيم وفتحات وانتصارات، كان قد جدد أمرها وغرس بذرتها أبو بكر رض بعد أن أجهز على الردة، ثم فتحت الدنيا على المسلمين في عهد سيدنا عثمان رض، فحدثت الفتنة والانكسارات في الأمة الإسلامية؛ مما أدى إلى مقتله رض وهو الخليفة الراشد وصاحب رسول الله صل، وظللت هكذا ليلة خلافة سيدنا على رض.

ومن جديد يستتبُّ الأمر، وتقوم الدولة الأموية وتسكمل الفتوح، ثم فترة من الزمان ويحدث سقوط آخر حين يفسد أمربني أمية، وعلى أثره يقوم بنو العباس، فيعودون من جديد المجد والعز للإسلام، وكالعادة يحدث الضعف ثم السقوط، وعلى هذا الأمر كانت كل الدول الإسلامية الأخرى التي جاءت من بعدها، مروراً بالدولة الأيوبية وانتهاءً بالخلافة العثمانية الراشدة، التي فتحت كل شرق أوروبا، وكانت أكبر قوة في زמנה.

فهي إِذَا سنة من سنن الله تعالى، ولا يجب أن تُفْتَّ في عضد المسلمين، ولا بُدَّ للMuslimين من قيام بعد سقوط، كما كان لهم سقوط بعد قيام، وكما ذكرنا سابقاً فإنه ليس بين الله تعالى وبين أحد من البشر نسب.

«بِاَقَاطِمَةِ بُنْتِ مُحَمَّدٍ سَلَيْلِيَّنِي تَا شِسْتَ لَا اُغْنِي عَنِّكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»^(١).

(١) البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (٢٦٠٢)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب في قوله تعالى: «وَاللَّهُمَّ لَا يُخْسِرُنَّ الْأَقْرَبَينَ» (٤٠٤).

فإن ضلَّ المسلمون الطريق، وخالفوا نهج نبيهم؛ فستكون الهزيمة لا محالة، وسيكون الانهيار المرؤُّ الذي شاهدناه في الأندلس، والذي نشهده في كل عهود المسلمين.

المرحلة التي يعيشها المسلمون الآن وتصنيفها:

قد يتساءل المرءُ: ما هو تصنيفنا كمسلمين في هذا العصر وفقاً للمراحل السابقة ما بين الارتفاع والهبوط، أو القيام والسقوط؟

وواقع الأمر - وكما هو واضح للعيان - أن الأمة الإسلامية تمرُّ الآن بمرحلة من مراحل السقوط؛ سقوط كبير وضعف شديد وفرقة للمسلمين، سقوط مباشر لسقوط الخلافة العثمانية في عشرينيات القرن الماضي، وهو أمر طبيعي ودورة طبيعية من دورات التاريخ الإسلامي، وسُنة من سنن الله تعالى كما رأينا.

إلا أن مرحلة السقوط الأخيرة هذه قد شابها أمران لم تعهد لهما الدولة الإسلامية، ولم يحدثا من قبل في مراحل سقوطها المختلفة؛ **الأمر الأول**: هو غياب الخلافة؛ إذ حدث لأول مرة في التاريخ أن يصبح المسلمون بلا دولة واحدة تجمعهم، فرغم ما كان وما يكون من السقوط والانهيار على مدى فترات الضعف التي مرت بها الأمة الإسلامية، إلا أنه لم تكن لتغييب صورة الخلافة عن الأذهان بحالٍ من الأحوال، منذ الدولة الأموية في القرن الأول الهجري، وحتى سقوط الخلافة العثمانية في القرن الرابع عشر الهجري؛ حيث كان الإسلام سياسياً (دين ودولة) طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان.

الأمر الثاني: هو غياب الشرع الإسلامي، فلم يكن - أيضاً - في أيٍّ من عصور السقوط السابقة للدول الإسلامية، مع ما يصل المسلمين إليه من تدنٌّ وانحدارٌ لم يكن قطُّ يلغى الشرع أو يغيب، نعم قد يتجاوز أحياناً في تطبيق بعض أجزاءه، لكن

لم يظهر على الإطلاق دعوة تنادي بتحية الشعير جانبًا، وتطبيق غيره من قوانين البشر مما هو أنساب وأكثر مرؤنة على حسب رؤيتهم.

وإن مثل هذين العاملين ليجعلان من مهمة الإصلاح والتغيير أمراً من الصعوبة بمكان، ورغم ذلك فإنه وكما أوضحتنا ليس بمستحيل؛ لأن المستحيل هنا هو التعارض مع سُنن الله تعالى التي تقول بأن دولة الإسلام في قيام حتى قيام الساعة.

وهناك من المبشرات نحو قيام الدولة الإسلامية الآن الكثير والكثير، فمنذ سقوط الخلافة العثمانية سنة (١٣٤٢هـ = ١٩٢٤م) كان قد حدث انحدار كبير -ولا شك - في معظم أقطار العالم الإسلامي، إن لم يكن كلها (بعد سقوط الخلافة العثمانية أقيمت الدول العربية عدا السعودية على أساس علماني شبيه بالدول الغربية)، وظل هذا الوضع حتى أوائل السبعينيات، ثم كانت الصحوة في كل أطراف الأمة الإسلامية في منتصف السبعينيات وإلى يومنا هذا.

ونظرة واحدة إلى أعداد المسلمين في المساجد خاصة الشباب، وإلى أعداد المحجبات في الشوارع في كل أطراف العالم الإسلامي، وانتشار المراكز الإسلامية في كل بلاد أوروبا وفي أمريكا، والصحوة الجهادية في البلاد المحتلة مثل فلسطين والعراق والشيشان وغيرها، وحال الإسلام في جمهوريات روسيا السابقة بعد احتلال نصري وشيوعي دام لأكثر من ثلاثة عقود، نظرة واحدة إلى مثل هذه الأمور وغيرها يُبَشِّر بالقيام من جديد.



الفصل الثاني

حروب الأمس وحروب اليوم

هل تتكرر انتصارات المسلمين؟

لا شك أن انتصارات المسلمين في السابق في مثل موقع الزلاقة ووادي برباط، وأي من الواقع الإسلامية الأخرى في غير تاريخ الأندلس، لا شك أنه أمر يبعث العزة ويدعو إلى الفخر؛ لكن مثل هذه الانتصارات السابقة كانت حيث السيوف والرماح والخيول، ولقاء الجندي بالجندي، أما الآن وقد اختفت مثل هذه الأمور، بل واندثرت تماماً، وتبدل الوضع؛ فأصبحت الحرب غير الحرب، والطاقة غير الطاقة، حيث الحرب الإلكترونية، وحيث الطائرات والقنابل العنقودية، والصواريخ العابرة والموجهة، والأسلحة الكيميائية والنوية، وغير ذلك مما لم يكن على سابق ما مضى تماماً.

فهل يستطيع المسلمون أن يحققوا نصراً في مثل هذه الظروف، وتلك المستجدات، ورغم ما هم فيه من تخلفٍ وانحطاطٍ كانت انتصارات سابقיהם؟!

والحقيقة أن مبعث مثل هذا الخاطر وذاك السؤال هو عدم الفهم والوعي لعاملين مهمين جداً، كنا قد تحدثنا عنهما فيما مضى؛ وهما:

العامل الأول: أمة الإسلام أمة لا تموت:

اقضت سُنة الله في كونه - كما ذكرنا - أن تكون أمة الإسلام أمة لا تموت، وأنها أبداً في قيام، وأنه لا بدّ من القيام بعد السقوط كما كان السقوط بعد القيام، بصرف

النظر عن مدى قوة وعظم الكافرين وضعف المسلمين، فالله تعالى يقول: ﴿لَا يُغْرِّنَكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَاهِمْ جَهَنَّمُ وَيَئُسَ الْهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

العامل الثاني: إدراك أن المعركة بين الحق والباطل:

فالحرب بين المسلمين وغيرهم ليست ممثلة في شكل دول أو أشخاص، إنما هي حرب عقائدية، حرب بين الحق والباطل، وهي بآيسر تعبير معركة بين أولياء الله تعالى وأولياء الشيطان.

فماذا تكون التبيجة إذاً إذا كانت المعركة على هذا النحو؟ وهل ينتصر حزب الشيطان وأولياؤه منها تعاظمت عناصر القوة لديهم، أم ينتصر حزب الله وأولياؤه، وإن قلت وضعفتم إمكاناتهم وطاقاتهم؟

وفي استدعاء للتاريخ والواقع الإسلامية السابقة خير مثال ودليل على ما ذهبنا إليه، فهل كان من الطبيعي بالقياسات القديمة أن يحقق المسلمون النصر في معاركهم كلها فيما مضى؟ هل كان من الطبيعي في معركة القادسية -على سبيل المثال- أن ينتصر اثنان وثلاثون ألف مسلم على مائتي ألف فارسي؟ بكل قياسات الماضي وقياسات الوضع الطبيعي، هل من الممكن أن يحدث مثل هذا؟ وأين؟ في بلادهم وعقر دارهم.

وهل كان من الطبيعي في معركة اليرموك أن ينتصر تسعة وثلاثون ألف مسلم على مائتي ألف رومي؟ وهل كان من الطبيعي أن ينتصر ثلاثون ألف مسلم في سُتر على مائة وخمسين ألف فارسي ثمانين مرة متتالية في خلال سنة ونصف، وفي عقر دارهم أيضاً؟ وهل كان من الطبيعي كما ذكرنا في أحداث الأندلس السابقة أن ينتصر اثنا عشر ألف مسلم على مائة ألف قوطي في معركة وادي برباط؟!

هذه كلها أمور من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تحدث حتى بقياسات الماضي، وهو لغز لا يمكن أن نجد له حلًّا إلا بطريقة واحدة، هي أن نعلم ونتيقن أن الله ﷺ هو الذي يحارب الكافرين؛ **﴿وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَسَ﴾** [الأفال: ١٧]. ويقول أيضًا: **﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَسْتُو بَعْضُكُمْ بِيَعْضٍ﴾** [محمد: ١٤].

فأنا ﷺ يختبر المؤمنين بحرفهم مع الكافرين، وليس هو ﷺ في حاجة إلينا ليتتصر على أعدائه أو المشركين به من اليهود والأميركان والروس، أو غيرهم من أمم الأرض الذين جحدوا وحدانيته واجتاحتوا بلاد المسلمين، إنما كان من فضله علينا وجوده وكرمه أن استعملنا جنودًا عنده ﷺ، وإنما نحن كمن يستر القدرة وأخذ الأجرة، فنحن نستر قدرة الله ﷺ في هزيمته للكافرين، وأنأخذ الأجر على الشبات في هذا الموقف أمام الكفار.

والذي يقول بأن الموقف في الماضي مختلف عن الموقف في الحاضر، أو أن حروب الماضي مختلفة بالكلية عن حروب الحاضر، وهو يعلم أن الله ﷺ هو الذي نصر الصحابة ونصر منْتبعهم بإحسان وإلى يوم الدين، من يرى هذا كأنه يقول - حاشا لله من هذا - بأن الله كان قادرًا على عادٍ وثمود وفارس والروم، ولكنه - نعم - بالله من ذلك - ليس قادر على أميركا واليهود وروسيا ومنْحالفهم، أو شاييعهم من الأمم الحاضرة المقاتلة لأمة الإسلام!

يقول ﷺ في كتابه الكريم حكاية عن الأمم العاتية السابقة: **﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحُقُّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُ مِنَّا قُوَّةً أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا يَأْتِنَا يَجْهَدُونَ﴾** [فصلت: ١٥].

ويقول أيضًا في وصف حال الكافرين: **﴿إِسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّءِ وَلَا**

يَحِيقُ الْمُكْرُرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ قَلَّنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبَدِّيَّا
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيَّاً ◇ أَوَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْتَظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الدِّينِ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعِزِّزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ قَدِيرًا ◇ [فاطر: ٤٣ - ٤٤].

لكن المهم والذي من المفترض أن يشغل بال المسلم الحريص على دينه هو معرفة دوره هو في هذا القيام وهذه الدعوة، ومعرفة دوره في انتصار مثل انتصار الزلاقة، وغيره من مواقع المسلمين الخالدة.

فإن كان قيام أمة المسلمين بنا فنحن مأجورون على ذلك، حتى ولو لم تَرْ نصراً، وإن كان القيام بغيرنا فقد ضاع منا الأجر، حتى ولو كنا معاصرین لذلك النصر وذاك التمكين، وهذا هو ما يجب أن يستحوذ على أذهان المسلمين، وأن يعملوا ليكون لهم دور في إعادة بنيان هذه الأمة بعد ذاك السقوط الذي تحدثنا عنه.

* * *

الفصل الثالث

أَمْلُ النَّصْرِ لَا تَخْبُو جَذْوَتَه أَبْدًا



بعد الدرس الأول والوقوف على عوامل وأسباب السقوط كان هذا الدرس الثاني، وهو ما نستقيه من تاريخ الأندلس؛ حيث إنه لا يغيب الأمل أبداً في نصر الله، فإن الله دائمًا ما يقيّض لهذه الأمة مَنْ ينصرها، وَمَنْ يجَدُ لها أمر دينها.

وقد حدث مثل ذلك كثيراً في تاريخ الأندلس، كان منه ما حدث في نهاية عهد الولاة، وذلك بقيام عبد الرحمن الداخل، ثم ما حدث - أيضًا - في نهاية الإمارة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر، وهكذا في كل عهد تجد مَنْ يجَدُ لهذه الأمة أمر دينها، تجد يوسف بن تاشفين، وتجد يعقوب المنصور المُوحدي، وتجد يعقوب المنصور المريني، وغيرهم الكثير.

وقد يتساءل البعض قائلاً: لقد انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكلية، فأين ذاك القيام، الذي من المفترض أن يكون بعد هذا الانتهاء، ما دامت كانت قد جرت السنة على ذلك؟!

وفي معرض الرد على مثل هذا السؤال نسوق حدثاً في غاية الغرابة، فقد حدث قبل سقوط الأندلس الأخير بنحو أربعين سنة حادث عجيب، وأعجب منه هذا التزامن الذي فيه، فقد فتحت القدسية في سنة (١٤٥٣هـ = ١٨٥٧م) أي قبل سقوط الأندلس بأربعين عاماً، فكان غروب شمس الإسلام على أوربا من ناحية

المغرب يزامنه شرق جديد عليها من ناحية المشرق، واستبدل الله هؤلاء الذين باعوا، وأولئك الذين خانوا من ملوك غرناطة في الأندلس بغيرهم من العثمانيين المجاهدين الفاتحين الأبرار، الذين فتحوا القسطنطينية وما بعدها، وقد بدأ الإسلام ينتشر في شرق أوروبا انتشاراً أسرع وأوسع مما كان عليه في بلاد الأندلس وفرنسا.

وإنها - وایم الله - لآية من آيات الله تَبَّاعَتْ الأَمْلَ وَتَبَّعَهُ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَكُلِّ حِينٍ، مُبَشِّرَةً وَلِسَانَ حَالَهَا: أَمَّةُ إِسْلَامٍ أُمَّةٌ لَا تَمُوتُ.

* * *

الفصل الرابع

فاسطين اليوم أندلس البارحة

كان الدرس الثالث من تاريخ الأندلس هو الأخطر من نوعه، وتبعد معالمه في سؤال ربما يكون قد شغل أذهان البعض كثيراً، وهو: لماذا انتهى الإسلام بالكليّة من بلاد الأندلس؟!

في بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) هي اليوم من أقل بلاد العالم في عدد المسلمين، والذين بلغ عددهم فيها مائة ألف مسلم فقط، أي أقل من عدد المسلمين في مدينة من مدن أميركا.

ففي مدينة دالاس الأمريكية وحدها يصل عدد المسلمين إلى مائة ألف مسلم، وهي بعد لم تكن قد حُكمت بالإسلام، بينما تعداد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وبعد أن حُكمت ثمانية قرون بالإسلام لا يزيد عن مائة ألف مسلم، وهو أمر في غاية الغرابة.

ومن هنا كان هذا السؤال: لماذا انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكليّة لأفراد وشعوب ولم يتنه من البلاد الأخرى، والتي استعمرت استعماراً صليبياً، طال أمده في بعض الدول؛ مثل: الجزائر التي احتلّت ثلثين ومائة سنة، ومصر التي احتلّت سبعين سنة، وفلسطين احتلّت مائتي سنة في زمن الصليبيين، وغيرها من الدول الإسلامية التي غُلبت على أمرها، ورغم ذلك لم ينذر المسلمين، أيّاً كانت طريقة

اندثارهم، ولم يتغيروا وظلوا مسلمين وإلى الآن؟!

وللإجابة على هذا التساؤل لنتظر أولاً ما كان يفعله الاستعمار الإسباني في بلاد الأندلس، فقد كان الاستعمار الإسباني استعماراً استيطانياً إحلالياً، ما أن يدخلوا بلدًا إلا قتلوا كلَّ منْ فيه من المسلمين في حرب إبادة جماعية، أو يطردونهم ويُهجرونهم إلى خارج البلد، ثم يُهجرُون إليها من النصارى من أماكن مختلفة من الأندلس وفرنسا مَنْ يحلُّ ويعيش في هذه المدن وتلك الأماكن التي خلفها المسلمون، وبذلك لم يَعُدْ يبقى في البلاد مسلمون.

وتحكمَّتُّ البلاد وعاشت فيها بعد ذلك نصارى وأبناء نصارى، على عكس ما كان يحدث في احتلالِّ البلاد الإسلامية الأخرى؛ مثل: مصر، والجزائر، وليبيا، وسوريا، وغيرها؛ فإنَّ الاحتلال في هذه البلاد كان بالجيوش لا بالشعوب، واحتلال الجيوش ولا شك مصيره إلى ردة وذوال.

وإن مثل هذا ليضعُّ أيدينا على شيء هو في غاية الأهمية؛ ذلك أنَّ الاحتلال الاستيطاني هذا الذي حدث في بلاد الأندلس لم يتكرر في أيٍّ من بلاد العالم إلا في مكان واحد فقط، وهو -أيضاً- يخصُّ المسلمين، وهو فلسطين.

وإن ما يحدث الآن فيها وعلى أرضها ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ما يفعله اليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة في الشعب الفلسطيني بالقتل والطرد والتشريد، وإصرارهم (اليهود) على عدم عودة اللاجئين إلى ديارهم، ثم الإكثار من بناء المستعمرات، كل ذلك وغيره ما هو إلا خطوة من خطوات إحلال الشعب اليهودي مكان الفلسطيني.

فقد شُرِّدَ الشعب الفلسطيني وبات مصيره في طيّ النسيان، بات العالم أجمع ينسى قضيته يوماً بعد آخر، بل بات محتملاً أن ينسى هو نفسه (الشعب الفلسطيني)

قضيته، وأخشى والله! أن ينسى الفلسطينيون المشردون القضية تماماً كما نسيها أهل الأندلس، الذين هاجروا إلى بلاد المغرب وإلى تونس والجزائر بعد عام أو عامين، أو عشرة أعوام، أو حتى بعد مائة عام، فقد مرَّ الآن على سقوط الأندلس خمسين عام، فمن يُفَكِّر في تحريرها؟!

وهكذا وعلى هذا الوضع يسير اليهود ويجمّعون شتاتهم إلى بلاد فلسطين لإحلال الشعب اليهودي مكان الشعب الفلسطيني.

فكانت قضية فلسطين شديدة الشبه بالأندلس، وثُرى لماذا عُقد اتفاق السلام عام ١٩٩٢ م بين اليهود وبين الفلسطينيين، ومن بين كل بلاد العالم هناك يعقد في إحدى مدن الأندلس القديمة في مدريد؟!

كانت مفاوضات السلام تدور في أوسلو وترعاها أميركا وروسيا وغيرها من البلاد، ومع ذلك أقيمت في «مدريد» وفي إزالة علامات التعجب نجد أن ذلك كان بسبب أن المفاوضات قامت في سنة ١٩٩٢ م، وهي ذكرى سقوط الأندلس؛ حيث كان قد مر على سقوطها خمسين عام.

ففي تلك الأثناء كانت شوارع «مدريد» مكتظة بالاحتفالات والمهرجانات، حيث هزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين في هذه الموقعة القديمة منذ خمسين عام، وكأنهم يبعثون برسالة مفادها: ها هو التاريخ يتكرر،وها هي أحداث الأندلس تتكرر من جديد في فلسطين،وها هي الانتفاضة التي تحدث في فلسطين تُقتل كما قُتلت من قبل انتفاضة موسى بن أبي غسان في غرناطة،ها هو التاريخ يتكرر، لا داعي للحرب، ولا داعي للجدال والمحاورات الكثيرة؛ فإن مصيركم هو ما حصل في الأندلس من قبل.

الخاتمة



بعد هذه الدراسة، وبعد تلك الحقبة المهمة من تاريخ المسلمين، نستطيع أن نسطر من جديد: ما كان التاريخ - وتاريخ الأندلس خاصة - يوماً ما بُكاءً على اللبن المسكوب، ولا عيشاً في صفحات الماضي، إنما كان لأخذ الدرس والعبرة، وكما ذكرنا في البداية :

﴿فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وأيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

والذي يجب أن يشغلنا الآن هو أن نقف مع تاريخ الأندلس وقفه نفهم منها أحداث فلسطين وال العراق؛ وأحداث أفغانستان، الشيشان، وكوسوفا، والبوسنة والهرسك، وكشمير، وغيرها من البلاد، وما دور الشعوب والأفراد في قضية فلسطين حتى لا تصبح أندلسًا أخرى.

والذي يجب أن يشغلنا هو أن يعرف كلّ منا دوره في الحياة؛ ومن ثمّ يقوم عليه بأحسن ما يكون وأحسن ما يجب أن يكون القيام، وإن معرفة مثل ذلك لتتبع خلف كل صفحة من صفحات تاريخ الأندلس، وخلف كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي بصفة عامة.

وليعلم كل منا أنه إنما هو على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام، فليحذر وليرحص كل الحرص على ألا يؤتى الإسلام من قبله، ولا يلدغ الثانية، وقد قال

يَعْلَمُ: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
اَسْتَخْلَفْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا يَكُونُنَّ هُمْ دِيَنَهُمُ الَّذِي ارْتَهَى لَهُمْ وَلَا يَكُونُنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أَئْنَّا يَعْلَمُ وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ هُوَ بِشَيْءٍ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ» [النور: ٥٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

قصيدة أبي البقاء الرندي

في رثاء الأندلس:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ فُقَصَانُ
 هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ
 وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ
 يُمْزَقُ الدَّهْرُ حَتَّمَا كُلَّ سَابِغَةٍ^(١)
 وَيَنْتَصِي كُلُّ سَيْفٍ لِلنَّاءِ وَلَوْ
 أَيْنَ الْمُلُوكُ ذُؤُو التَّيْجَانِ مِنْ يَمِنِ
 وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادٌ فِي إِرَمٍ
 وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبٍ
 أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرُ لَا مَرَدَّ لَهُ
 وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ

فَلَا يُغَرِّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ
 مَنْ سَرَهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
 وَلَا يَدْوُمُ عَلَى حَالٍ هَامَشَانُ
 إِذَا نَبَتْ مَشْرَفَيَاتٌ^(٢) وَخَرَصَانُ^(٣)
 كَانَ ابْنَ ذِي يَزَنِ وَالْغَمْدُ غَمْدَانُ
 وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتِيجَانُ؟
 وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ؟
 وَأَيْنَ عَادُ وَشَدَادُ وَقَحْطَانُ؟
 حَتَّى قَضُوا فَكَانَ الْقَوْمُ مَا كَانُوا
 كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانُ

(١) السابغة: الدرع التامة الواقفة الطويلة الواسعة. ابن منظور: لسان العرب، مادة سبغ / ٤٣٢، والزيبيدي: تاج العروس، باب الغين فصل الشين ٤٩٩ / ٢٢.

(٢) المشرفيات: السيف. ابن منظور: لسان العرب، مادة شرف / ٩، والزيبيدي: تاج العروس، باب الفاء فصل الشين ٥٠٣ / ٢٣.

(٣) الخرصان: جمع خرسن. وهو الرمح. ابن منظور: لسان العرب، مادة خرسن / ٧، والزيبيدي: تاج العروس، باب الصاد فصل الخاء ٥٤٦ / ١٧.

فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاعُ مُنَوَّعَةُ
 دَارُ الزَّمَانُ عَلَى (دارا) وَقَاتَلَهُ
 كَانَتِ الصَّعبُ لَمْ يَسْهُلْ لَهُ سَبَبُ
 وَلِلْحَوَادِثِ سُلْوانُ يُسَهِّلُهَا
 دَهْرِيَّةُ الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ
 أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الإِسْلَامِ فَأَرْتَأَتْ
 فَاسْأَلْ (بلنسية) مَا شَاءَنُ (مرسيّة)
 وَأَيْنَ (قرطبة) دَارُ الْعُلُومِ فَكَمْ
 وَأَيْنَ (حمص) وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزُهٍ
 قَوَاعِدُكَنْ أَرْكَانُ الْبِلَادِ فَمَا
 تَبَكِيَ الْحَنِيفَيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْفٍ
 عَلَى دِيَارِ مِنَ الإِسْلَامِ خَالِيَّةٌ
 حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا
 حَتَّى الْمُحَارِبُ تَبَكِيَ وَهُنَيَ جَامِدَةٌ
 يَا غَافِلًا وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ
 وَمَا شِيَّا مَرِحًا يُلْهِيَهُ مَوْطِنُهُ
 تِلْكَ الْمُصِيَّةُ أَنْسَتْ مَا تَقَدَّمَهَا
 وَلِلْزَمَانِ مَسَرَّاتُ وَأَخْرَانُ
 وَأَمَّ كسرى فَمَا آوَاهُ إِيْوَانُ
 يَوْمًا وَلَا مَلَكَ الدُّنْيَا سَلِيمَانُ
 وَمَا مَلَأَ حَلَّ بِالإِسْلَامِ سُلْوانُ
 هَوَى لَهُ أَخْدُ وَاهْدَ ثَهْلَانُ
 حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وَبُلْدانُ
 وَأَيْنَ (شاطبة) أَمْ أَيْنَ (جيـان)؟!
 مِنْ عَالَمٍ قَدْ سَمَّا فِيهَا لَهُ شَانُ؟!
 وَتَهْرَهَا العَذْبُ فَيَاضُ وَمَلَانُ
 عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
 كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَمِيَانُ
 قَدْ أَفَرَتْ وَهَا بِالْكُفْرِ عَمْرَانُ
 فِيْهِنَ إِلَّا وَاقِيسُ وَصُلْبَانُ
 حَتَّى الْمُنَابِرُ تَرَثِي وَهُنَيَ عِيدَانُ
 إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ فَالْدَهْرُ يَقْطَانُ
 أَبْعَدَ (حمص) تَغْرُّ الْمُرْءَ أَوْ طَانُ؟!
 وَمَا هَا مَعَ طُولِ الدَّهْرِ نِسْيَانُ

كَانُهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عُقبَانُ
 كَانُهَا فِي ظَلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ
 فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ
 قَتْلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَزُ إِنْسَانُ
 وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْرَانُ
 أَحَالَ حَالَمُمْ جَوْرُ وَطُغْيَانُ
 وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفَّرِ عُبْدَانُ
 عَلَيْهِمْ مِنْ ثَيَابِ الذُّلِّ الْوَانُ
 كَمَا تُفَرَّقُ أَرْوَاحُ وَأَبْدَانُ
 كَانُهَا هِيَ يَا قُوَّتُ وَمَرْجَانُ
 وَالْعَيْنُ بَاكِيَةُ وَالْقَلْبُ حَيْرَانُ
 إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ^(١)

يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْحَيْلِ ضَامِرَةُ
 وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الْهَنْدِ مُرْهَفَةُ
 أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ
 كُمْ يَسْتَغِيثُ بِنَا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ
 مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ
 يَا مَنْ لِذَلَّةٍ قَوْمٍ بَعْدَ عِزَّتِهِمْ
 بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ
 فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ
 يَا رَبَّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا
 وَطِفْلٌ مِثْلُ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ
 يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةٌ
 لِشَلِّ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ

* * *

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : كتب التفسير

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر : تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م.
- البغوي : معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسلیمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م.
- سيد قطب : في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.
- الطبرى : جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري : الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.

ثالثاً : كتب الحديث والسنن

- ابن القيم : زاد المعاد في هدی خیر العباد، تحقيق: مصطفی عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ.

- أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٦ م.
- أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض.
- الألباني: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.
- البخاري: الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق: مصطفى ديب البعنة، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م.
- البزار: البحر الزخار المسمى بمسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م.
- البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- البيهقي: شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ.
- الترمذى: الجامع الصحيح (سنن الترمذى)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م.
- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٣ م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان

البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩١م.

رابعاً: كتب السيرة والتاريخ والطبقات

- ابن أبي أصيحة: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ابن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرinية، الرباط - المغرب، ١٩٧٢م.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقه، الرباط - المغرب، ١٩٧٢م.
- ابن الأبار: الحلقة السيراء، حققه وعلق حواشيه: د. حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: أعمال الأعلام في من يويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام (تاريخ إسبانيا الإسلامية)، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ=١٩٧٣م.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: اللمة البدوية في الدولة النصرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: رقم الحلال في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، ١٣١٦هـ.

- ابن العماد الخنبلـي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرنـاءوطـ، ومحمود الأرنـاءوطـ، دار ابن كثـير - دمشق، ١٤٠٦هـ.
- ابن الفرضـي : تاريخ عـلـيـاءـ الأندلسـ، تحقيقـ: إبراهـيمـ الإـبـارـيـ، دارـ الكـتابـ المـصـرـيـ وـدارـ الكـتابـ الـلـبـانـيـ، الطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣مـ.
- ابن القـطـانـ المـرـاكـشـيـ : نـظـمـ الجـمـانـ لـتـرـتـيـبـ مـاـ سـلـفـ مـنـ أـخـبـارـ الزـمـانـ، تـحـقـيقـ وـدـرـاسـةـ: دـ.ـ مـحـمـودـ عـلـيـ مـكـيـ، دـارـ الغـربـ الإـسـلـامـيـ.
- ابن الورـديـ : خـرـيـدةـ العـجـائـبـ وـفـرـيـدةـ الغـرـائـبـ، تـعلـيقـ: مـحـمـودـ فـاخـورـيـ، دـارـ الشـرـقـ الـعـرـبـيـ - بـيـرـوـتـ، ١٩٩١مـ.
- ابن بـسـامـ، عـلـيـ بنـ بـسـامـ الشـنـتـريـيـ : الذـخـيرـةـ فـيـ مـحـاسـنـ أـهـلـ الجـزـيرـةـ، تـحـقـيقـ: إـحـسانـ عـبـاسـ، الدـارـ الـعـرـبـيـةـ لـلـكـتابـ.
- ابن بشـكـوـالـ، خـلـفـ بنـ عـبـدـ الـمـلـكـ : الـصـلـةـ، تـحـقـيقـ: إـبـراهـيمـ الإـبـارـيـ، دـارـ الـكـتابـ الـمـصـرـيـ - الـقـاهـرـةـ، الطـبـعـةـ الـأـوـلـىـ، ١٤١٠هـ=١٩٨٩مـ.
- ابن بـطـوـطـةـ، مـحـمـودـ بنـ عـبـدـ اللهـ : رـحـلـةـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ، دـارـ النـفـائـسـ لـلـطـبـاعـةـ وـالـنـشـرـ - بـيـرـوـتـ، ١٩٩٧مـ.
- ابن حـجـرـ العـسـقلـانـيـ : الإـصـابـةـ فـيـ تـميـزـ الصـحـابـةـ، دـارـ الـكـتابـ الـعـرـبـيـ - بـيـرـوـتـ.
- ابن حـزمـ وـابـنـ سـعـيدـ وـالـشـقـنـدـيـ : فـضـائـلـ الـأـنـدـلـسـ وـأـهـلـهـاـ، تـحـقـيقـ: دـ.ـ صـلاحـ الـدـينـ الـمـنـجـدـ، دـارـ الـكـتابـ الـجـدـيدـ، ١٩٦٨مـ.
- ابن حـزمـ : رسـائـلـ اـبـنـ حـزمـ، تـحـقـيقـ: دـ.ـ إـحـسانـ عـبـاسـ، الـمـؤـسـسـةـ الـعـرـبـيـةـ لـلـدـرـاسـاتـ وـالـنـشـرـ - بـيـرـوـتـ، الطـبـعـةـ الثـانـيـةـ، ١٩٨٧مـ.
- ابن حـيـانـ : الـمـقـبـسـ مـنـ أـنـبـاءـ أـهـلـ الـأـنـدـلـسـ، تـحـقـيقـ: دـ.ـ مـحـمـودـ عـلـيـ مـكـيـ، طـبـعةـ الـمـجـلـسـ الـأـعـلـىـ لـلـشـئـونـ إـسـلـامـيـةـ، مـصـرـ.
- ابن خـاقـانـ : قـلـائـدـ الـعـقـيـانـ وـمـحـاسـنـ الـأـعـيـانـ، تـحـقـيقـ: دـ.ـ حـسـينـ يـوسـفـ خـربـوشـ،

- مكتبة المنار - الأردن ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م.
- * ابن حاقدان: *مقطم الأقوال في مسرح المتأنس في ملحن أهل الأندلس*، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م.
 - * ابن خلدون: *تاريخ ابن خلدون*، دار احياء التراث العربي - بيروت، لبنان.
 - * ابن خلukan، أبو العباس أحمد بن محمد: *فيزيات الأعيان وأنباء أبناء العروض*، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤ م.
 - * ابن سعيد المغربي: *المغرب في حل المغارب*، تحقيق: د. شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.
 - * ابن عبد البر القرطبي: *اللذار في اختصار المختار والمسيير*، تحقيق: د. شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م.
 - * ابن عبد الحكم: *فتح مصر وأخبارها*، طبعة ليدن، ١٩٢٠ م.
 - * ابن عذاري: *بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغارب*، تحقيق: ج. س. كولان وليفي بروفيسال، دار الثقافة - بيروت، لبنان.
 - * ابن عذاري: *بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغارب*، قسم المخطوطات، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وأخرون، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ودار الثقافة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م.
 - * ابن فرحون، علي بن محمد: *الديبايج المذهب في أعيان علية المذهب المالكي*، وضع الحواشي: مأمون حمي الدين الجنان، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى.
 - * ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: *الميدالية والنهاية*، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٦هـ = ١٩٧١م.
- ابن ماكولا، علي بن هبة الله: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنب والأنساب، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والمالك)، تحقيق: عبد الرحمن الحجي - بيروت، ١٣٧٨هـ = ١٩٦٨م.
- الإدريسي، محمد بن عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب - بيروت، ١٩٨٩م.
- الأزدي: تاريخ علماء بالأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مطبعة المدنى - القاهرة، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق: فيليب حتى، برنسنون، ١٩٣٠م.
- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين - القاهرة ١٩٥٧م.
- حسين مؤنس: فجر الأندلس، دار الرشاد - القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد - مصر، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.
- الحميدي، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خير الأقطار، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
- الحميدي، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر محمد: تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٧ م.
- الذهبي: العبر في خير من غير، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـ=١٩٩٣ م.
- الزركلي: موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠ م.
- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣ هـ.
- سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية - لبنان.
- السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، ١٩٩٧ م.
- السهيلي: الروض الأنف (الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام)، دار الكتب العلمية - بيروت.
- شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطالية وجزائر البحر المتوسط، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م.
- شوقي أبو خليل: الأرك، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨ هـ=١٩٩٨ م.
- شوقي أبو خليل: الزلاقة، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨ هـ=١٩٩٨ م.

- شوقي أبو خليل: العقاب، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: بلاط الشهداء، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: فتح الأندلس، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، شركة الإبداع الفني - الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- الطاهر أحمد الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
- الطبرى، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- عبد الرحمن على الحجji: التاريخ الأندلسي، دار القلم - دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصرية - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- علي الصلاي: دولة المرابطين، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.
- علي الصلاي: دولة الموحدين، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

- علي مظهر : عحاكم التفتیش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، المكتبة العلمية.
- عیاض القاضی : ترتیب المدارک وتقریب المسالک، تحقیق: محمد سالم، دار الكتب العلمية - بیروت ١٩٩٨ م.
- مجموعة : جمیوع رسائل موحدیة من إنشاء کتاب الدولة المؤمنیة، حققتها ونشرها: لیفی بروفنسال، المطبعة الاقتصادية - الرباط، المغرب، ١٩٤١ م.
- مجھول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعه بها بينهم، تحقیق: إبراهیم الإبیاري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني - القاهرة، وبيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ = ١٩٨٩ م.
- مجھول : الحلی الموسیی في ذکر الأخبار المراکشیة، تحقیق: د. سهیل زکار، وعبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب.
- مجھول : نیازک الدعھیر في أخبار مملکة نسیر، ضبطه وعلق عليه: ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م.
- محمد سهیل طقوش : تاریخ المسلمين في الأندلس، دار الفاتح للطباعة والنشر - بیروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨ م.
- محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠١ م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني : أزماک الرویاشر في أخبار القاضی عیاض، تحقیق: مصطفی السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة، ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني : نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، تحقیق: إحسان عباس، دار صادر - بیروت، ١٩٦٨ م.
- النباهی، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن : تاریخ قضاء الأندلس (المرقبة العليا

فيمن يستحق القضاة والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.

- يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

خامساً: كتب الأدب واللغة

- إبراهيم مصطفى وأخرون: المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة - مصر.

- ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تقديم: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

- الجوهري: الصحاح، دار العلم للملائين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.

- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.

- عمرو بن معدى كرب الزبيدي: شعر عمرو بن معدى كرب الزبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- القلقشندي، أحمد بن علي: صحيح الأعشى في صناعة الإنسا، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

- الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري: صحيح الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد

الحميد، دار المعرفة - بيروت.

سادساً: كتب أخرى

- ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام: مجموع الفتاوى، تحقيق: عامر الجزار، دار ابن حزم - بيروت، ١٩٩٨ م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام: منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.
- أبو شامة: إبراز المعاني من حرز الأمانى، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية - بيروت.
- أبو يعلى الفراء، محمد بن حسين: الأحكام السلطانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٥٦ هـ.
- إدوارد فان ديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، تصحيح: محمد البلاوي، دار صادر - بيروت.
- جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الحانجي - القاهرة، ١٩٧٤ م.
- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعير، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- رحاب عكاوي، ومحمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٩٩٦ م.
- سعود بن عبد العالى البارودي العتىبي: الموسوعة الجنائية الإسلامية، المقارنة بالأنظمة المعمول بها في المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٧ هـ.
- شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر - دمشق، سوريا.

- شوقي أبو خليل : علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية، دار الفكر - دمشق ، سوريا.
- الطحاوي : مشكل الآثار، دار الكتب العلمية - بيروت.
- عامر النجار : في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، دار المعارف - مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤ م.
- عبد الحفيظ بن عبد الكاظم الكتاني : فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢ م.
- علي بن عبد الله الدفع : رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م.
- الغزالى : الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.
- مجموعة : الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩ م.
- مجموعة : تراث الإسلام، بإشراف: توماس أرنولد، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م.
- محمد كامل حسين : الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ليبيا.
- محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٧٨ م.

- محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب وال المسلمين تاريخ ومساهمات، الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م.
- مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.
- المناوي، محمد عبد الرءوف بن علي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ=١٩٩٤م.
- يوسف القرضاوي: فقه الجهاد، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

سابعاً: المجلات والدوريات والموسوعات ومواقع الإنترنٌت

- صحفة الأهرام المصرية.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريـد.
- مجلة المهن الطبية.
- موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥).
- موقع ويكيبيديـا: <http://ar.wikipedia.org>.

الفهارس

فهرس الآيات

فَقَالَ الْمُلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ٥٢٦	اِزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرِبٌ ٦٢١
فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَافِرًا ٥٢٩	اسْتِبْكَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّءِ ٧٢٤
فَكَرَّ وَقَدَرَ ٤١٣	اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهُ لَعْنَكُمْ ٦٥٤
فَلَنْ تَجِدَ لِسْتَةً اللَّهَ تَبْدِيلًا ١٠٤	أَعْزَزَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ٤٤٤
فَلَنْ تَجِدَ لِسْتَةً اللَّهَ تَبْدِيلًا ٣	إِلَّا تُنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ٥١١
قُلْ تَعَالَوْا أَكْثَلُ مَا حَرَمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ ٥٤٦	إِنْ يُنْصَرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ١٩٤
كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبِنَا أَنَا وَرُسُلِي ٧١٨، ٥٣	إِنَّ اللَّهَ أَشْرَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ٦٥٣
كَمْ مِنْ فَتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتَةً كَثِيرَةً ٥٩	بِاللهِ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشَرِّكَ بِهِ ٥٤٦
كَيْفَ وَإِنْ يَظْهُرُوا عَلَيْكُمْ لَا يُرْقِبُوا فِيهِمْ إِلَّا وَلَا ذَمَّةً ٦٩٤	إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آتَمُوا ٣٩
لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَرَاءً وَلَا شُكُورًا ٥٠٩	إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ٤٠٦
لَا يُرْقِبُونَ فِي مُؤْمِنِينَ إِلَّا وَلَا ذَمَّةً ٦٩٢	أَوْ كُلُّمَا عَاهَدُوا عَاهَدُوا نَبَدَهُ فِرِيقٌ مِنْهُمْ ٦٤٣
لَا يَعْرِثُكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ٧٢٣	أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ٤٩
لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ١١٠	تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْخُسْنَيْنِ ٤٤٥
لَا تَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللهِ ١٠٩	لَمْ لَا يَتَبَّعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ١٨٢
لَقَدْ كَانَ فِي قَصْصِهِمْ عِنْبَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَلْيَابِ ٧٣١	خَصْمَانٌ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ٥٣
لِيُبَيِّنَ اللَّهُ الْحُقْيَّةَ مِنَ الطَّيِّبِ ٥٤٧، ٤٤٤	رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ ٥٤
مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ١١٢، ١١١	فَأَنَّا هُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ١٠٩
مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَتَرْهُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٤٧	فَإِذَا نَفَخْتَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ١١٤
نَصَرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرْ الْمُؤْمِنِينَ ٤٧٢	فَأَقْصُصِ الْفَاسِقَصَ لِعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٧٣١
وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرِيبةً أَمْرَنَا مُرْفِقِهَا ٣٠٦	فَأَمَّا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ يُغْرِي الْحُقُّ ٧٢٤
وَأَعِدُّوْا كُمْ مَا مُسْتَطِعُمْ مِنْ قُوَّةٍ ٧١٧	فَبِيَدِنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ٤٤٤
وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ٦٣٣	فَمَنِ ارْحَمَهُ مِنْ اللهِ لِنَتَ لَهُمْ ٥٣٧
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَّا آخَرَ ٥٤٦	فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ ٤٤٣

وَمَا رَأَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَأَى . ٦٦، ٣٩

٧٢٤

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُسْتَرِي هُوَ الْحَدِيثُ ١٨١
وَمَنْ يُقْتَلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَرَاؤُهُ جَهَنَّمُ ٥٤٥
وَيَوْمَ حُسْنَى إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثُرُكُمْ ٦١٥، ٥٩

٦٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ٦٠
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَامِينَ بِالْقُسْطِ ٥٨٣
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَحَدُّو الَّذِينَ أَخْدُوا
دِينَكُمْ مُزْرُوا وَلَعِنًا ٤٤٤
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَحَدُّو الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أُولَئِكَ ٦٩٢، ٤٤٣، ٣٧٩، ٣٦٦
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفُرُوا
فِي سَبِيلِ اللهِ ٦٩١
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ ١٠٤
يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ٤٧٠
بُرِيدُونَ أَنْ يُطْفُلُوا بُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ٢٤
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْقَالِ ١١٢
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ١١٠

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَنْتُلُو فَأَصْلِحُوا
بِيَنَهَا ٤٠٧

وَأَنْ هَذَا صَرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ١٥٧
وَتَلْكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ٧١٦
وَذَكَرَ فِيْنَ الذَّكْرِي تَقْعُ الْمُؤْمِنَ ١١٤
وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ ٦٣٣
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لِيَسْتَخْلِفُهُمْ ٧٣٢، ٧١٨
وَفِي ذَلِكَ فَلِيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ٥٨٨
وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ فَرِيهَةِ كَانَتْ ظَالِمَةً ٦٩٠
وَلَنْ تَرَضِي عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى
تَسْبِعَ مِلَّهُمْ ٦٩٢
وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ٥٣
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا وَأَنَّقُوا ٥٢٩
وَلَوْ يَشَاءَ اللهُ لَا تَنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَسْلُو بَعْضَكُمْ
بِعَضٍ ٧٢٤
وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ٣٠٥
وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ٤٤٤
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ٣٧
وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا في ضَلَالٍ ٤٩٤

فهرس الأحاديث

إِنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مُحَدِّثِينَ ٥٤٧	إِذَا تَبَايعْتُمْ بِالْعِيْنَةِ ١٣٣
إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً ٧١٧، ١٧٩	إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ ٦٣١
إِنِّي مُا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي ١٣١	أَذْهَبُوكُمْ الطَّلَقاءِ ٢٠٥، ١٥٥
إِيَّاكُمْ وَمُحَرَّراتُ الدُّنُوبِ ٦٩٢	أَغْزُوكُمْ بِاسْمِ اللهِ ١٠٩
أَيَّهَا امْرِيَّ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ ٦٣١	أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا ٦٥
رِبَاطُ يَوْمِ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ٤٧٣	اللهُ اللهُ أَبْدَعُوكَ الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ١١٤
طَفُ الصَّاعِ ١١٣	إِنَّ اللهَ يَعْثُبُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائَةِ سَنةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَها ٧١٨
فَإِذَا صَبَعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَرِ السَّاعَةَ ٣٠٦	

مَنْ رَأَيَ فِي الْمَأْمَنْ قَفَدَ رَأْنِي.....	٤٩٦.....	فَوَاللَّهِ مَا الْقُفْرُ أَخْسَى عَلَيْكُمْ	١٧٩، ١٠٤.....
نُصْرَتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ.....	١٠٩.....	كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْتُولٌ عَنْ رَعْيِهِ	١٩٤.....
وَاللَّهُمَّ اذْدِنُنَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ		لَا حَاسِدُوا وَلَا تَنَاجِشُوا	٦٣١.....
أَحَدُكُمْ إِصْبَعَةُ.....	١٧٩.....	لَا يَجِيلُ دُمْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ	٥٤٦.....
وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَّارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ	٢٧١.....	لَا يَكُلُّمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	٢٨٤.....
يَا ابْنَ رَمِيلَةَ، إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ	٤٩٦.....	لَا يَأْتِي اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا	١١٦.....
يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِفْتَ لَا أُعْنِي		لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ	
عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا	٧١٩.....	مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرَكُمْ بِجَمِيعِ	١٥٧.....
يُوشِكُ الْأُمُمُ أَنْ تَنْدَعِي عَلَيْكُمْ	٦٧٩.....	مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ	١٥٥.....

فهرس الأعلام

ابن الربيق (الفنوسو هنريكيز)	٥٨٦، ٥٧٣.....	ابن ابراهيم التقي	٤.....
ابن السقاء	٤١٧، ٣٣٧.....	ابن ابراهيم القيسبي	٦٨٠.....
ابن السمح	٢٨٣.....	ابن ابراهيم الموصلي	١٨٠.....
ابن الطويل	٣٨٧.....	ابن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٩.....
ابن العربي	٥٧١، ٥١٩، ٥١٤.....	ابن ابراهيم بن تاعباشت	٥٥٢.....
ابن العسال	٣٨٨.....	ابن ابراهيم بن مهدي بن قلين	٣٩٦.....
ابن العماد	٥٥٩.....	ابن أبي أصيبيعة	٦٠٠.....
ابن العوام الإشبيلي	٥٧٦، ٥٧٤.....	ابن أبي العيش	٢١٠.....
ابن الفرج	٣٧٨.....	ابن أبي زرع	٥٩٢، ٤٧٢.....
ابن الفرضي	٢٨٤، ٢٨٣.....	ابن أبي زيد القير沃اني	٣٩٦.....
ابن القرطبي	٦٢٢.....	ابن أبي قرة	٣٥٠.....
ابن القصيرة	٤٨٧.....	ابن أرفع رأسه	٣٧٩، ٣٧٧.....
ابن القطان	٣٥٢.....	ابن الأثير	٥٥٥، ٥٤٨، ٤٨٠، ٤٧٤.....
ابن القوطية	٢٢١، ٢٢٠، ٢٢٩.....	ابن الأحرar (أول ملوك غرناطة)	٦٣٨، ٦٢٦، ٦٢٥.....
ابن الكربلاس	٤٦.....	ابن الأحرار (ملك غرناطة)	٦٤٦، ٦٤٥، ٦٤٣، ٦٤٢، ٦٤٠، ٦٣٩.....
ابن البلانة	٣٥٦، ٣٤٢.....	ابن البناء المراكشي	٦٩٣، ٦٥٥، ٦٥٢، ٦٥١.....
ابن الوردي	٣١٨، ٣١٣، ٣٠٩.....	ابن الأحرار الفقيه (ملك غرناطة)	٦٥٦، ٦٥٢.....
ابن باجه	٣٩٥، ٣١٤.....	ابن الجوزي	٦٦١، ٦٦٠، ٦٥٩، ٦٥٨، ٦٥٧.....
ابن بسام	٤٥٨، ٣٥٦، ٣٤٨، ٣١٧، ٢٤٧.....	ابن البناء المراكشي	٧١١، ٧١٠.....
ابن بشكتاش	٥٩٨، ٥٢١، ٥٢٠، ٤٩٦، ٣٩٦، ٩٦.....	ابن الجوزي	٦٠٤، ٦٠٣.....
ابن بصال الطبلطي	٣٧٩، ٣٧٧.....	ابن الحذيفي	٤٥٣، ٤٢٥، ٣٧٨، ٣٧١.....
ابن بطوطة	٧٦٠، ٧٠٩، ٧٠٨.....	ابن الأنباري	٣٩٠.....

ابن طيفور	٤٠٩	ابن بقنة.....
ابن عبد البر.....	٤٦٦	ابن تيقانون اللمتوني.....
ابن عبد العزيز (أمير بلنسية)	٦٣٢،٦٣٠	ابن تيمية
٤٢٧.....	٣٧٥	ابن جابر
٢٢٦.....	٧١٠،٦٢٢،٦٢١،٦٢٠	ابن جعير.....
٣٦٦.....	٧١٠،٧٠٩	ابن جزي
ابن عبادون.....	٢٨٢،٢٨١	ابن جلجل
ابن عذاري .٢٦٨،٢٥٧،٢٢٠،١١٦،٥٤،٤٨.	١٨٤	ابن حجاج
٣٦٩،٣٢٥،٢٩٨،٢٨٠	٢٥٢	ابن حذير
٤٥٩.....	٣٨٧	ابن حزم (الإمام) .٢٦،٣٤٠،٣٣٩،٣٠٢،٢٦٤،
ابن عكاشة.....	٤١٤،٤١٣،٣٥٦	٥٧٩،٣٩٩،٣٨٠،٣٦٧،٣٦٦،٣٦١
٤٢٠.....	٣٨٧	ابن حمدان
ابن عمار.....	٤١٤،٤١٣،٣٥٦	ابن حوقل
٤٥٤.....	٣١٦	ابن خاقان
ابن عيسى (القاضي)	٢٨٤،٢٥٩،٢٢١،١٦٢	ابن خلدون .٢٦،٢٨٢،٢٢٨،٥٤٠،٥٣٥،٤٧١
٣٨٧.....	٣٦٩،٣٤٨،٣٤١،٣٣٩،٣٣٥،٣٣٢	٥٤٠
ابن غازى.....	٤٠٤،٣٨٩،٣٨٧،٣٨٦،٣٧٧،٣٧٥،٣٧٠	٧١١،٥٥٢
٧١٠.....	ابن خلكان .. .٥٥،٢٨،٥٧٧،٥٢٢،٤٧٤،٥٥	
ابن غانية.....	٢٨١	ابن ذكوان
٥٨٣.....	٥٠١	ابن رذمیر
ابن فرخون	٥٩٨	ابن رشد (الجذ)
٤٦٨.....	٥٩٨،٥٧٦،٥٧٢،٣١٤	ابن رشد (الخفيد) .. .٥٩٨،٥٧٦،٥٧٢،٣١٤
ابن كثیر.....	٦٠١،٦٠٠،٥٩٩	٦٠١،٦٠٠
٦٣٣،٥٦٠،٥٤٥،٤٨٤،١١١	ابن رميلة .. .٤٩٧،٤٩٦،٤٩٥	
٦٧٨.....	٦٠١	ابن زرقون
ابن كماشة.....	٧٠٧	ابن زمرك
٣٤٠.....	٣٥٦،٣٥٢،٣٣٦	ابن زيدون
ابن ماكولا	٣٧٩،٣٧٧	ابن سعيد
٤٢٠،٤١٩	٤٠٧	ابن سلام
ابن مرتين	٣٩٨	ابن سیده
٥٨٣.....	٥٩٩،٢٨٧،٢٦	ابن سينا
ابن هبيرة	٤٩٨،٤٤٦	ابن صادح
٣٨٢،٣٨١،٣٧٩	٥٩٣،٥٩٢،٥٩١،٥٩٠	ابن صناديد
٥١١	٣٩٩	ابن طاهر (أمير مرسيّة) .. .٥٧٧،٥٧٦،٣١٤
٦٤٤	٥٧٧	ابن طفيلي
٤٨٩	٥٧٧	
أبو إسحاق بن مقانا	٥٧٧	
٢٢٩	٥٧٧	
أبو الأسود الدؤلي	٥٧٧	
٧٣٣	٥٧٧	
أبو البقاء الرندي	٥٧٧	
٦٦٢	٥٧٧	
أبو الجيوش نصر	٥٧٧	
غرنطة)	٥٧٧	
٧٠٦	٥٧٧	
أبو الحزم بن جهور .٣٢٥،٣٢٤،٣٢٣،٣٠٣	٥٧٧	
٣٣١،٣٣٠،٣٢٩،٣٢٨،٣٢٧،٣٢٦	٥٧٧	
٣٥٠،٣٤٧،٣٣٥،٣٣٤،٣٣٣،٣٣٢	٥٧٧	
٤١٧،٤١٦،٤١٥،٤٠٧،٣٦٠،٣٥٩	٥٧٧	
٥٤٣	٥٧٧	
أبو الحسن الأشعري	٥٧٧	
٦٤٩	٥٧٧	
أبو الحسن السعيد (الخليفة الموحدي) .. .	٥٧٧	
٥٧٣	٥٧٧	
أبو الحسن المالقي	٥٧٧	
أبو الخطّار الكلبي .. .١٢٦،١٢٥،١٢٤،١٢٣	٥٧٧	

- | | | |
|---|----------------------|--|
| أبو سفيان..... | ٦٦٢ | أبو الربيع سليمان |
| ١٥٥، ٢٧ | | أبو الصباح اليحصبي .. |
| أبو شامة المقدسي..... | ١٤٨، ١٤٦، ١٤٥، ١٤٣.. | أبو العباس السفاح .. |
| ٦٠٣ | | أبو العباس بن مطرف المري .. |
| أبو عبد الله الشيعي..... | ١٥٩، ١٥١، ١٤٩ | أبو العطاء الجذامي .. |
| ٢٠٨ | | أبو القاسم الملبح .. |
| أبو عبد الله التميري | ٦٢٢ | أبو القاسم بن سليمان |
| ٦٦٢، ٦٦١ | | أبو الوليد الجاجي |
| أبو عبد الله بن الحكيم (المخلوع) | | ٣٦٧ |
| ٤٤٧ | | ٣٦٨، ٣٦٧، ٣٦٦، ٣٦٤..... |
| أبو عبد الله بن عبد البر | | ٣٩٥، ٣٩٠ |
| ٥٦٣ | | أبو الوليد بن جهور..... |
| أبو عبد الله محمد بن رقو..... | | ٣٣٦، ٣٣٥، ٣٣٤، ٣٢٦..... |
| ١٤٤، ١٢٨ | | ٤١٧، ٤٠٨، ٤٠٧، ٣٦٠ |
| أبو عثمان (شيخ مواليبني أمية) | | ٣٤١، ٣٣٧ |
| ٧٠٩ | | ٤١٩، ٤١٨ |
| أبو عفان المريني | | أبو بكر ابن القصيرة |
| ٢٣٠، ٢٢٩ | | ٤٩٨ |
| أبو علي القالي | | أبو بكر الصديق |
| ٤٦٨، ٤٦٧ | | ٧١٩، ٦١٣، ٥٤٣ |
| أبو عمran الفاسي | | أبو بكر بن أدهم..... |
| ١٤٢ | | ٤٨٩ |
| أبو مسلم الخراساني | | أبو بكر بن زيدون |
| ٢٢٩ | | ٤٨٩ |
| أبو مسلم بن فهر | | أبو بكر بن عبد الحق المريني |
| ٤١١ | | ٦٤٩ |
| أبو نصر بن أبي نور | | أبو بكر بن عبد العزيز |
| ٦٣١ | | ٤٥٣، ٣٩١، ٣٧٨ |
| أبو هريرة | | أبو بكر بن عمر اللمتوفي |
| ٥٨٢. | | ٤٧٩، ٤٧٨، ٤٧٧، ٧ |
| أبو يحيى (صاحب شرطة المنصور المودي) | | ٤٨٠ |
| ٥٩١ | | أبو بكر بن محمد اللمتوني |
| أبو يعقوب يوسف (الخليفة المودي) | | ٥٥٢ |
| ٦٠٠، ٥٧٤ | | أبو بكر بن معاوية القرشي |
| أحمد المستعين بن هود | | ٢٢٩ |
| ٣٩٤، ٣٩٣، ٣٩٢، ٣٩١ | | أبو بكر بن هانئ |
| ٤٤٢، ٤٢٨، ٤٢٧ | | ٥٨٢ |
| أحمد المقذر | | ٣٩٦ |
| ٢٨٥ | | أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري |
| أحمد بن حزم | | ٣١٤ |
| ٢٦٤ | | أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي |
| ١٩٢ | | ٣٧١ |
| أحمد بن عبد الله | | أبو تمام |
| ٤٠٩ | | ٦٠٠ |
| إدريس الحموي | | أبو جعفر القرطبي |
| ٢٨٣ | | ٤٨٩ |
| إدوارد فنديك | | أبو جعفر القليعي |
| ٢١٨، ٢١٧ | | ١٥٧، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢..... |
| أردونيو الثالث | | أبو جعفر بن الباذش |
| ٢١٥، ٢١٤ | | ٥٢٠ |
| أردونيو الثاني | | أبو حفص عبد الله (أمير برغواطة) |
| ٢٣٧، ٢٣٦، ٢١٧ | | ٤٨١ |
| أردونيو الرابع | | أبو داود |
| ٢١٥ | | ٦٠١، ١٣٣ |
| أردونيو بن رامiro | | أبو ذر |
| ١٩٧ | | ١١٣ |
| أرذبلش | | أبو سعيد بن جامع..... |
| ٥٩٩ | | ٦١٥، ٦١٢، ٦١٠، ٦٠٨..... |
| أرسطو..... | | ٦٣٣، ٦٣٢ |
| ٢٨٢ | | |
| أرمانتوس | | |
| ٥٦٥، ٥٦٤، ٥٦٣. | | |
| إسحاق (آخر ملوك المرابطين) | | |
| ١٨١ | | |
| إسفنديار | | |
| ٢٥٨ | | |
| إسماء بنت غالب | | |
| ١٤٢ | | |
| إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان..... | | |
| ٣٩٥ | | |
| إسماعيل بن خلف القارئ | | |

- | | |
|---|-----------------------------------|
| إسماعيل بن ذي النون | ٤٢٢، ٣٧١، ٣٧٠ |
| إسماعيل بن عباد الله | ٤٠٦، ٤٠٥، ٣٥٨، ٣٤٤ |
| أصيغ بن خليل | ٤٠٩، ٤٠٧ |
| أطاووف | ١١٩ |
| اعتىاد الرميكة | ٣٥٣ |
| إقليميس | ٣٩٢ |
| الادرسي | ٧٠٦، ٧٠٥، ٣١٧، ٣١٤، ٣٠٩ |
| الأريك | ١٧ |
| الأصفهاني | ٢٢٨ |
| الأوزاعي | ١٧٠ |
| الباتاني | ٢٨٣ |
| البخاري | ٥٤٦، ٥٢٢، ٤٩٦، ٤٧٣، ٣٦٧، ٢٦ |
| | ٦٣١ |
| البرزالي | ٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٥، ٤٠٤ |
| البرهانس | ٥٠١، ٤٤٧ |
| البرلياني | ٣٥٦، ٣٥٢، ٣٥١ |
| البيدق | ٥٧٠، ٥٥٤ |
| إلبيرة (اخت الفونسو السادس) | ٤٣٩، ٤٣٧ |
| إلبيرة (الراهبة) | ٢٢٩، ٢٣٨ |
| البيروني | ٧١٠، ٢٦ |
| التبريزي | ٥١٩ |
| الترمذى | ٦٠١، ٢٦ |
| الشعالبي | ٣٩٦ |
| الحاجب المظفر بن المنصور | ٢٧٨، ٢٧٧، ٢٦٦ |
| | ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٩ |
| الحباب الزهرى | ١٢٨، ١٢٧ |
| الحر بن عبد الرحمن الثقفى | ٩٠ |
| الحسان بن التعبان | ٤٧ |
| الحسن بن أبي العيش | ٢١٠ |
| الحسن بن علي | ٥٣٣ |
| الحسن بن قتوب | ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٣ |
| الحسين الأنصاري | ١٦٣، ١٥٢ |
| الحكم المستنصر | ٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٧ |
| | ٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٣ |
| الطبرى | ٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١، ٢٤٠ |
| الطرطوشى | ٥١٩، ٥١٤، ٣٩٦، ٣٩٥، ٣٦٧ |
| الرازي | ٢٨٧ |
| الرياحى | ٢٢٩ |
| الرشيد المودى | ٦٤٨، ٦٣٤ |
| الزيدي | ٣٤٥، ٢٢٩ |
| الزبير بن العوام | ٥٣٩ |
| الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين | ٥٥٣ |
| الزرقانى | ٣٨٠ |
| الزركلى | ٧٠٦، ٥٧٢، ٥٥٩، ٢٨٣، ٨٥ |
| الزغل | ٦٧٩، ٦٧٨، ٦٧٧، ٦٧٢، ٦٧١ |
| الزهراءوى | ٢٨٩، ٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٤ |
| | ٣١٤ |
| السبكي | ٦٠٤ |
| السخاوى | ٦٠٤ |
| السعيد بالله (أمير المغرب المرئي) | ٧٠٧ |
| السعيد على أبو الحسن | ٦٣٤ |
| السلاوي | ٧٠٧، ٤٨٢ |
| السميع بن مالك الحولانى | ١٠٣، ٩٢، ٩١، ٩٠ |
| | ٣١٠، ١٨٢ |
| السمعانى | ٧١٠ |
| الشاشى | ٥١٩ |
| الشاطبى | ٦٠٤، ٦٠٢، ٦٠١ |
| الشافعى | ٣٣٩ |
| الصفدى | ٢٢٦، ١٧٤، ١٧٣ |
| الصميل بن حاتم | ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣ |
| | ١٤٨، ١٤٤، ١٤٣، ١٢٨، ١٢٧ |
| الطبرى | ٢٦ |
| الطرطوشى | ٥١٩، ٥١٤، ٣٩٦، ٣٩٥، ٣٦٧ |
| الحكم بن هشام | ٣٢٦، ١٧٣، ١٧٢، ١٧١ |
| الحميدى | ٣٩٩، ٣٦٧، ٣٤٠، ٣٣٩، ٢٨٤ |
| | ٤٦٧ |
| الحميرى | ٥٠٢، ٤٦٨، ٤٦١، ٣١٧ |
| الذهبى | ٤٧٩، ٤٦٩، ٣٤٠، ٢٢٥، ٩٦، ٢٦ |
| | ٥٨١، ٥٧٣، ٥٦١، ٥٥٩، ٥٥٠، ٥٤٧ |
| | ٦٠٤، ٦٠١، ٦٠٠، ٥٩٨ |
| الرازى | ٢٨٧ |
| الرياحى | ٢٢٩ |
| الرشيد المودى | ٦٤٨، ٦٣٤ |
| الزيدي | ٣٤٥، ٢٢٩ |
| الزبير بن العوام | ٥٣٩ |
| الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين | ٥٥٣ |
| الزرقانى | ٣٨٠ |
| الزركلى | ٧٠٦، ٥٧٢، ٥٥٩، ٢٨٣، ٨٥ |
| الزغل | ٦٧٩، ٦٧٨، ٦٧٧، ٦٧٢، ٦٧١ |
| الزهراءوى | ٢٨٩، ٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٤ |
| | ٣١٤ |
| السبكي | ٦٠٤ |
| السخاوى | ٦٠٤ |
| السعيد بالله (أمير المغرب المرئي) | ٧٠٧ |
| السعيد على أبو الحسن | ٦٣٤ |
| السلاوي | ٧٠٧، ٤٨٢ |
| السميع بن مالك الحولانى | ١٠٣، ٩٢، ٩١، ٩٠ |
| | ٣١٠، ١٨٢ |
| السمعانى | ٧١٠ |
| الشاشى | ٥١٩ |
| الشاطبى | ٦٠٤، ٦٠٢، ٦٠١ |
| الشافعى | ٣٣٩ |
| الصفدى | ٢٢٦، ١٧٤، ١٧٣ |
| الصميل بن حاتم | ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣ |
| | ١٤٨، ١٤٤، ١٤٣، ١٢٨، ١٢٧ |
| الطبرى | ٢٦ |
| الطرطوشى | ٥١٩، ٥١٤، ٣٩٦، ٣٩٥، ٣٦٧ |
| الحكم بن هشام | ٣٢٦، ١٧٣، ١٧٢، ١٧١ |
| الحميدى | ٣٩٩، ٣٦٧، ٣٤٠، ٣٣٩، ٢٨٤ |
| | ٤٦٧ |
| الحميرى | ٥٠٢، ٤٦٨، ٤٦١، ٣١٧ |
| الذهبى | ٤٧٩، ٤٦٩، ٣٤٠، ٢٢٥، ٩٦، ٢٦ |
| | ٥٨١، ٥٧٣، ٥٦١، ٥٥٩، ٥٥٠، ٥٤٧ |
| | ٦٠٤، ٦٠١، ٦٠٠، ٥٩٨ |

الظافر إسماعيل.....	٤٥٨، ٤٥٦
الظافر بن المعتمد.....	٤٢٠
العادل (الخليفة الموحدي)	٦٣٤
العربي (والد القاضي أبي بكر).....	٥١٣
العز بن إسحاق البرزالي	٤٠٨
العزفي	٦٥٨، ٦٤٥
العزيز بالله العبيدي.....	٢٣٦
العلاء بن مغيث.....	١٥٧، ١٥٦، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١
الغالب بالله (ملك غرناطة) ..,	٦٧٢، ٦٧١، ٦٧٠
	٦٧٧، ٦٧٥، ٦٧٣
الغزالى.....	٦٣١، ٥٣٤، ٥٢٧، ٥١٩، ٥١٤
الغنى بالله (ملك غرناطة)	٧٠٧، ٧٠٦
الفارابي.....	٥٩٩، ٢٦
الفتح بن موسى بن ذي النون	٣٧٠، ١٩٧
ألفونسو أخويزابيلا	٦٦٨
ألفونسو الأول	٤٢٨
ألفونسو الثامن ..,	٥٩٥، ٥٩٤، ٥٩٣، ٥٩٠، ٥٨٧
	٦١٩، ٦١٨، ٦١٦، ٦١١، ٦٠٧، ٥٩٧
ألفونسو الخامس	٦٦٩، ٤٣٠، ٣٨٣، ٢٧٥
ألفونسو الرابع	٢١٤
ألفونسو السادس ..,	٣٦٤، ٣٦٢، ٣٥٤، ٢١٤
	٤١٤، ٤١٣، ٣٧٩، ٣٦٧، ٣٦٥
	٤٤٠، ٤٣٧، ٤٢٦، ٤١٥
	٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٤٢، ٤٤١
	٤٤٥، ٤٤٣، ٤٥٢، ٤٥١، ٤٤٩، ٤٤٧
	٤٦٥، ٤٦٠، ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٦، ٤٥٥
	٤٩٣، ٤٩٢، ٤٩١، ٤٩٠، ٤٨٨، ٤٨٧
	٥٠١، ٥٠٠، ٤٩٨، ٤٩٧، ٤٩٥، ٤٩٤
	٥٠٧، ٥٠٦، ٥٠٥، ٥٠٤، ٥٠٣، ٥٠٢
	٦٥٧، ٥٨٦، ٥٨٢، ٥١٩، ٥١٨، ٥٠٨
ألفونسو العاشر.....	٦٥٧، ٦٥٥، ٦٥٢، ٦٤٦، ٦٤٤
	٦٥٩
ألفونسو المحارب.....	٤٢٨، ٣٩٤
القائم العبيدي.....	٢١١
القادر بالله العباسى	٢٠٤
القادر بن ذي النون ..,	٤٢٥، ٣٩٢، ٣٦٤، ٣٥٣
	٤٤٤، ٤٤٢، ٤٤٠، ٤٣٩، ٤٣٧
المستنصر المريني.....	٧٠٧
المستعين بن هود ..,	٣٨٤، ٣٧٨، ٣٧٣، ٣٧٢، ٣٧٠
	٤٢٣، ٤٢٢، ٤٢١، ٤٢٠، ٣٩١، ٣٨٥
	٤٣٥، ٤٣١، ٤٢٧، ٤٢٥، ٤٢٤

- | | |
|---|--|
| <p>٧٠٧، ٦٨٩
٣٨٤.....
المتذر الثاني بن يحيى.....
٣٥٠، ٢٢٥، ١٩٦.....
٣٤٣.....
المتذر بن ماء السماء.....
٤٤٢.....
المتذر بن هود.....
٣٨٤، ٣٨٣.....
المتذر بن يحيى التجسي.....
التصور المريني.....
٦٥٢، ٦٥١، ٦٥٠، ٦٤٩، ٦٤٦
٦٥٨، ٦٥٧، ٦٥٦، ٦٥٥، ٦٥٤، ٦٥٣
٧٢٦، ٦٩٠، ٦٦٠، ٦٥٩
٥٨٠، ٥٧٩، ٥٧٨، ٥٧٧، ٧..
٥٨٧، ٥٨٦، ٥٨٤، ٥٨٣، ٥٨٢، ٥٨١
٦٠٠، ٥٩٧، ٥٩٦، ٥٩١، ٥٩٠، ٥٨٨
٦٤٢، ٦٣٣، ٦١٤، ٦٠٩، ٦٠٧، ٦٠٦
٧٢٦، ٦٩٣، ٦٩٠، ٦٤٦
٣٦٥.....
التصور بن الموكيل بن الأفطس.....
٣٦٢، ٣٦١.....
التصور بن المظفر بن الأفطس.....
٢٩٦، ٢٩٥، ٢٩٤، ٢٩٣، ٢٩١
٣٥١، ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩٨، ٢٩٧
٥٦٠، ٥٤٢.....
الملحق العامري.....
٤١٦، ٣٣٣.....
٢٢٨.....
الناصر العباسي.....
٦٥٩.....
الناصر المريني.....
٦١٠، ٦٠٩، ٦٠٨، ٦٠٧، ٦٠٦
٦١٦، ٦١٥، ٦١٤، ٦١٣، ٦١٢، ٦١١
٦٩٣، ٦٤٧، ٦٣٤، ٦٣٣، ٦٣٢، ٦١٩
٢٦.....
النسائي.....
النصر بن الحارث.....
٣٤٢.....
النعمان بن المتذر بن ماء السماء.....
٥٠٠.....
النعمان بن مقرن.....
٤٨٦.....
التوييري.....
٩٣.....
الهيثم بن عبيد الكلابي.....
٦٤٩، ٦٣٤.....
الواشق بالله الموصي.....
٥٦، ٤٣، ٤٢، ٣٠، ٢٩، ٢٣
١٧٣، ١٠٣، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٣، ٥٨، ٥٧
الوليد بن يزيد.....
١٤٢، ١٢٨، ١٢٣.....
الونشريشي.....
٦٢٠.....
أم المجد.....</p> | <p>٦٣٤، ٦٢٥، ٦٢٤، ٦١٩.....
٦٤٨، ٦٤٧
٦٤٥.....
المستنصر بالله المفصلي.....
١٨٥.....
الأوسط.....
٣٦٠، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٣٤.....
المظفر بن الأفطس.....
٤٠٦، ٤٠٥، ٣٦٨، ٣٦٦، ٣٦٢، ٣٦١
٤٣٦، ٤٣٤، ٤٠٨، ٤٠٧
٣٨٤.....
المتضد العباسي.....
٣٥٢.....
المعتضد بن عباد.....
٣٤٧، ٣٤٠، ٣٣٧، ٣٣٦، ٣٣٤
٣٦٠، ٣٥٦، ٣٥٢، ٣٥١، ٣٥٠، ٣٤٩
٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٧، ٤٠٦، ٣٧٣، ٣٧٢
٤٢٢، ٤١٨، ٤١٧، ٤١٢، ٤١١، ٤١٠
٤٣٥، ٤٢٣
المعتمد بن عباد.....
٣٥٥، ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٥٢، ٣٣٨، ٣٣٧، ٣٧٤، ٣٧٣، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٥٦
٤١٥، ٤١٤، ٤١٣، ٤١٢، ٤١١، ٤١٠
٤٤٧، ٤٤٦، ٤٣٩، ٤٢٠، ٤١٩، ٤١٨
٤٦١، ٤٦٠، ٤٥٥، ٤٥٤، ٤٤٩، ٤٤٨
٤٩١، ٤٨٩، ٤٨٨، ٤٨٧، ٤٨٦، ٤٦٥
٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩٧، ٤٩٦، ٤٩٥، ٤٩٤
٥٠٦، ٥٠٥، ٥٠٤، ٥٠٣، ٥٠١، ٥٠٠
٦٥٦، ٥١٨، ٥١٥، ٥١٢، ٥١١، ٥٠٩
٦٥٨، ٦٥٧
العربي.....
المعز الدين الله العبيدي.....
العمل بن المعتمد.....
المغيرة بن عبد الرحمن الناصر.....
٢٥٩، ٢٤٨
المقدار أحمد بن هود.....
٣٨٩، ٣٨٦، ٣٨٥، ٢٠٤.....
٤٤٥، ٤٢١، ٣٩٥، ٣٩٢، ٣٩١، ٣٩٠
٤٥٣، ٤٣٦، ٤٣٢، ٤٢٧، ٤٢٦
٧١٠.....
المقدسي.....
المقري.....
٥٩٥، ٥٧٧، ٥٠٩، ٣١٥، ٣٠٧، ٢٧٧
٦٨٦، ٦٦٥، ٦٢١، ٦١٣، ٦٠٣، ٥٩٦</p> |
|---|--|

ثريات، ٦٧٣، ٦٧٥.....	١٤٢	أم عبد الرحمن الداخل
ثعلبة بن سلامة الجذامي.....	٢٩	أم موسى بن نصير
ثعلبة بن سلامة العاملي.....	١٠٣	أناتول فرنس
ثوابة بن سلامة الجذامي.....	٤٩٦	أنس بن مالك
جوذر الصقلي.....	٤٣٩، ٤٣٨، ٤٣٧، ٢١٨، ٢١٦، ٢١٥، ٤٣٩، ٤٣٨، ٤٣٧، ٢١٨، ٢١٦، ٢١٥.....	أوراكا
جابر بن المعتضد.....	٤٤٠	
جالينوس.....	٦٧٨، ٦٧٢، ٦٧٠، ٦٦٩، ٦٦٨، ٦٦٧..	إيزابيلا
جعفر بن حمدون.....	٦٩٤، ٦٨٨	
جعفر بن زعور.....	٩٢	إيزيدور
جعفر بن عثمان (ال حاجب المصحفي).....	٢٣٠	إيفا
٢٤٥، ٢٤٥، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٧، ٢٤٦.....	٩٠	أيوب اللخمي
٢٥٢، ٢٥١، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٧، ٢٤٦.....	٤١٢، ٤١١، ٤١٠، ٤٠٩.....	باديس بن حبوس
٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٥٣.....	٦٠٠	باتراك
٢٦٢، ٢٦١، ٢٥٩.....	١٤٥، ١٤٤، ١٤٣.....	بدر (مولى الداخل)
جهور بن عبد الملك.....	٤٣١، ٤٣٠، ٢٧٥.....	برمودو الثالث
جورج سارتون.....	٤٣٠	برمودو الثاني
جوسبان.....	١٠٩	بريدة
جوستاف لوبيون.....	٢٥٠	بريهة بنت يحيى
جون براند ترنند.....	٥٥٢	بكر بن علي بن يوسف
جوندالفنو سانشيز.....	١١٣	بلال بن رياح
جوهر الجداي.....	٦٦٧	بلتران دى لا كوريقا
جوهر الصقلي.....	١٢٣، ١٢٢، ١٢١، ١٢٠..	بلج بن بشر القشيري
حاميم بن من الله.....	٣٤٢، ٣٢٦	
حسين مؤنس.....	٤١٤، ٤١٣، ٤١٢، ٢٣٣.....	بلقين
حكم بن عكاشة.....	٥٠	بنشيو
حنظلة بن صفوان.....	٤٣٨	بيدار
حي بن يقطان.....	٣٩٤	بيدور الأول
حية بن ملامس الحضرمي.....	٢١٦	تاراسيا
خالد بن الوليد.....	٥٦٦، ٥٦٤، ٥٦٣، ٥٦٢.....	تاشفين بن علي
خالد بن حميد الزناتي.....	٤٩	تدمير
خلف الحصري.....	١٤٥	تمام أبو غالب
خلف بن معدان.....	٢٨	تميم الداري
خلف بن نجاح.....	٥٠٥	تميم بن المزرب باديس
خنيتو غرسين.....	٤١٤	
خوان الثاني.....	٥١٧	تميم بن يوسف بن تاشفين
خوانا (چنة).....	٦٠٠	توماس الأكوني
خوستا (القديسة).....	١٧	تيودوسيوس
خيران العameri.....		
٣٠٢.....		

١٥١.....	سعيد اليحصبي البهاني	٦٠٠	داتي
١٦٠.....	سعيد بن أبي هند	٥٠٧، ٥٠٦، ٥٠١، ٤٩٩	داود ابن عائشة
٣٦١.....	سعيد بن خيرة	٢٥٠، ٢٤٩	درى الصقلي
١٦٤.....	سعيد بن عثمان اللغوي	٤٣٥	دقليانوس
١٦٠.....	سفيان الثوري	٣٩٠	دوزي
١٦٠.....	سفيان بن عيينة	٧٠١	دي ليل
٤٨٨.....	سقوط البرغواطي	٣٨١، ٢٨٢، ٢٨١	ديسقوريدس
١٧٩.....	سلبيان <small>البغدادي</small>	٧١١	ديفيد يوجين سمث
٣٧٠.....	سلبيان الظافر	٣٧٠	ذو التون
	سلبيان بن الحكم (المستعين بالله)، ٢٩٦، ٢٩٥	٤٢٦، ٣٦٤، ٣٦٠	ذى التون
	٣٥١، ٣٠١، ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩٨، ٢٩٧	٤٤٢، ٤٣١، ٤٢٧، ٣٩١، ٣٨٣	رامون
	٤٣٥، ٤٢٤، ٣٨٤	٤٣١	رامير والأول (ملك أراجون)
٧٠٧.....	سلبيان بن داود	٢٧٥، ٢٧٤، ٢٦٥، ٢٦٣، ٢٣٨	رامير الثالث
١٧٠، ١٦٩.....	سلبيان بن عبد الرحمن الداخل	٢١٨، ٢١٦، ٢١٥، ٢١٤	رامير الثاني
٩٥، ٩٠، ٨٠.....	سلبيان بن عبد الملك	٤٣٦	راندة
١٢٩.....	سلبيان بن هشام بن عبد الملك	٢١	ربعي بن عامر
١٥١.....	سلبيان بن يقطان	٢١٤	رمذمير (رودمير)
٤١٣، ٤١٢.....	ساجدة الصنهاجي	١٥١	رزق بن النعسان الغساني
٤١٣.....	ستندو (ششتند)	١٨١، ٢١	رستم
٤٧٣.....	سهيل بن سعد الساعدي	٧٠٥	روجر الثاني
٧٠٠.....	سولت	٥٩٩	روجر بيكون
٥٤٦.....	سيد قطب	٥١٨	زائدة
٣٦٥.....	سير بن أبي بكر	٣٠٢	زاوي بن زيري
٥٦٦.....	سير بن الحاج	٦٠١	زرقون
٥٦٢.....	سير بن علي بن يوسف	١٨٢، ١٨١، ١٨٠	زرياب
٢٣٠.....	سيزبوت	٢٣٢	زيري بن مناد الصنهاجي
١١٥، ١٠٣، ١٠١، ١٠٠.....	شارل مارتن	٣٥٧	سابور العامري
١١٣.....	شاس بن قيس	٢٣٠	سارة القوطية
١٥١.....	شقيبا بن عبد الواحد	٤٤٠، ٤٣٧، ٤٣١، ٤٣٠	سانشو الكبير
٦٣٢، ٢٨٨.....	شوقي أبو خليل	٥١٩، ٥١٨، ٥١٧	سانشو بن ألفونسو السادس ..
١٠٦.....	شيراك	٦٦٠، ٦٥٩	سانشو بن ألفونسو العاشر
٣٨١، ٣٨٠.....	صاعد الأندلسي	٤٣٨	سانشو بن راميرو
٤٨١.....	صالح بن طريف	٤٣٨، ٤٣٢	سانشو بن غرسية
٢٦١، ٢٥٣، ٢٥٢، ٢٥١، ٢٤٥	صبح البشكنسية	٤٣٩، ٤٣٨، ٤٣٧	سانشو بن فرناندو
٥٨٨.....	صلح الدين الأيوبي	٢١٨، ٢١٧، ٢١٦	سانشو غرسية الأول
	صعصعة بن سلامة الشامي	٤٣٠، ٢٧٦، ٢٧٤، ٢٣٩	سانشو غرسية الثاني
	سعد بن عبادة	٦٣٨	سعد بن عبادة

- | | | |
|--|--|-----|
| ٤٨٧..... | عبد الرحمن بن أسباط | ٤٨٧ |
| ٢٩٠، ٢٨١..... | عبد الرحمن بن المنصور (شنجول) ... | ٢٩٠ |
| ٣٠٥، ٣٠٤، ٣٠١، ٢٩٧، ٢٩١، ٢٨٢..... | | ٣٠٥ |
| ٥٢٥، ٤٥١، ٣٧٠، ٣٢٦، ٣١١، ٣٠٨..... | | ٥٢٥ |
| ٧٢٦، ٦٩١، ٦٩٠، ٦١٥، ٦١٠، ٥٧٨..... | | ٧٢٦ |
| ٤٨٧..... | عبد الرحمن بن جهور | ٤٨٧ |
| ١٤١، ١٤٠، ١٣٩..... | عبد الرحمن بن حبيب الفهري | ١٤١ |
| ١٥١، ١٤٢..... | | ١٥١ |
| ٤٢٤، ٣٧١، ٣٧٠..... | عبد الرحمن بن ذي النون | ٤٢٤ |
| ٣٧١..... | عبد الرحمن بن متيفو | ٣٧١ |
| ١٧١..... | عبد الرحمن بن موسى | ١٧١ |
| ١٤٣..... | عبد الرحمن بن يوسف الفهري | ١٤٣ |
| ٢٣٥..... | عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل | ٢٣٥ |
| ٧٠٧..... | عبد العزيز (أمير المغرب المريني) | ٧٠٧ |
| ٤١٦، ٣٣٣..... | عبد العزيز بن أبي عامر | ٤١٦ |
| ٣٥٩..... | عبد العزيز بن ساپور العامري | ٣٥٩ |
| ٧٠٧..... | عبد العزيز بن علي المريني | ٧٠٧ |
| ٩٧..... | عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز | ٩٧ |
| ٩٠، ٨٥، ٧١..... | عبد العزيز بن موسى بن نصير | ٩٠ |
| ١٥١..... | عبد الغافر اليحيصي | ١٥١ |
| ٢١٨، ٢٠٨، ١٩٣، ١٩١..... | عبد الله (الأمير الأموي) | ٢١٨ |
| ٣٤٥..... | عبد الله ابن مريم | ٣٤٥ |
| ٦٢٥..... | عبد الله العادل | ٦٢٥ |
| ٥٦٥..... | عبد الله بن أبي بكر | ٥٦٥ |
| ٤٠٨..... | عبد الله بن الخراز | ٤٠٨ |
| ٥٠٠..... | عبد الله بن المعتمد | ٥٠٠ |
| ٤١٥، ٤١٤، ٤١٣، ٤١٢، ٣٥٤..... | عبد الله بن بلقين | ٤١٥ |
| ٤٩٨، ٤٨٩، ٤٦١..... | | ٤٩٨ |
| ٣٨٤..... | عبد الله بن حكيم | ٣٨٤ |
| ١٢٨..... | عبد الله بن خالد | ١٢٨ |
| ٢٥٠..... | عبد الله بن عامر | ٢٥٠ |
| ٥٤٦..... | عبد الله بن عباس | ٥٤٦ |
| ١٦٩..... | عبد الله بن عبد الرحمن الداخل | ١٦٩ |
| ١٣٣، ٩٦..... | عبد الله بن عمر | ١٣٣ |
| ٤٤٥، ٤٤٤، ٤٢٤، ٤٢٠، ٣٧٣، ٣١، ٦٠..... | طارق بن زياد | ٤٤٥ |
| ٥٧٠، ٥٥٥، ٥٤٥، ٥٣٥، ٥٠٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦..... | | ٥٧٠ |
| ٦٩٦، ٦٨٢، ٦٦٢، ٦٥٥، ٦٢٠، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨..... | | ٦٩٦ |
| ٨٢، ٨١، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٣، ٧١، ٧٠..... | | ٨٢ |
| ٦٩٠، ٤٥١، ٣٠٨، ٢٦٧، ٢٥٠، ١٠٧..... | | ٦٩٠ |
| ٥٠، ٤٧، ٤٦، ٤٣..... | طريف بن مالك | ٥٠ |
| ٥٣٩..... | طلحة بن عبيد الله | ٥٣٩ |
| ٢٤١، ٢٣٦، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦..... | طروطة (الملك) | ٢٤١ |
| ٦٨٨، ٦٧٨، ٦٧٤، ٦٧٣..... | عائشة الحرة | ٦٨٨ |
| ٦٤٤..... | عامر بن إدريس | ٦٤٤ |
| ١٢٨، ١٢٧..... | عامر بن عمرو العبدري | ١٢٨ |
| ٣٧٠، ١٩٧..... | عباس بن عبد العزيز القرشي | ٣٧٠ |
| ١٧٤..... | عباس بن فرناس | ١٧٤ |
| ٦٤٨..... | عبد الحق بن محيو المريني | ٦٤٨ |
| ١٠٢..... | عبد الحليم عويس | ١٠٢ |
| ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٣..... | عبد الرحمن الأوسط | ١٧٦ |
| ٢٤٢، ١٨٢، ١٨١، ١٧٨..... | | ٢٤٢ |
| ٢٠٤، ٢٠١، ١٨٤..... | عبد الرحمن الجليقي | ٢٠٤ |
| ١٠٢، ١٠١..... | عبد الرحمن الحجي | ١٠٢ |
| ١٣٨، ١٣٧، ١٣١، ٢٦، ٦..... | عبد الرحمن الداخل | ١٣٨ |
| ١، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩..... | | ١ |
| ١، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٥..... | | ١ |
| ١، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١..... | | ١ |
| ١، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٧..... | | ١ |
| ١، ١٦٩، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٦٤..... | | ١ |
| ١، ١٩٢، ١٩١، ١٨٨، ١٨٢، ١٧٣، ١٧٠..... | | ١ |
| ٢، ٢٦٠، ٢٢٦، ٢٢١، ٢١٢، ٢٠٨، ١٩٧..... | | ٢ |
| ٣، ٣٣٩، ٣٢٦، ٣٢٥، ٣١٥، ٣١٠، ٣٠٨..... | | ٣ |
| ٧٢٦، ٦٩٠، ٥٧٨..... | | ٧٢٦ |
| ٩٩، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٩٣، ٩٢..... | عبد الرحمن الغافقي | ٩٩ |
| ١١٥، ١١٢، ١٠٧، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠..... | | ١١٥ |
| ١، ١٩٣، ١٩١، ١٨٨، ١٧٣، ٦..... | عبد الرحمن الناصر | ١ |
| ٢، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥، ١٩٤..... | | ٢ |
| ٢، ٢٠٦، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١..... | | ٢ |
| ٢، ٢١٢، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧..... | | ٢ |
| ٢، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٥، ٢١٤، ٢١٣..... | | ٢ |
| ٢، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢٠، ٢١٩..... | | ٢ |

- | | | | |
|---|-----------------------------------|---|-----------------------------------|
| عثمان بن أبي العلاء..... | ٦٦٢ | عبد الله بن عمر بن العزيز..... | ١٢٩ |
| عثمان بن أبي يوب..... | ١٧٠ | عبد الله بن عياض..... | ٩٦ |
| عثمان بن عفان، ٣١٢، ١٥٤، ١٤٤، ٣٣، ٢٨، ٢٤..... | ٣١٢، ١٥٤، ١٤٤، ٣٣، ٢٨، ٢٤ | عبد الله بن قاسم..... | ٣٩٨ |
| | ٧١٩، ٥٤٣ | عبد الله بن قيس..... | ٤٧ |
| عطا بن نعيم..... | ٣٤٢ | عبد الله بن محمد بن أدهم | ٤٨٦ |
| عقبة بن الحجاج..... | ١٨٢، ١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٢..... | عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط | ١٨٥ |
| عقبة بن نافع..... | ٤٨٢، ١٣٩، ٤٧، ٣٠..... | عبد الله بن مسعود..... | ١٨٢، ١١١ |
| عكرمة بن أبي جهل..... | ٦١٣ | عبد الله بن مسلمة الأفطس | ٤٠٤ |
| علي إقبال الدولة..... | ٤٢٥، ٣٨٦ | عبد الله بن مسلمة بن الأنطس..... | ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٧ |
| علي بن أبي طالب..... | ٧١٩، ٥٤٣، ٥٣٩، ١٤٤..... | | ٤٠٦، ٤٠٥، ٤٠٤ |
| علي بن أحد الخاffect..... | ٢٨٤ | عبد الله بن ياسين..... | ٤٧١، ٤٧٠، ٤٦٩، ٤٦٨..... |
| علي بن حمود ... | ٣٥١، ٣٤٤، ٣٢٦، ٣٠٢، ٣٠١..... | | ٤٧٨، ٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧٥، ٤٧٤، ٤٧٢ |
| | ٤٠٥ | | ٦٩٣، ٥٣٩، ٥٣٣، ٥٢٥، ٤٨٥، ٤٨٢، ٤٨١ |
| علي بن يوسف بن تاشفين..... | ٥٢٤، ٥١٩، ٥١٧..... | عبد المؤمن بن علي..... | ٥٥٣، ٥٥٢، ٥٣٨، ٥٣٧..... |
| | ٥٤٤، ٥٤١، ٥٤٠، ٥٣٩، ٥٣٨، ٥٢٧..... | | ٥٦٠، ٥٥٩، ٥٥٨، ٥٥٧، ٥٥٦، ٥٥٥ |
| | ٥٨٣، ٥٦٣، ٥٦٢، ٥٥٥، ٥٥٣..... | | ٥٦٦، ٥٦٥، ٥٦٤، ٥٦٣، ٥٦٢، ٥٦١ |
| عهاد الدولة بن هود | ٤٢٨، ٣٩٤..... | | ٦٣٣، ٥٧٣، ٥٧٢، ٥٧١، ٥٧٠، ٥٦٩ |
| عمر المحتاتي..... | ٥٦٤، ٥٦٣..... | عبد الملك الصمودي | ٥١٠ |
| عمر بن الخطاب..... | ٧١٧، ٥٤٣، ١٥٤، ١٤٤، ٢٣..... | عبد الملك بن جهور ... | ٣٣٨، ٣٣٧، ٣٣٦، ٣٢٦ |
| | ٧١٨ | | ٤١٩، ٤١٨، ٤١٧، ٣٧٤ |
| عمر بن حفصون..... | ١٨٧، ١٨٤، ١٨٣، ١٨٢..... | عبد الملك بن حبيب | ١٧٠ |
| | ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٧..... | عبد الملك بن سابور العامري | ٣٥٩ |
| عمر بن عبد العزيز | ٣١٠، ١٦٩، ٩١، ٩٠، ٢٧..... | عبد الملك بن عبد الرحمن بن متيبة | ٣٧١ |
| | ٥٣٦، ٣٩٩ | عبد الملك بن عبد العزيز بن المنصور | ٣٧٤، ٣٧٣ |
| عمر بن عبد الله المرادي | ١١٩ | | ٤٣٦ |
| عمر رضا كحالة | ٧١١ | عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز | ٥٣٧ |
| عمرو بن ثوابة | ١٢٥ | عبد الملك بن قطن | ١٢١، ١٢٠، ١١٨، ١١٥..... |
| عمرو بن حرث | ١٢٦ | | ١٣٢، ١٢٢ |
| عمرو بن عوف الأنصاري | ١٠٤ | عبد الملك بن مروان | ٣٢٦، ١٥٤، ١٥٣، ٢٧ |
| عمرون | ٥٢١ | عبد الواحد (الخليفة الوحدي) | ٦٣٤، ٦٢٥ |
| عنبرة بن سحيم | ١٨٢، ٩٣، ٩٢..... | عبد الواحد الشرقي | ٥٦١ |
| عياض (القاضي) | ٥٢١، ٥٢٠، ٤٦٩، ١٢٠..... | عبد الواحد المراكشي | ٥٤٩، ٥٤٢، ٥٢٦، ٣٦٣ |
| | ٦٠١، ٥٢٢ | | ٥٦٦، ٥٦١، ٥٥٩، ٥٥٧، ٥٥٦، ٥٥٣ |
| عيسيٰ | ٦٢١، ٦٠٠، ٥٦٠، ٤٩٢، ٢٦٨..... | | ٦١٩، ٦١٨، ٥٨٦، ٥٨١، ٥٧٦، ٥٦٩ |
| | ٦٩٥، ٦٤٢ | عبيد الله المهدي | ٢٠٨، ١٨٧ |
| عيسيٰ بن مزاحم | ٢٣٠ | عبيد الله بن الحجاج | ١١٩، ١١٦، ١١٥ |
| غالب الناصري | ٢٥٨، ٢٥٦، ٢٥٤، ٢٣٦، ٢٣٥..... | عبيدة بن عبد الرحمن القيسي | ١١٥ |

- لورنتي ٦٩٥
 ليوموتسكي ٧٠٠
 مؤسس المظفر التركي ٢٠٤
 ماريا (أم عبد الرحمن الناصر) ١٩١
 مالك بن أنس ٥٢٠، ١٦٠
 مالك بن وهيب ٥٤١، ٥٤٠
 مجاهد العامري ٣٩٨
 محمد (ابن القاضي عياض) ٦٨٩، ٦٨٨، ٥٢٠
 محمد الأعمش (ملك غرناطة) ٦٦١
 محمد الأمين ٥٢٢
 محمد الصغير (آخر ملوك غرناطة) ٦٧٨، ٦٧٧، ٦٧٨
 فرانسيس كاجوري ٦٩٤، ٦٨٩، ٦٨٨، ٦٨٥
 محمد الغافقي ٣١٤
 محمد بن أبي عامر (ال الحاج المنصور) ٢٤٥، ٢٢١
 ، ٢٤٥، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٧، ٢٤٦
 ، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٥، ٢٥٣، ٢٥٢
 ، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٦٢، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٥٩
 ، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٨، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٥
 ، ٢٧٦، ٢٧٥، ٢٧٤، ٢٧٣، ٢٧٢، ٢٧١
 ، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٨١، ٢٧٩، ٢٧٨، ٢٧٧
 ، ٣٤١، ٣٣٩، ٣٢٦، ٣٠٦، ٢٩٩، ٢٩٧
 ، ٣٨٣، ٣٧٣، ٣٧٠، ٣٦٩، ٣٤٣، ٣٤٢
 ، ٦٩١، ٦٩٠، ٥٢١، ٤٤٤، ٤٣٦، ٤٢٣
 محمد بن إسحاق بن السليم ٢٥٠
 محمد بن الخير ٢٣٣
 محمد بن القاسم الثقفي ٢٤
 محمد بن إلياس ١٨٨
 محمد بن تومرت ٥٣٧، ٥٣٦، ٥٣٥، ٥٣٤، ٥٣٣
 ، ٥٤٣، ٥٤٢، ٥٤١، ٥٤٠، ٥٣٩، ٥٣٨
 ، ٥٠٠، ٥٤٩، ٥٤٨، ٥٤٧، ٥٤٥، ٥٤٤
 ، ٥٥٧، ٥٥٦، ٥٥٥، ٥٥٤، ٥٥٣، ٥٥٢
 ، ٥٦٦، ٥٦٢، ٥٦١، ٥٦٠، ٥٥٩، ٥٥٨
 ، ٥٨١، ٥٧٣، ٥٧٢، ٥٧١، ٥٦٩، ٥٦٧
 ، ٦٣١، ٦٣٠، ٥٨٣، ٥٨٢
 محمد بن جعفر المصحفي ٢٥٧
 محمد بن حمادة السبتي ٥٢١
 محمد بن خزرون ٤١٠
 ، ٢٧٣، ٢٦٥، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٦٢، ٢٦١
 ، ٦٧١، ٢٧٤
 غرسية (ملك نافار) ٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٥
 غرسية بن سانشو ٤٣٠
 غرسية سانشو ٤٣١، ٢٣٩، ٢٣٨، ٢١٨، ٢١٧
 ، ٢٧٦
 غرسية سانشو الثالث ٢٧٦
 غرسية فرناندز ٢٧٤، ٢٣٩
 غيطشة ٦٢، ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤٠، ٣٩، ٣٥، ١٨...
 فاتق الصقليبي ٣٥٧، ٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٥
 فالشر ٢٨٩
 فرانسيس كاجوري ٧١١
 فرتون ٢١٨
 فرعون ٤٠٧
 فرنان كونثالت ٢٣٧، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٥
 ، ٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣٨
 فرنان لينيز ٢٣٩
 فرناندو الأرجوني ٦٦٩، ٦٦٨
 فرناندو الأول ٤٣٣، ٤٣٢، ٤٢٢، ٣٨٢، ٣٦٠
 ، ٤٥١، ٤٤٠، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٥، ٤٣٤
 فرناندو الثالث ٦٤٢، ٦٤٠، ٦٣٩، ٦٣٨، ٦٢٦
 ، ٦٤٣
 فرناندو الخامس ٦٩٤، ٦٨٨، ٦٧٦، ٦٧٢، ٦٦٩
 فرويلا ٢١٥، ٢١٤
 فريدريك تردينوبورغ ٢٨٨
 قيبة بن مسلم الباهلي ٢٤
 كامل ٢٨٦
 كتاب بن عيت ٤١٤
 كلثوم بن عياض ١٢٢، ١١٩
 كميسن ٦٩٧
 كونزالو ٤٣١
 لب ٣٨٥
 للذريق ٥٠، ٤٩، ٤٣، ٤٢، ٤٠، ٣٩، ٣٥، ١٨...
 ، ١٠٨، ٦٢، ٦١، ٥٥، ٥٤، ٥١
 لسان الدين بن الخطيب ٣٦٩، ٢٧٨، ٢٢٧، ٤٥
 ، ٦٦٥، ٦٢١، ٥٧٦، ٥٠٣، ٤٥٨، ٣٩٩
 ، ٧٠٧، ٧٠٦

- | | |
|---|---|
| ٦٩٠، ٤٨٢، ٤٥١، ٢٦٧ | محمد بن سعد..... |
| ١١٩..... | محمد بن سليمان الأموي..... |
| ٢١١..... | محمد بن عبد الحق الريسي..... |
| ٧٠٠، ٦٩٩، ٦٩٨..... | محمد بن عبد الرحمن الأوسط . |
| ٦٢٣..... | محمد بن عبد الله بن قاسم الفهري..... |
| ٣٨٦..... | محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط |
| ٢٠٦..... | |
| ١٨٨..... | ١٨٥..... |
| نصر الساماني..... | محمد بن عبد المؤمن بن علي..... |
| ٢٩، ٢٨..... | محمد بن عون الله (المؤرخ الفقيه)..... |
| ٢٨٢..... | محمد بن قاسم..... |
| نقولا الراهب..... | محمد بن مرتين..... |
| ٥٢٩، ٥٢٦..... | محمد بن هشام التجبي..... |
| ٦٥٤، ٦٥٣، ٦٤٥..... | محمد بن يحيى بن فانوا..... |
| ٥٩٩..... | ٩٠..... |
| ٢٨٧..... | محمد بن يزيد..... |
| ٢٨٢..... | محمد بن يوسف الفهري..... |
| ٢٥٠، ٢٤٦، ٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٣..... | محمد بن يوسف بن هود..... |
| ٢٧٧، ٢٦٥، ٢٦١، ٢٥٩، ٢٥٢، ٢٥١..... | محمد شاة..... |
| ٢٩٦، ٢٩٤، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٧٩، ٢٧٨..... | محمد عبد الله عنان..... |
| ٣٤٢، ٣٣٣، ٣٠٢، ٣٠١، ٣٠٠، ٢٩٩..... | مروان بن محمد..... |
| ٤١٥، ٣٧٣، ٣٥١، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٣..... | مريم عليها السلام..... |
| ٦٩٣، ٤٢٢، ٤١٦..... | مسلم بن الحاجاج..... |
| ٣٤٠، ٣٢٧، ٣٢٥، ٣٢٤..... | مسلمة بن عبد الملك..... |
| ٢٩٥..... | ١٤٢..... |
| هشام المعتمد..... | مسيلمة الكذاب..... |
| هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر..... | معاوية بن أبي سفيان... .. |
| هشام بن عبد الرحمن الداخل. ١٦٩، ١٧١، ١٧٠..... | ١٤٤، ٤٧، ٢٩، ٢٨، ٢٧..... |
| ٣٢٦، ٣١٠..... | ١٤٦، ١٥٤، ١٥٣، ١٤٦..... |
| هشام بن عبد الملك. ١١٥، ٩٦..... | معاوية بن حديج..... |
| ١٢٨، ١١٩، ١١٥، ٩٦..... | معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد الحضرمي..... |
| ٢٢٠، ١٣٧..... | منتديث كوثاث..... |
| ١٥١..... | موسى بن أبي العافية..... |
| ١٣٨..... | موسى بن أبي غسان.... .. |
| ٦٦٩، ٦٦٨، ٦٦٧..... | موسى بن نصیر |
| ٣٥١، ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩٨، ٢٩٧..... | ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤٠، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣٤..... |
| ١٨..... | ٧٣٠، ٦٨٨، ٦٨٧، ٦٨٣.... .. |
| ٦٧٩، ٦٦٨..... | ٧٣٣، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨ |
| واضح العامري. ٢٩٧..... | ٧٤، ٧١، ٧٠، ٦٩، ٦٨، ٥٨، ٥٧، ٥٠، ٤٧، ٤٦..... |
| والـ ٦٨..... | ٨٥، ٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٤، ٧٣..... |
| وجاج بن زلو اللطفي..... | ٢٠٩، ١٥٨، ١٠٧، ١٠٣، ٩٥، ٩١، ٩٠..... |
| ياقوت الحموي..... | |
| ٧١٠، ٣١٧، ٣١٥..... | |
| ٥٦٤..... | |
| يجيبي بن إبراهيم الجداли. ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨..... | |
| ٤٧٠، ٤٧٠..... | |
| ٤٧٦، ٤٧١..... | |

- يوسف بن إسماعيل بن نعراة ٤١٢
 يوسف بن بخت ٣٢٦
 يوسف بن تاشفين ٤٦١، ٤٦٠، ٤١٥، ٣٥٥، ٧،
 ، ٤٨٥، ٤٨٣، ٤٨٢، ٤٨٠، ٤٧٩، ٤٧٨
 ، ٤٩٢، ٤٩١، ٤٩٠، ٤٨٩، ٤٨٨، ٤٨٧
 ، ٤٩٨، ٤٩٧، ٤٩٦، ٤٩٥، ٤٩٤، ٤٩٣
 ، ٥٠٤، ٥٠٣، ٥٠٢، ٥٠١، ٥٠٠، ٤٩٩
 ، ٥١٥، ٥١٣، ٥١٢، ٥١٠، ٥٠٩، ٥٠٥
 ، ٦١٤، ٥٦٦، ٥٣٨، ٥٢٧، ٥٢٤، ٥١٧
 ، ٧٢٦، ٦٩١، ٦٩٠، ٦٥٨، ٦٥٧، ٦٥٦
 يوسف بن سليمان ٥٤٩
 يوسف بن عبد الرحمن الفهري ١٢٦، ١٢٥، ١١٥
 ، ١٤٣، ١٣٩، ١٣٢، ١٣٠، ١٢٨، ١٢٧
 ، ١٠٥، ١٥١، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٥
 يوسف بن عبد المؤمن بن علي ٥٧٦، ٥٧٣، ٥٧٢
 ، ٦٣٣، ٥٨٤، ٥٧٧
 يوسف بن قادس ٦١٥، ٦١٤، ٦١٢، ٦١١، ٦١٠
 يوسف بن كعاشر ٦٨٠
 يونس بن عبد الله بن مغيث ٣٣٩
- يمحي بن حرث ١٢٦
 يمحى بن حرث الجذامي ١٢٦، ١٢٥
 يمحى بن عبد الرحمن التجيبي ٣٨٣
 يمحى بن علي بن حود ٣٣٣، ٣٢٦، ٣٢٤، ٣٠٢.. ٣٤٤
 يمحى بن عمر اللمتوني ٤٨٢، ٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧١..
 يمحى بن هذيل التميمي ٢٣١
 يزيد بن أبي سفيان ٣٣٩
 يزيد بن أبي مسلم ٩٢
 يزيد بن الوليد ١٢٩
 يعقوب (القديس) ٢٦٩، ٢٦٨
 يغمراسن بن زيان ٦٥٨، ٦٥٧، ٦٤٩
 يليان ٤٧، ٤٦، ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٥
 ، ٢٣٠، ٦٢، ٦٠
- يوحنا جوتنبرج ٢٨٨
 يوريك Euric ١٨
 يوسف المربي ٦٦٢، ٦٦٠، ٦٥٨
 يوسف المظفر ٣٨٦، ٣٨٥
 يوسف النجار ٢٦٨

فهرس الأماكن

- أبذه ٦١٩، ٦١٨، ٣٢٩، ٨
 أحاجر ٦٨٠
 أدنيره ٢٨٦
 أراجون ٤٢٧، ٣٩٤، ٣٩١، ٢٩٧، ١٨٤، ١٧٢.
 ، ٦١١، ٤٥٣، ٤٣٨، ٤٣٣، ٤٣١، ٤٢٨
 ، ٦٧١، ٦٦٩، ٦٦٨، ٦٦٧، ٦٦٤، ٦٦٦
 ، ٦٧٩، ٦٧٢
 أربونة ١١٧، ١١٥، ٩١، ٧٣
 أرجونة ٦٥٠، ٦٣٩، ٣٢٩
 أرشدونة ٤١٤
 أركش ٤١١، ٤١٠، ٣٩٧، ٣٤٩
 آرل ٩٧
 أرمينية ٢٦
 إسبانيا ١٠٣، ٦٨، ٣٤، ٢١، ١٨، ١٥، ١٣، ٧
 ، ٢٤٠، ٢٢٨، ٢٢٤، ٢١٣، ٢١٠، ١٨٥
 ، ٤٣٢، ٤٣١، ٤٣٠، ٣٩٠، ٣٠٨، ٢٧٢
- إسكندرانيا ١٧٥، ١٥
 آسيا الصغرى ٧٠٨، ٧٠٥
 إشبيلية ١٧٣، ١٥٩، ١٥١، ١٤٥، ٩٠، ٧٨، ٧٠
 ، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٨٤، ١٧٦، ١٧٥
 ، ٣٢٣، ٣٠٢، ٣٠١، ٢٥١، ٢٤٢، ٢٢٩
 ، ٣٤١، ٣٤٠، ٣٣٨، ٣٣٦، ٣٣٤، ٣٣٣
 ، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٤، ٣٤٣، ٣٤٢
 ، ٣٥٦، ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٥٢، ٣٥٠، ٣٤٩
 ، ٣٦٥، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٦٠، ٣٥٨، ٣٥٧

الباسك ١٨٥	، ٤٠٤، ٣٩٥، ٣٩٠، ٣٧٩، ٣٧٦، ٣٧٣
أوبة ٢١٥	، ٤١٠، ٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٧، ٤٠٦، ٤٠٥
البحر الأبيض المتوسط ١٣، ١٠٣، ٧٣، ٦٦، ٤٧، ١٣	، ٤١٦، ٤١٥، ٤١٤، ٤١٣، ٤١٢، ٤١١
٦٧٨، ٥٦٧، ٣٩٤، ٢٠٠، ١٨٤، ١٧٦	، ٤٣٥، ٤٣٤، ٤٢٢، ٤١٩، ٤١٨، ٤١٧
البحر الأسود ٣٣	، ٤٤٩، ٤٤٦، ٤٤١، ٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٦
البحرين ٧١٩، ٧٠٨، ١٨٨	، ٤٨٩، ٤٨٨، ٤٨٦، ٤٦٠، ٤٥٤، ٤٥٢
البحيرة ٦٣٠، ٥٦٢، ٥٥٧، ٥٥٦، ٥٠٠، ٥٥٣	، ٥١٩، ٥١١، ٥٠٩، ٥٠٠، ٤٩١، ٤٩٠
البرتغال ٣٦٢، ٣٦٠، ٣٥٧، ٢٣٨، ٧١، ٢١، ١٣	، ٦٠٠، ٥٩٦، ٥٨٤، ٥٧٤، ٥٧٣، ٥٦٠
٥٨٦، ٥٨٤، ٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٤، ٤٣٠	، ٦٣٣، ٦٢٨، ٦١٩، ٦١٨، ٦٠٩، ٦٠١
٧٢٨، ٦٦٩، ٦٦٨، ٦١١، ٥٨٧	، ٦٥٤، ٦٤٩، ٦٤٢، ٦٤١، ٦٤٠، ٦٣٧
البشرات ٦٩٧	٦٩٣، ٦٨٠، ٦٧٣، ٦٥٥
البصرة ٣٩٦، ٣١٨، ٢٩	أشتوريش ٢٣٩
البصرة (إحدى مدن المغرب) ٢٣٥	أشدونة ٤٠٩
البلاط ٩٧	أصفهان ٣٦٧، ٢٢٨، ١٨٨
البلقان ٣٠٧، ١٠٦	أصيلا ٢٣٥
البوستة والمرسك ٧٣١، ١١٠، ٨	أغهات ٥٥٢، ٣٥٥
البونت ٣٩٨، ٣٢٤	إفراغة ٣٨٢
اليازين ٦٩٧	إفريقيا ٢٣٤، ٢٣٣، ١٨٢، ١٠٥، ٣٤، ٢١، ١٥
إلبرة ٢٢٣، ٦٦، ٤٥	، ٥٨٤، ٥١٥، ٤٨٤، ٤٨٣، ٤٧٠، ٣٠٩
الجانون ٤٨٤	٧٠٩، ٧٠٨، ٦٣٩، ٦٢٨
الجامع الأعظم ٣٤٣	إفريقيا الوسطى ٤٨٤
الجدوى ٦٨٤	، ٩٢، ٩٠، ٧٤، ٥٧، ٤٧، ٤٤، ٣٢، ٢٩،
الجزائر ١٨٧، ١٨٢، ١٠٥، ١٠٤، ٣٧، ٢١	، ٤٨٦، ٤٨٤، ١٢٣، ١١٩، ١١٦، ١١٥، ٩٥
٧٣٠، ٧٢٩، ٧٧٨، ٥٨٤، ٤٨٣، ٤٦٩	٦٤٥، ٦٠٧، ٥٦٠
الجزيرة الإسبانية ٦٤٥	أفغانستان ٧٣١، ٧٠٨، ١١٠
الجزيرة الخضراء ٣٤٩، ٢٥٠، ١٢١، ٥٠، ٤٨	أقادير ٥٦٤
الحجاز ٥١٤، ٣٦٧، ١٨٧، ١٣٢، ٣١	أقليش ٥١٧، ٣٧٤، ٣٧٠
الحمة ٦٧٣	أقرة بروترة ١٢٢
الحرماء ٦٨٠، ٦٧٥	الأرك ٦٠٧، ٥٩٧، ٥٩٦، ٥٩٥، ٥٩٠، ٥٨٨
الدانمارك ١٧٧، ١٧٥	٦٥٤، ٦٤٢، ٦١١، ٦٠٩
الدنمارك ١٥	الاسكتلندية ٥٣٤، ٥١٩، ٥١٤، ٣٩٦، ١٧٢
الدوفيتية ١١٧	٦٢٢، ٦٠٢، ٥٣٥
الرباط ٥٨٠، ٤٧٦	الأكاديمية العالمية للبير ١٠٥
الريبيط ٦٨٤	الأندلس ٣٩، ٣٤، ٣٩، ٣٤، ٤٣، ٤٧، ٤٤، ٤٨، ٧٣، ٧٠، ٩٠، ٧٣، ٢٧٨، ٢٦٨، ١٤٥، ١٤٢، ٩٥، ٩٢، ٩١
الرصافة ٣١٦، ١٦١	٧٤٤، ٦٦٠، ٥٠١، ٤٨٨، ٣٥٢
الراحلة (مدينة العاشرية) ٢٧٢، ٢٦٦، ٢٦١	الأهواز ١٨٨

- الكاميرون ٢٩٤، ٢٧٩
 الحكمة ٦٩٦، ٥٨١، ٢٨٤، ٢٦٨ ٤٩٢، ٤٩١، ٤٩٠، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٩٣
 الكورتيس (مجلس التواب الفشالي) ٦٦٨، ٦٣٩ ٥٩١، ٥٢٤، ٥١٨، ٥١٧، ٥١٥، ٥٠٥، ٥٠٤
 ألمانيا ٥٨٤، ٢٢٤، ١٥ ٢٥٨، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢١، ٢١٩، ٧
 الثالث الإسباني الجنوبي ٣٢٢ ٤٤٦، ٢٨٥، ٢٦١
 المحيط الأطلسي ٧٤، ٧٣، ٦٩، ٤٧، ٢١، ١٣ ٢٦، ٢٤
 ٣٥٧، ٣٥٤، ٢٦٩، ٢٦٧، ٢٠٠، ١٧٦، ٨١ ٤٨٤، ٤٨٣، ٤٧٩، ٤٧٨، ٤٧٧
 المدورة ٣٢٩ ٧٠٩، ٥٠٣، ٤٧٨
 المدينة المنورة ٧١٩، ٥٣٩، ٤٨٥، ٤٧٢، ١٥٦، ٨٠ ١٧٥، ١٥
 ، ٤٤٦، ٣٩٧، ٢١١، ١٨٤، ١٧٥، ١٥٩ ١٢٩، ١٢٣، ٨٥، ٧٩، ٦٩، ٣٥، ٣١، ٢٨
 ، ٦٤٣، ٦٤٢، ٥٧٢، ٥٦٧، ٤٩٨، ٤٨٧ ١٦١، ١٤٧، ١٤٤، ١٤٢، ١٣٨، ١٣٠
 ، ٦٨٠، ٦٧٨ ٣٤٢، ٣١٨، ٢٦٩، ١٨٨، ١٨٧، ١٧٢
 المستشفى الكبير بالرباط ٥٨٠ ٧٠٨، ٥٤٣، ٥٣٥
 المسينا ١٥ ٧٠٩
 المعدن ٣٥٣ ٧٣١، ٧٢١، ٢٠٢، ١١٠
 المغرب ٤٣، ٣٤، ٣٠، ٢٩، ٢٤، ٢١، ١٥، ١٣ ٤٦٩، ٢١
 ، ١٨٢، ١٤٢، ١٢٢، ٩٥، ٦٩، ٦١، ٦٠ ٧٠٩، ٧٠٨، ٢٤
 ، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨ ١٥٦
 ، ٤٨٢، ٣٦٨، ٣١٦، ٢٦٤، ٢٦٢، ٢٦١ ١٦٧، ١٤٢، ١٣٨، ١٢٩، ١١٠
 ، ٥١٣، ٥٠٩، ٥٠٥، ٥٠١، ٤٨٨، ٤٨٣ ٥١٤، ٤٧٩، ٤٦٧، ٣٩٦، ٣١٨، ١٨٨
 ، ٥٥٩، ٥٥٥، ٥٢٧، ٥٢٥، ٥٢٣، ٥١٩ ٧٣١، ٧٢١، ٥٣٥
 ، ٥٨٤، ٥٧٣، ٥٧١، ٥٧٠، ٥٦١، ٥٦٠ ٦١٥، ٦١٤، ٦١٣، ٦١٢، ٦٠٩، ٦٠٦
 ، ٦٤١، ٦٢٤، ٦١٣، ٦٠٠، ٥٨٨، ٥٨٧ ٦٣٧، ٦٣٢، ٦٢٤، ٦١٩، ٦١٨، ٦١٦
 ، ٦٥٨، ٦٥٧، ٦٥٣، ٦٤٩، ٦٤٦، ٦٤٥ ٦٤٨، ٦٤٧
 ، ٦٩٧، ٦٨١، ٦٦٢، ٦٦١، ٦٦٠، ٦٥٩ ١٢٩
 ، ٧٢٧، ٧٠٧، ٧٠٥ ٦٠٤
 المغرب الأقصى ٦٥٠، ٤٦٦، ٢١١، ١٤٢، ٢١
 المغرب العربي ١٠٥، ١٠٣، ٩٠، ٦٩، ٥٤، ٣١ ٢٨٤
 ، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨، ١١٩ ٣٥٤
 ، ٤٦١، ٣٥٤، ٢٠٥، ٢٠٠، ١٨٧، ١٥٢ ٣٥٤
 ، ٥٠٩، ٤٨٠، ٤٧٩، ٤٧٨، ٤٦٨، ٤٦٥ ٦٩٧، ٦٠٥، ٣١٨، ٣٠٩
 ، ٥٣٥، ٥٢٦، ٥٢٥، ٥٢٣، ٥١٤، ٥١٠ ٦٠٥
 ، ٥٦٨، ٥٦٧، ٥٥١، ٥٤٤، ٥٣٨، ٥٣٦ ٧٠٨
 ، ٥٨٨، ٥٨٧، ٥٧٧، ٥٧٣، ٥٧١، ٥٧٠ ٢١٩، ١٧٧، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٣٣
 ، ٦٤٦، ٦٢٤، ٦١٩، ٦٠٩، ٥٩١، ٥٩٠ ٦٩٧، ٦١١، ٣١١، ٣٠٩، ٢٨٢، ٢٢٤
 ، ٦٦١، ٦٥٤، ٦٥٢، ٦٤٩، ٦٤٨، ٦٤٧ ٧٢٦، ٧٠٩، ٧٠٨
 ، ٧٣٠، ٦٩٦، ٦٨٩، ٦٦٣، ٦٦٢ ١٤٠
 القوقاز ٣٠٩، ١٤٢، ١٤١، ١٣٩، ١٣٨، ٤٢
 القرآن ٤٦٧

باريس.....	٢٨٦، ٩٧، ٩٢	المكتبة الأموية.....	٢٢٧، ٧
بازو.....	٤٣٤، ٤٣٠، ٢٣٩، ٢٣٨	المملكة العربية السعودية.....	٧٢١
٢٢٣.....		المكتب.....	٦٧٧
بيحانة.....		المهدية.....	٥٨١، ٥٦٠، ٥٣٦، ٥٠٥
بجایة.....	٥٨٤، ٥٣٧	الموصل.....	٣٦٧، ١٨٨
بخارى.....	٧٠٨	الترويج.....	١٧٥، ١٥
برابر (ناكرنا).....	١٧٤	النيجر.....	٤٨٤، ٤٧٩، ٤٧١
بريشتر.....	٤٨٦، ٣٨٨، ٣٨٦، ٣٨٢، ٨	الهند.....	٧٠٩، ٧٠٨
برج قرية همدان.....	٦٧٩	الوادي الكبير.....	٥٧٤، ١٢٦
برج ملاحة غراناطة.....	٦٧٩	الولايات المتحدة الأمريكية ..	٧٢٤، ٧٢١، ١١٠
برديل.....	١٥٩		٧٣٠، ٧٢٨
برشلونة.....	١٨٤، ١٧٢، ١٥٩، ١٥١، ٧٨، ٧٣	إلياسة.....	٦٧٧
	٣٠٧، ٢٩٨، ٢٩٧، ٢٧٩، ٢٣٩، ٢٣٨	اليامة.....	١٨٨
	٤٤٢، ٤٣١، ٤٢٧، ٣٩١، ٣٨٣	اليمن.....	٧٠٩، ٢٢٩، ١٣٢، ٩٥، ٦٩، ٣٥، ٢٦
برغش.....	٤٣٢، ٢٣٧، ٢١٧	اليونان.....	٧١٨، ٥٦
برقة.....	١٣٩	أنقرة.....	٤١٤
بركونة.....	٦٥٠	أنتيجة.....	٢٦٣
بروفانس.....	١١٧	إنجلترا.....	٧١٨، ٧٠٥، ٦١١، ٥٨٤، ٢٢٤
بسطة.....	٦٨٠	أندرش.....	٦٨٨
بطليوس.....	٣٥٩، ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٠، ٣٣٤، ٣٢٣	أندوجر.....	٣٢٩
	٣٦٥، ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٦٠	أوروبا.....	٨٠، ٧٨، ٣٣، ١٧، ١٦، ١٥، ١٣، ٨، ٦
	٣٧٩، ٣٧٦، ٣٧٣، ٣٧٨، ٣٦٧، ٣٦٦		١٨٨، ١٧٥، ١٥٩، ١٤٧، ١٠٣، ١٠٢، ٨٩
	٤٠٨، ٤٠٧، ٤٠٦، ٤٠٥، ٤٠٤، ٣٩٥		٢٨٥، ٢٤٤، ٢٢٤، ٢٢٢، ٢٢٠، ٢١٩
	٤٤٤، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٥، ٤٣٤، ٤٢٣		٣٣٩، ٣١٥، ٣١٤، ٣١٠، ٣٠٧، ٢٨٦
	٤٨٨، ٤٦١، ٤٦٠، ٤٥٤، ٤٥٢، ٤٤٥		٦٦٦، ٦١١، ٦١٠، ٦٠٩، ٥٩٠، ٥٧٤
	٥٠٧، ٥٠١، ٤٩١، ٤٩٠، ٤٨٩	٧٢٧، ٧٢٦، ٧٢١، ٧١٩، ٧١٠، ٧٠٦، ٦٨٩	
بغداد ...	٣٠٩، ٢٨١، ٢٢٠، ٢١٩، ١٨٨، ١٨٠	أوريولة.....	٦٦
	٤٨٥، ٣٩٦، ٣٦٧، ٣٥٢، ٣١٨، ٣١٦	أوسلو.....	٧٣٠
	٦٢٠، ٥٤٣، ٥٤١، ٥٣٤، ٥١٩، ٥١٣	إيران.....	٢٢٨
بلاد الغال.....	٩٢، ١٨، ١٧	إيطاليا.....	٣٩٥، ٢٨٧، ٢٢٤، ١٧٦، ١١٧، ٧٨
بلاد القوقاز.....	٢٤		٧٠٦، ٤٩٢
بلد الوليد.....	٦٦٨	باب أغاث.....	٥٦٦
بلغاريا.....	٧٨	باب السدة.....	٢٤٩، ١٩٧
بلنسية، ٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٨٤، ٢٠١، ١٨٤	٣٣٣، ٣٢٣، ٣٠٠	باب إيلان.....	٥٢٢
	٣٩٣، ٣٩١، ٣٧٨، ٣٧٤، ٣٧٣، ٣٥٣	باب باشتر.....	١٨٤
	٤٢٨، ٤٢٧، ٤٢٦، ٤٢٥، ٤١٦، ٣٩٨	باجة.....	٤٠٤، ٣٩٨، ٣٦٧، ٣٥٨، ٣٥٧، ٩٢
	٥١٢، ٤٨٦، ٤٥٨، ٤٥٣، ٤٤٢، ٤٣٦		٤٤٦، ٤٤٥
	٦٢٨، ٦٢٦، ٦٢٠، ٦٠٢		

جبال المصامدة.....	٥٤٨	بليانة.....	٦٨٤
جبال جيليقية.....	٦٨	بنبلونة.....	٢٧٦، ٢١٧، ٢٠٣
جبال رندة.....	٢٠٠	بواتيه.....	١٠٧، ١٠٣، ٩٩، ٩٧
جبل الشارات (سييرا مورينا).....	٤٥٥، ٣٥٧، ٣٢٩.	بودو.....	٩٧
جبل تاجرة.....	٥٦٣	بوركينا فاسو.....	٤٨٤
جبل طارق.....	٦٦٣، ٤٨، ١٣	بياسة.....	٦٢٤، ٦١٩، ٦١٨، ٣٢٩
جبل فاره.....	٦٢٢	بيت المقدس.....	٥١٩، ٣٩٦، ٢٦٨
جبل قرطبة.....	٢٣١	بيدمونت.....	١١٧
جبل كربنطة.....	٥٦٢	بيزنطة.....	٢٢٤
جزر البليار (الجزائر الشرقية) ...	١٧٧، ٣٨، ٣٤	تاجرت.....	٥٦٤، ٥٥٩
جزر العرب.....	٧٠٩، ٧٠٨، ٥٤٠، ١٥٦، ٣٥	تادلا.....	١٤٢
جزر المالديف.....	٧٠٨	تادلة.....	٥٦٢، ٥٢١
جزيرة العرب.....	٧٠٩، ٧٠٨، ٥٤٠، ١٥٦، ٣٥	تاغالا.....	٤٣٢
جزيرة شلطيش.....	٤١٩، ٣٤٩	تاهرت.....	٥٦٤، ٢١٠
جزيرة طريف.....	٦٦٠، ٦٥٨، ٦٥٧، ٦٥٦، ٤٣	تدمير.....	٣٥٤
جزيرة يابسة.....	٣٤	ترجالة.....	٣٦٨
جزيرة يابسة	٢٣٩، ٢٣٨، ٢١٤، ٢١٣، ١٢٠، ١١٧	تركيا.....	٧٨
حليقية	٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٣، ٤٣١	تسرت.....	٧٢٣
جيانت.....	٣٢٩، ٢٠١، ١٩٩، ١٨٤، ١٦٩، ٧١، ٦٨	تطيلة.....	٤٢٣، ٣٨٥، ٣٨٢
حصن أركش.....	٤١٠	تلمسان.....	٧٠٧، ٦٤٩، ٥٧١، ٥٦٣، ٥٥٩
حصن إشبيلية الكبير.....	٤٤٦	تبكتو.....	٤٧١
حصن أقليش.....	٣٧٠	توجو.....	٤٨٤
حصن الأراك.....	٥٩٤	تور.....	٩٧
حصن الحامة.....	٢٥٥	توررو.....	٦٦٩، ٤٣٩، ٤٣٧
حصن المال.....	٢٥٨	تولوز.....	١٠٣، ٩١
حصن زنق.....	٢٥٨	تونس.....	٢٢٣، ٢١٩، ١٨٧، ١٨٢، ٤٧، ٤٢، ٢١
حصن سرية.....	٤٥٣		، ٦٢٨، ٦٢٥، ٥٧٢، ٥٦٨، ٥٣٦، ٤٨٣
حصن شنت منكش.....	٢١٤		٧٣٠، ٦٤٥، ٦٣٢
حصن فتورية	٤٥٣	تينملل ...	٥٧٢، ٥٦٢، ٥٥٥، ٥٥٣، ٥٥٢، ٥٤٢...
		جامعة سالرنو.....	٢٨٦
		جامعة قرطبة.....	٢٢٨، ٧
		جامعة كامبريلج	٧١٠
		جامعة مونتيثي.....	٢٨٦
		جبل أشتوريش (استورياس).....	٦٨
		جبل الأنجلس.....	٦١٠
		جبل البرانس.....	١٠٢
		جبل البرينيه (جبل البرتات).....	١٧٢، ٧٣، ١٥، ١٣

سالم.....	٢٨١، ٢٧٩، ٢٥٤، ٢١٦، ٢٠٣، ١٦١	حصن قبرة.....	٤١٣
	٤٣٥، ٤٢٤، ٢٩٨، ٢٩٧	حصن قاتش.....	٤٥٣
سان بول.....	١١٧	حصن ليط.....	٥١٣، ٥١٢
سانس.....	٩٢	حصن متنانجش.....	٣٦٥
سبعة	٤٣، ٤٢، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٤، ٣١، ١٥، ١٣	حصن مولة.....	٢٥٦
، ٢٠٥، ١٢١، ١٢٠، ٦٢، ٦٠، ٤٨، ٤٦، ٤٤		حصن وبدة.....	٤٥٣، ٤٢٦، ٣٧٩
، ٣٠١، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٢٣، ٢١٠، ٢٠٩		حراء غرناطة.....	٦٨٦
، ٦٠١، ٥٢١، ٥٢٠، ٤٨٨، ٤٨٧، ٣٠٢		حصن الشام.....	٣٤٢، ١٢٩
	٧٠٥، ٦٦٢، ٦٥٨، ٦٤٥	حوض الفوجا الأذني.....	٧٠٨
سبانيا.....	١١٧، ١٠٣، ٩١	خالون.....	٣٨٢
ستمن ياقب (سانت يعقوب).....	٢٦٨	خراسان.....	١٨٨، ١٢٩، ٢٦
سجلة.....	٦٤٩، ٥٥٥	خلبيج سكاي.....	٢٦٧، ٧٤
سرقسطة.....	١، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٠، ٧٨، ٧٦، ٧٣	خلبيج غ SCN (بسكونية).....	٦٩
	، ٢٠٥، ٢٠٣، ٢٠١، ١٨٤، ١٦٣، ١٦١	خندق الخمر.....	٥٦٣
	، ٣٧٨، ٣٧٢، ٣٦٩، ٣٢٣، ٢٨٦، ٢٠٦	خوارزم.....	٧٠٨
	، ٣٩٠، ٣٨٦، ٣٨٥، ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٨٢	دالاس.....	٧٢٨
	، ٤٢٠، ٣٩٥، ٣٩٤، ٣٩٣، ٣٩٢، ٣٩١	دانية.....	٤١٦، ٣٩٨، ٣٩٧، ٣٩١، ٣٨٦، ٣٣٣
	، ٤٢٧، ٤٢٦، ٤٢٥، ٤٢٣، ٤٢٢، ٤٢١		٦٢٨، ٤٤٢، ٤٢٥
	، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٤، ٤٣٢، ٤٣١، ٤٢٨	داهومي.....	٤٨٤
	٥٦٨، ٤٦٠، ٤٥٣، ٤٤٢، ٤٤١	دراب الزقاق.....	١٣
سلا.....	٦٤٩، ٥٧٢، ٥٦١	درعة.....	٦٤٩
سلبطة.....	٦١٠، ٦٠٩	درودة.....	٣٨٢
سمورة	٦٦٩، ٤٣٩، ٤٣٧، ٢٦٥، ٢١٥	دمشق.....	٢٣٠، ١٦٧، ٩٥، ٨٥، ٨١، ٧٩، ٧٨، ٧٧
سهل أتابوركا.....	٤٣٢		٦٢١، ٥٣٦، ٥١٩، ٣٦٧، ٣١٨، ٣٠٨
سوبراري.....	٤٣١، ٢٧٦	دوبرة.....	
سوريا.....	٧٢٩	دير ساهاجون.....	٤٣٨، ٢١٤
سوس.....	٥٥٣، ٥٥٢، ١١٩	ربا جورسيا.....	٤٣١، ٢٧٦
سوق البز.....	٥٢٩	رسانة.....	٦٨٤
سوق الكتاني.....	٥٢٩	رملاة أفلوم.....	٦٨٤
سوق مدينة فاس.....	٥٢٩	رندة.....	٤١١، ٤١٠، ٣٩٧، ٣٤٩
سيراليون.....	٤٨٤	روسيا.....	٧٣٠، ٧٢٤، ٧٢١
سيلان.....	٧٠٩	روما.....	٧١٨، ٦٨٦، ٦٠٨، ٣٨٧، ٢٦٨، ١٨٢، ١٨٢
شاطبة.....	٦٠٢، ٣٦٨		٧٢٤
شانت ياقب.....	٢١٤	رومانيا.....	
شانت ياقب (سانت يعقوب).....	٢٦٩	ريمة.....	١٢٦، ١٢٥
شبه الجزيرة الأيبيرية.....	٤٣٣، ٢٦٨، ٦٨، ١٧، ١٣	زفة العربي الأخيرة.....	٦٨٩
	٧٢٨، ٧٠٥، ٦٦٧	ساحل العاج.....	٤٨٤

- شذونة ٣٤٩، ٢٠٠، ١٧٥، ١٢١، ٧٠، ٦٥ ٤٤٦، ٤١٠
- شريش ٦٧٣، ٦٥٥، ٦٥٤، ٦٤٤، ٦٠١ شقدة ٢٢١، ١٢٧، ١٢٦ شقوية ٦٦٩ شلب ٦٠١، ٥٨٦، ٣٩٨ شلطيش ٣٩٨ شلمقنة ٢٧٤، ٢٥٨، ٢٣٩ شيل إفريقيا ٣٦، ٣٥، ٣٣، ٣١، ٢٨، ٢٤، ٢١ ٨٠، ٧٩، ٦٩، ٦١، ٦٠، ٤٧، ٤٤، ٤٢، ٤١٠ عتفة ٦٨٣ عدوة المغرب ٢٧٩، ٢٦٠، ٢٥١، ٢٣٥، ٢١٠ ٦٦٠، ٦٥٤، ٥٢٠، ٤٨٨، ٤٢٤، ٤١١ عمان ٧٠٨ عانا ٤٨٤ غرناطة ٣٢٩، ٣٢٣، ٣٠١، ١٨٤، ٩٨، ٦٦، ٤٥ ٤١٠، ٤٠٩، ٤٠٨، ٣٩٧، ٣٥٨، ٣٥٣ ٤٠٢، ٤٤١، ٤١٤، ٤١٣، ٤١٢، ٤١١ ٥٦٠، ٥٢١، ٤٩٨، ٤٨٩، ٤٨٨، ٤٦١ ٦٣٩، ٦٣٨، ٦٣٧، ٦٣٣، ٦٢٨، ٦٢٦ ٦٥٢، ٦٥١، ٦٤٥٠، ٦٤٣، ٦٤٢، ٦٤١ ٦٦٣، ٦٦٢، ٦٦١، ٦٥٩، ٦٥٦، ٦٥٣ ٦٧١، ٦٧٠، ٦٦٧، ٦٦٦، ٦٦٥، ٦٦٤ ٦٧٨، ٦٧٧، ٦٧٦، ٦٧٤، ٦٧٣، ٦٧٢ ٦٨٤، ٦٨٣، ٦٨٢، ٦٨١، ٦٨٠، ٦٧٩ ٦٩٣، ٦٩١، ٦٩٠، ٦٨٨، ٦٨٦، ٦٨٥ ٧٣٠، ٧٢٧، ٧٠٧، ٧٠٦، ٧٠٥، ٦٩٧، ٦٩٤ ٥٦٣ غمارة ٤٨٤ غينيا بيساو ٧٠٨، ٥٠٤، ٥٠٠، ١٨٢، ١٨١، ١٤٢ ٧١٨، ٧١٧ فاس ٦٤٩، ٥٧١، ٥٦٤، ٥٢٠، ٢١١، ٢١٠ ٧١٠، ٧٠٩، ٧٠٧، ٦٨٩، ٦٥٠ فحص غرناطة ٦٨٣ فحص مهران ٢٣٤ فرغانة ٤٨٤ فرنسا ٧٩، ٧٨، ٧٤، ٧٣، ٣٦، ١٧، ١٥، ١٣ شنتيرية ٤٢٦ شنترة ٣٦٥ شترین ٥٨٤، ٥٧٣، ٤٣٤، ٣٦٨، ٣٦٥، ٣٥٧ شتمرية ٣٩٨، ٣٧٠، ٣٦٨، ٣٤٩ صخرة بلاي ١٣٣، ١٣٠، ١١٧، ٨٩، ٨٢، ٧٤ ٢٦٧ صقلية ٧٠٥، ٥٧٠، ٤٧ طبرستان ١٨٨ طرابلس الغرب ٥٦٠، ٢٥٠ طرسونة ٩١ طرش ٥٨٧ طرطوشة ٣٨٦، ٣٨٥، ٣٨٢، ٣٣٣، ٢٩٦، ١٥٩ ٥٦٨، ٤٤٢، ٤٢٧، ٤٢٥، ٤١٦، ٣٩٥، ٣٩١ طركونة ٣٩٥، ٣٨٢ طريق البشرة ٦٨٥ طفير ٦٨٤ طلبرية ٤٢١ طلوشة ٩٧ طليطلة ٧١، ٧٠، ٦٨، ٦٦، ٦٥، ٦٢، ٥٠، ٤٩ ١٦٩، ١٦١، ١٥٩، ١٢١، ١٢٠، ١٠٧، ٨٩ ٢٢٤، ٢١٤، ٢٠٣، ٢٠١، ١٨٤، ١٧٠ ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٣٨، ٣٢٣، ٢٩٧، ٢٥٨ ٣٦٨، ٣٦٤، ٣٦٢، ٣٦٠، ٣٥٨، ٣٥٧ ٣٨٠، ٣٧٩، ٣٧٨، ٣٧٤، ٣٧٣، ٣٧١

- ١٣٨..... قرية دير خنان.....
 ٧٠٥..... قسطنطية.....
 ،٢١٨،٢١٧،٢١٦،٢١٥،٢١٣،٦٨..... قشالة....
 ،٢٥٦،٢٤١،٢٤٠،٢٣٩،٢٣٨،٢٣٧
 ،٢٩٥،٢٨٠،٢٧٩،٢٧٤،٢٦٥،٢٦٣
 ،٣٦٢،٣٦٠،٣٠٠،٢٩٩،٢٩٧،٢٩٦
 ،٣٧٩،٣٧٤،٣٧٣،٣٦٩،٣٦٥،٣٦٤
 ،٤٢٣،٤٢٢،٤١٣،٣٩٣،٣٨٥،٣٨٣
 ،٤٣٨،٤٣٧،٤٣٣،٤٣٢،٤٣١،٤٣٠
 ،٤٥٤،٤٥٣،٤٥٢،٤٤٢،٤٤١،٤٤٠
 ،٤٨٦،٤٦٥،٤٦٠،٤٥٩،٤٥٨،٤٥٦
 ،٥٨٧،٥٨٦،٥٨٣،٥١٩،٥٠٣،٤٨٩
 ،٦٢٦،٦١١،٦٠٩،٥٩٧،٥٩٠،٥٨٨
 ،٦٤٤،٦٤٣،٦٤٢،٦٤٠،٦٣٩،٦٣٨
 ،٦٥٧،٦٥٥،٦٥٤،٦٥٣،٦٤٦،٦٤٥
 ،٦٦٩،٦٦٨،٦٦٧،٦٦٤،٦٦١،٦٥٩
 ،٦٨٠،٦٧٩،٦٧٨،٦٧٣،٦٧٢،٦٧١
 ،٦٨٥،٦٨٣،٦٨٢،٦٨١
 ٤٥..... قصبة غرباطة.....
 ٢٦٩..... قصر أبي دانس.....
 ،٦٨٨،٦٨٧،٦٧٦،٦٦٦،٦٥٢،٧..... قصر الحمراء.....
 ٦٩١..... قصر الزهراء.....
 ٢٢٤..... قصر اليونانيين.....
 ٢٥٨..... قصر قرطبة.....
 ١٤٨..... قصر يوسف الفهري.....
 ٣٨٣..... قطلونية.....
 ٤٢٣،٣٨٢..... قلبة (قلهرة).....
 ٣٩١..... قلعة المنار.....
 ٤٣٥،٤٢٣..... قلعة النهر (قلعة هنارس).....
 ٤٢١،٣٨٥،٣٨٢،٣٧١،٣٦٨..... قلعة أيوب.....
 ٣٦٥..... قلعة بطليوس.....
 ٢٣٥..... قلعة حجر النسر.....
 ،٦٩٢،٦١١،٥٨٨،٣٧٠،٢٥٥،١٩٧..... قلعة رياح
 ٦٦٨
 ٦١٤،٦١٠..... قلعة سلبطرة.....
 ٤٣٦،٤٣٤،٣٦٠،٣٥٧،٢٣٩،٢٣٨..... قلمورية...
- ،٩٧،٩٢،٩١،٩٠،٨٩،٨٨،٨٥،٨٢
 ،١٠٧،١٠٥،١٠٤،١٠٣،١٠٢،١٠١
 ،١٥٨،١٤٧،١٣٢،١٣٠،١١٧،١١٦
 ،٥١٥،٤٩٢،٣٩٥،٢٢٤،١٧٢،١٦١
 ٧٢٩،٧٢٧،٧٠٥،٦٢٦،٦١١،٥٦٧،٥١٧
 ،٧٢٩،٧٢٨،٧٢١،٢٠٢،١٢٩،١١٠..... فلسطين.....
 ٧٣١،٧٣٠
 ١٧٥..... فنلندا.....
 ٣٠٧..... فينيسيا.....
 ٥٧٢..... قبر ابن تومرت.....
 ٢٦٩..... قبر القديس يعقوب.....
 ٢٩..... قبر صرس.....
 ،١٢٠،٩٧،٩٠،٨٩،٧١،٦٨،٦٦،٥٠
 ،١٢٨،١٢٧،١٢٦،١٢٤،١٢٢،١٢١
 ،١٧٠،١٧٩،١٦٧،١٦٤،١٥٠،١٤٨
 ،١٩٦،١٩٥،١٩١،١٨٤،١٧٤،١٧١
 ،٢٢٠،٢١٧،٢١٢،٢٠١،١٩٩،١٩٧
 ،٢٢٥،٢٣٤،٢٣٢،٢٢٩،٢٢٣،٢٢١
 ،٢٥٦،٢٥٥،٢٥٤،٢٥٠،٢٤٢،٢٣٦
 ،٢٧١،٢٦٥،٢٦٤،٢٦٣،٢٦١،٢٥٧
 ،٢٨٤،٢٨٣،٢٨٢،٢٨١،٢٧٩،٢٧٧
 ،٣٠١،٣٠٠،٢٩٨،٢٩٧،٢٩٥،٢٩١
 ،٣١٠،٣٠٩،٣٠٨،٣٠٧،٣٠٣،٣٠٢
 ،٣٢٣،٣١٨،٣١٧،٣١٦،٣١٥،٣١٤
 ،٣٣١،٣٢٩،٣٢٧،٣٢٦،٣٢٥،٣٢٤
 ،٣٣٩،٣٣٨،٣٣٧،٣٣٤،٣٣٣،٣٣٢
 ،٣٥٣،٣٥١،٣٤٦،٣٤٥،٣٤٤،٣٤١
 ،٣٧٧،٣٧٤،٣٦٩،٣٦٨،٣٦٠،٣٥٩
 ،٤١٧،٤١٦،٤١٥،٤١٤،٤٠٤،٣٨٠
 ،٤٤٦،٤٣٣،٤٢٥،٤٢٠،٤١٩،٤١٨
 ،٥١٨،٤٩٦،٤٩٣،٤٨٩،٤٨٦،٤٥٢
 ،٦٠٠،٥٩٥،٥٦٠،٥٥٤،٥٢٩،٥٥٢
 ،٦٥٤،٦٥٣،٦٤٠،٦٣٧،٦٢٦،٦٢٥
 ٧٠٥،٦٧٣،٦٥٥
 ١١٧،٩٢..... قرقشونة.....
 ٣٩٧،٣٥٨،٣٥٠،٣٤٩،٢٠٠،٧٠.... قرمونة.....
 ٦٤٠،٤١١،٤١٠،٤٠٩،٤٠٥،٤٠٤

- مدريد ٦٧٥، ٦٠٥
٧٠٤، ٧٠٠، ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٥٦، ٦٨ ٧٣٠
٥٦٥ ١٣٨
مدينة عبد المؤمن ٣٠٩، ٨٩
مراكش ٥٠٩، ٥٠٦، ٣٦٨
٥٥٣، ٥٤٢، ٥٣٨، ٥٢٢، ٥١٠، ٤٨٣ ٤٥٤، ٤٥٣، ٣٧٨، ٣٥٣
٥٦٦، ٥٦٥، ٥٦٤، ٥٦٣، ٥٥٦، ٥٥٥ ٢٧٦
٦٠١، ٦٠٠، ٥٨٧، ٥٨٠، ٥٧٧، ٥٧١ ٧٠٨
٧١١، ٧١٠، ٧٠٥، ٦٥٠ ١٨٨
٣٩٨، ٣٩٧، ٣٥٣، ١٧٥، ١٧٠، ٦٦ ٧٣١، ٢٠٢، ١١٠
مرسية ٥٢١
كشمير ٧٣١، ١١٠
كووسوفا ٥٥٢
كيل ٥٦٨، ٤٢٧، ٣٩١، ٣٨٥، ٣٨٤، ٣٨٢ ٤٣٤، ٢٣٩، ٢٣٨
لاردة ٤٣٤، ٢٣٤، ٢٥١، ٣٣٤، ٣٤٩، ٣٤٠، ٣٩٨، ٣٦٠، ٣٤٩، ٣٤٠
لامبيجو ٤٤٦، ٤٠٧، ٤٠٦
بلبة ٤٠٦، ٣٦٨، ٣٦٥، ٣٥٩، ٣٥٧، ٧١ ٤٣٤
لشبونة ٢٨٦
لندن ٦٧٦، ٦٧٤
لوشة ٧٢٩، ٧٠٨، ٥٧٢، ١٣٩، ١٣٨، ٢٤، ٢١ ٧٢٩، ٧٠٨، ٥٧٢، ١٣٩، ١٣٨، ٢٤، ٢١
ليبيا ١٧٦، ١٦١، ١٤٧، ١٣٠، ١١٧، ٦٨ ٢٠٥، ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١، ١٨٤، ١٨٣
مقبرة جبل طارق ٦٦٢، ٦٦١، ٦٠٩، ٥٨٨، ٤٩٠، ٢٠٥ ٢١٥، ٢١٤، ٢١٣، ٢١٢، ٢٠٧، ٢٠٦
مقبرة باب المحرق ٧٠٧ ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٦، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦
مكة المكرمة ٥٣٦، ٥٣٤، ٥١٩، ٤٨٥، ٤٧٢، ٤٦٨ ٢٦٧، ٢٦٥، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٤٠، ٢٣٩
مكبة ٥٤٣، ٥٣٩ ٣٦٠، ٣٠٧، ٣٠٠، ٢٩٥، ٢٧٥، ٢٧٤
بغداد ٢٢٨ ٤٣٧، ٤٣٥، ٤٣٢، ٤٣١، ٤٣٠، ٣٨٣
مكتبة ٢٢٨، ٢٢٣ ٦٠٩، ٥٩٧، ٥٩٠، ٤٤١، ٤٤٠، ٤٣٨
قرطبة ٦٦٩، ٦١١
لondon ٢٤
ما وراء النهر ٣٥٧، ١٧٠، ١٦٩، ١٢٢، ٧٨، ٧٠ ٧٠٩
ماردة ٧٠٩ ٤١٠، ٤٠٩، ٣٥٨، ٣٢٦، ٣٢٤، ٦٦ ٤٨٤
مالديف ٦٧٨، ٦٧٧، ٦٧٢، ٦٦٢، ٦٥٨، ٦٥٦، ٦٥٥
مالقة ٤٨٤ ٦٦٦
موريل ٣٩١ ٣٩١
مورور ٤١٠، ٣٩٧، ٣٤٩، ٦٥ ٤٨٣، ٤٨٠
موريتانيا ٤٧٩، ٤٧٨، ٤٧٧، ٤٧١، ٤٦٩، ٤٦٦ ٤٠٥
موريل ٣٩١
ميرثلة ١٥٩ ١٥٩
ميناء إشبيلية ١٥٩ ١٥٩
ميناء الهرية ١٥٩

٢٣٨.....	نهر منيو.....	١٥٩	ميناء برشلونة.....
٥٨٨.....	نهر وادي آنة.....	١٥٩	ميناء طرطوشة.....
٤٨٤.....	نيجيريا.....	٢١٢، ٢٠٧، ٢٠٣، ٢٠٢، ١٨٥.....	نافار (نبرة).....
٧١٩، ١٥٦.....	حجر.....	٢٢٨، ٢٣٦، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٤.....	
٦٠١.....	هريز.....	٢٧٠، ٢٦٩، ٢٦٥، ٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩.....	
٦٧٨، ٦٧٦، ٦٧٤، ٦٦٠، ٦٥٥، ٥٧٦.....	وادي آش.....	٣٨٣، ٣٨٢، ٣٠٧، ٢٩٠، ٢٧٦، ٢٧٤.....	
	٦٨٦، ٦٨٠، ٦٧٩.....	٤٣٣، ٤٣٢، ٤٣١، ٤٣٠، ٤٢٣، ٣٨٥.....	
٤٣٥، ٤٢٣، ٤٢١.....	وادي الحجارة.....	٦١١، ٦٠٨، ٥٩٧، ٥٩٠، ٤٣٨، ٤٣٥.....	
٥٨، ٥٧، ٥٣، ٥١، ٥٠.....	وادي برباط (وادي لكتة).....	٣٨٢.....	نهر إبراه.....
١٢٤، ١٠٧، ٦٦، ٦١، ٥٩.....		٤٢١.....	نهر الناجة.....
١١٩.....	وادي شليف.....	٦٨.....	نهر الناجو.....
٦٥٠.....	وادي غفو.....	١٠٣.....	نهر المخارون.....
٦٤٧.....	وادي ملوية.....	٩٢.....	نهر الرون.....
٦٨٤.....	وادي متليل.....	١٣٠.....	نهر الزاب.....
٣٥٧، ٣٥٤.....	وادي يانة.....	٤٧٤.....	نهر السنغال.....
٤٥٤.....	وبذة.....	١٣٨.....	نهر الفرات.....
٥٦٣.....	وجرة.....	٤٧١.....	نهر النيجر.....
٤٢٣، ٣٨٥، ٣٨٢.....	وشقة.....	٤٧١.....	نهر النيل.....
٣٩٤.....	وقشة.....	٣٢٩، ٣٠٩، ٣٠٨، ١٧٦.....	نهر الوادي الكبير.....
٣٩٨، ٣٤٩.....	ولبة.....	٣٦٩.....	نهر تاجة.....
٥٦٤، ٥٦٣.....	وهران.....	٤٣٤.....	نهر تورمس.....
٤٠٨، ٤٠٧، ٣٦٢، ٣٦٠.....	يابرة.....	٤٣٧، ٤٣٤، ٢٣٩، ٢٣٨.....	نهر دويرة.....
٦٨٤.....	يعمور.....	٣٨٢.....	نهر سجري.....
٧٨.....	بورغوسلافيا.....	١٩٧.....	نهر شنيل.....
		١٢٦.....	نهر قربطة.....

فهرس الغزوات والمعارك

٢٠٣.....	غزوة مويش.....	٤٧٢.....	بيعة العقبة الثانية.....
٤٥.....	فتح إليرية.....	٤٧٧.....	حرب برغواطة.....
٤٥.....	فتح طارق بن زياد غرناطة.....	٩٨.....	سقوط غرناطة.....
٣٤.....	فتح قبرص.....	١٧٥.....	غزوات الفايكنج.....
٥١٧.....	معركة أهلش.....	١٥٥، ١١٢، ١١١، ١٠٢، ٩٨.....	غزوة أحد.....
١٢٢.....	معركة أقفة بربطورة.....	١٥٥.....	غزوة الأحزاب (الخندق).....
٥٩٥، ٥٩٠، ٥٨٨، ٥٨٦، ٥٨٢، ٧.....	معركة الأرك.....	٥٤٠، ١١٢، ١١١.....	غزوة بدر الكبرى.....
٦٥٤، ٦٤٢، ٦١١، ٦٠٩، ٦٠٧، ٥٩٧، ٥٩٦.....	معركة الأشراف (وادي شليف).....	١١٢.....	غزوة حراء الأسد.....
١١٩.....		٦١٥، ٢٠٦، ٩٨، ٥٩، ٧.....	غزوة حنين.....

معركة حطين ٥٩٥، ٥٩٠، ٥٨٨	معركة البحيرة (البستان) ٥٥٧، ٥٥٦، ٥٥٥
معركة ذات الصواري ٣٤	٦٣٠، ٥٦٢
معركة سمورة ٢٠٧	معركة الخندق بين عبد الرحمن الناصر وملكة ليون
معركة شقندة ١٢٦	٦١٥، ٢١٥، ٢١٣، ٢٠٦
معركة شنت إشتبين ٢٣٨، ٢١٤	معركة الدونونية ٦٥٤، ٦٥٣
معركة شنت منكش ٢٧٥	معركة الزلاق ٤٦١، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٩٣
معركة شنت ياقب ٢٦٨	٤٦١، ٤٢٧، ٤٢٦، ٣٩٣
معركة شنتررين ٥٨٤	٥١٨، ٥١٧، ٥١٥، ٥٠٥، ٥٠٤، ٤٩٢
معركة صفين ٢٩	٥٩١، ٥٢٤
معركة عين الجر ١٢٩	معركة العقارب ٦١٣، ٦١٢، ٦٠٩، ٦٠٦، ٩٨، ٧
معركة فحص مهران ٢٣٤	٦٢٤، ٦١٩، ٦١٨، ٦١٦، ٦١٥، ٦١٤
معركة فيانا ٤٣٨	٦٤٨، ٦٤٧، ٦٣٧، ٦٣٢
معركة قندة ٥٣٠، ٥٢٣	معركة القادسية ٥٠٤، ٢١٦
معركة نهاؤند ٥٠٠	معركة القليعة ٥٣٠، ٥٢٣
معركة نهر الزاب ١٣٠	معركة المصارة ١٦٥، ١٥٥، ١٥٠، ١٤٨، ١٤٦
معركة وادي برباط (وادي لكتة) ٥٣، ٥١، ٥٠، ٦	معركة الولجة ٥٠٠
٧٢٣، ١٠٧، ٦٦، ٦١، ٥٩، ٥٨، ٥٧	معركة اليرموك ٧٢٣، ٥٠٤، ٢٩، ٢٨، ٦
معركة وادي سليط ١٢١	معركة أبيشة ٦٢٦
هجوم الفايكنج على الأندلس في عهد الحكم المستنصر ٢٤٢	معركة بلاط الشهداء (بواتيه) ٩٩، ٩٨، ٩٧
هجوم الفايكنج على الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط ١٧٥	١١١، ١٠٧، ١٠٥، ١٠٣، ١٠٢
	٦١٥، ١٧٨، ١٣٢، ١١٥، ١١٢
	٤٢٨، ٣٩٤
	معركة تولوز ٩١

فهرس القبائل

أقباط ٢٨٣	الأخشيديون ١٨٨
الآمازغ (البربر) .. ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣١، ٣٠، ٢٨ ..	الآمazig (البربر) .. ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣١، ٣٠، ٢٨ ..
الأوس ٤٧٦، ١١٣	أقباط ٢٨٣
البرidiون ١٨٨	الاخشيديون ١٨٨
الشكنس ٢١٥	الآمazig (البربر) .. ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣١، ٣٠، ٢٨ ..
الجذاميون ١٢٦، ١٢٤	أقباط ١٠١، ٩٩، ٩٣، ٨٨، ٨١، ٦٩، ٥٧، ٤٣
الجازيون ١٣٢	الاخشيديون ١٢٠، ١١٩، ١١٨، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤
الخزرج ٤٧٦، ١١٣	الآمazig (البربر) .. ١٤٥، ١٣٨، ١٣٢، ١٣٠، ١٢٧، ١٢١
	أقباط ٢٤٦، ٢٣٥، ٢١٠، ١٩٧، ١٥٩، ١٥١
	الاخشيديون ٢٩٦، ٢٩٥، ٢٩٤، ٢٩١، ٢٦٢، ٢٦٠
	الآمazig (البربر) .. ٣٢٢، ٣٠٢، ٣٠١، ٣٠٠، ٢٩٨، ٢٩٧

بنو العباس (العباسيون) ...	١٢٩، ٢٧، ٢٦، ٢٣	الديلم	١٨٨
، ١٤٣، ١٤٢، ١٤٠، ١٣٨، ١٣٧، ١٣١		الصقالبة	٢٤٨، ٢٤٧، ٢٤٦، ٢٤٥، ٢٤٤، ١٥٩
، ٢٦٠، ١٦٧، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٢			٢٢٢، ٣٠٢، ٢٥٢، ٢٥٠، ٢٤٩
٧١٩، ٥٨٥، ٤٨٥، ٣٠٩، ٣٠٨		العدنانيون	١٣٢
بنو أمية (الأمويون)	٣٣، ٢٧، ٢٦، ٢٤، ٢٣	العرب الملاليون	٥٨٥
، ١٣٧، ١٣٢، ١٣١، ١٢٩، ١٢٨، ١١٨		الفايكنج	٢٤٢، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٥
، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢، ١٤٠، ١٣٩		الفهريون	١٤٦، ١٣٢
، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٧		القطاطيون	١٣٢
، ١٧٤، ١٦٧، ١٦٥، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨		القرامطة	١٨٨
، ٢٤٤، ٢٣٤، ٢٢٢، ٢٣١، ٢٢٠، ١٩١		القرطاجيون	٣٠٨
، ٢٩١، ٢٦٢، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٤٧، ٢٤٥		القوط	٦٥، ٦٢، ٦١، ٥٩، ٤٥، ١٨، ١٧، ١٥
، ٣٠٤، ٣٠٣، ٣٠٢، ٢٩٥، ٢٩٤، ٢٩٣			٤٥١، ٧٠، ٦٨
، ٣٢٦، ٣٢٥، ٣٢٤، ٣١٧، ٣٠٩، ٣٠٦		اللخميون	٣٤٢، ١٢٤
٧١٩، ٣٤٢، ٣٢٧		المصادمة	٥٥٥، ٥٥٣، ٥٥٢، ٥٤٨، ٥٤٢، ٥٠١
بنو بزال	٤١٠، ٣٩٧، ٣٥٠، ٢٦٢، ٢٦١	٥٩٣، ٥٩١، ٥٨٥، ٥٦٩، ٥٥٨، ٥٥٧، ٥٥٦	
بنو بوبه	١٨٨.....	المصحفيون	٢٦١، ٢٥٣، ٢٤٧
بنو عيم	٢٥٠.....	المصرية (المصريون)	١٥٨، ١٣٢، ١٢٦، ١١٤
بنو حجاج	١٩٩.....		٥٥٩
بنو حفص	٦٢٨، ٦٢٥	المثمرون	٥٥٦، ٤٨٤، ٤٧٤
بنو حمود (الحمديون)	٣٣٩، ٣٣٢، ٣٢٧، ٣٠٢	المولدين	١٨٢، ١٥٨، ٨٨
، ٤٠٩، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٤، ٣٤١		النورمان	١٧٦، ١٧٥
٤١٦، ٤١٥، ٤١٠		الوندال (الفندال)	١٨، ١٧، ١٥
بنو حنيفة	١١٤.....	اليمنية (اليمنيون)	١٢٥، ١٢٤، ١٢٢، ١٢١
بنو خزرون	٣٩٧.....		، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٣، ١٢٩، ١٢٧، ١٢٦
بنو دمر	٣٩٧.....		، ١٥٥، ١٥١، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦
بنوربيعة	١١٤.....		٣٢٣، ٢٦٠، ١٥٩
بنورزين	٣٩٨.....	أنياط	٢٨٣
بنوزيري	٤٠٩، ٣٩٧.....	برغواطة	٤٨١، ٤٧٧
بنوساعدة	١٣٢.....	بنو إدريس (الأدارسة)	٢٣٦، ٢٣٣، ٢١٠
بنوسراح	٦٧٦.....	بنو أشقيولة	٦٥٩، ٦٥٦، ٦٥٥
بنوصلاح	٣٩٧.....	بنو الأحر	٦٥٢، ٦٢٦
بنو طاهر	٣٩٧.....	بنو الباركي	٣٩٨، ٣٤٩

ريعة.....	٢٩٤، ٢٩١، ٢٩٠، ٢٧٧..
زناتة (الزناتيون).....	٥٠١، ٤٨٢، ٤٨٠، ٢٣٣، ٢١٠
٦٤٧، ٦٢٤، ٥٩٣، ٥٩١، ٥٨٥	
سريان.....	٢٨٣
صنهاجة (الصنهاجيون).....	٤٦٦، ٤١٢، ٤٠٩
٧٨٢، ٥٨٥، ٥٠١، ٤٧٥، ٤٧٢	
عك.....	٩٥
غافق.....	٩٥
غمارة.....	٥٩٣، ٥٠١، ٤٨٠
فزانة.....	٣٢٧
قريش... ..	٣٠٨، ١٩١، ١٦٦، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢
٥٣٩، ٥١٣، ٣٤٤، ٣٢٦	
كلب (الكلبيون).....	١٢٦، ١٢٤
كومية.....	٥٥٩
للونة.... ..	٤٧٨، ٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧٤، ٤٧١، ٤٦٦
٥٥٣، ٥٥٢	
لواثة.....	٧٠٨
مدينة.....	٦٤٧
مسوفة.....	٥٨٣، ٤٧٨
مصمودة.....	٥٣٣، ٢٢٥
معافريون.....	٣٢٣
مغراوة.....	٦٤٧، ٤٨٠
معغيلة.....	٦٤٧
نفرزة.....	١٤٢
هرغة.....	٥٥٢
هتانة.....	٥٩٣، ٥٩٢، ٥٩١، ٥٥٢
هنود.....	٢٨٣
هوارة.....	٣٦٩
بني عامر (العامريون).....	٣٥٦، ٣٤٧، ٣٤٤، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣٣٨.
	٦٤٠، ٤١٢، ٤٠٩، ٣٩٥، ٣٦٠، ٣٥٨
بني عبد المؤمن.....	٥٧٨
بني عبد الواد.....	٦٤٩، ٦٤٧
بني عاصام.....	٢٠٩
بني غانية.. ..	٦٣٢، ٦٠٨، ٦٠٧، ٥٨٧، ٥٨٦، ٥٨٣
بني قيس (القيسية، القيسيون).....	١٢٣، ١٢٢، ١٢١
	١٣٢، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤
	٢٦٠، ١٤٦، ١٤٤، ١٤٣
بني خلم.....	٣٢٣
بني مرين.....	٦٤٧، ٦٤٦، ٦٤٤، ٦٤١، ٦٢٤، ٣٩٨
	٦٥٧، ٦٥٣، ٦٥٢، ٦٥١، ٦٤٩، ٦٤٨
	٧١٥، ٦٦٢، ٦٦٠
بني هارون.....	٣٩٨، ٣٤٩
بني هود.. ..	٤٢٨، ٣٩٧، ٣٩٥، ٣٨٤، ٣٦٩
	٤٣٦
بني واسين.....	٦٤٧
بني يحيى.....	٣٩٨
بني يفرن.....	٤٨٠، ٣٩٧، ٣٤٩
تيممل.....	٥٥٢
جذالة (كذالة) ..	٤٧٢، ٤٧١، ٤٧٠، ٤٦٩، ٤٦٦
	٤٧٨، ٤٧٧، ٤٧٦
جراؤة.....	٦٤٧
حص.....	١٢٤
حير.....	٧٨٢، ٤٧٥، ٤٧٤

فهرس المراجع

خربيطة رقم (٠٨) الفتوحات التي قام بها كل من السمح بن مالك وعنبة بن سحيم	١٤
خربيطة رقم (٠٩) ظهور مملكة نافار.....	١٨٦
خربيطة رقم (١٠) الثورات على الخلافة الأموية في الأندلس.....	١٩٨
خربيطة رقم (١١) حدود الدولة العامرة	٢٩٢
خربيطة رقم (١٢) سقوط طليطلة.....	٤٥٧
خربيطة رقم (١٣) دولة المرابطين.....	٥١٦
خربيطة رقم (١٤) دولة الموحدين.....	٥٧٥
خربيطة رقم (١٥) موقعة الأرک.....	٥٨٩
خربيطة رقم (١٦) موقعة العقاب.....	٦١٧
خربيطة رقم (١٧) موقعة قرطبة.....	٦٢٧
خربيطة رقم (١٨) غرناطة وإشبيلية	٦٢٩
خربيطة رقم (٠١) طبيعة أرض الأندلس .	١٤
خربيطة رقم (٠٢) حدود الدولة الإسلامية ز من الخلافة الأموية.....	٢٥
خربيطة رقم (٠٣) موقع مدينة سبتة وجبل طارق.....	٤١
خربيطة رقم (٠٤) موقع معركة وادي برباط - وادي لكة.....	٥٢
خربيطة رقم (٠٥) خط سير طارق بن زياد	٦٧
خربيطة رقم (٠٦) خط سير موسى بن نصیر	٧٢
خربيطة رقم (٠٧) خطوط سير الجيوش والسرايا لطارق بن زياد وموسى بن نصیر	٧٥

فهرس الشعر

الصفحة	النوع	العنوان	الشاعر
٣٨٨	الكامل	هَتَّجُوا بِيَتْلِهِمْ قُصُورَ حَرِيمَهَا *** أَمْ يَقُ لَا جَبَلْ وَلَا بَطْحَاءْ	ابن العسال
٤٤٧	الكامل	الدُّلُّ تَأْبِهُ الْكَرَامُ وَدَيْنَتَا *** لَكَ مَا نَدِينُ بِهِ مِنَ الْأَسَاءِ	المعتمد بن عباد
٥٧١	البسيط	وَحَكَمَ السَّيْفَ لَا تَعْبُثْ بِعَاقِبَةِ *** وَخَلَّهَا سِيرَةً لَّيْقَى عَلَى الْحَقِيبِ	عبد المؤمن بن علي
٣٥٥	البسيط	فَبَرَّ الْغَرِيبَ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي *** حَقَّا طَفْرَتْ بِأَشْلَاءِ ابْنِ عَبَادِ	المعتمد بن عباد
٣٤٢	الخفيف	مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِينَ وَهُوَ أَنْسَابٌ *** رَّازَدَ فِي فَخْرِهِ بُنُوْتُ عَبَادِ	ابن البلانة
٦٢٠	النسرح	تَأَنَّ فِي الْأَمْرِ لَا تَكُنْ عَجَلاً *** فَمَنْ تَأَنَّ أَصَابَ أَوْ كَادَ	ابن جبر
٦٤١	الوافر	لَقَدْ أَشْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيَّا *** وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ نَادَيْ	عمرو بن معدى كرب الزبيدي
٤٠٠	البسيط	إِمَّا يَزَهَّدُ فِي أَرْضِ أَنْدَسِ *** أَسْنَاهُ مُعْتَصِيدٌ فِيهَا وَمُعْتَمِدٌ	ابن رشيق القررواني
٥٠٠	المقارب	أَبَا هَاشِمَ هَشَمَتْنِي الشَّفَارُ *** فَلَلَّهُ صَبَرِي لِذَكَرِ الْأَوَارِ	المعتمد بن عباد
٣٣٥	الطوبل	أَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ *** وَأَنْ تَذَكَّرَ كَفَانَا فَقَدَّهَا الْقَمَرُ الْبَدْرُ	ابن حيان
٣٣٦	الكامل	وَإِذَا قَنَى فَقَدَّ الشَّبَابَ سَهَّلَهُ *** حُبُّ الْبَنِينَ وَلَا كَحُبُّ الْأَصْغَرِ	أبو الوليد محمد بن جهور
٤٢٢	الكامل	أَسْدَ عَلَيَّ وَفِي الْحَرْوَبِ نَعَامَةُ *** فَرَخَاءٌ كَفُورٌ مِنْ صَفَرِ الصَّافِرِ	عمران بن حطان السودسي
٣٤٧	الطوبل	وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ أَسْوَدَ عَلَى الْوَرَى *** وَلَوْ رُدَّ عَمْرُو لِلْزَمَانِ وَعَامِرُ	أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد
٢٢٩	الطوبل	أَبَا مُشْلِمٍ إِنَّ الْفَتَى بِجَانِهِ *** وَمَقْوِلٍ لَا بِالْرَّاكِبِ وَاللَّبِسِ	أبو بكر الزبيدي
١٦٥	الخفيف	أَهْبَأَ الرَّاكِبُ الْمِيَمُ أَرْضِي *** أَفَرِ مِنْ بَعْضِي السَّلَامِ لِيَعْضِي	عبد الرحمن الداخل
٥٥٩	البسيط	تَكَامَلَتْ فِيَكَ أَخْلَاقُ خُصِّصْتَ بِهَا *** فَكُلُّنَا بِكَ مَشْرُورٌ وَمُغْتَطِطٌ	ابن تومرت
٤٥٩	البسيط	يَا أَهْلَ أَنْدَسِ حُنُّوا مَطْبِكُمُ *** فَقَمَ الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ	ابن عسال
٣٥٥	مزوء الكامل	قَالُوا الْحُضُورُ بِسِيَاسَةً *** فَلَنِيَدْ مِنْكُمْ خُصُورُ	المعتمد بن عباد
٢٨٤	الطوبل	أَسِيرُ الْحَطَّالِيَا عِنْدَ بَايَكَ وَاقْفُ *** عَلَى وَجَلِّي مَا يِهِ أَنَّ عَارِفُ	ابن الفرضي
٢٣١	البسيط	مِنْ مَنْزِلِي يُعْجِبُ النَّسَاكَ خُلُونُهُ *** وَفِيهِ سُرُّ عَلَى الْفَتَاكِ إِنْ فَكَّوْ	ابن الغوطية

٢٣١	البسيط	مِنْ أَينْ أَقْبَلْتَ يَا مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ *** وَمَنْ هُوَ الشَّمْسُ وَالدُّنْيَا لَهُ فَلَكُلُّ	يجي بن هذيل التميمي
١٦٤	الكامل	يَا تَخْلُّ أَنْتَ غَرَبِيَّةً مِثْلِي *** فِي الْغَرْبِ ثَانِيَّةً عَنِ الْأَصْلِ	عبد الرحمن الداخل
٦٠٢	الطويل	وَأَبِيَّنَاهُ الْفَتْ تَرِيدُ ثَلَاثَةَ *** وَمَعَ مَا تَيَّبَّنَ رُهْرَا وَكُمَّلَا	الشاطبي
٣٦٢	الوافر	أَنْفَتُ مِنَ الْمَدَامِ لَأَنَّ عَقْلِي *** أَعْزَزْ عَيْنَيِّ مِنْ أُنْسِ الْمَدَامِ	المظفر محمد بن الأفطس
٤٧٥	الكامل	فَوْمُ هُنْ دَرْكُ الْعَلَا فِي حُبِّي *** وَإِنْ اتَّمَّوا صِنْهَا جَهَّ فَهُمْ هُمْ	مجهول
٥١٠	الوافر	إِذَا غَامَرْتَ فِي سَرْفِ مَرْوُم *** فَلَا تَقْنِعْ بِمَا دُونَ النَّجُومِ	المنسي
٢٢٥	الكامل	هُمُّ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا *** مِنْ تَعْدِيْهُمْ بِالْأَلْشِنِ الْبَيْنَانِ	عبد الرحمن الناصر
٧٣٣	البسيط	لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَفْصَانُ *** فَلَا يَعْرُ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ	أبو البقاء الرندي
٣٩٦	الرمل	إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطْنَا *** طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفَتَنَا	الطرطوش
٥٧٧	البسيط	يَا يَا كِيْ فُرْقَةَ الْأَحْبَابِ عَنْ سَخْطِي *** هَلَّا بِكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْمُنْدَنِ!	ابن طفيل
٣٥١	الرجز	ذَاكَ الَّذِي ماتَ مِرَأِيَا وَدُفِنَ *** فَاتَّصَسَ التُّرْبُ وَمُرْقَ الْكَهْنَ	مجهول
٦٤١	الوافر	وَمَا فَتَّى الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى *** مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ أَخْرُونَا	هاشم الرفاعي
٣٠٨	البسيط	يَأْرِيْعَ فَاقْتَ الْأَمْصَارَ قُرْطُبَهُ *** مِنْهُنَّ قَطْرَهُ الْوَادِي وَجَاءُهُمْ	ابن عطية
٦٢١	مجزوء الرجز	لَا تَغْرِبُ عَنْ وَطَنِي *** وَأَذْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوْيِ	ابن جبر
٦٠٣	الوافر	رَأَيْتُ جَمَاعَةً فُضَّلَاءَ فَازُوا *** بِرُؤْيَةٍ شَيْخُ مَصْرَ الشَّاطِبِيُّ	أبو شامة المقدسي

فهرس الموضوعات

لماذا نكتب في التاريخ؟	٣
لماذا تاريخ الأندلس؟	٥
الباب الأول: الطريق إلى الأندلس	١١
الفصل الأول الأندلس.. طبيعة المكان	١٣
جغرافية الأرض	١٣
لماذا سميت «الأندلس»؟	١٥
الفصل الثاني الأندلس قبل الإسلام	١٦
حالة الجهل والتخلف في المناطق الأوروبية	١٦
القوط يحكمون الأندلس	١٧
لماذا الأندلس؟	٢١
الباب الثاني: فتح الأندلس	١٩
الفصل الأول: فتح الأندلس.. فتح أموي مجيد	٢٣
وقفة إنصاف لبني أمية (٤٠-١٣٢ هـ=٦٦٠-٧٥٠ م)	٢٤
ما قبل فتح الأندلس	٢٨
موسى بن نصير القائد ابن القائد (٩٧-١٩ هـ=٦٤٠-٧١٦ م)	٢٨
موسى بن نصير يُعيّن دعائيم الإسلام في إفريقيا	٣٠
الفصل الثاني: موسى بن نصير وقرار الفتح	٣٣
تفكير قديم في فتح الأندلس	٣٣
موسى بن نصير وعقبات فتح الأندلس	٣٣
العقبة الأولى: قلة السفن	٣٤
العقبة الثانية: وجود جزر البليار النصرانية في ظهره	٣٤
العقبة الثالثة: وجود ميناء سُبْتة المطل على مضيق جبل طارق في أيدي نصارى على علاقة	

٣٤	بملوك الأندلس
٣٥	العقبة الرابعة: قِلة عدد المسلمين
٣٥	العقبة الخامسة: كثرة عدد النصارى
٣٥	العقبة السادسة: طبيعة جغرافية الأندلس، وكونها أرضاً مجهولة بالنسبة للمسلمين ..
٣٦	مُوسَى بن نُصَيْر ومواجهة العقبات
٣٦	أولاً: بناء الموانئ وإنشاء السفن:
٣٦	ثانياً: تعليم الأمازيغ (البربر) الإسلام:
٣٧	ثالثاً: تولية طارق بن زياد على الجيش:
٣٨	رابعاً: فتح جزر البليار وضمها إلى أملاك المسلمين:
٣٨	مشكلة سَبَّتَة والعنابة الإلهية
٤٣	سَرِيَّة طَرِيف بن مَالِك أول سَرِيَّة للمسلمين إلى الأندلس
٤٣	فتح الأندلس ومساعدة يُلِيان واليهود
٤٦	الفصل الثالث: طارق بن زياد يفتح الأندلس
٤٦	حملة طارق وسفن العبور
٤٨	طارق بن زياد على أرض الأندلس
٤٩	أولى الانتصارات في الأندلس
٥٠	موقعه وادي بَرِّيَاط ($٩٢\text{ هـ} = ٧١١\text{ م}$) وفتح الأندلس
٥٣	بين الفريقين
٥٣	وادي بَرِّيَاط وشهر رمضان
٥٥	وفقات مع خطبة طارق بن زياد
٥٧	طارق بن زياد وقضية حرق السفن
٦١	طارق بن زياد يُسرع بالتوغل والفتح
٦٣	الفصل الرابع: الفتح الإسلامي يكتسح الجزيرة
٦٣	أولاً: تعريف الجزيرة
٦٤	ثانياً: على مَنْ تُفَرَّضُ الجزيرة؟

ثالثاً: قيمة الجزية	٦٤
طارق بن زياد يتغلب في الشمال فاتحاً	٦٥
طارق بن زياد على اعتاب طليطلة	٦٨
طارق بن زياد على اعتاب طليطلة	٦٨
موسى بن نصیر يأتي بالمدد	٦٩
من أين جاءه؟	٦٩
موسى بن نصیر وأعمال عظام في طريقه إلى طارق بن زياد	٦٩
موسى بن نصیر وطارق بن زياد.. لقاء الأبطال واستكمال الفتح	٧١
الفصل الخامس: قرار الخليفة بوقف الفتح واستدعاء القادة	٧٧
همة عالية	٧٨
عودة وأمنية	٧٩
الصخرة.. والدرس الصعب	٨١
الباب الثالث: عصر الولاية (٩٥-١٣٨ هـ=٧٥٥-٧١٤ م)	٨٣
الفصل الأول: عهد الله وة	٨٧
السمح بن مالك الخوارنی (ت ١٠٢ هـ=٧٢١ م)	٩٠
جهاد السمح بن مالك	٩١
ولایة عنبرة بن سحیم (ت ١٠٧ هـ=٧٢٥ م)	٩٢
جهاد عنبرة بن سحیم	٩٢
ولایة عبد الرحمن الغافقی (١١٢ هـ=٧٣٠ م)	٩٣
من يكون عبد الرحمن الغافقی؟	٩٥
الفصل الثاني: معركة بلاط الشهداء وتوقف الفتوحات	٩٧
وقفة في تاريخ ومصادر المعركة	٩٨
الكثرة والغنية من عوامل اهزيمة	٩٩
النصر الكارثي	١٠٣
بين التاريخ والواقع	١٠٤

الفصل الثالث: وقفة تاريخية	١٠٧.....
أولها: لماذا لم يقم أهل الأندلس بالثورات رغم ضالة الحاميات الإسلامية في الأندلس؟!	١٠٧.....
ثانياً: ولكن البعض سيقول: هل من المعقول أن كل أهل الأندلس أُعجبوا بهذا الدين؟! أم يكن هناك ولو رجل واحد يريد أن يثور ويعرض حبّاً في سلطان أو مصلحة كانت قد ضيّعت عليه؟!	١٠٩.....
ثالثاً: تساؤل البعض عن عوامل الهزيمة في بلاط الشهداء؛ إذ كيف تتعلق قلوب هذا الجيل القريب من عهد رسول الله ﷺ وصحابته - وهو جيل التابعين أو تابعي التابعين - بالغنائم وحب الدنيا؟! وكيف تظهر فيهم هذه العنصرية القبلية؟!	١١٠.....
مشكلات القومية والعنصرية	١١٣.....
الفصل الرابع عهد الضعف	١١٥.....
الأحداث التي تلت بلاط الشهداء	١١٥.....
ولاية عبد الملك بن قطن الفهري (١١٤-١١٦ هـ)	١١٥.....
ظلم وجهاد	١١٥.....
عقبة بن الحجاج (١١٦-١٢٣ هـ)	١١٦.....
فتواهاته	١١٦.....
الفترة الثانية من عهد الولاية	١١٨.....
ثورات الخوارج بالمغرب	١١٨.....
ثورات الخوارج في الأندلس	١٢٠.....
الصراع بين القيسية واليمنية	١٢١.....
الصميل بن حاتم ويوسف الفهري	١٢٥.....
مشهد الخلافة في الشرق	١٢٨.....
أهم أحداث الفترة الثانية من عهد الولاية في الأندلس	١٣٠.....
ملامح عهد الولاية الثاني	١٣١.....
١ - حبُّ الدنيا	١٣١.....
٢ - ظهور العنصرية والقبلية	١٣١.....

١٣٢.....	٣- ظلم الولاية
١٣٢.....	٤- ترك الجهاد
١٣٥.....	الباب الرابع: عصر الإمارة الأموية
١٣٧.....	الفصل الأول: عبد الرحمن الداخل
١٣٧.....	قصة عبد الرحمن الداخل (١١٣-١٧٢ هـ = ٧٨٨-٧٣١ م)
١٤٣.....	عبد الرحمن بن معاوية ودخول الأندلس
١٤٥.....	عبد الرحمن الداخل في الأندلس
١٤٦.....	موقعه المصاردة
١٤٧.....	عبد الرحمن الداخل وأمارات نجابة وعلم وذكاء
١٤٨.....	بين عبد الرحمن الداخل وأبي الصباح اليحصبي
١٥٠.....	الفصل الثاني: عصر عبد الرحمن الداخل
١٥١.....	مجمل الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن الداخل
١٥٢.....	صغر قريش وثورة العباسيين
١٥٤.....	عبد الرحمن بن معاوية والخلافة العباسية
١٥٧.....	وقفة مع عبد الرحمن الداخل في قضائه على الشائرين
١٥٨.....	عبد الرحمن الداخل وبناء دولته الجديدة
١٥٨.....	أولاً: بدأ بإنشاء جيش قوي
١٦٠.....	ثانياً: أولى العلم وال جانب الديني اهتماما بالغا
١٦٠.....	ثالثاً: العناية الكبيرة بالجانب الحضاري (المادي)
١٦١.....	رابعاً: حماية حدود دولته من أطماع الأعداء
١٦٢.....	عبد الرحمن الداخل .. الأمير الفذ
١٦٤.....	عبد الرحمن الداخل .. الإنسان
١٦٥.....	عبد الرحمن الداخل وفكرة العسكري
١٦٥.....	أولاً: مبدأ المباغة والحرص على المبادأة
١٦٦.....	ثانياً: الاقتصاد في القوى والمحافظة على الهدف

حياة (صقر قريش) في سطور	١٦٦
وفاته	١٦٧
الفصل الثالث: الإمارة الأموية في عهد القوة	١٦٨
الإمارة الأموية وفتراتها الثلاث	١٦٨
الفترة الأولى من الإمارة الأموية (فترة القوة)	١٦٩
عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل	١٦٩
عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل	١٧١
عبد الرحمن الأوسط	١٧٣
الفصل الرابع: الإمارة الأموية في عهد الضعف	١٧٨
عوامل وأسباب ضعف الإمارة الأموية:	١٧٩
أولاً: كثرة الأموال وافتتاح الدنيا على المسلمين	١٧٩
ثانياً: زرّياب	١٧٩
ثالثاً: من أسباب ضعف الإمارة الأموية (عمر بن حفصون)	١٨٢
نظرة تحليلية على الوضع في الأندلس أواخر عهد الضعف	١٨٣
أولاً: تصاعد وكثرة الثورات داخل الأندلس	١٨٣
ثانياً: تكون مملكة نصرانية ثالثة	١٨٤
ثالثاً: قتل ولی العهد	١٨٥
رابعاً: ظهور نجم دولة شيعية في بلاد المغرب كانت من أخطر الدول على بلاد الأندلس ..	١٨٧
خامسًا: تردي الأوضاع في بقية أقطار العالم الإسلامي	١٨٧
الباب الخامس: عصر الخلافة الأموية	١٨٩
الفصل الأول: عبد الرحمن الناصر	١٩١
عبد الرحمن الناصر (٢٧٧ - ٩٦١-٩٥٠ هـ) وتولي الحكم	١٩١
من يكون عبد الرحمن الناصر؟	١٩١
وقفة مع عبد الرحمن الناصر، وبداية حياته، وتوجهه نحو الإصلاح	١٩٣
الفصل الثاني: الجهاد السياسي والعسكري لعبد الرحمن الناصر	١٩٥

١٩٥.....	عبد الرحمن الناصر وتغيير التاريخ.....
١٩٥.....	أولاً: إعادة توزيع المهام والمناصب، أو ما يمكن تسميته (تنظيف قُرطبة).....
١٩٧.....	ثانياً: الاتجاه إلى الثورات ومحاولة ترويضها.....
١٩٩.....	في الطريق للقضاء على ثورة صمويل بن حفصون.....
٢٠١.....	عبد الرحمن الناصر يُفاجئ الجميع ويتجه نحو الشمال الغربي.....
٢٠٣.....	عبد الرحمن الناصر والطريق إلى راية واحدة للأندلس.....
٢٠٤.....	عهد جديد.. عهد الخلافة الأموية.....
٢٠٥.....	عبد الرحمن الناصر يتبع سياسته العسكرية التوسعية.....
٢٠٦.....	زَلَّة بشر وسنن لا تعرفُ النسبَ.....
٢٠٧.....	عبد الرحمن الناصر والعودة إلى سابق عهده.....
٢٠٧.....	علاقة عبد الرحمن الناصر بالشمال الإفريقي.....
٢١٢.....	فكرة العسكري:
٢١٢.....	الموازنة بين إدارة الحرب وقيادة الأعمال القتالية
٢١٣.....	المشهد الصليبي في عهد عبد الرحمن الناصر
٢١٣.....	١ - مملكة ليون
٢١٥.....	ال усили لإنشاء مملكة قشتالة
٢١٦.....	عوده لمملكة ليون
٢١٨.....	٢ - مملكة نافار
٢١٩.....	الفصل الثالث: النهضة الحضارية في عهد الناصر
٢١٩.....	الجانب المعماري
٢٢١.....	الجانب الاقتصادي
٢٢٢.....	الجانب الأمني
٢٢٢.....	الجانب العلمي
٢٢٣.....	حسان بن عبد الله بن حسان (٢٧٨-٩٤٦هـ=٩٣٤م)
٢٢٣.....	محمد بن عبد الله الليثي (ت ٩٥١هـ = ٩٣٩م)

السياسة الخارجية.....	٢٢٤
عبد الرحمن الناصر.. الإنسان	٢٢٤
الفصل الرابع: الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر.....	٢٢٧
الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٠٢-٩١٤هـ=٩٧٦م) وعصر النهضة	٢٢٧
أبو بكر الزبيدي (٣١٦-٩٢٨هـ=٩٨٩م).....	٢٢٩
ابن القوطية:	٢٣٠
علاقة الحكم المستنصر بالشمال الإفريقي	٢٣١
المشهد الصليبي في عهد المستنصر	٢٣٦
١ - مملكة ليون واستقلال قشتالة	٢٣٦
٢ - استقلال قشتالة.....	٢٤٠
٣ - مملكة نافار	٢٤٠
جهاد الحكم بن الناصر وتوسيعاته	٢٤١
غزو الفايكنج لسواحل الأندلس	٢٤٢
الفصل الخامس: هشام المؤيد بن الحكم وبداية الدولة العاميرية ..	٢٤٤
الحكم بن عبد الرحمن الناصر وكبودة الجواد	٢٤٤
مؤامرة الفتىان الصقالبة	٢٤٥
محمد بن أبي عامر	٢٥٠
محمد بن أبي عامر ونواة الدولة العاميرية	٢٥٢
الدولة العاميرية (٣٦٦-٩٧٦هـ=١٠٠٩م)	٢٥٩
محطات في الدولة العاميرية	٢٦٠
الفصل السادس: الجهاد السياسي والعسكري لحاجب المنصور ..	٢٦٧
أولاً: كان مجاهداً	٢٦٧
ثانياً: اهتمامه بالجوانب الحضارية في البلاد	٢٧٢
ثالثاً: عدم وجود ثورات عليه طيلة عهده	٢٧٣
المشهد الصليبي في عهد المنصور بن أبي عامر	٢٧٤

ملكة قشتالة.....	٢٧٤
ملكة ليون	٢٧٤
ملكة نافار	٢٧٦
الفصل السابع: أثرى عهود الأندلس قاطبة (الحاجب المظفر بن المنصور)	٢٧٧
أشهر العلماء في الدولة العاميرية.....	٢٨١
أحمد بن عبد الله بن ذكوان (١٣٤٢هـ = ٩٥٣م)	٢٨١
ابن جلجل (٣٣٢هـ = ٩٤٣م) بعد ٩٨٧م)	٢٨١
المجريطي إمام الرياضيين في الأندلس (٣٣٨هـ = ٩٥٠م)	٢٨٢
ابن الفرضي (٣٥١هـ = ١٣٤٠م)	٢٨٣
أبو القاسم الزهراوي الجراح العظيم	٢٨٤
الفصل الثامن: سقوط الدولة العاميرية	٢٩٠
تولى عبد الرحمن بن المنصور وانتهاء الدولة العاميرية.....	٢٩٠
الفصل التاسع: الفتنة وسقوط الخليفة الأموية	٢٩٤
بين المهدي وسلیمان بن الحكم وحدث غريب	٢٩٥
بين المهدي وسلیمان بن الحكم وحدث أغرب	٢٩٦
الفتی واضح وعودة هشام بن الحكم الخليفة المخلوع	٢٩٨
سلیمان بن الحكم وأعمال يتأنف من ذكرها التاريخ	٢٩٩
البرير والانقلاب على سلیمان بن الحكم وتأجج الصراعات	٣٠١
انتهاء عهد الخلفاء والأمراء وتولی مجلس شورى للحكم	٣٠٣
الفصل العاشر: وقفة مع أسباب السقوط	٣٠٤
السبب الأول: انتشار الترف والإسراف	٣٠٤
السبب الثاني: توسيد الأمر لغير أهله	٣٠٦
الفصل الحادي عشر: مدينة قرطبة جوهرة العالم	٣٠٧
لحة جغرافية وتاريخية	٣٠٨
بعض مظاهر الحضارة في قرطبة	٣٠٩

٣٠٩.....	١) قنطرة قرطبة
٣١٠.....	٢) مسجد قرطبة
٣١٤.....	٣) جامعة قرطبة
٣١٤.....	قرطبة.. المدينة العصرية
٣١٦.....	قرطبة في عيون العلماء والأدباء
٣١٩.....	الباب السادس: عصر ملوك الطوائف
٣٢٢.....	الفصل الأول: ملوك الطوائف
٣٢٢.....	كيف تكونت مالك الطوائف
٣٢٣.....	عهد ملوك الطوائف
٣٢٤.....	أولاً: بنو جهور في قرطبة
٣٢٤.....	قصة الدولة
٣٢٥.....	الوزير أبو الحزم بن جهور
٣٢٩.....	حكومة أبي الحزم بن جهور
٣٣٤.....	وفاة الوزير ابن جهور
٣٣٥.....	أبو الوليد محمد بن جهور
٣٣٦.....	الفتنة القاضية
٣٣٨.....	علماء في بلاط قرطبة
٣٣٩.....	١ - ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ=٩٩٤-١٠٦٤م)
٣٤١.....	٢ - أبو مروان ابن حيان (٤٦٩-٣٧٧هـ=٩٨٧-١٠٧٦م)
٣٤١.....	ثانياً: بنو عباد في إشبيلية
٣٤١.....	النسب والانتهاء
٣٤٣.....	القاضي ذو الوزارتين أبو الوليد إسماعيل بن عباد
٣٤٤.....	القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد
٣٤٧.....	المعتضد بالله ابن عباد
٣٥٢.....	المعتمد بن عباد

علماء في بلاط إشبيلية	٣٥٦
ثالثاً: بنو الأفطس في بطليوس	٣٥٦
ابتداء دولتهم	٣٥٧
عبد الله بن محمد بن الأفطس	٣٥٨
المظفر محمد بن الأفطس	٣٥٩
المنصور يحيى بن الأفطس	٣٦٢
المتوكل على الله بن الأفطس	٣٦٣
محنة بنى الأفطس	٣٦٤
علماء في بلاط بطليوس	٣٦٦
أبو الوليد الباجي (٤٠٣-٤٧٤ هـ = ١٠٨١-١٠١٢ م)	٣٦٧
ابن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣ هـ = ٩٧٨-١٠٧١ م)	٣٦٧
رابعاً: بنو ذي النون في طليطلة	٣٦٨
أهمية طليطلة (الثغر الأوسط)	٣٦٨
بنو ذي النون الأصل والتاريخ	٣٦٩
بنو ذي النون في طليطلة	٣٧١
علماء في بلاط طليطلة	٣٧٩
صاعد الأندلسي: (٤٢٠-٤٦٢ هـ = ١٠٢٩-١٠٧٠ م)	٣٨٠
ابن وافد (٣٨٧-٤٦٧ هـ = ٩٩٦-١٠٧٤ م)	٣٨١
خامسًا: بنو هود في سرقسطة	٣٨٢
سرقسطة .. الموقعة الجغرافي والأهمية العسكرية ..	٣٨٢
بنو تجيب في سرقسطة ..	٣٨٣
بنو هود في سرقسطة ..	٣٨٤
مأساة بريشتر ..	٣٨٦
نهاية بنى هود ..	٣٩٤
علماء في بلاط سرقسطة ..	٣٩٥

٣٩٥.....	الطُّرُوشُيُّ (٤٥١-٤٥٢ هـ = ١٠٥٩-١١٢٦ م)
٣٩٧.....	سادساً: الطوائف الأخرى في بلاد الأندلس
٤٠٣.....	الفصل الثاني: الفرقة والتناحر بين ملوك الطوائف
٤٠٤.....	أولاً: الصراع بين إشبيلية وبطليوس
٤٠٨.....	ثانياً: الصراع بين إشبيلية وغرناطة
٤١٥.....	ثالثاً: الصراع بين إشبيلية وقرطبة
٤٢٠.....	رابعاً: الصراع بين طليطلة وسرقسطة
٤٢٩.....	الفصل الثالث: المشهد الصليبي.. تطور الحال في الممالك النصرانية
٤٢٩.....	أولاً: الممالك النصرانية في الشمال
٤٣١.....	ثانياً: فرناندو وتوحيد الجبهة الصليبية
٤٣٣.....	ثالثاً: فرناندو وحرب الاسترداد الأولى
٤٣٧.....	رابعاً: موت فرناندو والصراع بين ورثته
٤٣٩.....	خامساً: ألفونسو ملكاً على عرش ليون
٤٤١.....	الفصل الرابع: ألفونسو السادس وحرب الاسترداد
٤٤١.....	أولاً: الإغارة على ممالك الطوائف
٤٤١.....	حرب الاسترداد الثانية
٤٤٣.....	ثانياً: أخذ الجزيرية من المسلمين
٤٤٥.....	ثالثاً: جرأة مفاجئة
٤٤٦.....	حصار إشبيلية
٤٥١.....	الفصل الخامس: سقوط طليطلة
٤٥٢.....	أولاً: سذاجة المؤمن بن ذي النون
٤٥٢.....	ثانياً: فساد القادر بن ذي النون
٤٥٣.....	ثالثاً: ثورة أهل طليطلة
٤٥٤.....	رابعاً: ألفونسو يعيد القادر على حرب الصليبيين
٤٥٤.....	خامساً: ألفونسو يحاصر طليطلة

٤٥٥.....	садساً: وسقطت طليطلة
٤٦٠.....	سابعاً: استدعاء المرابطين
٤٦٣.....	الباب السابع: عصر المرابطين
٤٦٦.....	الفصل الأول: نظرة على تاريخ المغرب
٤٦٦.....	قبيلة جُدَّالة وأصل المرابطين
٤٦٧.....	يجيبي بن إبراهيم يحمل هم المسلمين
٤٦٩.....	الفصل الثاني: عبد الله بن ياسين وتأسيس دعوة المرابطين
٤٦٩.....	ثُرى مَنْ هو هذا الشِّيخ؟!
٤٦٩.....	عبد الله بن ياسين ومهمة الأئياء
٤٧٠.....	عبد الله بن ياسين ونواة دولة المرابطين
٤٧١.....	بداية المرابطين، وتربيَّة على منهج الرسول الكريم ﷺ
٤٧٣.....	معنى المرابطين
٤٧٦.....	يجيبي بن عمر اللموني والمرابطون
٤٧٨.....	الفصل الثالث: يوسف بن تاشفين وتأسيس دولة المرابطين
٤٧٨.....	أبو بكر بن عمر اللموني (٤٨٠هـ=١٠٨٧م) وزعامة دولة المرابطين
٤٧٩.....	يوسف بن تاشفين (٤٠٠-٤٥٠هـ=١٠٠٩-١١٠٦م) ومهام صعبة
٤٨٠.....	أولاً: قبيلة غمارة
٤٨١.....	قبيلة برغواطة
٤٨٢.....	قبيلة زناتة
٤٨٢.....	يوسف بن تاشفين وصناعة الدولة
٤٨٤.....	أبو بكر بن عمر اللموني رجل الجهاد والدعوة
٤٨٥.....	دولة المرابطين ويوسف بن تاشفين أمير المسلمين وناصر الدين
٤٨٦.....	الفصل الرابع: الأندلس تستعين بالمرابطين
٤٩٠.....	يوسف بن تاشفين وقدوة كانت قد افتقدت وغيَّبت
٤٩٢.....	الفصل الخامس: معركة الزَّلَاقَة

٤٩٢.....	الرسائل وال الحرب الإعلامية ..
٤٩٥.....	تجهيز الجيش ورؤيا ابن رميّة ..
٤٩٧.....	مخابرات ابن عباد تراقب الموقع ..
٤٩٨.....	الجيش الإسلامي وخطبة الإعداد والهجوم ..
٥٠٠.....	الزَّلَاقَةُ و معركة الوجود الإسلامي في الأندلس ..
٥٠٥.....	ابن تاشفين يروي أحداث الزَّلَاقَة ..
٥٠٩.....	لا تُريد منكم جزاءً ولا شكوراً ..
٥١١.....	المعتمد على الله بن عباد وشرف الجهاد ..
٥١٢.....	الفصل الثامن : سقوط ممالك الطوائف ..
٥١٥.....	يوسف بن تاشفين ودولة واحدة على المغرب والأندلس ..
٥١٧.....	الفصل التاسع : الجهاد السياسي والعسكري للمرابطين ..
٥١٧.....	المرابطون ومواصلة الانتصارات ..
٥١٩.....	مصير ألفونسو السادس ..
٥١٩.....	ومن أشهر العلماء في عهد علي بن يوسف ..
٥١٩.....	القاضي أبو بكر ابن العربي (٤٦٨-٥٤٣هـ=١٠٧٦-١١٤٨م) ..
٥٢٠.....	عياض بن موسى بن عياض القاضي (٤٧٦-٥٤٤هـ=١٠٨٣-١١٤٩م) ..
٥٢٣.....	الفصل العادي عشر : المرابطون .. الضعف ثم الانهيار ..
٥٢٣.....	المرابطون المهزيمة والانحدار .. وقفية متألقة ..
٥٢٤.....	شواهد الانكسار وعوامل السقوط في دولة المرابطين ..
٥٢٤.....	أولاً: فتنة الدنيا وإن ظلَّ أمر الجهاد قائماً ..
٥٢٥.....	ثانياً: كثرة الذنوب رغم وجود العلماء: ..
٥٢٧.....	النتائج التي ترتَّبت على تعمق العلماء في الفروع دون الأصول ..
٥٢٧.....	أولاً: جدال عظيم عقيم بين العلماء وال العامة ..
٥٢٨.....	ثانياً: عزلة العلماء عن مجتمعاتهم ..
٥٢٨.....	ثالثاً: أزمة اقتصادية حادة ..

الباب الثامن: عصر الموحدين	٥٣١
الفصل الأول: محمد بن تومرت وتأسيس دعوة الموحدين	٥٣٢
المؤسس محمد بن تومرت (٤٧٣-١٠٨٠ هـ = ١١٣٠ م) وبداية الثورة على المرابطين ...	٥٣٣
محمد بن تومرت ونهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٥٣٥
محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي ولقاء الأفكار الثورية	٥٣٧
محمد بن تومرت وفكرته في التغيير	٥٣٨
بين علي بن يوسف بن تاشفين ومحمد بن تومرت	٥٤٠
محمد بن تومرت وجماعة الموحدين	٥٤١
وقفة مع محمد بن تومرت وجماعته الموحدة	٥٥٠
الفصل الثاني: عبد المؤمن بن علي وتأسيس دولة الموحدين	٥٥٢
المرابطون والموحدون وقتل الأعداء	٥٥٢
وقفة مع تاريخ محمد بن تومرت	٥٥٤
موقعة البحيرة أو البستان	٥٥٥
وصية ابن تومرت والبيعة لعبد المؤمن	٥٥٧
أول خلفاء دولة الموحدين	٥٥٨
مشاهد من حياة عبد المؤمن بن علي	٥٦١
الصراع المريض والسقوط المدوي	٥٦٢
تداعيات سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين	٥٦٧
الفصل الثالث: عصر القوة في دولة الموحدين	٥٦٩
أعمال عبد المؤمن بن علي في المغرب	٥٦٩
عبد المؤمن بن علي في الأندلس	٥٧١
يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٣٢-١١٣٨ هـ = ١١٨٤-١١٨٠ م) وحكم الموحدين	٥٧٢
من أشهر علماء الأندلس في عهده	٥٧٤
ابن العوّام الإشبيلي (ت ١١٨٥ هـ = ٥٨٠ م)	٥٧٤
ابن طفيل (٤٩٤-٤٩١ هـ = ١١٨٥-١١٠٠ م)	٥٧٦

أبو يوسف يعقوب المنصور المودي (٥٥٤-٥٩٥هـ = ١١٩٩-١١٦٠م) والعصر	
الذهبي لدولة الموحدين ٥٧٧	
أولاً: المنصور المودي الرجل الإنسان ٥٧٨	
المنصور المودي يتبرأ من أباطيل ابن تومرت ٥٨١	
المنصور المودي وبلاد الأندلس ٥٨٣	
مواجهة بنى غانية ٥٨٣	
سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب ٥٨٤	
الفصل الرابع: معركة الأرك الخالدة ٥٨٦	
موقعه الأرك الخالدة ٥٨٨	
البدايات وأمور جديدة على الموحدين ٥٩٠	
الاستعداد وضع الخطط ٥٩١	
اللقاء المرتقب ٥٩٢	
نتائج انتصار الأرك ٥٩٥	
أولاً: الهزيمة الساحقة لقوات النصارى ٥٩٦	
ثانياً: النصر المادي ٥٩٦	
ثالثاً: النصر المعنوي ٥٩٧	
رابعاً: صراعات شتى بين مالك النصارى ٥٩٧	
خامسًا: معايدة جديدة بين قشتالة والمسلمين ٥٩٧	
أشهر العلماء في عهد يعقوب المنصور ٥٩٨	
ابن رشد الحفيد (٥٢٠-٥٩٥هـ = ١١٩٨-١١٢٦م) ٥٩٨	
محمد بن سعيد بن زرقون (٥٠٢-٥٨٦هـ = ١١٠٩-١١٩٠م) ٦٠١	
الإمام الشاطبي (٥٣٨-٥٩٠هـ = ١١٤٤-١١٩٤م) ٦٠١	
الفصل الخامس: معركة العقاب .. والهزيمة المبررة ٦٠٦	
الناصر لدين الله وعقبات في الطريق ٦٠٦	
ألفونسو الثامن واستغلال الوضع الراهن ٦٠٧	

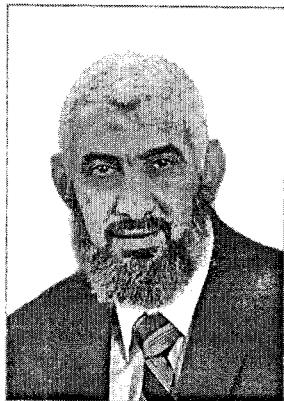
دولـة المـوـحدـين وعيـوب خـطـيرـة في مـواـجـهـة النـصـارـى	٦٠٨
الـنـصـارـى وـالتـعـبـيـةـ الـعـامـة	٦٠٨
جيـشـ المـوـحدـينـ وـطـرـيقـهـ نـحوـ العـقـاب	٦٠٩
نـتـائـجـ الـاسـتـبـدـادـ وـمـلـامـحـ الـهزـيمـة	٦١٠
أـبـوـ الحـجـاجـ يـوسـفـ بـنـ قـادـسـ وـالـتـحـيزـ إـلـىـ فـئـةـ الـمؤـمنـين	٦١٠
بطـانـةـ السـوـءـ وـقـتـلـ أـبـيـ الحـجـاجـ يـوسـفـ بـنـ قـادـس	٦١٢
خـطـةـ النـاصـرـ لـدـيـنـ اللهـ وـمـتـابـعـةـ الـأـخـطـاء	٦١٣
الـعـقـابـ ..ـوـالـعـقـابـ المـرـءـ	٦١٥
الفـوـاجـعـ بـعـدـ العـقـاب	٦١٨
مـأسـاةـ بـيـاسـة	٦١٨
مـأسـاةـ أـبـذـة	٦١٨
أشـهـرـ الـعـلـمـاءـ فـيـ عـهـدـ النـاصـر	٦٢٠
ابـنـ جـبـيرـ (٥٤٠ـ هـ ١١٤٥ـ مـ)	٦٢٠
ابـنـ القرـطـبـيـ (٥٥٦ـ هـ ١١٦١ـ مـ)	٦٢٢
الفـصـلـ السـادـسـ: تـسـاقـطـ مـمـاـكـ الـأـنـدـلـسـ	٦٢٤
مـتـابـعـةـ الـمـأسـاةـ بـعـدـ مـوـقـعـةـ العـقـاب	٦٢٤
الـمـأسـاةـ الـكـبـرـىـ وـسـقـوـطـ قـرـطـبـةـ	٦٢٥
تـتـابـعـ الـمـآـسـىـ	٦٢٦
الفـصـلـ السـابـعـ: ضـعـفـ وـسـقـوـطـ دـولـةـ الـمـوـحدـينـ	٦٣٠
دولـةـ المـوـحدـينـ وـعـوـافـلـ السـقـوـطـ ..ـوـقـفـةـ تـحلـيلـيةـ	٦٣٠
الـبـابـ التـاسـعـ مـلـكـةـ غـرـناـطـةـ وـسـقـوـطـ الـأـنـدـلـسـ	٦٣٥
الفـصـلـ الـأـوـلـ: تـأـسـيسـ مـلـكـةـ غـرـناـطـةـ	٦٣٨
ابـنـ الـأـحـمـرـ وـمـلـكـ قـشـتـالـةـ وـمـعاـهـدـةـ الـخـزـيـ وـالـشـنـارـ ^٠	٦٣٨
الـتـدـنـىـ وـالـانـحـطـاطـ وـسـقـوـطـ إـشـبـيلـيـةـ	٦٤٠
غـرـناـطـةـ وـلـمـاـذـاـ يـعـاهـدـهاـ مـلـكـ قـشـتـالـةـ؟	٦٤٢

غروناطة وموعد مع الأجل المحتوم.....	٦٤٣
الفصل الثاني: بنو مرين يرثون دولة الموحدين في المغرب	٦٤٧
الفصل الثالث: يعقوب المنصور المريني وجهاده في الأندلس	٦٥١
يعقوب بن منصور المريني رجل الشدائد.....	٦٥١
بلاد الأندلس واستيراد النصر وقفنة عابرة.....	٦٥١
وفاة محمد الأول ولالية محمد الفقيه.....	٦٥٢
موقع الدونونية ونصر مؤزر.....	٦٥٣
محمد بن الأحمر الفقيه والخيانة العظمى	٦٥٦
تكرار الخيانة من ابن الأحمر الفقيه وسقوط طريف	٦٦٠
أبو عبد الله بن الحكيم وأمور يندى لها الجبين.....	٦٦١
الفصل الرابع: غروناطة تصارع السقوط	٦٦٤
وقفة مع غروناطة وعوامل ثباتها طيلة هذه الفترة °	٦٦٤
الفصل الخامس: اتحاد المالك النصرانية	٦٦٧
الفصل السادس: الصراع في غروناطة	٦٧١
غروناطة وصراع أسرى في ولاية الغالب بالله	٦٧٢
فرناندو الخامس واستغلال التزاع والفرقة	٦٧٦
ملك إسبانيا والتداعي على باقي القصعة	٦٧٨
الفصل السابع: حركة الجهاد قبيل سقوط غروناطة	٦٨٣
موسى بن أبي غسان وعملية استشهادية	٦٨٧
الفصل الثامن: سقوط غروناطة	٦٨٨
سقوط وضياع غروناطة.. العوامل والأسباب	٦٩٠
الفصل التاسع: مصير المسلمين بعد سقوط غروناطة	٦٩٤
الفصل العاشر: من علماء الحياة في غروناطة	٧٠٥
الشريف الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠ هـ = ١١٦٥-١١٠٠ م)	٧٠٥
لسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦ هـ = ١٣٧٤-١٣١٣ م)	٧٠٦

ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩ هـ = ١٣٧٧-١٣٠٤ م)	٧٠٨
ابن البناء المراكشي (٦٥٤-٧٢١ هـ = ١٣٢١-١٢٥٦ م)	٧١٠
الباب العاشر: تاريخ الأندلس وقفه معتبر	٧١٣
الفصل الأول: نظرة في قيام وسقوط الدول والحضارات	٧١٦
الفصل الثاني: حروب الأمس وحروب اليوم	٧٢٢
الفصل الثالث: أمل النصر لا تخبو جذوته أبداً	٧٢٦
الفصل الرابع: فلسطين اليوم أندلس البارحة	٧٢٨
فهرس الآيات	٧٤٩
فهرس الأحاديث	٧٥٠
فهرس الأعلام	٧٥١
فهرس الأماكن	٧٦٣
فهرس الغزوات والمعارك	٧٧٢
فهرس القبائل	٧٧٣
فهرس الخرائط	٧٧٦
فهرس الشعر	٧٧٧

* * *

الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني : ولد عام ١٩٦٤ بمصر، وتخرج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨ م، أتم حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١ م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢ م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨ م (في جراحة المسالك البولية والكللي).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.

- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.

- صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي)

. www.islamstory.com

- باحث ومحرر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.

- ينطلق مشروعه الفكري «معاً نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

• استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.

• بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.

• تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

- وعلى مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالم.

- صدر له حتى الآن ٣١ كتاباً في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

١. (من هو محمد ﷺ)؛ الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعوة التوحيد والشّريعة عام ٢٠١٠ م.

٢. (ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة مبارك للدراسات الإسلامية عام ٢٠٠٩.
٣. (الرحمة في حياة الرسول ﷺ): الحائز على جائزة المركز الأول في مسابقة البرنامج العالمي للتعریف بنبی الرحمة ﷺ عام ٢٠٠٧م.
٤. المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب
٥. قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب حفظها
٦. قصة التتار من البداية إلى عين جالوت
٧. قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي
٨. العلم وبناء الأمم - دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها
٩. روايّع الأوقاف في الحضارة الإسلامية
١٠. أخلاق الحروب في السنة النبوية
١١. قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
١٢. فلسطين.. واجبات الأمة
١٣. وشهد شاهد من أهلها
١٤. رحاء بينهم - قصة التكافل والإغاثة في الحضارة
١٥. بين التاريخ والواقع - أربعة أجزاء
١٦. رمضان ونصر الأمة
١٧. أمّة لن تموت
١٨. رسالة إلى شباب الأمة
١٩. كيف تحافظ على صلاة الفجر
٢٠. كيف تحفظ القرآن الكريم
٢١. القراءة منهج حياة
٢٢. المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية
٢٣. أخي الطبيب قاطع
٢٤. أنت وفلسطين
٢٥. فلسطين لن تضيع.. كيف؟
٢٦. لسنا في زمان أبرهة
٢٧. إلا تنصروه بذلك

٢٨. التعذيب في سجون الحرية
 ٢٩. رمضان وبناء الأمة
 ٣٠. الحج ليس للحجاج فقط
 ٣١. من يشتري الجنة
- يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: أقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، مباشرة، والسودان، وإذاعة أم القوين، وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.
- له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.

* * *

